مائتا عام على الحملة الفرنسية

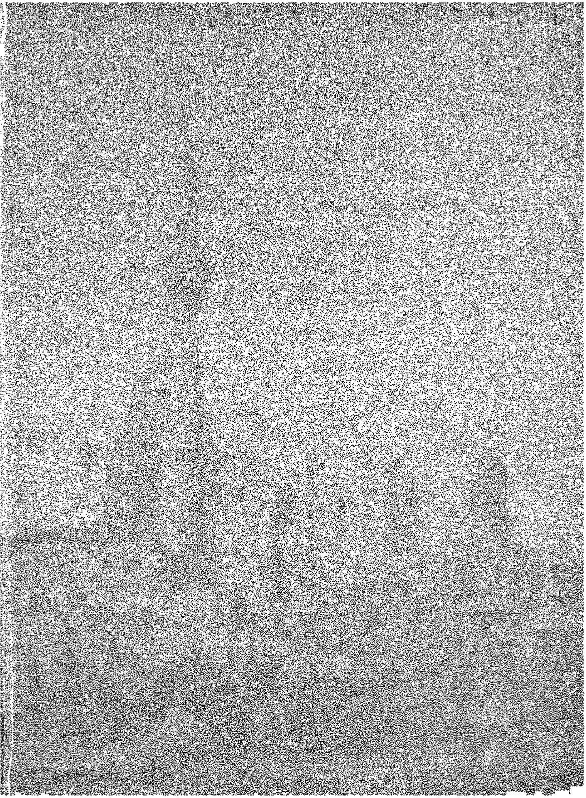
(رؤية مصرية)

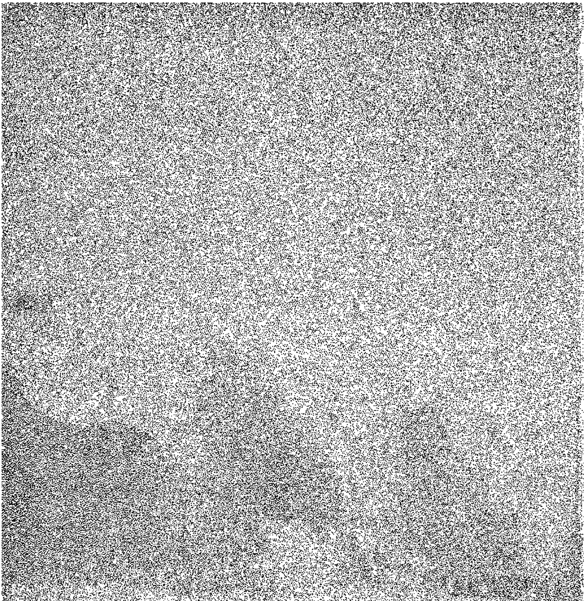
تحرير: د. ناصر أحمد إبراهيم

إشراف: أ.د. رءوف عباس



مكتبة الدار العربية للكتاب





مائتا عام على الحملة الفرنسية
(رؤية مصرية)

©
مكتبة الدار العربية للكتاب
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250
فاكس: 23909618 - ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 24705 / 2007
الترقيم الدولى : 9 - 592 - 293 - 977

الطبعة الأولى : ذو الحجة 1428 هـ - يناير 2008 م

مائتا عام على الحملة الفرنسية

(رؤية مصرية)

تحرير
د. ناصر أحمد إبراهيم

إشراف
أ.د. رءوف عباس

مكتبة الدار العربية للكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

المشاركون حسب الترتيب الأبجدى

د./ جيهان القاضى	مدرس اللغة الفرنسية ـ جامعة 6 أكتوبر.
د./ داليا على محمد	مدرس مساعد اللغة الفرنسية ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
أ.د/ رءوف عباس	أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
د./ رغدة أبو الفتوح	مدرس اللغة الفرنسية ـ كلية الآداب ـ جامعة المنوفية.
أ.د./ صادق محمد نعيمى	الأستاذ المساعد بقسم اللغة الفرنسية ـ كلية الآداب ـ جامعة المنوفية.
د./ صبرى العدل	دكتوراه فى التاريخ الحديث والباحث بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.
أ.د/ عاصم الدسوقى	أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر ـ كلية الآداب ـ جامعة حلوان.
أ.د/ عايدة حسنى	أستاذ اللغة الفرنسية ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
أ.د/ على كورخان	الأستاذ المساعد بقسم اللغة الفرنسية ـ كلية الآداب ـ جامعة حلوان.
أ.د/ فريدة جاد الحق	الأستاذ المساعد بقسم اللغة الفرنسية ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.

أ.د/ ليلى عنان	أستاذ الحضارة واللغة الفرنسية ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
أ.د/ مجدى عبد الحافظ	أستاذ الفلسفة المعاصرة ـ كلية الآداب ـ جامعة حلوان.
أ./ محمد إسماعيل زاهر	الباحث بمركز البحوث العربية والإفريقية.
أ.د/ محمد صبرى الدالى	الأستاذ المساعد للتاريخ الحديث والمعاصر ـ كلية الآداب ـ جامعة حلوان.
أ.د/ مديحة دوس	الأستاذ بقسم اللغة الفرنسية ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
د. منال خضر	مدرس اللغة الفرنسية ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
أ.د/ مها جاد الحق	الأستاذ المساعد بقسم اللغة الفرنسية ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
د./ ناصر أحمد إبراهيم	مدرس التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة.
د./ نبيل السيد الطوخى	مدرس التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب ـ جامعة المنيا.
أ./ هناء فريد	أستاذ اللغويات بالمركز الثقافى الفرنسى ـ القاهرة.

* * *

المحتويات

* * *

تصدير

الحملة الفرنسية على مصر 1798-1801 كانت مثار اهتمام الباحثين فى التاريخ والحضارة على السواء. وعندما احتفلت فرنسا بمضى قرنين من الزمان على الحملة الفرنسية عام 1998 ركزت معظم كتابات الفرنسيين على الحملة باعتبارها "رسالة حضارية" قامت من خلالها فرنسا بنقل قبس من نور "الحضارة الغربية" إلى الشرق الإسلامى "المتخلف"، فلعبت الحملة - بذلك- دور القابلة التى ولد على يديها العصر الحديث فى الشرق العربى. كما تضمنت الاحتفالية الفرنسية إلقاء الضوء على دور بونابرت فى الحملة واهتمامه "العبقرى" بمصر - على وجه الخصوص - باعتبارها "أهم بلاد الدنيا" التى يجب على فرنسا اتخاذها حجر الزاوية فى مشروعها الإمبراطورى.

ولم تدع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية تلك المناسبة تمر دون أن تخصص لها مؤتمرها السنوى للعام 1998، ولكن من منطلق إعادة تقييم الحدث، ووضع ما ترتب عليه من آثار سياسية وثقافية على مصر والمشرق العربى فى حجمها الحقيقى. وعلى مدى ثلاثة أيام ألقيت بحوث مختلفة أبرزت الصفة الاستعمارية للحملة الفرنسية ووضعتها فى إطار المشروع الاستعمارى الأوربى، وبينت ما لقيته الحملة من مقاومة ضارية فى مختلف أنحاء مصر، فلم تتركز المقاومة فى الإسكندرية والقاهرة فحسب، بل شملت ريف الدلتا والصعيد، كما أن الوجود الفرنسى فى مصر لم يكن هينا لينا، بل واجه جنود الحملة مختلف الأمراض التى حصدت أرواح بعضهم، كما أفقدت الإصابة بالرمد الصديدى العديد منهم نعمة البصر.

وتناولت بحوث مؤتمر الجمعية ما سمى بالدور "الحضارى" للحملة، فقيّمت الوزن الحقيقى للأفكار التى وردت ببيان نابليون الشهير الذى بالغ البعض فى تقدير آثاره على فكر المصريين، كما قيّمت دور النظم الإدارية التى أدخلتها الحملة مثل الدواوين، فى إطار حرص المستعمر الأجنبى على استئناس النخبة الاجتماعية لدعم سياسته، فى محاولة لاتخاذهم أدوات لتمرير تلك السياسة.

ولم تغب عن بحوث الندوة إبراز الدلالة السياسية للحملة من حيث لفت أنظار المصريين والعرب إلى عجز السلطة العثمانية عن حماية التراب الوطنى من العدوان الأجنبى، وإحساس المصريين (وخاصة قيادتهم الشعبية) بضرورة وضع أسس الحكم على قواعد جديدة تسمح لهم بقدر من المشاركة فيه. يدخل فى هذا السياق المقاومة الشعبية لطغيان الجند العثمانيين والمماليك بعد خروج الحملة، والدور الذى لعبته القيادة الشعبية فى اختيار الوالى الذى يحكمهم (محمد على) وفق شروط محددة. وقدرت مدى تأثر محمد على بالنظام العسكرى الحديث الذى لمسه من الاحتكاك بالفرنسيين قبل خروجهم من مصر، والأسباب التى دفعته إلى الاستعانة بالفرنسيين فى مشروعه السياسى.

ولأسباب تتصل بظروف الجمعية، لم يتم جمع البحوث التى ألقيت فى ذلك المؤتمر ونشرها فى كتاب يسجل رؤية المصريين للحملة الفرنسية، ولكن هذه القضية ظلت الشغل الشاغل للجمعية حرصا منها على أن تقدم للمكتبة العربية كتابا يعبر عن الرؤية المصرية للحدث الجلل وتبعاته على تطور مصر السياسى والثقافى.

ولم تكن تعنينا رؤية شيوخ المؤرخين وحدهم بل حرصنا على أن نعطى المساحة الأكبر لشباب الباحثين، حتى يتحقق التواصل الفكرى بين الأجيال، ويتاح للشباب التعبير عن رؤيتهم الخاصة لهذا الحدث.

وإذا كان الفضل لابد أن ينسب لأهله، فقد كانت فكرة إعداد هذا الكتاب من إبداعات الصديق د. ناصر أحمد إبراهيم الذى قام على مدى العامين المنصرمين بتجميع مختلف الرؤى التى كانت فى معظمها ثمرة أطروحات علمية للماجستير

والدكتوراه، لا فى التاريخ فحسب، بل وفى الحضارة أيضا، فضم الكتاب بحوثا للمتخصصين فى التاريخ والحضارة الفرنسية من المصريين حتى خرج على هذا النحو ليسد فراغا فى المكتبة العربية.

ويسعدنى أن أتوجه بالشكر - بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن مجلس إدارة الجمعية - إلى الدكتور ناصر أحمد إبراهيم على ما بذله من جهد متميز فى تحرير هذا الكتاب، كما أشكر الزملاء الكرام الذين حرصوا على المشاركة فى هذا العمل المهم.

والله والوطن العزيز من وراء القصد.

رءوف عباس حامد

رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

المقدمـــة

وقعت مصر بين عامى 1798 و 1801 تحت الاحتلال الفرنسى، وبالرغم من قصر الفترة الزمنية إلا أن الحدث اكتسب أهمية كبيرة فاقت غيره من الأحداث التاريخية التى استغرق بعضها فترات زمنية طويلة. ذلك أن الحدث التاريخى لا تكمن أهميته فى الفترة الزمنية التى يستغرقها وإنما فيما يُحدثه من تغييرات هيكلية أو تحولات اجتماعية وسياسية، تنقل المجتمع من حالة إلى أخرى أو تضعه فى مواجهة تحديات كبيرة، يتمخض عنها نتائج غير متوقعة، قد تتسبب فى تغيير مسار تطور المجتمع. والحملة الفرنسية على مصر تنتمى إلى هذا النوع من الأحداث، لا سيما وأنها وقعت فى فترة مفصلية سابقة مباشرة على تجربة التحديث الرائدة فى عصر محمد على الذى طاب للكثيرين الربط القسرى بين إنجازاته ومشروع الاحتلال الفرنسى قبل اختبار المادة المصدرية والأرشيفية الخاصة بهذا العصر.

وبرغم ما كُتب عن الحملة الفرنسية إلا أن الحدث فى حد ذاته ما زال يُثير إشكاليات كثيرة، متعددة ومتجددة، لم تستطع أن تحسمها الكتابات والدراسات الضخمة التى تم إنجازها على مدار القرنين السابقين اللذين يفصلانا عنه. وثمة سمة أخرى تُطَّبع تلك الغزوة الاستعمارية وهى أن الأفكار والنظريات التى أُنتِجَت فى تفسيرها تفوق، فى واقع الأمر، ما تم اختباره ودراسته على مستوى الوقائع التاريخية المُشَكِلة لمضمون الحدث ككل. وإذا كان ذلك يتسبب فى خلق صعوبات جَمّة لكل من يتصدى لدراسة فترة الحملة الفرنسية ويتحرى عدم الانسياق وراء تلك الأفكار والأطر النظرية إلا أنه يجب الاعتراف بأن الإنتاج الفكرى والنظرى

قد أثرى الكتابة التاريخية عن هذا الحدث. ومن هنا فإن المجال يظل باستمرار مفتوحاً للعديد من الدراسات، لا سيما وأن الأرشيفات الفرنسية تحظى بدرجة كبيرة من الثراء فى المعلومات والحقائق التاريخية التى ربما لم تتوافر، بهذا الزخم غير العادى، لغيره من الأحداث التاريخية المناظرة له، هذا فضلاً عن الببليوجرافيا المطولة التى ترصد أكثر من 363 شهادة تاريخية للمشاركين من الضباط والجنود وحتى المدنيين الذين شاركوا فى الأحداث أو أولئك الذين كانوا شهوداً عليها. إن فحص هذه الأصول الوثائقية والمصادر المتعددة باستخدام أدوات منهجية ومعرفية جديدة، وطرح أسئلة من نوعٍ غير مطروقٍ من قبل، وإعادة تقييم التجربة ككل دون القفز إلى الاستنتاجات – إنما يسمح باستكشاف زوايا جديدة فى الصورة التى تم تكوينها عن الحملة الفرنسية حتى لو أدى ذلك إلى نقد العديد من النتائج الراهنة التى تحظى منذ فترة بعيدة بالأهمية والاعتراف.

ولما كان الإنتاج الضخم الذى قُدِمَ عن الاحتلال الفرنسى لمصر قد صاغ فى الأساس وجهة "نظر المُحْتَل" الذى بلور خطاباً أيديولوجيا من النوع التبريرى (الذى يُغلف الحقائق بالأفكار التى تخدم مصالح المستعمر بصرف النظر عن تناقضها مع الواقع التاريخى) فى الوقت الذى لم توازهِ إسهامات جادة من الجانب المصرى – فقد بدا الخطاب الفرنسى مهيمناً على تفسير تاريخ ومغزى هذا الحدث، بشكل أدى فى النهاية إلى اضطراب الصورة المنتجة عن تلك الغزوة الاستعمارية ؛ ومن ثم ظلت الرؤية تتنازعها اتجاهات متناقضة فى التفسير. إن هذه الهيمنة على الخطاب التاريخى تفرض اليوم ضرورة إعادة النظر فى دراسة الموضوع برمته، وتقييم محصلة تلك التجربة من كل زواياها، بصرف النظر عما هو إيجابى فيها أو سلبى، دون أن نغفل ظروف العصر الذى شهد ذلك الغزو.

والحقيقة التى يجب الاعتراف بها أن الجانب المصرى- بصفة عامة – وبرغم إدراكه لأهمية الحدث وما يُثيره من مشكلات معقدة فى فهم تلك الحقبة الهامة من تاريخه – لم يُبد اهتماماً بدراسته اعتماداً على الأصول الأرشيفية المتوفرة فى مصر

وفرنسا، فضلاً عن المصادر التاريخية التى حظى الكثير منها بالنشر منذ القرن التاسع عشر! ؛ إذ اكتفى معظم المؤرخين المصريين فى القرن الماضى بالاعتماد على المصادر المحلية المحدودة، والاجترار فى الوقت نفسه من كل ما أنتجته المدرسة الفرنسية من أفكار وتحليلات، ولا سيما مع توافق التوجهات السياسية المصرية فى فترة من الفترات مع ذلك الطرح، الأمر الذى جعل المتلقى المصرى أمام رؤية غير واضحة فى النهاية : فبينما تُقَدم الحملة على أنها "غزوة استعمارية" غاشمة، استبدت بالمصريين وأضرت بمصالحهم، وأجهضت مشروعاً تحديثياً محلياً كان فى طور التكوين، إلا أنها فى الوقت نفسه ينظر إليها على أنها "حملة علمية / ثقافية " كان لها تأثير كبير فى إدخال التنوير فى مصر، إذ وضعت المجتمع المصرى على أعتاب الحداثة الأوربية، وكسرت حاجز العزلة، وجعلت مصر على اتصال دائم بالحضارة الفرنسية والأوربية عمومًا. إن اشتمال الخطاب على هذه "الثنائية المتناقضة" قد سببت نوعاً من اللبس والغموض اللذين جعلا الرؤية ضبابية، لا نكاد ندرك من خلالها حقيقة ما حدث فى تلك السنوات الثلاث الحافلة بالكثير من المتغيرات.

ومن هنا بات من الضرورى إعادة قراءة الحدث بعيداً عن النزعة القومية فى الكتابة التاريخية التى تُؤْثِر تقديم الأفكار على الوقائع أو تُقلص مجال الرؤية عن متابعة التطورات الحقيقية التى صاحبت ذلك الحدث. وهنا تحديدًا يكمن أحد الأسباب التى فرضت نفسها فى عمل هذا الكتاب فى محاولة لتقديم قراءة أكثر موضوعية، تعيد تقييم حدث الاحتلال الفرنسى لمصر على ضوء الظروف التى أحاطت به، كما تكشفها الوثائق الفرنسية والمصرية، قراءة متحررة من أسر المقولات التقليدية والتوجهات السياسية والرهانات الأيديولوجية التى ما تزال تهيمن على وعينا التاريخى إزاء تلك الفترة.

وثمة سبب آخر وراء الاهتمام بإخراج كتاب مرجعى عن الحملة الفرنسية وهوالمتمثل فى وجود اهتمام أكاديمى ملحوظ بدأ مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية التى أخذت زمام المبادرة وعقدت ندوة كبيرة حول الحملة الفرنسية فى

العام 1998، ولسوء الحظ لم تنشر أوراق تلك الندوة، لكنها كانت موحية بأهمية فتح النقاش حول قراءة هذا الحدث، وفهم مغزاه فى سياق التاريخ المصرى العام. أيضا ظهر اهتمام كبير من قبل بعض الجامعات المصرية التى عنت بتوجيه طلبة الدراسات العليا إلى دراسة فترة الاحتلال الفرنسى لمصر، ليس من منظور تاريخى فحسب وإنما كذلك من منظور حضارى ولغوى وأدبى وسيكولوجى..إلخ، الأمر الذى عكس هاجساً من القلق فى الذهنية المصرية إزاء قراءة ما يمثله هذا الحدث عموماً وفهم مغزاه، وخاصة بعد الضجة الإعلامية التى أُثيرت حوله فى عام 1998 (المشروع الذى أُقترِحَ حينها لعمل احتفالية مصرية - فرنسية بمناسبة مرور مائتى سنة على ذلك الحدث) والتى أعادت إلى الأذهان أهمية الجدل الدائر حول تفسير هذا الحدث؛ وفى هذا الإطار شهدت السنوات الأخيرة تقديم عدد مهم من الأطروحات العلمية فى أقسام التاريخ واللغة الفرنسية والحضارة، وهى الأطروحات التى طرقت موضوعات جديدة، وعالجت إشكالات لم تطرح من قبل، واعتمدت بشكل أساسى على الأصول الأرشيفية، مما جعلنا فى النهاية أمام منتجٍ جديد يعيد اكتشاف ملامح جديدة لصورة الحدث. وهنا تولدت لدى صاحب هذا القلم فكرة عمل كتاب يجمع أهم ما طرحته تلك الكتابات من أفكار ونتائج بأقلام أصحابها، لعل هذا يمكننا من بلورة رؤية مصرية جديدة تعكس ما يشغل المصريين قِبَل ذلك الحدث بعد مرور قرنين كاملين على حدوثه.

بيد أن المقصود بـ "الرؤية المصرية" ليس كما قد يتبادر إلى الأذهان "رؤية ذاتية" تحاول بالضرورة تقديم طرح يناقض الطرح الفرنسى المناظر لها، فذلك بعيد كل البعد عن المعنى المقصود فى عنوان هذا الكتاب: فالأوراق تحاول تقديم طرح علمى دون الاستناد إلى قاعدة أيديولوجية، والأفكار المتضمنة فى الكتاب لا تمت بصلة لأى نزعة قومية أو ذاتية ؛ تشهد بذلك الإشكاليات المتباينة والمناهج المختلفة وأحياناً الآراء المتناقضة المتضمنة فى بحوث هذا الكتاب. والأمر فى الحقيقة لا يتجاوز وقفة من جانب المتخصصين المصريين عند قراءة هذا الحدث، ورغبة صادقة

من جانبهم فى بذل محاولة لفهم كنهه وملابساته ومراجعة كل ما انطوى عليه من آراء وتفسيرات (مغلوطة) اكتسبت بمرور الوقت – لا سيما مع كثرة ترديدها – طابع المصداقية حتى أصبحت تُقرَن بذكر الأحداث نفسها وكأنها تشكل جزءاً من نسيجها !. أيضاً الرؤية هنا تتضمن تحديد الموقف من المناهج التى طُبِّقَت مراراً فى الماضى ؛ وذلك من خلال مناقشة اتجاهات الكتابة عن الاحتلال الفرنسى، وتحليل الأسس المنهجية التى استندت إليها تلك الاتجاهات، ومدى مواءمة تلك المناهج والأدوات المعرفية لدراسة الإشكاليات التى يُثيرها هذا الموضوع شديد الثراء، وما تمخض عن استخدام تلك المناهج والأدوات من نتائج متعارضة أحياناً ومتفقة أحياناً أخرى.

لقد كُتِبَ الكثير والكثير من الدراسات عن الاحتلال الفرنسى لمصر، وهذا الكتاب تحديداً لا يأتى فحسب لتقديم نظرة تحليلية على الحدث بعد مرور مائتى عام من منظور أكاديمى مصرى، وإنما كذلك لمراجعة ما كُتب عنه، بما فى ذلك تقديم قراءات نقدية للأعمال الصادرة عن الندوات والمؤتمرات الدولية التى عُقدت فى الآونة الأخيرة؛ حتى يلم القارئ بالأفكار والنظريات الجديدة حول تفسير تلك الحقبة الحبلى بالمتغيرات وموقع الحملة الفرنسية فيها. وسوف يلحظ القارئ أن هذه المسألة احتلت أهمية خاصة ؛ حيث أُفرِدَ لها محوران كبيران: الأول "اتجاهات فى التفسير"، والثانى " الاحتلال الفرنسى فى المنظور المصرى المعاصر". والكتاب معنىٌّ أيضاً بلفت الانتباه إلى الجوانب الغامضة والمجهولة التى ما تزال فى حاجة ماسة إلى من يفحصها ويدرسها بعناية.

ونحن نعتقد بأن الرؤية المصرية المقدمة فى هذا الكتاب ثرية ومتميزة بدرجة ملحوظة عما سبقها من أعمال منشورة ؛ ليس من جراء اعتمادها فحسب على أصول الوثائق والمصادر المعاصرة التى لم يُتح للرعيل الأول من المؤرخين المصريين الرواد فرصة الاطلاع عليها أو فحصها ؛ وإنما كذلك لأن المجموعة المشاركة تنوعت مشاربها وتخصصاتها البينية بشكل جعل حدث الاحتلال الفرنسى يُدرس من زوايا

عديدة تاريخية ولغوية وفنية وأدبية ونفسية. كذلك انعكس تعدد التخصصات بوضوح فى تنوع الأدوات المعرفية والتحليلية المستخدمة ؛ ولذا نجد فى هذا العمل استخداماً لمصادر جديدة ولموضوعات غير معروفة بشكلٍ كافٍ، وهو أمر يسهل على القارئ ملاحظته؛ حيث تنوعت المحاور والإشكالات القوية التى يُطرح بعضها هنا لأول مرة، كما تميزت المعالجات بالقدرة على نقد المعطيات الراهنة ومناقشة الأفكار والنظريات التقليدية فى التفسير مناقشة اتسمت فى معظمها بالموضوعية. وثمة ميزة أخرى للكتاب تتمثل فى أنه يجمع بين خبرة الأساتذة المصريين الكبار الذين كان لهم الفضل فى توجيه الاهتمام نحو إعادة دراسة هذا الموضوع، وبين الجيل الجديد من الباحثين الشبان الذين تسلحوا بأحدث المناهج والنظريات والأدوات الجديدة فى التحليل، وهو فضل يجب أن يُنسب إلى الجمعية المصرية للدراسات التاريخية التى قدمت رعايتها العلمية لهذا الجيل وأسهمت فى تكوينه من خلال الحلقات الشهرية للسمنار العثمانى الذى ترعاه تلك المؤسسة منذ أكثر من عقد مضى.

ويشتمل الكتاب على محورين كبيرين : الأول يدور حول الاحتلال الفرنسى كحدث تاريخى، والثانى يقدم النظرة التاريخية على الحدث ؛ ومن ثمّ فالمعالجة تأخذ مستويين من النقد والمراجعة، مستوى يناقش الكيفية التى تطورت بها الوقائع خلف هذا الحدث والمستوى الآخر يتوقف عند المناهج التى عالجت الموضوع وتطورها على مدار القرن الماضى.

ولا نريد أن نسبق القارئ إلى مطالعة الكتاب والإشارة إلى أهميته، ولكننا نلفت الانتباه إلى سمة أساسية ميزت المحاور التى انطوى عليها هذا المؤلف والمتمثلة فى طابع الشمول والتكامل والانسجام بين الموضوعات المعالجة فيه ؛ حيث تم التنسيق بين المحاور التى غطت بالفعل جوانب عديدة من تاريخ الاحتلال الفرنسى : الرفض والاحتجاج والمقاومة وتنوع أساليبها وأشكالها ما بين مقاومة مباشرة انتشرت فى كل مكان، ومقاومة غير مباشرة (تحت السطح) ظلت تتحدى

الاحتلال وتطوق عليه الحصار الاقتصادى الداخلى بأساليب خفية أعجزته عن تدبير احتياجاته الأولية وجعلت استمرارية بقائه مستحيلة. ومن المقاومة إلى الدعاية لكل ما هو أيديولوجى أثناء الاحتلال وما بعد جلاء الاحتلال، وفن صناعة الأسطورة وعبقرية الدعاية السياسية ومخاطرها فى تزييف الواقع وتشويه الحقائق التاريخية. والعروج إلى إشكالية الترجمة وحاجز اللغة والصعوبات فى تحقيق التواصل والتفاعل بين جيش الاحتلال والمجتمع المحتل، وأسطورة المشروع الثقافى أو التنويرى ونقل العلوم أو ما يُعرف فى مجمله بـ "المهمة الحضارية" التى كانت رائجة فى القرن التاسع عشر فى عصر الإمبراطوريات الاستعمارية وباتت الآن مرفوضة برمتها حتى من قبل عددٍ من المؤرخين الجدد فى فرنسا نفسها. أيضاً تعرضت المحاور لإشكالية تدريس فترة الاحتلال الفرنسى فى المناهج المصرية والفرنسية، وتعارض الأهداف العلمية والتربوية بين الخطابين، هذا فضلاً عن نقد المصادر المعاصرة ولا سيما كتاب "وصف مصر" والمشكلات المنهجية المرتبطة بطريقة تأليفه ونشره، وما انطوى عليه من نظرة عنصرية للآخر(المعنىّ به المجتمع المصرى)، وأن الكتاب الذى مثّل – من وجهة نظر المحتل – أساس فكرة المشروع الثقافى لا يعبر فى النهاية عن هدف علمى، وإنما كان أداة دعائية تحقق هدفا سياسيا. كذلك قُدِمَت بعض الأوراق النقدية حول يوميات الفنان "فيفان دينون" الذى رافق حملات الجنرال ديزيه فى الصعيد فى العام الأول من الاحتلال (1798 –1799)، وما تثيره تلك اليوميات من تناقضات بين الرغبة فى إظهار أهمية المهمة التى كان ينجزها الجيش الفرنسى على أرض الفراعنة وبين ما ندّى به قلمه من تسجيلٍ وصفى لوقائع النهب والتدمير التى أنزلها الجيش بالقرى والمذابح التى راح ضحيتها الآلاف من الفلاحين، بصورة تجعلنا أمام ما يمكن اعتباره نوعاً من النقد الذاتى والذى يقربنا من بعض ملامح الصورة التى كوَّنها الفرنسيون عن أنفسهم زمن الحملة. كما تم نقد تلك المصادر على مستوى الصور والرسومات وذلك من خلال تطبيق "المنهج السيميوطيقى" فى تحليل الصور والرسومات المتضمنة كتاب "وصف مصر" ورسومات "فيفان دينرن". وخُصِصَ المحور الأخير لدراسة

صدمة الاحتلال وأبعادها التاريخية والمادية والنفسية وعلاقة الحدث برمته بمشروع الحداثة والنهضة التى اضطلع بها محمد على...إلخ مما يجعل القارئ فى النهاية أمام لوحة كبيرة، تفاصيلها الزاخمة شديدة الوضوح، ومغزاها المتعدد الأبعاد جلىٌّ للعيان؛ بفضل الروح النقدية التى ميزت معظم الأوراق، وبفضل طبيعة الطرح المنهجى المتماسك للعديد من الموضوعات الجديدة التى تطرح فى هذا العمل لأول مرة.

ويمكن القول بأن معظم الإسهامات فى هذا الكتاب تشير إلى رفض قاطع لقبول تفسير الاحتلال الفرنسى لمصر على ضوء "نظرية الاستعمار الإيجابى" أو التعامل معها على أنها "مشروع تنويرى"، كما قدمت الأوراق شواهد وقرائن مهمة تنفى صحة مقولة " الفراغ الثقافى والعلمى" قبل مجىء الاحتلال الفرنسى، وأن قصر مدة الاحتلال مع انتشار الثورات وأنواع المقاومة المختلفة التى عمّت وقائعها معظم مدن وقرى الدلتا والصعيد، والانشغال الدائم بمواجهتها، فضلاً عن حاجز اللغة وتباين ثقافة وسلوكيات الضباط والجنود المنافية للدين والعقيدة، وخصوصية العادات والتقاليد المحلية، إلى جانب حالة الاستعلاء التى ميزت بشكل عام نظرة الفرنسيين إلى المصريين – قد حالت جميعها دون وجود أرضية مشتركة للحوار وللتواصل بين الجانبين آنذاك سوى فى حدود ضيقة ؛ الأمر الذى يُثير الشكوك فى مدى اندماج المصريين وتفاعلهم مع ما قُدِمَ لهم زمن الاحتلال الفرنسى، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وإن كانت هذه النقطة الأخيرة (الاندماج والتفاعل بين الجيش والمجتمع) لم تعالج بصورة كافية، وتعد من الموضوعات الهامة التى ما تزال فى حاجة إلى أن يُفرد لها مجموعة من الدراسات والأبحاث.

وأوضحت الإسهامات كذلك رفض هيمنة الخطاب الفرنسى (الانتقائى) الذى ساد نمط الكتابة عن الحملة لعقود طويلة، وأن تجربة الإصلاح والتحديث فى النصف الأول من القرن التاسع عشر لا يمكن اختزالها أو اعتبارها مجرد أثر ناجم عن هذا "المؤثر الخارجى" المتمثل فى تلك الغزوة العسكرية. بيد أن الأوراق تؤكد

من ناحية أخرى على أن الحدث لم يمرعلى المصريين مرورا عابرا دون أن يترك آثاراً معينة غير مباشرة جعلت المصريين يدركون حقيقة تخلفهم وضرورة سد الفجوة الفاصلة بينهم وبين الغرب. على أن بعض وجهات النظر فى هذا الكتاب تعارض هذه النتائج وتتمسك بأن الاحتلال الفرنسى كان "صدمة حضارية وثقافية" ظهرت انعكاساته بعد ذلك خلال تجربة التحديث فى القرن التاسع عشر. ولا ريب أن تعدد وجهات النظر وتقاطعها أو تناقضها عبر تلك الأوراق إنما يبرز سمة أساسية فى نظرة المصريين إلى الحدث، فالرؤية المصرية بعد مائتى عام التى يقدمها هذا الكتاب هى فى التحليل الأخير غير متسقة فى تقييم الحدث وتفسيره، وهذا ما يؤكد عدم وجود أيديولوجيا معينة وراء فكرة الكتاب أو عند من شاركوا بأبحاثهم فيه. وفى النهاية يجب التذكير بأن هذا العمل فى مجمله يُمثل محاولة جديدة لتقديم بعض الإجابات على عددٍ من الأسئلة التى عُنِى الباحثون بطرحها ؛ وهناك بالقطع العديد من التساؤلات الأخرى الخاصة بجوانب بعضها ما تزال معلوماتنا عنها مجهولة أو غير كافية ؛ الأمر الذى يجعل الباب مفتوحاً أمام المزيد من الدراسات فى المستقبل والتى نأمل أن يكون هذا الكتاب محفزاً لها.

والواقع أن هذا العمل ما كان ليتم على هذا النحو لولا التحمس غير العادى الذى أبداه جميع المشاركين عندما عُرضت عليهم الفكرة لأول مرة. وأنتهز الفرصة لأقدم لهم جميعاً خالص الشكر وعظيم الامتنان على تلبيتهم السريعة للمشاركة فى هذا العمل، كما أقدم لهم كل الاعتذار على ملاحقتى لهم فى تسلم الأوراق رغم انشغالاتهم العلمية التى كنت أعلمها. وما كان لهذا الكتاب أن يرى النور لولا الرعاية العلمية التى قدمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ورئيسها الأستاذ الكبير الدكتور رءوف عباس الذى أشرف على المشروع منذ بدايته، وقدم له الرعاية والمساندة العلمية الكاملة، ولكم أفادنى كثيراً بخبرته ونصائحه وتوجيهاته التى لا تقدر بثمن، كما نشكر باسمه الجمعية التاريخية التى كانت ورشة إنتاج هذا العمل تتم تحت مظلتها، كما أن جميع نفقات إعداد الكتاب للنشر قُدمت من ميزانيتها، وهو

ما يؤكد مدى أهمية الدور النشط الذى تلعبه هذه المؤسسة العريقة فى خدمة البحث العلمى. أيضاً أتوجه بخالص الشكر للأستاذة الجليلة الدكتورة ليلى عنان على تحمسها الكبير والذى انعكس فى مساهمتها العلمية بأكثر من ورقة بحثية، كما انعكس فى توجيهها لتلميذاتها العزيزات للمشاركة فى المشروع، وهن جميعا من المتخصصات فى دراسة الاحتلال الفرنسى، ويعدون بحق امتداداً قوياً لفكر هذه الأستاذة الرائدة فى هذا الحقل من الدراسات. وأسجل شكرى للأستاذ للدكتور صادق محمد نعيمى على جهوده المتميزة وعلى استجابته السريعة وبكل لطف لترجمة مقالتين (من الفرنسية إلى العربية) على درجة كبيرة من الأهمية، الأولى مقالة "محصلة متعارضة" التى حرصنا على إدراجها فى الكتاب ؛ لأهميتها فى تسجيل آراء المؤرخين المصريين فى تقييم حدث الاحتلال الفرنسى فى سياق التاريخ المصرى الحديث، والمقالة الثانية لـ "فيليب بوردان" التى تمثل عرضاً نقدياً لأكبر ندوة علمية عُقدت فى فرنسا فى العام 1998 والتى حملت عنوان: "الحملة على مصر – مشروع تنويرى"، وهى ذات الندوة التى قدمت الأستاذة الدكتورة ليلى عنان عرضاً نقدياً لها، ومن ثمّ أتاحت ترجمة تلك المقالة النقدية الفرصة فى تقديم قراءتين مصرية وفرنسية لعمل واحد، وما من شكٍ أن هذه المقابلة يمكن أن تعكس إلى أى حد يمكن أن تتلاقى أو تتقاطع وجهتا النظر المصرية والفرنسية حول هذا الحدث التاريخى. كذلك أتوجه بالشكر للأستاذ الدكتور عاصم الدسوقى على ما أبداه من اقتراحات ثمينة بشأن تنظيم المحاور والطريقة التى خرج عليها الكتاب فله كل الشكر والتقدير. والشكر موصول كذلك للأستاذة هناء فريد على ما قدمته من ملاحظات قيمة ولتفضلها بترجمة نص هذه المقدمة إلى الفرنسية والتى ألحقناها بنهاية الكتاب.

وعلى الله قصد السبيل،

د / ناصر أحمد إبراهيم

القاهرة فى 5 مايو 2006



المقاومة

وسائل المقاومة فى صعيد مصر ضد الحملة الفرنسية

د. نبيل السيد الطوخى

إن موضوع مقاومة صعيد مصر ضد الاحتلال الفرنسى قد تم معالجته من قبل فى أكثر من أطروحة [1]، لكن هذه المعالجات رغم أهميتها لم تتوقف عند تحديد أساليب المقاومة وآلياتها والكيفية التى تطورت بها على ضوء التحديات التى واجهتها، ومن هنا بدا من الأهمية دراسة وسائل المقاومة فى الصعيد ومدى فاعليتها، ودلالتها إذا ما قورنت بنظائرها فى المدن والأقاليم الأخرى، وتجدر الإشارة إلى صعوبة دراسة هذا الموضوع، إذ ليس لدينا - لسوء الحظ - مراقبون محليون أمثال الجبرتى (الذى تركزت يومياته على القاهرة) يرصدون وقائع ما جرى بالصعيد، وإنما كل الاعتماد على تقارير القادة الفرنسيين، ومن ثم فإن استخلاص الحقائق من هذه التقارير بعيداً عن المبالغات والأيدلوجيات ليس سهلاً، على أنه يجب التذكير بأن عدداً من هذه التقارير كان مهما، لأنه يقدم صورة واقعية أو ترتفع فيها درجة الموضوعية، خاصة تلك التى كان الضباط الصغار يرفعونها للقيادة الفرنسية المركزية بالقاهرة، حيث كان يتعين عليهم نقل صورة كاملة وحقيقية للمعارك ولعدد الضحايا من الجانبين.

ومن خلال المقارنة بين التقارير المختلفة عن حادثة واحدة نستطيع أن نتعرف على وجه الدقة مسار الأحداث، وثمة مسألة مهمة وهى أن طبيعة تلك التقارير التى كانت أشبه بتقارير إخبارية (صحفية) كانت تولى كل اهتمامها برصد حركة

الناس (المقاومين) وبوصف أدواتهم وطريقتهم فى القتال والحماس... مما يوفر لنا مادة خام (ثمينة) لتحليلها؛ لفهم آلية التعبير عن الموقف من المحتل، والوسائل المتعددة فى مواجهة المحتلين.

شكلت المقاومة المصرية للحملة الفرنسية عاملاً مهماً من عوامل فشل مشروع الاحتلال فى تحقيق أهدافه الاستراتيجية (2)، وعلى رأسها تأسيس مستعمرة فرنسية فى مصر تكون قاعدة لإمبراطورية فرنسية، على غرار الإمبراطورية البريطانية، وقد تعددت أشكال ومجالات مقاومة المصريين للحملة الفرنسية، ورفع المصريون منذ البداية لواء العصيان فى القاهرة وشتى ربوع الدلتا والصعيد وأخذت المقاومة فى الصعيد أشكالا ووسائل مختلفة، تختلف عن المقاومة فى الوجه البحرى، حيث كانت المقاومة فى الصعيد تمتاز بميزة التنظيم وكثرة التجمعات مما جعل الحرب هناك تتخذ شكل الحركات الحربية الحقيقية إذا ما قورنت بالمعارك التى دارت فى الوجه البحرى، والفرق بين الصعيد والوجه البحرى هو أنه كان يسهل إمداد القوات المحاربة فى الوجه البحرى لسهولة التنقل فيها، أما الصعيد فلم يكن الإمداد سهلاً وطول المسافات كان فى صالح المدافعين ومنهكا لقوى المهاجمين، ولاشك فى أن طبيعة البلاد فى الصعيد، وبعد المسافات، وصعوبة المواصلات، وأخلاق السكان، ووجود العصبيات فى هذه المنطقة، ونظرة الأهالى إلى معنى الحياة وقيمتها، قد ساعدت على ضراوة عمليات المقاومة فى الصعيد. كما كانت حماسة أبناء الصعيد، وعقليتهم، وروح فروسيتهم، عوامل تتجمع لكى تخلق منهم قوات مقاتلة شكلت خطراً على الفرنسيين، طيلة فترة الاحتلال، ولم يستسلم الأهالى يوماً ما للوجود الفرنسى فى الصعيد، ولكن ما هى وسائل أهل الصعيد فى مقاومة الفرنسيين؟.

لقد تعددت وسائل أهل الصعيد فى مقاومة الفرنسيين ما بين المقاومة الإيجابية المباشرة (المقاومة المسلحة) والمقاومة غير المباشرة وسوف نتناول كل منهما بالتحليل والدراسة لفهم مدى جدوى هذه المقاومة فى إفشال مشروع الاحتلال والتعجيل برحيله :

أولاً : المقاومة المباشرة الإيجابية :

بعد معركة إمبابة (21 يوليه 1798) وفرار مراد بك إلى الصعيد أرسل نابليون الجنرال ديزيه على رأس حملة إلى الصعيد لمطاردة مراد بك وأتباعه [3]، وفى يوم 25 أغسطس سنة 1798 بدأ الجنرال ديزيه فى السير جنوباً لمطاردة مراد بك والقضاء على قوته، وإخضاع الصعيد للسلطة الفرنسية، وكانت مهمة الجنرال ديزيه شاقة، حيث قام الصعيد بدور هام فى مقاومة الحملة الفرنسية وكانت روح المقاومة تسود سكان القرى والمدن، فلم يكن الأهالى يدعون فرصة تمر دون أن يثوروا فى وجه قوات الاحتلال،وكانوا من هذه الوجهة متصلين بالبقية الباقية من جيش المماليك تعاونهم طوائف العرب القادمين من القصير، فاجتمعت هذه القوى الثلاث واتحدت على مهاجمة الحاميات الفرنسية فى المدن وقطع مواصلات الجيش الفرنسى فى النيل بمهاجمة السفن التى تحمل الجنود والذخائر والأقوات، ولذلك تحرج مركز الجيش الفرنسى وتعددت المناوشات والمعارك والمفاجآت.

وكانت أولى المعارك الحربية بين المصريين والفرنسيين فى الصعيد هى معركة سدمنت (7 أكتوبر 1798) وكان الجيش المصرى فى هذه المعركة تحت زعامة مراد بك يتألف من أربعة آلاف من المماليك، وثمانية آلاف من العربان بينما كانت القوات الفرنسية تحت قيادة الجنرال ديزيه يتألف من ثلاثة آلاف رجل، وواضح أن عدد الجيش المصرى كان يفوق عدد الجيش الفرنسى بكثير، ولكنه كان فى الوقت نفسه يفتقد النظام والتنسيق بين قواته،كما كانت تنقصهم الأسلحة الحديثة المتطورة، بينما نجد الجيش الفرنسى بالرغم من قلة أعداده كان يتميز بالنظام والتنسيق بين قواته، ويملك أسلحة متطورة، وعلى رأسه قيادة حازمة وواعية تتمثل فى الجنرال ديزيه، ومع هذه الميزة الواضحة للفرنسيين فقد قتل منهم فى هذه المعركة – بتقدير المصادر الفرنسية نفسها – ثلاثمائة وأربعون وجرح مائة وخمسون[4]، بينما بلغت خسائر المصريين أربعمائة قتيل وجريح[5]. وانتهت هذه المعركة[6] بانتصار الفرنسيين على المصريين، ويرجع ذلك إلى تفوقهم الحربى الذى أتاحه لهم قوة مدفعيتهم وكثرة

ذخيرتهم، وبما امتازوا به من نظام حربى وقيادة تتمتع بالكفاءة الحربية، وبالرغم من ذلك كادت القوات الفرنسية أن تهزم أمام رغبة المماليك والمصريين الأكيدة فى الانتصار على الفرنسيين فى هذه الموقعة، وكان من الممكن أن يتحقق النصر لمراد بك بفضل ما كان لديه من مدفعية أحدثت خسائر فادحة فى صفوف الفرنسيين لولا هجوم الفرنسيين فى اللحظة الأخيرة والذى أدى إلى هزيمة المماليك وفرارهم[7] .

وتعتبر معركة سدمنت أكبر معركة دارت فى الصعيد بين القوات الفرنسية والقوات المصرية، وهى تعد من المعارك التى كان لها أثر كبير فى سير القتال وتطور الأحوال، وهى تلى واقعة إمبابة أو الأهرام، لأنها قضت على آمال مراد بك فى أن ينتصر فى معركة منظمة، كما أنها أعطت للفرنسيين حكم منطقة بنى سويف والفيوم، وهى منطقة غنية بمنتجاتها الزراعية التى كانت لازمة لتموين القاهرة[8].

ولقد ترتب على انتصار الفرنسيين فى هذه المعركة أن تحولت الحرب بين الفرنسيين والمماليك فى صعيد مصر من حرب منظمة إلى عمليات مناوشة مستمرة أخذت شكل حرب العصابات، وإن كانت حرب عصابات يقوم بها الفرسان، ولم يكن أمام المماليك إلا هذه الطريقة بعد أن فقدوا الأمل فى طرد الفرنسيين من الصعيد بواسطة قوة السلاح بعد أن انهارت جهودهم فى هذه المعركة تحت طلقات المدافع الفرنسية[9]. وهذا النوع من المعارك كان يمثل خطراً كبيراً على الفرنسيين، إذ إنه كان يعرضهم للخطر المستمر فى مواقع مختلفة، وفى أوقات مختلفة، ودون أن يتمكنوا من اتخاذ الاستعدادات اللازمة لمواجهته، ولا شك فى أن طبيعة الأرض فى الصعيد، ووجود المزروعات العالية فيه، وكذلك وجود كل من الجبل الغربى والجبل الشرقى سيسمح لقوات المماليك وقوات أبناء الصعيد بحركات التفاف سريعة، وبمهاجمة كتائب وفصائل الفرنسيين التى ستصبح مبعثرة فى الوادى، وتحاول تأمين المواقع المختلفة، وهذا النوع من المعارك سيفقد الفرنسيين معنى الراحة والطمأنينة وسيجبرهم على مداومة السير والانتقال وبشكل يرهق قواتهم دون أن يتمكنوا من الاشتباك مع خصم واضح، يلحقون به الهزيمة الساحقة[10].

وبالرغم من أن الجيش الفرنسى قد فتح فى طريقه ثلاث مديريات، وهى بنى سويف والمنيا والفيوم، فإن الحالة ظلت مضطربة فى تلك المديريات، وكادت سلطة الفرنسيين تكون مجهولة عند الأهالى، ولم يستطع الفرنسيون لاضطراب الأحوال أن يحصلوا من تلك المديريات على ما يلزمهم من الغلال والجياد. فقد حدث أن الجنرال ديزيه ترك بعض رجاله فى بنى سويف للقيام على شحن الغلال، وفى أثناء حملته النيلية إلى أسيوط هجم الثوار على بنى سويف وأسروا هؤلاء الرجال واستولوا على الغلال التى وجدوها، أما فى المنيا فكانت الحالة أكثر اضطرابا وأقل استقرارا، وكانت ثمة سفينة حربية تجوب هذه الجهات وتحمى القوة التى بالشاطئ من هجمات الأهالى، ونزلت بالمنيا فصيلة من الجنود ليتزودوا منها وأبوا أن يدفعوا ثمن ما اشتروه، فثار الفلاحون الذين كانوا بالسوق وقتلوا من الجنود خمسة وجرحوا منهم ثمانية، وكاد يستشرى الهياج لولا الحكمة من سكان البندر[11]. وبعد أن احتل الفرنسيون مدينة الفيوم هاجمهم فيها عدد هائل من المماليك والعرب والفلاحين، واقتحم الثائرون أسوار المدينة، وتغلبوا على حراسها، ثم اندفعوا كالسيل إلى مقر القيادة الفرنسية، فظلوا يهاجمونه نهارا كاملا ولكنهم لم يستطيعوا التغلب عليه، لمناعته ووفرة الذخيرة عند جنوده[12]، وانتهى اللقاء بهزيمة الثوار، وكانت هزيمة أبناء الصعيد مرتبطة بعدم خبرتهم بالحرب، ولأنهم كانوا يحملون أدوات بسيطة لم تستطع أن تصمد أمام نيران الفرنسيين، ومع ذلك بقيت مقاومة أهل الصعيد للفرنسيين قوية ولم تضعف ولم تنكسر.

وواجه الفرنسيون فى الصعيد فيما بين جرجا وأسيوط ثورة واسعة النطاق بعيدة المدى،فقد سرت روح الثورة فى أربعين بلداً، وبلغ عدد الثوار كما قدرتها المصادر الفرنسية ما بين ستة إلى سبعة آلاف من الأهالى[13]، ولكن الفرنسيين عاجلوها قبل أن تتحد عناصرها، واستطاعوا أن يخمدونها، وتصدوا لقواتها المبعثرة معتمدين على نظامهم الحربى ومدافعهم القوية وبنادقهم الحديثة، فكانت المعارك التى نشبت بينهم وبين الأهالى أشبه بمذابح فتكت فيها نيران المدافع والبنادق بعدد من الأهالى

محرومين من النظام غير مزودين إلا بأسلحة قديمة[14]، وفشلت ثورة الأهالى فى تحقيق غرضها. لكن من كان وراء تنظيم هذه الثورة ؟.

يعتقد البعض أن مراد بك أرسل احد أعوانه المشهورين بالنشاط والحذق واسمه عثمان بك، فمر بين أسيوط وجرجا وقطع الطريق بينهما، وهيج الأهالى وحملهم على محاربة الفرنسيين[15] وإذا كان هذا صحيحا فإننا لا نستطيع أن نغفل أن نفوس الأهالى كانت مهيأة للثورة ومستعدة لها؛ وذلك لرغبتهم فى تخليص البلاد من الفرنسيين.

وفى سوهاج (3 يناير 1799) احتشدت قوة من الثائرين قدرتهم المصادر الفرنسية بأربعة آلاف من الفلاحين مسلحين بالبنادق والحراب يشد أزرهم ثمانمائة من الفرسان[16] فقرر الجنرال ديزيه أن يقضى على هذه الثورة، وأمر ديزيه الجنرال دافو بالقضاء عليها، ونشب القتال بين الفريقين، ولكن الأهالى على كثرتهم لم يكونوا معتادين على خوض المعارك الحديثة، فأصلتهم فرقة الفرسان نارا حامية تراجعوا أمامها تاركين ثمانمائة من القتلى[17] ومع ذلك لم تنكسر شوكة الثائرين رغم هزيمتهم الثانية فى معركة طهطا فى 8 يناير سنة 1799؛ حيث خسروا ألف قتيل كانت الغالبية العظمى منهم من الأهالى المشاة [18]، وانتقم الفرنسيون انتقاماً فظيعاً من القرى التى أطلقت عليهم النار، فقتلوا من أهلها خمسمائة رجل وأحرقوها[19]. وفى 22 يناير سنة 1799 وقعت معركة سمهود[20] بين جيش مراد بك والجيش الفرنسى، و كان جيش مراد بك يتكون من حوالى أربعة عشر ألف مقاتل، بينما كان الجيش الفرنسى بقيادة الجنرال ديزيه مؤلف من خمسة آلاف مقاتل مزودين بالمدافع والبنادق الحديثة[21] وقابل الجيش الفرنسى الثوار الذين كانوا يفوقونه عددا ولكن ينقصهم النظام والمدفعية ومقدرة القيادة، ويرجع إلى ذلك السبب فى انهزام الثوار فى هذه المعركة[22]. وانتهت هذه المعركة بانتصار الفرنسيين وهزيمة مراد بك وانسحابه جنوباً، وإذا كان لهذا الانتصار من نتائج فإنه فتح الطريق أمام الجيش الفرنسى لمواصلة زحفه جنوباً دون أن تعترضه عقبات لها قيمتها[23].

ويذكر أحد المعاصرين الفرنسيين أنهم (لو كانوا فى أوربا لكانت موقعة سمهود قد أعطتهم السيطرة على الصعيد كله، ولكن مراد بك لم يستطع تقبل فكرة تفوق الفرنسيين ، وبالرغم من معرفته بقوتهم، وعدم وجود الإمكانيات لديه إلا أن شجاعة هذا الرجل وقوة شخصيته وتفاؤله لم يمسوا) [24]. ولكن أهم النتائج التى ترتبت على هذه المعركة تتلخص فى أن مراد بك كان قد غير خطته الحربية بعد هذه المعركة، ويذكر مصدر آخر (أن مراد بك قرر بعد معركة سمهود أن ينهك قوانا فى تحركات طويلة ومرهقة، وهذا الأسلوب قد سلبنا ثمار انتصار سمهود فاضطررنا للعدو خلف عدو لا يتركنا نقترب منه إلا عندما تسمح له ظروفه بالقتال) [25]، وهكذا أدت هذه المعركة إلى تغيير مسار الحرب فى الصعيد وجعلت كلا الطرفين المتحاربين يغيران من خطتهما الحربية طبقاً لظروف كل منها،ويمكن القول بأن معركة سمهود يمكن إضافتها إلى معركة سدمنت ومعركة إمبابة أو الأهرام بصفتها من المعارك الفاصلة، والتى تستحق هذا الاسم فى تاريخ مصر الحربى فى عهد الحملة الفرنسية.

واستمرت المقاومة بين الأهالى والفرنسيين، وتجدد القتال بين جرجا وأسوان (فبراير سنة1799)، وكذلك حدثت اضطرابات ومعركة فى الردسية، (11 فبراير 1799) [26]، وهاجم الأهالى القوات الفرنسية عندما وصلت إلى قنا (12- 13 فبراير سنة 1799)،[27]ثم حدثت معركة مع المقاومة المصرية فى أبو مناع (17 فبراير سنة 1799)، [28] ثم فى إسنا[29] (25 فبراير سنة 1799). وفى كل هذه المعارك كانت المدفعية الفرنسية تتغلب على البنادق والأسلحة القديمة التى كان يستعملها الأهالى وعرب الحجاز، وبالتالى كانت الهزيمة تحل بالثوار، لقد كان ميزان القوة غير متكافئ، وبالرغم من إدراك المصريين لقوة خصمهم لم ينوا لحظة عن مقاتلة الفرنسيين، وقاوموا مقاومة أعنف فى الصعيد، حيث الرجال أشد بأسا، وحيث الطبيعة الجغرافية تساعد على حرب الكر والفر.

وجدير بالذكر أن انتصارات الفرنسيين لم تكسر شوكة البلاد،ولم تضع حداً

للمقاومة الأهليــة، فالأهالى وحلفاؤهم من العرب والماليك كانوا يجمعون فلولهم بعد المعارك التى هزمهم فيها الجيش الفرنسى ثم يعودون لإثارة المقاومة واستئناف الهجوم، وكل معركة كانت تترك لهم ثأراً على الفرنسيين، وبذلك لا تنقضى معركة إلا ولدت معركة جديدة.

وإذا كانت معظم المعارك بين الأهالى والفرنسيين قد انتهت لصالح الفرنسيين، فإن الأهالى قد حققوا فى بعض الأحيان انتصارات مهمة على الفرنسيين، ومن ذلك ما حدث فى معركة أبنود النيلية (3 مارس سنة 1799)[30]، والتى كانت إحدى المعارك الكبرى فى حركة المقاومة فى الصعيد، فقد هاجم الثوار الأسطول الفرنسى، وأطلقوا عليه الرصاص، وانتهت المعـركة بهزيمـة الفرنسـيين، وكانت خسارتهم فادحة، فبلغ عدد قتلاهم من البحارة خمسمائة قتيل، وهى أكبر خسارة مُنى بها الجيش الفرنسى فى حملته على صعيد مصر، وغنم المصريون وعرب الحجاز فى هذه المعركة الكثير مما كانت تحمله السفن الفرنسية من عتاد وذخائر ومدافع استغلوها فيما بعد فى معاركهم ضد الفرنسيين.

وعندما علم الجنرال بليار بما حدث للفرنسيين فى موقعة أبنود النيلية وأنهم انهزموا شر هزيمة اتجه بليار وجنوده فى طريقهم إلى أبنود للانتقام من الأهالى وعرب الحجاز، ولاسترداد الأسلحة والمدافع الفرنسية التى استولوا عليها حتى يجردوا المقاومة الشعبية من أى سلاح حديث.

وفى أبنود واصل الثوار معركتهم ضد الفرنسيين، فتحصنوا فيها، ونصبوا بها المدافع الفرنسية التى غنموها فى موقعة أبنود النيلية، و أخذوا يطلقون النار منها، ففتكت بالفرنسيين فتكاً شديداً وكانت هذه أول مرة واجه فيها الفرنسيون مدفعية حديثة فى صفوف المصريين، وهنا أدرك الجنرال بليار أن موقفه أصبح محفوفاً بالخطر وأن منشأ الخطر وجود المدافع الفرنسية فى يد أبناء الصعيد، فوجه قوة جيشه كلها للاستيلاء على هذه المدافع ونجح فى خطته فاسترجع الفرنسيون مدافعهم، وجردوا أبناء الصعيد من أقوى سلاح كان فى يدهم[31].

ودامت المعركة ثلاثة أيام متوالية (8 – 9 – 10 مارس سنة 1799) وأظهر فيها أبناء الصعيد قوة فى المواجهة، فلما تغلب عليهم الفرنسيون ظلوا يحاربونهم فى شوارع المدينة ويدافعون عن كل بيت فيها، وعن كل شبر من أرضها، فلم يجد الفرنسيون بدا من إشعال النار فيها فأشعلوها، فتحولت القرية إلى أكوام من الخرائب،ولم يستسلم الأهالى ومعهم عرب الحجاز وتحصنوا فى منزل وفى مسجد يجاوره، وواصلوا إطلاق النار منهما فأحرق الفرنسيون المنزل والمسجد أيضا[32].

وجدير بالذكر أن الأهالى وعرب الحجاز أو المكيين كما تنعتهم المصادر الفرنسية قاوموا الفرنسيين مقاومة مستميتة شهدت بها المصادر الفرنسية حيث يقول دومينيك دى بيترو: (وفى الحقيقة إننا لم نشهد أبدا منذ قدومنا إلى مصر مقاومة بهذا العنف وبهذه الضراوة) [33] وكانت هذه المعركة من أشد معارك الحملة الفرنسية هولا وأطولها مدة، فلقد كانت سلسلة معارك دموية دامت 72 ساعة، وكان حريق أبنود وما أصابها من الدمار أفظع مأساة وقعت فى معارك الحملة الفرنسية. واستمرت مقاومة أهل الصعيد ضد الحملة الفرنسية، ففى بئر عنبر [34] على الطريق بين قنا والقصير قامت معركة عنيفة بين الثوار والفرنسيين فى 2 أبريل سنة 1799، وأوشك الجنرال ديزيه القائد العام فى الوجه القبلى أن يُقتل، وانسحب الثوار من ميدان المعركة بعد أن أوقعوا بالفرنسيين خسائر فادحة[35].

واستمرت المقاومة فى صعيد مصر ضد الحملة الفرنسية، فتجددت الثورة مرة أخرى بين قنا وجرجا، وما كان ذلك إلا انتهاز الثوار لفرصة خلو البلاد من القوات الفرنسية الكافية، فاستأنفوا حركاتهم الثورية فى مديرية جرجا، فحدثت معارك فى برديس (6 أبريل سنة 1799)، ثم فى جرجا (7 ابريل 1999)، ثم فى جهينة (10 أبريل سنة 1799)[36].

وانتهت هذه المعارك بهزيمة الثوار من أبناء الصعيد وحلفائهم العرب والمماليك، ورغم ذلك لم يفقد الثوار الأمل فى تحقيق النصر، وظلوا يناضلون، وامتدت الثورة إلى أسيوط وسرت إليها من فلول الأهالى والعرب الذين انهزموا فى جرجا وجهينة،

واتخذ الثوار (بنى عدى) [37] معسكراً للثورة، وفى 18 أبريل سنة 1799 أحاطت القوات الفرنسية ببنى عدى، واشتبك الفريقان فى معركة حامية دارت رحاها فى طرقات بنى عدى، وفى بيوتها التى حصنها الأهالى وجعلوا منها شبه قلاع كان الرصاص ينهال منها على الجنود الفرنسيين، فلقى الجيش الفرنسى فى بنى عدى ما لم يلق مثله فى كثير من البلاد[38].

واستمر القتال إلى الليل وانتهت المعركة بغلبة المدافع والنيران الفرنسية على مقاومة الأهالى، ذلك أن الفرنسيين لما عجزوا عن الاستيلاء على بنى عدى لجأوا إلى وسيلة الحريق التى اتبعوها فى أبنود وغيرها، فأضرموا النار فيها، وبذلك استطاعوا كسر مقاومتها والتغلب على الأبطال من أهلها[39].

ورغم قسوة الفرنسيين فى الانتقام لم تنكسر شوكة الثائرين، وهاجم الثائرون الحامية الفرنسية فى المنيا ثلاثة أيام متوالية (23- 25 أبريل سنة 1799) وغلبوا الحراس على أبوابها واقتحموها، ولكن الفرنسيين فى اليوم الثالث تغلبوا عليهم وعادت السكينة إلى المدينة[40]. وقد ذكرت مصادر فرنسية " أن حامية المنيا سلمت من القتل بفضل السلوك الهادئ لمشايخ البلد فى المنيا، والغالبية العظمى من سكانها فلو أنهم حملوا السلاح فى وجه الفرنسيين لما بقى منهم أحد" [41]، وقد أسقط الفرنسيون ثلث الضرائب التى فرضوها على أهالى المنيا، مكافأة لهم على سكينتهم فى أيام المعركة الثلاثة. وزادوا ما أسقطوه على الضرائب المقررة على أهالى القرى التى هاجمتهم [42].

وقرر الجنرال ديزيه الاستيلاء على القصير، لأنه الثغر الوحيد الواقع على البحر الأحمر الذى يصل منه المدد إلى الصعيد، فمنه جاء عرب الحجاز الذين شدوا أزر الأهالى فى مقاومة الفرنسيين، وتم للفرنسيين احتلال القصير(29 من مايو سنة 1799)[43]، ومع ذلك لم تخمد المقاومة المصرية التى لم تهدأ إلا لتثور.

مقاومة منظمة أم عفوية ؟

وبعد أن عرضنا لوسائل المقاومة المباشرة للصعيد ضد الحملة الفرنسية، يبدو من الأهمية بمكان أن نناقش بعض سمات هذه المقاومة :

هل كانت المقاومة منظمة أم عفوية، وهل كانت فى الصعيد ثورة نظمت على مستوى كل القرى، وهل كانت وراءها قوة منظمة لها تعمل على نشر هذه الروح فى كل مكان، وعلى اختيار الموعد المناسب للمواجهة، وهى التى تحدد الأدوات التى يستخدمها الأهالى فى المعارك، وتقوم بتمويلهم من مال وسلاح، وهل كانت مدعومة بتحفيز وتدعيم المماليك، أم مقاومة ذاتية محلية عبر عنها الفلاح المصرى فى صعيد مصر عن كيانه وذاته وخصوصيته التى شعر أنه تم اجتياحها من قبل الغزاة الأجانب؟.

فى ضوء دراسة التقارير الخاصة بالثورات والتى دونها القادة الفرنسيون يمكن القول بأن ثورات الأهالى فى الصعيد ضد الاحتلال الفرنسى كانت غير منظمة على المستوى العام.فلم يكن للثورة قيادة عامة على مستوى الصعيد ككل من الجيزة شمالاً حتى أسوان جنوباً ومن القصير شرقاً إلى واحات الصحراء الكبرى غرباً.ولم يكن هناك ممولون للثورة على المستوى العام أيضاً، وحتى المماليك الذين كانت أمامهم فرصة لتولى قيادة الأهالى فى المعارك وتنظيمهم بحكم طبيعتهم العسكرية، إذا بهم يفرون أثناء المعارك وتركوا عبء القتال على عاتق الأهالى وحدهم.

وإذا كانت ثورات الصعيد ضد الفرنسيين غير منظمة تنظيماً دقيقاً إلا أنها أتعبت بل وأجهدت قوات الاحتلال الفرنسى وتركت فى نفوسهم أثراً قوياً لم يستطيعوا أن يتحملوه، خصوصاً بعد أن أدخل المصريون تعديلاً جديداً فى خطة مقاومتهم؛ إذ جعلوها بعد معركة سدمنت مقاومات محلية تقوم أساساً على عنصر المفاجأة، وكان هذا النوع من المقاومة أشد خطراً على الجيش الفرنسى من المعارك المنظمة، فلم يهدأ للفرنسيين بال ولم يستقر لهم قرار خلال الحملة على الصعيد بل كانوا هدفاً

للمفاجآت والمعارك غير المنتظرة، لأنهم فقدوا الراحة والطمأنينة واضطرتهم هذه المقاومة إلى مداومة الحملات، والرحلات المنهكة للقوى دون أن يتمكنوا من التغلب على خصم لا ينال. وهذا الشكل من المقاومة جعل الفرنسيين يشعرون دائماً أنهم محاطون بالأعداء. وبالرغم من عدم وجود قيادة عامة بالصعيد وقتئذٍ تدير عمليات المقاومة وتنظمها وتمولها على مستوى الصعيد ككل، إلا أن الصعيد لم يخلُ من وجود قيادات محلية على مستوى بعض المناطق أو بعض المديريات مثلما حدث فيما بين أسيوط وجرجا حيث شبت الثورة فى نحو أربعين بلداً، وفى وقت واحد، وهذا الحدث يدل على أن هذه الثورة كان لها قيادات منظمة لتحريك الثورات فى وقت واحد لمقاومة الفرنسيين، ويعطى انطباعاً عاماً بأن هناك قيادات مهمة لعبت دوراً مهماً فى تنظيم آلية الثورة واختيار ميقاتها، ويبدو أن كبار الأعيان كان لهم دور هام فى إثارة بلادهم ضد الفرنسيين، وتنظيم قوة المقاومة بها، لهذا قام الجنرال "ديزيه" بجمع مائتى رجل من الأعيان من أهل البلاد الواقعة بين جرجا وأسيوط ليكونوا رهائن عنده فى أسيوط حتى لا يثور أهل البلاد التى أخذوا منها(44).

ولم يقتصر الأمر على جمع رهائن من هذه المنطقة بل أمر "ديزيه" قواده الآخرين باعتقال رهائن أخرى من مناطقهم، بل وصل الأمر بالجنرال "ديزيه" أن يأمر الجنرال "بليار" بأن يقطع رأس كل من لا يطيع أوامره من مشايخ القرى وقطع النخيل وإحراق القرى الثائرة(45).

وكان هذا هو الأسلوب الذى اتبعه بالفعل الجنرال "ديزيه" فى معاقبة الثائرين من مشايخ البلاد وقراهم، فعندما وصل هو وجنوده قبالة جرجا يوم 23 مارس 1799 بقى عدة أيام فى بلاد أحد المشايخ الذين اشتهروا بمقاومة الفرنسيين وهو الشيخ "عبد المنعم" للتنكيل به، فأمر بقطع نخيله، وإضرام النار فى القرى التابعة له(46).

ورغم كل هذه الإجراءات يعترف "ديزيه" فى رسالة إلى "نابليون" بأنه ليس من السهل إخضاع هذه البلاد (47)، ولعل صعوبة إخضاع الصعيد يكمن فيما ذكره الجنرال "دافو" من أن جميع أهالى البلاد فى الصعيد كانوا يحملون السلاح(48).

ويبدو أن أهالى الصعيد كانوا يعانون من نقص فى السلاح، وحاولوا تعويضه بتسلل البعض منهم إلى معسكرات الفرنسيين لسرقة أسلحتهم، أو بهجومهم على الأسطول الفرنسى مثلما حدث فى معركة أبنود النيلية والاستيلاء على بعض المدافع والأسلحة الفرنسية التى استخدموها فيما بعد فى معاركهم ضد الفرنسيين، وكانت هذه أول مرة تستخدم فيها المقاومة الشعبية سلاحاً حديثاً. وأدركت قوات الاحتلال أن موقفهم أصبح محفوفاً بالخطر، وأن منشأ الخطر يتمثل فى وجود الأسلحة والمدافع الفرنسية فى يد أبناء الصعيد، لهذا كان من الطبيعى أن تعمل على استرداد هذه الأسلحة لتجريد الأهالى من أقوى سلاح كان فى يدهم، وقد نجحت فى ذلك، ولاشك فى أن استخدام الأهالى للسلاح الحديث وهم ليس لهم دراية به يدل على أن المقاومة كانت تحمل وراءها روح وحماسة وموقف وإيمان بالعمل الثورى[49]، ومما يحسب للمقاومين أنهم استخدموا كل ما وقع تحت أيديهم من أدوات سواء كانت محلية مثل العصى والسيوف والبنادق والمدافع القديمة الصنع أو الأدوات الحديثة الصنع والتى تمثلت فى البنادق والمدافع الفرنسية التى حصلوا عليها من جيش الاحتلال بأكثر من وسيلة كما ذكرنا، وعندما نجحت قوات الاحتلال فى استرداد أسلحتها، لم يقف الأهالى مكتوفى الأيدى بل حاربوا بما هو متاح بأيديهم من الأسلحة البسيطة والقديمة الصنع، يضاف إليها عزيمتهم وإصرارهم على المقاومة.

ولكن ما هى مقومات حركة المقاومة فى الصعيد؟

قامت حركة المقاومة فى الصعيد على ركائز أساسية تمثلت فى حماسة أبناء الصعيد وروح فروسيتهم، ووجود العصبيات، وكثرة التجمعات، ومقدرة على توحيد الصفوف الجماهيرية ووعى بالمقاومة لدرجة أن النساء والأطفال مع الرجال خاضوا غمار المعارك، حيث أحسوا بدورهم فى النضال، وكل هذه الركائز مجتمعة كانت عوامل ساعدت على ضراوة عمليات المقاومة فى الصعيد.

ومن خلال عرضنا للمقاومة الإيجابية لاحظنا أن الأهالى وحلفاءهم يقومون

بالهجوم على قوات الاحتلال الفرنسى فى أوقات بعينها مما يجعلنا نتساءل: هل طريقتهم فى اختيار التوقيت كانت دليل على متابعتهم لأخبار التحركات الفرنسية؟ للإجابة على هذا التساؤل يمكن القول إن المقاومين كانوا يتابعون أخبار القوات الفرنسية وتحركاتها، والصعاب التى تواجهها، وذلك لضرب قوات الاحتلال فى التوقيت المناسب، فعلى سبيل المثال انتهز الأهالى والمماليك فرصة خلو البلاد من القوات الفرنسية الكافية فاستأنفوا حركاتهم الثورية فى مديرية جرجا، ولم يكن هذا من فراغ بل كان نتيجة لمتابعة دقيقة من قبل المقاومين فى صعيد مصر لتحركات القوات الفرنسية ورصدها، وتجدر الإشارة إلى أن كلا الفريقين (المصرى والفرنسى) كانت له عيونه (جواسيس) التى تمده بأخبار الآخر، وتذكر الوثائق الفرنسية " أن مراد بك كان يعلم بمتابعتنا له ولذلك، فقد قام بالسير ليلاً بطريقة ملتوية لأكثر من أربعة فراسخ "[50]، وكان مراد بك يخدع جواسيس الجنرال "بليار" ويتحرك عكس توقعاتهم[51] وقدم الفرنسيون إغراءات لبعض القبائل المتحالفة معهم تمثلت فى الإعفاء من الضرائب بشرط أن تساعدهم فى محاصرة مراد بك والقضاء عليه[52] وكانت هناك فرقة استطلاع للفرنسيين لتتعرف على الأماكن التى يتوجه إليها مراد بك، كما كان لهم عيون من الأعراب وغيرهم من الجواسيس ليخبروهم بمسيرة مراد بك.

كما أن مراد بك كان له جواسيسه أيضا ليتعرف على أماكن وجود الفرنسيين وقواتهم، وليس هناك شك فى أن مشايخ القرى ومشايخ العربان كانت لهم عيون أخبار أيضاً يحصلون من خلالها على معلومات تفيد باقتراب الفرنسيين منهم وعدد قواتهم حتى يستطيعوا أن يعدوا أنفسهم للتعامل معهم، أو يفكروا فى ترك قراهم ويرحلوا إذا ما أحسوا أنهم لن يستطيعوا الوقوف ضد الفرنسيين، وهكذا يمكن القول إن كل فريق كانت له عيون تراقب عدوه ليل نهار لتنقض عليه فى ساعة ضعفه حتى تنال منه وتهزمه.

وفى سبيل تحقيق ذلك دارت حرب نفسية بين كل فريق، فمراد بك كان يدعى على

حد قول الوثائق الفرنسية " أن معه 10.000 رجل " [53]، " وينشر الإشاعات بقدوم الباشاوات، وقد أشاع أيضاً أنه تسلم خطاباً من الصدر الأعظم يأمره فيه باسم السلطان سليم بأن يخوض حرباً حتى الموت ضد الفرنسيين على الضفة اليسرى"[54].

ورغم اعتقاد الفرنسيين بأن ما يقوله مراد بك غير صحيح، إلا أنهم كانوا يتأثرون بما يقول، كما كان الفرنسيون يعملون على بث الرهبة فى قلب مراد بك واتباعه بما يملكون من مدافع [55]، وأسلحة حديثة، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كان الفرنسيون يعتقلون كبار الأعيان من شيوخ القرى والقبائل وضربهم أحيانا[56] للتأثير على نفسية الأهالى ودفعهم إلى الاستسلام، كما أن قيامهم بحرق القرى الثائرة كان يدخل أيضاً ضمن الحرب النفسية للتأثير على القرى المجاورة حتى لا تلجأ إلى الثورة على ما أصاب القرى المحروقة.

ويمكن القول بأن الفرنسيين قد انتصروا على قوات المقاومة فى الصعيد فى أكثر من موقعه، إلا أن انتصارات الفرنسيين لم تكسر شوكة البلاد ولم تضع حداً للمقاومة الأهلية، فإن الأهالى وحلفاءهم من العرب والمماليك كانوا يجمعون فلولهم بعد المعارك التى هزمهم فيها الجيش الفرنسى، ثم يعودون لإثارة المقاومة واستئناف الهجوم، وكل معركة تترك لهم ثأراً على الفرنسيين، وبذلك لا تنقضى معركة إلا وتُولد معركة جديدة.

وكما رأينا فقد حقق الأهالى وحلفاؤهم انتصارات على الفرنسيين فى بعض المواقع بل إن أكبر خسارة لحقت بالجيش الفرنسى فى مصر كانت فى "معركة أبنود النيلية"، وهكذا ظل جيش الجنرال ديزيه يطارد قوات شتى لاعداد لها، ولا يكاد يتغلب عليها حتى تتجمع وتعود ثانية للقتال، وصار ديزيه يحارب حرباً لا نهاية لها، فى ميدان واسع مترامى الأطراف يمتد من الجيزة شمالاً إلى أسوان جنوباً ومن القصير شرقاً إلى واحات الصحراء الكبرى غرباً، دون أن يصل إلى إخضاع البلاد إخضاعاً تاماً أو إقرار السلطة الفرنسية بها.

ثانياً : المقاومة غير المباشرة :

كانت المقاومة غير المباشرة وسيلة أخرى من وسائل المقاومة، وكانت هذه الوسيلة لا تقل فى عنفها وعنادها عن المقاومة الإيجابية، وكان لها أثر كبير فى إضعاف سطوة الفرنسيين وجعل احتلالهم للبلاد غير مفيد، بل غير هين ولا يسير، وتعددت وسائل المقاومة غير المباشرة ما بين هجر الفلاحين لقراهم، ورفض التعاون مع الفرنسيين، والامتناع عن دفع الضرائب، وسرقة أسلحة الفرنسيين، ولتوضيح أهمية هذا النوع من المقاومة يتعين أن نتوقف على سماتها وما ساهمت به من دور فى جعل مشروع إقامة مستعمرة فى مصر أمر صعب المنال :

1- هجر الفلاحين لقراهم :

كان الفرنسيون يحسون دائماً أنهم فى بلد يكرههم كل من فيه، ويعاديهم ويتربص لهم، ويعمل جاهداً بكل حيلته وقوته للقضاء عليه، ولم يتولد هذا الإحساس بداخلهم من فراغ بل كان نتيجة للواقع الذى عاشته الحملة الفرنسية فى الصعيد، وكانت سياسة هجر الفلاحين لقراهم وسيلة فعالة من وسائل المقاومة غير المباشرة التى كان لها أثر كبير فى إضعاف الروح المعنوية لقوات الاحتلال، وشعر قواد الجيش الفرنسى بتلك الحالة النفسية، وأفضوا بها إلى القيادة العليا فى رسائلهم وتقاريرهم، ودونوها فى مذكراتهم، ومن ذلك ما ذكره الجنرال بليار فى يومياته حيث قال: " إن كل القرى التى نجتازها نجدها خالية من السكان لأنهم يخلون قراهم قبل نصل إليها "، كما كتب بليار إلى الجنرال ديزيه قائلا "إننا نعيش هنا عيشاً ضنكاً، فإن جميع القرى تخلوا من السكان كلما اقتربنا منها، ولا نجد شيئاً من القوت ولا نرى فلاحاً واحداً يدلنا أو يأتينا بالأخبار أو يحمل رسائلنا ولا أدرى السبب فى هذه الحالة، على أننا مع ذلك لا نعمل عملاً ضارا فى البلاد التى نجتازها"[57].

لقد تجاهل بليار أن سياسة هجر الفلاحين لقراهم كانت دليلا على القسوة

البالغة التى كان يجنح إليها الفرنسيون فى معاملة أهل تلك القرى، فكلما نزل الفرنسيون قرية واستقروا بهـا وجـد الفلاح أدواته ومحاريثه وأبوابه وسقوفه وكل شيء قابل للاشتعال وقد أحرقها هؤلاء الجند لطهى طعامهم، ثـم يقدمون على تحطيم آنيته الفخـارية، واستهلاك غلاله وذبح دواجنه وحمامه وشيها عـلى النار والتهامها ثم الأخطر من كل هذا هتك عرض بناته وزوجاته[58]. وسمع الفلاحون عن سلب ونهب الفرنسيين للقرى التى يمرون عليها وانتشرت الأخبار فى قرى الصعيد، وبدأ الأهالى يخلون قراهـم ويفرون بعيداً عنها حاملين معهم ما يستطيعون من أمتعة وأموال وغلال وحبوب وماشية وتركوا مساكنهم خاوية؛ خوفاً من مهاجمة الفرنسيين لها ونهبها، ويمكن القول إن هجر الفلاحين لقراهم كان وسيلة من وسائل المقاومة السلبية ضد الحملة الفرنسية والتى كان الغرض منها حماية الأهالى لأنفسهم من ويلات الاحتلال الفرنسى.

2- رفض التعاون مع الفرنسيين :

كان الفرنسيون يتساءلون عن سبب رفض أبناء الصعيد التعاون معهم، وكان هذا يعد شيئاً طبيعياً بالنسبه للفرنسيين طالما كانوا يعتقدون أنهم أتوا للعمل من أجل مصلحة الأهالى وإنقاذهم من حكم المماليك الطغاة، لكن أهل الصعيد كانوا يعلمون أن قوات الحملة لم تأت لتخلصهم من المماليك بل لتستولى على أرضهم وتتمتع بخيرات بلادهم، لهذا قاموا بمقاومتهم بكل الوسائل ورفضوا رفضاً تاما التعاون مع قوات الاحتلال، فكان الأهالى يمتنعون عن مساعدة القوات الفرنسية أو إمدادها بالأقوات التى تطلبها، ومن ذلك ما حدث فى قرية (أبو جرج)[59]. فعندما وصل الجنرال دافو إليها بعث ببعض مندوبيه إلى شيخ القرية طالبين منه المؤن للجيش الفرنسى، فرفض شيخ القرية طلبهم قائلاً : " بأنه لا يوجد طعام للفرنسيين فى قريته، وأن قواتهم قد دمرت فى الجنوب، وأنه إذا لم ينسحبوا فسوف يلاقون مصير إخوانهم "[60]. وعاد رسل الجنرال دافو بهذا الرد الذى يعنى أن أهل القرية قد رفضوا إمدادهم بالمؤونة، وأنهم على أتم استعداد لمواجهته، ولم يهتم

الجنرال دافو بهذه التهديدات واتجه إلى القرية التى استقبلته بالطلقات النارية، وقام الأهالى يشد من أزرهم عربان الجهمة[61] بإلقاء التراب على رءوس الفرنسيين كعلامة للموت، وعلى الفور قامت القوات الفرنسية بمحاصرة القرية، ودخلتها من عشرة أماكن[62]، وأمر الجنرال دافو جنوده بقتل وحرق كل شىء فى القرية فاشتعلت النيران فى القرية، وسالت الدماء فيها، وكانت خسارة الأهالى جسيمة فبلغت كما قدرتها المصادر الفرنسية بألف قتيل[63]، ومن الأمور ذات الدلالة على رفض أهل الصعيد التعاون مع الفرنسيين رفض الأهالى أن يسلموا للفرنسيين أى مركب من مراكبهم عندما أراد الفرنسيون أن يعبروا النيل إلى جزيرة فيلة على مراكبهم[64].

3- الامتناع عن دفع الضرائب :

كان الفرنسيون بحاجة ماسة إلى الأموال لسد نفقات الجيش الذى انقطع عنه كل مدد بعد تحطيم الأسطول الفرنسى فى موقعة أبو قير البحرية (أول أغسطس 1798) وكانت النتيجة مزيد من التعسف الواقع على الفلاحين، وكانت أوامر الجنرال ديزيه لقواده فى المديريات التى يسيطرون عليها أن يجرى الاهتمام فى كل مكان بنشاط لجمع الخيول وجباية الضرائب، ولم يكن الأهالى يسلمون الضرائب بسهولة، وكانوا يماطلون حتى يروا الجنود الفرنسيين وسط القرية حاملين أسلحتهم، وهنا فقط يستطيع الفرنسيون جمع الضرائب المسماه الميرى.

ولقد أكدت كثير من وثائق الحملة الفرنسية على أن عملية جمع الضرائب من الفلاحين لم تكن تتم إلا بمعاونة الفرق المسلحة[65]. وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على مدى الأعباء المالية التى كان الفلاحون يتحملونها مما أثار سخطهم على الفرنسيين.

وتذكر وثائق الحملة الفرنسية أن ثمانى قرى فى إقليم المنيا قامت بالثورة ضد السلطة العسكرية الفرنسية رافضين دفع أى ضريبة، ولما أبلغهم القائد العسكرى

للإقليم الجنرال بوييه Boyer بحتمية دفع الضرائب، ردوا عليه بأنهم لن يسمحوا لأى فرنسى بأن يطأ أرضهم، ولكن الجنرال بوييه ذهب ومعه 120 من رجاله وحاصر ثلاث قرى فاضطرت هذه القرى إلى الإذعان ودفع الضرائب[66]. كما رفضت القبائل المستقرة فى مصر الوسطى دفع الضرائب للفرنسيين.ولاقى الفرنسيون مشقة فى جمع الضرائب فى كثير من القرى التى يقطنها العربان[67]. ورغم كل الجهود التى بذلها رجال الحملة الفرنسية فى جمع الضرائب فإن الجنرال ديزيه بعث إلى بونابرت يشكو من قلة أموال الميرى التى جمعها رجاله[68].

ويمكن القول إن الفلاحين والعربان بصعيد مصر كانوا يمتنعون عن دفع الضرائب، ولا يدفعونها إلا بعد مقاومة مستميتة وتحت تهديد السلاح، وكان الامتناع عن دفع الضرائب يمثل وسيلة من وسائل المقاومة السلبية ضد الحملة الفرنسية. كما كان هناك نمط آخر من أنماط المقاومة على مستوى جباة الضرائب فثمة دراسة حديثة[69] أثبتت أن المجموعات المتعلقة بجباية الضرائب (وهى المعلمين الأقباط - الأفندية - شيوخ القرى) كانوا يستغلون جهل الفرنسيين بطبيعة النظام المالى ومن ثم فقد واجه الفرنسيون خصماً عنيداً يقاوم ضغوطهم وآلاتهم العسكرية بسلاح المعرفة الحسابية، ونجح المصريون فى استخدام هذا السلاح بكفاءة ومقدرة حالت دون تدفق أموال الضرائب المفروضة على المصريين إلى خزانة الجيش الفرنسى على نحو لم يتوقعه أو يقدره الفرنسيون مما ساهم فى إفشال مشروعهم الاستعمارى فى النهاية.

4- سرقة أسلحة الفرنسيين :

ومن الحوادث التى تدل على تأصل روح المقاومة فى نفوس المصريين، ما سجله الفرنسيون عن طفل ريفى من أهل قرية الفقاعى[70] استطاع أن يتسلل إلى داخل المعسكر الفرنسى، وسرق بندقية أحد الفرسان، وحمل الغلام البندقية وتوجه بها فى طريقه إلى القرية فرآه فارس آخر من الفرنسيين وجرى خلفه، وجرى الغلام بأسرع ما يمكن ولم يقف إلا بعد أن أصابه الجندى الفرنسى بجرح سيف فى ذراعه، وساقه

جريحاً إلى الجنرال ديزيه للاقتصاص منه، فسأله الجنرال عما دعاه إلى سرقة البنادق، فأجاب الغلام رابط الجأش ناظراً إلى السماء ! إن الله القادر على كل شىء قد أمره بذلك، وأبدى الغلام شجاعة فائقة وأبى أن يدل على المحرضين له وقال لم يحرضن أحد، وإنما ألهمنى الله أن أفعل ما فعلت، ثم رفع رأسه ونظر إليه وقال له فى هدوء وثبات: دونك رأسى فاقطعوه، فدهش الجنرال من شجاعته، ثم أمر الجنرال بضربه ثلاثين جلدة، وتلقى الغلام العقاب بثبات جم[71].

ولا شك فى أن هذا الغلام الذى لم تكن سنه تتجاوز الثانية عشرة كان مثلا لكل أبناء الصعيد فى مواجهة العدوان على حرياتهم ومقدسات أوطانهم. وهذه الحادثة ليست سوى دليل على أن الصغار لهم دور فى المقاومة، ولكن بأسلوبهم، إذ كانوا يتسللون إلى معسكرات الفرنسيين ويسرقون أسلحتهم بالعشرات[72].

ولكن هل فعل الغلام ذلك من تلقاء نفسه أم أن وراء هذه الحادثة تنظيم ما من أبناء القرية كان يفكر فى الدفاع عن القرية فى حالة تعرضها لعدوان من قبل الفرنسيين وكان ينقصهم السلاح فحاولوا سرقته من الفرنسيين بالحيلة عن طريق تسلل الأطفال إلى معسكرات الجيش ؟.

الواقع أن من يتابع أحداث الحملة الفرنسية فى الصعيد لا يستبعد أن يكون ما حدث قد تم من خلال تنظيم ما يدير حركة المقاومة فى الصعيد ضد الحملة الفرنسية، ويدل ذلك على أن سرقة أسلحة الفرنسيين كانت ترمز إلى نوع من أنواع المقاومة غير المباشرة فى الصعيد فهم يسرقون السلاح لأنهم لا يملكون السلاح، وهم بحاجة إليه ليتخذوه وسيلة من وسائل المقاومة ضد الفرنسيين.

5- تشويه الأمهات لبناتهن :

عانى أبناء الصعيد كل ويلات الاحتلال العسكرى على أيدى الفرنسيين وتحت تهديد السلاح وسناكى جيش الاحتلال تعرضت الكثير من النساء فى كثير من القرى والمدن بصعيد مصر لهتك أعراضهن واغتصابهن[73] وكان الجنرالات

الفرنسيون يسمحون لجنودهم باغتصاب النساء ليرفعوا من معنوياتهم[74] وأمام هذه القسوة والوحشية لجنود الاحتلال الفرنسى كانت بعض الأمهات يشوهن بناتهن حتى لا يغتصبن على يد الفرنسيين [75].

ويصور لنا فيفان دينون مشهد من هذه المشاهد عندما احتل الجنرال بليار وجنوده جزيرة فيلة فيقول: " وألقى الجميع الرجال والنساء والأطفال بأنفسهم فى النهر. وكنت ترى النساء الثابتات على فطرتهن الوحشية يغرقن الأطفال الذين لا يستطعن حملهن معهن ويشوهن بناتهن حماية لهن من اغتصاب المنتصرين. ويمكن القول إن تشويه الأمهات لبناتهن كان وسيلة من وسائل المقاومة الشعبية حفاظاً على شرفهن وحماية لهن من اغتصاب المنتصرين"[76].

* * *

لقد واجه الفرنسيون فى الصعيد مقاومة شعبية عامة وعنيدة وعنيفة، وبالرغم من أن أهل الصعيد كانوا يعلمون أنهم يخوضون معركة غير متكافئة بينهم وبين الفرنسيين، إلا أنه لم يخطر ببال أحد من الأهالى الفرار، ولا فكروا فى الاستسلام،وعمت المقاومة الشعبية كل قرى ومدن الصعيد. وتؤكد وثائق الحملة الفرنسية أن شعب الصعيد قد دافع بقوة عن حريته[77] : فلقد مارس الفرنسيون فى صعيد مصر سلسلة متصلة شبه يومية من أعمال القمع والإبادة والنهب والاغتصاب والتنكيل الوحشى مما جعلهم يواجهون ثورة دائمة ومقاومة مستميتة ومتزايدة باستمرار من جانب أهل الصعيد، ولقد استخدم أهل الصعيد كل الوسائل المتاحة فى مقاومة المحتل وذلك على الرغم من حرص الأخير على تجريدهم من السلاح.

وفى النهاية يمكن القول بأن المقاومة فى صعيد مصر نجحت فى توجيه ضربات موجعة للقوات الفرنسية، وكان لهذه المقاومة التى تعددت وسائلها دور كبير فى جعل الاحتلال الفرنسى لا يهدأ له بال ويقرر الرحيل.

الهوامش

(1) انظر على سبيل المثال:
مرسى أحمد إبراهيم: أسوان وعلاقاتها مع جنوب الوادى فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر 1798-1839، رسالة ماجستير غير منشورة. بقسم التاريخ. كلية الآداب جامعة المنيا عام 1982، فرغلى على تسن: أسيوط فى النصف الأول من القرن التاسع عشر - 1850. رسالة ماجستير غير منشورة بقسم التاريخ بآداب سوهاج جامعة أسيوط عام 1985، نبيل السيد الطوخى: صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية 1798- 1801- الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الأولى 1997، ناصر أحمد إبراهيم : الفرنسيون فى صعيد مصر المواجهة المالية (1798- 1801) سلسلة مصر النهضة، عدد رقم 60، دار الكتب والوثائق القومية،القاهرة 2005.

(2) د.أحمد زكريا الشلق: من تقديمه لكتاب د.ناصر أحمد إبراهيم: المرجع السابق ص7.

(3) اعتزم نابليون إخضاع الوجه القبلى إذا رأى أن بقاء قوة معادية فى الصعيد يهدد سلطة الحكومة المركزية، ويكون مثابة للمقاومة الأهلية، ويعطل الملاحة فى النيل، ويحبس الغلال عن الوجه البحرى، فيستهدف سكان القاهرة والدلتا وجنود الحملة للمجاعة. لمزيد من التفصيل. انظر. عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، الجزء الأول، الطبعة الخامسة، دار المعارف 1981.ص337 وما بعدها.

(4) Berthier : memoires du marechel Berthier , campagne d' Egypte , t.I, Paris 1827, P.III.

(5) De la Jonquiére : L' expedition d' Egypte (1798-1801) Tome III. Paris 1899-1907, P. 215.

(6) لمزيد من التفصيل عن معركة سدمنت انظر. عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق. ج 1. ص 342 وما بعدها، نبيل السيد الطوخى: صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية 1798 – 1801، الطبعة الأولى الهيئة المصرية العامة للكتاب 1997. ص 131 وما بعدها.

(7) د. محمد فؤاد شكرى: الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربى، القاهرة، دون تاريخ ص 608.

(8) د. جلال يحيى. مصر الحديثة 1517-1805، الإسكندرية. دون تاريخ ص 406.

(9) Dominique dI Pietro : Voyage historique en Egypte pendant les campagnes des Gènèraux Bonaparte , Klèber Menou, Paris1827-pp-90,91.

(10) د. جلال يحيى : المرجع السابق. ص 407 .

(11) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق. ج1. ص ص 348 ، 349.

(12) محمود الشرقاوى : الجبرتى وكفاح الشعب. كتاب الهلال. العدد 184 يوليو 1966. ص 98.

(13) Vivan Denon : voyage dans la Basse et la Haut Egypte pendant les campegnes du Genarel Bonaparte, quatrieme edition. t. I, paris 1803. pp.306,307, Louis Reybaud : Histoire scientifique et militaire de L'Expedition Française en Egypte Tome III, Paris1830-1836, P.512.

(14) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق. ج1. ص 360.

(15) سليم البستانى : تاريخ نابليون بونابرت فى مصر وسوريا نقلا عن تاريخ فرنسا الحديث، الإسكندرية 1913. ص 69.

(16) De la Jonquiere. op. cit. T. 111. P. 521.

(17) Pièces diverses , Relatives aux opèration militaires et Politiques du général Bonaparte , Paris an vlll , p.192, Berthier. op.cit. p 116.

(18) Piéces diverses : op. cit. p. 193 , Berthier , op. cit. p.117 , Martin , Histoire de L´ Expedition francaise en Egypte. tome premiere , Paris 1815, p 348.

(19) انظر رسالة دافو إلى نابليون فى 12 يناير سنة 1799 والمنشورة فى

De la Jonquier. op. cit. t. Lll, p.523.

(20) سمهود : قرية كبيرة تقع على شاطئ النيل الغربى وتتبع حاليا مركز نجع حمادى بمحافظة قنا. لمزيد من التفصيل انظر محمد رمزى، القاموس فى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة 1954، القسم الثانى الجزء الرابع، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1994. ص 197.

(21) نبيل السيد الطوخى. المرجع السابق ص 185.

(22) محمد فرج. النضال الشعبى ضد الحملة الفرنسية، سلسلة كتب ثقافية، العدد رقم 181، الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة ، بدون تاريخ، ص 55، كمال الدين حسين عبد الرحيم. بونابرت والقصير والمعارك الرئيسية فى جنوب الصعيد. القاهرة 1996، ص 22.

(23) د. جلال يحيى. المرجع السابق ص 412.

(24) Martin: op. cit. t. l.p. 351.

(25) Dominque DI pietro: op.cit. p. 120.

(26) بلدة واقعة بالبر الشرقى للنيل جنوبى ادفو الواقعة على البر الغربى. انظر : عبد الرحمن الرافعى المرجع السابق، ج1. هامش 42.ص 368 ولمزيد من التفصيل عن معركة الردسية انظر. نبيل السيد الطوخى. المرجع السايق.ص ص 199، 200.

(27) لمزيد من التفصيل انظر. عبد الرحمن الرافعى. المرجع السابق.ج1 ص.369، نبيل السيد الطوخى. المرجع السابق. ص ص 201، 202.

(28) شمال دشنا بغرب بالقرب من الجبل الشرقى تبعد عن النيل مسيرة ساعة ونصف. انظر عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق. ج1 هامش 44 ص 369.

(29) لمزيد من التفصيل انظر. نبيل السيد الطوخى. المرجع السابق. ص ص 203، 204.

(30) لمزيد من التفصيل انظر.نبيل السيد الطوخى. المرجع السابق ص. 204 وما بعدها.

(31) عبد الرحمن الرافعى : المرجع السابق.ج1. ص 376، محمد فرج : المرجع السابق.ص 56، كمال الدين حسين عبد الرحيم : المرجع السابق. ص 38.

(32) عبد الرحمن الرافعى. المرجع السابق. ج1. ص376 وما بعدها، محمود الشرقاوى. المرجع السابق. ص102، محمد فرج. المرجع السابق ص ص56،57، كمال الدين حسين عبد الرحيم – المرجع السابق. ص ص 38،39.

(33) Dominique di Pietro : op. cit. p 144.

(34) بلدة صغيرة تقع على مشارف الصحراء، وتبعد نحو 20 كيلو متراً عن قنا. انظر. كمال الدين حسين عبد الرحيم. المرجع السابق . ص 42.

(35) لمزيد من التفصيل انظر. نبيل السيد الطوخى. المرجع السابق. ص 212 وما بعدها. كمال الدين حسين عبد الرحيم. المرجع السابق. ص.42 وما بعدها.

(36) لمزيد من التفصيل عن هذه المعارك انظر. عبد الرحمن الرافعى. المرجع السابق. ج 1 ص 384، 385، نبيل السيد الطوخى. المرجع السابق. ص 167 وما بعدها.

(37) بلدة كبيرة واقعة على طرف الصحراء غربى منفلوط وتتبع حاليا مركز منفلوط بمحافظة أسيوط. لمزيد من التفصيل انظر محمد رمزى. المرجع السابق. ج4 ص ص 82، 83، وذكر عنها الجنرال دافو أنها من أكبر بلاد الوجه القبلى سكانا وأكثرها ثراء وأعظمها مكانة، وأن أهلها كانوا يرسلون جماعات منهم إلى شاطئ النيل لمهاجمة السفن الفرنسية انظر رسالة الجنرال دافو إلى الجنرال دوجا المؤرخة 1مايو سنة 1799 والمنشورة فى La Jonquiére : op. cit. t. III. p. 643.

(38) عبد الرحمن الرافعى. المرجع السابق. ج1. ص ص 386، 387، محمود الشرقاوى. المرجع السابق. ص 103، محمد عبد الفتاح أبو الفضل. تأملات فى ثورات مصر على ضوء

قراءات تاريخية، الجزء الأول. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1992. ص 98.

(39) محمود الشرقاوى. المرجع السابق. ص 103، محمد فرج. المرجع السابق. ص 58.

(40) لمزيد من التفصيل انظر. نبيل السيد الطوخى. المرجع السابق. ص 175 وما بعدها.

(41) انظر رسالة ديتريس إلى الجنرال دافو المؤرخة فى 27 من أبريل سنة 1799 والمنشورة فى La Jonquiére : op. cit. t. III. pp 646 , 647.

(42) محمود الشرقاوى. المرجع السابق. ص 99.

(43) لمزيد من التفصيل انظر. كمال الدين حسين عبد الرحيم. المرجع السابق. ص 45 وما بعدها.

(44) محمود الشرقاوى: المرجع السابق. ص 108.

(45) عبد الرحمن الرافعى: المرجع السابق. ج1. ص 392.

(46) نفسه. ج1. ص ص 380-381.

(47) محمود الشرقاوى: المرجع السابق. ص 108.

(48) نفسه. ص 106.

(49) كان هذا ما يميز المقاومة المصرية بشكل عام، حتى أنها نجحت إبان ثورة القاهرة الثانية (20مارس – 21 أبريل 1800) فى إقامة مصانع للبارود وصنع القنابل من حديد المساجد أو المطارق التى سارع الحرفيون إلى تقديمها. لمزيد من التفصيل انظر. د. نبيل السيد الطوخى: دور الحرفيين فى ثورة القاهرة الثانية إبان الحملة الفرنسية على مصر. منشور فى الثورة والتغيير فى الوطن العربى عبر العصور. أعمال ندوة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية. الطبعة الأولى. مركز البحوث والدراسات الاجتماعية. القاهرة 2005.ص 194 وما بعدها.

(50) رسالة من بواييه إلى الجنرال ديزيه بتاريخ 6 أغسطس 1799 منشورة فى مختارات من وثائق الحملة الفرنسية 1798 – 1801، مراجعة وإشراف د. مديحة دوس، اختيار الوثائق د. إلهام ذهنى، د. ناصر أحمد إبراهيم، هناء فريد، إعداد وترجمة باتسى جمال الدين، أميرة مختار، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية 2004 . ص 83.

(51) نبيل السيد الطوخى.المرجع السابق. ص203.

(52) رسالة من بواييه إلى الجنرال ديزيه، مؤرخة بتاريخ 1 أغسطس 1799 منشورة فى مختارات من وثائق الحملة الفرنسية.

(53) رسالة من بواييه إلى الجنرال ديزيه بتاريخ 1 أغسطس 1799، منشورة فى المصدر السابق.ص79.

(54) رسالة من بواييه إلى الجنرال ديزيه بتاريخ 6 أغسطس 1799، منشورة فى نفس المصدر. ص83.

(55) نفس الوثيقة، نفس المصدر. ص83 حيث يذكر بوايبه "رغم أن المدفع ليس فى حالة جيدة إلا أنه يكفينى لضمان سلامتى أن يعلم العدو بامتلاكى واحداً لأبعث فى نفسه الرهبة من قريب ومن بعيد".

(56) رسالة من بوايبه إلى الجنرال ديزيه بتاريخ 12 أغسطس 1799،منشورة فى نفس المصدر، ص87.

(57) نقلا عن De La Jonquiére : op. cit. t. III. P 596.

(58) ج. كرستوفر هيرولد. بونابرت فى مصر. ترجمة فؤاد أندراوس.مراجعة الدكتور محمد أحمد أنيس. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986. ص.254.

(59) أبو جرج. قرية تتبع مركز بنى مزار بمحافظة المنيا، ووردت فى قوانين ابن مماتى وفى تحفة الإرشاد بوجرجا من أعمال البهنساوية، وفى التحفة أبو جرجا بالأعمال البهنساوية وفى تاريخ سنة 1230 هـ برسمها الحالى. لمزيد من التفاصيل انظر محمد رمزى. القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين الى سنة 1945، القسم الثانى، الجزء الثالث. الهيئة المصرية العامة للكتاب 1994 ص 209.

(60) Piéces diverses : op. cit. p. 227.

(61) كان عرب الجهمة يرابطون على الشط الأيسر بين دجلة وديروط أم نخلة حتى صفط خمار أمام مدينة المنيا، وكانت لهم خيام متناثرة فى أماكن شديدة التباعد فيما بينهما، وكانوا يمتلكون أكثر من خمسمائة حصان. لمزيد من التفصيل انظر.

Jomard : observation sur les Arabes de L' Egypte Moyenne , in Description de L'E gypte , Etat modern, Tome 12 , Seconde ىaddition Paris 1823 , pp 296,297.

- كما تذكر بعض المصادر الفرنسية شكوى بعض الضباط من عدم تعاون أهل القرى معهم مما كان يجعل هؤلاء الضباط يعاقبون مشايخها بالضرب مائة عصا. لمزيد من التفصيل انظر. رسالة بوايبه إلى الجنرال ديزيه منشورة فى مختارات من وثائق الحملة الفرنسية.المصدر السابق. ص ص 87- 89.

(62) Desvernois : Memoires du Général Desvernois, Paris 1898, p. 188.

(63) Piéces Diverses : op. cit. P 228. Berthier.. op. cit. p.146

(64) لمزيد من التفصيل انظر. نبيل السيد الطوخى. المرجع السابق. ص 195 وما بعدها، كمال الدين حسين عبد الرحيم. المرجع السابق. ص 24-26.

(65) محافظ الحملة الفرنسية بدار الوثائق القومية، محفظة فترتها التاريخية من 30 سبتمبر سنة 1799 الى 18 يونية سنة 1801، (ظرف B6 161)

Reynier au citoyen pini. Benisouf le 20 Brumaire an 8.

(66) لمزيد من التفاصيل انظر محافظ الحملة الفرنسية بدار الوثائق القومية. محفظة فترتها التاريخية من 20 أغسطس إلى 31 أغسطس سنة 1800، ملف رقم 18.

L'Adjudand général Boyer au général Kléber à Miniet, Le 28 Fructidor an 7. (14 September 1799).

وتجدر الإشارة إلى أن الجنرال بويه ذكر أنه حرق أكثر القرى عصيانا وأعدم البعض ليكونوا عبرة لغيرهم.

(67) Jomard : op. cit. p 272.

(68) عبد الرحمن الرافعى. المرجع السابق. ج1، ص371، محمود الشرقاوى: المرجع السابق ص. 108.

(69) لمزيد من التفصيل انظر ناصر أحمد إبراهيم : المرجع السابق.

(70) من بلاد مركز ببا بمحافظة بنى سويف لمزيد من التفصيل انظر. محمد رمزى. المرجع السابق. ج3 ص 137.

(71) لمزيد من التفصيل انظر.

Vivant Denon : op.cit. T.1.P263, La Jonquiére. op. cit. t. III. PP 506-507.

عبد الرحمن الرافعى. المرجع السابق 12 ص 356، محمود الشرقاوى. المرجع السابق. ص 104.

(72) كمال الدين حسين عبد الرحيم. المرجع السابق. ص 12.

(73) لمزيد من التفصيل انظر ليلى عنان : الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة. سلسلة كتاب الهلال، العدد رقم 500، دار الهلال 1992 .ص ص 69 – 71.

(74) كريستوفر هيرولد. المرجع السابق. ص 267.

(75) نفس المرجع. ص 266.

(76) نقلا عن كريستوفر هيرولد المرجع السابق. ص 266،كمال الدين حسين. المرجع السابق. ص 26.

(77) محافظ الحملة الفرنسية. بدار الوثائق القومية، محفظة فترتها التاريخية من 20 إلى 31 أغسطس سنة 1800 ملف رقم 16.

Le Général Désaix au Général Klébér.Doc,No.180, le 12 september 1799.

❊ ❊ ❊

مقاومة تحت السطح
المباشرون الأقباط والحملة الفرنسية

د/ ناصر أحمد إبراهيم

تلاحقت الهزائم بالمماليك فى كل من شبراخيت وإمبابة، بعد سقوط الإسكندرية فى 3يوليو 1798، فى الوقت الذى كان القائد العام بونابرت يراسل فيه كل الجماعات التى لها صلة بالسلطة المملوكية وبشئون إدارة البلاد، وخاصة تلك التى كانت تحظى بثقة الأهالى وحينما داهم الفرنسيون القاهرة (فى 23 يوليو) بات الموقف أكثر صعوبة؛ إذ كان على الجميع أن يحدد موقفه سريعًا. ولما كان المباشرون الأقباط أكثر من غيرهـم ارتباطاً بالبيوت المملوكية؛ حيث كانوا يديرون حسابات ممتلكاتهم العقارية، ومجمل أنشطتهم المالية - فقد تعين عليهم أن يحسموا أمرهم قِبل السلطة الجديدة التى عرضت عليهم الأمان ودعتهم للعمل معها.

ومن المؤكد أن الموقف كان عصيبًا ومحيرًا، ليس من جراء ضيق الوقت المتاح لبلورة رؤية شاملة للمسألة، وإنما - كذلك - بسبب تناقض الاتجاهات التى قد لا تسمح بموقع وسط لمالأة الجميع، وتحتم، من ثم، العمل مع سلطة واحدة، خاصة وأن البيانات الأولى للغزو الفرنسى كانت تعلن عن شروعها فى تقويض النظام المملوكى ومصادرة كل ممتلكاته[1]، وهو ما كان يمس بشكل مباشر مصالح جماعة المباشرين ؛ ولذلك لم يكن ليماطل المعلمون الأقباط القيادة الفرنسية طويلاً، حيث

انتهى بهم الأمر إلى قبول عرض بونابرت: فهل كان إقدامهم على هذا القرار يمثل نوعاً من المغامرة؛ بغية حفاظهم على استمرارية تواجدهم فى إدارة مالية البلاد، أم تجاوز الأمر حدود مصالحهم المباشرة، وحمل رؤية خاصة فى قراءة الواقع السياسى، وفى التحسب لتقلباته المفاجئة؟ ومن جانب آخر هل أتاح إلحاقهم بالإدارة الفرنسية ممارسة دورهم بالكيفية نفسها التى كانوا عليها قبل مجىء الحملة، أم وُضِعَت قيود معينة اختزلت هامش الحركة، وجعلت من المباشرين مجرد أدوات ضرورية جرى تطويعها؛ لإحاطة الجانب الفرنسى بالحقائق الضريبية والإدارية للبلاد؟ إن محاولة الإجابة على هذه التساؤلات سوف تساعدنا على فهم طبيعة الدور الذى أدته جماعة المباشرين فى إدارة الجباية، وعلى تحليل مجمل العلاقات التى ربطتهم بالمسئولين الفرنسيين.

وبداية يجب أن نشير إلى أن استعانة الفرنسيين السريعة بالمباشرين الأقباط قد جعلتهم يستعدون كمحصلين للجباية وكمسئولين عن تنظيم قوائمها الحسابية، وفقًا لما كان سائدًا قبل مجىء الاحتلال. والفارق الجوهرى يظل متمثلاً فى أنهم صاروا يعملون فى إطار إدارى، بوصفهم موظفين رسميين، خاضعين لرقابة فرنسية، بعد أن كانوا يعملون بدوائر الملكيات الخاصة التى بلغ الارتباط بأربابها أنهم كانوا يُكنون بأسمائهم(2) . على أن ذلك لم يعن أن الإدارة المالية الفرنسية قد تعاملت مع المباشرين بصفتهم أفرادًا، وإنما تم التعامل- منذ البداية - من خلال جرجس الجوهرى نفسه، باعتباره "رئيسًا للكتاب الأقباط". وبعبارة أخرى، فرض التنظيم القبطى على الفرنسيين ضرورة التعامل مع المباشرين بوصفهم "جماعة"، وسوف تمثل هذه الحقيقة لبَّ إشكالية العلاقة الإدارية التى ربطت المعلمين الأقباط بالجانب الفرنسى.

* * *

كان الغموض قد غلف كل شىء فى النظام الضريبى والمالى، ووجد الفرنسيون

أنفسهم فى حاجة ماسة إلى بذل جهد، غير عادى؛ للحصول على المعلومات التى يصعب بدونها السيطرة على الموارد وإدارة مالية البلاد ككل. وإذا كان المباشرون على وعى تام بخطورة الإفصاح عن أسرار مهنتهم، فإن الرؤية بالنسبة للجانب الفرنسى، اتسمت بالضبابية الكثيفة. وبقدر ما كان يمكنهم رصده من معلومات وبيانات، بقدر زيادة معرفتهم بمصادر جديدة للإيرادات. وبداهة كان لذلك تأثيره على شكل العلاقة بين الجانبين. وسعيًا إلى فهم أعمق للعوامل التى كانت تشكل مضمون هذه العلاقة التى مرت - رغم قصر المدة الزمنية - بأطوار مختلفة، يتعين أن نتناول أبرز المشكلات والمصادمات شبه اليومية التى كانت موطنًا للاحتكاكات المستمرة. ولَّما كان الفرنسيون مضطرين إلى متابعة فترات الفيضان التى تحدد الدورات الزراعية، ومن ثم أقساط جباية الضرائب – فإنهم اعتمدوا تنظيم الميزانية وقوائم الحسابات وفقًا للتقويم القبطى للسنة المالية التى تبدأ فى شهر توت(سبتمبر) وتنتهى مع بدء صعود الفيضان بين شهرى بؤونه وأبيب(يونيو - يوليو) . وإذا كانت المحصلة المعرفية تتجلى نتائجها، على نحو بَيِّن، فى نهاية كل سنة مالية، فإن الإدارة الفرنسية كانت تولى اهتماماً ملحوظا، بمراجعة قرارات سبق اختبارها، واتخاذ إجراءات جديدة خلال الفترة الانتقالية من يوليو إلى سبتمبر(3)، الأمر الذى كان يؤدى إلى حدوث تغير نوعى، من عام مالى إلى آخر، فى شكل ومضمون العلاقة بين الجانب الفرنسى والمباشرين الأقباط. وعلى ذلك سوف يتم دراسة الدور القبطى فى الإدارة المالية، من خلال تحليل أبعاد المواجهة طيلة السنوات المالية الثلاث(1213/ 1214/ 1215) التى شملت فترة الاحتلال(1798-1801) والتى مثلت فى الوقت نفسه ثلاث مراحل أساسية فى مجمل تطور علاقتهم بالفرنسيين، وإن كان ينبغى التنويه إلى أن اتفاق تلك المراحل الثلاث مع فترات حكم الجنرالات بونابرت وكليبر ومينو، ليس سوى اتفاق عفوى.

المرحلة الأولى(سبتمبر 1798- أغسطس 1799)

يمكن أن نميز فى هذه المرحلة موقفين رئيسيين للمباشرين الأقباط قبل الإدارة

الفرنسية: الأول منهما كان فى إطار استطلاع مدى قدرة الفرنسيين على الإحاطة بالنظام المالى والضريبى، يوازيه، فى الوقت نفسه، متابعة دقيقة لكل التطورات السياسية التى لها تأثير مباشر أو غير مباشر على مدى الاحتفاظ بمواقعهم فى إدارة النظام الضريبى فى مصر. والموقف الآخر جاء نتيجة للأول؛ إذ مع تبين عجز المحتلين عن استيعاب كُنْه النظام وآلياته المعقدة، فى الوقت الذى كانت المصادمات العسكرية مستمرة بين كل حين وآخر - فإن الجانب القبطى يحدد لنفسه اتجاهًا يقضى بوجوب تحقيق السيطرة الفعلية على المعلومات والإيرادات معًا؛ ومن ثم تصبح العلاقة طردية بين اللجوء إلى وسائل التحايل، وتزايد المواجهات والاحتكاكات شبه اليومية . وسوف نحاول تحليل طبيعة العلاقة بين الجانبين، فى إطار هذين الموقفين اللذين سوف يؤثران، بدرجة ملحوظة للغاية، على تغير شكل إدارة الجباية.

حذر وترقب

يُطالعنا تقرير سكرتير المالية بيروس بحقيقة موقف المباشرين الأقباط، من السلطة الفرنسية، خلال الشهور الأولى من الاحتلال، فيشير إلى أنهم كانوا مرتابين ومنقسمين بين الخوف الذى يثيره لهم الأمراء المماليك ساداتهم القدامى، وبين الهلع الذى حمله إليهم الغزو الفرنسى، ولذلك لم يقدموا لهم، فى البداية، أية معلومات[4] وقد أكد هذه الحقيقة الجنرال زايونشيك، من واقع احتكاكه ورقابته شبه اليومية للكتبة الأقباط، فى دائرة الفيوم وبنى سويف والمنيا[5].

وكان تتبع المباشرين للتطورات السياسية المختلفة التى تلاحقت فى هذه المرحلة، قد فرض عليهم ضرورة توخى الحذر والاحتفاظ بحق مراجعة كل المواقف والصلات التى ربطتهم بجميع الأطراف: فمن ناحية لم يستطع الفرنسيون القضاء على مراد بك ومماليكه، وهو ما كان كفيلا بجعل مركز الفرنسيين بالصعيد مؤقتًا أو غير مستقر[6]؛ حيث ظل المماليك قادرين على مداهمة الكتائب الفرنسية فى كل مكان بالوجه القبلى، فيما عُرف "بحرب العصابات"[7]، ومن ناحية أخرى، عاين

المباشرون تحطم الأسطول الفرنسى، فى مطلع هذه المرحلة، وإعلان التحالف العسكرى بين العثمانيين والإنجليز، كما كانوا شهود عيان على نجاح الباب العالى فى إرسال فرمانات ومنشورات عثمانية، تحض على الثورة والمقاومة، تم توزيعها بين أهالى القرى[8]، والتى انعكس مردودها بجلاء فـى امتناع الفلاحين عن تسديد الضرائب، على الرغم من وجود الطوابير العسكرية التى كانت تهدد بمداهمة القرى وحرقها فى حال الإصرار على عدم الدفع.

وعلى ذلك كان المباشرون قد وجدوا أنفسهم فى موقف شائك. وكانت الحقيقة الوحيدة الواضحة لهم أن الارتكان على السلطة الفرنسية وحدها سوف يجر عليهم المتاعب، وليست حوادث قتل أو اغتيال بعض الأمناء الأقباط فى بعض القرى[9] إلا مؤشرًا على تلك الصعوبات التى تنتظرهم. ولعلهم ما فتئوا يتذكرون حوادث عام 1200(85-1786) التى نزل بهم، خلالها، أشد المصادرات من جراء دورهم الرئيس فى تلفيق الحسابات التى أدت إلى سطو الأمراء المماليك على مجمل "خزينة السلطان". وهى تجربة عصيبة نزعم بأنها أثْرَت خبرة المباشرين فى التعامل مع السلطة، وذلك عبر التحسب لتقلباتها المفاجئة، وعدم الرهان على جانب واحد. ومن ثم فقد كان من المتوقع أن يحاول المعلمون الأقباط، بعد احتفاظهم بمواقعهم السابقة فى إدارة الجبايات، معاودة الاتصال بالمماليك سرًا، وأن يحولوا، فى الوقت نفسه، دون أن تُثار ضدهم من قبل سلطات الاحتلال، أية شبهة حول هذه المسألة[10].

وتجدر الإشارة إلى أن التحديات لم تقتصر على مدى قدرة المباشرين على إدارة التعامل مع المصالح المتناقضة للقوى المتصارعة على السلطة فحسب، وإنما كان هناك ما هو أكثر خطورة على مستقبل عملهم فى الإدارة المالية برمتها؛ فاتجاه بونابرت إلى وضع وكلاء فرنسيين لمراقبة مجمل الحسابات القبطية، قد يؤدى إلى وضع نهاية للامتياز الذى استأثروا به فى هذا الجانب الحيوى من الإدارة[11]. وهى مسألة استوعب المعلمون الأقباط مراميها؛ ومن ثم فقد تعين عليهم إحكام

السيطرة على الجهاز الإدارى القبطى، من أصغر كاتب فى قرية إلى أعلى مسئول فى الجماعة القبطية؛ لأجل الحيلولة دون تسرب المعلومات الدقيقة عن النظام الضريبى والمالى: فلقد نجح المعلم جرجس الجوهرى فى إقناع الفرنسيين بأن قوائم الضرائب لا تصدر إلا عن مكتبه بالقاهرة، سواء للمسئولين الفرنسيين أو لسائر مباشرى الأقاليم.[12] ولمَّا تم استعادة ذات التنظيم الهرمى للكوادر القبطية السابقة، بات المعلم جرجس الجوهرى - بوصفه المباشر العمومى - متحكمًا، بصورة فعلية، فى تحديد نوعية البيانات والمعلومات التى كان يمكن كشفها للفرنسيين أو حجبها عنهم.

ولعل مما يعكس وجود درجة كافية من الوعى لدى جماعة المباشرين بأهمية التكاتف والالتزام بالخط العام الذى حدَّدُوه لأنفسهم؛ للحفاظ على احتكارهم للمعلومات - أنهم كانوا، بدرجة من الإفراط فى الحذر، يمتنعون عن الرد على ما يواجهونه من تساؤلات أو استفسارات. ويدلى جيرار بشهادته فى هذا الصدد(وكان معنيًا بجمع المعلومات المتعلقة بالاقتصاد الريفى والنظام الضريبى) إذ يقول: "كان أمثال هؤلاء القوم أقل استعدادًا لتقديم المعلومات حول الوسائل التى يحرصون على إحاطتها بالغموض.. وهذا ما يفسر - بقدر كاف - سر القلق الذى كان ينتابهم من الأسئلة التى كنت أوجهها لهم، وكذلك سوء نيتهم حين كانوا يضطرون للإجابة" وأنه لذلك لم يحصل إلا على معلومات غامضة، وآمل أن يتمكن غيره من رصد ما عجز عن تحصيله منها[13].

وكانت "الحماية" التى وفرها المعلم جرجس الجوهرى وكبار المباشرين Les Grands Coptes لمرءوسيهم من الكتبة والعمال الأقباط بإدارة الجباية، قد أدت إلى تدعيم وحدة الصف، وتماسك البنيان الداخلى للجماعة[14]. وخاصة أن أمر تعيين أو رفت أحد هؤلاء الكتبة كان امتيازًا قاصرًا على المعلم جرجس الجوهرى[15]؛ ولذلك كانت أية شكاية تتعلق بالكتبة والمباشرين تحال على الأخير؛ ليحقق فيها بنفسه ويتخذ الإجراء المناسب بشأنها[16]. وهو الأمر الذى أتاح للمباشرين غطاءً قويًا لمعظم ممارساتهم المختلفة.

وكان حرص بونابرت على الحيلولة دون وقوع مصادمات بين المباشرين والمسئولين الفرنسيين، قد أدى إلى تمادى الأقباط فى توسيع هامش حركتهم: فقد كان من الأهمية بمكان للجانب الفرنسى احتفاظ المباشرين بمكانتهم وهيبتهم بين أهالى القرى، وأن يظلوا متمتعين بثقة السلطة الفرنسية، كأحد الركائز الأساسية لاستقرار جباية الضرائب؛ ولذلك عندما قام أحد جنرالات الأقاليم بالقبض على مباشر قبطى، تعاون مع المقاومة المملوكية ضد الجيش الفرنسى، سارع بونابرت بشجب تصرف هذا الجنرال، محددًا الإطار العام للتعامل مع المباشرين الأقباط: "إننى لا أنظر بعين الرضا إلى الأسلوب الذى تصرفت به تجاه القبطى، فمقصدى هو مراعاة هؤلاء الناس، وإبداء حسن النوايا نحوهم قل لى ما هى موضوعات شكواك منه وعندئذ أتولى إحلال شخص آخر محله .. ادرس الناس الذين تجد نفسك بين ظهرانيهم، وميز أولئك الأكثر استعدادًا لتوظيفهم، واضرب أحياناً أمثلة عادلة وقاسية، دون أن تقدم أبدًا على أى شىء يقترب من الهوى والاستخفاف"[17].

ويبدو أن هذه التعليمات قد مثلت الاتجاه العام لسلطات الاحتلال قِبل المباشرين، على الأقل فى هذه المرحلة؛ إذ نجدها تشكل لبَّ التوجيهات التى يُوصى بها مدير المالية (بوسيلج) أحد الوكلاء الفرنسيين: "إنــه لمن المفيد لنا أن يتمتع المباشرون بالاحترام والتقدير من جهتنا؛ لأجل أن يتحصلوا على الضرائب بأنفسهم من القرى، وكذلك أن يلاقوا عقابنا حينما يبدون إهمالاً فى عملهم، وإن كان يتعين ألا يُحقر أحد من شأنهم على مرأى من أهالى القرى"[18]. بل وكانت الإدارة المالية على استعداد للذهاب إلى أبعد من ذلك، بإبدائها المرونة مع المباشرين الذين يثبت اختلاسهم وتضليلهم للفرنسيين بشأن تركات الأمراء المماليك المصادرة، على نحو ما تمثله حالة المعلم إبراهيم الحلفاوى، مباشر ولاية الفيوم[19]. ومن جانب آخر كان ثمة حرص على إشعار المباشرين بأن حمايتهم أحد الشواغل الأساسية للقيادة العامة نفسها، وذلك عبر التأكيد لهم على موقفها الصارم فى معاقبة القرى التى تعرضت للأقباط، غير مرة، للقتل والاغتيال[20].

وإذًا كانت الإدارة المالية للاحتلال منشغلة بعدم المساس بمكانة المعلمين الأقباط أو كوادرهم من الكتبة والصيارفة؛ بهدف استيعابهم فى الإدارة؛ لأجل دفع القرى للتواصل فى تسديد الضرائب، بالإضافة إلى تهيئة مناخ من التعاون بين الجانبين، كخطوة أساسية لاندماج الوكلاء الفرنسيين، ومن ثم السيطرة رويدًا رويدًا على المعلومات المجهولة.

سلطة المعرفة وضغوط المحتل

وإذا كان للمباشرين - دومًا - حساباتهم الخاصة، فسوف يجيدون استغلال الموقف الفرنسى الحريص على كسب تعاونهم؛ إذ يجرى مواجهة ضغوط المسئولين الفرنسيين فى طلب معرفة القوائم التفصيلية للضرائب والقرى والمعلومات المتعلقة بها - بالفتور وبشىء كثير من اللامبالاة، الأمر الذى جعل بونابرت أكثر تململاً من ردود فعلهم، وخاصة بعد أن أبدى المشايخ تجاوبًا ملحوظًا، فى الإفصاح عن أملاك الأمراء المماليك، فى حين ظل المباشرون والعمال الأقباط يشملهم الصمت المطبق بشأن هذه الأملاك التى كانوا، قبل مجىء الحملة، يديرون حساباتها؛ ولهذا فإنه يكتب إلى المعلم جرجس الجوهرى، فى لغة أقرب إلى العتاب؛ لأنه كان لا يزال حريصًا على استنفار المباشرين، وعدم فقد عونهم: "إننى لأطالب الأقباط بأن يبدوا الحماس والثقة والإخلاص فى خدمتهم للجمهورية، ولا أكتم عنك ما أشكوه من فتور الهمة الذى أصاب الكثيرين من بينهم".[21] على أنه من جانب آخر، وقد تأكد من صعوبة تطويع المباشرين فى الاتجاه الذى يؤدى إلى كشف الحقائق الضريبية، يقرر إيجاد مصادر متعددة لجمع المعلومات، فيجرى إنشاء "لجنة الحبوب" فى يناير 1799 لتشمل أقاليم مصر الوسطى "الفيوم وبنى سويف والمنيا"، ويعهد إلى "ليفرون وهاملان" (فى مارس 1799) القيام بالمهمة نفسها فى مصر العليا[22]. وإن كانت التجربة سوف تبوء بالفشل؛ حيث يؤكد "بيروس" بأن المباشرين ضنوا بالمعلومات على هؤلاء المسئولين بل وأوقعوا بهم فى أخطاء فادحة[23]، الأمر الذى أدى إلى تعاظم أهمية استقصاء المعرفة عبر التطواف بين القرى، اعتمادًا على

الفلاحين البسطاء وبعض مشايخ القرى وغيرهم من أبناء الريف. غير أن هذه الوسيلة استغرقت وقتًا طويلاً[24]، ولم تنجح فى الإحاطة بالحقائق الضريبية، التى تكشف كُنْه النظام، بشكل جعل حجم الإفادة منها، زمن الاحتلال محدودًا، وهو ما اضطر المسئولين الفرنسيين إلى الاعتماد على القوائم المجملة التى حررها المباشرون الأقباط، ومواصلة البحث والضغط عليهم.

وكان توجه بونابرت، بأفضل قواته، فى هذه الفترة، إلى غزو الشام، قد وضع على محك الاختبار مدى رسوخ السيطرة الفرنسية على مصر، وهو ما كان سببًا فى إثارة الحذر والترقب لدى الجميع[25]. ولاسيما جماعة المباشرين الذين مارسوا - بقدر كبير من التحفظ كل وسائل التسويف والمماطلة فى تسديد الضرائب، بل وفى ادخار ما وسعهم من تحصيلات؛ لتأمين أنفسهم فى المستقبل القريب الذى بات من الصعب التكهن بما يحمله من تطورات.

وتتيح أوراق ومراسلات الجنرال زايونشيك، حاكم مصر الوسطى(الفيوم - بنى سويف – المنيا)، التعرف على بعض تلك الوسائل التى رصد بوادرها منذ الشهور الأولى من احتلال الصعيد التى توافقت مع حلول موسم جباية القسط الأول للميرى: فنجده يرصد تباطؤ المباشرين فى تنفيذ الأوامر والتوجيهات، وتلكؤهم فى تحصيل الضرائب؛ حيث كانوا يتعللون، بصفة مستمرة، بأن القرى غير هادئة، وأن الفلاحين يتابعون الموقف عن كثب، ويرسلون من يتحرى لهم الأخبار، وينتظرون فى كل يوم، سماع أخبار المعارك الجارية، بين المماليك والفرنسيين، ومن ثم لا يمكنهم الجباية فى مثل هذه الظروف[26]. كما يشير "زايونشيك"، فى مراسلاته، إلى أن تهديد العمال الأقباط بتكبيدهم غرامة نقدية تتناسب مع كل تأخير فى الدفع، لم يلق سوى استجابة سلبية؛ إذ "لم يُفزعوا للسداد تحت التهديد بالتغريم"[27] ولذلك مضت الجباية بصعوبة بالغة. وكان قد تزامن مع غزو الشام حلول القسط الثانى من الميرى. وتوضح أوراق زايونشيك أن المباشرين حاولوا إغراء الوكلا الفرنسيين بأن القرى فى إمكانها تسليم "الحصيلة" بنفسها إلى مقر القيادة الإقليمية

دونما حاجة إلى الطوابير الفرنسية المتحركة التى تجوب القرى فى مساعدة الصرافين، وإذ يتبين أن هذا الأسلوب لم يحقق أية نتيجة، وأنه كان من بين حيل الأقباط فى التسويف، فإنهم يقررون النزول للقرى بأنفسهم "دون هؤلاء الأقباط الأشقياء"[28]. وهو إجراء يثبت فشله سريعًا؛ فالقرى لم تكن لتدفع إلا فى حضور العمال الأقباط.

وحال تأكد الإدارة من أن الفلاحين سددوا الضرائب العينية(حبوبًا وخيولاً)، تسارع فى اتخاذ قرار يقضى بمباغتة المباشرين والكتبة فى القرى ؛ لمصادرة تلك التحصيلات التى ماطلوا فى تسليمها لخزانة الجمهور. غير أن المباشرين يتداركون أمورهم سريعًا ويفوتون الفرصة على الجانب الفرنسى . وهذا ما يدفع "زايونشيك" إلى التأكيد على وجود ما أسماه بـ "التنبيهات القبطية" (أى شبكة استخبارية) التى تتمكن من الإحاطة، بطريقة أو بأخرى، بالترتيبات التى تعزم الإدارة اتخاذها ضدهم؛ كما يدلل على هذه الحقيقة بحادثة فرار المعلم "إبراهيم الحلفاوى" من الفيوم، قبل وصول الرسالة التى تقرر بها أمر اعتقاله![29].

لقد بات واضحًا للجانب الفرنسى أن درجة استجابة المباشرين للتعاون متوقفة على النتيجة التى سوف تسفر عن "غزوهم للشام". وكان هذا عين ما أدركه "زايونشيك"، عبر احتكاكه اليومى بالصيارفة الأقباط؛ ولذا فإنه حين يُحاط علمًا بفشل هذا الغزو، ينتابه القلق الشديد، وهو ما تفيض به مراسلته إلى "دوجا" قبيل عودة بونابرت: "إننى لخائف أن يؤدى هذا الفشل إلى تباطؤ حركة جباية الضرائب، من جراء استغلال العثمانيين لهذا الخبر الذى سوف يبالغون، بكل تأكيد، فى تصويره للفلاحين، وهم الذين يتمنون اضطرارنا للجلاء عن هذه البلاد"[30].

وأكدت الأسابيع التالية مظان ومخاوف الجنرال زايونشيك؛ فقد توالت "المنشورات العثمانية ومكاتيب المماليك"[31] على البلاد، تبشر بقرب مواجهة حاسمة، تُجلى هذا الاحتلال ؛ وهو ما يؤدى إلى تعثر الجباية. ولن تُجْدِى تحذيرات القائد العام بونابرت بالتغريم والمصادرة للأراضى[32].

ودون أن يكون ثمة تنسيق ما، بين العمال الأقباط والفلاحين، سوف يدفع القلق الفلاحين إلى النتيجة نفسها ؛ فقد رصد الجنرال زيوانشيك - وهو مراقب ذكى - حالة العناد الشديد التى أبداها الفلاحون قِبل الفرنسيين، حتى ليقرر للإدارة المالية بأن الجباية سوف تتعرض للتوقف إن لم يسعفوه بقوات عسكرية تخيف هؤلاء الممولين وتدفعهم للوفاء بالمستحقات[33].

على أن حركة الجباية تتجمد، بصفة عامة، إثر تواتر الأنباء عن نزول قوات عثمانية فى أبو قير(يوليو 1799)، ويضطر بونابرت لإجبار المعلم جرجس الجوهرى على مرافقته[34]؛ تحسبًا لخوض معركة مصيرية قد تطول، وتستلزم، من ثم، تأمين الاحتياجات المادية للجيش الفرنسى؛ ذلك أن تواجد هذا المباشر العمومى يظل بمثابة ضامنة؛ تدفع كل المباشرين والعمال الأقباط، فى جميع القرى، إلى إمداد الفرنسيين، تحت كل الظروف، بالأموال والمؤن الغذائية.

ومن المؤكد أن انتصار الفرنسيين فى أبو قير قد أخمد الأمل فى إنهاء علاقة لم يكن بوسع المباشرين الأقباط أو غيرهم التهرب منها . وقد أدركوا، بعين ثاقبة، أن هزيمة العثمانيين ليست حاسمة للموقف، بشكل نهائى، وإنما هى جولة تتلوها جولات أخرى، سوف يكون مجالها مصر، بعد فشل غزو الشام، ولهذا كان من الأهمية كسب المزيد من الوقت: فقد تمادوا فى تلكؤهم فى دفع مستحقات الضرائب . ويفترض بأن مبررهم تمثل، فى هذه المرة، فى امتناع مشايخ القرى عن تسليم الحصيلة . وهو افتراض تدعمه رسالة مدير المالية إلى بونابرت التى صور للأخير فيها مشهدًا بالغ العنف، وُجهت خلاله اتهامات مشايخ وعلماء الديوان للمباشرين الأقباط بأنهم تآمروا مع الفرنسيين على المسلمين، وهددوا - على نحو ما مر بنا - فى حال عدم الإفراج عن مشايخ القرى، بالامتناع عن المجىء للديوان[35]. وهو ما كان سببًا فى إطلاق سراحهم . وسواء أكان طرفا الجباية(المباشرون ومشايخ القرى) قد اتفقا معًا على إثارة هذه المشكلة[36]؛ لأجل استهلاك الفترة الحيوية المتبقية لجباية الضرائب قبل مجىء الفيضان، أم كانت محاولة كل منهما لتبرئة ساحته من تحمل المسئولية، قد

وحدت الموقف بينهما على نحو عفوى - فإن المحصلة النهائية بالنسبة لمالية الجيش أن السنة المالية الأولى قد انقضت، دون تسوية حساباتها ؛ لتبرز مشكلة تراكم بواقى المال الميرى التى تظل مستعصية على الحل حتى الشهور الأخيرة السابقة على الجلاء!.

وفى خطوط متوازية مع وسائل التسويف والمماطلة، تمدنا المصادر الفرنسية ببعض المعلومات المهمة عن لجوء المباشرين لوسائل أخرى، كان من بينها استغلالهم للطوابير العسكرية التى كانت ترافقهم فى جولات الجباية، فى تكبيد الأهالى دفع المزيد من الضرائب التعسفية، على حين كانوا يحجبون الجزء الأكبر من الإيرادات المحصلة بين أيديهم، ولا يكشفون عن حقائقها للمسئولين الفرنسيين؛ وأنه بهذه الطريقة أمكن للمباشرين الأقباط الإثراء على حساب السلطة الفرنسية. وكان زايونشيك فى طليعة من أكدوا على هذه النتيجة؛ مستندًا على علامات الإثراء التى كانت تَتَبَدَّى على الصيارفة الأقباط لدى عودتهم من جولات الجباية. فقد كتب لمدير المالية "بوسيلج": "جميعهم يختلسون فى الحسابات، ولدى البرهان الذى يؤكد ذلك: فعندما رحلت لعمل جولة لجمع الضرائب فى صحبة مائة قبطى على الأقل، وجدتهم إما يترجلون على أقدامهم أو كانوا على الحمير. وحين قفلنا من الجولة عادوا جميعا فى وضع أكثر وجاهة وعلوًا على صهوات الخيول. وليس هذا، بداهة، إلا من جراء ما يتحصلونه من الفلاحين؛ حيث يرتكبون تعدياتهم على هؤلاء الفلاحين سرًا، وذلك خلال ساعة معينة يجيدون تحديدها وهم معتقدون بأنهم مفلتون من العقاب"[37]. ويصل سخط زايونشيك من هذه الممارسات حدًا يجعله يصف المعلم جرجس الجوهرى بأنه "رئيس لصوص Chef des voleur يقود مجموعة كبيرة من المحتالين Les fripons" [38].

وإذا كان الفلاحون قد استُهدِفُوا من قِبَلِ العمال الأقباط، إلاَّ أن ذلك قد تم، فى الغالب، فى إطار ما كان معتادًا تحصيله من القرى. فقد توافر وعى تام لدى المعلمين الأقباط، بضرورة الموازنة بين مصالحهم الخاصة ومصالح الفلاحين، وخاصة فى

ظل السباق المحموم على جباية الضرائب بين المماليك والفرنسيين. ولعل هذا ما جعل المباشرين يلحون على الإدارة المالية بضرورة تخفيض الضرائب عن القرى التى تعرضت لهجمات المماليك، وإسقاط حق المطالبة عن تلك التى اضطرت لدفع الميرى لهم. ولم يكن للفرنسيين أن يغضوا الطرف عن هذه المسألة؛ تفاديًا لمواجهة عنيفة، قد تؤدى إلى توقف الجباية ككل. ومن ثم فقد كانوا مضطرين إلى تلبية هذه الطلبات؛ ولذلك يُلاحظ فى "دفاتر الترابيع" تمييز المعلمين الأقباط بين "قبض الجمهور" و "قبض المماليك"[39]، بل ونجد فى أحد التقارير المالية إشارة لتخفيض ناتج عن "نهب العربان"[40].

وتوضح المصادر الفرنسية بأن المباشرين استغلوا تلبية الجانب الفرنسى لطلبات التخفيض بالتحايل على إدراج قرى، لم يتعرض لها المماليك بسوء، ضمن القائمة المستحقة للتخفيض؛ وذلك لأجل الاستحواذ على إيراداتها. وهذا ما ترصده ملاحظات زايونشيك؛ إذ يكتب إلى الجنرال فريان: "إن المباشر القبطى الأكثر تآمرًا، بإمكانه أن يقلب السماء والأرض؛ لكى يحصل على تخفيض الضرائب؛ ليحظى بإيرادات قرية قادرة على الدفع؛ فهى من بين أكثر القرى غنى، كما أنها لم تتعرض لهجمات المماليك". وحذر من أن الاستجابة للعامل القبطى بهذه القرية سوف يدفع القرى المجاورة للمطالبة بالتخفيض ذاته[41].

وإذ يواصل المباشرون الأقباط تقديم طلبات التخفيض الضريبى للعديد من القرى، فإن المشكلة تتزايد تعقدًا، وخاصة وأنها باتت تهدد الخزانة العامة لمالية الاحتلال، والتى اضطرت لعمل زيادة فى معدلات الضرائب؛ كى تؤمن النفقات الضرورية للجيش. وعندما لاحظ المسئولون الفرنسيون أن الأقباط عمموا التخفيضات على قرى عديدة بمعظم الأقاليم ؛ فقد تشككوا فى صحة المزاعم والتعللات التى قدموها؛ الأمر الذى اضطر بونابرت إلى إصدار "أمر يومى"، قبيل رحيله بأيام، آملاً فى وضع حدٍ لهذه الظاهرة التى استشرت على نطاق واسع؛ فقد قرر عدم الاعتراف بإيصالات المماليك Reçus des Mameluks، واعتبرها لاغية،

ووجَّه تحذيره للمعلم جرجس الجوهرى ولكل الكوادر القبطية بأنه: "لن تمرر هذه المخالصات Décharges ولن تعفى الأقباط من الحساب، وإن أدرجوها سوف يتحملون دفعها من نقودهم، وجميع تلك القرى سوف تُرغم على الدفع". وحذر كذلك جنرالات الأقاليم من التساهل فى اعتماد هذه البراءات، حتى لا يعتبرها المباشرون أذونًا رسمية بالتخفيض عند تسوية حساباتهم(42).

إن هذه الوسائل المتعددة التى لجأ إليها المعلمون الإقباط هى ما أمكن للفرنسيين رصده فحسب، وليس بالضرورة كل ماكان يجرى فى دهاليز الحسابات القبطية. وربما كانت إحدى المؤشرات المؤكدة لذلك اكتشافهم، فى نهاية هذه المرحلة، أن الجباة الأقباط أمكنهم حجب حصيلة مال "الفايظ" (عن سنة 1212/ 1798) والتى بلغت 124.349.1فرنك(أى ما يقارب الـ 38 مليون بارة)، وذلك عن كل "قرى المماليك" التى استحالت، بعد مصادرتها، إلى "قرى جمهور". وهذا ما دفع سكرتير المالية "بيروس" إلى التأكيد على أن مجمل حسابات العام الأول قد تأثرت بعدم خبرتهم بالنظام الضريبى، وأن هذا هو السبب الرئيسى الذى يسر للجباة الأقباط كل ممارساتهم(43). ولعل التقارير التى حُررت فى نهاية العام المالى الأول، عقب رحيل بونابرت، والتى أُرسلت لحكومة الإدارة تكشف عن مردود تلك الممارسات على الأوضاع المالية للجيش؛ حيث أبانت عن وجود أزمة مالية حادة، كانت تتفاقم شدتها من شهر إلى آخر.(44) الأمر الذى تطلب، وبشكل عاجل، اتخاذ نهج مغاير، يكفل وجود إجراءات معينة، ترقى إلى مستوى المواجهة لكل وسائل المعلمين الأقباط، وهو ما سوف يشكل المحور الرئيسى للاحتكاكات بين الجانبين فى المرحلة التالية.

المرحلة الثانية (سبتمبر 1799- مارس 1800)

ما إن يصل كليبر من دمياط إلى القاهرة فى 30 أغسطس 1799؛ ليتولى القيادة، حتى ينكب على فهم حقيقة الأوضاع التى انتهى إليها مشروع الاحتلال. وإذا يتكشف ثقل التركة التى خلفها له بونابرت، وخاصة ما تعلق منها بالوضع المتردى

لمالية الحملة وإدارات الجيش - فإنه يجد نفسه فى موقف أكثر إرباكًا: فالخزانة خاوية من قرش واحد، والاحتياجات الملحة والضرورية للجيش لا تجد أية اعتمادات، وبالقدر نفسه لا يمكن تدبير موارد عاجلة عبر اتباع أسلوب الغرامات والمصادرات والقروض التى طالما ضربها سلفه على الأهالى حتى استنفد طاقتهم، ولذلك أكد فى تقريره لحكومة الإدارة: "أن الرجوع اليوم إلى هذه الوسائل، فى الوقت التى نحن فيه محاطون بالأعداء من كل جانب، هو دفع بالبلاد إلى الثورة فى أول فرصة ممكنة"[45].

وتلقى رسالة مدير المالية بوسيلج إلى الجنرال ديزيه بالصعيد بعدًا آخر لهذه الحقيقة القاسية: "نحن فى حالة عوز شديد، ولدرجة بشعة، ولابد أن ننتظر أربعة شهور تالية حتى تصلنا إيرادات جديدة"[46]؛ حيث كانت أولى المحاصيل الشتوية يتم جبايتها بدءًا من شهر ديسمبر . ولذلك كان على القيادة العامة أن تسارع باتخاذ إجراءات عاجلة؛ لتدبير موارد مهمة للخزانة، ومن ثم يجد المباشرون الأقباط أنفسهم فى مواجهة الترتيبات الجديدة التى سوف يتخذها كليبر منذ الأيام الأولى لقيادته.

المباشرون الأقباط وترتيبات سبتمبر 1799

وفى الحقيقة لم يكن أمام كليبر، فى مطلع العام المالى، سوى مصدرين أساسيين، يمكنه من خلالهما توفير بعض السيولة الضرورية؛ تمثل الأول منهما فى مقدم الأقساط الذى كان يتم دفعها عند طلب "الإفراج الديوانى" بحصص الإيجار والالتزام، وتعلق المصدر الثانى بحصيلة البواقى ومتأخرات المال الميرى. وكان المصدر الأخير هو ما بادر كليبر بمطالبته من المباشرين الأقباط[47]، وخاصة بعد ما أحاط علمًا بأنهم تحصلوا "مال الفايظ 1212(1798)" لأنفسهم، ولم يكاشفوا الفرنسيين بقوائمه خلال محاسبتهم فى العام المالى الأول. وسعياً إلى تهدئة الأوضاع واستيعاب الموقف، يميل المباشرون إلى الإعراب عن إذعانهم للوفاء بقيمة مال الفايظ البالغة 124.349.1 فرنك. غير أنهم لا يسددون سوى مبلغ زهيد (124.49

فرنك)؛ أى ما يقارب 4% فقط من الإجمالى ![48] وماطلوا فى دفع المبلغ المتبقى، ويضطر كليبر أن يمهلهم فترة أخرى للسداد، ويكتب إلى الأمين العام للخزانة: "لقد بدا لى، على ضوء الملاحظات التى قُدمت أنه من المستحيل أن يرضى الأقباط بالدفع الكلى لهذا المبلغ إذ لم نعطهم مهلة كافية"[49]، وسوف ينجح المباشرون فى إرجاء دفعه رغم كل الضغوط. وبالقدر نفسه سوف يتيح لهم سوء منسوب فيضان عام 1214(1799) الفرصة فى الاحتفاظ بمتأخرات مال 1213 (98-1799)[50].

لقد كان المباشرون على حذرٍ شديدٍ من أن ينساقوا إلى تسديد الضرائب جملة واحدة للخزانة الفرنسية؛ تحسبًا لأية تغيرات مفاجئة فى الموقف السياسى والعسكرى للاحتلال؛ ولهذا يمضون، بالأسلوب نفسه، فى تسديدهم لمقدمات "القسط الأول" عن عام 1214 (1799-1800) والبالغة 800.000 فرنك، والتى تحصلوها بالفعل من الملتزمين والمستأجرين للقرى، ويضطر كليبر إلى وضع ترتيب يقضى بالدفع اليومى للحصيلة، والذى حدده بالاتفاق مع المباشرين بـ 20.000 فرنك؛ أى أن مهلة الدفع امتدت على مدار أربعين يومًا!! ورغم ذلك يلاحظ كليبر انعدامية الالتزام بدفع الحصة اليومية، كما يلتفت إلى تحايلهم فى الدفع بعملة البارة الرديئة[51]؛ ومن ثم يقرر، وبإصرار شديد، إلزامهم بدفع ثلثى الحصيلة من العملات الذهبية والقروش الفضية قوية العيار، ويسمح فقط بالثلث الأخير أن يُسدد بالبارة، كما يتجه إلى مضاعفة المبالغ التى يتعمدوا إنقاصها من الحصة اليومية؛ ليحول دون مماطلتهم فى التسديد[52]. وبسبب الأزمة المالية يتابع الأمر بنفسه، وهو ما يجعل المباشرين يشعرون بوطأة هذا القائد العام مقارنة بسلفه.

وإذا يتأكد لكليبر أن المباشرين لن يسعفوا الخزانة _ سريعًا _ بالأموال، فإنه يلجأ إلى تنشيط حركة الطوابير المتحركة التى تجوب القرى فى جمع الضرائب، ويكلف جنرالات الصعيد بأن ينهضوا بتنشيط هذه العملية، مطالبًا إياهم، بسرعة موافاته بالتحصيلات[53]. وصحيح أن القرى لم تكن لتدفع إلاً على رؤية الجند الفرنسى à la vue des soldats[54] إلا أن الناتج من استخدام هذا الأسلوب كان

جد يسير؛ سواء كان بسبب مقاومة الفلاحين وعنادهم أو كان من جراء قلة أعداد الجند[55]. وفضلاً عن هذا كانت جباية الحبوب من الصعيد هى المسألة الأصعب؛ حيث لم يكن للطوابير العسكرية أن تتوغل بين القرى بعيدًا عن ساحل النيل[56]. وأخيرًا يظل غياب وجود قوائم مفصلة بحصة كل قرية من الضرائب بمثابة العقبة الكؤود التى تدفع الكثير من القرى إلى رفض التجاوب بالدفع لقادة هذه القوات.[57]

وإذًا تحتم الاعتماد على الأقباط، وبات من الضرورى وضع ترتيبات معينة تحدُّ من ممارساتهم واحتكارهم للمعلومات. وتفتق ذهن كليبر عن إجرائين: الأول منهما تعلق بمواجهة "التسويف القبطى" فى تسديد الضرائب؛ وذلك عبر تكليف كل "صراف فرنسى" تولية تحصيل الجباية بنوعيها العينى والنقدى من جميع العمال والكتبة الأقباط الذين يجرى إلزامهم بسرعة إرسال حصيلة الضرائب إلى مقر الصراف الفرنسى بعاصمة الإقليم، فى مدى زمنى لا يتجاوز أربع وعشرين ساعة. وحمل "الأمر اليومى" تهديـدًا، لكل من يخالف منهـم هذه التعليمات، بالعزل من وظيفته وبتغريمه ثلاثة آلاف تالرى[58]. وعلى ذلك تغير مسار نقل حصيلة الجباية، إذ لم يعد المعلم جرجس الجوهـرى أو كبار المباشرين بالقاهرة ليتلقوا شيئا منها[59]، وأصبح مناطًا بكبار المسئولين الفرنسيين الإشراف الكامل على نقل الغلال من الصعيد[60]. وفـى الاتجاه نفسـه، وفيما يشـير إلى تحجيم الدور القبطى، إلى حد ما، فـى إدارة الجباية، تم تكليف "حسين أفندى" بالإشراف على تحصيل مال الميرى من "قرى الرعايا"، وبمراجعة قوائم المباشرين الأقباط الذين كانوا يسلمونه حصيلتها[61].

وتمثل الإجراء الآخر فى محاولته كسر الاحتكار القبطى للمعرفة الحسابية للضرائب الموزعة على كل القرى؛ من خلال إلزام جميع المسئولين الفرنسيين فى الأقاليم (الجنرالات قادة الأقاليم، والوكلاء الماليين، ومندوبى الصرف) باستقصاء كل المعلومات التى تمكن الإدارة المالية من إعداد سجل وافٍ عن القرى والضرائب

المحملة عليها؛ سعيًا إلى التمكن من الوقوف، بشكل دقيق، على موارد البلاد[62].
وإلى جانب ذلك أنشأ "لجنة الأغذية"(فى 21 سبتمبر 1799) التى تستوعب داخلها عمل "لجنة الحبوب ببنى سويف" و مهمة ليفرون وهاملان ؛ بحيث تصبح هذه اللجنة التى يتولى إدارتها الأقطاب الثلاثة للإدارة المالية(بوسيلج، واستيف ودور) - مشرفة، بشكل عام، على تنظيم المعلومات التى تصلها عن القرى، خلافًا لدورها فى تنشيط حركة نقل الحبوب أو تسويقها[63]. ومن الواضح أن كليبر راهن على المستقبل، رغم إيمانه العميق بفشل الحملة وبضرورة الانسحاب: فإذا ما قُدر للفرنسيين البقاء فى مصر زمنا طويلاً، فإن نتائج مثل هذا العمل يمكن أن تمثل عونًا معرفيًا، يُجلى الكثير عن كُنْه النظام الضريبى، بالقدر الذى يُقلل -فيما بعد- من الاعتماد على الأقباط[64].

تسحب المباشرين واضطراب الجباية

والواقع أن أكثر ما كان يخشاه المعلمون الأقباط أن تتجه الإدارة المالية إلى طلب "مسح الأراضى" وخاصة فى أقاليم الصعيد الذى يتميز بخصوصية تقدير ضرائبه استنادًا على قياس الأراضى الرى والشراقى[65]، والتى عادة ما كانت تتم فى أعقاب انحسار مياه الفيضان فى شهر سبتمبر أو أكتوبر من كل عام. ولم يكن للفرنسيين دراية بهذا الإجراء؛ ذلك أن جبايات العام الأول كانت قد تمت فى ظل مطاردة مراد بك والمماليك، وتلقوا الضرائب من المعلمين الأقباط مباشرة.[66] وإذا كان منسوب فيضان عام 1213(98-1799)، فى أغلب الأراضى، جيدًا، فإن ريف الصعيد لم يشهد أية قلاقل بشأن مسألة مسح الأراضى؛ ولهذا يفترض بأن الفرنسيين تعاملوا مع كل الأراضى باعتبارها "أراض أثرية" كتلك التى تعم أقاليم الدلتا، والتى بطبيعتها لا تحتاج إلى المسح السنوى.

وكان المعلمون الأقباط قد تعمدوا عدم إحاطة الجانب الفرنسى بهذه المسألة التى تمثل الركيزة الأساسية لهم فى مواجهتهم لكل الضغوط التى تُمارس عليهم،

والتى تمكنهم، فى الوقت ذاته، من التحكم فى الموارد، فيفصحون عن جانب منها ويحجبون عنهم الجانب الأكبر، على نحو ما سوف يتبين للفرنسيين فيما بعد.

غير أن الأمر فى عام 1214 (1799-1800) أصبح مختلفًا: فمنسوب الفيضان جاء سيئًا ومنخفضًا، وشراقى الآلاف من الأفدنة يؤكد النتيجة بشكل ملموس. ويبدو أن الكتبة والعمال الأقباط دفعوا بأهالى القرى لتقديم طلبات التخفيض؛ لئلا تطالبهم الإدارة المالية بالمال الميرى كاملاً. وتثار الشكوك فى صحة طلبات التخفيض، والأزمة المالية شديدة وخانقة، بالشكل الذى يجعل مدير المالية يرفض الاستجابة لتلك الطلبات[67]؛ فقد مالت الإدارة المالية إلى تحميل "الشراقى" على الفلاحين، ولم تدرك ما انطوت عليه هذه المسألة من مخاطر؛ وهذا ما يفسر اندهاش المسئولين الماليين الفرنسيين من استشراء ظاهرة "التسحب الجماعى"، دون أن يدركوا لبَّ المشكلة، حتى لنجد الجنرال زايونشيك يتساءل: "هل أهالى القرى يفضلون حياة التشرد عن سكن واستقرار عائلاتهم، عند مطالبتنا لهم بالأموال؟ إنهم جاهلون بعاداتنا؛ إذ يفرون منا بدلاً من أن يأتونا طالبين تخفيض الضرائب.." ولهذا حذر من مغبة هذه المشكلة التى لن تؤدى فى حال إهمالها سوى إلى "إخلاء القرى من فلاحيها الذين يتحولون عندئذٍ إلى لصوص Voleurs "[68].

ولدى دخول الفرنسيين فى مفاوضات مع الفلاحين المتسحبين للصحراء، أملى الأخيرون شروطهم للعودة لقراهم بأن يستجيب الجانب الفرنسى لتخفيض الضريبة على قريتهم(من 500 بوطاقة إلى 300 بوطاقة) بواقع 40٪[69]. وإذا يلتفت مدير المالية إلى تلك الصعوبات التى نجمت عن هذه المشكلة، فإنه يسارع باعتماد التخفيض[70]. وبخلاف سلاح التسحب، كانت بعض القرى من القوة ما يجعلها ترفض الدفع تحت التهديد الفرنسى بالاجتياح[71].

لقد برزت الظاهرة على نطاق واسع، بقدر اتساع الشراقى فى قرى ونواحى الصعيد. ويبدو أن "عرائض الشكاوى" هى التى لفتت انتباه الفرنسيين لخصوصية نظام الرى وطريقة تقدير الضرائب فى أقاليم الوجه القبلى. وجاءت أول إشارة

لإدراك الفرنسيين لأهمية "مسح الأراضى" فى رسالة رافييه (حاكم المنيا) إلى الوكيل الفرنسى فى 30 نوفمبر 1799: "يجب أن نجرى مسح الأراضى حتى نتعرف على ما يتعين على كل فدان دفعه من الضرائب"[72] .

وفى محاولة لإثناء الفرنسيين عن مطلبهم بمسح الأراضى وقياسها؛ تعلل المباشرون الأقباط بعدم معرفتهم بدفاتر المساحة(الترابيع)![73] غير أن مشاكل الجبايات ومخاوف الصدام مع القاعدة العريضة من الفلاحين، جعلت الوكلاء الفرنسيين يواصلون ضغوطهم على جرجس الجوهرى ومرءوسيه؛ للدفع بهم للقيام بهذا الإجراء الضرورى.[74] ومَثَّل هذا الموقف تحديًا صعبًا للمعلمين الأقباط. وكان وصول الأنباء عن تحرك الجيش العثمانى صوب العريش (8 ديسمبر 1799) - بمثابة انفراجة عاجلة للموقف؛ إذ سرعان ما انعكست فى اتجاه الكتبة والعمال الأقباط إلى "التسحب الجماعى" من الأقاليم إلى بيت المعلم جرجس الجوهرى. ووفقًا للوكيل الفرنسى "رينيه" لم يكن بالقرى والنواحى سوى ثلث الكتبة الأقباط ! وهو ما أدى إلى إبطال فاعلية أية ترتيبات اتخذت فى "مسح الأراضى"[75]، فضلاً عن توقف جباية الضرائب؛ حيث رفضت قرى عديدة دفع مستحقات الميرى فى ظل غيبة هؤلاء الكتبة[76] .

ومع تحقق الوكلاء الفرنسيين من صعوبة "مسح الأراضى" فى ظل ظروف صعبة والتى اضطرت القيادة العامة إلى إنهاء مشروع الاحتلال - فإن الاهتمام يصبح منصبًا على جباية ما يمكنهم من الضرائب، بقطع النظر عن مراعاة المساحات الشراقى؛ ومن ثم تتسم الجباية فى هذه الفترة بالعشوائية، وهو ما يتسبب فى امتعاض الفلاحين الذين انهالت شكاواهم على القاهرة. ومن ذلك عريضة شكوى تقدم بها فلاحو عدة قرى بإقليم بنى سويف إلى "ديوان القاهرة" الذى سارع بعرضها على مدير المالية جاء بها: "إن الوكيل الفرنسى بالإقليم لم يأخذ بما جرت عليه العادة بتحصيل النبارى حسب المساحة، فزراعة الذرة تزداد وتنقص كل عام، ومن ثم يقتضى الدفع بعد عمل المساحة وفقا لما جرت به العادة"[77] .

وتظل الشكايات تتوالى على الإدارة المالية، وتعانى الجبايات صعوبات جمة، حتى كادت تتعطل فى معظم الأقاليم[78]، وأدرك الفرنسيون خطورة المأزق الذى يتعرضون له؛ ليس بسبب إصرار المباشرين على عدم المسح، رحيلهم من الأقاليم فحسب، وإنما كذلك لتحقق نبأ سقوط حصن العريش (29 ديسمبر 1799) الذى أكد للجميع أنهم بصدد مرحلة انتقالية صعبة. وكان بديهياً أن يكون لكل من الأقباط والفرنسيين قراءته الخاصة لتطور الأحداث، والتى فى ضوئها يحدد كل طرف أولوياته، ومن ثم تدخل العلاقة فى جولة جديدة من الاحتكاكات.

كليبر ومحاولة إغراء المباشرين الأقباط

أدى سقوط حصن العريش إلى التعجيل بإتمام مفاوضات الجلاء[79]، وتبدو الشواغل الأساسية للقائد العام متمثلة فى ضرورة تدبير إيرادات عاجلة للخزانة، خلال الفترة التى سوف يستغرقها الانسحاب. وقد أكدت التجربة أنه بدون المباشرين الأقباط يصعب تدبير أى شىء، وخاصة فى ظل اقتراب الجيش العثمانى الذى ألهب حماس الأهالى المتطلعين إلى طرد الفرنسيين[80] ولم يكن الأمر هَينًا، ولاسيما وأن جميع الأقباط فى حالة حذر وترقب وقلق أكثر من غيرهم؛ ومن ثم فإن دفعهم للتعاون فى هذا التوقيت الحرج اقتضى التلويح بعرضٍ مُغرٍ، يحثهم على الاستجابة.

وتجود قريحة كليبر بفكرة تخصيص فائدة كبيرة un intérêt de primes considérables من كل قسط يسددونه للخزانة، من حصيلة مبلغ محددٍ قدره بـ 265 ألف بوطاقة (*) (من جملة مستحقات المال الميرى) والذى تعين تقسيمه على أربعة دفعـات متسـاويـة، قيمة كل منها 50.000 بوطاقة، بواقع نسبة تصاعدية 4%، 5%، 6%، 10% على التوالى. وإذا ما تمَّم المعلمون الأقباط الحصيلة بدفع الـ 265.000 بوطاقة تحسب الفائدة على 12٪!

وينوء كاهل المعلم جرجس الجوهرى بمسئولية توريد هذه الدفعات للخزانة خلال الشهور الأربعة التالية(وهى المدة المقترحة فى المفاوضات لإتمام عملية

الانسحاب). ويفوض المعلمين الأقباط فى الجباية دون تدخل أو رقابة الوكلاء الفرنسيين[81]، وسعيًا إلى الحيلولة دون تذرع الجباة الأقباط بمخاوفهم من مقاومة الأهالى، ودرءًا لأية أسباب من شأنها أن تعطل الجباية، فإنه يعهد إلى قادة الأقاليم توفير قوات عسكرية كافية؛ تطوف القرى فى صحبة هؤلاء الجباة[82].

وعمد كليبر، فى التوقيت ذاته، إلى التنازل عن الحصيلة الضخمة من بواقى المال الميرى عن عامى 1212 و 1213 نظير التزام المعلمين الأقباط بتوريد مبلغ 200 ألف فرنك، يتم دفعها على أربعة أقساط متساوية كذلك، وخلال المدة نفسها من يناير إلى أبريل 1800[83]، كما أنه تنازل بشكل نهائى عن حصيلة "مال الفايظ" البالغة 1.300.000 فرنك التى جباها من قبل الجباة الأقباط وماطلوا فى تسديدها للصرافين الفرنسيين[84].

ومن الواضح إذًا أن كليبر وقد سأم المراوغات القبطية، قد رمى من وراء هذا الإغراء المادى الكبير، إلى كف الانشغال عن حقيقة الاختلاسات بضمان الإفادة بما يمكن تأمينه لاحتياجات الجيش، خلال فترة الانسحاب. وفى رسالته إلى الجنرال دوجا يُفضى كليبر بهذه الحقيقة: "إننى أعى تمامًا، شأن الجميع، أن الأقباط يختلسون المالية العامة منذ وصولنا لهذه البلاد، ومع ذلك فإننى أمنحهم هذه المكافآت، لأجل تحويل هذا المبلغ للخزانة. ومن يوم إلى يوم يتأكد لى أننا لن نبقى طويلاً، ومن ثم فعلينا أن نحسن الإفادة من اللحظة الفعلية بشكل جيد، عن أن ننتظر اللحظة التى تليها.."[85].

لقد كانت القيادة الفرنسية على وعى تام بأن الفترة الحرجة التالية سوف يعترى جباية الضرائب خلالها صعوبات أكثر تعقيدًا وخاصة إذا استمرت التحصيلات من خلال المسئولين الفرنسيين، ذلك لأنه فى حالتى السلام أو الحرب سوف تبرز عوامل مختلفة تعرقل إدارة الجباية: فعند الوصول بالمفاوضات إلى تسوية نهائية بشأن الجلاء والانسحاب، فإن العثمانيين سوف يسارعون بالإحلال فى كل موقع يتم إخلاؤه، ومن ثم يؤدى اقتراب الجيش العثمانى من الأقاليم إلى زيادة حدة النفـور

العام لدى الممولين، وإلى انعدام الثقة فى مواصلة دفع الضرائب للفرنسيين[86] .

على حين يترتب على فشل المفاوضات وإعلان الحرب انشغال كل فرق الجيش الفرنسى بخوض معركة مصيرية، وحالئذ سوف يتعذر إيفاد الطوابير العسكرية؛ لإرغام الفلاحين على دفع الضرائب[87]، وإذا أُضيف إلى ذلك شراقى مساحات كبيرة من الأراضى(حوالى ثلث القرى) فضلاً عن تعذر قياسها طالما ظل الأمر مرتبطا بعون المعلمين الأقباط - لتبين إلى أى مدى كانت جباية الضرائب - خلال هذه المرحلة - بالغة التعقيد، وأن التنازل عن أى نسبة من الدخول للأمناء الأقباط، لقاء حصول الجيش الفرنسى على إيرادات عاجلة ومباشرة، إنما حتمته ظروف المرحلة الانتقالية.

وأبدى كليبر ارتياحه لهذه الخطوة التى تزيح عن كاهل الإدارة المالية مهمة صعبة، وإن كان قد حذر من تطلعات المباشرين إلى طلب المزيد من التنازلات: "إنهم ملزمون بتسديد هذه المبالغ، سواء أمكنهم جبايتها أم لا، ففى جميع الأحوال، ليس أمامهم من سبيل إلاّ الوفاء بالدفع. وإذا كانت متحصلاتهم من الضرائب فى الشهر القادم(فبراير 1800) سوف تقل عن الشهرالحالى، فإنه يجب دفعهم للتسديد، دون أن يضعوا فى اعتبارهم أننا حيال ذلك لن نقدم لهم أية تنازل ولو عن سول واحد"[88]؛ إذ كان من المتوقع أن تتجه تطلعات الباب العالى إلى مطالبة المعلمين الأقباط بالمساعدة فى تدبير المبالغ المحددة فى بنود المعاهدة، كنفقات ضرورية للانسحاب، ومن ثم؛ فالفترة التالية من فبراير إلى أبريل سوف تمثل فترة ضغوط ثقيلة على هؤلاء الجباة.

الموقف القبطى وغموض المستقبل

من الواضح أن الفرنسيين لم يدركوا، إلى حد كبير، أبعاد المأزق الذى بات فيه المعلمون الأقباط فى هذه الفترة الانتقالية . وأقصى ما حلله المراقبون للموقف ردّهم مخاوف الأقباط إلى تعاونهم مع الاحتلال[89].

وفى الواقع لم يكن لأحد من الفرنسيين دراية واعية بطبيعة العلاقة بين الباب العالى والمعلمين الأقباط، والتى لم تكن جيدة على الإطلاق، وخاصة فى العقدين الأخيرين السابقين على مجىء الحملة. وبلغ تردى العلاقة بين الجانبين ذروته فى عام 1200(1786) مع حملة "حسن باشا الجزايرلى" التى تعرضت لهم بالمصادرات؛ إذ جاء فى إحدى المصادر القبطية المعاصرة أنه: "فرض على النصاره غرايم ونهبوا بيوت المعلمين وباعوا بيوت الوقف وبقوا كامل النصاره إلا القليل لم عندهم شئ، وباعوا كامل أمتعتهم وبقوا على الأرض السوده وصار تعب كتير .." (90).

ومن المعروف أن "المعلم جرجس الجوهرى" نفسه كان أحد المستهدفين فى هذه الحملة، والذى فر هارباً مع أخيه المعلم "إبراهيم الجوهرى" للصعيد لمدة خمس سنوات (86-1791)، حتى أتيحت لهما الفرصة للعودة والتى ارتبطت بظروف صعبة مرت بها الدولة العثمانية من جراء التعديات الروسية فى الشمال على حدودها، ومن ثم اضطر الباب العالى إلى تأجيل عملية "الإصلاح المالى" والإطاحة بالمعلمين الأقباط، تمامًا مثلما فشل فى إقصاء مراد بك وإبراهيم بك عن السلطة، ليظل الوضع على هذا النحو قائماً حتى مجىء الاحتلال(91).

وعلى ذلك كان كل من المماليك والمعلمين الأقباط فى حالة حذر وترقب شديدين من اقتراب الجيش العثمانى بعد نجاح المفاوضات وعقد معاهدة العريش(92)؛ إذ إن أحدًا ما، من الجانبين، لا يمكنه التأكد من مقاصد الباب العالى بشأن (النظام السياسى والمالى) الذى سوف تدار به ولاية مصر بعد جلاء الفرنسيين(93).

وبداهة علق المعلمون الأقباط آمالهم على استعادة النظام السياسى التقليدى الذى يكفل بقاء السلطة المملوكية، ومن ثم ضمان تواصلهم لدورهم الرئيس فى الإدارة المالية، على نحو ما كان سائدًا قبل عام 1798. ويؤكد ذلك حرصهم على توطيد علاقتهم بالمماليك فى أشد فترات المطاردة الفرنسية لهم . ويكشف مينو فى إحدى مراسلاته عن احتفاظ المباشرين باتصالاتهم بالمماليك، وخداعهم للفرنسيين، عبر إمداد البكوات بـ ثلث الإيرادات!! (94).

وإذا كان المعلمون الأقباط قد ربطوا مصالحهم بالمماليك، فإن أية تحول فى الموقف العثمانى من السلطة المملوكية، سوف يؤثر - حتمًا - وبشكل سلبى على مستقبلهم الوظيفى: فالإطاحة بالمماليك واستعادة الدولة لسيطرتها على الأراضى والتزامات الجمارك والمقاطعات الحضرية، من خلال إصلاح ديوان الروزنامة واعتمادًا على جماعة الأفندية -لن يسفر سوى عن تهميش الدور المحورى للمعلمين فى إدارة مالية البلاد. وإذا كان الصدر الأعظم، عقب التصديق على المعاهدة، قد طالب بعقد لقاء مع كبار الأقباط Les principaux coptes(المعلم جرجس الجوهرى ومساعده، والمعلم يعقوب والمعلم واصف)، وما تبعه من حرص كل مسئول عثمانى، كان يصل للقاهرة، على الاجتماع بهم كذلك - فإن الظنون والمخاوف التى خالجتهم بشأن استمرارية دورهم، لم تبارحهم؛ حيث إن المناقشات التى دارت بينهم وبين المسئولين العثمانيين اقتصرت على إنجاز عملية تدبير 3000 كيس المتعين دفعها للجيش الفرنسى[95]. ويفترض بأن هذا جعلهم أكثر تخوفًا وحذرًا أن يكون اللجوء إليهم فى تأدية هذه المهمة مجرد استعانة عاجلة ومؤقتة، لم يفرضها سوى درايتهم الدقيقة بما يمكن تحصيله، فى مثل هذه الآونة، من ضرائب بالأقاليم.

ومن المؤكد أن لقاء مراد بك بالصدر الأعظم كان بالغ الأهمية فى استطلاع حقيقة النوايا العثمانية. وإذا كانت المحادثات لم تمض بشكل مرضٍ، فإن الشكوك والقلق قد تزايد، لينتاب الجميع[96]، وإذًا لم يكن المعلمون الأقباط ليجذبهم أى إغراء مادى يقدمه لهم الفرنسيون، بل يحتمل أنهم اعتبروا هذا العرض السخى الذى قدمه لهم كليبر، بمثابة فخ نُصِب لهم؛ لجرهم لدفع الحصيلة المطلوبة.

وحيال غموض الأحداث واضطراب التوقعات بدت الحاجة إلى ادخار ما يمكنهم ادخاره من إيرادات مسألة ضرورية وحتمية؛ ومن ثم يتعين تثبيط عزيمة الفرنسيين عن تحصيل مطالبهم المادية، وذلك عبر لجوئهم لسلاحهم التقليدى "التسويف والمماطلة". وحيث كانت هذه الأساليب غير مناسبة البتة مع المدة المشروطة فى المعاهدة للانسحاب (وهى ثلاثة شهور)، فإن كليبر يجد نفسه مدفوعًا

إلى إصدار قرار يقضى بإلقاء القبض على المعلم جرجس الجوهرى، وتهديده بقطع رقبته إن لم يوف، فى غضون أربعة أيام تالية، سداد الـ50 ألف بوطاقة الأولى. ومما له دلالته على إدراك القائد العام لخطورة النتائج التى قد تنجم عن مثل هذا القرار أنه طالب بالاستعانة بكل من المعلم يعقوب والمعلم فلتاءوس، عند انقياد المعلم جرجس الجوهرى إلى مقر القيادة "كى يتوليّآ معًا الرد على كل من يشجب القرار أو يوجه أية إهانة للفرنسيين".[97]

وفى الحقيقة لم يكن كليبر ليفكر، بشكل جدى، فى إعدام المعلم جرجس الجوهرى؛ خشية أن تتعطل عملية تحصيل الضرائب برمتها، فى مثل هذا التوقيت الحرج. وهو يعرف فى مراسلاته عما رمى إليه من هذا التهديد: "إننى لا أنوى ولن أوافق على فصل رأسه عن كتفيه، وإنما بدا لى هذا الإجراء ضروريًا؛ لأجل استنهاض هؤلاء المباشرين من حالة العناد واللامبالاة. فلم أكن يومًا قاسيًا ولا عنيفًا، ولكن ما هو الشيء الأكثر قسوة من الظروف الحالية التى ترهقنى؟ إذًا فلتدفعوا بجرجس الجوهرى إلى تحويل الحصيلة للخزانة"[98].

وليس ثمة ما يشير إلى استجابة مباشرة للضغوط التى مُورِسَت على المعلم جرجس الجوهرى، وإن لم يعن الأمر المغامرة بالعلاقة التى تربطهم بالفرنسيين[99]، فالاحتلال ما زال يمثل حقيقة قائمة، والتحسب لأية تغير قد يطرأ على مسار الأحداث، بالشكل الذى قد يؤدى إلى انقلاب الأوضاع، وبقاء الحملة لمدة أخرى - إنما يحتم الحذر أو الاحتراز للمستقبل. ولهذا يفترض بأنهم تظاهروا بالاستجابة، عبر تسديد بعض المبالغ[100]. وقد يؤكد ذلك إلحاح كليبر وتشديده على مسئول الإدارة المالية بضرورة إرغام المباشرين على الدفع؛ وهو أمر ينعكس بوضوح فى مراسلاته، فى هذه الفترة والتى كان يكرر بها جملة واحدة:

"Pressez, harcelez, et menacez les cophtes afin qu'ils vous fournissent de l'argent".

"اضغطوا وضيقوا وهددوا الأقباط حتى يزودوكم بالأموال"[101].

وعلى ما يبدو ظل المعلمون الأقباط صامدين، إلى أقصى حد، فى مواجهة الضغوط المكثفة؛ آملين فى تجاوز هـذه الفترة الانتقالية بأقل ما يمكن التورط فى دفعه للفرنسيين. ولكن حال تحققهم من انهيار المعاهدة وهزيمة العثمانيين فى عين شمس (20-21 مارس 1800)، فإنهم يسارعون إلى التفاوض مع مدير المالية، فى اليوم التالى مباشرة (22 مارس) على تسديد الدفعة الأولى من الحصيلة المطلوبة، والتى كان محددًا لها أن تدفع من قبل فى شهر يناير[102]. فقد بات الجميع موقنًا بأن الاحتلال مستمر، ولأجل غير معروف، ومن ثم تطلعوا إلى استئناف علاقات التعاون مرة أخرى.

على حين تأكد للجانب الفرنسى أن المرحلة القادمة فى حاجة إلى إصلاحات شاملة، وأنه من الصعوبة بمكان خوض غمارها بالآلية نفسها التى أُديرت بها مالية الحملة؛ فالأزمة المالية الشديدة، وهى واحدة من العوامل الرئيسية التى اضطرت كليبر إلى تصفية مشروع الاحتلال بالتفاوض على الانسحاب[103] سوف تتفاقم بمرور الوقت، طالما بقيت مصادر الإيرادات الضريبية غير معروفة، والتى ظل المعلمون الأقباط مالكين لناصيتها دون غيرهم[104]. وعلى ذلك أصبح إصلاح المالية الشاغل الرئيسى المهيمن على كبار القادة والمسئولين الماليين. ومن المؤكد أن تحديد دور هؤلاء المعلمين، فى المرحلة التالية، سوف يتوقف على نوعية ذلك الإصلاح، وعلى ردود فعل الجباة الأقباط المهمومين بالبحث عن الوسائل التى تؤمن مصير مهنتهم وسط تناقضات متعددة، الأمر الذى يجعل العلاقة بين الجانبين تدخل طورًا آخر مغايرًا، إلى حد كبير، لما كان سائدًا فى المرحلتين السابقتين.

المرحلة الثالثة (أبريل 1800 - أغسطس 1801)

اتسمت الاحتكاكات المباشرة بين الجانبين القبطى والفرنسى، فى هذه المرحلة، ببعدين متناقضين: الأول منهما اتجه إلى الدفع بالمعلمين الأقباط إلى بؤرة الاهتمام، عبر حفزهم على العمل وتنشيط دورهم، بشكل أكثر فاعلية. والثانى عنى بوضع الترتيبات الجادة لتهميش "الوساطة القبطية"، إلى أضيق نطاق ممكن، لمزاولتهم

العمل بالحسابات والجباية. وخلف البروز والتهميش، سوف نولى اهتمامًا بفهم الظروف العديدة والمتداخلة التى أدت إلى تشكيل مسار هذه العلاقة.

المباشرون الأقباط والتواصل القوى للدور

تظل واقعية كليبر، فى تعامله مع المواقـف الصعبة، هى السمة الأساسية التى تميزه عن غيره؛ فبرغم أنه كان منزعجًا من سلوك المعلمين الأقباط، ومن مراوغاتهم ومواقفهم الملتوية فى أشد التوقيتات حرجًا، إلاَّ أنه تحت الحاجة الماسة لخبرتهم ولتعاونهم يضطر إلى التغاضى عـن كل ممارساتهم المختلفة، ويُفاجئ الجميع (بما فى ذلك المعلمين الأقباط أنفسهم) باتجاهه إلى إلغاء رقابة الوكلاء الفرنسيين على الجباة الأقباط، ويطلق يدهم فى الجباية لعام 1214(1800)، وذلك عبر قراره الصادر فى 28 أبريل 1800[105]، والذى حدد به لهؤلاء الجباة نسبة كبيرة بلغت 8% من إجمالى التحصيلات فى سائر الأقاليم! وهى نسبة تفوق حتى ما كان يتميز به مباشرو الجباية بالصعيد الذين كان مخصصًا لهم 6% من حصيلة الغلال، خلافًا لنظرائهم بالوجه البحرى الذين حُدِدت لهم مرتبات ثابتة[106].

وعلل كليبر دوافعه إلى اتخاذ هذا الإجراء بأنه "نتيجة محضة للظروف المستجدة، وأنه الوسيلة الأكيدة التى بدت أهميتها فى الحصول على السيولة النقدية سريعًا.."[107]، ولقد كان أكثر ما يخشاه الفرنسيون أن يفقدوا ثقة الممولين للضرائب. وبالنسبة للصعيد كانت المسألة أكثر تعقيدًا: إذ طيلة فترة المفاوضات وحتى لحظة التصديق على المعاهدة (28 يناير 1800) مارس الفرنسيون بأنفسهم جمع الضرائب فى العملية التى أطلقوا عليها "تفريغ صعيد مصر والقصير من الغلال"، والتى استخدموا خلالها - ربما لأول مرة - سلاح المدفعية ؛ لقهر القرى على التعجيل بالدفع دون مماطلة[108] أيضًا كثف العثمانيون، خلال فترة سريان المعاهدة، جهودهم فى تحصيل ما يمكنهم من إيرادات من أقاليـم الوجه القبـلى؛ حيث عينوا "درويش باشا" حاكما على الصعيد(فبراير 1800) وكلفوه بسرعة تنشيط الجباية[109]، وكان ينشر الفرمانات السلطانية التى تحث الأهالى على سرعة موافاته بالغلال

والمواشى والأموال[110]. ومن واقع مصادرة معظم ما جمعه هذا الباشا، بواسطة الأمير مراد بك الذى أصبح متحالفًا مع الفرنسيين، فى مطلع شهر أبريل 1800، يتضح أن الأهالى أبدوا استجابة ملحوظة لتلك الفرمانات[111] بشكل يذكرنا بما فعله أهالى القاهرة فى التوقيت ذاته[112]؛ ومن ثم فقد تعرض الصعيد، على مدار أربعة أشهر متتالية(يناير - أبريل) لضغوط ثقيلة من جميع الأطراف الذين عادوا إلى الصراع على السلطة، ومن ثم على امتلاك حصيلة الإيرادات الضريبية.

وبداهة كان لابد أن يُصاب الأهالى، فى كل مكان، بخيبة الأمل فى استقرار الأوضاع، بعد أن بات استمرار الاحتلال الفرنسى أمرًا واقعًا. وقد أثارت هـذه التقلبات السياسية السريعة والمتلاحقة مخاوف الممولين للضرائب من أن يتم استهدافهم لدفع الميرى مرتين. وإذًا فإن تهدئة القرى، وحثها على استئناف علاقاتها المادية بالإدارة الفرنسية، بدت مسألة ملحة وضرورية. ولأجل إخماد هواجس الأهالى، وكسب ثقتهم مرة أخرى، كان من المحتم أن يجرى الإعلان عن خصم كل الضرائب التى سُدِدت لدرويش باشا[113]، وهى مسألة فى غاية الأهمية والخطورة؛ إذ قد وافق كل هذه التطورات حلول موسم الجباية، ولاسيما ضريبة "مال البياضى" التى كانت أهم مصادر إيرادات مصر العليا[114]، وبدون اللجوء إلى الأقباط كان من الصعب إنجاز هذه المهمة العاجلة، ومن ثم يتضح أن كليبر كان على درجة كافية من الوعى بما تنطوى عليه جباية الضرائب من صعوبات شتى، وأن استنفار المباشرين الأقباط، عبر ذلك الحافز المادى الكبير، أمر قد حتمته تلك الظروف المعقدة. وعلى هذا النحو يبرز دور المباشرين فى إدارة الجباية أكثر من أى فترة مضت منذ مجىء الاحتلال.

ويرصد الجبرتى هذه اللحظة فى يومياته باعتبارها لحظة فارقة؛ إذ يصورها على أنها أقصى ما بلغه المباشرون الأقباط فى زمن الاحتلال من مكانة عظيمة: "تقاسموا الأقاليم، والتزموا لهم بجمع الأموال، ونزل كل كبير منهم إلى إقليم، وأقام بسرة الإقليم مثل الأمير الكبير، ومعه عدة من العساكر الفرنساوية وهو فى أبهة عظيمة

وصحبته الكتبة والصيارف والأتباع والأجناد والحجاب، وتقاد بين يديه الجنائب والبغال والرهوانات والخيول المسومة والقواسة والمقدمون وبأيديهم الحراب المفضضة والمذهبة والأسلحة الكاملة والجمال الحاملة، ويرسل إلى ولايات الإقليم من جهته المستوفين من القبط أيضاً بمنزلة الكشاف ومعهم العسكر.."[115].

والمعروف أن معاهدة السلام والتحالف بين مراد بك وكليبر (5 أبريل 1800) كانت قد أدت إلى اقتطاع أقاليم مصر العليا(إسنا - قنا - جرجا) من التبعية المباشرة للجانب الفرنسى؛ حيث صارت ولاية مملوكية؛ ومن ثم أصبح أقصى امتداد لتحرك المباشرين الأقباط، فى جباية الضرائب باسم الفرنسيين، عند أسيوط جنوبًا.

وكان كليبر قد وجّه المعلم يعقوب إلى الصعيد، مستغلاً صيته الذائع بين الأهالى، وخبرته فى جباية الضرائب؛ لأجل إنجاز تحصيل المال الشتوى والصيفى، كما عهد إلى الأمير مراد بك بمساعدته فى حث القرى على الانصياع فى دفع مستحقات الميرى[116]. ويبدو أن المباشرين الأقباط، أمام حرص الأمير مـراد بك على تأكيد إخلاصه فى إنجاز الجباية[117]اضطروا إلى التخلى، إلى حد ما، عن أسلوب المماطلة فى تسديد حصيلة الإيرادات للخزانة الفرنسية. وعلى هذا النحو يمكن تفسير الزيادة الملحوظة فى حصيلة الإيرادات والتى أذهلت المسئولين الفرنسيين؛ إذ تكشف لهم فى نهاية السنة المالية لعام 1214 (1800) مفاجـأة غير متوقعة: ففى هذا العام المالى تجمعت عوامل سلبية عديدة تحتم انخفاض الإيرادات، وكان منها شراقى ثلث القرى بسبب سوء الفيضان، وتمكن العثمانيون، خلال فترة سريان معاهدة العريش(يناير - مارس 1800) من جباية الضرائب من بعض أقاليم شرق الدلتا، هذا فضلاً عن تنازل الفرنسيين عن ولاية جرجا لمراد بك، وهو ما حرم الخزانة الفرنسية من جزء مهم من عائدات هذا الإقليم الخصب، خلافًا لبعض القرى الأخرى التى مُنِحت لبعض أتباعه من الصناجق والكشاف. ومع ذلك فإن المسئولين الفرنسيين يُفاجئون بزيادة حصيلة إيرادات عام 1214 (1800) بما مقداره 16% عن حصيلة عام 1213 (98 – 1799) الذى كانت كل ظروف الإنتاج، خلاله،

متاحة بشكل طبيعى، وجميع الأقاليم تحت السيطرة الفرنسية!! الأمر الذى هال الفرنسيين؛ لأنه لم يكن سوى مؤشر بيانى يؤكد، دون شك، تمكن المباشرين الأقباط من الاستحواذ على مبالغ ضخمة من إيرادات المالية[118].

وتلهب هذه الحقيقة المريرة حماس الجميع وإصرارهم على المضى قدمًا فى عمل إصلاح جذرى للنظام المالى، بحيث يتم غلّ يد المباشرين الأقباط عن السيطرة على مصادر الإيرادات الضريبية.

نحو التهميش

مر الأقباط بين صيف 1800 وشتاء 1801 بفترة صعبة؛ إذ تعرضوا لضغوط غير عادية، بعد أن بلغ ضيق الفرنسيين من مراوغاتهم مداه. وبين كليبر ومنو سوف يُلاحظ اختلاف فى أسلوب التعامل مع الموقف القبطى: فبينما يميل الأول إلى التدرج فى تقليل الاعتماد على المباشرين الأقباط عبر البحث المستمر والدءوب عن الوسائل التى تحقق المزيد من معرفة الإيرادات المجهولة، كان الأخير(منو) مؤمنًا بأسلوب المواجهة التى تتعدد مستوياتها بحسب درجة الإعنات القبطى، بهدف الوصول إلى النتيجة نفسها. وعلى ذلك دخل المباشرون الأقباط، فى هذه الفترة، مرحلة عزم الجانب الفرنسى، خلالها، على تهميش دورهم والضغط عليهم؛ للإفضاء بأسرار مهنتهم. وتصبح العلاقة، من ثم، فى إطار تصادمات شبه يومية حتى لحظة جلاء الاحتلال.

"اللمّ العمومى" ومحاولة تبسيط الحسابات القبطية المعقدة

كان همُّ الإصلاح المالى أحد شواغل كليبر المؤرقة، ولكنه فى الوقت ذاته لم يكن موقنًا بأهمية الشروع فى عمله قبل الإحاطة الشاملة بمصادر الضرائب والإيرادات والتى ما زال المباشرون الأقباط وحدهم محتكرين معرفتها. كان هذا لبُّ ما أفضى به كليبر للوكيل المالى شاناليل: "إن إجراء إصلاحات عظيمة فى الإدارة يقتضى إعادة تنظيم عظيمة، وليس ذهنى متفتحا البتة لابتكار عمل كهذا فى أربع وعشرين

ساعة، حتى وإن طلبت عونًا معرفيًا من بعض الأشخاص ذوى الخبرة.. لقد قطعنا بالفعل شوطا بعيدًا فى إعداد ذلك الكتاب الشهير الخاص بطبيعة الضرائب فى مصر. ولم يعد أمامنا سوى معرفة ما لا حد له من تلك الرسوم الصغيرة، غير المسجلة بالمرة، والتى يبدو أنها مكرسة بحكم العرف فقط Consacrés par l'usage ثم معرفة حصة كل قرية ومسميات هذه الأخيرة، وكل ذلك يحتاج إلى وقت جد طويل، ما دام يجب العمل مع الأقباط"[119].

وخلافًا لاستقصاء المعلومات عن النظام الضريبى، اجتهد كليبر ومدير المالية الجديد(إستيف) فى التوصل إلى حل مباشر لتبسيط مجمل الحسابات القبطية المعقدة، وذلك عبر مبدأين أساسيين: الأول منهما يتجه إلى تحويل كل الضرائب العينية إلى ما يعادلها نقدًا(فيما عُرف بـ "تثمين الغلال")، حتى توحد الأرقام البيانية جميع قوائم الحسابات، ومن ثم يتلاشى الغموض الذى غلف قوائم الضرائب العينية على وجه الخصوص. والمبدأ الثانى يتمثل فى دمج كل الفروع المختلفة للضرائب تحت مسمى واحد "الضريبة العامة النقدية" Contribution générale en argent[120]، والتى عربها المترجمون المعاصرون بـ "اللم العمومى" عند نشرهم للصيغة العربية للأمر اليومى (28 أبريل 1800).[121]

وينشئ كليبر "اللجنة الإدارية" Comité administratif؛ لتتولى مراجعة الحسابات القبطية، وفقًا لهذا الترتيب الجديد؛ بحيث يصبح المباشرون الأقباط ملزمين بتقديم قوائم الجباية فى صيغتها المدمجة والنقدية . وبداية كان لابد من تكليف المباشرين بتقديم قائمة دقيقة بكميات الغلال الخاصة بكل قرية ؛ حتى يمكــن للجنة الإدارية متابعة عملية "تثمين الغلال". ورغم الضغوط المتواصلة، لا يفرج المعلمون الأقباط سوى عن قائمة موجزة un état sommaire صحيحًا كانت أكثر أهمية مما قُدم فى السابق لأعضاء لجنة الحبوب وللمغامرين الرأسماليين(ليفرون وهاملان)، إلا أنها كانت ما تزال دون الحد الأدنى المطلــوب لبـــدء إصلاح النظام الضريبى، الأمر الذى هدد بتجمد الأوضاع، وهذا ما يؤكده

سكرتير المالية بيروس: "لقد كان عجزنا دائماً ما يظل حائلاً دون تجديد شيء ما لم نتمكن من رصد كل المعلومات عن طريق الأمـة القبطية" La nation cophte[122]، وتوقف بالفعل الاتجاه إلى تطبيق النظام الجديد للضرائب والمحاسبة.

القائمة المفصلة أو الأسر؟

يبدأ الفرنسيون فى التخلى عن صبرهم الجمِّ، الذى تحلوا به على مدار عامين كاملين، قبل مراوغات المباشرين الأقباط، فى اللحظة التى يتولى فيها الجنرال منو القيادة(عقب اغتيال كليبر فى 14 يونيه 1800)؛ فلم يكن منو مؤمنًا بشيء أكثر من إيمانه بأهمية استمرار مشروع بناء مستعمرة مصر، ومن المؤكد أن الممارسات القبطية التى ما تزال تربك الاحتياجات المادية للجيش، قد تعارضت تمامًا مع تطلعاته، حتى لقد وصفهم فى رسالته للجنرال رامبون بـ "الروح المدمرة" l'esprit destructeur التى يتعين تقويضها وإجلاء وجه مصر منها؛ ذلك لأنهم (والكاثوليك الشوام فى مقدمتهم): "أكثر سكان هذا البلد خسة وحقارة ... بخلاء، مخادعون، جبناء، حقودون، وخسيسون إلى أقصى حد.."ومن ثم فهم غير جديرين بالمشاركة فى تأسيس المستعمرة الجديدة التى يجب أن تقوم على "الأمانة والأخلاق". ومن وجهة نظره الخاصة أن المعلمين الأقباط ارتكبوا خطأً ساذجًا عندما "تصوروا أن الفرنسيين ليسوا سوى مماليك مسيحيين حلوا محل مماليك جورجيين ومسلمين"، وهنا أفصح عن نواياه فى الرسالة ذاتها: "فالسادة الجدد (الفرنسيون) لن يستخدموهم بالطريقة نفسها التى استخدمهم بها السادة السابقون".[123]

وإذا كان منو قد أولى، للإصلاح المالى والإدارى، جُلَّ اهتماماته، فإنه يفترض بأن توقف البدء فى الإصلاح على حصول المسئولين الماليين على "القوائم المفصلة" Les etats détaillés قد دفعه إلى اعتماد مشروعية كل الوسائل التى من شأنها أن تجبر المباشرين الأقباط على الإفصاح عنها: فقد تحايل مدير المالية(إستيف)، بعد بضعة أسابيع قليلة من ولاية منو، على استدراج كبار المعلمين الأقباط - الأكثر علمًا وخبرة - إلى الاجتماع بمنزله، تحت زعم مناقشة خبر مهم، وأغلق الأبواب، معلنًا لهم بأنهم،

منذ هذه اللحظة، قد اعتبروا مسجونين Les prisonniers، وأن الإفراج عنهم مشروط بتقديم القوائم الدقيقة الشاملة "للميرى والكشوفية والفايظ" المربوط على كل قرى مصر قرية قرية[124].

ولم يكن ليستجيب المباشرون لهذا المطلب بسهولة؛ لأنه لا يعنى سوى تقويض كامل لأهميتهم المعرفية التى وحدها كانت السبب المباشر فى استمرار سيطرتهم على إدارة الجباية. ومن ثم آثروا الأسر عن البوح بالمعلومات . وربما كان رهانهم الأخير على حدوث تغيرات مفاجئة فى الموقف السياسى والعسكرى للحملة، أو على الأقل آملوا فى تراجع الفرنسيين عن هذا القرار؛ تحت وطأة الاحتياج لخبرتهم. على أن الحقيقة المؤكدة، بالنسبة للجانب الفرنسى، أن الرجوع عن قرار حبس هؤلاء المباشرين مسألة بدت مستحيلة بقدر استحالة استمرار الهيمنة القبطية على مالية الاحتلال.

وكان من المتوقع أن يمتد التأثير السلبى لهذا القرار على عملية الجباية نفسها: فقد لُوحِظ فى المراسلات المتبادلة بين المسئولين الفرنسيين تخوفهم من تباطؤ الجباة الأقباط، وخصوصًا فى أقاليم الصعيد[125]، ويفترض بأن ذلك كان نوعًا من الضغط القبطى للإفراج عن كبار المباشرين؛ مستغلين فى ذلك شدة حاجة خزانة الحملة إلى تحصيل إيرادات القسط الأخير (من عام 1214 يونيو - أغسطس 1800) قبل بدء موسم الفيضان؛ إذ بعده تتوقف الجباية لمدة أربعة شهور تالية، على حين كانت المالية، فى الوقت نفسه، تعانى من أزمة شديدة، ناتجة عن قصور الإيرادات المحصلة عن تغطية أوجه الصرف الضرورية والمتزايدة . وعلى ذلك كان من الأهمية بمكان إنجاز مهمة الجباية سريعًا، وربما لهذا السبب اعتمد منو على المعلم يعقوب؛ كيما يحول دون تعثر الجبايات فى شتى أقاليم الوجه القبلى[126] الذى تشتد الحاجة إلى حبوبه، فى تلك الفترة من السنة؛ حتى لا تتعرض "مخازن الخرج"(مؤن الجيش) للنفاد، ويضطر الفرنسيون لشرائها بأسعار مرتفعة[127].

وليس لدينا معلومات عن مدى نجاح المعلم يعقوب فى الصعيد، ولكن المؤكد

أن المالية ظلت فى عثرتها . وكان منو إزاء الصمت المطبق لكبار المعلمين الأقباط المسجونين بمنزل إستيف، قد وجد نفسه مضطرًا إلى مواصلة جهود سلفه (كليبر) فى جمع المعلومات وتلقى التقارير التى تحمل وجهات نظر مسئولين ماليين فى الإصلاح المالى[128]، ونحو 8 سبتمبر 1800 يُصدر منو أمرًا يوميًا لكل فرنسيى مصر: الجنرالات والمديرين والمسئولين المهمين أن يوافوه بكل المذكرات والتقارير التى تحمل اقتراحات معينة، يمكن أن تفيد فى صياغة نظام يصلح شئون الجبايات، ويؤكد ريجو بأن الكثيرين لم ينتظروا أن يدعوهم القائد العام، وقدموا ملاحظاتهم ومذكراتهم للقيادة العامة [129].

وفى إطار ظروف نجهلها اضطر المعلمون الأقباط المسجونون إلى تقديم "القوائم المفصلة"، بعد فترة من الصمود امتدت على مدار ثلاثة شهور (يوليو -أكتوبر 1800). وهذه القوائم التى عُرفت - فيما بعد - بـ "دفاتر الترابيع" تميزت، بالنسبة للفرنسيين، لأول مرة، بتحديد دقيق للامتداد المساحى والكمى للأراضى وللمكلفات الضريبية المحملة على كل منها، والتى وُجِدت حساباتها بالنقود: ويؤكد بيروس بأن "إستيف وجد بها كل ما كان بحاجة إليه لبدء الإصلاح وتنظيم قبض حساب إيرادات الأراضى لعامى 1213 و1214(98-1799)"[130].

والواقع أن إستيف وكل المسئولين الماليين سوف يكتشفون، فيما بعد، أن المعلمين الأقباط أوقعوا بهم فى خطأ كبير فى هذه الدفاتر، والذى تعلق بالحصيلة الخاصة بكل فروع الضرائب المجملة على كل إقليم.[131] ويفترض بأن هذا كان سببًا رئيسيًا فى انعدام الثقة فى البيانات المقدمة. ولعل مما له دلالته فى تأكيد ذلك ما نلاحظه فى "دفاتر الترابيع" من تعمد المباشرين الأقباط، فى مواضع عديدة، ذكر المبالغ والأرقام البيانية مصحوبة بمفردة: "وجه تخمين" أو "درجة تخمين"، وأحيانًا يحيلون على أوراق مدير المالية السابق(بوسيلج): "حكم المقيد بدفتر بوساليك بدرجة تخمين"..إلخ[132] وربما كانت كثرة إحالاتهم على أوراقه، بصفة خاصة، سببًا إضافيًا فى إفراط الفرنسيين الشك فى صحة البيانات، ذلك لأن "بوسيلج" حينما رحل

لفرنسا، خلال فترة سريان معاهدة العريش، حمل معه كل دفاتره وأوراقه[133]، وعلى ذلك تأجل البدء فى الإصلاح الضريبى لحين التحقق من صحة البيانات.

وسرعان ما انعكست هذه الحقيقة على كافة التقارير المطروحة أمام القائد العام، والتى اتفقت رؤى أصحابها على ضرورة عمل "مسح شامل للأراضى" والاستغناء عن "الوساطة القبطية"[134]. وسمحت كل التقارير والمذكرات المرفوعة لمنو بإمكان طرح مشروع كامل لإصلاح المالية عمومًا وإدارة الجباية على وجه الخصوص، فيما عُرف بـ "المشروع العظيم" Le Grand Projet (20 يناير 1801) والذى تضمن بنودًا بالغة الخطورة بالنسبة لمستقبل المعلمين الأقباط فى الإدارة المالية برمتها: فقد اتجه منو إلى الاستعانة بـ "مشايخ القرى" عوضًا عن المباشرين الأقباط، فى جباية الضرائب من أهالى القرى، وهو يعيرهم اللقب الخاص بالجباه الأقباط: "الأمين" L'Intendant تأكيدًا لتحمل المشايخ المسئولية الكاملة فى الجباية. على حين يختزل دور المعلمين إلى مجرد هيئة معاونة من الكتبة ومنظمى الحسابات السنوية للقرى Le compte annuel des villages، وأقصى ما يكلف به الكاتب القبطى بكل قرية أن يتلقى من مشايخ القرى الحصيلة، ليسلمها لخزانة "المحصل الفرنسى"، ومن ثم تنقطع أى صلة مباشرة بين الكتبة الأقباط والفلاحين بشكل نهائى. ووفقًا لذلك يحرم جميع المباشرين ومرءوسيهم من الحصول على مخصصاتهم فى حصيلة الجباية التى كانت مقررة بـ 8%؛ إذ تحدد لكل من شيخ القرية وكاتبها القبطى قيراطًا واحدًا $\frac{1}{24}$ من إجمالى الحصيلة، بحيث يقتسمه الطرفان بنسبة ثلثى للشيخ مقابل ثلث للكاتب القبطى، كنوع من التأكيد المادى على تغير الأوضاع. ولمَّا كان مشايخ القرى قد نِيطَ بهم وحدهم، من دون الأقباط، مهمة الجباية، فقد خصَّهم المشروع بـ $\frac{3}{24}$ (ثلاثة قراريط) أخرى من إجمالى المستحقات المحصلة للخزانة، كنفقات جباية[135].

وعلى هذا النحو، فإن كبار المباشرين الأقباط، بما فى ذلك المعلم جرجس

الجوهرى سوف يتم تهميشهم إلى أقصى حد. ويعد المعلم يعقوب الوحيد الذى تم استثناؤه من القائمة؛ فقد حظى بتقدير القائد العام الذى أسند إليه مهمة ترشيح الكتبة الأقباط الأكثر تعاوناً وأمانة Les cophtes probes، ولصعوبة إخضاع هؤلاء الكتبة، فإنه يكلفه – كذلك- بتطويعهم لأن يكونوا مرءوسين لمشايخ القرى بوصفهم الأمناء Intendants cheiks Les، إلى جانب جعل هؤلاء المشايخ ممتثلين لتوجيهات مدير المالية(إستيف).[136] ووفقًا لذلك سوف يصبح دور المعلم يعقوب محوريًا فى ضبط العلاقة بين جميع الأطراف وفى تسيير دولاب العمل فى النظام الجديد للمالية.

وإذا كان البدء فى تطبيق مشروع الإصلاح مرتبط بعمل المسح الشامل للأراضى، فإن المعلمين الأقباط يواصلون دورهم بصفة مؤقتة، لحين إنجاز المسح الذى شُكلِت له لجنة خاصة كان قد تحدد مباشرتها لهذه العملية الصعبة بدءًا من مارس 1801[137]. غير أن ظروف الحرب التى ظهرت طلائعها مع دخول 195 سفينة حربية إنجليزية لخليج أبو قير فى الثانى من مارس وما تبعه من إلحاق الهزيمة بالجيش الفرنسى(فى معركة كانوب 21 مارس)[138] كانت قد تسببت فى تعطيل المسح وتأجيل المشروع الذى لن يرى النور؛ حيث أدت الهزيمة إلى اتخاذ قرار الجلاء عن مصر؛ لتتوقف عملية التهميش القبطى، حيث شكلت التطورات الأخيرة سياج حماية للأقباط، ليظلوا بطريقة أو بأخرى محتفظين بموطئ قدم ثابتة فى الإدارة المالية التى يصعب أن نجدها خالية منهم طيلة القرن التاسع عشر.

* * *

يتضح مما سبق أن الدور القبطى فى إدارة الجباية، طيلة فترة الاحتلال الفرنسى، كان دورًا محوريًا، وكانت بيد المباشرين الأقباط، لا الفرنسيين، مقدرات الحركة والسكون فـى تسيير دولاب العمل بالإدارة المالية؛ بسبب احتكارهم المعرفى لكل المعلومـات المتعلقة بالنظام الضريبى، والذى مثّل أكبر تَحدٍّ واجهته الحملة فى الداخل. وبدون أن نحمل الحقائق ما يتجاوز طابعها الواقعى، كانت المواجهة

القبطية حاسمة؛ حتى ليمكن القول: بأن هذه المواجهة كانت بمثابة مقاومة من نوع خاص، جرت وقائعها تحت السطح دون أن تتخذ شكلاً تصادميًا عنيفًا؛ بهدف الحفاظ على امتيازهم القديم فى تنظيم وإدارة مجمل الحسابات المالية، ومن ثم تحقيق ما يُعرف بـ "التواصل القوى للدور" والذى قدم- دون مبالغة- نموذجًا فريدًا لقيمة سلطة المعرفة والكفاءة الحسابية"، بوصفها قوة فاعلة، قِبل سلطة القوة والآلة العسكرية: " فعلى الرغم من كل الإجراءات التى نُفذت، والتقارير التى رصدت كمًا غزيرًا من المعلومات، إلاّ أن الفرنسيين لم يستطيعوا الإحاطة بكل حقائق النظام المالى. وبالقدر نفسه لم يستوعبوا كل أساليب المعلمين الأقباط وممارساتهم المختلفة فى المراوغة والتحايل والسيطرة على جزء كبير من مصادر الإيرادات؛ حتى لقد عانى الفرنسيون، معظم فترة احتلالهم لمصر، من أزمة مالية خانقة، نزعم بأنها ساهمت فى إفشال بناء "مستعمرة فرنسية" فى الشرق.

وكان رفض الفرنسيين لاستمرار النفوذ القبطى بالإدارة المالية، الدافع المستمر إلى إدخال تغييرات مهمة على بنية إدارة الجباية: فلأجل تبسيط التعقيدات التى تطبعت بها قوائم الحسابات، ولأجل تحقيق تعددية فى الرقابة المركزية تم توزيع المصادر الضريبية على عدد من الإدارات فى الوقت الذى وُجِهَت فيه ضربات مستمرة لنظام الالتزام، بهدف جعل العلاقة مباشرة بين الفلاحين والإدارة الفرنسية؛ سعيًا إلى القضاء على كل وساطة من شأنها أن تلتهم جزءاً مهمًا من حصيلة الإيرادات. غير أن الفترة الحرجة الأخيرة حالت دون فقدان المعلمين الأقباط لمواقعهم المعتادة بين الممولين للضرائب والمحصلين الفرنسيين؛ ومن ثم لم يكن تهميش أقباط المال والضرائب بالأمر السهل أو الهين، وربما يُعزى لهذه الحقيقة السبب فى استمرارية الدور القبطى بالإدارة المالية لسنوات طويلة فى القرن التاسع عشر.

وقد تلقى هذه الدراسة علامات الاستفهام حول مدى استمرارية هذا النوع من الممارسات قبل وبعد الحملة الفرنسية؛ للتعرف على ما إذا كان هذا النموذج سائدًا

قبل الاحتلال الفرنسى، ولم تكشف عنه سوى هذه المواقف التصادمية مع الفرنسيين أم كان مجرد حالة استثنائية ظلت رهن الظروف التى جاء بها هذا الاحتلال؟

ومن المؤكد أن إحكام المباشرين الطوق على ماكان لديهم من أسرار النظام المالى قد مثّل تحديًا للإدارة الفرنسية وتطلب الأمر، من ثم، تفعيل دور الكوادر الفرنسية فى رقابتها للمباشرين الأقباط وفى السباق مع الزمن على جمع المعلومات .

الهوامش

(1) الجبرتى: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، (أربعة أجزاء)، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1998، ج3، ص4-6؛ نقولا الترك: الترك: ذكر تملك جمهـور الفرنسـاوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية، تحقيق ياسين سويد، دار الفارابى، بيروت 1990، ص ص 29-31.

(2) كان يُقال - مثلاً - "المعلم غبريال السادات " (الشيخ السادات)، و"المعلم يوسف الألفى"(محمد بك الألفى) و"المعلم منقريوس المورلى... إلخ" راجع: زخاريس الأنطونى) الراهب القس): يوسابيات، وهى مقالات الأسقف القديس الأنبا يوساب الأبح، القاهرة 1989، ج1، ص 20.

(3)Napoléon Bonaparte: campagnes d'Égytpe et de Syrie, 1998. p. 82 .

وثمة رسالة من باجاليانو إلى فيال توضح وجود أمر يومى لبونابرت بمسايرة النظام القائم للدورات الزراعية. انظر:

دار الوثائق،(قاعة البحث والاطلاع): محفظة بدون رقم،"أصول وثائق الحملة الفرنسية" ملف 38، وثيقة (8).

Pagliano à Vial, (16 Août 1799).

(4)Peyrusse;: Les finances de L'Égypte pendant l'occupation francaise, La Revue Britannique, 1882, pp. 464,465.

(5)Zayonchek à Poussielgue, Beni- Souef, (10 Avril 1799), Les polonais en Egypte (1798-1801), Paris 1910, pp.203-206.

(6)Peyrusse, A.: op. cit., p. 470.

(7) تؤكد المصادر الفرنسية على أنه بعد معركة سدمنت (7 أكتوبر 1798) تحولت مقاومـة المماليك من "الحرب المنظمة" إلى "حرب العصابات". راجع:

نبيل الطوخى: صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية (1798 - 1801) الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1997، ص ص 136،137.

(8)Zayochek à Dugua, Beni-Souef (5 Mai 1799), Polonais.., pp. 239,240;

وقام قاضى محكمة إسنا بتسجيل أولى هذه المنشورات فى سجل المحكمة باعتبار الأخيرة وسيلة للإعلام. انظر:

دار الوثائق: محكمة إسنا الشرعية، س(50)، م(272)، ص ص 111-114(21 ربيع أول 1213/ 2 سبتمبر 1798).

ولمزيد من التفاصيل حول هذه المنشوات انظر دراسة "جوزيف كابردا" التى نشرت مجموعة الفرمانات التى صدرت فى فترة بونابرت:

Joseph Kabrda: quelques Firmans concernant les relations Franco - turques lors de l'Expédition de Bonaparte en Égypte (1798-1799), Paris 1947

(9)Vincennes B^6 81: "Compte de l'impôt et contributions de la province de Girgé pour L'an 1212 et 1213", (1 Oct. 1799); Bonaparte à Poussielgue (24 Sept. 1798); Bonaparte à Girgés el-Gouhary, (7 Déc. 1798) , Dans:Corres., N° 3379; N° 3717, t.5, pp. 9; 184.

(10) كان المعلم إبراهيم الحلفاوى مباشر ولاية الفيوم أول من ثبت تورطه فى علاقة مباشرة مع المماليك . انظر:

Zayonchek à Dugua, (10 Av. 1799); à Noble (25 Av. 1799); Polonais..., pp. 207-8; 224.

(11) جيرار: وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، القاهرة 1978، مج4، ص158.

(12) يلاحظ ذلك فيما تضمنه الأمر اليومى لبونابرت، فى إطار تنظيمه لحركة نقل قوائم الضرائب بين القاهرة والأقاليم . انظر:

Bonaparte à Berthier, (Pour mettre à l'ordre de l'armée); Corres., t.5, N° 3464, (14 Oct. 1798), pp. 57.

(13) جيرار: المصدر السابق، مج 4، ص ص 156- 158.

(14) Zayonchek à Poussielgue, Beni-Souef, (10 Av. 1799), Polonais.. , pp.204-206.

(15) Zayonchek à Dugua, Beni - Souef (14 Av. 1799), Ibid; p. 210.

(16) Vincennes, B^6 81:

عرض حال لأحد الفلاحين بولاية البهنساوية" بدون تاريخ، وبإمضاء جلوتيه(مدير المالية بالإنابة أواخر عام 1799).

(17) Bonaparte à Zayonchek, (16 Août 1798), Corres., t.4, N° 3030, p. 348.

(18)Zayonchek à Chollet, Bani-Souef, (25 Av. 1799) Polonias, p. 225.

حيث تضمنت رسالة زايونشيك نص التوجيهات التى أرسلها بوسيلج إليه ؛ ليبلغها للوكيل المالى شوليه.

(19) Zayonckek à Dugua, (10 Av.1799); à Noble, (25 Av. 1799); Polonais, pp. 207-8; 224,225.

وكان بوسيلج(مدير المالية) قد تبارى فى الدفاع عن موقف الأقباط الشائك، وهو الحوار الذى سجله دستان (حاكم القاهرة) فى رسالته إلى القائد العام بونابرت: "إن الخوف أو المصلحة هى التى أمكن لها أن تدفعهم إلى الصمت على استثمارات المماليك وتركاتهم... ولابد أن نحرص على ألا يفقد الأقباط، بشكل متتابع، ثقتنا، لأننا حالئذٍ نخسر عونا يمكن أن يكون ضرورياً على مدار فترة تالية." راجع:

Vincennes, B^6 11: Destaing à Bonaparte (9 Nov. 1798).

(20)Bonaparte à poussielgue, (24 spet. 1798); à Girgés - el- Gouhary, (7 Déc. 1798); Corres., t.5, pp. 9; 184.

(21)Bonaparte à Girgés -el-Gouhary, (7 Déc. 1798), Ibid; pp. 184-5.

(22) كان يعمل تحت يد هذه اللجنة كتيبة من 100 جندى ؛ وذلك بقصد إرغام الفلاحين على الدفع.

(23)Peyrusse, A.:op. cit., p. 472.

(24)تعد تجربة "جيرار" (مهندس الطرق والكبارى) نموذجاً بالغ الدلالة ؛ فقد كان متفانيًا فى جمع المعلومات من الفلاحين، عبر تطوافه لشتى القرى فى الصعيد والدلتا، حتى لقد كان زملاؤه يتنادرون عليه ويصفونه بـ "الفلاح". وقد استغرق معظم فترة الاحتلال فى تبويب المعلومات والملاحظات التى استند إليها فى تأليف عمله المتميز الذى أنجزه بعد عودته لفرنسا، ونُشِر فى "وصف مصر". انظر جيرار: وصف مصر، مج 4، ص ص 3-10.

(25) تشى تفاصيل عديدة يسجلها الجبرتى فى يومياته فى الفترة من رمضان 1213: محرم 1214(فبراير ـ يونيو 1799) بترقب المصريين لما قد تسفر عنه حرب الشام من نتائج. ولعل أكثر التعقيبات دلالة، ما ذكره حال وصول أخبار سقوط يافا:" نزل بالناس الكآبة والهم والحزن ما لا يوصف، فإنهم كانوا يظنون بل ويتيقنون استحالة ذلك خصوصًا فى المدة القليلة ولكن المقضى كائن". انظر الجبرتى: مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة 1998، ص 115.

(26)Zayonchek à Desaix, (27 Oct. 1798); à Desaix, (2 Nov. 1798), Polonais.., pp. 109,110, 115.

(27)Zayonchek à Desaix, (31 Oct. 1798) , Ibid, p. 114 .

(28) Zayonchek à Dumont (27 Mars 1799); à Dugua, (19 Mars 1799), Ibid; pp. 188-192.

(29) Zayonchek à Poussielgue, (29 Av. 1799), Ibid; p.230.

(30) Zayonchek à Dugua, (12 Juin 1799), Ibid; p. 258.

(31) الجبرتى: عجائب الآثار، فى التراجم والأخبار، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، القاهرة 1998، ج3، ص ص 119-121؛ مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق عبد الرحيم، القاهرة 1998، ص ص136-139.

(32) انظر الفصل الثالث.

(33)Zayonchek à Boyer, (23 Juin 1799), à Berthier, (même date), Ibid, pp. 268 - 70.

(34) الجبرتى: عجائب الآثار، ج3، ص 127؛ مظهر التقديس، ص 145.

(35)Vincennes, B[6] 28: poussielgue à Bonaparte, (6 Août 1799).

وهو يُنبه بونابرت إلى ضرورة وضع حدٍ لتدخل الديوان وتحديد صلاحياته.

(36) هناك شواهد تؤكد حرص المباشرين على لفت نظر الفرنسيين إلى أهمية إبداء حسن معاملتهم لمشايخ القرى، وكان من أوائل من أكدوا هذه المسألة المعلم يعقوب نفسه. وقد أفرد الجنرال بليار لهذه الملاحظة رسالة خاصة للقائد العام. انظر:

Belliard à Bonaparte, (Benisouef), (25 Nov. 1798), La Jonquière, t. 3, p. 358.

(37) Zayonchek à Poussielgue, (10 Av. 1799), Polonais.. , pp. 204-206.

(38)Zayonchek à Dugua, (14 Av. 1799), Ibid. , p. 210.

(39) دار الوثائق: دفتر ترابيع ولاية جرجا لسنة 1213، س 2267 ونجد بين "ايصالات السداد" المحررة باللغة العربية، بوثائق فينسان، "إيصالاً" يؤكد إسقاط بواقى مال ناحية "دومشيه"(بالهنسا) استنادًا إلى "حجة شرعية صحيحة" تؤكد دفع هذا المال للمماليك. انظر:

Vincennes, B^6 81.

(40)Vincennes, B^6 81: "Comptes relatifs aux Revenus en nature de la Haute- Égypte".

(41) Zayonchek à Friant, (23 Sept. 1799); à Reynier, Commissaire aux grains, (30 Sept. 1799) Polonais , pp. 332,333.

ونجد زايونشيك - كذلك - ينبه مدير المالية إلى ضرورة اتخاذ إجراءات معينة تكفل ضبط التخفيضات عن الحصص التى شرقت ببعض القرى حتى "نقلل، قدر الإمكان، من تعرضنا للتضليل والخداع". انظر:

Zayonchek à Pousseilgue, (14 Av. 1799), Ibid, pp. 211,212.

(42) Ordre de Bonaparte, (18 Août 1799), Corres., t.5, N° 4368, p. 568 .

(43) Peyrusse, A.: op. cit., p. 467.

(44) راجع على سبيل المثال تقريرى مدير المالية "بوسيلج"، والمنسق العام للصرف دور
Poussielgue au Directoire exécutif, (9 Oct. 1799), dans: Kléber en Égypte, 1798 - 1800 , 4 Vols., présentation et notes par Henry Laurens, (IFAO), 1988, t.3, pp. [141-155]; D'Aure, H. "Apreçu des sommes dues au 6 fruc. An 8, époque à laquelle le général kléber a pris le commandement de l'armée." Dans: Copies of original letters from The French Army in Égypt, London1800, V.3, pp. 57-59.

(45)Kléber au Directoire, (26 Sept. 1799), Klé., t.2, p.520.

وأكد ذلك أيضاً تقرير مدير المالية. انظر:

Poussielgue à Sièyes, Membre au Directoire exécutif, (21 Nov. 1799) en: Lettre de M. Poussielgue, Accompagnée de pièces justificatives à M. Thiers, autour de l'Histoire du Consulat et de l'Empire, Paris 1845, p.36.

(46)Vincennes, B^6 183: Poussielgue à Desaix, (23 août 1799).

كذلك أشار كليبر إلى أن بدء الجباية لعام 1214 تتوافق مع شهر فريمير (21 نوفمبر – 20 ديسمبر 1799) راجع:

Kléber au directoire, (8 Oct. 1799), Klé., t.3, pp. 79,80.

(47).الجبرتى: عجائب الآثار، ج3، ص135.

(48) Peyrusse ; A., op. cit.,p. 465.

(49)Kléber au payeur général, (4 Oct. 1799), Klé., t.3, p. 127.

(50) لم يفت كليبر الإشارة إلى هذه المسألة فى تقريره لحكومة الإدارة باعتبارها إحدى عوامل الأزمة المالية. انظر:

Kléber au Directoire, (8 oct. 1799), Ibid, pp. 79,80.

(51).Kléber à Poussielgue, (11 Sept. 1799); Ibid, p.28.

(52)Kléber à Poussielgue, (13 Sept. 1799), Ibid, p. 48.

(53)Kléber à Zayonchek, (4 Sept. 1799), Klé.,t.3, p.15 ; Desaix,à Belliard, (14 Sept. 1799).

(54)Vincennes, B^6 161: Reynier à Pini, (9 Nov. 1799); à Friant, (25 Oct.1799).

(55)Poussielgue au Directoire exécutif, (9 Oct. 1799), Klé., t.3, p. 145.

(56)Ibid; p. 146.

كما يؤكد ذلك أيضًا رسالة رينيه إلى زايونشيك: "ليس الموضع المملوء بالغلال، والواقع بين يدى الفلاحين، إلاَّ فى حالة فقد فعلى، ومن ثم يتعين أن نعطى الأقباط الحماية وننشط جبايتهم..".

Vincennes, B^6 161: Reynier à Zayonchek, (27 Oct. 1799).

(57)كثيراً ما يشير إلى ذلك رينيه فى عدد كبير من مراسلاته · انظر على سبيل المثال:

Vincennes, B^6 161: Reynier au général Friant, (25 Oct. 1799); à Poussielgue, (27 Nov. 1799).

(58)Ordre de Kléber (14 Sept. 1799), Klé., t.3, pp.53,54;

وقد حرر إستيف الأمين العام للصرف هذا الأمر ضمن منشوراته لمرءوسيه مندوبى الصرف بالأقاليم· انظر:

Vincennes, B^6 94: "circulaires du payeur général de l'Armée de la Méditerranée", pp. 201,202.

(59).تؤكد وثائق "محكمة منفلوط الشرعية" قيام العمال الأقباط بتحميل الغلال(حتى أغسطس 1799) على المراكب وتوجيهها باسم "المعلم جرجس الجوهرى". انظر:

دار الوثائق: محكمة منفلوط الشرعية،(إشهادات)، س 4، ص71، م 222؛ م 223 (4ربيع أول 1214/ أغسطس 1799)·

(60)Circulaire de Poussielgue, (30 Sept. 1799).

دار الوثائق: محفظة 46، ظرف 1· ويلاحظ كذلك بأن "الخيول" خضعت للإجراءات نفسها، بوصفها إحدى الضرائب العينية، فكان يتم تسليمها للصراف الذى يتعين عليه أن يقدم للعامل القبطى إيصالاً بها Reçus de chevaux انظر:

Vincennes, B^6 161: Reynier à Cordier, (2 Jan. 1800).

(61) Multésimes. des Effendi Hussein à Reynier 162: B^6 Vincennes,

(62) Ordre de Kléber, (16 Sept. 1799), Dans: Kléber et Menou., pp. 41,42.

(63).Peyrusse, A.: op.cit., pp. 471,472

(64) سوف يُعلن كليبر(فى 22 مايو 1800) أنهم أحرزوا تقدمًا ملحوظا فى إعداد كتاب "طبيعة الضرائب فى مصـــر" La nature des impôts en Egypte ولأهميته فإنه يصفه "بالكتاب الشهير" fameux livre ويؤكد أنه لم يحو بعد العديد من الضرائب غير المعروفة· انظر:

Kléber à chanaleilles, agent français, (22 Mai 1800), Kléber et Menou.., p. 296; Klé., t.4, pp. 914,15.

(65) دار الوثائق: دفتر ترابيع ولايت جرجه لواجب سنة 1215، س 2281· والعبارة التقليدية فى نهاية الدفتر تشير إلى: "بلاد الولاية المذكورة تتبع النيل كل سنة بالمساحة والقياس وأما الشراقى ترفع لهم ... وسنه يزرعوا كتير وسنه يزرعوا قليل·· والاعتماد على المساحة "· كذلك انظر: حسين افندى: المصدر السابق، ص34·

(66)Vincennes, B6 81: "Etat des recettes et dépenses en argent et en grains de la province de Thêbes pour les années 1212 et 1213".

ويقدم الوكيل المالى فى نهاية التقرير شهادته عن تحصله لمجمل الضرائب من المعلم رفائيل والمعلم مينا·

(67)Vincenees, B6 183: Poussielgue à Zayonchek, (5 Sept. 1799).

(68)Zayonchek à Reynier, (10 Nov. 1799), Polonais.., p. 342.

(69)Zayonchek à Reynier, (25 Oct. 1799), Ibid, p. 340.

(70)Poussielgue à Zayonchek, (2 Nov. 1799), Ibid; p. 340, (Note 3).

(71)Vincennes, B6 161: Reynier à Friant, (18 Nov. et 25 Déc. 1799).

(72) Ravier à Reynier, Minieh, (30 Nov. et 17 Déc. 1799).

دار الوثائق: محفظة 4 ملف بدون رقم·

كذلك يكتب الجنرال بليار إلى الوكيل الفرنسى بتروشى فى الموضوع ذاته بالنسبة لقرى مصر العليا: " يجب مسح الأراضى، فالضريبة تحصل بناءً على المساحة التى يتعين التعرف عليها قبل جباية الضرائب" ·

Belliard à Petrucci, (21 Déc. 1799). دار الوثائق: محفظة 15، ملف 11، ورقة 37

(73)Ravier à Reynier, (17 Déc. 1799).

الأرشيف نفسه: محفظة 4 ملف بدون رقم ·

(74)Vincennes, B6 161: Reynier à Mohallem Djeorgis Edjoari, (1 Nov. 1799; et 5 Jan. 1800); Reynier à Tallien, (5 jan. 1800); Reynier à Ravier, (13 Jan. 1800)

(75)Vincennes, B6 161: Reynier à Djeorgis Edjoari, (5 Jan. 1800).

(76)Vincennes, B6 161: Reynier à Mohallem Djeorgis Edjoari, (1 Nov. 1799).

(77) فاطمة الحمراوى: المرجع السابق، ص 282؛ نبيل الطوخى: المرجع السابق، ص 263·(ويعود تاريخ وثيقة الشكوى إلى 31 ديسمبر 1799) ·

(78) لم يقتصر الأمر على الصعيد وحده، وإنما امتد ليشمل عددًا من أقاليم الوجه البحرى وخاصة ما كان واقعًا منها شرق الدلتا· انظر على سبيل المثال:

Vincennes, B6 197: Friant aux checks des villes et villages du 5em arrondissement, (sans date).

والوثيقة حرر منها نسخة باللغة العربية لتوزيعها على مشايخ القرى والبنادر، كذلك انظر: رسالة فردييه إلى كليبر بشأن حسن طوبار الذى امتنع عن تسديد حصيلة التزامه البالغة 30.000 بوطاقة!

Verdier à Kléber, Damiette, (Le Déc. 1799).

دار الوثائق: محفظة(15) ورقة بدون رقم5·

(79) هنرى لورنس: الحملة الفرنسية فى مصر، بونابرت والإسلام، ترجمة بشير السباعى، دار سيناء، ط 1، 1998، ص 450؛ أندريه ريمون: المصريون والفرنسيون فى مصر 1798 - 1801، ترجمة بشير السباعى، عين للدراسات والنشر، ط1 القاهرة 2001، المصريون والفرنسيون فى القاهرة، ص161.

(80) جاء فى "مظهر التقديس" للجبرتى: "تواترت الأخبار بوصول حضرة الوزير الأعظم.. ورجال الدولة واستمر الأمر على الانتظار وترجى حصول الفرج آناء الليل وأطراف النهار" ومع تحقق سقوط حصن العريش: "حصل الفرج العظيم بمبدأ هذا الفتح". ثم عاد الجبرتى فى نسخة "عجائب الآثار" ليحذف هذا النص، فيما يشير إلى امتعاضه من أحكام العثمانيين بعد أن عادت لهم السيطرة على مصر راجع:

الجبرتى: مظهر التقديس، ص 157؛ عجائب الآثار، ج3، ص 140.

(*) كان "القرش أبو طاقة" أو "بوطاقة" يعادل بـ 90 بارة فى فترة حكم على بك الكبير(1772) وأصبح يعادل 150 بارة عند دخول الفرنسيين مصر(1798) بسبب تضخم قيمة البارة. انظر:

استيف: وصف مصر، مج 5، ص 94.

(81)Arrêté relatif au recouvrement des contributions par le général en chef Kléber, (21 Déc. 1799), Klé., t.3, pp. 321-322; Kléber et Menou, pp. 153,154.

(82)Ibid; Kléber à Zayonchek, (26 Déc. 1799), klé, t.3, p. 358.

(83)Arrêté de Kléber relatif au recouvrement des contributions, (31 Déc. 1799), Ibid., t.3, p. 378.

(84)Peyrusse, A., op.cit., p. 465.

(85) Kléber à Dugua, (18 Jan. 1800), Klé.., t. 3, p. 485; Kléber et Menou en Égypte depuis le départe de Bonaparte, Documents publiés pour la Société d' Histoire contemporaine, par Rousseau (François), Paris 1900 ،pp. 192,193.

(86) Desaix et Poussielgue à Kléber, au camp des conférences, près d' El - Arich. (24 Jan 1800), Klé., t.3, pp.531,2.

(87) Procès - verbal du conseil de guerre tenu au camp de Salahieh, (21 Jan. 1800), Ibid., t.3, pp. 498,99.

(88) Kléber à Dugua, (18 jan. 1800), Ibid., p. 485.

(89) Vincennes, B^6 110: Dugua à Kléber, (20 Jan. 1800).

ويلاحظ أن الجنرال دوجا فى تحليله لمواقف المتعاونين مع الفرنسيين وحد فى الموقف بين المشايخ والمسيحيين عموما (أقباط وشوام) . كذلك يمكن الرجوع لتقارير جون كيث(سكرتير سيدنى سميث قائد الأسطول الإنجليزى) الذى كان فى مهمة فى القاهرة إبان سريان تطبيق المعاهدة من 10 -16 مارس 1800: فقد أوضح أن الأقباط هم الأكثر انزعاجا وأنهم كانوا مجبرين على التعاون مع الحملة. وقد نشر هنرى لورنس تقارير كيث فى يوميات كليبر . انظر:

Rapports de Keith à Sidney Smith, (10-16 Mars 1800) Klé.., t.4, pp. 683-697;

هنرى لورنس: الحملة الفرنسية فى مصر، ص 468.

(90) راجع هذا الاقتباس فى دراسة: نبيه كامل داود: "الحملة الفرنسية على مصر فى ضوء كتابات الأقباط المعاصرين لها " فى: أسبوع القبطيات السابق، كنيسة العذراء بروض الفرج، القاهرة 1998، ص 132؛ وقد أكد الجبرتى هذا الخبر كذلك. انظر: الجبرتى: عجائب الآثار، ج2، ص 179.

(91) الجبرتى: عجائب الآثار، ج2، ص 17؛ نبيه كامل داود: المرجع السابق، ص ص 132- 134. ولمزيد من التفصيل حول الفترة المضطربة فى مصر فى العقدين السابقين على مجىء الحملة انظر: مجهول: تاريخ ما وقع فى مصر من ابتدأ عام 1190، المكتبة الوطنية - باريس

ARABE, N° 1856.

(92)Rapport de John Keith à Sidney Smith, Cairo, 10th March 1800) Klé., t.4, pp.683-9; Vincennes, B^6 110: Dugua à Kléber, (20 Jan. 1800); Dugua à Zayonchek, (25 Jan. 1800).

وفى الرسالة الأخيرة يشير دوجا إلى أنه عقب نجاح المفاوضات ابتعد البكوات عن الجيش التركى

(93) لعل أول إشارة إلى نوايا العثمانيين جاءت فى "محاضر المفاوضات" حيث أبدى ممثلو الباب العالى للجانب الفرنسى العزم على طرد المماليك من مصر نهائياً. راجع:

محمد فؤاد شكرى: عبدالله جاك مينو وخروج الفرنسيين من مصر، دار الكتاب العربى، القاهرة 1952، ص 158.

(94)Menou au Premier Consul Bonaparte, Rosette, (19 Mar. 1800), Klé., t.4, pp. 771,2.

(95) Desaix et Poussielgue à Kléber, au camp d'El-Arich, (30 Jan. 1800), Klé., t.4, p. 556;

الجبرتى: عجائب الآثار، ج3، ص ص 149,148، 151، (والكيس 25000 بارة ومن ثم فالحصيلة يصل إجماليها إلى 75 مليون بارة).

(96) Napoléon Bonaparte: op.cit., pp. 304-5;

كذلك أشارت "كورييه" لهذا اللقاء وذكرت فى خاتمة المقال: "لم يكن البكوات مطمئنين إلى طابع الاستقبال الذى يتوقعونه من الصدر الأعظم ولا إلى مصيرهم النهائى." انظر: كورييه دى ليجيبت، عدد (63) (8 مارس 1800)، ص 243.

(97)Kléber à Dugua, (14 Jan 1800) ; Kléber à Estève , (en même date), Klé., t.3, pp. 447-448, 449.

(98) Kléber à Dugua, (18 Jan 1800), Ibid, p. 485.

(99) الواقع أن خدماتهم المعتادة للفرنسيين، فى مجالات بعيدة عن جباية الضرائب ظلت متواصلة طيلة سريان معاهدة العريش ولم تتوقف إلا تحت الحصار الشديد الذى تحوط بهم إبان ثورة القاهرة الثانية، فى 22 مارس 1800 انظر:

Damien à Kléber, (22 Mar. 1800) .

دار الوثائق: محفظة 19، دوسيه 21، ورقة 14.

(100) ثمة إشارة إلى وصول مبلغ 80 ألف فرنك(حوالى 25 ألف قرشا) من أقاليم الصعيد للخزانة، وقد أبدى كليبر ارتياحه لذلك؛ توسمًا فى استمرارية تواصل التحويلات النقدية.
Kléber à Estève, (18 Jan. 1800), Klé. , t.3, p. 487.

(101)Kléber à Estève, (12 et 22 Jan. 1800); à Dugua, (18 Jan. 1800), Klé., t. 3, p. 487; t.4, pp. 513, 515.

(102) Estève à Kléber, (22 Mar. 1800),

دار الوثائق: محفظة 19، دوسيه 21، ورقة 12.

(103) Kléber à Poussielgue, (6 Mar. 1800), Klé., t.4, p. 615.

(104) Peyrusse, A.: op. cit., pp. 467, 468.

(105) Ordre du jour de Kléber, (28 Av. 1800), Dans: Pièsces officielles.., t.2, pp. 280,284; Klé, t.4, pp. 850-854.

(106) يتضح ذلك من رسالة مدير المالية بوسيلج إلى الجنرال دونزلوه: "ليس للوكلاء الأقباط بصعيد مصر مرتبات ثابتة وإنما يخصص لهم 6% من الحصيلة المحولة.وأن هذا يمثل حالة خاصة بهم بين كل الموظفين الأقباط بالمالية". انظر:
Vincennes: B6 183: Poussielgue à Donzelot, (4 Juin 1799).

(107)Kléber à Chanaleilles, (22 Mai 1800), Kléber et Menou.., p. 296; Klé., t.4, pp.914-15.

(108)Kléber à Dugua, (16 Jan. 1800); à Friant, (17 Jan. 1800), Klé.., t. 3, pp. 467, 468.

(109) الجبرتى: عجائب الآثار، ج3، ص 151.

(110) دار الوثائق: محكمة إسنا الشرعية(إشهادات)،س51، ص 284، م 676 (25 ذو القعدة 1214/ 20 أبريل 1800).

(111) قدر الجنرال دونزلوه حصيلة ما جمعه درويش باشا بـ (75.000 قرشًا) خلافًا للمواشى التى وصلت للقاهرة وعددها 3000 رأس، وحُملت الغلال على أربعين مركبًا. راجع:
Donzelot à Kléber, (14 Mai 1800),: Pièces Diverses et correspondances relatives aux opérations Militaires et politiques de l'armée d'Orient en Egypte, Paris an IX (1801), pp. 301-302; D'aure à Jacquin, à Beni - Souef, (23 Mai 1800).

دار الوثائق: محفظة 42 ظرف 1، ورقة بدون رقم.

(112) الجبرتى: عجائب الآثار، ج3، ص ص 148،149.

(113)Peyrusse; A.: op. cit., pp. 468,69.

(114) يلاحظ فى قوائم الوكيل المالى بتروشى أن حصيلة مال البياضى التى تجبى بين(مارس -مايو) بلغت 88% من جملة الإيرادات. انظر:
"Tableau de l' impôt , pp. 52-4.

المكتبة المركزية(جامعة القاهرة): محافظ وثائق الحملة الفرنسية: محفظة تحت رقم(196) ملف رقم(G VIII).

(115) الجبرتي: عجائب الآثار، ج3، ص ص 185-186.

(116)Note officielle de la part du général en chef Kléber, concernant la conduite à tenir par le très Illustre et honoré Mourad Bey, Klé., t.4, pp. 806-7.

(117) رسالة مراد بك إلى دونزلوه، رقم (54(بتاريخ 14 محرم1215 (7 يونيو 1800) .

(118) Peyrusse, A.: op.cit., pp. 468-9.

(119) Kléber à Chanaleilles, (22 Mai 1800), Klé., t.4, pp.914,15;

(120) Ordre du jour, (28 Av. 1800), Ibid, t.4, pp. 850-54; Peyrusse, A.: op.cit., pp. 467, 472.

(121) نشر الصاوى فى ملاحق دراسته جزءًا من الصيغة المعربة للأمر اليومى (28 أبريل 1800) وبها نجد مصطلح "الضريبة العامة" معربًا إلى "حسابات المدخول من اللم العمومى". راجع الصاوى: المرجع السابق، ملحق رقم (77) .

(122) Peyrusse, A.: op.cit., p. 467.

(123)Menou au général Rampon, (26 Déc. 1800), Kléber et Menou.., p.381.

(124)Peyrusse, A.: op. cit., p.467; Histoire Scientifique, t. 6, p.70; Rigault, G: op.cit., p. 245.

(125)Belliard à Zayonchek, (3 Août 1800); Belliard à Danzelot, (3 Août 1800).

دار الوثائق: محفظة 30، ملف 12، ورقة 10، 11.

(126)Menou à Mallem Jacob, (1 Août 1800); Menou à Damas, (1 Août 1800); Damas à Zayonchek, (même date).

دار الوثائق: محفظة 30، ملف 14، ورقة 8، 9، 15.

(127)Belliard à Gressin, Commandant à Minieh, (3 Août 1800).

الأرشيف نفسه: محفظة 30، ملف 12، ورقة 9؛

D'Aure à Menou, (14 Août 1800).

الأرشيف نفسه: محفظة 50، ظرف 5، ورقة 32، 33.

(128)Rigault, G.: op. cit., pp. 250,251.

هنرى لورنس: الحملة الفرنسية، ص ص 528-529.

(129)Ibid.

(130)Peyrusse, A.: op. cit., p. 467.

(131)Ibid., pp. 472,473.

(132)راجع على سبيل المثال الدفاتر التالية:

دار الوثائق: ترابيع الأموال الديوانية بالولايات: دفتر ترابيع ولاية الأشمونين ومال نواحى مذكور سنة 1213، س 2264؛ دفتر ترابيع ولاية جرجا سنة 1213، س 2267؛ دفتر ترابيع ولاية منلفوطية سنة 1215، س2265.

(133)Rigault G.: op. cit., p. 113.

(134)هنرى لورنس: الحملة الفرنسية، ص ص 528-529.

(135)Ordre du Jour, (20 Jan. 1801), Kléber et Menou.., pp. 382-393.

(136)Ibid; Rigault, G: op.cit., p.258.

(137)Rigault, G: op.cit., pp. 258,259.

ونشرت صحيفة "كورييه دى ليجيبت" خطابًا من لجنة المساحة إلى مينو توضح فيه خطة العمل والترتيبات المعدة لبدء المسح.

انظر: كورييه دى ليجيبت، عدد رقم (107)، ص ص 395،396.

(138) هنرى لورنس: الحملة الفرنسية، ص ص 570–575.

* * *



البروباجندا

كيف وظف نابليون الفن للدعاية لحملته على مصر(*) ؟

أ. د. ليلى عنان

ما أجمل صور الإعلانات فى التلفاز، إنها غالبا ما تكون أجمل من صور البرامج الأخرى، وفيها من الفن ما يجعل المشاهد يصدق كل ما تدعيه، حتى إن كان متيقظا، مدركا إنها "إعلان" أى أنها من أساسها كاذبة خادعة ؛ فهى لا تبغى إلا جذب المشاهد لدفع كل ما يملك فى سبيل الحصول على المنتج الجميل الذى يراه أمامه، وقد انخدع بروعة تمثيل من يتحدث عنها وعفويته.

وفن الدعاية فن قديم، حتى قبل أن يدخل التلفاز منازلنا ويفرض سلعه علينا. ونقوش الفراعنة على آثارهم أحسن دليل على ذلك، ناهيك عن تماثيلهم التى لاتصورهم إلا وهم فى أحسن مظهر. وحتشبسوت مثلا، استغلت هذه النقوش لتؤكد أنها ابنة إله عاشر أمها ؛ وهكذا أصبحت نقوش معابدها دعاية سياسية لها، بتأكيد كذبة أرادت أن يصدقها الجميع، فحل لها الحكم المطلق دون نقاش لأنها الوريثة الشرعية لحكم مصر.

وعندما عرف الإنسان فن الرسم، أمر الملوك فنانيهم برسم لوحات يرى فيها الرعايا قوادهم، وعائلاتهم فى أجمل صورة ليتشبثوا بهم، ويقبلوا سلطتهم المطلقة عليهم. لم يكن غريبا إذًا على "الجنرال بونابرت" وهو عبقرى الحرب والدعاية، أن

(*) سبق نشر هذا المقال بمجلة "الكتب وجهات نظر" – فى عددها السادس – يوليو 1999، ونوجه الشكر للأستاذة الدكتورة ليلى عنان على سماحها بإعادة نشره هنا.

يلجأ إلى الرسوم واللوحات ليؤكد للجمهور الفرنسى والجمهور الأوربى عبقريته الفذة وانتصاراته المذهلة، وقد وظف الفن لخدمته بصورة غير مسبوقة. فمثلا كان يأمر الفنانين بعد كل انتصار له فى حملته على إيطاليا يأمرهم برسم لوحة تفخم دوره فى انتصارات مذهلة لم يكن له فيها فى واقع الأمر هذا النصيب من المجد والبطولة. بعد ذلك كانت تنشر اللوحة رسوما مبسطة، تباع بأبخس الأسعار للفلاحين فى الأرياف، أو حتى توزع عليهم بالمجان، كما كان يفعل بالجرائد التى يطبعها لحسابه الخاص. وهكذا وصل صيت الجنرال العبقرى وانتصاراته المبهرة إلى كل أمى لا يستطيع قراءة جرائد الجنرال الشاب التى تحكى عن أمجاد لم يعرفها قائد فرنسى من قبل.

كان الأمر أسهل بالنسبة لحملته على مصر، فمن كان يعرف مصر أو حضارتها أو تقاليدها فى هذا العصر، وهى ذلك البلد الأسطورى البعيد، الذى كتب عنه فى قصص القرن الثامن عشر ورواياته، أساطير تفوق أى خيال. إنه بلد ألف ليلة وليلة. وبالتالى، كان من السهل أن يحول بونابرت الحملة "الفاشلة باعترافه!" إلى مجد شخصى له ؛ فأمر الفنانين بعد عودته إلى فرنسا، برسم لوحات تمجد لحظات بعينها، يريد بها تبرئة حملة أصبحت اتهامًا علنيا لمن أخذ قرار قيامها، أو يأمر برسم لوحة تحكى الحقيقة، ليرد بها على اتهامات أعدائه، وقد انتشرت أنباء كوارث وقعت أثناء وجوده فى ذلك الشرق البعيد.

إن كل ما قيل عن أكاذيب أطلقها بونابرت بعد ذلك ليمجد حملته الأسطورية على هذا البلد الأسطورى، لم يجد صدى عند المعاصرين بقدر ما رسم من لوحات؛ إنه تأثير الفن الجميل على المشاهد الساذج الجاهل البرىء. وسوف نستقرئ معا بعض هذه اللوحات التى لاقت فى حينها نجاحا لا نظير له، وساعدت بونابرت كثيرا فى حربه الدعائية ضد خصومه، بل وساعدته كثيرا عندما أصبح الإمبراطور نابليون الذى يسيطر على كل شىء فى فرنسا، وفى أوربا المستعمرة.

أمامنا كأمثلة خمس لوحات اخترناها وسط عشرات مثلها، لأننا رأينا فيها أحسن

تجسيد للأكاذيب التى بنيت عليها أسطورة الحملة. وبادئ ذى بدء، نذكر القارئ الكريم أنه ما من فنان ممن رسمها كان قد رأى مصر أو زارها يوما، فإذا فضحنا زيف ما نراه على اللوحة، فضحنا بالتالى كل أسطورة الحملة، وما يقال عن أمجادها الباهرة، لأن هذه اللوحات كانت من بين الأعمال الفنية التى أقنعت الجمهور الفرنسى بروعة الحملة وآثارها. فقد نشر مؤخرا مجلد فخم(*) يمجد الحملة بطريقة سافرة، نجد فيه لوحات كثيرة كان لها أكبر تأثير على من شاهدها فى عصرها.. بل وحتى يومنا هذا. إنها تبهر المعجبين بالجنرال الشاب الوسيم، الذى حارب باسم مبادئ الثورة الزائفة، الثورة الكبرى، أى ثورة 1789. والدليل، هذا الكتاب المعاصر لنا الذى ننتقى بعض صور مما ينشره من لوحات، نعرضها لتقرأ فيها أحسن مثل للفن الدعائى لنابليون، فتتحول بسببها الحملة الفاشلة، إلى أسطورة مثيرة فى تاريخ بونابرت وتاريخ فرنسا.

أول لوحة نتعرض لها (لوحة أ)، مثل لهذه الرسوم البدائية التى كانت تبهر جهلاء العصر فى أقاصى الأرياف، وتؤكد لهم حقائق لا يعرفون عنها إلا ما يعرض عليهم باللغة الوحيدة التى يستطيعون فك رموزها، وهى لغة الرسم. وكما نرى، فالرسم بسيط وغاية فى البدائية، وعنوانه: "بونابرت يهدى الوشاح ذا الألوان الثلاثة لأحد بكوات مصر". وما هذا الوشاح بألوانه الثلاثة، إلا رمز الجمهورية الفرنسية الجديدة بمبادئها الإنسانية من حرية ومساواة. وعلينا أن نتذكر أن المبدأ الثالث وهو الإخاء، كان قد أسقط من كل الأوراق الرسمية منذ عام 1794 ...! أيا كان، فقبول البك هذا الوشاح من أيدى بونابرت، يدل على الوفاق التام بين الجنرال المنتصر وشعب مصر المهزوم ؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى يدل هذا الوشاح على أن بونابرت فى حملته على مصر كان ينشر مبادئ الأمة الكبرى، أى فرنسا الجمهورية، قائدة الإنسانية: إنه الدليل على أن البلاد المفتوحة تحولت إلى أتباع شاكرين لفرنسا هبتها لهم، وهى هبة الحرية والمساواة، ومبادئ الثورة الكبرى.

(*)Bonaparte: La Campagne d 'Egypte, éd. Hean Tranie, J.C. Carmigniani, Paris 1988.

وهذا الرسم لمجهول، ولا نعرف أيضا تاريخ إصداره؛ إنه بالنسبة لنا مثالى لكى نفهم رؤية الفرنسيين لمصر والحملة عليها. نرى أول ما نرى نصف نخلة على يمين الرسم فى صحراء جرداء، وهو يكفى لخلق الديكور الغريب الأسطورى لفلاح أوربى لا يتخيل أرضا بلا خضرة، ولا شجرة كهذه النخلة، التى لم ير لها مثيلا فى بلاده، مثل اللباس العجيب للمصرى المهزوم: جلباب طويل، وهلال على عمته. إن هذا يكفى لمثل دور المسلم ساكن مصر. أما بونابرت فهو يرتدى القبعة ذات الريش الثلاث، وهى جزء من زى مسئولى الثورة آنذاك.. إن بونابرت لم يرتد هذا الزى لا فى مصر ولا فى فرنسا، لأن هذا الزى كان خاصا بوظيفة مفتشى الجمهورية، وبونابرت لم يكن يوما منهم، ولكنه سيكون أقرب لمخيلة الجهلاء بهذا الزى، وأكثر تعبيرا عن المبادئ المفروض أنه ينشرها.

نرى إذًا هذا الديكور الغريب: القائد المنتصر واقفا على اليمين بوجه صارم ولكن حركته ودية، أبوية، على عكس ما يبدو على وجهه من جفاء وحزم، وأيا كان التناقض بين الوجه والحركة، فالرسالة واضحة: قد يكون بونابرت صارما، حازما كما يليق بالقواد، ولكن هذا لا يعنى أنه غير إنسانى، أو أنه قاس، يرفض احتضان البك الغريب المهزوم، بحركة ليست ودية فقط، بل أبوية كلها حنان.

أما هذا البك فلوقفته أكثر من دلالة ؛ فالشرقيون مثلنا يعرفون أن التحية عندنا كانت تستوجب هذا الرأس المنحنى، واليدين المعقودتين على الصدر: إنها عنوان أدب جم وتواضع محمود. ولكن المشاهد الغربى لن يفهم ذلك طبعا، ولن يرى فى وضع هذا البك إلا خنوع المهزوم وذلته، وهو لا يكاد يصدق كرم القائد المنتصر وإنسانيته. فالبك برأسه المنحنى وعينيه المسدولتين، رمز لمصر المفتونة، المنبهرة بالهدية وبالحاكم الصارم الذى يعرف كيف يمزج قوته وحزمه بحنان أبوى يحتضن، أى يحمى أتباعه. إن مصر أصبحت ـ حسب هذا الرسم ـ من البلاد التى انضمت إلى فرنسا الثورة، التى يجسدها الجنرال الشاب المحارب باسمها. لقد حققت جيوش الثورة الفرنسية هدفها النبيل فى كسب مودة البلاد المطحونة، الشاكرة لتحريرها باسم مبادئ 1789، ووشاحها الملون، رمز الدولة الجمهورية المحررة.

سيبدو المشهد رائعا للغربيين طبعا، مؤكدا لهم كرم الجيوش الفرنسية الغازية، ولكنه سيبدو عجيبا لنا نحن أحفاد هذا البك ووشاحه الملون. والسبب بسيط لأن كل من اهتم بتاريخ الحملة، وقرأ الجبرتى، يعرف كيف ثارت ثورة بونابرت عندما رفض المشايخ بعنف ارتداء هذا الوشاح. والأغرب أن هذا الكتاب، الذى يمجد بونابرت وحملته بطريقة غير عادية يضع تحت الصورة المنشورة كلاما يناقض تماما ما نقرأه على صفحاته المكتوبة. فتحت اللوحة أسطرا تقص علينا كيف ألقى الشيخ الشرقاوى وقد احمر وجهه غضبا، بالوشاح المقدم من القائد العام للجيش الفرنسى، إلى نهاية القصة التى سردها هنا أمين إبراهيم غالى، فى مقال فرنسى عن "الحملة على مصر كما يراها الكتاب المصريون" وهى ترجمة أمينة لما حكاه الجبرتى.

ما هذا التناقض فى كتاب يمجد بونابرت وحملته، إلا صورة لبلبلة المؤرخين المعاصرين إزاء أحداث الحملة. فهم لم يعودوا يستطيعون إنكار الواقع التاريخى، وأصبحوا حتى يعترفون به، ولكنه على الرغم من ذلك لا يتخلون أيضا عن الأسطورة !

أيا كان، فالملاحظ أن نص الجبرتى يتحدث عن المشايخ، أى عن مدنيين عزل أمام قائد جيش منتصر، قوامه أكثر من 36 ألف جندى ؛ ولكن الرسم يشير إلى أن المهزوم أحد البكوات، أى ينتمى إلى قوة مصر العسكرية. فبونابرت المنتصر يصور هنا على أنه صاحب فضل وكرم يجعل حتى البك المملوك، الجندى العدو، يذوب خجلا أمام كرم القائد الأجنبى، المنتصر عليه. وطالما سنجد هذه الفكرة، فكرة مصر الذائبة سعادة وذلة أمام هدايا الجيش الجمهورى ومنحه وتنويره وكرمه، فى أدبيات الحملة وفى لوحاتها ؛ لأن بونابرت عندما عاد خلسة إلى فرنسا، بعد فشل مشروعه الاستعمارى فى الشرق، أمر بعد ذلك ببضعة أشهر، بل وسنين أيضا الفنانين برسم لوحات تؤكد أسطورة الحملة التنويرية على مصر، سواء كان ذلك لتأكيد سياسة عبادة الفرد التى انتهجها، أو ليرد على أعدائه وأقاويلهم عن فشله فى مصر.

فكانت إحدى هذه اللوحات، اللوحة المسماة بـ"الجنرال بونابرت يعطى سيفا إلى حاكم الإسكندرية العسكرى" (لوحة ب). هنا، يتوقف القارئ المثقف ثقافة تاريخية أمام هذا العنوان العجيب: كيف يهدى بونابرت أى شىء إلى حاكم مصرى، ناهيك عن حاكم الإسكندرية العسكرى؟ ومتى نصب بونابرت مصريا أو تركيا حاكما حتى على قرية ليصل به الأمر إلى تنصيبه حاكما عسكريا على الإسكندرية، أخطر موقع آنذاك بالنسبة للبلد؟

إن أول ما يلفت نظر المشاهد، الخشوع المطلق للشعب المهزوم: إنهم على يسار اللوحة، ولن يفهم تفاصيل وضعهم إلا الدارس للفن الغربى، والمسيحى منهم بالذات. "فالمسلمون" كما كان الفرنسيون يقولون عن المصريين فى كل أدبياتهم، بملابسهم البنية، يقفون خلف الحاكم العسكرى المصرى السعيد، ونرى أحدهم يضم يديه بسعادة بالغة.. وكأنه فى الكنيسة! إنه أحد ثلاثة رجال لن نفهم وضعهم، بل وثراء لباس أحدهم، إلا إذا تذكرنا اللوحة الدينية الغربية، التى تصور الملوك المجوس الثلاثة، وهم يقفون أمام مهد السيد المسيح، جاءوا إليه من أقاصى الشرق، تقودهم نجمة إلى بيت لحم، حيث يعبدون المولود الجديد. وسواء كان المشاهد الفرنسى يفطن إلى هذه المراجع الدينية أم لا، فكلنا يعرف إن فن الدعاية يؤثر على المشاهد دون أن يشعر المتلقى بالخيوط التى تحرك إحساسه للتأثير عليه. فنحن أمام لوحة توحى إلينا بانبهار المصريين أمام هبة الفرنسيين لهم فى شخص الحاكم المصرى، وكأنهم يعبدون السيد المسيح، الذى جاء ينقذ البشرية. فحتى الملابس الفاخرة، لأول المجوس أمامنا مستوحاة مما اعتدنا عليه فى اللوحات الدينية التى تصور الحدث الجليل.

هذا بالنسبة للجزء الأيسر من اللوحة وأمام المسلمين. وفى الجزء الأيمن من اللوحة، نرى الفرنسيين وهديتهم التى تعبد هكذا، والضباط منتصبين فى كبرياء وخيلاء، بكامل أسلحتهم وملابسهم المزركشة، بجانب العلماء. انظروا إلى الشيخ الهرم على اليسار كيف يبدو عليه الخضوع أمام الكرم الحتمى للمنتصرين المسلحين.

نصل الآن إلى محور الصورة، فى الوسط، ولا يسع المشاهد المثقف ثقافة غربية إلاَّ الضحك ؛ فالمسلم حاكم الإسكندرية يحنى رأسه ويتكئ على إحدى ركبتيه وكأنه أحد شباب القرون الوسطى، عندما كان سيده ينصبه فارسا بسيف الفروسية الجديد، وذلك فى حفل مهيب ! ولتتأكد الفكرة، يقف فى وسط اللوحة بالضبط على يسار بونابرت ضابط من سلاح فرسان "الهوصار"، بكامل زيه الرائـع ؛ إن لون ملابسه حمراء مثل لباس الفارس الجديد، وكأنه ضامنه.. هنا، يتوقف المشاهد العربى متعجبا: كيف لهذا الضابط الأبى أن يحتمل هذا الزى الخانق، بكل هذا الفراء، فى جو مصر الحار ؟ المعروف أن هذا الجو كلف الجيش الفرنسى الكثير من المآسى، وأن بونابرت أمر بتفصيل زى أخف وطأة على جنده حتى لا يقعوا ضحايا شمس مصر الحارقة بعد ذلك. من البديهى إن الفنان الذى رسمه (وهذا أمر نعرفه يقينا مسبقا) لم يزر مصر يوما، وكأنه أراد إن يفضح بهذا الزى الجميل الكذبة كلها، كذبة لوحة تدعى مالم يحدث يوما، أن نصب بونابرت قائدا عسكريا على الإسكندرية من المسلمين.ففى صفحات أخرى من الكتاب: 36، 37، 38، لوحات نرى فيها كل ملابس الأسلحة المختلفة التى شاركت فى الحملة، ولن نجد فيها طبعا هذا الزى لسلاح فرسان " الهوصار".

ولكن ثورة القاهرة الأولى كانت لها أصداء لايمكن التكتم عليها ولذا وجب الرد عليها بلوحة رائعة، تشرح للجمهور الفرنسى حقيقة الأمر، أو بالأصح تشرح له ما يجب عليه أن يعرفه، ولا يعرف سواه. فلوحة "ثورة القاهرة، 21اكتوبر 1798" (لوحة د) ترشدنا دون مواربة إلى موقع الحق، والعدالة، وأين كانت تقع هذه الصفات النبيلة أثناء الأحداث الدموية التى صاحبت ثورة يوم واحد، لبعض أفراد من شعب مسالم، أحب بونابرت وانبهر بهباته ؛ فمن كان الثائر فى يوم 21أكتوبر 1798 وما كانت حقيقتهم ؟

مَن درس تاريخ الفن فى فرنسا، يذكر حتما لوحات الفنان دايفيد David الشهيرة، التى أعادت إلى فرنسا قوانين الفن الكلاسيكى الصارم، وكأن لوحته

مشهد من مسرحية يتجمد الممثلون عند اللحظات الحاسمة، فيصورها لنا الفنان فى صمودها المفتعل، ليرسم أجساما رائعة فى تناسقها الأمثل. ولكن بدايات القرن التاسع عشر كانت قد بدأت تتجه أيضا إلى الفن الرومانتيكى بلوحات صاخبة فى الحركات والألوان. وراسم هذه اللوحات التى أمامنا كان مما لاشك فيه من تلاميذ "دايفيد". وإن أكثر من أبطالها كما كانت المدرسة الجديدة تتطلب، حتى إن حركاتهم فيها من المسرحية ما يذكرنا بلوحات دايفيد.

والناظر إلى هذه اللوحة سيرى نفسه مجبرا على مقارنة أكيدة بين خطين متوازيين، بين خط الفرنسى على اليسار، وخط عدوه على اليمين، وكلاهما يشهر سيفه لينقض على الآخر. أما الفرنسى، فهو صورة للفارس الأوربى النبيل، أى صورة للحضارة الوحيدة فى العالم: ملابسه جميلة وكاملة، وألوانها محببة للنفس، سواء كانت بيضاء أو حمراء أو وردية ؛ بينما غريمه على اليمين له جسم ضخم، عار تماما، كأى متوحش يعيش فى الغابات، وجهه أسود لتتأكد بربريته كما كان نمط المتوحشين فى أدبيات ذلك العصر.

إذا عدنا إلى قراءتنا لهذه اللوحة الصاخبة فى حركات أبطالها وألوانها الفاقعة، إذا عدنا إلى مشاهدة المتوحش الأسود العارى بعنفه وبربريته البدائية، سنفهم أنه فى الواقع عبد يدافع عن سيده كأى كلب أمين مرود. أما هذا السيد، فهو أيضا مثل، الفرنسى صغير السن، وألوانه بيضاء وردية، ملابسة الفاخرة، ولونه الأبيض يؤكدان أنه من المماليك الذين يحارب الفرنسيون طغيانهم. ولكن المقارنة لا تقف عند هذا الحد. فإن كان الفرنسى يهاجم بهدوء وجسارة يحسد عليهما وسط كل هؤلاء المتوحشين، فالسيد المملوك " المسلم " ساقط على الأرض وعيناه مغمضتان. ونظرا لأننا لا نرى أى آثار دماء على ملابسه البيضاء الثرية، من البديهى أنه سقط مغشيا عليه، تاركا أمر المعركة لكلابه من العبيد الأوفياء. فالمماليك أعداء الفرنسيين، جبناء، يتركون المعركة لأسافل المجتمع من عبيد متوحشين. وتأكيداً للشجاعة الخارقة التى يتصف بها المحارب الفرنسى، على يسار اللوحة، نرى نظرة

عينيه لا تتجه نحو العملاق الأسود: إنه يتجاهله بالفعل، وينظر إلى عبد آخر، نراه أسفل اللوحة على اليمين، وبيده سكين غليظ، يشع من عينيه كراهية وحقد لا مثيل لهما. مرة أخرى، يفرض على المشاهد مقارنة الوجه الصافى للمحارب الفرنسى "المتحضر"، ونظرته الزائغة، بالوجه الأسود المتوحش للزنجى العارى: إن كلا الزنجيين العاريين رمز بربرية الثوار الذين ثأروا على الضابط الفرنسى الشاب اللطيف بألوانه الهادئة وزيه الجميل، رمز حضارة التنوير التى أراد بونابرت إهداءها إلى شعب جاهل، لا يفهم قيمة ما يأتى به الضابط الوسيم، بوجهه السمح ونظراته الصافية. أما باقى المحاربين الثائرين، فهم يرتدون أسلحة ... من القرون الوسطى! كان مفهوم القرون الوسطى فى عصر نابليون لا يوحى إلا بالتخلف والجهل والتعصب الأعمى. من الطبيعى أن مثل هؤلاء المتوحشين المتعصبين الجهلة يثورون على من جاء من فرنسا بالنوايا الحسنة التى أعلنها بونابرت للشعب الفرنسى، ومن خلال هذه اللوحة، والوجه السمح الصافى للضابط الشاب على يسار اللوحة ليجذب انتباه المشاهد، ويجبره على مقارنته باثنين من المتوحشين العرايا، والمملوك المنهار.

بعد هذه الثورة الدموية التى لم يشارك فيها المماليك فى حقيقة الأمر، بعدها ـ وقد عرفنا الآن أين يقع الحق والحضارة والشجاعة بل والسماحة ـ يأتى عصر النور بانتصار بونابرت على المماليك الجبناء والعبيد العرايا المتوحشين. إنه انتصار قُوى النور ـ والتنوير إذًا ـ على قوى الظلام والتخلف والتعصب الدينى الأعمى، كما نقرأ فى كل أدبيات الحملة. وسنرى كل هذه المعانى مجسدة فى اللوحة التالية المسماة "بونابرت فى الجامع الكبير بالقاهرة " نفهم طبعا أنه يعنى جامع الأزهر؛ إذ إن المعروف أن بونابرت لم يدخل يوما إلى أى جامع، ناهيك عن جامع الأزهر الشريف.

إن أسلم وسيلة لإقناع الغير هى التحدث بلسانه، وإن استوجب الأمر لَيّ الحقائق ؛ وتشويهها وما المانع من تشويه التفاصيل إن كان إجمالى العمل نفسه كاذبا.

ولذا كانت رموز اللوحة مسيحية أو غربية ولاعلاقة لها بالشرق ولا بمصر ولا بالإسلام. فاللوحة مثل لوحة القائد العسكرى للإسكندرية، مثل رائع آخر لحجم التهويهات عندما يتعرض الفرنسيون للحملة وأساطيرها المغايرة للواقع والتاريخ ؛ إنها لوحة رائعة، نرى فيها أول ما نرى، بونابرت وحده فى أعلى اللوحة على اليمين، ومن ورائه مدينه بيضاء وسماء زرقاء صافية وكأنه ينزل منها على جواده الأبيض فى نفس الهدوء والوقار المحببين للنفس، اللذان نراهما فى كل اللوحات التى تقدمه للجمهور. وهو هنا وحده مادا يده إلى الأمام، وكأنه يستحوذ من أعلى اللوحة على كل النور الذى يغمر هذا الجزء، أعلى جزء، كأن نوره هو وحده، نور بونابرت بيده الممدودة، هو الذى يدفع كل ظلام الجامع أسفل الصورة، وجمهور المهزومين غارق من تحته فى هذا الظلام، ينظرون إليه من أسفل، ينظرون إلى النور الذى لا يشع إلا من أعلى الصورة، وكأنه يشع من شخص بونابرت وجواده الأبيض، وليس من باب الجامع والسماء الصافية من خلفه. إن بونابرت يدفع بوجوده السماوى، هؤلاء المهزومين. نراهم مطحونين متجمدين رعبا، أو متحدين فى هذه الظلمات، وما هى إلا كناية بدائية لحالهم الواقعى، أسفل أدراج الجامع، كناية أخرى لا تقل بدائية فى رمزيتها عن الكنايات الأولى، والتعارض بين النور والظلام، والأعلى والأسفل، والسماوات والأرض، والجنة والنار، نار الجحيم.

والمشاهد الغربى المتشبع بالثقافة المسيحية واللوحات التى تصور قصصها وأساطيرها، سيفكر حتما فى "سان ـ ميشيل"، أى "ميخائيل" رئيس الملائكة الذى قاد جيوش الحرب ضد الشيطان عندما ثار الأخير على الناموس الإلهى. والخير المشع منه، نراه دائما سواء كان ذلك فى اللوحات أو التماثيل، رافعا سيفه أو مادا وجناحيه من خلفه تؤكدان هويته، ينظر إلى أسفل حيث يقبع الشيطان مطحونا رمزا لقوى الظلام والضلال، والثورة الفاشلة الممقوتة.وبونابرت فى هذه اللوحة، نراه نازلا من السماء على جواده الأبيض كأنه ملاك الحق والنور (والتنوير إذًا) ينظر بهدوء أسفل قدميه، إلى قوى الظلام والجهل وكل ما ادعته الحملة فى أسطورتها

الكاذبة عن مصريى ذلك العصر وثوارهم. إن مجرد وجود بونابرت يدحض قوى الشر، وكأنه الملاك القائد ميخائيل فى هذه اللوحة.

أما باقى اللوحة، فلا تقل رمزيه ولا كذبا؛ فهندسة الجامع لا علاقة لها بالجامع الأزهر، ولكن كان لابد أن توجد به أدراج حتى تعلو مكانة بونابرت. وعلى يسار اللوحة، يسار بونابرت، رجل من البديهى لنا أنه يكبر ليبدأ صلاته الإسلامية ؛ فما علاقة ذلك بما يدور من حوله، والجثث المتناثرة تؤكد وجود المعركة الخاسرة ؟ لن نسأل الفنان الذى رسم اللوحة، فالأمر واضح، أنه لم يزر أى بلد إسلامى من قبل، وإلا لما رسم أيضا امرأة عارية فى أسفل اللوحة على اليمين ! إنها تتضرع للسماء مشكورة، ولكن المنظر ينتمى إلى الغرب أكثر منه إلى أى بلد شرقى، خاصة فى ذلك العصر، إن صح فى أى عصر أن توجد امرأة عارية فى مسجد، وهى على قيد الحياة وليست جثة هامدة ! حتى وإن كانت جثة هامدة. كذلك من أمر الصبى الذى يجرى من فوقها: إنه صبى باريسى يرتدى ملابس العصر الذى رسمت فيه اللوحة. إنه يُذكر فى الحال كل قارئ للأدب الفرنسى بالشخصية الشهيرة "جافروش" Gavroche لرائعة " فيكتور هوجو" "البؤساء" بلبسه الذى لم يعرفه حى الأزهر إلا فى عصرنا، ومنذ عقود قليلة ! أما المحارب الثائر الواقف أمامنا، ونراه من الخلف ؛ فرداؤه من القرون الوسطى وكأنه ذاهب لملاقاة الملك لويس التاسع ! ألم نقل أن القرون الوسطى هى فى ذلك العصر رمز التخلف والظلمات ؟ فالمحارب رمز الشر الذى يطحنه بونابرت لمجرد وجوده، لا يمكن أن يكون إلا المتعصب الذى يعيش فى قرون الظلام. إنه تجسيد فنى لما يقوله نابليون فى مذكراته عن "حملات مصر وسوريا": إن المماليك أشجع فرسان الشرق حسب تسميته لهم، كانوا يتجمدون رعبا عند سماع اسمه ناهيك عن وجوده. شىء لم نسمع عنه إلا على لسانه مثل باقى الأكاذيب التى تحكى عن حب المصريين له وتشبيههم له بالأنبياء، فى كتاب مذكراته الآخر الشهير "الميموريال" Le Memorial.وهكذا تبرئ هذه اللوحة الحملة على مصر من كل جرائمها، بما فيها تلويث الجوامع ؛ لأن بونابرت

هو الملاك القديس "سان ـ ميشال"، ميخائيل رئيس الملائكة، قاهر قوى الظلام والشيطان، والثائرون عليه لا يجدون النور إلا بالنظر إليه، فماهم إلا قوى الشيطان والظلمات التى يجب دحضها. فما أجمل حملة عسكرية قامت بمثل هذا العمل النبيل من أجل خير البشرية المضلَّلة وراء الشيطان.

ثم تأتى اللوحة الشهيرة "للمصابين بالطاعون فى يافا" (لوحة هـ)، وكان لها صدى عظيم عندما أمر بونابرت الفنان "جرو" Gros برسمها. كانت اللوحة قبل كل شيء رد بونابرت على الإنجليز الذين أشاعوا إنه أمر بتسميم جنوده المصابين بالطاعون، وهو فى طريق العودة إلى مصر بعد فشله أمام عكا. سرى النبأ كالنار فى الهشيم، ووصمت الجريمة الشنعاء سمعة بونابرت الناصعة، حتى أنه قضى باقى حياته ينفى الأمر برمته، للدفاع عن نفسه. أما المفتونون به فقد دخلوا بسبب هذه الحادثة فى معارك كتابية لاحصر لها. واللوحة فنيا جميلة جدا، ولكن إيحاءاتها مرة أخرى لن يفهمها إلا المسيحى، القارئ للإنجيل. فنحن نجد فى إنجيل مرقص فى الإصحاح الأول (40 ـ42) مايلى: "فأتى إليه (أى إلى السيد المسيح) أبرص يطلب إليه جاثيا وقائلا له: إن أردت تقدر أن تطهرنى، فتحنن يسوع ومد يده ولمسه وقال له: أريد فاطهر، فللوقت وهو يتكلم ذهب عنه البرص و طهر". والقارئ المسلم يعرف طبعا أن السيد المسيح، فى الديانة المسيحية هو الرب، كما هو ابن الرب الذى أرسله لينقذ البشرية. ومع ذلك، فنابليون بونابرت كان يشبهه به، وأحيانا كان يقال إنه يتفوق عليه: إنها عبادة الفرد كما لا نتخيلها فى بلد التنوير، وفى عصر العلم والحكمة والعقل، عند ورثة فلاسفة التنوير. ولم يكن المتملقون له هم وحدهم الذين يستعملون هذه المقارنات الكافرة، بل حتى رجال الكنيسة الكاثوليكية كانوا على رأس من أطلقوا هذه الزندقة. كان نابليون يسيطر على الكنيسة، كما كان يسيطر على كل شيء، بل ويسعد بمثل هذا الكلام الذى يوحى به للقساوسة، كما نقرأ فى العديد من كتب الأستاذ "جان تولار" Jean Tulard المعاصرة. هذا الكلام الخطير نجده فى كتبه النفيسة عن "نابليون أو المنقذ"؛ "وأسطورة نابليون"؛ "وأساطير

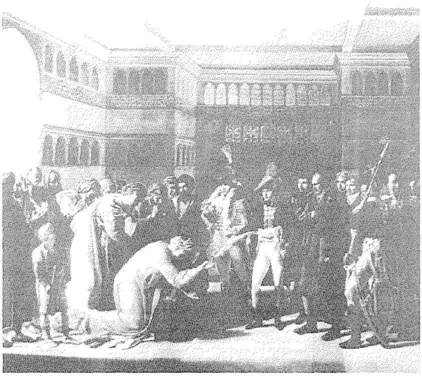
نابليون".. إلخ. كانت هذه الكتابات بمثابة النهاية لأسطورة نابليون الرجل الخارق ؛ فقد فضح فيها الأستاذ تولار بالوثائق والبراهين القاطعة، كيف وظف نابليون كل شيء من أجل خلق أسطورة الرجل الخارق، مستعينا بدعاية سافرة فى كل المجالات. ولكن، ويا للعجب لم يتعرض الأستاذ الكبير جان تولار، المحقق المدقق، ولو مرة واحدة، لأسطورة الحملة على مصر.. فأسطورة هذه الحملة من المقدسات التى لا تمس حتى إن كانت صورة نابليون الآلهة قد هوت فى كل الميادين الأخرى ! أيا كان، فها هو بونابرت يتوسط اللوحة، كعادته فى كل اللوحات، ولكنه هنا يلمس بيده صدر المريض الذى ينزل النور عليه، وكأن بونابرت هو السيد المسيح الذى يلمس الأبرص فيشفيه، والمريض يقف رافعا ذراعيه وكأنه "العازر"، قد عادت إليه الحياة كما أراد له السيد المسيح، والكفن يسقط منه.. وما الكفن هنا إلا قميص أبيض. هكذا انبهر الجمهور الفرنسى دون أن يدرى لماذا، بشجاعة قائده الإلهية، الذى لم يقم فقط بزيارة مرضى الطاعون، بل لمسهم أيضا، دون خوف من أى خطر عليه. فهو كما كانت تؤكد أسطورته منذ بدأت عام 1796، فوق البشر لأن قواه خارقة. إنه التجسيد الحى لمنقذ البشرية، السيد المسيح، الرب ابن الرب فى الديانة المسيحية، ديانة الشعب الفرنسى كله آنذاك.

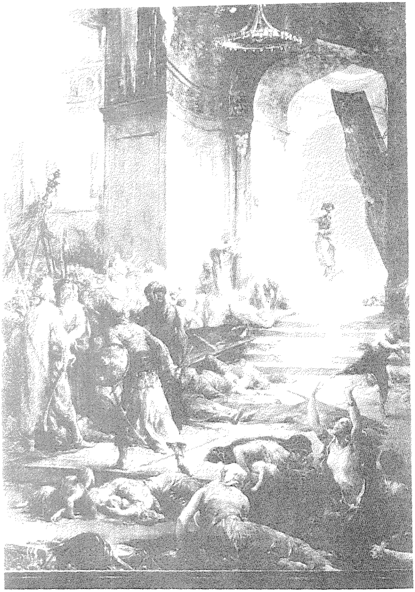
قال نابليون يوما بمناسبة هذه اللوحة: "إن ما من عاقل سيقوم بمثل هذه الفعلة المتهورة، ويقامر بحياته، ويعرض على جيشه للهلاك إذا أصيب هو بالطاعون" ونحن طبعا لم نكن ننتظر مثل هذا التكذيب لنعرف أنه كان مدعيا، عندما أمر الفنان "جرو" برسم لوحة تؤكد أنه كان يرعى جنده، حتى لمسهم وهم مصابون بالطاعون، فتتأكد استحالة أمر تسميمهم بعد ذلك.. ولكن الحقيقة كانت أقوى من الفن الذى ادعى به نابليون أنه برىء، فعاش مطاردا بهذا الاتهام. لقد قدم السم لجنوده، ولم يسعفهم. حتى إن قورن بالسيد المسيح ولم يكن النور المشع فى مصر، حتى إذا تحلى زورا بصفات القديس ميخائيل على لوحة كبيرة، ولم يقدم سيفا إلى حاكم مصرى لم يكن له يوما وجود.. إلخ !!

كذب نابليون كثيرا وادعى أكثر ولكنه كان صادقا فى مذكراته الشهيرة "الميموريال"، عندما قال: "إن الكلمة تكون دائما للمنتصر"، وهو يحكى الأحداث من وجهة نظره كما حدث فى حروب الإغريق ضد الفرس. وتساءل: ترى، ماذا كان سيقول الفرس لو أنهم تكلموا مثلما فعل الإغريق المنتصرون، بعد الحرب الضروس بينهما ؟ وردنا عليه بسيط: فما على مهزومى الأمس إلا كشف أكاذيبه، حتى الجميل منها مثل هذه اللوحات التى لا تصور إلا خيالات نعرف حقيقتها، فينفضح أمرها، ويظهر افتراء أسطورة حملته على مصر. فالأسطورة لم تبن إلا على تزييف الواقع، كما زيفت دعايتهم واقع المصريين فى نهاية القرن الثامن عشر، وكأن لا تاريخ لمصر قبل وصول "المنقذ" الفرنسى إلى شواطئها.



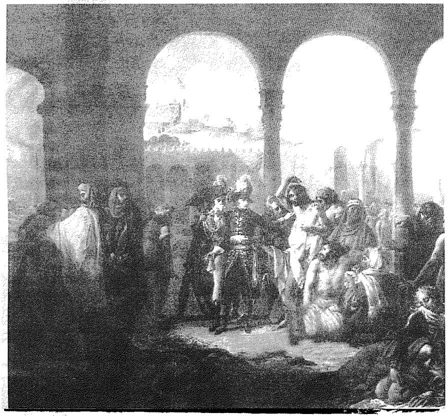
L'écharpe tricolore donnée par Bonaparte à un bey d'Égypte (Bibliothèque nationale).
« Un jour, le commandant en chef fait venir les cheiks ; il sort un instant et revient portant à la main des écharpes tricolores ; il en met une sur l'épaule de Charkawi ; celui-ci la rejette brusquement en rougissant de colère et donne sa démission. L'interprète a beau expliquer aux cheiks réunis que le commandant en chef veut les honorer en leur faisant porter les mêmes insignes que lui, ils lui répondent : « Nous serons déconsidérés devant Dieu et dans le cœur de nos coréligionnaires ». (Extrait de l'article de Ibrahim Amin Ghali, in « L'expédition d'Égypte vue par les auteurs égyptiens ». Le Souvenir napoléonien, *n° 291, janvier 1977.)*







Révolte du Caire (21 octobre 1798) par Girodet-Trioson (musée de Versailles, photo Lauros-Giraudon).
Prenant le commandement de la place après la mort du général Dupuy, le général Bon qui a regroupé les unités de la garnison disséminées en ville, va refouler après d'âpres combats de rues les révoltés sur la mosquée d'al-Azhar qui sera leur ultime lieu de résistance.



Les pestiférés de Jaffa par Gros (musée du Louvre, Paris, photo Lauros-Giraudon).
Bonaparte visite les soldats atteints de la peste à Jaffa le 11 mars 1799.
Épuisée par les fatigues et les privations qu'elle avait supportées, l'armée comptait de nombreux malades. Aussi la peste qui existait à l'état endémique et dont certains bataillons avaient rapporté le germe d'Égypte, se déclara parmi eux pendant leur séjour à Jaffa, provoquant de nombreux décès malgré les efforts de Desgenettes et de son personnel pour éviter la propagation de la maladie. Voulant relever le moral des soldats, le général en chef se rendit accompagné de son état-major à l'hôpital de Jaffa. Parcourant l'établissement de fond en comble, adressant des paroles d'encouragement à chaque soldat, il allait toucher plusieurs malades contaminés et aider à soulever le cadavre d'un soldat « dont les habits étaient souillés par l'ouverture spontanée d'un bubon pestilentiel ». Cette visite prolongée allait produire le meilleur effet, rendant l'espoir aux malades et à l'armée sa confiance.
En ce qui concerne l'accusation portée par les Anglais sur le prétendu ordre donné par Bonaparte d'empoisonner les pestiférés de Jaffa, si Larrey la dément catégoriquement, Desgenettes, auquel la charge des pestiférés incombait seul, indique dans ses Souvenirs :
« ... qu'eut lieu une distribution de laudanum à vingt-cinq ou cinquante pestiférés dans l'état le plus prononcé », pour éviter qu'ils ne tombent vivants aux mains des Turcs qui n'auraient pas manqué de les massacrer avec cruauté.

صورة نابليون بونابرت من الدعاية إلى الأسطورة
(بين فرنسا ومصر)

أ.د.على كورخان

"أيها الجنرال كم أنت كبير مثل هذا العالم "

" كليبر"

حرص نابليون بونابرت منذ بدايته العسكرية على إبراز صورته وتسويقها فى صورة المنتصر، لذا لم يكن يرسل لحكومته فى فرنسا غير أنباء وبلاغات انتصاراته العسكرية . وهو وإن اتسم مسلكه هذا بالصدق إبان حملته الأولى على إيطاليا إلا أنه لم يتم بنفس ودرجة الصدق هذه فى حملته على مصر، إذ أخفى تماما كل إخفاقاته التى أصبحت معروفه بعد ذلك من قبيل فقد أسطوله فى معركة "أبوقير"، والتى انتصر فيها الأسطول الإنجليزى بقيادة الأميرال "نيلسون". وفى هذا السياق يمكننا أن نشير إلى إخفاقات عديدة عمل على إخفائها عن فرنسا فى حينها، وليس بأولها فشل حصاره لعكا، وما أكثر ما أخفاه - إلى حين . وقد يرى البعض معه أنه يمثل فى ذاته نصف الحقيقة؛إذ تختلط أنباء انتصاراته ببعض وقائع فشله، تلك الأخيرة التى كان يعمل على إخفائها ويحجم عن إرسال أخبارها إلى فرنسا، وليس أدل على ذلك من أخبار حملته على مصر، والتى كانت فى بدايتها انتصار ما أسرع ما أذيعت أنباؤه فى فرنسا، إلا أن الدائرة عندما دارت عليه بعد ذلك، وآلت إلى خسائر بالغة، فقد آثر حجبها لتكون بلاغات الانتصار وبيارق فتوحاته هى الحقائق التى تسمعها آذان الجماهير فى فرنسا، لتغيم فى سماء الوقائع أى ملامح للهزيمة، حتى إن بونابرت عندما عاد متسللا إلى فرنسا، رحب به الفرنسيون كبطل منتصر مزهو بفتوحاته،

الأمر الذى نراه نموذجا مبكرا لتدشين البروباجندا الحديثة، والتى تخفت معها ـ إن لم تحقق – أنباء الهزائم، لتعلوا أبواق الانتصارات بصخب إيقاعاتها التى تصم الآذان .

أسطورة نابليون وفرنسا

لم يكن هذا النهج هو السبيل الوحيد لدى نابليون بونابرت فى صنع أساطير الانتصار لدى أبناء بلدته فى فرنسا، إذ يعتمد على لعبة الإخفاء -لإظهار قيم البروباجندا؛ فقد نزع إلى نسق آخر لبناء أسطورة تفصل شخصيته كمواطن فرنسى، وهو النسق الذى اشتقه لنفسه منذ مطلع حياته العسكرية وتأسس على مقومات متعددة، وقد كان من أهمها ما رسخه فى أذهان الجميع من أن هناك شعارا غاليا لبلوغ المكانة العالية والتميز الذى لا يقف عند حد، بفضل الكفاءة الذاتية وحدها، والقدرة الفردية التى تستند لغير مقوماتها ومواهبها بعيدا عن دور الطبقة بامتيازاتها لبلوغ هذه المكانة، وهو الواقع الذى كان شائعا فى حينها. وهكذا كان نابليون بونابرت مثالا بارزا لإلغاء الامتيازات التى أرادت الثورة الفرنسية إلغاءها

لقد حقق نابليون بونابرت بشخصيته ما يمكن أن نعتبره مثالا حيا. لعبارة "نيتشة" : " إذا أردت أن تحصل من الحياة على خير مافيها فعش فى خطر"، فقد كان تجسيدا جليا لإرادة القوة وهو القائل: "إن كلمة المستحيل لا وجود لها فى مفردات اللغة الفرنسية" وبهذه الإرادة، بجانب قدراته التى لايمكن إغفالها، انطلقت الأسطورة التى نسجت بعض خيوطها على نول البروباجندا – كما سنرى ـ لينطلق نابليون عاصفة لاتعرف المستحيل، ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما يحدثنا تاريخه عنه، من إنه بعد أن تحالفت عليه أوروبا عسكريا لاثنتى عشرة مرة، وبعد هزائمه المتتالية فى أسبانيا والتى ترتب عليها عزله للمرة الأولى فى جزيرة ألبا الفرنسية القريبة من إيطاليا، وكنتيجة للمقومات الكارزماتية فى شخصيته فإن هذا العزل لم يتم له باعتباره سجينا، وإنما بعزله إلى هذه الجزيرة باعتباره إمبراطورا لها، ويالها من مفارقة !! ـ لكن "نابليون" أكثر من ذلك كله وهو ماقد يلقى بعض ضوء على

مقومات – ناغمت البروباجندا – صنعت وروجت للأسطورة، فها هو ذا إذ يضيق ذرعا بهذا المنفى، لا يخيب الرجاء لمروجى أسطورته فى ضوء القطرة الكارزماتية لصورته؛ فيهرب من الجزيرة مع مجموعة صغيرة من حرسه الخاص، ليصل بهم إلى ميناء فيرجيس بفرنسا ليبدأ من هناك زحفه إلى العاصمة باريس بعد أن ضم لصفوفه كل تلك الجيوش التى أرسلها الملك لويس الثامن عشر لمواجهته. لقد كان يمكن "النابليون" فى حينها أن يقف فى مواجهة الجموع فاتحا صدره، مجلجلا بصوته "هذا هو قائدكم. أطلقوا على صدره نيرانكم"، وعندها كان الجنود القادمون، يخرون باكين، ويحملونه على الأعناق ليتقدم بهم لمواجهة فيلق آخر ليعاود الموقف، وتنضم إليه الجيوش تلو الجيوش، وتبعته بلاغاته إلى الفيالق الأخرى التى سيتجه إليها لتخبرهم بأن النسر يحلق طائرا من مدينة إلى أخرى ليستقر بعشه فى باريس، الأمر الذى كان يبعث الحمية فى قلوب الجنود بقدر ما كان بعثا لأسطورة "نابليون" باعتباره نسرا محلقا كقياصرة روما القديمة فى مجدها التليد .

ها هو نابليون النسر، الأسطورة يجلس على عرش فرنسا مرة أخرى، لكن النسر المحلق يخيف أوروبا كلها، وبخاصة بعدما تواترت أنباء انتصاراته على لويس الثامن عشر دون طلقة نار واحدة بفضل انطلاقه غير العابئ بالخطر، ومن ثم بفضل تلك الجرأة التى لم تتوقعها أوروبا . وهو ما دعا أوروبا بأكملها للتحالف ضده مرة أخرى لتواجهه فى معركة واترلو لتكون هزيمة أخيرة له، إذ تعلموا من ماضى النسر ألا يبوئونه أى مكانة، فاعتبروه سجينا بعد عزله فى جزيرة سانت هيلانه، وأحاطوا به حشدا من الجنود، بلغ قرابة الالفين خشية تحليق جديد، ليكون هذا المنفى مثواه الأخير، إلا أن قادة جيشه قبل جنوده، وجنوده مع خصومه لم يكفوا عن نسج الحكايات والقصص حول عبقريته وشجاعته. وهكذا انتصرت الأسطورة وإن حبس النسر فى قفص جزيرة سانت هيلانه، إلا أن رياح الأسطورة كانت قد هبت؛ لتنطلق مدوية لتتملى بها عيون وأسماع الجماهير فى مختلف العصور، وليتردد على مسامع الزمن أسطورة النسر المحلق فى أشكال شتى من الآدب والأغانى الشعبية واللوحات الفنية كما سنرى بعد حين، وذلك كله رغم ما حاوله "الملكيون" إذ

أرادوا أن ينسجوا أسطورة مناهضة سوداء فى مواجهة هذا التيار الجارف، وذلك فى صور متعددة من قبيل ماكتبه "شـاتوبريان" فى كتابه المعنون "عن بونابرت" والذى أراد أن يبرز فيه الأصل الكورسيكى لنابليون، وهو ما يعنى أن "نابليون بونابرت" ليس نابعا من أرومة فرنسية، بل هو من أصل أجنبى، وبالمثل كان هناك آخرون قد مثلوه "بجنكيز خان" أو أتيلا"[1] رافضين أن يمثلوه "بيوليوس قيصر" أو "الإسكندر المقدونى"، مبرزين دوما عدد ضحاياه ومآسى حروبه، وماسببته تلك الحروب من نزيف لتعداد مواطنى فرنسا الذين ماتوا إبان معاركه وحملاته .

ولم يكتف هؤلاء بهذا كله، ذلك أنهم أخذوا يطنطنون باستبداد "نابليون" وإطلاق عديد من الدعاوى التى تخفى هى الأخرى نصف الحقيقة؛ إذ يزعمون أن كل ما آلت إليه فرنسا إنما هو من مغبة أفعال نابليون، ناسين عديدا من وقائع أخرى تقف فى صفه، مُغمضين عيونهم عنها من قبيل ما يعرفونه جيدا من أن أوروبا هى التى أعلنت الحرب على "نابليون"؛ فى محاولة لهدم أسطورته التى بدأت تنذرهم بالخطر ، ومن قبل ومن بعد، فقد تناسى هؤلاء أن فرنسا فى حينها كانت محتاجه إلى رجل قوى، هو على حد قول المؤرخ " سييس " "كانت فرنسا فى حاجة إلى سيف" كما أن التاريخ لايمكن أن ينسى لنابليون إنه واضع كافة النظم الإدارية والقانونية القائمة بفرنسا حتى اليوم .

ومع التسليم بأن أولئك المناهضين لأسطورة نابليون "النسر المحلق" بما حاولوه فى كتاباتهم السوداء قد استخدموا هم الآخرون تلك الدعاوى التى تقوم على لعبة "الإخفاء – الإظهار" التى ابتدعها نابليون" كبروباجندا دعائية لبث أسطورته، على أنه فى نهاية المطاف وقبل أن تمضى أعوام قليلة ذرت رياح أسطورة النسر المحلق دعاواهم، ذلك أن عديدا من ضباطه عندما عزل "نابليون" فى سانت هيلانه كتبوا مذكراتهم التى تفيض إعجابا وتقديرا لعبقريته، كما أن "نابليون" نفسه إبان سجنه فى جزيرة سانت هيلانه فى جنوب المحيط الأطلنطى، وبالرغم من الظروف المناخية الصعبة التى يعرفها كل دارس لهذه الجزيرة، وذلك كله بجانب المضايقات المستمرة

التى كان يكيلها "لنابليون" حاكم الجزيرة البريطانى " هاتسون لو "، فإن هذه الظروف كلها لم تمنع ذلك النسر الذى يتحدى الآفاق الصعبة من إملاء مذكراته التى أسماها بنفسه " النصب التذكارى لسانت هيلانه[2] " والتى كان يحس معها بقرب نهايته، فأراد أن تكون هذه المذكرات وصية أخيرة له، لذا لم يكتبها لابنه أو حتى لأقاربه، ولكنه كتبها إلى الشعب الفرنسى كله، لتنشر بعد عامين فحسب من وفاته[3] فتصبح بذاتها صفحة فخار أخرى مدوية لأسطورته كما حققت أعلى مبيع لكتاب فى حينها، ومن بين أسطرها ينشر عطر روح رومانسية حلق بها النسر إلى آفاق أدبية لا تقل نجاحاتها عن نجاح أسطورة "نابليون" العسكرية؛ ليصبح النسر صورة مثالية للبطل التاريخى الذى انطلق الأدباء والفنانون فى مجالات عدة يرسخون أحرف هذه الأسطورة، كل فى ميدانه، وما أكثر تلك الميادين التى تحققت فيها تلك اللوحة الأسطورية التى بقيت تتيه بنسرها فى فضاءات عدة أحسب أن التداعيات تلزمنا بأن نشير إلى طرف منها .

فضاءات عديدة للأسطورة :

أ - نجد أن الأغنية تلعب دورا رئيسيا فى كل العصور فى نشر الأسطورة وقد انطلقت الأغانى التى تمجد نابليون لتحقق له مجدا تنشر أجنحة ضاربة للنسر المحلق مما يحيى ذكراه حتى من قبل وفاته وإبان منفاه تعبيرا عن ارتباط وجدانى، وها هو الشاعر "بيير جان دى برانجيه"[4] عام 1820 قبيل عام واحد من وفاة "نابليون" يكتب قصيدته "ذكريات الشعب" والتى يقول فيها "ستتحدث عن مجده (أى نابليون) لدى الفقراء فى بيوتهم، هناك حيث لا حديث لأسر الفقراء عن أحد غيره (...)، ومع أن البعض يزعم أنه قد أساء إلينا لكن الشعب لا يزل يمجده، نعم يمجده فلتتحدثى عنه ياجدتى .. أيا جدتى تحدثى عنه" .

فى مجال الآداب (الشعر والقصة والمسرح)

لقد أشاد التيار الرومانسى بعظمة نابليون وتوحد بأسطورته حتى فيكتور هيجو

عندما أمر لويس الثامن عشر – بعد عودته ملكا – أن يزيل تمثالا لنابليون كان قد نصب فى ميدان فاندوم لم يستطع هيجو إلا أن يسكب مع دمعه قصيدته الشهيرة "عمود ميدان فاندوم" وها هو الشاعر فينى هو الآخر يكتب قائلا "إننى من ذلك الجيل الذى نشأ فى رحاب انتصارات "نابليون"... ويالِلأسى، فها هو السيف الذى امتشق خارج عمده، يعود ثانيه لمثوى جرابه مع عودة الملكية " .

وما أكثر ماتغنى الشعراء الرومانسيون "بنابليون"، وهو الأمر الذى لم يفت كتّاب القصة، فها هو "استندال" – على سبيل المثال – وقد كان موظفا فى جيوش نابليون، لكن شاء قدره أن يختاروه معلما للغة الفرنسية لأوجنيى فى طفولتها المتقدمة، وها هو الأديب اللامع يلقى على مسامعها شهادته التى ضمنها كتابه عن معركة واترلو . ويكتب "إدموند روستان Edmond Rostand " فى العام 1912 مسرحيته الشهيرة "النسر الصغير" وهو الدور الذى حقق شهرة الفنانة العظيمة سارة برنار عندما أدت برائع أدائها تلك الأشعار التى تتغنى بانتصارات "نابليون" فى هذه المسرحية[5].

ولما كان الأمر لا يقف عند حد فيما يتصل بالأعمال الأدبية على اختلاف فنونها والتى اهتمت بهذه الصورة الأسطورية لنابليون، فيكفينا – فى ظنى – أن أشير إلى ماجمعه بول نواروه (Paul) (Noırot بين طيات كتابه عن"نابليون بونابرت: كيف انتشى به الأدب فى العالم" إذ عرض لحشد من الشعراء والأدباء عبر العصور من القرن التاسع عشر، وبذلك ضمنه عشرات الأسماء اللامعة فى تاريخ الأدب بفنونه المختلفة، وكان من بينهم أراجون وبلزاك، وبر وست، وجوته، وكلفينو، ونيتشه، ومالا بارت، بل وشارل ديجول، وما أكثرمن كتب نورروه عنهم، وما أكثر من أغفلهم أيضا وتعج بهم المراجع مما لايمكن إغفاله من قبيل "ماكس جالو" الذى كتب أربعة أجزاء عن أربع حقب فى حياة نابليون وهى : أغنية الذهاب 1769 – 1799، شمس اوسترليتز 1799 – 1805، إمبراطور الملوك 1806 – 1812. وأخيرا من لم يمت فى سانت هيلانه 1812 – 1821. وها هو باتريك رامبو يكتب ثلاثيته عن

نهاية الإمبراطورية تحت عنوان: المعركة، الثلج المتساقط والغائب، ولاتكف الكتابات حتى زماننا هذا، فهاهو "دومينيك دوفيلبان" وزير خارجية فرنسا المعاصر، والذى يعيش حالة ولع بشخصية "نابليون" يكتب مؤلفة الشهير "عودة نابليون، أو روح القضية"، ويالها من روح لأسطورة أبدا لا تموت .

ج – فى مجال الموسيقى :

ماكان للموسيقى أن يتخلف إيقاعها أو ركبها عن مواكبة هذا الولع بأسطورة "نابليون"، مما أسهم بدور لها فى نشر هذه الأسطورة. وفى هذا السياق ـ ورغم ماقد يرى فيه البعض تناقضا مع ما نقول – فإن الأذن تعشق قبل العين أحيانا كما يقولون، وهل يمكن أن ننسى السيموفونية الرابعة لبيتهوفن، والتى أراد بها تخليد اسم "نابليون"، لكنه ما إن تناهى إلى مسامعه بأن "نابليون" قد توج نفسه إمبراطورا، حتى ضاق ذرعا بالاسم الذى أراد تخليده بمؤلفه السيمفونى، وإن لم يغير حرفا من مبناه. وهو أمر رأى فيه البعض مزيدا من اهتمام الجمهور بالعمل السيمفونى الذى ما إن يعزف حتى يتوحد الجمهور بقمم النغم التى تناغم سموق الأسطورة .

وفى هذا السياق نستطيع أن نشير إلى واحدة من روائع تشايكوفسكى ونعنى بها افتتاحية 1812 والتى أرادها تخليدا لذكرى انتصار الروس على "نابليون" – واندحار المارسييز – فى الحملة على روسيا، لكنها من زاوية أخرى قد تمثل تداعيات لدى من يسمعها عن هذا البطل الأسطورى الذى لم تتوقف معاركه إلا بعد تحالف أوروبا كلها ضده فى واترلو. وهكذا خلدت الموسيقى دورا "للنابليون" لتتضامن مع الغناء والأدب واللوحة، تلك الأخيرة التى انطلقت فى بعضها من تهويات البروباجنده، لكنها دوما خلدت الأسطورة فى لوحات أبدعها كبار الفنانين.

د – اللوحات :

ها هو مجال آخر يصعب تعداد أعماله، ذلك أن كل معركة لنابليون خلدتها العديد من اللوحات، وما أكثر معاركه التى أبدعتها أنامل الفنانين ويوجد جلها فى متحفى اللوفر وفرساى . وتجدر الإشارة بنا هنا إلى أن اللوحات الفنية كانت نسقا مألوفا لتخليد انتصارات الملوك فى معاركهم، وهو أمر مضى "نابليون" على منواله . كى يحقق لنفسه خلودا أسطوريا بالقدر الذى كانت تضفيه عليه بعض اللوحات من خوارق فى بعضها، وذلك من قبيل تلك اللوحة التى رسمها "انطوان جون جرو"(6) عام 1804 تحت عنوان: " بونابرت يزور مرضى الطاعون فى يافا "

والفنان يصور نابليون فى هذه اللوحة وهو بين مرضى الطاعون الذين يخشونهم من هم حوله من الأتباع . لكن "نابليون" لا يعبأ بالطاعون فهاهو يلمس مريضا، وهو مالا يشير إلى شجاعة "نابليون" فحسب، بل يعنى فى وجه من معانيه التى قصدها الفنان – الإشارة لدور أسطورى كان ينسب للملوك عندما يشفى المرضى بلمسهم .

ولقد كان من الطبيعى أن تحظى معارك نابليون فى مصر بالعديد من اللوحات التى قصد فنانوها أن تتجاوز الواقع، لترسم أسطورة تنطلق من بين طيات البروباجندا التى تظهر الانتصارات وتسجل ما تواتر من أخبارها، بقدر ما تخفى العثرات وتطمس معالمها، وهو ما سبق وأشرنا إلى تجسده فيما اتصل بحملة "بونابرت" على مصر حيث لعبة الإظهار – الإخفاء . لكن مصر بذاتها كان لها دورها فى نسيج أسطورة نابليون، والتى تجلت آثار لها فى فضاءات عدة هى الأخرى، آن أوان الحديث عنها كى نتناول معالم هذه الأسطورة وبزوغ مصر بين جنباتها .

أسطورة "نابليون ومصر" :

لم تمض سنوات قليلة بعد وفاة "نابليون" حتى أصبحت أسطورته تيارا متدفقا فى شلالات من التمجيد أصبح من العسير أن يحول دون تدفقها أى سد، فانطلقت

فى نهر تعددت روافده، حتى إن بعض عتاة خصومه حاولوا استثمار جنباتها لخدمة مآربهم، وفى هذا السياق يبرز دور حملة "بونابرت" على مصر، فهى وإن انتهت بهزيمته وإجهاض حلمه، إلا أن دور البعثة العلمية بها وإصدار كتاب " وصف مصر " قد ساعد على سطوع دور شق رافدا آخر للأسطورة، وفتح صفحة ناصعة عن رسالة فرنسا الحضارية وهو ما استغله "لويس فيليب" لتبرير أطماع فرنسا الاستعمارية فى شمال إفريقيا والشرق الأقصى، وهو ما دفعه أيضا لإعادة نشر كتاب وصف مصر ليتيه بأثر من آثار الحملة الفرنسية على مصر، مبرزا من جديد بهذا الرافد عن أسطورة نابليون كعلم من أعلام التنوير. وذلك كله رغم ما يمكن أن يكون "لويس فيليب" قد حمله فى قلبه من كراهية "لنابليون"، لكنها الضرورة المطلقة فى المضى بالأسطورة التى تستفيد من البروباجنده لتنطلق بها إلى الآفاق التى تستثمرها فيها، وهكذا لم يكتف "لويس فيليب" بإنشاء قوس النصر فى أهم الميادين بقلب باريس، بل لقد أنشا فى قصر فرساى رواقا للمعارك الفرنسية الشهيرة، وكان من الطبيعى أن تتضمن معارك "نابليون"، ومن بعضها بطبيعة الحال، معاركه فى مصر –والتى سنعود إليها فى موضعها – خاصة وقد مثلت بذاتها حجر الزاوية فى صنع أسطورة "نابليون". تلك الأسطورة التى أصبحت نموذجا يتوحد به الجميع فى عديد من مظاهرها. وما أكثر الوقائع التى يمكن ذكرها وتغص بها المراجع. ومن بينها ما فعله "نابليون الثالث" (ابن شقيق نابليون، والذى أسس الإمبراطورية الثانية) عندما أرسل مع حملته على لبنان حشودا من العلماء، ليكسب الحملة الاستعمارية طابعا تنويريا، وإن لم يكن ذلك غير مسايرة لما فعله عمه "نابليون بونابرت" فى حملته على مصر، والتى أججت ذلك الولع بمصر، والذى تلزمنا الأمانة العلمية إلى أن نشير بأن عديدا من مقومات هذا الولع كان له وجوده بين الفرنسيين من قبل "نابليون"، وبخاصة لدى النخبة من الأمراء والبرجوازيين، وهو مانجد أثرا له فى بعض ديكورات قصر "ماليزون" وأثاثه، حيث مقابض الكراسى التى تمثل الآلهة المصرية الفرعونية، كما أن العديد من أياديها قد صمم على

هيئة أبى الهول، بجانب شيوع عديد من المظاهر الفرعونية من قبيل غطاء الرأس الفرعونى[7] وغيرها من مظاهر تعددت مناحيها فى إطار هذا الولع الذى تجسد فى عهد لويس السادس عشر، وإن ازداد الشغف به كأثر من آثار الحملة النابليونية على مصر، وما صاحبها من بروباجنده أسهمت فى ترصيع أسطورة "نابليون" وتجلت هى الأخرى فى فضاءات عدة فى مجال الأغنية والأدب والفن بعامة .

وها نحن نتناول بعضا من ملامح هذه الفضاءات :

فى مجال الأغنية :

لقد ألف المغنيون الشعبيون كثيرا من الأغانى التى خلدت أسطورة "نابليون" وتداعت معها الذكريات حول مصر التى حركت الوجدان الفرنسى وزكت تلك الروح التى عشقت "نابليون" إذ انطلق بجيوش فرنسا لتطاول الأهرامات، ونحسب أن الأغنية التى ألفها الشاعر "اميل دوبرو"[8] عام 1819 – و"نابليون" فى حينها يعانى سكرات المنفى – لقد كان الوجدان الشعبى الذى ارتبط بولعه بمصر ينشد مع "إميل دوبر" ومن تلحين الموسيقار "جوزيف دينى دوس" أغنيته التى عنونها تحت اسم "جندى عجوز" يقول فيها، "هلا تذكرت الأهرامات .. عندما حفر كل منا اسمه هناك" وياله من دور يضع يدنا على ملمح متعدد الأوجه ولايمكن إغفاله، فمن ناحية يمثل عام 1819 من زاوية رؤية للواقع المعيش اندحارا "لنابليون"، لكن أسطورة النسر المحلق نابليون من ناحية أخرى، وقد غزاها الوجدان الذى عاش ما صنعه نابليون سلفا من بروباجنده حول مصر وانتصاراته فيها، ها هو يعاوده الحنين إلى ذكرياته لينطلق مغنيا، ومعزيا نفسه، ومترنما بأمس لما يزل يحياه، بقدر ما فيه من تمجيد خفى لنابليون قائد هذه الحملة وأسطورة فرنسا التى لا يخفت وهجها ما حل بصاحبها .

فى مجال الأدب والفن :

ما كان لمصر ودورها فى صنع أسطورة نابليون أن يغيب عن مجالى الأدب والفن، وها هو "أوجست بلوتييه دى شامبير"[9] يكتب كتابا عن "نابليون" ومعاصريه،

وهو الكتاب الذى رصعته رسوم الفنان "آريه شيفر" بصور الحملة الفرنسية على مصر، وفى واحده منها يبين الجنرال "كليبر" وهو يقول "لنابليون" بعد انتصاره فى معركة الأهرام :

" (أيها الجنرال) كم أنت كبير، مثل هذا العالم ".

ولقد استعار نفس هذه العبارة كاتب آخر هو "مادو" فى كتابه "نابليون" لكنه لم يقف عند هذه العبارة فحسب، بل لقد استعار مجموعة من تلك الصور التى تمثل انتصارات نابليون فى معاركه المختلفة، ومن بينها لوحات انتصاراته فى مصر (!!) .

وفى هذا المقام – ومع تعدد المصادر التى تشير إلى دور لمصر فى تجسيد الأسطورة، لا يمكننا أن نغفل كتاب "نابليون فى مصر[10]" والذى ألفه كل من "بارتليمى" و"ميرى" بعد سنوات ست من وفاة نابليون (1827) وقد أهدياه "لابن نابليون"، وكانا قد صاغاه شعرا "ليزينه رافيت"[11] و"بلانجيه"[12] بصور وزخارف متعددة منها تلك الصورة التى وضعت على رأس فصول الكتاب واستعارتها مع غيرها مما رصع به الكتاب عديد من الكتب الأخرى، وكانت أبرزها تلك التى صورت احتلال مصر على يد "نابليون" وكأنه امتداد لاستيلاء الإمبراطورية الرومانية على مصر؛ حيث تبدأ الصورة باسم دقلانيوس[13] إلى اليسار وفى اليمين "بونابرت" وبعدها "مصر محتلة" وفى اليمين اسم "بونابرت" وتحته : الجمهورية الفرنسية.

وهو مايشى بملمح للطابع الذى آلت إليه أسطورة نابليون . وتجدر الإشارة بنا هنا إلى أن عديدا من تلك الصور التى زينت كتاب "بارتليمى" و"ميرى" وأبدعها "رافيت وبلانجيه" قد اتصلت بحملة "نابليون" وقواته على مصر، تلك الحملة التى استثمرها الفنانون فى مجالات أخرى، ومن بينها صورة نابليون فى البحر.

وبالمثل تلك الصورة التى خلدت جنديا فى حملة "نابليون" يضع علم فرنسا فوق ماتصوره الفنان هرم خوفو .

فنون الصناعات :

عندما كلف "نابليون بونابرت" مصانع سيفر بتنفيذ أطقم من الأطباق والفناجين يسجل عليها تلك الرسوم التى جاءت فى كتاب وصف مصر، لم تتوان "سيفر" عن تنفيذ ماطلبه بونابرت وأبدعه الفنان "فيفان دينو" بين عامى 1805-1807 وإن أسموها "الكباريه المصرى[14]"

وياها من تسمية! وإن دلل نابليون بذلك على اتساع الرقعة والمجالات التى رفرفت عليها بيارق دعاياته؛ ليكون هذا المجال رافدا آخر من الروافد التى ستعاود جريانها إلى نهر أسطورته، وماأكثر ما سنراه بعد ذلك تخليدا له وللأساطير التى نسجها حول نفسه، فها هو رسم "لنابليون" فى البحر والمأخوذ عن كتاب "بارتليمى" "وميرى" يستثمر هذه المرة فى ترصيع طاقم أطباق.

وهاهى رسوم أخرى له تنفذ على علب مختلفة من العاج والعظام وفى غطاء إحداهما ما يمثل ورقة يانصيب، وقد ظللتها صور الأهرامات الثلاثة (مقلوبة ومتداولة)، كما وضعت صوراً لنابليون لترصع أطقم الأطباق، وفى بعضها نرى "نابليون" يمتطى حصانه والأهرامات من خلفه.

وفى أخرى نراه يركب جملا.

وإن لم يخل بعضها الآخر من صورة لجنوده الفرنسيين يركبون جمالا هم الآخرون .

وأكثر من ذلك كله ما استحدث من ألعاب مختلفة رسم عليها مناظر عديدة عن الحملة الفرنسية على مصر، ونحسبها بكلها تخليدا لأسطورة غاب عنها ما لا يحبه نابليون مما ألم به بمصر، بقدر ما أظهرت مشاهد لا حصر لها تصف وتمجد، بل وتغالى بعضها فى التصوير الأمر الذى يشى بما آلت إليه أسطورة "نابليون" . وأحسب أن من أوضح الدلائل على هذا الاتجاه ما يبرزه الفن التشكيلى فى مجال رسم اللوحات .

الرسم (اللوحات) :

لقد قام العديد من الفنانين بتخليد أسطورة "نابليون" فى لوحاتهم كما سبق وأشرنا، بقدر ماكان مجال الرسم كواحد من الفنون التشكيلية من أبرز معالم هذا الخلود بما تضمنه من مبالغات فى بعضها هى بذاتها دليل على عظم الأسطورة وكان طبيعيا أن يكون "لنابليون" فى مصر حشد منها، وإن كنا سنكتفى ببعضها، وهنا تبرز لوحة الفنان "ليون كوانييه"[15] التى أسماها "الحملة الفرنسية تحت قيادة بونابرت"، وفيها يظهر "نابليون" باعتباره رئيســا لبعثة علمية وليس مجرد قائد عسكرى غاز لمصر، وهاهو فى الصورة يخرج الموميـاء، ليتأكد هذا المغزى الذى قصده "كوانييه".

فإذا ما انتقلنا لرسم آخر للفنان هنرى ليفى والذى جاء تحت عنوان: "بونابرت فى الأزهر" ها نحن نرى نابليون يمتطى صهوة حصانه أعلى مدخل الأزهر والنور يقمر المنطقة التى يقف فيها لتختلف درجة الإضاءة فى خفوتها، حيث القتلى والجماهير الخائفة بصحن الأزهر، ونحسب أن إضاءة اللوحة على هذا النحو فى المقابلة بين وضاءة وقوة النور فى المنطقة التى يقف فيها "بونابرت" بحصانه فى مقابلة مع خفوت الضوء فى المناطق الأخرى، مما يشير فى وجه منه إلى انتصار النور على الظلام وهو ما قد يعكس "نورعصر التنوير " فى مواجهة الجهل !! .

وما أكثر اللوحات التى تخلد "نابليون" فى معاركه فى مصر سواء فى ذلك لوحة "أبوقير" والتى رسمها الفنان الكبير "أنطوان جون جرو" وقد بلغ طولها 968سـم، بقدر ماكان عرضها 578 سم، وفيها كما هو واضح من الصورة نسق "الميرا" على صهوة حصانه وهو يعمل سيفه فى رقاب المصريين والمماليك، وهم بين مقهور وغاضب ومستسلم وقتيل.

ومن أعمال "جرو" الأخرى لوحة شبيهة باللوحة السابقة وإن أظهرت نابليون وهو يتقدم جنوده؛ إذ يحشدهم لمعركة الأهرامات، مخاطبا إياهم بعبارته: "أيها الجنود إن أربعين قرنا من الزمان تنظر إليكم من فوق الأهرامات".

ولم يكن "أنطوان جون جرو"[16] هو الوحيد الذى خلد نابليون فى مصر، فهاهو "لويس فرنسوا لوجين" يرسم هو الآخر لوحة لمعركة الأهرامات وتبدو الأهرامات فى خلفيتها البعيدة فى إطارها الواقعى، ونحسب أن ظهور الأهرامات فى اللوحة إنما هى واحدة من نسيج البروباجندة التى أرادها "نابليون" لمعرفته بالولع الفرنسى بمصر، ولما كانت الأهرامات إحدى رموزها، فما أيسر ما تجتذبه اللوحة للعيون الشغوفة بها، مما يسهم فى دعم أسطورة الفاتح، وبخاصة أن هذه اللوحة مأخوذة من كتاب وصف مصر لتزرع فى عقل المشاهد مع عينه ذلك المعنى العلمى التنويرى للحملة ولدور نابليون[17].

وبقدر ماكانت الأهرامات فى لوحة "لويس فرنسوا لوجين" صغيرة فى الخلفية، كتعبير واقعى كما سبق، وأشرنا إلا أن هناك لوحة أخرى "لفرنسوا لويس جوزيف فانتو"[18] صور فيها هو الآخر لوحة لمعركة الأهرامات وفيها إحدى الأهرامات الثلاثة بحجم كبير فى خلفية المعركة؛ مما قد يؤكد ما نشير إليه من استثمار ولع الفرنسين بمصر فى الترويج لأسطورة "نابليون".

وما أكثر اللوحات التى رسمها كبار الفنانين "لنابليون" فى معاركه فى مصر، مابين "أبى قير" والأهرامات[19] وهليوبولس وكلها تصب فى نهر الأسطورة التى أرادها "نابليون" انتصارا لغزوه لمصر، وتؤكد معنى الانتصار فى حملة كانت نهايتها الهروب تحت جنح الليل والعودة السريعة إلى فرنسا ومعها كان فقد ودمار الأسطول الفرنسى فى معركة "أبى قير" على يد "نيلسون" كما سبق وأشرنا، لكنها البروباجنده التى صنعت الأسطورة والتى لم يقف أثرها عند حياته بل امتد بطبيعة الحال إلى حقب تالية بعدما خلدتها أنامل رهيفة لفنانين آمنوا بالأسطورة وعملوا على تخليدها، وهو ما لا يمكن أن ننسى معه لوحة الفنان جيروم[20] التى أسماها "أوديب أو الجنرال بونابرت فى مصر"، وفيها يقف نابليون أمام أبى الهول، وكأن الفنان قد تمثل "أوديب" فى الأسطورة الشهيرة التى خلدها "سوفكليس" برائعته "أوديب ملكا " ليضع مكانه "نابليون" الذى حل لغز "أبى الهول" فأصبح من حقه أن يدخل مصر (طيبة) فاتحا.

وياله من تعانق بين أسطورتين خلد الأدب أولاها؛ كى تتعدد مصادر خلود الثانية، ونعنى بها أسطورة "نابليون"، وما أكثر الميادين التى خلدت فيها أسطورته والتى تجاوزت كل حد، حتى إنها امتدت إلى مجال الألعاب الفكاهية، وهو ماتذكرنا به تداعياتنا مع أسطورة "أوديب" و"لوحة جيروم"، ذلك أن هناك رسما فكاهيا، تضمن حلا للغز تبرزه الصور؛ إذ يتضمن الرسم أنثى خنزيرLaie، وضرع جاموس Pis، وفأراً Rat ، وحرف "مى " Mi فى السلم الموسيقى ومن بعدها des كما فى الرسم.

والناظر لهذه الصورة يستطيع عبر الأحرف الأولى فى كل رسم منها أن يحل أحجيتها (لغزها) والذى يكون كلمة الأهرامات .

ونحسبه إطارا جديدًا بالنسبة لزمانه كشكل من أشكال البروباجندا إذ تخلد الأحجية استثمار للولع الفرنسى بمصر بقدر ما تدعم رافدا للأسطورة التى تذكر بنابليون كفاتح لمصر وقاهر لأهراماتها وياله من معنى .

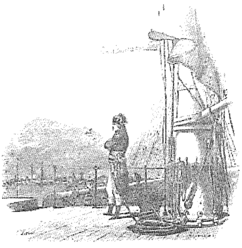
لقد استطاع نابليون وعبر وسائط متعددة من البروباجندا مستثمرا فيها حملته على مصر والتى كانت لأنباء انتصاراته فيها دويا ضاعت معه ظلال هزائمه، وقد أحسن نابليون توظيفها فى فضاءات ومجالات عدة كما رأينا، فالأسطورة وقد تجسدت فى الآداب والفنون على اختلاف تنوعاتها، تنطلق بذاتها محلقة بأجنحة عدة لتستقر فى القلوب والعقول الشغوفة بمعانى الانتصار، وصور إرادة القوة وأدوار البطولة التى لا تستند إلا لكفاءتها الذاتية وقدرتها التى تتيه على الآخرين وتحقق أهدافها صامدة فى مواجهة أعتى العواصف . وهكذا أصبح "نابليون بونابرت" نموذجا يحتذى به، لأسطورة كم يتمنى الآخرون أن يتعينوا "Identification" بها وهو ما تجاوز تخوم فرنسا وأوربا إلى مصر، حتى إن الأوساط الدبلوماسية الأوربية بها أبان حكم محمد على باشا لمصر أطلقت على محمد على "نابليون الشرق". وها هو الإعجاب يصل بالنموذج النابليونى إلى الحد الذى أدى بتيير (رجل السياسة والمؤرخ) عندما وصل لمنصب الحكومة الفرنسية عام 1839، إلى أن يعلن تأييده

الكامل لمحمد على باشا (وإلى مصر) متحديا كل ضغوط الدول الأوربية، وما ذلك إلا لأنه رأى فى محمد على محققا لحلم نابليون فى مصر.

* * *

وهكذا تمضى الأسطورة فى تحليقها إلى آماد لاتحد فقد حرص نابليون بونابرت منذ بدايته العسكرية على إبراز صورته وتسويقها فى صورة المنتصر ليسجل اسمه لا فى تراث الملكية الفرنسية فحسب، بل فى تراث الإنسانية كلها، فى نهج ابتدع الجديد لبعث أسطورته مستخدما عديدا من وسائط البروباجنده لدعم هذه الأسطورة. فإذا ما كان ملوك فرنسا وبخاصة لويس الرابع عشر قد دأبوا على تسجيل انتصاراتهم العسكرية فى لوحات تزين قصورهم، فإن "نابليون" وإن سار على منوالهم، إلا أنه أضاف عديداً من الفنون والفضاءات التى تخلد ذكراه، وتجعل من صاحبها أسطورة قامت على تحدى المستحيل، حتى إنه لم يغفل جانبا علميا استثمره من جاءوا بعده ليخفوا عورات أهداف غزواتهم وحروبهم الاستعمارية، ومع أنه لم يختلف عن ملوك فرنسا المستبدين، إلى الحد الذى يرى معه المؤرخ الفرنسى "فرانسو فيريه"[21] أن "نابليون قد حقق الحلم الاستبدادى للويس الرابع عشر" إلا أنه صنع لنفسه فى عيون الفرنسيين – بل ولدى آخرين أسطورة لا تخطئها العين -تضمنت فيما تضمنته- اعتباره الفاتح الذى حمل أفكار الحداثة والتنوير، بقدر ما رأوه مثالا واقعيا لإمكانية بلوغ أعلى درجات السلم الاجتماعى دون قيد غير الكفاءة والمثابرة وإرادة الانتصار على العوائق؛ حتى أصبح "نابليون بونابرت" فى الخيال الفرنسى ابنا بارا لتحقق شعار المساواة فى الثورة الفرنسية، ورسولا للحضارة وباعثها فى بلدان الشرق. وما أكثر مانسج حول شخصيته من معان، تخطب أطر البروباجندا التى وضع بنفسه لبناتها، لتتضافر فى نهاية المطاف فتصنع أسطورته الشهيرة.






DIOCLETIANVS
S C
AEGYPTO
CAPTA
BONAPARTE
R F

الهوامش

1 Paul Léautaud, *Passe-temps II, p.339.*

2 *Le mémorial de Sainte-Hélène.*

3 توفى نابليون يوم 5 مايو سنة 1821.

4 Pierre Jean de Béranger (1780-1857).

5 من المعروف أن الدور الرئيسى فى هذه المسرحية وهو دور ابن نابليون منذ قامت الفنانة العظيمة "سارة برنار" بالقيام به وقد أصبح من تقاليد هذه المسرحية أن تقوم أنثى بهذا الدور، وهو ماحدث حتى فى مصر عندما قامت بأداء هذا الدور السيدة / فاطمة رشدى، وزادت شهرتها بعد أدائه .

6 Antoine-Jean Gros, *Bonaparte visite les pestiférés de Jaffa* (1804).

صورة زيتية 523 سم * 715 سم.

7 Némès.

8 Martin Pénet, *Mémoires de la chanson française,* Paris 2001.

9 Laurent-Auguste Pelletier de...) (1789-1832).

حارب فى معظم حملات نابليون ومجد أعماله لوحة هو رأس فرنيه وطاردوه أثناء عودة الملكية ثم عُفىَّ عنه 1820 وعين برتبة رفيعة فى الجيش الفرنسى. انظر إلى الجزء الرابع للموسوعة الفرنسية للقرن التاسع عشر، الجزء العاشر صفحة 397 .

10 Barthélemy et Méry, *Napoléon en Egypte*, Paris 1827, p. XIV.

11 Raffet Auguste (1804-1860). رسام اشتهر برسوماته فى الكتب

12 Bellangé Joseph Louis (1800-1866) رسام للكتب التاريخية تلميذ جرو خصص نفسه فى المشاهد العسكرية.

13 Dioclétien (245-313). عين كإمبراطور فى 284. اشترك فى أعماله مع مكسميليان ولم تعد روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية. قطن دقلانيوس فى الشرق فى مدينة نكوميديا.

14 انظر إلى كتالوج المعرض ملميزون ومصر، 1998 صفحة 86`87

Catalogue de l'exposition *Malmaison et l'Egypte,* 1998, pp. 86-87.

15 15 Léon Cogniet, *L'expédition d'Egypte sous les ordres de Bonaparte (1830-1835), in L'univers des orientalistes,* Paris 2000, p. 109 peinture décorant le plafond de la salle Campan (musée du Louvre).

لوحة تزين سقف صالة كامبان فى متحف اللوفر بباريس.

16 Antoine Jean Gros (1810) *Bonaparte haranguant l'armée avant la bataille des pyramides.* Musée national du château de Versailles, Huile sur toile, 389 x 311 cm.

صورة زيتية 389سم * 311سم.

17 Louis François Lejeune, *Bataille des pyramides* (1806).

لويس فرنسوا لوجون معركة الأهرامات 1806 صورة زيتية 180سم *258سم.

18 François Louis-Joseph Watteai: *La bataille des pyramides* (1806) لوحة زيتية حجمها 1.20*2.90.

19 François LouisJoseph Watteau: *La bataille des pyramides* (1806).

لويس جوزيف فاتو : معركة الأهرامات 1806 صورة زيتية 92سم*120سم.

20 Jean Léon Gérôme, *Oeudipe (1867-1868),* Club des diplomates, Le Caire, d'après la photographie de l'ouvrage de Cristin Peltre, *Les Orientaliste,* Paris, Hazan 2000, p. 25.

جان ليون جيروم : أوديب صورة زيتية 30.2سم *45.6سم نادى الدبلوماسيين بالقاهرة.

21 François Furet. فى مداخلته فى القاهرة سنة 1979.

* * *



نقـــد
المشروع

الحملة الفرنسية وأسطورة نقل العلوم الحديثة إلى مصر
العلوم الطبيعية فى مصر فى القرن الثامن عشر بين تلقائية التطور والانتقال المفاجئ (*)

د. صبرى العدل

انتشرت لفترة قريبة - ولازالت إلى الآن - آراء مؤداها أن الحملة الفرنسية على مصر كانت بمثابة نقطة تحول فى تاريخ مصر الحديث، بل وصل بالبعض أن اعتبر تاريخ مصر الحديث يبدأ مع الحملة، وأن ما شهدته مصر من نهضة وانفتاح على العلوم الغربية الحديثة خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ما هو إلا أثر من آثارها. وقد رأى أصحاب هذا الرأى أن مصر خلال العصر العثمانى كانت تعانى من التخلف والجمود الفكرى، ولم تتطور العلوم العقلية أو تعطى قوة الدفع اللازمة لإحداث تغير ملحوظ فى المجالات العلمية[1]. وقد دلل أصحاب هذا الرأى بانحطاط المستوى الفكرى للعلماء، وتدنى لغة الكتابة والأدب، والذى وصل ذروته خلال القرن الثامن عشر، وتوقف الإنتاج الفكرى عند التدوين والشروح والحواشى، واقتصار هذا المنتج الفكرى على التراث غير العقلانى[2].

ومع أن الحملة الفرنسية وعلماءها لم يكن لهم أدنى تأثير على الجانب اللغوى والأدبى، إلا أننا نرى هذه اللغة بآدابها والتى قيل إنها انحطت بشكل كبير فى القرن الثامن عشر تنهض بشكل مفاجئ وترتقى إلى مستوى تحدى أعمال الترجمة من المؤلفات العلمية، وتخرج من بطونها مصطلحات علمية مازالت تشكل الأساس فى تدريس علومنا الحديثة. وهذا يعنى ببساطة شديدة أنه لم يكن للحملة الفرنسية أدنى

تأثير على التحول الذى حدث فى مجال اللغة والأدب، اللهم إلا التأثير الطفيف الذى أحدثه وجود المطبعة المصاحبة للحملة، والتى استخدمت أساسا فى طباعة المنشورات والصحف الدعائية التى تخدم أهداف الحملة.

وسوف نحاول فى هذه الدراسة البحث عن **جذور النهضة** الذى شهدته مصر خلال القرن التاسع عشر فى مجال تطور العلوم العقلية (الطبيعية والتطبيقية)، وهل يمكن التسليم ببعض الافتراضات التى افترضها البعض بأن الحملة الفرنسية جاءت ومعها كل أنواع العلوم وبخاصة العلوم التطبيقية بهدف تعليمنا هذه العلوم، ولتحدث بذلك نقلة حضارية ظهرت آثارها عقب خروجهم من مصر. هذه الافتراضات قد يكون لها ما يبررها، لكن هل يمكن أن نتصور بأن مصر كانت أرضاً خواء خالية من هذه العلوم العقلية ؟ وهل يمكن أن نتصور أن ما جاءت به الحملة الفرنسية من علماء ـ جاءوا فى الأساس لخدمة أغراض سياسية وعسكرية بالدرجة الأولى ـ فى معظم التخصصات العلمية كان فى مخيلتهم تعليم المصريين هذه العلوم ؟ أتصور أن هذه الدراسة ستجيب على هذه التساؤلات وغيرها.

فى البداية يتفق الباحث مع بيتر جران **P. Gran** فى رفضه لفكرة أن المجتمع المصرى فى العصر العثمانى كان ينتظر يد التقدم الأوروبى حتى مدت إليه فى شكل غزو عسكرى لمصر من قبل نابليون فى عام 1798م؛ فقد توصل جران فى دراسة له إلى أنه كانت هناك فى مصر خلال القرن الثامن عشر حركة إحياء علمية ناقش منها آثار هذه الحركة فيما يتعلق بعلم الطب، وخاصة الطب النفسى أو الروحى، حيث شهد تحولا فيما يتعلق بأساليب علم النفس فى العلاج والعلاج النفسى الجماعى، والتطهير النفسى، واستعمال الموسيقى والعقاقير. ويرى جران أن الطب الفرنسى نفسه كان يواجه العديد من المشكلات فى مصر، وبخاصة أساليبهم فى جبر العظام، وأمراض العيون والعمى، حيث اضطروا فى النهاية إلى استخدام طرق العلاج التى كانت مستخدمة فى مصر، كما واجهوا أمراضا أخرى صعبة كالإسهال الناتج عن شرب مياه النيل، وتفشى مرض الزهرى[3].

كما أن الدراسة التى قامت بها نللى حنا عن ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية تدحض فكرة جمود الثقافة الدينية وعدم تغيرها على مدى القرون، واقتصارها على العلوم الدينية: فهى ترى أنه إذا اعتبرنا أن التعليم هو تلك العملية التى تتم بين جدران المدرسة، فلن نصل إلى نتيجة محددة، وإذا نظرنا إليه باعتباره جزءا من سياق اجتماعى، وحقيقة واقعة، نصل إلى نتيجة أخرى، فالعوامل المتنوعة التى تساعد على تشكيل التعليم لا تتسم بالحسم أو القطع، غير أنها تفعل فعلها عن طريق التمييز بين ثقافة الطبقة الوسطى المتعلمة، واسعة المعرفة التى تجيد القراءة، والعلماء أو ثقافة المؤسسة، وكيف يمكن أن تبرز تلك الثقافة المتعلقة فى سياق كانت تهيمن عليه المدارس بدرجة كبيرة، بما لها من قواعد ومناهج وبرامج دراسية تقليدية، ويمكنها أيضا أن تساعدنا على فهم الكيفية التى تطورت بها وتعايشت الأبعاد الثقافية المختلفة الدينية والدنيوية(4). وقد قدمت دليلا على تنوع هذه الثقافة الدينية واستجابتها للتحولات الاجتماعية، وتوافقها مع حاجات المجتمع فى إطارها الدينى والأخلاقى.

والواقع أن ما توصلت إليه نللى حنا من نتائج يدحض معظم الأفكار التى جاء بها الفكر الاستشراقى. ففى دراسته عن العوامل الكامنة وراء تطور العلوم الحديثة فى الحضارة الإسلامية والغربية، يرى توبى هف Toby E. Huff أن الحضارة الإسلامية كانت مؤهلة لقيادة حركة التطور العلمى فى العالم، لما كانت تتمتع به من ديناميكية وأفكار علمية استطاعت أن تلقى بالأفكار القديمة السائدة جانبا، وتطرح أفكارا واقعية قائمة على التجربة والملاحظة، لكن عدم استمرار هذه الحضارة فى تفوقها يرجع فى تصوره إلى عدد من العوامل منها: الشريعة الإسلامية نفسها التى زعم أنها عجزت عن إيجاد مبادئ شاملة موحدة تحقق العدالة والإنصاف، وعدم وجود مؤسسات أو هيئات مستقلة نتيجة للطبيعة الفريدة للشريعة الإسلامية، بالإضافة إلى بقاء خصوصية مؤسسات التعليم العالى، واستمرار نظام الإجازة الذى يربط الطالب فيه نفسه بشخص أستاذه وليس إلى

مؤسسة علمية[5]. إلا أن ما جاءت به نللى حنا يسير فى طريق مختلف كما رأينا، ويدحض مثل هذه الأفكار.

وبالقطع ليس النسق الغربى فى التطور العلمى والتقنى هو النسق الوحيد الذى يصلح لكل بقاع العالم، فالنسق العلمى الصينى على سبيل المثال، كان يسير بشكل متطور بعيدا عن النسق الغربى، فالطب الصينى يتعامل مع الجسد الإنسانى بشكل مختلف، وتقوم منظومة العلاج على التعامل مع النقاط الحسية فى الإنسان فيما يعرف بالإبر الصينية، وهذا الأسلوب فى التشخيص والعلاج يعطى فى بعض الأحيان نتائج مذهلة، وبالتالى هناك أنساق أخرى يمكن أن تتطور بشكل مختلف عن النسق الغربى. فالنسق الذى كان سائدا فى مصر خلال القرن الثامن عشر على سبيل المثال، كان نسقا ممتدا للميراث الإسلامى، لكنه مع ذلك لم يقف عند حد الجمود، فسنرى أن الشكل المؤسسى للتعليم لم يستطع أن يحتوى بعض العلوم التى كانت تحتاج إلى إمكانيات معينة ومؤهلات خاصة، لهذا تحول مسار دراسة هذه العلوم من الأشكال المؤسسية إلى نوع من التعليم الخاص، حصل على دعم أهلى مستقل، وإن لم يكن هذا الشكل على النسق الغربى، واستطاع هذا الشكل من التعليم "اللامؤسسى" أن يدفع قدما بعض الأفكار العلمية التى جاء بها العلماء المسلمين السابقين على العصر العثمانى.

وبالطبع لا يمكن أن نقارن العلوم التى كانت تدرس فى مصر بما كان يدرس فى الغرب فى ذات الوقت، لأن المقارنة ستكون مجحفة. فخلال القرن السادس عشر كان الغرب قد خرج لتوه من نهضة بدأت برفض التسليم بالأفكار التى كانت تسوده فى القرون الوسطى: فالثورة الكوبرنيكية التى حدثت فى مطلع القرن السادس عشر لم تكن سوى ثورة فى فهم الإنسان للكون، ولم تكن وليدة أفكار كوبرنيكوس، بل إنها الفكرة التى توصل إليها العالم المسلم أبو الريحان البيرونى قبل كوبرنيكوس بأربعمائة عام، كذلك يمكن القول بأن الغرب يبدأ تاريخه الحديث مع وصول فكرة البيرونى إليه على يد كوبرنيكوس، حيث إنه بدأ صراع طويل بين هذه

الفكرة والكنيسة انتهت بانتصار الفكرة وتطويرها فيما بعد، عقب استسلام الكنيسة أمام الأفكار الجديدة.

على أية حال، فإننا لا يمكن أن ننظر إلى تطور الثقافة والعلم فى مصر خلال القرن الثامن عشر من منظور دراستها فى الأزهر، أو المؤسسات الرسمية (المدارس والكتاتيب) فقط، فهناك بعد آخر لهذا التطور، وهو التعليم خارج المؤسسة، الذى يوضح لنا صورة أخرى وسياق آخر لتطور المجتمع المصرى خلال العصر العثمانى. فالتعليم خارج المؤسسات الرسمية كان يحتوى قطاعات مهمة سواء من الشرائح الاجتماعية أو من أنواع معينة من العلوم. حيث كان هناك تعليم للفتيات(6)، على عكس الأفكار الشائعة عن هذا العصر.

وقبل أن نستعرض وضع العلوم الطبيعية فى مصر؛ قبيل مجىء الحملة، فمن الطبيعى أن تكون البداية هى البحث فيما كتبه علماء الحملة الفرنسية عن وضع هذه العلوم والمشتغلين بها؛ لسبب مهم، وهو الوقوف على مدى صحة ما جاء بهذا الكتاب الفذ من معلومات عن العلوم الطبيعية والمشتغلين بها. والواقع أن ما كتبه علماء الحملة فى كتاب وصف مصر، عن التعليم والعلوم فى مصر، قبيل الفترة التى سبقت مجيئهم إلى مصر، كان ضئيلا للغاية ولا يعطى صورة كاملة عن شكل التعليم فى هذه الفترة، لكن هذا لا يقلل من قيمة الكتاب، باعتباره عملا وصفيا رائعا غير مسبوق. لكن هناك من المعلومات التى أتى بها وصف مصر ما هو مغلوط وغير دقيق بالمرة، كما أن علماء الحملة، ولأسباب سياسية، كانوا فى النهاية يصفون مصر ولم يخلو عن بالهم أنهم يخدمون المصالح الفرنسية أولا. فالكتاب ألف فى الأساس لتتويج الجهد العلمى لعلماء الحملة، لكن أيضا كان من بين أهداف نشره، مخاطبة العالم الغربى، فقد كتب بالفرنسية وترجم إلى اللغات الأوربية الأخرى، حيث كتب ليبرر فشل الحملة الفرنسية على مصر، فكأن مؤلفى الكتاب يقولون ببساطة إننا ذهبنا إلى مصر وخرجنا بهذا الوصف المذهل عنها ويكفينا هذا. لكن هذا الوصف لم يكن كاملا فقد تعمد إغفال الكثير من الحقائق التى تتناقض مع

الأفكار ـ ذات الطابع الأيديولوجى ـ التى أرادوا أن يقدموها عن مصر، سواء فى فترة مجيئهم إليها أو فيما يتعلق بالفترة السابقة على وصولهم.

وطالما أن الحملة سوف تقدم على أنها «حملة التنوير» إلى مصر، فلابد أن تتركز كل الظلمات على الفترة السابقة على عام 1798، والاستثناء الوحيد يظل مقرونا بماضى الحضارة الفرعونية، ومن ثم يفسح المجال لـ «حملة التنوير» لتلعب دورها الرائد فى رد مصر إلى سابق مجدها العظيم «الفرعونى». وهذا ما يفسر تعمدهم تجريد المجتمع المصرى من كل المقومات التى تبرر شخصيته وحيويته، وكانت العلوم الطبيعية من الموضوعات التى ركزوا عليها لتبرير الخطاب الأيديولوجى، فكل العلوم المتطورة تعود إلى مصر القديمة فى مقابل إنكار وجود أى اهتمام من المصريين بمثل هذه العلوم، وحينما تحدث شابرول عن العلوم فى مصر فى القرن الثامن عشر أنكر وجودها تماما فيقول: « ويهمل المصريون المحدثون العلوم المقننة بعكس أسلافهم، فالرياضيات لا تكاد تكون معروفة عندهم »(7)، كما أن ما كتبه علماء الحملة عن علم الفلك فى مصر ـ على سبيل المثال ـ انصب فى الأساس على فترة مصر القديمة(8)، لكنهم لم يستطيعوا تجاهل وجود علم الفلك ووجود علماء متخصصين فيه، فنرى شابرول ينتقد المنهج الذى يتبعه علماء الفلك فى مصر وأساليبهم وآلاتهم الرصدية حيث يقول: « يكتفى الفلكى هناك بتسجيل بعض الملاحظات عن طريق آلات ضخمة وعلى تحرير التقويم السنوى، وفى نفس الوقت عدد من يمتلكون هذه المعارف ضئيل، وليس ثمة فلكى شهير فى هذه الآونة إلا شيخ واحد وهو واضع التقويم الحالى وله بعض التلاميذ»(9). وأعتقد أنهم بذلك يشيرون إلى عبد الرحمن الجبرتي(10)، كما ذهب إلى ذلك عبد الرحمن الرافعى الذى رجح أن تكون الصورة المنشورة فى كتاب وصف مصر لشخصية الفلكى هى صورة الجبرتى(11)، ويؤكد هذه المعلومة تلك الكتب الفلكية التى قام الجبرتى بنسخها كجزء من اهتماماته العلمية(12)، وتلك الإشارات الفلكية فى كتبه والتى لا تعبر سوى عن عالم فلكى قدير(13).

على أية حال فإن الصورة التى يرسمها كتاب وصف مصر لحالة التعليم عموما فى مصر خلال القرن الثامن عشر صورة قاتمة، وتزداد قتامة عند الحديث عن العلوم العقلية أو العلوم الطبيعية والتطبيقية كما كانوا يطلقون عليها.

تدريس العلوم داخل المؤسسات الرسمية

من المقولات الشائعة انعدام تدريس العلوم العقلية (التطبيقية) فى مصر خلال القرن الثامن عشر، وذلك كنتيجة لعدم تدريس هذه العلوم فى الأزهر، لكن هذا الكلام غير دقيق ولا يستند إلى أى أسس منطقية، ولا يمكن أن نتعامل معها على أنها قضية مسلم بها، لأن هناك إشارات لدى الجبرتى ـ الذى استشهد به من قالوا بانعدام تدريس العلوم العقلية بالأزهر ـ توضح أن هذه العلوم كانت تدرس بالأزهر لكن لم تكن على نطاق واسع. فالشيخ أحمد السنبلاوى الذى كانت له اهتمامات بالحساب والعلوم العقلية، كان مواظبا على تدريس المعقول بالأزهر، كما كان يحترف بيع الكتب فى دكانه بسوق الكتبيين[14].

والواقع أن الأزهر فى هذه الفترة كان مقتصرا على تدريس عدد من العلوم كاللغة وآدابها والعلوم الدينية المرتبطة بالقرآن والحديث، أما العلوم العقلية فلم يكن لها نصيب كبير فى الدراسة داخل الأزهر، لكن ذلك لم يمنع من تدريسها إذا وجد من يقوم بذلك.

وقد وصف الجبرتى العلوم العقلية بعدة أوصاف منها: « العلوم الغريبة»، و«الفنون الغريبة»[15]، و«العلوم السرية»[16]، و« العلوم الحكمية والرياضية »[17]، بينما أطلق على العلوم التى تدرس فى الأزهر اسم « العلوم المشهورة »[18]. ونستطيع من وصفه لهذه العلوم أن نستنتج أن هذه العلوم كانت غير متداولة كثيراً، وأن المتخصصين فيها كانوا قلة قليلة.

على أنه من خلال الحوار الذى دار بين شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشبراوى ومعه مجموعة من علماء الأزهر والباشا العثمانى أحمد باشا كور فى شوال من عام 1163هـ/ 1749م، عندما سألهم هذا الباشا عن بعض المسائل الرياضية التى كانت

تستهويه، لم يجد منهم تجاوباً لأسئلته، وقالوا « لا نعرف هذه العلوم »[19]، ومن هذا الحوار يتضح لنا أن هذه العلوم لم تكن تدرس فى الأزهر، نظراً لأنها كانت تحتاج إلى « لوازم وشروط، وآلات وصناعات، وأمور ذوقية كرقة الطبيعة، وحسن الوضع والخط، والرسم، والتشكيل، والأمور العطاردية، وأهل الأزهر بخلاف ذلك، غالبهم فقراء، وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق، فيندر فيهم القابلية لذلك» [20]، وحينما تعرف هذا الباشا بالشيخ حسن الجبرتى تعلم على يديه رسم المنحرفات والأشكال الهندسية، وصناعة بعض الآلات الفلكية كالمزاول الشمسية التى أتقن صناعتها، فصنع عدة مزاول وضع إحداها بالجامع الأزهر، وأخرى وضعها بجامع الإمام الشافعى، وأخرى بمشهد السادة الوفائية[21].

فمن الواضح أن تدريس بعض العلوم فى الأزهر كان أمرا صعبا، لعدة أسباب منها احتياج تلك العلوم إلى جانب عملى (كالطب)، ومعامل (كالكيمياء والصيدلة)، ولم تكن هذه المقومات موجودة بالأزهر، كما أن مثل هذه العلوم تحتاج إلى ممارسة عملية.

لكن على أية حال فقد كانت بعض العلوم تدرس فى المساجد، كحالة العلوم الرياضية التى قام الشيخ حسام الدين الهندى بتدريسها بمسجد فى مصر القديمة[22]، بينما كان يتم تدريس البعض الآخر داخل بيوت العلماء المتخصصين فيها. ومع هذا فقد كانت هناك علوم (كالطب والصيدلة) من الصعب تدريس شقها العملى فى البيوت أو المساجد، وإنما كانت تدرس داخل مؤسسات أنشئت لهذا الغرض، كدار الشفاء بالبيمارستان المنصورى بالقاهرة، والبيمارستان الناصرى بالإسكندرية، وكان أطباء البيمارستان ينقسمون إلى ثلاثة تخصصات رئيسية، الطبائعيون وهم الذين يقومون بعلاج الأمراض الباطنية، والجرائحيون، وهم الذين يقومون بالعمليات الجراحية، والكحالون وهم المتخصصون فى علاج أمراض العيون[23]. بالإضافة إلى "الجبرة" وهم المختصون بجبر كسور العظام.

وكان لكل طائفة أو تخصص طبى شيخ يشرف على شئون أهل تخصصه أو

طائفته، فكان هناك "الجراح باشي" وهو بمثابة كبير الجراحين بمصر وله حق الإشراف على هذه الطائفة، و"التفتيش على من لا يحسن هذه الصناعة"، و"شيخ الجبرة" وهو بمثابة كبير أطباء العظام بمصر[24].

كما نجد من العلماء فى مصر من تخصص فى صناعة الأدوية كالشيخ محمد الزبدانى، الذى كان "فريدا فى صناعة التراكيب والتقاطير، واستخراج المياه والأدهان"، كما كان الشيخ حسن الجبرتى له اهتمامات واسعة بالطب وصناعة الدواء، بالإضافة إلى الرياضيات والفلك[25]. وقد ألف بعض هؤلاء منظومات طبية، بطريقة الأراجيز التى انتشرت فى هذا العصر، كما ألف الشيخ على الطحان الأزهرى المصرى، منظومة فى الطب[26].

وقد انتشر تلاميذ هذه المدرسة الطبية خارج مصر، لعل أشهرهم أبو محمد عبد القادر بن شقرون صاحب الأرجوزة الشقرونية فى الطب، الذى انتهز فرصة مروره بمصر لأداء فريضة الحج فمكث بها لتعلم الطب، فتعلم على يد طبيب مصرى هو أحمد بن زيدان، فكان من جملة ما درسه على يديه ملخص كتاب ابن سينا "القانون" الذى أعده ابن النفيس[27]. كما يطالعنا الجبرتى بالشيخ جعفر بن محمد البيتى السقاف باعلوى الحسينى أديب الجزيرة والحجاز، الذى توفى بالمدينة المنورة فى عام 1182هـ/ 1768-1769م وتعلم بعض العلوم بمصر، ألف أرجوزة طبية فى الأمراض وكيفية عمل الأقراص والسفوف والأنواع المختلفة من الأدوية، وقد ذكر الجبرتى مقتطفات منها[28].

وتشير الدلائل إلى وجود مدرسة طبية فى مصر خلال العصر العثمانى، نشأت داخل المؤسسات الطبية، كانت تدعو إلى العودة إلى التفكير العقلانى ابن النفيس فى شرحه لكتاب القانون فى الطب لابن سينا، فقد هاجم الشيخ حسن العطار أخطاء داوود الإنطاكى (ت:1599م) الذى كان يمزج الطب الجالينى (نسبة إلى جالينوس) بطب النبى (ﷺ)، واستخدم العطار آراء ابن النفيس المبنية على التفكير العقلانى،

الذى اعتمد عليه فيما بعد الطب الأوربى، ولم يسمح بالاعتقادات الصوفية التى امتلأت بها أعمال الإنطاكى، لمهاجمة أخطاء الإنطاكى[29].

ومن هنا يمكننا أن نقول إن تدريس العلوم الطبيعية وتطبيقاتها داخل مؤسسات الدولة لم يكن يصلح لكل أنواع هذه العلوم، أو بمعنى آخر لم يكن يستوعب كل هذه العلوم، وإنما استطاعت بعض العلوم فى ظل هذا الإطار المؤسسى كالطب أن تجد لها مكانا وتدفع بعجلة تقدمها إلى الأمام. لكن بعض العلوم الطبيعية كان من الصعب أن تتطور فى ظل هذا الشكل المؤسسى الذى لم يكن يدعم سوى بعض العلوم التى رأوا فيها فائدة اجتماعية بارزة من ناحية، وغير مكلفة من ناحية ثانية، أو تلك التى تتمتع بدعم مالى من خلال الأوقاف المتنوعة المرصودة عليها من ناحية ثالثة. لهذا اتجه هواة ومتخصصى هذه العلوم إلى البحث عن أماكن أخرى غير المؤسسات الرسمية لتكون بمثابة معاهدهم العلمية، كما بحثوا عن مصادر لتمويل أبحاثهم المكلفة، والتى لا طاقة لهم فى الصرف عليها.

تدريس العلوم خارج المؤسسات الرسمية

لما كانت بعض العلوم الطبيعية والتطبيقية لا تلقى رعاية كافية من مؤسسات الدولة أو تشجيعا من الولاة العثمانيين، فقد اعتمد المتخصصون فيها على جهودهم الفردية فى نشر هذه الثقافة العلمية وتدريسها لمن يرغب فى التخصص فيها. وقد أنفق هؤلاء العلماء على أبحاثهم من مالهم الخاص أحيانا أو من خلال دعم عدد من المهتمين بهذه العلوم. فالأبحاث فى هذه المجالات كالفلك والرياضيات وغيرها مكلفة للغاية، ومن ثم نجد المهتمين بهذه العلوم إما من الميسورين من العلماء وإما من الذين تستهويهم هذه العلوم بغض النظر عما يعانونه من مشكلات. وهذا بالطبع يفسر لنا قلة عدد العلماء الذين تخصصوا فى هذه المجالات. لكن على الرغم من قلة عددهم فإننا نجد غزارة فى منتجهم العلمى كما سنرى.

لم تكن معظم هذه العلوم تدرس فى الأزهر أو فى المؤسسات الرسمية؛ إذ كانت تتخذ من منزل الأستاذ المتخصص أو من دكانه (كما فى حالة الشيخ مصطفى الخياط

كما سنري) معهدا لتدريسها، ويستخدم الجبرتى جملة شائعة للتعبير عن هذا الوضع من الدراسة فيقول: "ولازم الشيخ بحيث أنه لا يفارق منزله فى غالب أوقاته"[30]. ففكرة ملازمة الطالب للمعلم أو الأستاذ كانت شائعة فى ذلك العصر، ليس فقط فى العلوم العقلية، وإنما أيضا فى العلوم النقلية الدينية منها والأدبية.

وكان بعض العلماء الذين يقومون بتدريس مثل هذه العلوم كالرياضيات أو الهيئة (الفلك) فى بيوتهم يتقاضون أجراً خاصاً نظير ذلك، فالشيخ حسين المحلى (ت: 1170هـ/ 1757م) الذى كان « بحراً لا تدركه البحار ولا يدرك له قرار»[31]، وخاصة فى الرياضيات، وكان يأخذ أجراً من الطلاب نظير تعليمهم الرياضيات، فإذا جاءه من يريد تعلمها وطلب إليه قراءة كتاب ما تعزز عليه وتمنع وساومه على ذلك بعد جهد شاق ويقول: « أنا لا أبذل العلم رخيصاً »[32]، كما كان يكتب مؤلفاته بخطه ويبيعه لمن يرغب. ومن تلاميذه فى العلوم الرياضية الشيخ محمد بن موسى الجناجى الذى كان ماهراً فى العلوم العقلية والنقلية، وبخاصة فى علمى الحساب والجبر، وقد تعلم على يديه هذه العلوم الشيخ محمد الأمير وغيرهم، كما كان صديقا للشيخ حسن الجبرتى وينسخ له ما يريد نسخه[33].

وإذا ما أردنا أن نأخذ نموذجا للدراسة خارج المؤسسة الرسمية، فإن الفلك أوضح نموذج للتعبير عن هذه الحالة: فعلم الفلك يحتاج إلى مهارات خاصة وآلات مكلفة؛ إذ لابد لمن يقدم على هذا العلم من معرفة تامة بالعلوم الرياضية كالجبر والهندسة والتفاضل والميكانيكا وغيرها، لهذا نجد هؤلاء العلماء الذين تخصصوا فى هذا المجال، كانوا ممن هم على دراية كبيرة بهذه العلوم، بل إننا نجد من بين هؤلاء العلماء من كان مغرماً بالرياضيات فأدى به هذا الغرام إلى دراسة الفلك. لهذا سنقوم بدراسة لتطور علم الفلك فى مصر خلال القرن الثامن عشر، على اعتبار أنه النموذج الأوضح لتدريس العلوم الطبيعية خارج المؤسسات الرسمية.

لاشك أن علم الفلك فى القرن الثامن عشر لم يكن وليد القرن وإنما هو حلقة فى سلسلة من التطور عبر تاريخ مصر منذ العصور الوسطى. ففى دراسته عن علم

الفلك فى العصر المملوكى، يشير ديفيد كينج ـ King, A. David أن علم الفلك والميقات فى العصر المملوكى بصفة عامة كان يهدف إلى خدمة الإسلام، حيث كانت هناك حاجة إلى معرفة اتجاه القبلة ومواقيت الصلاة، وقد اشتهر العديد من علماء الفلك فى العصر المملوكى أمثال ابن الشاطر، الذى وصل بعلم الفلك الإسلامى كما يقول كينج إلى ذروته، لكن الجديد أن كينج يطرح فكرة ظهور "علم الفلك الشعبي"، وهو تلك الحسابات البسيطة لمعرفة أوقات الليل والنهار ومنازل القمر، وقد ظهر هذا الفرع من الفلك على يد المؤذنين الذين كانوا على دراية بعلم الميقات[34]. **ولاشك أن** الميراث العربى والإسلامى لعلوم الفلك هو الأساس الذى بنى عليه الفلكيون أزياجهم[35] وأبحاثهم فى مصر خلال العصور الإسلامية.

يرى البعض أنه لم تتم التفرقة بين المنجم والفلكى أو بين علمى التنجيم والفلك فى مصر والعالم العربى إلا فى القرن التاسع عشر[36]. وهذا الرأى بالطبع يحتاج إلى دليل إذ إننا نرى فى مصر منذ القرن السادس عشر انفصالا واضحا بين علمى الهيئة وأحكام النجوم، وتفرق المصادر العثمانية بينهما تفريقا واضحا باعتبارهما علمين منفصلين. فالجبرتى يضع توصيفات واضحة لمتخصصى العلمين فهو يطلق على رضوان أفندى وجمال الدين يوسف الكلارجى لقب «الفلكى » [37]، بينما يطلق على حسن أفندى قطة مسكين لقب «المنجم» [38]، كما يستخدم مصطلحات تدل على معرفته التامة للفروق بين العلمين فهو يستخدم مصطلحات: «الفلك »، و«الهيئة»، و«أحكام النجوم»، «والأحكام النجومية»، بشكل دقيق ولا يحتمل اللبس.

وقد لقى علم الفلك أو الهيئة فى مصر خلال العصر العثمانى اهتماما واضحا دون علم أحكام النجوم أو التنجيم وربما كان ذلك راجعا إلى وقوف بعض المشايخ وعلماء الأزهر فى هذا العصر ضد هذا العلم باعتباره علم منهى عنه، لكن هذا لم يمنع من وجود طائفة من المنجمين فى هذا العصر مارس بعضهم التنجيم كحرفة تمكنهم من الحصول على بعض المال أو ما يتعيشون منه، بينما مارسه البعض الآخر كعلم له أصول وأهداف سامية.

ومن الملاحظ على المؤلفات الفلكية فى مصر خلال العصر العثمانى أنها اهتمت بشكل أكبر بعدد معين من الموضوعات التى يتناولها علم الفلك، أهمها التقاويم سواء الشمسية أو المعتمدة على القمر، ودراسة أحوال القمر، والكسوف والخسوف، والمواقيت، والأزياج، والجداول الفلكية وحركات الكواكب بالإضافة إلى آلات قياس الزمن الساعات من حيث أنواعها وكيفية عملها. ويرجع السبب فى كثرة المؤلفات عن التقاويم والأزياج والميقات إلى ارتباط هذه العلوم أولا ببعض الفروض الإسلامية، مما يعطيها طابعا شعبيا، فالتقويم الهجرى يلزمه إثبات مولد الهلال لتحديد أوائل الشهور العربية القمرية، كما أنه نظرا لتعدد التقاويم المستخدمة فى مصر - كما سنرى - حيث كان يستخدم ثلاثة تقاويم أساسية هى: التقويم القبطى والتقويم العربى والتقويم العثمانى وكان لاستخدامها جميعا أثره على إحداث ارتباك على مستوى الإدارة العثمانية والمجتمع المصرى ككل، خاصة عندما كانت الدولة تقوم بجمع الضرائب فى وقت لم يكن يتزامن مع وقت الحصاد، بالإضافة إلى الارتباك الذى كان يحدث نتيجة لعدم التثبت من رؤية أهلة أوائل الشهور القمرية[39].

ومن أشهر المؤلفات التى تناولت التقاويم فى مصر فى القرن الثامن عشر هو مؤلف رضوان أفندى الفلكى المعروف باسم: "الزيج الرضوانى على أصول الجديد السمرقندى أو على أصول ألغ بيك السمرقندى"، وهو معروف باسم "الزيج الرضواني" على سبيل الاختصار نسبة إلى مؤلفه، كما ألف الشيخ رمضان الخوانكى مؤلفا فى التقاويم أسماه: " نتيجة الشيخ رمضان " نسبة إليه أيضا، وهذان العملان هما أشهر ما ألف من تقاويم وأزياج فى مصر خلال العصر العثمانى، وفى هذه التقاويم يتوقع الفلكى أوائل الشهور القمرية وما يقابلها من الشهور الشمسية، ويضع تقويما لعشرات السنوات مستقبلا.

أما فيما يتعلق بمؤلفات علم الميقات نجد أيضا أن أشهر المؤلفات فيه كتبها رضوان أفندى ورمضان الخوانكى، حيث كتب رضوان أفندى مؤلفا أسماه:

"دستور أصول علم الميقات ونتيجة النظر فى تحرير الأوقات المسمى بالنتيجة الكبرى"، ومؤلف الشيخ رمضان الخوانكى المسمى: "كفاية الطالب لعلم الوقت وبغية الراغب فى معرفة الدائر وفضله والسمت"، وهذان المؤلفان وضعا فى الأساس ليكونا كتبا دراسية للطلبة الراغبين فى دراسة الفلك، فالمؤلف الأول يسمى أصول علم الميقات، بينما الثانى يحمل اسم كفاية الطالب مما يؤكد الغاية من تأليفهما.

ويمكننا أن نرصد ملامح مدرسة فلكية خلال القرن الثامن عشر، مؤسسها هو رضوان أفندى الفلكى. هذه المدرسة أعطت لعلم الفلك دفعة إلى الأمام، بعدما كان قد أصابه الخمول خلال القرن السادس عشر وجزءا من القرن السابع عشر. وأسس هذه المدرسة علماء من طبقة الأفندية إذا جاز لنا التعبير وليسوا من طبقة علماء الأزهر، فهم ينتمون إذًا إلى طبقة خارج المؤسسة الأزهرية.

ورضوان بن عبد الله الفلكى المصرى، عالم فلكى مصرى عاش فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، لا نعرف الكثير عن حياته أو عن أساتذته الذين تعلم على أيديهم العلوم الرياضية والفلكية. وكل ما نعرفه عنه أنه "رضوان بن عبد الله المصري"، وربما يشير اسم "عبد الله" إلى الأصل المملوكى لرضوان، لكن لقب "المصرى" الذى ورد ضمن صفحات مخطوطاته ومؤلفاته[40]، ربما كان تميزاً أضافه النساخ لتميزه عن غيره من علماء العصر من غير المصريين، حيث لا يظهر هذا اللقب عند الجبرتى مؤرخ سيرته، كما نعرف أنه توجه للحج فى سنة 1091هـ/ 1680م[41]، وتعلم هناك على يد عدد من علماء الحرمين الشريفين، لكن طبيعة ما تعلمه أو أساتذته الذين تعلم على يديهم تظل مجهولة.

لا نعرف بالتحديد التاريخ الذى ولد فيه رضوان لكنه ربما ولد فى منتصف القرن السابع عشر تقريبا، وقد توفى فى 23 جماد الأولى سنة 1122هـ/ 20 يولية 1710م[42]، ولسوء الحظ لم نعثر على حجة مخلفاته فى سجلات محكمة بولاق أومحكمة القسمة العسكرية أو القسمة العربية دون أن أعثر لها على أثر.

وقد عاش رضوان طيلة حياته منقطعا لدراسة الفلك، وليس هناك من إشارات حول اشتغاله بمهنة أو حرفة أخرى إلى جانب دراسته، وقد كان يسكن ببولاق منعـزلا عـن النـاس أو بتعـبير الجبـرتـى: "منجمعا عن خلطة الناس مقبلا على شأنه"[43]، فلا شك أن نوع العلم الذى يدرسه، والذى يحتاج إلى هدوء وصفاء ذهنى قد فرض عليه هذه الحياة المنعزلة عن الناس، ومن الصعب أن نجد فى مصر خلال هذا العصر من انقطع للعلم مثل رضوان أفندى.

ولقد كان رضوان عالما رياضيا قبل أن يكون عالما فلكيا، حيث إن علم الفلك فى الأساس مبنى على حسابات رياضية، فلابد للمشتغل بهذا العلم أن يكون على معرفة تامة بالعلوم الرياضية كالهندسة وحساب المثلثات والجبر والرسم الهندسى والميكانيكا (أو علم الحيل آنذاك) وغيرها، وقد أطلق الجبرتى على رضوان بعض الصفات التى تعبر عن تمكنه من هذه العلوم، فهو يصفه بالمهندس الحيسوبي[44] تارة والحيسوبى الفلكي[45] تارة أخرى، وهو بذلك يفرق بينه وبين علماء الفروض الذين استخدم لهم وصفا آخر وهو: الحيسوبى الفرضى أو الفرضى الحيسوبى لوصف معرفتهم بعلم الحساب اللازم لهؤلاء العلماء كى يتمكنوا من تقسيم المواريث بالفريضة الشرعية.

وكان الإنتاج العلمى لرضوان غزيرا، حيث يصفه الجبرتى وصفا يعبر به عن كميته فيقول: وكتب بخطه ما ينيف على حمل بعير مسودات، وجداول حسابيات، وغير ذلك .... تآليف وحسابيات وتحقيقات لا يمكن ضبطها لكثرتها، لكن للأسف لم يصلنا من الكم الغزير سوى عدد قليل من هذه المؤلفات.

وأشهر مؤلفات رضوان أفندى على الإطلاق هو المعروف بـ " الزيج الرضوانى" نسبة إليه، وهو مؤلف يحتوى على عدد من الموضوعات الفلكية، فيبدأ بتعريف السنة والشهر واليوم وتعريف التقويم، ثم يشرح التقاويم المختلفة، كالتقويم العربى والفارسى والرومى والإفرنجى والقبطى وغيرها من التقاويم، معرفا بكل تقويم وكيفية حسابه، ثم يتناول كيفية التحويل من تقويم لآخر وفق

عمليات حسابية معينة، ومعادلات رياضية غاية فى الذكاء، كما يتناول وضع النجوم فى السماء وترتيبها ومسميات المجموعات النجمية وترتيبها وكيفية حساب أبعادها.

أما مؤلف الآخر وهو "دستور أصول علم الميقات ونتيجة النظر فى تحرير الأوقات، المعروف بالنتيجة الكبرى"، فهو مؤلف متخصص فى علم الفلك الميقاتى، يهدف من وراء تأليفه إلى " النظر فى تحرير ما هو وسيلة إلى معرفة أوقات الصلاة والصيام"(46)، أى أن الهدف إسلامى بحت. وهو مؤلف رائع يتناول فيه الكيفية التى يمكن بها تحديد الأوقات بدقة عن طريق معرفة أوضاع الشمس على الأرض وأوضاع النجوم، مع الوضع فى الاعتبار تعاقب الفصول المختلفة، كما تناول كيفية معرفة أوائل الشهور العربية القمرية، عن طريق معرفة منازل القمر وحالاته خلال الاعتدالين الربيعى والخريفي(47). ويقول الجبرتى عن مؤلف رضوان المعروف باسم "النتيجة الكبرى"، و"النتيجة الصغرى": "وهما مشهورتان متداولتان بأيدى الطلبة بآفاق الأرض"(48)، مما يدل على أن شهرة رضوان قد تعدت حدود مصر إلى العالم الخارجى.

ولم تقتصر مؤلفات رضوان على هذين المؤلفين بل نجد له مؤلفات أخرى منها: "أسنى المواهب"، و" طرز الدرر فى رؤية الأهلة والعمل بالقمر"، و" بغية الطلاب فى استخراج الأعمال الفلكية بالحساب"، وفى بعض النسخ " تحفة الطلاب فى العمل بالحساب"، و"جدول فى تقويم النيرين على أصول ألغ بيك، وهو المعروف بالزيج الرضوانى"، و"مجموعة أولها بغية السائل فى معرفة وضع المزاول"، وقد قصد من بعض كتبه أن تكون مرجعا دراسيا للطلاب، كما يتضح ذلك من عناوينها ومحتواها.

وقبيل اقتراب القرن السابع عشر من نهايته، جمع حب الفلك والرياضيات بين رضوان الفلكى وشخصية ضليعة فى الرياضيات وهو الأمير حسن أفندى الروزنامجى، الذى كان يشغل منصب "باش قلفة" بديوان الروزنامة، ورشحه الأمير المملوكى إبراهيم بك أبو شنب لتولى هذا المنصبَ حين استشعر فيه مهارات

فى الحساب والرياضيات فزكاه عند إسماعيل باشا والى مصر(1107-1109هـ/ 1695-1697م) فخلع عليه منصب الروزنامجى ليقوم بضبط حسابات الروزنامة، بعدما عجز عن ضبطه الكتاب والمحاسبون، نظرا لحدوث وباء عظيم لم تر مصر مثله فأدى إلى موت الكثيرين وأيلولة تركاتهم إلى بيت المال، وكان هذا الوباء عام 1107هـ/ 1696م، بالإضافة إلى اضطراب الأحوال الاقتصادية فى مصر، وحادثة مقتل ياسف اليهودى ، وتغيير العملة من الذهب الأشرفى إلى الذهب الطرلي[49].

وكان حسن أفندى شغوفا بالرياضيات والحساب، وقد ساقه هذا الشغف إلى دراسة علم الفلك، ولم يجد فى مصر آنذاك أفضل من رضوان أفندى لكى يعلمه هذا العلم، حيث كان قد ذاع صيته فى مصر وخارجها، فتعلم حسن أفندى على يديه علم الفلك، وواظب على حضور الدروس، وكان يأخذ تابعه يوسف بن عبد الله الكلارجى معه لحضور هذه الدروس. وتعلق حسن أفندى بأستاذه وازداد حبه له، وأراد أن يتعاون مع أستاذه لما فيه إشباع لحبهما لعلم الفلك، فتعاون الاثنان الأستاذ والتلميذ على صنع بعض الآلات التى تعينهما على عمليات الرصد الفلكى، حيث لم يكفِ الجانب النظرى فى تعلم هذا العلم، ووضع حسن أفندى ثروته الضخمة تحت تصرف أستاذه ليتمكن من إنجاز هذه الآلات. وقد قام حسن أفندى بالتعاون فى صناعة هذه الآلات، فقام بجمع أمهر الصناع فى سبك المعادن والحفر عليها ليكونوا تحت تصرف أستاذه، الذى استطاع أن ينجز هذا العمل فى وقت قصير، وقد انتهى منه فى عام 1113هـ/ 1701م، فصنع "عدة كرات من النحاس الأصفر ونقش عليها الكواكب المرصودة، وصورها، ودوائر العرض والميول، وكتب عليها الأسماء بالعربى، ثم طلاها بالذهب"[50].

لكن على أية حال، ليس لدينا ما يفيد بأن حسن أفندى قد ألف فى علم الفلك أو حتى تعاون مع أستاذه فى إنتاج مؤلفات فى هذا العلم، لكن ثمرة التعاون كانت إنجاز بعض الآلات الرصدية، التى نقش عليها اسميهما ليخلدا ذكرى تعاونهما فى هذا المجال، وكان مصير هذه الآلات بعد وفاة حسن أفندى أن اشتراها الشيخ حسن الجبرتى والد عبد الرحمن الجبرتى، غير أننا لا نعرف مصيرها بعد ذلك.

وقد استطاعت هذه المدرسة الفلكية أن تنجب العديد من التلاميذ، كان أشهرهم يوسف بن عبد الله الكلارجي تابع حسن أفندى الروزنامجي، الذى كان له ميل كأستاذه إلى الرياضيات والحساب، وتعلم الفلك على يد رضوان أفندى حتى صار ماهرا فى هذا العلم، وقد ساعده على الاستمرار الثروة التى تركها أستاذه تحت تصرفه، "فاستنبط واخترع ما لم يسبق بمثله"، وجمع ثمرة خبرته فى عدد من المؤلفات، أهمها " كنز الدرر فى أحوال منازل القمر"، والظلال ورسم المنحرفات والبسائط والمزاول والأسطحة" وغيرها. واقتنى العديد من الكتب النادرة فى الفلك والرياضيات، بالإضافة إلى الآلات النفيسة التى "لم تجتمع عند غيره"[51].

ومن أبرز تلاميذ رضوان أفندى الفلكى أيضا **الشيخ رمضان بن صالح بن عمر حجازى السفطى الخوانكى**، وهو من أغزر من كتبوا فى علم الفلك فى القرن الثامن عشر، وكان الشيخ رمضان صديقا للشيخ حسن الجبرتى الذى كانت له اهتمامات واسعة بعلم الفلك والرياضيات، فاشترى الآلات الفلكية التى تركها حسن أفندى الروزنامجى لاستخدامها فى إشباع هوايته وغرامه برصد النجوم والكواكب وعمل الزيج[52].

وكانت أشهر مؤلفات الشيخ رمضان الخوانكى فى علم الفلك: "جدول مسير الشمس والقمر"، و"نزهة النفس بتقويم الشمس"، و"نبذة فى معرفة تقويم الكواكب السبعة على أصول الرصد الجديد السلطانى لألغ بيك السمرقندى"، و"نبذة فى معرفة استخراج الدائر وفضله وتعديلهما وتعديل الارتفاع".

أما الشيخ مصطفى الخياط، الذى كان يعمل فى مهنة الحياكة وله اهتمام واسع بعلم الفلك، حيث تعلم على يد الأساتذة الكبار فى هذا العلم، ويقول عنه الجبرتى بأنه: "أدرك الطبقة الأولى من أرباب الفن مثل رضوان أفندى ويوسف الكلارجى والشيخ النشيلى، والكرتلى، والشيخ رمضان الخوانكى، والشيخ محمد الغمرى، والشيخ الوالد حسن الجبرتى، وهؤلاء العلماء يمثلون علماء "الطبقة الأولى" فى علوم الفلك فى مصر فى ذلك الوقت من وجهة نظر الجبرتى[53].

ومن أشهر مؤلفات الشيخ مصطفى الخياط:"جداول سموتية كواكب، وهى لسنة 1180هـ/ 1766-1767م على أصول الرصد الجديد، ألغ بيك". ولا يمكن أن نعتبر مصطفى الخياط مجرد هاو لعلم الفلك، إذ ما عرفنا أنه بات له تلاميذ ومدرسة فى هذا العلم، حيث كان يتخذ ركناً فى دكانه لاستقبال تلاميذه، وكان أبرز تلاميذه الشيخ عثمان بن سالم الوردانى[54].

واستطاع علم الفلك بعد رضوان الفلكى أن ينفذ إلى المؤسسة الأزهرية ويصبح علما له تلاميذ من الأزهريين. فنرى الشيخ عبد الله خزام أبو الطوع الفيومى المالكى، الذى كان يشغل منصب "المفتي" كان له اهتمام بعلم الفلك والهيئة والميقات، وكان يمتلك ـ على حد تعبير الجبرتى ـ آلات تتعلق بهذه العلوم.

وكان الشيخ حسن الجبرتى يستغل وجوده فى الحجاز ليقوم بتدريس العلوم التى يجيدها هناك، فنعرف أن هناك من التلاميذ الحجازيين من لازمه ملازمة كلية كالشيخ إبراهيم الزمزمى، مؤقت الحرمين الشريفين، تعلم على يديه علم الفلك والأوفاق والاستخراجات والرسم، وكان هذا الشيخ يقتنى نسخة رائعة أصلية من كتاب زيج الراصد ألغ بيك السمرقندى ثمنها كان يزيد على إثنى عشر دينارا[55]، لكن هذه النسخة باعها أولاد هذا الشيخ بعشرين ريالا لجهلهم بقيمتها واشتراها أحد الحجاج المغاربة بعدما رفض عبد الرحمن الجبرتى إعطائه نسخة والده النادرة أيضا لكنها لم تكن بقيمة نسخة الشيخ الزمزمى، كما كان من جملة ما بيع من مقتنيات هذا الشيخ كتاب زيج ابن الشاطر والذى بيع بثمن بخس[56].

كذلك تعلم محمد أفندى بن سليمان أفندى بن عبد الرحمن أفندى بن مصطفى أفندى كوككليان على يديه الرياضيات والفلك والهيئة والتقويم الذى مهر فى هذا العلم واقتنى كتبا كثيرة فى الفلك والرياضيات، واقتنى الآلات والمستظرفات وحسب وقوم الدساتير السنوية عشرة أعوام مستقبلة بأهلتها وتواريخها وتواقيعها ورسم كثير من الآلات الغريبة والمنحرفات، وكان غاية فى الدقة وكان لطيف الذات مهذب الأخلاق قليل الادعاء، جميل الصحبة وقورا. مات بالطاعون فى شعبان(1205هـ/ أبريل ـ مايو 1791م) وتبددت كتبه وآلاته[57].

ومن هؤلاء العلماء الموسوعيين ممن اهتموا بدراسة علوم الفلك والرياضيات، لكنهم لم يحظوا بشهرة كبيرة فى هذا العلم؛ نظراً لاهتمامهم بعلوم أخرى، الشيخ شمس الدين بن عبد الله بن فتح السبربائى، الذى « أدرك من كل فن الحظ الأوفر، ومال إلى فن الميقات والتقاويم، فنال من ذلك ما يروق »، ويؤكد الجبرتى أنه تعلم على يد علماء عصره فى هذا العلم وله مؤلفات فى علم الفلك، كما كان له زيجاً مختصراً دل على تمكنه منه ومعرفته للعمليات الحسابية المعقدة التى يحتاجها هذا العلم[58].

ومن هؤلاء الشيخ محمد بن موسى الجناجى الذى تعلم العلوم الرياضية على يد حسين المحلى، كما كان صديقاً للشيخ حسن الجبرتى ويقوم بنسخ الكتب له، وقد برع فى علم الاقتصاد وله دراسات فى تحويل النقود، والموازين، وغيرها. كما برع فى علم الجبر وحل المعادلات الرياضية واستخراج المجهولات وما يستفاد منها فى علم المواريث[59].

أما الشيخ مصطفى بن محمد بن يونس الطائى (1138هـ / 1192هـ) وقد ولد بمصر، وكان إلى جانب تعلمه للعلوم الشرعية كان له باع فى العلوم الرياضية لأنه كان « فرضياً وحيسوباً » على حد تعبير الجبرتى، وله مؤلفات شتى تدل على رسوخه فيها[60].

ومن طائفة العلماء الموسوعيين، نجد الشيخ محمد الدانراكوى السودانى، الذى كان مبدعا فى كل العلوم، وقد تلقى علومه ومعارفه الأولى عن أساتذته فى السودان حيث تلقى على يد « الشيخ محمد بندو علم الحرف والأوفاق وعلم الحساب والمواقيت على أسلوب وطريقة المغاربة، والعلوم السرية ..وآلتها الحسابية والميقاتية ». [61]

لما كان علم الفلك من العلوم التى من الممكن أن تجتذب إليها العديد من الهواة فى كل زمان ومكان، وخاصة أولئك الذين يتمتعون بشيء من المعرفة الرياضية، لهذا ظهر فى القرن الثامن عشر عدد من الهواة لعلم الفلك على الرغم من أنهم لم يدرسوا

هذا العلم على يد علمائه المتخصصين. ومن هؤلاء عامر بن الشيخ عبد الله الشرقاوى (ت:1192هـ/ 1778م) الذى كان يقتنى الكتب الثمينة، على الرغم من أنه لم يتجه إلى تحصيل العلوم، فاقتنى عدداً من « الآلات الفلكية والأرباع والبسائط » وغيرها واعتنى بها(62).

لم يقتصر الأمر على العلماء من غير المتخصصين فى علم الفلك، بل شمل الاهتمام بعض الشرائح المثقفة التى كانت لها اهتمامات شملت قراءة الكتب الفلكية، وامتد الأمر ليشمل الأمراء المماليك ذوى النفوذ والسلطة فى مصر خلال القرن الثامن عشر.

فنجد مثلاً الأمير رضوان الطويل مملوك على كتخدا الطويل وهو من الأمراء المماليك كانت له اهتمامات بالعلوم الرياضية والفلكية، وقد تعلم هذه العلوم على يد الشيخ عثمان الوردانى، وكان شغوفاً بهذه العلوم، لدرجة أن الجبرتى وصفه بأنه «اشتغل فكره بذلك ليلاً ونهاراً ورسم الأرباع الصحيحة والمتقنة الكبيرة والصغيرة والمزاول والمنحرفات وغير ذلك من الآلات المبتكرة والرسميات الدقيقة»(63). وقد استشهد به رفاعة الطهطاوى بالشيخ عثمان الوردانى ليدلل على عدم اضمحلال العلوم العقلية فى مصر فى القرن الثامن عشر(64).

أما الأمير محمد بك الألفى فقد كان من الأمراء الشغوفين بالعلوم الرياضية والفلكية، وكان يشترى الكتب المتعلقة بهذه العلوم ويقرأها وإذا غمض عليه أمر من الأمور أرسل يسأل عن أساتذة العلم فيطلبهم إلى قصره ليستفيد من علمهم(65). وحينما سافر الألفى إلى إنجلترا فى عام 1803 مكث هناك سنة وبضعة شهور، فأهداه الإنجليز هدايا قيمة كان من بينها آلات فلكية وأدوات هندسية، «وإسطرلابات وكرات ونظارات ما إذا نظر الإنسان فيها فى الظلمة يرى أعيان الأشكال كما يراها فى النور، ومنها لخصوص النظر فى الكواكب، فيرى بها الإنسان الكوكب الصغير عظيم الجرم، وحوله عدة كواكب لا تدرك بالبصر الحديد"(66).

أما فيما يتعلق بموقف العلماء المصريين من علوم الفرنسيين وآلاتهم، فإننا نجد الشيخ حسن العطار الذى اطلع على ما لدى الفرنسيين من كتب ومؤلفات ورأى آلاتهم وتجاربهم العلمية، فتأكدت لديه فكرة أهمية العلوم الطبيعية وضرورتها لمصر والمصريين، خاصة بعد أن اطلع على كتب فى العلوم الرياضية والآلات الفلكية والهندسية، وقد ذكر عنه على مبارك أنه " اتصل بناس من الفرنساوية، فكان يستفيد منهم الفنون المستعملة فى بلادهم، ويفيدهم فى اللغة العربية ويقول إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها، ويتعجب مما وصلت إليه تلك الأمة ـ الفرنسية ـ من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة[67].

فلا شك أن العلماء المصريين قد استفادوا مما لاحظوه أو رأوه من علوم وآلات وكتب لدى علماء الحملة، لكنهم لم يقرأوا شيئا للفرنسيين. وإعجاب بعضهم بالفرنسيين كان إعجابا بالأسلوب والمنهج، كما أن تقبلهم لبعض الأفكار يدل على وجود أفكار سابقة للتطور تضرب بجذورها فيما قبل مجيء الحملة، لكن للعديد من الظروف لم يتمكن هؤلاء العلماء المصريين من إحداث التطوير المفاجئ.

* * *

هكذا نرى أن بعض العلوم الطبيعية قد حظيت بنصيب من التدريس داخل المؤسسات التعليمية فى مصر فى القرن الثامن عشر لأسباب تتعلق بتوفير الدعم المالى اللازم لاستمرار تطورها ومدى خدمتها للمجتمع، بينما تطورت علوما أخرى خارج هذا الشكل المؤسسى لأسباب تتعلق بعدم وجود دعم لها، لكن ذلك لم يكن لأسباب دينية على الإطلاق.

ومن هنا يمكن القول بأن مصر خلال القرن الثامن عشر كانت تشهد تطورا طبيعيا فى مجال العلوم الطبيعية، وهذا التطور الطبيعى كان وليد حاجة المجتمع، والدليل هو ظهور هذا الشكل من التعليم خارج المؤسسة، برغم أنه غير مغرٍ ماديا

بل إنه مكلف فى معظم الأحيان إلا أن وجوده يعطى مؤشرا بأن حركة تطور العلوم الطبيعية فى مصر لم تأت مع قدوم الحملة.

وبهذا يتضح لنا أن الحملة الفرنسية على مصر كانت بريئة تماما من فكرة التحديث فى مجال العلوم الطبيعية، فمحمد على نفسه لم تكن تخطر بباله فى البداية فكرة البعثات العلمية إلى الغرب، كما أن مدرسى المدارس التى أنشأها قبل أن ترسل البعثات إلى أوربا كانوا من المصريين أو المقيمين فى مصر، وهؤلاء تعلموا ما لديهم من علوم فى مصر وبخلفيات مصرية. ومن ثم فإن فكرة تأثير الحملة على نشأة الاهتمام بالعلوم الطبيعية (الحديثة) فى مصر مسألة واهية، أو بالأحرى تتناقض تماما مع طبيعة الوقائع التاريخية فى فترة الغزو الفرنسى لمصر. وبالقدر نفسه يصح القول بأن محمد على قد أعطى دفعة قوية لتطور علم الفلك فى مصر، حين أصدر أوامره بإنشاء «الرصدخانة» فى عام 1839م، وغير خاف حجم المفارقة بين تبنى الدولة ـ ممثلة فى محمد على ـ لمثل هذه العلوم الطبيعية، بما تمتلكه من إمكانات مادية هائلة، وبين تلك الاهتمامات الفردية التى برزت فى القرن الثامن عشر. لكن مع هذا فإن هذه الأعمال الفردية إنما توضح شيئا مهما، وهو إدراك المجتمع لأهمية المعرفة الفلكية، فعملوا على دعمه بالجهود الذاتية والإمكانات المحدودة. لكن مع هذا فإن العلماء الذين تخرجوا من هذه المدرسة الفلكية فى القرن الثامن عشر، شكلوا الطليعة التى اعتمدت عليها مصر فى تأسيس معرفتها الفلكية الحديثة، فى بداية القرن التاسع عشر وهى بصدد تفعيل الاحتكاك بين معارفهم والأفكار الغربية الحديثة فى تدريس العلوم.

وفى النهاية لم ترصد لنا المصادر المعاصرة (الفرنسية أو العربية) أية معلومات تفيد بوجود احتكاك مباشر بين علماء الحملة والمصريين المهتمين بعلم الفلك.

الهوامش

(*) أتقدم بخالص الشكر إلى د. نللى حنا، أستاذ الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية، وإلى الصديق العزيز د. ناصر إبراهيم جامعة القاهرة، لما أبداه كل منهما من ملاحظات خلال مناقشاتى الطويلة معهما فى هذا الموضوع.

(1) أحمد عبد الرحيم مصطفى، حركة التجديد الإسلامى فى العالم العربى الحديث، القاهرة 1971، ص 12. على بركات، رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية،الهيئة المصرية العامية للكتاب، القاهرة 1987، ص ص 37، 38.

(2) محمد عمارة، تيارات اليقظة الإسلامية الحديثة، القاهرة 1982، ص ص 12-16.

(3) بيتر جران، الخلفية العثمانية لظهور الواقعية فى الفكر العربى المعاصر: إحياء الكلاسيكية الجديدة للقرن الثامن عشر فى مصر وسوريا وتركيا، أمثلة بعض الكتابات الطبية، مقالة ضمن كتاب العلاقات العربية ـ التركية، تحرير د. عقيل محمد عقيل، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى 1982، جـ1، ص ص219-228.

(4) د. نللى حنا، ثقافة الطبقة المتوسطة فى مصر العثمانية (ق16 - 18م)، ترجمة د. رءوف عباس، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة 2003، ص 123.

(5) توبى أ. هف، فجر العلم الحديث: الإسلام ـ الصين ـ الغرب، ترجمة د. محمد عصفور، ط2، عالم المعرفة(260)، الكويت أغسطس 200، ص ص 240 — 245.

(6) سجلات محكمة الإسكندرية، سجل 47، ص 120، حجة 324، بتاريخ 13 جماد ثانى 1053هـ.

(7) شابرول، المصريون المحدثون وصف مصر، الجزء الأول، ترجمة زهير الشايب، القاهرة 2002، ص 70.

(8) حول ما كتبه علماء الحملة فى وصف مصر عن الفلك فى مصر القديمة راجع الأجزاء 22، 25، 27، 28 من الترجمة العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، القاهرة 2003.

(9) المصدر نفسه.

(10) شابرول، المصدر السابق، ص70.

(11) عبد الرحمن الرافعى، تاريخ مصر القومى وتطور نظم الحكم فى مصر، الجزء الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 200، ص 354.

(12) راجع على سبيل المثال نسخه لمخطوطة : رمضان بن صالح بن عمر بن حجازى الخوانكى (ت 1158هـ)، نزهة النفس بتقويم الشمس، نسخة بخط عبد الرحمن بن حسن الجبرتى الزيلعى

العقيلى 1198هـ مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم300 رياضيات تيمور، وحول صورة الفلكى والشاعر المنشورتان بكتاب وصف مصر راجع دراسة أندريه ريمون التى رجح فيها أيضا أن تكون صورة الفلكى للجبرتى، والشاعر للشيخ حسن العطار : Raymond, André, À Propos de deux Portraits de la Description de l'Egypte: "l'astronome" et "le poète", en Annales Islamologiques, Volume 35/2, 2002.

(13) راجع على سبيل المثال، الجبرتى، عبد الرحمن بن حسن، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، جـ4 تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبة الأسرة)، القاهرة، ص 292، ص 369.

(14) الجبرتى، جـ2، ص 454.

(15) نفسه، جـ4 ص 374، جـ 7، ص 67.

(16) نفسه ، جـ 1، ص 208.

(17) نفسه ، جـ 1، ص 483.

(18) نفسه ، جـ1، ص 483.

(19) نفسه ، جـ1، ص 316.

(20) نفسه ، جـ1، ص ص 316 ، 317.

(21) نفسه ، جـ1، ص317.

(22) المصدر نفسه، جـ2، ص 615.

(23) سلوى على ميلاد، وثائق تقارير النظر، مجلة الروزنامة، العدد الأول 2003، ص 105 .

(24) دار الوثائق القومية، سجلات محكمة الإسكندرية، سجل 52، ص 342، وثيقة 665 .

(25) الجبرتى، جـ2، ص622.

(26) نفسه ، جـ4، ص 374.

(27) د. بدر التازى، الطب العربى فى القرن الثامن عشر من خلال الأرجوزة الشقرونية، ترجمة د. عبد الهادى التازى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1984، ص 22.

(28) الجبرتى، جـ2، ص 523.

(29) بيتر جران، المرجع السابق، ص 230.

(30) الجبرتى، جـ 4، ص 395.

(31) نفسه، جـ 2، ص 364.

(32) نفسه.

(33) الجبرتى، جـ2، ص 184.

(34) King, A. David, Mamluk astronomy and the institution of the Muwaqqit, In : The Mamluks in Egyptian Politics and Society, Ed. Thomas Philipp and Ulrich Haarmann, Cambridge university Press, p.212 ff.

(35) الزيج: لفظ زيج أصله اللغة البهلوية التى كان الفرس يستخدمونها فى زمن الملوك الساسانيين، وفى هذه اللغة "زيك" بمعنى السدى الذى ينسج فيه لحمة النسيج ثم أطلق الفرس هذا الاسم

على الجداول العددية لمشابهة خطوطها الرأسية بخيوط السدى . وعلم الأزياج هو علم يحتاج إلى معرفة تامة بالرياضيات والقوانين العددية التى تحكم كل كوكب وطريقة حركته وموضعه فى أفلاكه، حيث يتم الخروج من ذلك بقوانين يعرف من خلالها الأيام والشهور والتواريخ. راجع: نلينو، كارلو، علم الفلك عند العرب فى القرون الوسطى، الجامعة المصرية، السنة الدراسية 1909 ـ 1910، طبع بمدينة روما العظمى 1911، ص 42، وابن خلدون، عبد الرحمن، المقدمة، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د/ ت، ص 342.

(36) دائرة المعارف الإسلامية، (الترجمة العربية)، المجلد الخامس، ص 490.

(37) الجبرتى، جـ1 ، ص ص 276، 277.

(38) نفسه ، جـ2، ص 490.

(39) مضابط محكمة الإسكندرية، مضبطة 15، ص 29، حجة 142 بتاريخ 13 شعبان 1212هـ/ 1797م.

(40) رضوان بن عبد الله المصري(ت 1123هـ/ 1711م)، دستور أصول علم الميقات ونتيجة النظر فى تحرير الأوقات، مخطوط بدار الكتب المصرية، تحت رقم (141 ميقات طلعت)، ورقة الغلاف. وراجع أيضاً الجبرتى، عبد الرحمن، المصدر السابق، جـ1، ص 117، حيث يصفه بالعلامة المهندس الحيسوب الفلكى رضوان بن عبد الله نزيل بولاق.

(41) خير الدين الزركلى، الأعلام، الجزء الثالث، دار العلم للملايين، بيروت، ص 27.

(42) الجبرتى، جـ1، ص 158.

(43) نفسه ، جـ1، ص 158.

(44) نفسه ، جـ1، ص 158.

(45) نفسه ، جـ1، ص 158.

(46) رضوان بن عبد الله المصرى(ت 1122هـ)، دستور أصول علم الميقات ونتيجة النظر فى تحرير الأوقات، المصدر السابق، ورقة 1 ـ أ.

(47) المصدر نفسه، ورقة 1 ـ ب.

(48) الجبرتى، جـ1، ص 139.

(49) نفسه، جـ1، ص 202، أحمد شلبى بن عبد الغنى، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات، تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن، مكتبة الخانجى، القاهرة 1987، ص ص 198-200.

(50) نفسه ، جـ1، ص ص 139- 202.

(51) نفسه ، نفسه.

(52) نفسه ، جـ1 ، ص ص 276،277.

(53) نفسه ، جـ4، ص 279.

(54) نفسه ، جـ4، ص 279.

(55) الدينار هو الدينار الذهب الذى يساوى وزنه الشرعى 4,25 جرام.

(56) نفسه ، جـ 3، ص 98، 99.

(57) نفسه ، جـ 4، ص 342، 343.

(58) نفسه ، جـ2، ص 369.
(59) نفسه ، جـ2، ص 184.
(60) نفسه ، جـ2، ص 35.
(61) نفسه ، جـ1، ص 208.
(62) نفسه ، جـ 2، ص 47.
(63) نفسه ، جـ 2، ص 334.
(64) أحمد زكريا الشلق، الشيخ حسن العطار (1766 ـ 1835) وأثره فى الفكر الحديث، مقال تحت النشر، ص6.
(65) الجبرتى، جـ 4، ص 39.
(66) نفسه ، جـ 4، ص 58.
(67) أحمد زكريا الشلق، المرجع السابق، ص11.

* * *

مشروع قناة السويس
بين الحملة الفرنسية وديليسبس

أ.د. رءوف عباس

هناك شخصيات تاريخية عرفها القرن التاسع عشر(عصر الإمبراطوريات الاستعمارية) لعبت دوراً بارزاً فى صناعة تاريخ هذا العصر، وارتبطت أسماؤها بأهم ما تحقق فيه من إنجازات مثلت نقاط تحول رئيسة فى بناء تلك الإمبراطوريات الاستعمارية، بعض تلك الشخصيات لعبت دوراً بارزاً فى بناء مستعمرات بعينها فى آسيا وإفريقيا، ولكن نادراً ما ارتبط اسم فرد بعينه بمشروع قدم أجلّ الخدمات لذلك العصر العتيد؛ مثلما فعل فردنان ديليسبس (1805– 1894)، الدبلوماسى الفرنسى الذى حول مشروع قناة السويس إلى حقيقة واقعة، وقدم لأمته مغنماً عجزت عن تحقيقه الجيوش.

فلا غرابة -إذاً- أن يتحمس البعض لديليسبس ويعجب به كل هذا الإعجاب، ما دام ينظر إلى المشروع الذى تحقق على يد ديليسبس بعيون ديليسبس نفسه، ومن ثم يجرى التعامل مع مشروع قناة السويس على أنه خارج سياق عصر الإمبراطوريات الاستعمارية، فهو مشروع "إنسانى حضارى"، يربط الشرق بالغرب، ويخرج مصر من العصور الوسطى ويجرها إلى العصر الحديث. قصد به ديليسبس مصلحة مصر، وظل حارساً لمصالحها طول حياته. ويرجع أصحاب هذا الاتجاه الصورة "السلبية"

التى رسمها المؤرخون المصريون لديليسبس إلى عجزهم عن قراءة المصادر الفرنسية من وثائق ومذكرات، وخاصة مذكرات ديليسبس نفسه التى نشرها فى أواخر سبعينات القرن التاسع عشر! فالصورة السلبية التى استقرت فى أذهان المؤرخين المصريين مردها إلى الجهل بالفرنسية، والتأثر بكتابات الإنجليز المعادية - بالطبع- لديليسبس، ومتأثرة بالنوازع "الوطنية" بسبب ما جرته القناة على مصر من أمور يراها البعض "مشكلات"، ويراها غيره من المصريين "نكبات".

وقبل أن نُقدم الظروف التى تحول فيها المشروع إلى حقيقة واقعة، ونلقى الضوء على حقيقة دور الرجل الخير "ديليسبس" فى ذلك، نود أن نشير إلى أن الجيل الأول من المؤرخين المصريين كانت لغته الأجنبية الأولى هى الفرنسية، وأن معظمهم أجاد الكتابة بها ، فضلاً عن قراءتها ، وكانوا متبحرين فى معرفتهم بالمصادر الفرنسية ومن بينها مذكرات ديليسبس، وقد تناولوا كل المعلومات المعروفة عن ديلسبس فى كتاباتهم (بالعربية والفرنسية) ولكن بعيون المؤرخ، وبالمنهجية التاريخية ويكفى أن نذكر هنا كتاب مصطفى الحفناوى الذى نشر بالفرنسية فى باريس عام 1951، وكتاب محمد رفعت الذى نشر بلندن بالإنجليزية عام 1947، إضافة إلى كتاب عبد الرحمن الرافعى "عصر إسماعيل" الجزء الأول الذى قدم فيه تلخيصاً لما جاء بمذكرات ديليسبس، ونشر بالقاهرة عام 1932، وكتابات محمد مصطفى صفوت، وأحمد عبد الرحيم مصطفى وغيرهم من جيل مؤرخى النصف الأول من القرن العشرين، ومن ثم فإن المتيمين بديلسبس والمدافعين عنه أصدروا على المؤرخين المصريين حكماً انطباعياً لا يستند إلى واقع الحال.

ننتقل الآن إلى "مشروع قناة السويس" باعتباره حجر الزاوية فى صراع القوى الاستعمارية المتنافسة فى عصر الإمبراطوريات؛ لنلقى عليه نظرة فى هذا السياق، قبل أن يتحول إلى حقيقة واقعة.

تعود جذور المشروع إلى أواسط القرن الثامن عشر، عندما أدى التنافس الاستعمارى بين بريطانيا وفرنسا إلى محاولة كل منهما البحث عن طريق أقصر من

طريق رأس الرجاء الصالح؛ فرنت كل منهما ببصرها إلى مصر والشام والعراق. تفاوضت شركة الهند الشرقية البريطانية مع حكام مصر من الأمراء المماليك لتأمين نقل البضائع من السويس إلى القاهرة برا، ثم عن طريق النيل إلى ساحل البحر المتوسط، وهى محاولة لم تحقق نتائج إيجابية لاعتبارات تتصل بمعارضة السلطان العثمانى - صاحب السيادة على مصر - ولتراجع شركة الهند الشرقية البريطانية ذاتها حتى لا تفتح بيدها طريقاً يضر باحتكارها المطلق لتجارة الهند. وفى نفس الوقت اهتم الفرنسيون بالعمل على تحويل التجارة الشرقية إلى البحر المتوسط عبر مصر، وعقدت فرنسا اتفاقاً بالفعل عام 1785 مع أمراء المماليك وبعض شيوخ البدو، ولكن إستانبول اعترضت - مرة أخرى - واضطربت الأحوال الداخلية فى مصر، فلم ير الاتفاق النور.

وكانت الحملة الفرنسية على مصر (عام 1798) حلقة فى سلسلة ذلك التنافس الاستعمارى الفرنسى - البريطانى حول مصر التى يمكن أن تقدم (بحكم موقعها الاستراتيجى) بديلاً مناسباً لطريق رأس الرجاء الصالح، ولما كان البديل البحرى لطريق الرأس يمثل حلاً عملياً يحقق لفرنسا التحكم فى طريق تجارة الشرق، وتوجيه ضربة قاضية لغريمتها بريطانيا؛ فقد فكر الفرنسيون فى شق قناة تربط البحرين المتوسط والأحمر عبر برزخ السويس. ومن هنا جاءت دراسة المهندس الفرنسى لوبير Lepère للمشروع، دراسة مستفيضة انتهت إلى صعوبة التنفيذ؛ لأنه توصل - خطأ- إلى أن مستوى البحر الأحمر يرتفع عشرة أمتار عن مستوى البحر المتوسط؛ مما يعرض الدلتا للغرق إذا ما شقت القناة.

هذه الدراسة المستفيضة التى نشرت فى العمل الموسوعى "وصف مصر" جذبت انتباه مساعد قنصل الإسكندرية الشاب فردنان ديليسبس عندما قرأها أثناء قضائه فترة الحجر الصحى عند وصوله إلى مصر عام 1832. ولم يكن ديليسبس بعيداً عن المحاولات التى بذلت عام 1835-1836 لإقناع محمد على باشا بتبنى المشروع، فقد ظل ديليسبس يعمل بمصر حتى عام 1837- (عندما تم نقله إلى هولندا)، وكان

الوقت عندئذ ملائماً للفرنسيين لإقناع محمد على بتنفيذ المشروع، فقد توسع فى الشام، وشق عصا الطاعة على السلطان، ولما كانت بريطانيا تقف فى وجه مشروعه الطموح، كان هو بحاجة ماسة إلى مساندة فرنسا.

ولكن محمد على كان حريصاً على استقلال إرادته وقراره، فلم يرفض العرض حتى لا يغضب فرنسا، ولكنه شكل لجنة فنية لمراجعة حسابات لوبير ضمت بعض من كانوا فى خدمته من المهندسين الفرنسيين من أتباع سان سيمون، وبعض المهندسين المصريين الذين تخرجوا فى فرنسا، وقامت اللجنة بمسح منطقة البرزخ، وانتهت إلى إقرار صلاحية البرزخ لشق القناة من حيث التكوين الجيولوجى، وخاصة أن ما جاء بدراسة لوبير عن ارتفاع مستوى البحر الأحمر لم يكن صحيحاً.

وهنا وضع محمد على شروطاً صعبة لتنفيذ المشروع، فهو يريده مشروعاً مصرياً خالصاً يقام بأموال مصرية، ولما كانت مالية البلاد لا تتحمل الإنفاق على مثل هذا المشروع الضخم فقد رأى إرجاءه لحين ميسرة، ورفض الاستماع لفكرة الاقتراض لتمويل المشروع . كذلك رأى محمد على ضرورة ضمان الدول الكبرى جميعاً لحياد مصر، طالما كان المشروع يمس المصالح الحيوية لتلك الدول. وقال محمد على لبعض خلصائه من قناصل الدول: إنه لا يريد أن يضع فى مصر بوسفوراً آخر (إشارة إلى ما جره المرور من مضيق البوسفور من مشاكل على الدولة العثمانية ذاتها)، ويعنى ذلك إدراك الرجل لخطورة المشروع على مستقبل مصر السياسى.

هذه تطورات عاصرها ديليسبس بمختلف أبعادها الفنية والسياسية أثناء خدمته قنصلاً لبلاده بالقاهرة؛ فقد كان وثيق الصلة بالمهندسين الفرنسيين الذين يعملون فى خدمة محمد على. كما كان على دراية بالمناورات السياسية التى أحاطت بعرض المشروع على محمد على عام 1835/ 1836، وهى نفس السنة التى تلقى فيها محمد على عرضا بريطانياً ببناء الخط الحديدى (الإسكندرية - القاهرة - السويس)، وتعامل معه بنفس الطريق ، التأجيل لحين ميسرة.

ولما كان ديليسبس شديد الاهتمام بالمشروع، وطرفاً فى العرض الفرنسى الذى اعتذر محمد على عن عدم قبوله (بحكم منصبه)، فقد ظل يتابع المحاولة الثانية التى تمت مع محمد على عام 1846، بعد ما تحطمت آمال الرجل، وتقلصت مساحة دولته، وتقلص معها جيشه، وكعادته شكل لجنة من المهندسين الفرنسيين والمصريين لدراسة العرض ثم اعتذر عن عدم قبوله لنفس الأسباب التى أبداها من قبل.

ولم يَيْئَس الفرنسيون، وخاصة بعض من عمل منهم فى خدمة محمد على، فكوَّنوا "جمعية" ضمت فى عضويتها العلماء والدبلوماسيين ورجال الأعمال ، حملت اسم "جمعية دراسة مشروع قناة السويس" . ورغم أن ديليسبس كان - عندئذٍ - في منصب وزير فرنسا المفوض فى مدريد (1848-1849)، إلا أنه ظل على صلة وثيقة بنشاط هذه الجمعية. وراحوا، ومعهم الحكومة الفرنسية يبذلون محاولة مع عباس باشا الأول، ولكنه كان يمقت فرنسا فى أعماق نفسه، ويعدها مسئولة عن نكبة جده (محمد على)، وينشد دعم بريطانيا له للحفاظ على الحقوق التى كسبها محمد على فى فرمان 1841، فَقَبِلَ تنفيذ مشروع الخط الحديدى، ولكن بشروط جده، فكان المشروع مصريا خالصا تمويلاً وتنفيذاً، ولعله دفع حياته ثمناً له.

كان مشروع الخط الحديدى (الإسكندرية -القاهرة - السويس) يمثل البديل البريطانى لمشروع قناة السويس، وجاء قبول عباس الأول لتنفيذه دعماً للمصالح البريطانية فى مصر على المدى البعيد؛ مما كان له أثره فى الدوائر الفرنسية بجناحيها: غير الرسمى، ممثلاً فى "جمعية دراسة مشروع قناة السويس"، وجناحها الرسمى، ممثلاً فى الحكومة الفرنسية. وهنا التقط فردناند ديليسبس - الذى كان قد استقال من السلك الدبلوماسى بعد فشله فى مهمة كلف فيها فى إيطاليا - التقط الخيط لينسج لنفسه ثوبا يؤهله لتقديم خدمة تاريخية لحلم فرنسا الإمبراطورى، ولينفض عن نفسه تراب النسيان.

التحق ديليسبس بجمعية دراسة مشروع قناة السويس بحكم خبرته بمصر،

وبحكم كون محمد سعيد باشا بن محمد على قد أصبح، بعد تولية عباس، وليا للعهد (حسب مبدأ تولية الأرشد الذى أقره فرمان 1841)، فقد كان محمد على قد أوكل إلى ديليسبس أثناء خدمته بالقاهرة (1832-1837) - مهمة تدريب ولده محمد سعيد حتى يتخلص من السمنة، فربطته به علاقة مودة وصداقة جاء وقت استثمارها، وإذا كان ولى العهد بعيداً عن صنع القرار، فغداً تتجمع مقاليد الأمور بيده، عندما يتولى الحكم.

وجاء مصرع عباس الأول بقصره ببنها (ليلة 14 يوليو 1854)، ذلك الحادث الذى كان مؤامرة تعددت الأقوال حول أطرافها، ولم يهتم أحد بالتحقيق فى ملابساتها، بما فى ذلك سعيد نفسه، وكأن إزاحته من سدة الحكم مطلبا للجميع، وإذا كانت المصادر تشير إلى مؤامرات القصر، فللسياسة التى اتبعها أثناء حكمه نصيب كبير، وخاصة كراهيته الشديدة لفرنسا ولكل من انتسب إليها نصيب فى تلك النهاية الغامضة إذا طبقنا مبدأ "البحث عن صاحب المصلحة".

على كل، جاء مصرع عباس الأول وتولية سعيد فاتحة خير لأولئك الذين صبروا سنين طويلة فى انتظار تنفيذ مشروع قناة السويس، وتحقيق كسب استراتيجى هائل للمصالح الإمبراطورية الفرنسية فى العالم، يعوض خسارة فرنسا السابقة أمام بريطانيا. كذلك كانت تولية سعيد بشير خير لديليسبس الذى كان الرجل المناسب لتحقيق أمل فرنسا الذى طال انتظاره، فهو يعرف سعيداً تمام المعرفة منذ تولى تدريبه صبياً فى العاشرة من عمره وتركه وهو فى الخامسة عشرة، ولابد أن يكون قد احتفظ بنوع من العلاقة معه طوال السنوات السابقة على توليته الحكم، وخاصة أن سعيدا خدم بالبحرية ضابطا وتلقى التدريب على يد ضباط فرنسيين. كما أنه ليس لدينا دليل قاطع على أن ديليسبس لم يحتفظ بروابطه القديمة بمصر بعد مغادرته لها، فقد كان وثيق الصلة بالسان سيمونين الذين خدموا مع محمد على، ورأيناه مرتبطاً بجمعية دراسة قناة السويس، فلابد أنه كان على صلة وثيقة بسعيد باشا، ولعله حرص على تمتين علاقته به منذ عام 1849 -على أقل تقدير - وهو تاريخ ولاية

عباس الأول، وتاريخ احتلال سعيد منزلة ولى العهد. يفسر ذلك ترحيب سعيد ببرقية التهنئة التى تلقاها من ديليسبس عند توليته، ودعوته لزيارته، والاحتفاء به، ولا يقبل العقل أو المنطق فكرة تذكر سعيد لمعلمه القديم بعد سبعة عشر عاماً دون أن يكون هناك تواصل بينهما، وخاصة أن ديليسبس كان صاحب المصلحة فى ذلك التواصل.

ولعل ذلك يفسر المعاملة الكريمة الحميمة التى لقيها ديليسبس منذ وطأت أقدامه الإسكندرية، واصطحاب سعيد له فى مناورة الجيش التى أتاحت له إبهار ضباط سعيد ببراعته فى الفروسية، على نحو ما يشير فى مذكراته.

نقول: إن ديليسبس كان الرجل المناسب الذى تعلقت عليه آمال أصحاب المشروع الذين لم تفت الأيام فى عضدهم. فهو الرجل الذى يحظى بثقة سعيد، ويعرف مفاتيح شخصيته ؛ فهو طيب القلب، حسن الطوية، صريح، ضعيف الإرادة، كثير التردد، ولكنه سريع التأثر بخلصائه الأوربيين وخاصة الفرنسيين (فما بالنا بصفيه ديليسبس!)، حريص على كسب تقدير أوربا، وخاصة فرنسا. كلها مفاتيح يعرف ديليسبس كيف يستخدمها، وهو ما تشى به مذكراته، وخاصة حديث "الخيمة" الذى طرح فيه ديلسبس مشروع القناة، فلم يستغرق الكثير من الوقت حتى أقنع الباشا بالمشروع، وظفر منه بعقد الامتياز الأول (30 نوفمبر 1854) الذى أعطى فيه سعيد "صديقه" ديليسبس امتياز تأسيس شركة عامة لحفر القناة، وجعل مدة الامتياز 99 عاما من تاريخ فتح القناة للملاحة البحرية. وبذلك نال ديليسبس بغيته التى كان يسعى لها منذ عام 1835 عندما عرض المشروع على محمد على.

وهكذا يتضح أن المسألة بعيدة تماماً عن فكرة "المشروع الإنسانى الحضارى الذى يحقق الارتباط بين الشرق والغرب لخير البشرية جمعاء" التى قال بها ديليسبس فى مذكراته، وصدقها ورددها المتحيزون والمدافعون عن شخصية هذا الرجل؛ حيث مالوا إلى التأكيد على وقوع ديليسبس فى غرام مصر، وحرصه على مصلحتها،

متخذين من لائحة العمال المبرمة عام 1855 دليلاً على ذلك. فواقع الأمر أن الامتياز الأول جاء خلواً من الإشارة إلى مساهمة مصر بقوة العمل اللازمة للمشروع، فجاءت اللائحة لسد هذه الثغرة، وتم تضمين هذا الالتزام الامتياز الثانى. ولا يعنى النص على الأجور والتعويض والرعاية الصحية والتغذية أن الشركة التزمت بالنص التزاما حرفياً؛ ولكن النص كان موجهاً للدول المعارضة للامتياز وفى مقدمتها بريطانيا والدولة العثمانية؛ لأن قوانين الإصلاح التى أصدرها السلطان- بضغط من الدول الأوربية- نصت على إلغاء السخرة، فلم يكن من المعقول النص عليها صراحة فى اللائحة، وجاءت نصوص الأجور والتغذية وغيرها ذراً للرماد فى العيون.

ولنلقى نظرة على الامتيازين لنرى مدى حرص ديليسبس على مصلحة مصر، وصيانته لحقوقها وصيانته لمالها.

لقد تضمن امتياز عام 1854 تنازل الحكومة المصرية دون مقابل عن جميع الأراضى التى تلزم لتنفيذ المشروع، وكذلك الأراضى اللازمة لشق ترعة المياه العذبة التى تصل النيل بموقع القناة وتتفرع إلى خليج الطينة (موقع بورسعيد) شمالاً، وإلى السويس جنوباً. فقد أعطى الامتياز الأراضى الواقعة حول مسار الترعة مجاناً، وأعفاها من الضرائب مدة عشر سنوات من تاريخ افتتاح القناة تخضع بعدها لضريبة العُشر (عشرة بالمائة من قيمة ما تنتجه الأرض من محاصيل حسب تقدير الشركة). وأعطى الامتياز للشركة حق تحصيل مبالغ من الأهالى فى حالة استخدامهم مياه الترعة العذبة للرى. كذلك أعطى الامتياز للشركة حق استغلال المناجم والمحاجر الداخلة فى الأملاك العامة دون مقابل، وأعفى مبانيها من الرسوم، كما أعفى الآلات والمعدات التى تستوردها من الخارج من كافة الرسوم الجمركية. ونص الامتياز على تعهد الوالى بتكليف جميع موظفى القطر المصرى بمساعدة الشركة فى أعمالها.

ونص عقد الامتياز الثانى (5 يناير 1856) على التزام الشركة "التى أسسها

صديقنا المسيو فرديناند ديليسبس" على نفقتها ومسئوليتها بشق قناة الملاحة البحرية، وقناة المياه العذبة وفرعيها، ونص على أن يكون أربعة أخماس العمال اللازمين لأعمال الحفر من المصريين. وكرر التزام المستفيدين من قناة المياه العذبة بدفع (تعويض) مناسب للشركة، وترك للشركة حق الانتفاع بالأراضى العامة دون مقابل، وكذلك الأراضى التى تقوم بزراعتها حول الترعة العذبة مع إعفائها من الضريبة لمدة عشر سنوات ثم تخضع بعد ذلك للضريبة، وأسقط حق الأفراد فى مطالبة الشركة بتعويض عن أراضيهم التى تضع الشركة يدها عليها إلا فى الحدود التى نص عليها عام 1854، وتركت الحكومة للشركة وحدها حق تقدير التعويض. واحتفظت الشركة بحق استغلال المناجم والمحاجر دون مقابل، وكذلك الإعفاء من الرسوم الجمركية على ما تستورده من آلات ومعدات. ونص الامتياز - أيضاً - على حق الشركة فى الاحتفاظ بالامتياز لمدد متتالية كل منها 99 سنة على أن تزيد حصة الحكومة 5٪ فى كل امتياز بحد أقصى 35٪ من صافى أرباح الشركة، وأن يكون نصيب الحكومة من أرباح الشركة فى مدة الامتياز الأول 15٪. وأسند رئاسة الشركة إلى "صديقنا ووكيلنا المسيو فرديناند ديلسبس" وأوكل إليه أمر إدارتها مدة عشر سنوات من تاريخ سريان الامتياز (افتتاح القناة للملاحة البحرية)، وكرر التعهد بتقديم المساعدات اللازمة لها من موظفى الحكومة والعمال، وجعل للشركة وحدها الإشراف على العمال. فأين الحفاظ على مصالح مصر المالية التى يدعيها المدافعون عن ديليسبس؟ لقد جعل الامتياز من الشركة دولة داخل الدولة، ومنحها معظم أراضى الشرقية والقناة. وقد اعترف ديليسبس بذلك فى رده على مراسل صحيفة التايمز اللندنية (فى 30 أكتوبر 1855) عندما شكك المراسل فى جدوى المشروع، وفيما قد يحققه من أرباح، وزعم أن الشركة تغامر بمصالح المساهمين، فاعترف ديليسبس فى الرد أن الشركة تأخذ من الحكومة المصرية أكثر مما تعطى لها، وأن قيمة الأراضى الممنوحة لها تفوق قيمة رأس المال الذى دفعه المساهمون". فهل يعد ذلك رعاية لمصالح مصر وحفاظا على حقوقها المالية كما يزعمون؟

لقد رأت بريطانيا فى تولية إسماعيل الحكم عام 1863 فرصة لتصفية المشروع،

وخاصة أن بعض من زاروا مصر من الإنجليز سمعوا منه شكواه عن تأثير تسخير الفلاحين فى حفر القناة على العمل فى الزراعة. وأنه عند توليه الحكم أبدى تحمسه للمشروع، ولكنه اشترط أن يكون المشروع فى خدمة مصر، لا أن تكون مصر فى خدمته، وأن يرى ضرورة تعديل الامتياز الذى منحه سعيد لديليسبس فى أمرين: الأراضى الممنوحة للشركة التى جعلت منها دولة داخل دولة، وتسخير العمال المصريين فى حفر القناة بأجور تافهة وعدم الاهتمام بتوفير الرعاية الصحية لهم.

لذلك رأى إسماعيل - تأكيداً للسيادة المصرية - إبرام اتفاقين مع الشركة (18، 20 مارس 1863) تعهدت فيهما الحكومة المصرية بأن تتولى حفر الترعة العذبة من القاهرة إلى وادى الطميلات، وكانت الشركة قد حفرت الجزء الممتد من وادى الطميلات إلى بحيرة التمساح. وكان الغرض من ذلك تجنب المنازعات الخاصة بتملك الشركة للترعة وانتزاعها ملكية الأفراد من الأراضى التى يقتضيها إنشاؤها، وقد تنازلت الشركة للحكومة عن حقوقها فى ملكية الأراضى الواقعة على طول الترعة.

وفى 16 أبريل 1863 أصدر الباب العالى أمراً إلى سفيرى الدولة فى لندن وباريس وإلى إسماعيل، أعلن فيه أنه لن يوافق على المشروع إلا إذا ضمنت الدول حيدته، وأصر على ضرورة إلغاء السخرة لتأثيرها الخطير على الزراعة المصرية ومناقضتها لقوانين الدولة، وكذلك إلغاء تملك الشركة للأراضى الواقعة حول الترعة العذبة، وأعطى الأمر للشركة مهلة ستة شهور لكى تقبل هذه الشروط أو تتنازل عن العمل للحكومة المصرية.

وتعرض إسماعيل لضغوط هائلة من جانب بريطانيا وفرنسا (التى وقفت وراء الشركة). وأرسل إسماعيل وزيره نوبار باشا إلى أستانبول فى يونيو 1863 لكى يرضى جميع الأطراف (بريطانيا وفرنسا والباب العالى). وفى أوائل أغسطس صدرت مذكرة عن الباب العالى نصت على الموافقة على المشروع باعتباره ممراً بحرياً تجارياً، ولكن بشرط أن يتفق الوالى مع الشركة على استرجاع الأراضى وترعة المياه

العذبة وأن يلغى السخرة، وأعطى لإسماعيل مهلة مدتها ستة شهور للتوصل إلى اتفاق معقول مع الشركة.

وما إن علم إسماعيل بالمذكرة حتى بعث إلى ديليسبس يخبره بمضمونها، ويطلب منه التعاون مع الحكومة المصرية بصورة ودية. وبعث نوبار باشا إلى باريس لكى يبلغ شروط الباب العالى لمجلس إدارة الشركة وليواصل السعى لحل مشكلتى الأراضى والسخرة.

وشن نوبار حملة صحفية فى باريس على شركة القناة. ولكن الشركة - والحكومة الفرنسية من ورائها - رفضت مطالب إسماعيل، وألجأ مجلس الشركة إلى إمبراطور فرنسا (نابليون الثالث) للتدخل فى هذا النزاع، ورحب إسماعيل - من جانبه - بهذه الخطوة حتى تبدو أمام الرأى العام الأوربى فى موقف المؤيد للمشروع والراعى له.

وعلى ضوء هذه الوساطة، توصل نوبار إلى عقد اتفاق مع ديليسبس، وافق الأخير بمقتضاه على إلغاء السخرة وإعادة الأراضى المتنازع عليها إلى الحكومة المصرية، وتشكلت فى باريس لجنة إمبراطورية لوضع شروط التحكيم ، وافقت- من حيث المبدأ- على تخفيض مساحة الأراضى الممنوحة للشركة وإلغاء السخرة فى نظير تعويض مالى تدفعه الحكومة المصرية.

ورغم ضغط الحكومة البريطانية على السلطان الذى أصدر تعليمات إلى سفيره بباريس ليعلن اعتراضه على نصوص التحكيم، صدر حكم نابليون الثالث (فى 6 يوليو 1864) مقرراً إلغاء السخرة مع تعويض الشركة بمبلغ 38 مليون فرنك (ما يزيد قليلاً على 1.4 مليون جنيهاً مصرياً)، وتنازل الشركة عن الجزء الذى حفرته من ترعة المياه العذبة، مع حقها فى أن تأخذ منها مقداراً معيناً كل يوم حتى يتم حفر القناة البحرية، وتعفى سفنها من رسوم الملاحة فى الترعة، ووافق الإمبراطور على الاتفاق الذى كان قد تم بين ديليسبس ونوبار باشا بشأن الأراضى، وبموجبه لا

تحتفظ الشركة إلا بالأراضى اللازمة للمشروع، وقدرت بثلاث وعشرين ألف هكتار (230 كليو متر مربع)، منها 10.264 هكتار على جانبى القناة، و9.600 للترعة العذبة، و 3 آلاف لمبانى الشركة. وتقرر إعادة الأراضى التى حصلت عليها الشركة ولا يحتاجها المشروع، والتى بلغت مساحتها 60 ألف هكتار (600 كيلو متر مربع)، تقرر إعادتها إلى الحكومة المصرية مقابل تعويضات تدفعها للشركة قدرها 84 مليوناً من الفرنكات (حوالى 3.3 مليونا من الجنيهات المصرية). وبذلك تكون جملة ما حصلت عليه الشركة من تعويضات نحو 4.7 مليونا من الجنيهات المصرية، وهى أكبر عملية نصب واحتيال فى تاريخ مصر الحديث، كان بطلها ديليسبس الذى يتشدق الكثيرون بأنه كان حريصا على مصالح مصر!!، فقد حصل من سعيد على تلك الأراضى والمزايا، ثم تقاضت الشركة من إسماعيل ثمن التنازل عنها!!

وإذا علمنا أن رأس مال الشركة ثمانية مليون جنيه مصرى، ندرك حجم عملية النصب والاحتيال التى قام بها ديليسبس؛ فقد حصل من الحكومة المصرية على ما يزيد على نصف قيمة رأس المال. أضف إلى ذلك أراضى تفتيش وادى الطميلات الذى اشترته الحكومة من الشركة بعشرة أضعاف الثمن الذى دفعته الشركة من قبل لورثة إلهامى باشا.

لقد بلغت نفقات إنشاء القناة حتى افتتاحها للملاحة (نوفمبر 1869) حسب أرقام وثائق الشركة 451.656.660 فرنك (أى نحو 18 مليون جنيه مصرى، فكم تحملت مصر من نفقات فى هذا المشروع (الذى قيل: إنه مشروع إنسانى حضارى يحقق خير البشرية ويجر مصر من العصور الوسطى إلى العصر الحديث)؟!

هناك عدة مصادر للأموال التى تحملتها مصر لتنفيذ المشروع فقد أعلنت الحكومة أمام مجلس شورى النواب أن ما تحملته الخزانة من تكلفة قناة السويس نحو 16.1 مليون جنيه مصرى، وقدرت بعض المصادر المعاصرة الأخرى هذه التكلفة بمبلغ 16.8 مليوناً من الجنيهات المصرية بيانها كالتالى:

3.426.000 جنيها	قيمة أسهم قناة السويس التى التزمت الحكومة المصرية بشرائها (177.642 سهماً).
3.760.000	تعويضات للشركة بموجب قرار التحكيم.
1.200.000	تعويضات أخرى للشركة بموجب اتفاق إبريل 1869.
1.200.000	نفقات إنشاء الترعة العذبة (ترعة الإسماعيلية).
1.400.000	نفقات حفلات افتتاح القناة.
5.814.000	فوائد وسمسرة ونفقات التحكيم.
16.800.000	جنيه مصرى جملة ما تحملته مصر.

ويعنى ذلك أن الشركة لم تتحمل سوى 1.2 مليون من الجنيهات المصرية؛ أى ما يعادل 7.1٪ من جملة التكلفة، وتحملت الحكومة المصرية 92.9٪ من جملة التكلفة، ناهيك عن تكلفة قيمة العمل الذى قدم للشركة مجاناً لمدة تسع سنوات، وما تحملته الزراعة المصرية من خسائر نتيجة حرمانها من قوة عمل الفلاحين، وما تحملته الإدارة المصرية من أجور موظفيها الذين وضعتهم فى خدمة الشركة وقيمة الرسوم والعوائد الجمركية التى أعفت منها الشركة، وكلها عناصر يجب عدم إسقاطها عند حساب التكلفة الإجمالية. أما أرواح من تساقطوا من العمال المصريين أثناء الحفر فلا تدخل – للأسف – فى حسبان أحد، ربما لأن الحكومة لم تلتزم بتعويض أهل أولئك الضحايا، ولكن أرواحهم لابد أن تدخل فى حساب الخسائر التى تحملتها مصر من أجل تحقيق ذلك "الحكم الإنسانى الحضارى" المزعوم.

ولابد أن يدخل فى حساب الخسائر ما أصاب الاقتصاد المصرى من نكبات بسبب الديون التى تورطت فيها الحكومة المصرية لتفى بالتزاماتها التى كبلها بها سعيد فى الامتيازين اللذين منحهما "لصديقه ووكيله" ديليسبس، فقد عقد سعيد أول قرض ثابت فى تاريخ مصر عام 1862، بلغت قيمته الأسمية 3.242.800 جنيه إسترلينى، بينما بلغت قيمته الفعلية 2.4 مليوناً (ومثل الفرق مصاريف السمسرة) بفائدة قدرها 7٪ سنويا ولمدة ثلاثين عاما. واضطربت أحوال المالية المصرية نتيجة

التوسع فى الاقتراض (فى عهد سعيد) بموجب إصدار سندات على الخزانة. وعندما مات سعيد كانت الديون قد بلغت 11.160.000 جنيها منها 7.868.000 جنيهاً ديوناً سائرة (مقابل سندات على الخزانة). وعقد إسماعيل أول قرض ثابت فى عهده عام 1864 بلغت قيمته 5.7 مليون من الجنيهات لتمويل التعويضات التى التزمت الحكومة المصرية بدفعها لشركة قناة السويس تنفيذاً للتحكيم الذى أصدره نابليون الثالث. وعندما تفاقمت الأزمة المالية؛ نتيجة التوسع فى الاستدانة، باع إسماعيل (عام 1875) حصة مصر فى أسهم قناة السويس (44٪ من إجمالى أسهم الشركة) للحكومة البريطانية بمبلغ بخس (4 مليون جنيه استرلينى) ذهبت لسداد أقساط الديون، كما تنازل لشركة قناة السويس عن نسبة الخمسة عشر بالمائة من أرباح الشركة المستحقة للحكومة المصرية؛ بموجب عقد الامتياز مقابل قرض بسيط قيمته 22 مليون فرنك (حوالى 880 ألف جنيه مصرى)، وبذلك خرجت مصر صفر اليدين، بينما كان ديليسبس يقبع على مقعد رئاسة الشركة، ويتولى إدارة آليات ابتزاز مصر خدمة لمشروعه الإمبراطورى.

أضف إلى ذلك كله ما ترتب على شق القناة من نتائج سياسية أثبتت فراسة وبعد نظر محمد على باشا عندما رفض المشروع عامى 1835 و 1846، فقد خلقت القناة "بوسفور آخر فى مصر"، فزاد اهتمام بريطانيا بمصر والقناة التى أصبحت تعنى بالنسبة لها "شريان الحياة للإمبراطورية"، وسجلت نقطة هامة لصالحها فى الصراع مع فرنسا عندما حصلت على حصة مصر من أسهم القناة، واستخدمت الديون والأزمة المالية رأس حربة للتدخل الأجنبى الذى انتهى بالاحتلال البريطانى لمصر عام 1882 الذى ناضل المصريون من أجل التخلص منه نحو74 عاماً، ارتبط عندهم النضال من أجل التحرر الوطنى باسترداد مصر للقناة التى لعبت دوراً سلبياً فى صياغة تاريخها الحديث.

وعلى ضوء ما تقدم، يبدو غريباً ما ذهب إليه البعض من اعتبار حرص ديليسبس أن تتعهد الحكومة المصرية - فى عقد الامتياز - بشراء الحصص

المخصصة للدول فى حالة عدم إقبالها على الشراء، هو مجرد "خدمة لمصر" ورعاية لمصالحها حتى يكون لمصر النصيب الأوفر من أصول الشركة. فقد رأينا كيف ابتز ديليسبس الحكومة المصرية فى أكبر عملية نصب عرفها التاريخ، ليس فيها "شبهة" حرص على مصالح مصر، لأن التزام الحكومة المصرية بتغطية رأس المال كان إنقاذاً للشركة فى مرحلة التكوين، عندما أحاطت الشكوك بالمشروع لاعتبارات فنية وسياسية.

لقد استغل ديليسبس علاقته ببلاط الإمبراطور نابليون الثالث، وصلته العائلية بالإمبراطورة أوجينى (ابنة خالته)، وتبنيه لمشروع يخدم المصالح الإمبراطورية الفرنسية، لإيقاع إسماعيل فى فخ "التحكيم الإمبراطورى" الذى حمل مصر - كما رأينا - 92.9٪ من تكلفة القناة، وفتح للمصادر الائتمانية الأوربية أبواب مصر لتستثمر فائض أموالها فى الديون المصرية بما ترتب على ذلك من أزمة مالية وتدخل أجنبى، واحتلال، وكلها من "بركات" ديليسبس التى حلت بمصر!

ولكن ديليسبس سجل اسمه فى سجل بناة عصر الإمبراطوريات الاستعمارية بنجاحه فى تحقيق أمل فرنسا فى إقامة هذا المشروع الاستراتيجى الهام الذى تقاسمت مغانمه مع بريطانيا، واختصت مصر وحدها بمغارمه. وقدم نموذجاً فريداً لأساليب التدليس والابتزاز والنصب والاحتيال. وظن ديليسبس أن باستطاعته أن يكرر التجربة فى مكان آخر، فى بنما. فعندما عقد المؤتمر الجغرافى الدولى اجتماعه فى باريس عام 1879، وطرحت فيه دراسة عن إمكانية حفر قناة بنما لربط المحيطين الأطلنطى والباسيفيكى، تعهد ديليسبس بتنفيذ المشروع، وسارع بتكوين شركة لهذا الغرض مستثمراً "النجاح" الذى حققه فى قناة السويس، وما كسبه من شهرة واسعة فى الأوساط الأوربية. ولكن الأمور اختلفت تماماً هذه المرة، فليس فى بنما حكومة غنية يبتزها ويسلب أموالها مثلما فعل فى مصر، وليس هناك أمثال سعيد وإسماعيل، كما أن برزخ بنما مختلف فى طبيعته عن برزخ السويس. وانتهى الأمر بتصفية الشركة عام 1889 بعدما أشهر ديليسبس إفلاسها. وأجرت الحكومة

الفرنسية تحقيقاً رسمياً (عام 1892) حول تجاوزات مديرى الشركة، وقدمت ديليسبس وولده شارل إلى المحاكمة بتهمة "التدليس والتبديد"، وصدر ضدهما حكماً بالسجن لمدة خمس سنوات لكل منهما (فبراير 1893)، ولجأ ديليسبس وولده شارل إلى محكمة النقض للطعن فى الحكم، فأصدرت قرارها (فى يونيو 1893) بإلغاء الحكم وإعادة المحاكمة بسبب وقوع خطأ فى الإجراءات. وعندما أعيدت المحاكمة مات فردناند ديليسبس أثناءها، فسقطت عنه الدعوى وحكم على ابنه شارل بالسجن وحده. وكانت شركة قناة بنما فضيحة سياسية مدوية كان لها آثارها السلبية على تاريخ الجمهورية الثالثة بفرنسا، بسبب الأسلوب الذى اتبعه ديليسبس فى تكوين الشركة واعتمادها؛ فقد ثبت للمحكمة استخدامه الرشوة فى شراء ذمم بعض المسئولين فى الحكومة وأعضاء البرلمان؛ مما كان له تأثيره على الرأى العام الفرنسى، وإبراز حقيقة ديليسبس.

تلك هى صورة ديليسبس الحقيقية فى مرآة التاريخ، وهى صورة نموذجية عرفها القرن التاسع عشر؛ عصر الإمبراطوريات الاستعمارية، صورة المغامر الأفّاق، الذى يتقن أساليب الاحتيال والابتزاز. اكتشف قومه حقيقته عندما تعرضوا هم أنفسهم لتدليسه فى مشروع قناة بنما، ومات مكللاً بعار تلك الفضيحة تاركاً ابنه فى السجن.

ومن الغريب - أيضاً - أن يذهب المنحازون لديلسبس إلى اعتبار اختيار جمال عبد الناصر لاسم ديليسبس كلمة السر التى يتحرك فريق التأميم عند سماعها فى خطابه (26 يوليو 1956) ليضعوا أيديهم على مقر الشركة، إنما قد جاء رداً للاعتبار لرجل نسيه الجميع. وفاتهم مراجعة نص الخطاب، فلم يستخدم عبد الناصر اسم ديليسبس خارج إطاره الحقيقى الاستعمارى، فلم تكن لعبد الناصر سذاجة سعيد أو تخاذل إسماعيل.

* * *



إشكالية
الترجمة

الأوامر والمنشورات ثنائية اللغة
زمن الحملة الفرنسية

أ. د. مديحة دوس

تعد فترة الحملة الفرنسية على مصر من الفترات الثرية بالوثائق التى تحمل لنا مادة هامة لدراسة فترة الاحتلال الفرنسى من نواحيها التاريخية والحضارية بشكل عام. فاعتمد تأريخ هذه الفترة على مصادر وثائقية مكتوبة باللغتين، معظمها بالفرنسية وبنسبة أقل بالعربية. ولا شك أن الكتابات عديدة ومتنوعة منها المذكرات والمراسلات والمكاتبات الإدارية المختلفة. فبالنسبة للمصادر الفرنسية فقد صدرت عن رجال الجيش من الرتب المختلفة، تبادلوا فيها المعلومات والآراء وقدموا التقارير حول مجرى الأحداث العسكرية وما أحاط بالاحتلال الفرنسى من ظروف وأحوال.

تمثل بعض هذه الكتابات فى مراسلات، معظمها ذات طبيعة رسمية وبعضها خطابات تبادلها الجنود مع أفراد عائلتهم، إلى جانب التقارير والبيانات والأوامر الموجهة إلى الشعب المصرى بمختلف فئاته، ذلك عن الجانب الفرنسي؛ أما عن الجانب المصرى، فهناك أيضاً من الكتابات ما استخدم فى دراسة الفترة فى جوانبها المختلفة: فمن الوثائق الهامة الخطابات التى تبادلها مراد بك مع الجنرال دانزيلو Donzeleau [1]، التى كشفت عن حقيقة دور الأمير المملوكى فى جنوب مصر، وأوضح طبيعة العلاقات المعقدة بين الجيش الفرنسى والمقاومة لهذا الاحتلال فى

الصعيد. وهناك من الوثائق تلك التى صدرت باللغتين الفرنسية والعربية، أى النص الأساسى وترجمته. وكانت الترجمة تتم ليتحقق التواصل بين الطرفين، فهناك البيانات والأوامر التى كانت تصدرها القيادة السياسية والعسكرية والتى كان يقوم المترجمون بنقلها لتصل إلى المصريين من عامة الناس أو من بعض الفئات مثل عمد وشيوخ البلاد؛ وكذلك تترجم الخطابات بأنواعها المختلفة من الشكاوى والالتماسات التى كان يصيغها المصريون لتوصيلها إلى المحتل الفرنسى. وتظهر أهمية هذه النصوص لدراسة اللغة والخطاب، فمن الناحية اللغوية تكمن الأهمية أساساً فى المستوى اللغوى الذى نجده فى الجزء المصاغ بالعربية كما سأحاول توضيحه، أما على مستوى دراسة الخطاب، فمن الأهمية ملاحظة الفروق التى قد تظهر بين الأصل وترجمته لما تكشف عنه هذه الفروق من أهداف سياسية ضمنية، سأتناول فى هذه الدراسة الجانب اللغوى فقط تاركة لدراسة أخرى مسألة تحليل الخطاب.

* * *

منذ اليوم الأول لوصول الأسطول الفرنسى لجيش الاحتلال إلى بر مصر فى يوليو 1798 بدأت الإدارة الفرنسية تصدر بياناتها وأوامرها بشكل منتظم وبخصوص كل ما كان يحدث فى القاهرة أو فى أقاليم مصر بشكل عام أثناء السنوات الثلاث للاحتلال الفرنسى لمصر. فالبيان الأول هو البيان الشهير الذى أصدره بونابرت وترجمه فينتور دى بارادى Venture de Paradis يوم وصول الأسطول الفرنسى إلى شواطئ الإسكندرية معلناً فيه الأهداف المزعومة للحملة من الرغبة فى انتشال مصر من حكم المماليك الذين هددوا تجارتهم كما جاء فى نص البيان: "يتسلطوا فى البلاد المصرية يتعاملوا بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية"[2]... إلى آخر ما جاء فى هذا البيان الشهير والذى تلته العشرات من البيانات والأوامر المصاغة باللغتين الفرنسية والعربية. ومن نماذج هذه الكتابات بيان صدر لتكذيب إشاعة انتشرت فى البلاد عن وصول جيش من القوات العثمانية

إلى بر مصر وجهه الجنرال فريان Friant إلى شيوخ البلاد والبنادر[3]، أوخطاب موجه من الجنرال منوMenou عندما كان يشغل منصب حاكم رشيد إلى ديوان تجار المدينة ، إلى جانب بيانات تحمل أوامر إلى سكان مدينة بعينها تكلفهم بمهام معينة مثل تنظيف الشوارع أو كنسها، والتهديد بالعقاب ودفع الغرامة لمن لم يفعل، والبيانات والأوامر التى تهدف إلى تنظيم العمل فى ظروف الاحتلال مثل إحلال صرافين وقبانية جدد، وتحديد عددهم، إلى جانب الشروط الجديدة التى يوجب استيفاؤها إلى آخر ذلك. وكانت هذه البيانات والأوامر تصاغ بالفرنسية ثم يتم ترجمتها إلى العربية بواسطة المترجمين المعينين للعمل مع الإدارة الفرنسية.

وتحاول هذه الورقة تقديم بعض الملاحظات حول هذه النصوص المزدوجة أو الثنائية اللغة، وتقوم الملاحظات حول محورين، الأول فى وصف وتحليل الأشكال اللغوية للعربية الممثلة فى تلك النصوص، ثم فى المحور الثانى بعض الملاحظات حول المترجمين الذين صاغوا هذه الأوامر والبيانات إلى العربية وكذلك وضع اللغة الوسيطة فى هذه الفترة. ومن الجدير بالاهتمام أن هؤلاء المترجمين ترجع أصولهم إلى رافدين، رافد فرنسى (من المستشرقين)، ثم رافد مكون من أفراد من سكان مصر الأصليين من الشوام أساساً. حاولت تحليل ماهية الدور الذى لعبه هؤلاء المترجمون على المستوى الثقافى إلى جانب المستوى اللغوى.

يقوم المحور الأول على دراسة لغة البيانات والأوامر، ورصد أهم السمات اللغوية للغة العربية التى تظهر فى هذه النصوص. لم تهتم الورقة بجانب اللغة الفرنسية، ويكفى الإشارة إلى أن فرنسية هذه النصوص قريبة من المعيار الصحيح المقنن لتلك الفترة، وليست بها سمات مميزة من الجانب اللغوى، وإن كانت لا تخلو من خصائص معينة من حيث الأسلوب، على أن ذلك ليس محل دراسة هذا البحث.

تمثل هذه النصوص نموذجا من اللغة التى اصطلح المتخصصون بتسميتها بـ "اللغة العربية الوسيطة" أو "المتعددة الطبقات" إشارة إلى كونها تحتوى على جوانب

من الفصحى الصحيحة أو الخاضعة للمعايير المضبوطة، وكذلك جوانب من الفصحى الخاطئة أو المبتعدة عن المعيار الصحيح، إلى جانب عبارات وتركيبات من العامية. يطلق على النصوص التى تُظهر هذا المزج بين المستويات مصطلح اللغة الوسيطة وذلك بصرف النظر عن الفترة التى كتبت فيها، فتصنف من العربية الوسيطة كذلك الكتابة الممثلة فى الرسائل المتبادلة[4] بين أفراد عاديين من المجتمع المصرى فى العصور الأولى للوجود العربى فى مصر. أى أن العربية الوسيطة هى وسيلة الاتصال الكتابى لأفراد عاديين من المجتمع لا تمثل الكتابة بالنسبة لهم جزء من مهنهم فيستخدمون لغة بسيطة لا تخلو من الأخطاء وفقاً لمعايير اللغة الصحيحة، وتقترب من الأسلوب الشفاهى فى بعض الأحيان.

وهناك نصوص أخرى كثيرة من نفس فترة الحملة ظهر فيها هذا النموذج اللغوى. فنجده فى مراسلات الأمير مراد بك التى أشرت إليها من قبل، وكذلك فى بعض الحوليات التى أرخت لنهاية القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر، مثل حولية القينلى المعروفة باسم وقائع مصر القاهرة[5] لمصطفى إبراهيم المداح القينلى، وكتاب الدرة المصانة[6] للأمير أحمد الدمرداشى. ومن الجدير بالإشارة أن عبد الله النديم كان رافضاً لهذا النموذج اللغوى ناقداً له؛ مفضلا استخدام "العامية" بدلاً منه. وكتب نديم، فى عدد من مجلة "الأستاذ "[7] التى كان يصدرها ينتقد هذه اللغة المليئة بالأخطاء، وينسب هذه الكتابات التى تحتوى على "عبارات واصطلاحات مستهجنة"، إلى تأثير اللغة التركية، وعلل ظاهرة انتشار الكتابات من هذا النوع باستخدام اللغة التركية فى الإدارة المصرية لفترات طويلة قبل إنشاء المدارس فى عصر محمد على.

وكان لوجود بعض سمات العامية فى هذه النصوص سبباً فى اعتبارها تنتمى إلى العامية أواللغة "الدارجة"، على الرغم من الفروق الكبيرة التى توجد بين الوسيطة والدارجة. فبينما العامية هى لغة، أو وسيلة اتصال عفوى، نسقى، يكون النموذج الوسيط مكونا من سمات متفرقة تنتمى إلى مستويات متعددة: فالعامية لغة منطوقة،

منظمة تتبع لنسق محدد فى الأصوات، والمفردات، والتراكيب، على عكس النموذج الوسيط الذى يتبع نظم مختلفة، ففى بعض المواقع نجد الصيغة تطابق قواعد الفصحى أو تقترب منها، وفى مواضع أخرى تكون العامية هى السائدة، وذلك بشكل غير متوقع أو منظم. فالنتوقف عند نموذج من هذه الكتابات من كتاب "الدرة المصانة" لنلاحظ هذا التأرجح بين الفصحى والعامية فى استخدام أدوات الاستفهام فى العبارات الآتية من النص: "قال القاضى لماذا؟"[8]، ثم "أنتم إيش؟"، وفى نفس النص تتأرجح صيغ مختلفة فى التعبير عن النفى، فتارة تظهر الصيغة العامية، وتارة تظهر فى مثل: "أنا ما أطلعشى إلا بفلوس"، وتارة يستخدم الكاتب الصيغة الفصحى وإن كانت فى غير موضعها الصحيح: "لأن يومها لم فى مصر سنجق"[9].

اختلف الباحثون حول العوامل التى أدت إلى نشأة هذا المستوى اللغوى، ففى البداية نسب هذا التبدل أو التحول بين المستويات إلى عدم إتقان الكاتب قواعد الفصحى؛ أى أن الكاتب كان يُفترض أنه غير متحكم فى كتابة الفصحى، ولهذا السبب يأتى إنتاجه ركيكاً أو وسيطاً، ولكن اكتشف الباحثون أن كثيراً ممن كانوا يكتبون نصوصا على النموذج الوسيط كانوا أيضاً قد كتبوا أو ألفوا بالفصحى الصحيحة[10]، مما يعنى أن الكتابة بهذا الأسلوب ناتج فى مواضع كثيرة من اختيار حر متعمد، حتى يأتى الخطاب بسيطا سلسا بعيدا عن التفاصح الزائد. وبصرف النظر عن كون الكاتب يتقن أو لا يتقن الفصحى فيظل هذا النموذج الأسلوبى المعروف "باللغة الوسيطة" مستخدماً من أفراد مختلفين، ينتمى البعض منهم إلى فئة المتعلمين والبعض الآخر إلى أنصاف المتعلمين semi lettrés، من أمثلة ذلك كتابة مصطفى إبراهيم القينلى الذى أشرنا إليه من قبل، والذى كان يشغل منصبا بسيطا فى إحدى الفرق العسكرية العثمانية مما سمح له بمتابعة الأحداث ثم روايتها دون أن تكون الكتابة مهنته.

أما عن أهمية هذا النموذج أو المستوى اللغوى فيمكن تلخيصه فى الآتى: يمكن

اعتبار نصوص النموذج الوسيط الشكل الكتابى المتبع فى الكتابات العادية التى تقع بين النصوص الأدبية والرسمية من جانب، والكتابات الشعبية والعامية من جانب آخر، إنه المستوى المتوسط الذى يمكن تشبيهه "باللغة الوسطى" المنطوقة اليوم فى وسائل الإعلام المختلفة وفى بعض المنتديات الثقافية، مثل الندوات السياسية والثقافية... إلخ. ففى هذه المناسبات لا تستخدم الفصحى الخالصة ولا العامية بل مستوى بينى، اعتدنا سماعه وممارسته، وبدأ يظهر أيضاً فى الكتابة الصحفية وفى وسائل الاتصال الإلكترونى، حيث نجد الأسلوب يجمع ما بين تركيبات من كلا المستويين الفصيح والعامى، ربما كان نموذج "العربية الوسيطة" هو ما يعادل اليوم (من حيث الوظيفة اللغوية) "العربية المعاصرة" أو "الفصحى الحديثة" لعصور مختلفة حتى عصر النهضة فى القرن التاسع عشر حين بدأ التقنين اللغوى يلفظ هذا الشكل الوسيط وينبذه.

أما عن بعض سمات لغة الأوامر والبيانات فيمكن تلخيصها فى بعض السمات الإملائية، ثم الصرفية والنحوية (أو الأخطاء إذا أردنا اتباع التسمية الشائعة أو التى يستخدمها غير المتخصصين).

الإملاء:

- كتابة الألف المقصورة فى صورة ألف كما يرد فى الأمثلة الآتية: "يرا، امتضا".
- فى معظم الحالات لا وجود للهمزة: "دايماً، أعدايهم، وضايفهم".
- الخلط بين التاء والتاء المربوطة: "مراكب حرب فرنساوية وردت بثغر رشيد".

بعض السمات الصوتية:

- تحول الأصوات الأسـنانية dental [11] إلى أصوات لثوية alveolar [12] : "ينضف، تنضيف، وضايفهم، ياخد".
- إلى جانب بعض الأخطاء الإملائية مثل كتابة كلمة عثمانى بالصاد "العصمالية (فريان) أو -إبدال الضاد بالدال مثل: "بعد كلام كذب".

بعض السمات الصرفية -النحوية:

- تعريف المضاف: "والإمبراطور النمساوى" (Menou 13) [13]، "هذه الزمرة المماليك" (Proclamation).
- صيغة المنصوب مكان المرفوع: "إن جميع الناس متساويين" (Proclamation)، "ورد لنا خبرا صحيح" (Menou 9)، "لا يستنى أحدا" (Proclamation).
- صيغة المضارع محذوف النون على غرار الصيغة العامية: "يظلموا تجارها، يفسدوا فى الأقاليم، يتسلطوا فى البلاد" (Proclamation).
- استخدام صيغة الجمع فى مكان المثنى: خلصتما، أعطيتما، منعتما... أرشدتم (Menou 9).
- المبنى للمجهول يأتى فى صيغته العامية: "كل قرية التى تقوم على العسكر الفرنساوى تنحرق بالنار" (Proclamation) "فهذا الامر ينطبع" .(Menou 8)
- على غرار العامية، كثيراً ما يستخدم الضمير أمام الفعل: "قلت لكم أيضا أنا أعذب بالموت القتالين"، "فيا أهالى بر مصر ومصر القاهرة أنى أنا أدعيكم بتفليح" (Menou 6). فى بعض نماذج الكتابات الوسيطة يستخدم الضمير فى صيغته العامية، رأينا ذلك فى مراسلات مراد بك، وذلك على عكس البيانات والأوامر اليومية التى نحن بصدد دراستها؛ مما يؤكد ما أشرنا إليه فى بداية هذا التقديم من أن من خصائص اللغة الوسيطة التنوع والتبديل.
- بالنسبة "لاسم الإشارة" فإن كانت الصيغ التى تظهر بها تنتمى إلى الفصحى (هذا، هذه) إلا أنها لا تتبع قواعد المطابقة من حيث الجنس أو العدد كما يظهر فى الأمثلة التالية: "رأس ذلك المفسدين ترمى فى تلك الساعة"(الجبرتى1) ، "ذلك الأخبار" (الجبرتى 2)؛ أما من حيث موضع اسم الإشارة فهناك بعض الأمثلة القليلة لاسم الإشارة الذى يسبق الاسم: "ويا أهالى مصر فانتبهوا وتذكروا ذى الكلمات" (Menou 15) .

- الشيء نفسه الشيء ينطبق على "اسم الموصول" الذى يظهر غير متبدل ولا يتبع المُحال عليه antécédant فى بعض المواضع: "بأنكما خلصتما ثلاثة فرنساوية الذى تكسرت مركبهم". وأما الملاحظة الثانية بخصوص اسم لموصول هو أنه يستخدم فى بعض المواضع حيث لا ضرورة له: "كل قرية التى تقوم على العسكر الفرنساوى تنحرق، كل قرية التى تطيع للعسكر الفرنساوى الواجب عليها نصب السنجاق الفرنساوي" (Proclamation)، "أناس اللذين هم من الأشقياء والمفسدين" (Menou 15). وغالبا ما يكون هذا الاستخدام ناتج عن تأثر اللغة العربية بالصيغة الفرنسية: « Chaque village qui se révolte contre les soldats français sera brûlé ».

- وأخيراً استخدام النفى بصيغة لا تنتمى إلى الفصحى ولا العامية مثل: "لم كنا نحب انقطاعها" (Kléber)، "لم كانوا معنين"(Rosette).

تلخيصاً للملاحظات حول الاستخدام اللغوى:

- غياب السمات العامية الصرفة: غابت عن النصوص المترجمة إلى العربية من السمات العامية الصرفة، فمثلاً لا وجود لحرف الباء الذى يسبق الفعل المضارع ويجعل الفعل يعبر عن الحاضر المتزامن مع زمن الحديث، وكذلك فلا وجود للصيغة العامية لاسم الموصول "إللي"، أو مجموعة أسماء الإشارة العامية .

إذن فهذه النصوص مثلها مثل أى نص ينتمى إلى نموذج "اللغة الوسيطة" تتجنب السمات الواضحة للعامية، وبذلك تظهر النزعة إلى الارتفاع بالمستوى اللغوى، كما سبق أن قلنا؛ فالنموذج الوسيط يتميز بعدم التجانس أو الجمع بين عناصر لغوية من مستويات مختلفة.

- ظهور تركيبات منقولة من الفرنسية كالأمثلة التى ذكرتها من قبل مثل استخدام الجملة الموصولة دون داع إليها. وغالبا ما يمكن أن ننسب ذلك إلى تأثير اللغة الفرنسية والترجمة الحرفية للصيغ والتراكيب الفرنسية، يمكن القول إن أهم ما

يميز هذه النصوص عن النماذج الأخرى من اللغة الوسيطة هو هذا التأثير للترجمة.

نتناول فى المحور الثانى النصوص المزدوجة اللغة، وهى قضية الترجمة أو المترجمين الذين قاموا بصياغة هذه النصوص ونقلها من الفرنسية إلى العربية. وفى هذا المحور حاولت الدراسة تحديد التدريب أو التعليم الذى ناله هؤلاء المترجمون. وبداية يجب توضيح أن هناك نوعين من المترجمين، الأول ممثل فى المترجمين الفرنسيين الذين أتوا مع أعضاء الحملة ورجالها، فى صفوف العلماء والإداريين، ومن ناحية أخرى هناك المترجمون المحليون ومعظمهم من الشوام المقيمين فى مصر. والهدف من رصد سريع للسيرة الذاتية لبعض هؤلاء المترجمين هو تحديد وضع اللغة المستخدمة وفهم تشابه الإنتاج اللغوى لكل من الرافدين المحلى والفرنسى.

فمن المجموعة الثانية أخذت نموذج الأب رفائيل أنطون[14] وهو من أفراد الجالية السورية المقيمة فى مصر. ولد رفائيل أنطون فى القاهرة عام 1759 فى عائلة من الروم الكاثوليك من أصل حلبى. ألمّ بتعليم متوسط فى اللغة العربية، ثم دخل الدير فى الخامسة عشرة من عمره، تعلم اللغة الإيطالية عندما سافر إلى روما فى سلك الرهبنة، وكانت الإيطالية هى اللغة الأجنبية التى أتقنها الأب رفائيل، (فهى اللغة التى استخدمها لمخاطبة بونابرت فى فترة سالفة)، وتعلم الفرنسية بعد الإيطالية. عاد إلى مصر عام 1794 ودخل فى خدمة الإدارة الفرنسية فى ذلك الحين، فنجده عضواً فى المعهد الفرنسى كمترجم، ثم كمترجم أول فى ديوان القاهرة، كما ظهر فى جلسات الديوان الخاصة بشهرى نوفمبر وديسمبر (فى جلسات الديوان) [15]، إلى جانب الخواجة إلياس فخر الذى عمل كترجمان ثانٍ. ويوصف الخورى رفاييل بأنه "رجل موفق مكمل"، والترجمان الثانى بأنه "مشهور بالإتقان والعقل". وإلى جانب دوره كمترجم أول للديوان كان الأب رفائيل مكلف بترجمة البيانات والقرارات، وبالتالى نعلم أن بعض البيانات والأوامر المشتركة هى من صياغته، ومن الجدير بالذكر أن أهمية دور رفائيل زادت فى زمن منو Menou . غادر

رفائيل مصر بعد جلاء القوات الفرنسية مثل آخرين من الذين تعاملوا مع الإدارة الفرنسية. وفى فرنسا قام بالتدريس فى مدرسة اللغات الشرقيةLangues orientales وكان مكلفاً إلى جانب تدريس اللغة الدارجة Arabe vulgaire بترجمة بعض المخطوطات العربية الموجودة فى المكتبة الوطنية[16]. ومن ضمن ما ترجمه فى الفترة التى قضاها فى فرنسا أشعار لافونتين La Fontaine، وكذلك بدأ فى تأليف كتاب لتدريس اللغة العربية لطلاب المدرسة الشرقية ممثل فى قصة سندباد البحرى[17]. ويجدر السؤال هنا حول مفهوم اللغة الدارجة فى ذلك الوقت وهل كان يقصد بهذه التسمية نفس ما نعنيه اليوم عندما نتحدث عن الدارجة أو العامية؟ سوف نعود إلى هذا السؤال بعد قليل، لكن بداية أريد أن أثير بعض التساؤلات التى تطرحها شخصية الأب رفائيل.

السؤال الأول حول رفائيل أنطون كفرد من مجموعة أو طائفة الشوام الذين هاجروا واستقروا فى مصر، والسؤال بالتحديد هنا يدور حول علاقته بالعربية، كيف تعلمها وما هى الأشكال التى كان يستخدمها؟ كيف تعلم العربية فى طفولته؟ وهل كان صغار الشوام يترددون على كتاتيب كأمثاله من المسيحيين الأقباط أم أن كانت لهم كتاتيبهم الخاصة؟ أم أن التعليم كان يتم فى الإطار العائلي؟. من المعروف أن الشوام وفدوا إلى مصر فى فترات مختلفة منذ القرن الثامن عشر وحتى القرن التاسع عشر، وإذا كانت اللغة قد مثلت عنصراً من عناصر الالتصاق والتضامن فى عصر النهضة كما أوضح الباحثون، فكيف كان الحال فى زمن رفائيل أنطون الذى سبق النهضة؟ إن البحث عن إجابة لهذه الأسئلة يقودنا إلى التفكير حول التكوين اللغوى لهذا الرجل الذى أخذناه كنموذج لمترجمين أو ترجمانات هذه المرحلة. وفى النهاية فنحن نحاول فهم استخدام رفائيل للمستوى الوسيط أو المتعدد الطبقات، هل كان ناتجا عن اختيار أم عن قصد؟

يمثل رفائيل أنطون فرداً ضمن مجموعة أوسع تشمل أسامى أخرى مثل يوسف مسابكى وإلياس فخر الذى ذكرته من قبل. الظروف نفسها تجمع بين هؤلاء

الرجال الذين وجدتهم الإدارة الفرنسية أثناء دراستهم للاهوت فى روما ووظفتهم فى خدمة الحملة.

أما السؤال الثانى الذى يطرحه نموذج هذا الرجل فيتعلق بتدريس اللغات الشرقية فى فرنسا وفى مدرسة اللغات الشرقية تحديداً، وكما أشرت من قبل ما الذى كان يعنى بالعربية الدارجة؟

من المعروف أن الترجمة العربية للبيانات والأوامر اليومية الفرنسية كان الهدف منها هو الوصول إلى عامة الناس بحيث "تقترب" هذه الإخباريات "من فهم العامة".

أما الرافد الفرنسى من المترجمين فتكون من أسماء كثيرة وردت ضمن أفراد رجال الحملة ومنهم: فانتور دى بارادى وأدانسون Adanson الذى تلاه كقنصل وترجمان، ثم أستيون سيلف Astion-Sielve والذى كان ينحدر من عائلة من الترجمانات، كما كان من المعتاد فى هذه الفترة حيث كانت تورث المهنة من الأب لأبنه. من المترجمين الذين صاحبوا الحملة يمكن ذكر جوبير تلميذ سيلفستر دى ساسى Sylvestre de Sacy إلى جانب براتشيفيتش Bracevich ولوماكا l'Homaca الذين كانوا أعضاء فى لجنة مترجمى المعهد المصرى والذين قاموا بترجمة نصوص هامة من ضمنها محاكمة كليبر ووثائق أخرى من زمن الحملة.

تناولنا نموذجاً للرافد المحلى يتعين أن نرصد مشوار أحد أهم الترجمانات الفرنسيين وهو فانتور دى بارادى. ترجع أهمية فانتور إلى كونه من أهم مترجمى الحملة إلى جانب أنه يمثل الحالة النموذجية لمهنة الترجمان.

ولد فانتور عام 1739 فى مارسيليا من والدة يونانية، كان والده كما ذكرت ترجماناً عمل فى بعض قنصليات المغرب، وفى الثانية عشرة من عمره أُرسل إلى العاصمة للدراسة فى مدرسة شباب اللغات كما كانت تسمى، تعلم فيها التركية والعربية كما كان متبع فى ذلك الحين. بدأ طريقه كمترجم وسياسى عام 1757 مما

قاده إلى القسطنطينية وصيدا والقاهرة حيث خدم لمدة ثمانى سنوات كترجمان. وهو الذى ترجم نص البيان الأول للجيش الفرنسى المشهور Proclamation والذى قمت برصد بعض سماته.

يثير موضوع المترجمين الفرنسيين أسئلة أخرى إلى جانب الأسئلة التى طرحناها بخصوص المترجمين المحليين، ومن هذا الأسئلة أو التساؤلات:

ما الذى نعرفه عن إلمام هؤلاء المترجمين بالعربية؟ من المعروف أن معظم المترجمين كانوا قد تعلموا الفصحى، والكثير منهم تتلمذ على يد Sylvestre de Sacy وهو من أوائل المستشرقين الفرنسيين وكان de Sacy يشغل فى عام 1795 كرسى تدريس اللغة العربية بشقيها الفصحى والعامية، وإن كان المترجمون فى تعليمهم أو تدريبهم قد ألموا بمبادئ الفصحى فما مدى معرفتهم بالعاميات، وما مدى وعيهم بالفروق بين العاميات المختلفة؟ فالتدريس فى مدرسة اللغات الشرقية كان يهتم بالفصحى دون اللهجات التى كان ينظر إليها بنظرة ازدراء وإهمال، وإن كان من ينوى التوجه نحو بلاد المشرق أو الغرب العربى يحتاج إلى دراسة شىء من العاميات حتى يتمكن من مواصلة الاتصال بالناس. يكتب المستشرق مارسيل[18]: "عندما وصلت إلى الإسكندرية منذ أربعين عاماً، وعلى الرغم من أننى كنت نجحت فى تعلم اللغات الشرقية فى باريس باجتهاد وعلى يد أساتذة أجلاء، إلا إننى شعرت بخيبة أمل إذ إننى كنت أفشل فى التواصل مع الخادمين العرب، فلا أنا أفهمهم ولا هم يفهموننى. على الرغم من أن الشيوخ والعلماء المتبحرين فى العربية الفصحى كانوا يفهموننى، لكنهم كانوا يقروا أننى أتحدث مثل الكتاب [...]، فأسرعت لدراسة "اللهجة الدارجة"Arabe vulgaire وهى الوسيلة الوحيدة التى يمكن التفاهم بها". هكذا كان يعلم المترجمون الفرنسيون أن النصوص كان يجب ترجمتها إلى "اللغة الدارجة" حتى تكون مفهومة من العامة.

فى النهاية يمكن تلخيص ما سبق فى أن هؤلاء المترجمين من القوميتين (الفرنسية، والمحلية) ساهموا فى إثبات اللغة الوسيطة التى أشرنا إليها باستخدامهم لها فى إطار

التعاملات الرسمية والتى تتمتع بالشرعية. لقد استمر هذا الأسلوب متعدد الطبقات شائعاً فى الاستخدام حتى نهاية القرن التاسع عشر عند ظهور حركة النهضة كما أشرنا بخصوص دور عبد الله النديم ورأيه فى اللغة الوسيطة.

تساهم الدراسات حول النصوص الوسيطة فى فهم تطور اللغة العربية بمستوياتها المتعددة، وتكشف لنا كيف تطورت لغة الاتصال فى الوظائف والظروف المختلفة. وأما النصوص التى قمت بتحليلها فى هذا البحث الوجيز فتتميز بكونها منقولة من لغة أخرى، فهى تظهر إلى جانب الخصائص المعروفة للغة الوسيطة بعض السمات التى تعود إلى تأثير اللغة الأصلية المترجم منها إلى العربية كما أشرنا بالنسبة للمستشرقين. من جانب آخر حاولت فى هذا البحث تناول مسألة أصحاب هذه الكتابات من المترجمين بدل الوقوف عند إنتاجهم اللغوى فقط، فتناولت أصولهم وكفاءتهم اللغوية لمحاولة فهم ماهية هذه اللغة الوسيطة وتعدد أنواعها. فاللغة ليست إنتاج مجرد من الظروف المحيطة الاجتماعية والثقافية والتاريخية المحيطة بها بل هى نتاج يتمخض من عوامل متشابكة ومركبة. وختاما أريد الإشارة إلى أهمية البحث اللغوى حول النصوص التاريخية لما فى ذلك فائدة لكل من التخصصين.

الهوامش

(1) Nassir soliman: L'Amir et le Gdénénal, province Girgâ à travers les correspondances de Mûrad bey », dans L'expédition de Bonaparte, vue d'Egypte, *Egypte/Monde arabe* , [p. 71- 98], CEDEJ 1999.

(2) عبد الرحمن الجبرتى، تاريخ مدة الفرنسيس بمصر، تحقيق وترجمة ش. موريه، ليدن 1975، ص7 إلى 10.

(3) Archives historiques du Ministère de la Guerre. وانظر[1] صورة هذا البيان فى ملحق الدراسة.

(4) *Marchands d'étoffes du Fayyoum au IIIe/Ixe siècle d'après leurs archives (actes et lettres)*, par Yusuf Ragib, vol. II, Les Banu 'Abd Al-Mu'min, Le Caire, 1992.

سأورد كنموذج من هذا المستوى اللغوى الجملة الآتية المأخوذة من إحدى الرسائل التى تبادلها أفراد عائلة بنى عبد المؤمن، يكتب أحد أفراد العائلة رسالة إلى أخته قائلاً ص 19:"كتبتى أكرمك الله تذكرى أمر المنزل ومن يدخله فليس تم الا خير اسأل الله أن يجمع بيننا وبينك فى عافية"، "أبو الفضل يقريك السلم كثيرا وعلى ابو هريرة أبقاه الله السلم وليد وحبيب يبلغوك السلم" إلخ

(5) M. Doss, *L'arabe en Egypte. Etude évolutive d'une langue de relation*, Thèse de Doctorat, Paris 3, 1991.

(6) كتاب الدرة المصانة تأليف الأمير أحمد الدمرداشى، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، IFAO القاهرة 1989.

(7) عبد الله النديم، مجلة الأستاذ، "اللغة والإنشاء"، بتاريخ 11 أكتوبر 1892.

(8) الدرة المصانة ص. 51، 48.

(9) نفس المصدر ص 23.

(10) من أشهر الأمثلة لذلك عبد الرحمن الجبرتى.

(11) الصوت الأسنانى هو "صوت أو صفة لصوت ينطق بملامسة أسلة اللسان الأسنان العليا" مثل th فى اللغة الإنجليزية. التعريف من معجم المصطلحات اللغوية إنكليزي-عربى، تأليف رمزى منير بعلبكى، بيروت 1999.

(12) الصوت اللثوى هو "صوت أو صفة لصوت ينطق بملامسة جزء من اللسان طرف اللثة أو باقترابه منه، مثلاً [t] [d]".

(13) جميع البيانات والمنشورات الصادرة من الجنرال مينو مودعة فى أرشيف فانسن تحت رقم : B6 121) المستخدمة فى هذا المقال.

(14) لقد تناولت أكثر من دراسة شخصية وحياة رفائيل أنطون منها دراستين قام بهما شارل باشاتلى:
Charles Bachatly, « Un manuscrit autographe de Don Raphaël, membre de l'Institut d'Egypte (1798), pp. 27-35, *Bulletin de l'Institut d'Egypte*, tome XIII, sessions 1930-1931, Le Caire 1931.

« Un membre oriental du premier Institut d'Egypte : Don Raphael (1759-1831), 237-240, *Bulletin de l'Institut d'Egypte*, tome XVII, sessions 1934-1935, Le Caire 1935.

من جهة أخرى تناول جمال الدين الشيال هذه الشخصية المثيرة فى كتابيه حول تاريخ الترجمة: تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية، القاهرة، ص 43، وكذلك فى تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على، ص74إلى 83، القاهرة 1951.

(15) التاريخ المسلسل فى حوادث الزمان ووقايع الديوان (1800-1801)، لإسماعيل الخشاب، حققها د. محمد عفيفى والأستاذ أندريه ريمون، القاهرة 2003.

(16) جمال الدين الشيال، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على، القاهرة، 1951 يذكر الشيال ص 76 أن هذه الترجمات "كانت تتجه لإعداد مواد تفيد منها اللجنة التى كانت تعمل لإخراج المؤلف الكبير_وصف مصر" وإن لم يذكر أى عنوان مؤلف من هذه الترجمات.

(17) بشاتلى: المصدر السابق،ص 256.

(18) J.J. Marcel, *Dictionnaire français-arabe des dialectes vulgaires d'Alger, d'Egypte, de Tunis et du Maroc*, Paris, 1869.

* * *

Allah, Au nom de (de) Dieu
Clément et Miséricordieux

[illegible] part de la Division Friant
commandant le 5e arrondissement

aux Cheikhs
des villes et villages de
l'arrondissement

[illegible] que le faux bruit [illegible]
[illegible] Pacha, [illegible]
[illegible] arrivé au Kaire [illegible]
[illegible] motif avait [illegible]
le payement de vos contributions,
[illegible] que les français ne
craignent point l'armée Ottomane
[illegible] Maître de l'Egypte
[illegible] puissance [illegible]
[illegible] qu'ils savent
[illegible] et vaincre, le Meilleur
parti que vous ayez à prendre [illegible]
obéir sans crainte et de ne jamais
[illegible]

Friant

Il vous a été fait bruit [illegible] répandu
[illegible] que le grand Vizir était arrivé au Kaire
avec son armée, et que ce motif avait suspendu le
payement de vos contributions ; vous devez savoir que les français
ne craignent point l'armée Ottomane, qu'ils sont maîtres de
l'Egypte, que aucune puissance orientale ne peut les en
chasser, qu'ils savent la battre et vaincre. Le Meilleur
parti que vous ayez à prendre est d'obéir sans crainte et de
ne jamais [illegible] leur [illegible].

من قائمقام الجمهور الفرنساوي
بسم الله الرحمن الرحيم
من طرف حضرة امير الجيوش الفرنساويه
وحاكم خامس اقاليم المصريه جنرال فرياه
الى جميع مشايخ بلاد وبنادر هذا الاقليم
نعلمكم ان حضر فيما بينكم بعض كلام كذب
وهو ان الوزير باشا جا هو وعساكره على
بر مصر وهذا سبب تأخيركم عن دفع المال
الذي عليكم فاعلموا ان الفرنساويه يخافوا
من عساكر العثمانليه وعلموا ايضا انه كل
بر مصر هو في يدهم ولا احد من عساكر
المشرق يقدر يطردهم لانهم يعرفون
يحاربوا ويهزموا اعداهم فالاحسن
لكم ان تكونوا بالطاعه من غير خوف
ولا تصدقوا في اسما اعداهم

فرياه

LIBERTÉ — ÉGALITÉ

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE.

Au quartier-général du 29 nivose de la République Française, une et indivisible.

Ordre du jour du 29 nivôse an 9.

Au nom de Dieu clément et miséricordieux.
Il n'y a de Dieu que Dieu, et Mahomet est son Prophète.

بسم الله الرحمن الرحيم
لا اله الا الله محمد رسول الله
من عبد الله جاك منو

MENOU, GÉNÉRAL EN CHEF,

A tous les Habitans de l'Égypte; que Dieu les conserve et les protège!

من عسكر امير عام دولة جمهور الفرنساوية
بالشرق ومظاهر حكومتها بمصر حالاً
الى جملة اهالي مصر سلمهم الله تعالى امين

Je vous annonce qu'il nous est parvenu récemment des lettres de la part du Gouvernement de la République Française, et de son premier Consul, l'illustre guerrier BONAPARTE. Elles nous donnent avis que la paix a été conclue définitivement entre la République Française et les royaumes d'Alger et de Tunis. Que Dieu en soit loué!

نبشركم بشرنا الله تعالى واياكم بكمال
الخيرات وهو انه وردت لنا اخبارا جديدة
صحيحة من جانب دولة الجمهور الفرنساوية
وفصل اولها بونابارته واخبرونا بانه وقعت
المصالحة بشروط مرضية صحيحة ومخصوصة
بين دولة جمهور الفرنساوية وبين مملكة
الجزاير ومملكة تونس والحمد لله على ذلك

Nous vous prévenons, ô habitans de l'Égypte, que désormais tous ceux d'entre vous, ou des habitans des deux pays susdits, qui voudront voyager pour négocier et commercer réciproquement, en ont la permission. Ils seront protégés et assistés dans leur commerce, soit pendant leur voyage, soit pendant leur séjour dans les pays ci-dessus mentionnés. C'est au nom de la République Française, qui ne manque jamais de parole, que je leur promets sûreté et protection.

فالان نخبركم ان كل من كان منكم او من
اهالي المملكتين المذكورين يطلب السفر
للتجارة بالنواحي المذكورة فهو ماذونا منا
بذلك ولابد للمسافر التاجر من طرفنا
باسم دولة الجمهور الفرنساوية كامل الحماية
والصيانة في ايابهم وذهابهم واقامتهم
...يهم في ... مصر وفي عودتهم ...
...الهم

Habitans de l'Égypte! Dieu favorise toutes les entreprises des Français et du premier Consul BONAPARTE, qui ne veulent que justice: la tranquillité, la sécurité et le bonheur des peuples, tels sont les principes qui dirigent le Gouvernement français, et d'après lesquels il m'ordonne d'administrer l'Égypte dont il m'a confié le commandement. Je ne cesserai pas un seul instant d'exécuter ses ordres, et de faire tout ce qui dépendra de moi pour vous rendre heureux.

Signé MENOU.

...يا اهالي مصر نسال الله سبحانه وتعالى
...يكون دايما يعين ويساعد كلما احاديثه
...دولة الجمهور الفرنساوية وان يكرم
...مقاصدها في كل الجهات وساير الجوانب
...بواسطة عدة ارباب الجراة والشجاعة
...اولها بونابارته واعلموا ان راحة
...ورفاهية بالهم دايما في امال وبغية
...دولة الجمهور المنصور المذكور والفضل المشا...
...وانا متوصي منهم بذلك ففي كل الاوقات
...فكرتي الا في تحسين الراحة التامة
...الرفاهية الشاملة التامة الان مما
...مهماتي لاجلكم في ساير الازمان
...بالله شهيدا
...في ٢٩ شهرنا نيوز سنة ٩ الموافق
... شهر رمضان سنة ١٢١٥
...القواد عبد الله جاك منو

La présente proclamation sera imprimée à deux colonnes, l'une française et l'autre arabe, publiée, affichée et envoyée dans toutes les parties de l'Égypte.

Les généraux commandant les provinces, et tous autres chefs militaires, ainsi que le directeur général et comptable, chargés, chacun en ce qui le concerne, de faire répandre dans toute l'Égypte la présente proclamation.

Signé MENOU.

Le Général de Division Chef de l'État-major général de l'Armée,

Signé LAGRANGE.

Pour copie conforme au registre d'ordre:

L'Adjudant général, Sous-Chef de l'État-major général,

René

AU KAIRE

f de l'Etat-major génér

LIVRE 8. 8 — 192

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE.

Au quartier-général du Kaire, le 6 ventose an 9 de la République Française, une et indivisible.

Ordre du jour, du 6 ventôse an 9.

AU NOM DE DIEU CLÉMENT ET MISÉRICORDIEUX.

Il n'y a de Dieu que Dieu, et Mahomet est son Prophète.

A'BD-ALLAH JACQUES MENOU,

Général Chef de l'Armée d'Orient, et représentant en Egypte le Gouvernement de la République Française;

A tous les Habitans, Grands et Petits, Riches et Pauvres, de la ville du Kaire et de l'Egypte.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا اله الا الله محمد رسول الله

من عبد الله جاك منو سر عسكر امير العام جيوش دولة جمهور الفرنساوية

بالشرق ومظاهر حكومتها بمصر حالا

الى كامل الاهالى كبير وصغير غنى وفقير المقيمين حالا بمحروسة مصر ومملكة مصر

Des hommes pleins de méchanceté et d'imposture, et qui ne songent qu'à faire du mal au peuple, répandent dans la ville du Kaire des bruits alarmans : nous vous avertissons que tout individu, de quelque nation et religion qu'il soit, qui sera convaincu d'avoir répandu ou fait répandre ces bruits alarmans, sera arrêté sur-le-champ, et aura la tête tranchée au milieu d'une des places du Kaire.

ان الناس الذين هم من الاشقياء والمفسدين
ولا يقصدوا الا الى الاضرار بالناس واضراركم
ينشروا فى وسط المدينة بينكم اخبارا ردية
مزورة لتخويفكم وتخويف المملكة وكل ذلك
كذبا وافتراء فانا نخبر جميعكم ان كل
من من اهالى المذكورة من اى طايفة وملة
بالذى يثبت عليه الانتشار او النشر
من نفسه بينكم تلك الاخبار الكاذبة
لكم وبالك بالناس فى الحال ذلك
الرجل يمسك وترمى رقبته بوسط واحدة
من مصر

Habitans du Kaire et de l'Égypte, restez tranquilles dans vos maisons, vaquez à vos affaires, et rappelez-vous de mes paroles. Le gouvernement français veille à votre sécurité, comptez sur sa protection; mais il a l'œil sans cesse ouvert sur tous ceux qui voudraient exciter des mouvemens ou la rébellion. Salut à qui marche dans la bonne voie.

ويا اهالى مصر فانتبهوا وتبصروا
فى الكلمات وكونوا مستريحين البال
ومترفهين البال انما الدولة الجمهور
الفرنساوى حاضر لحمايتكم وصيانتكم ولكن
ناظر كذلك الى تعذيب العداوة والعصاة
والسلام على من اتبع الصدق والاستقامة
تحريرا فى ٦ شهرنا ونحو سنة ٩ الموافق
لـ ١٣ شهر شوال سنة ١٢١٥

Au Kaire, le 6 ventose an 9, répondant au 13 de chaouel an 1215.

Signé MENOU.

٭ خالص الفؤاد ٭

٭ عبد الله جاك منو ٭

On continuera à l'avenir à retenir aux invalides ouvriers travaillant aux ateliers ou attachés à quelque service comme employés, les deux tiers de leur solde. Cette retenue devra toujours tourner au profit et soulagement des invalides que leurs blessures ou d'autres infirmités quelconques forcent de rester au corps. Mais aussi, sous aucun prétexte, on ne pourra exercer aucune retenue sur l'indemnité que ces mêmes invalides ouvriers ou employés reçoivent pour la viande ou pour le riz.

Les conseils d'administration des invalides sont particulièrement chargés de l'exécution de ces mesures.

Le Général de Division, Chef de l'Etat-major général de l'Armée,

Signé LAGRANGE.

Pour copie conforme au registre d'ordre :

L'Adjudant commandant Sous-Chef de l'Etat-major général,

Réné

SUPPLÉMENT
A l'Ordre du jour du 25 pluviôse an 9.

MENOU, GÉNÉRAL EN CHEF, ordonne l'insertion à l'ordre du jour de [illegible] qu'il a écrite au grand Divan du Kaire.

[illegible]

Il n'y a de Dieu que Dieu, et Mahomet est son Prophète.

بسم الله الرحمن الرحيم
لا اله الا الله محمد رسول الله

Abd-Allah Jacques MENOU, Général en Chef de l'Armée d'Orient,

من عبد الله جاك منو سر عسكر امير عام جيوش دولة جمهور الفرنساوية بالمشرق ومظاهر مكونها بمملكة مصر حالا

Aux Cheykhs et U'lemas composant le grand Divan du Kaire; que Dieu leur accorde toujours les lumières et la sagacité nécessaires pour remplir leurs fonctions.

[illegible]

Cheykhs et U'lemas, ce que Dieu veut arrive nécessairement; c'est lui qui voit tout, qui sait tout. Il a voulu que les Français fussent victorieux. Les Français sont victorieux partout où ils portent leurs armes. [illegible] que le célèbre BONAPARTE, aujourd'hui chef du Gouvernement de la République française, réussît dans toutes ses entreprises. BONAPARTE n'a qu'à paraître, tous les événemens se dirigent selon sa volonté.

[illegible]

L'empereur d'Allemagne, séduit par les perfides insinuations des Anglais, refusait de faire la paix que la République française, quoique victorieuse, lui offrait par principe de modération. Les armées françaises ont marché contre lui; vaincu de toutes parts, il a été forcé d'accepter les conditions que BONAPARTE lui proposait. Un armistice a été signé, et l'on travaille actuellement à une paix définitive.

[illegible]

Des vaisseaux de guerre français, entrés dans le port d'Alexandrie le 14 de ce mois, ont fait connaître ces heureuses nouvelles. Ils étaient chargés de soldats qu'envoie BONAPARTE, et d'une grande quantité de munitions de guerre. Dieu qui veut bien abaisser ses regards sur les Français, et les protéger, a permis que ces vaisseaux ne missent que dix jours à venir de France à Alexandrie.

[illegible]

Je vous ai fait connaître ces heureux événemens, cheykhs et u'lemas, afin que vous vous réjouissiez avec nous, et que vous soyez bien convaincus que BONAPARTE ne perd jamais de vue l'Égypte, dont il aime et protège les habitans, ainsi qu'il vous en a souvent donné des preuves. Il me recommande toujours de travailler au bonheur du pays dont le gouvernement m'est confié. Je ne cesserai pas un seul instant de faire tout ce qui sera nécessaire pour exécuter ses ordres. Je vous souhaite, cheykhs et u'lemas, de longs jours et une multitude de prospérités. Que l'esprit de Dieu soit toujours avec vous!

[illegible]

Au Kaire, le 19 pluviôse an 9, correspondant au 24 du mois de ramadan de l'an 1215 de l'Égire.

تحرر في ١٩ شهر بلوفوز سنة ٩ الموافق ٢٤ شهر رمضان سنة ١٢١٥

خالص الفؤاد

Signé MENOU.

عبد الله جاك منو

Le Général de Division, Chef de l'Etat-major général de l'Armée,

Signé LAGRANGE.

Pour copie conforme au registre d'ordre :

L'Adjudant commandant, Sous-Chef de l'Etat-major général,

Réné

... au registre d'ordre :
... Chef de l'Etat-major général,

دراسة لغوية لسبعة منشورات صادرة
باللغتين الفرنسية والعربية (1798 – 1801)

د/. داليا على محمد

إن التفاهم مع الآخر ليس بالأمر الهين، وفى جميع الأحوال لا يتم التواصل والتفاعل مع الآخر من دون توفر وسائل أساسية تحققه وتفعله بين الجانبين ، وتتمثل أهم تلك الوسائل فى وجود لغة مشتركة سليمة ومفهومة لدى طرفى الحوار. وتكمن أهمية اللغة فى كونها وسيلة التعبير عن النفس كما أنها الوسيلة التى ينقل بها الفرد أفكاره إلى من يحاوره. وقد شكلت اللغة العربية عقبة للفرنسيين أثناء حملتهم على مصر عام 1798 لذلك فقد كان الفرنسيون يصدرون أوامرهم فى شكل وثائق تحرر أولاً بالفرنسية ثم يتم ترجمتها إلى العربية بواسطة مترجمين مستشرقين جاءوا مع الحملة. ومن خلال قراءات عديدة عن هؤلاء المترجمين وكما يتضح لنا من خلال الوثائق التى بين أيدينا، يتضح أن هؤلاء المستشرقين قد تعلموا اللغة العربية على أيدى عرب الشام . وكان تعلمهم يعتمد على اللغة العربية المنطوقة والمسموعة (المعروفة باللغة العامية الدارجة) أكثر من تعلمهم اللغة المكتوبة أى الفصحى والورقة سوف تتعرض لهذه المسألة التى انعكست بوضوح فى المنشورات الصادرة عن الجانب الفرنسى.

وتحاول الورقة تقديم دراسة لغوية لسبع وثائق (فرنسية وعربية) نشرت أثناء الحملة الفرنسية على مصر، وجميع الوثائق التى نعرضها تمثل صورة مطابقة لما خطه الفرنسيون أنفسهم فى تلك الفترة التاريخية باستثناء الوثيقتين المدونتين بالفرنسية

للجنرال بونابرت ؛ إذ لم نتمكن من إيجاد أصل هاتين الوثيقتين، ولكن تم رصدهما فى أحد المصادر التاريخية المعاصرة والمكتوبة بالفرنسية. أما النص المكتوب باللغة العربية لهاتين الوثيقتين فقد وجدناهما مطابقين للأصل الذى قدمه المترجمون فى ذلك الوقت.

وتقوم هذه الدراسة اللغوية على معالجة ثلاثة محاور أساسية :

1- إشكالية الترجمة.

2- ازدواجية اللغة.

3- الأخطاء الشائعة فى ترجمة المنشورات سواء على المستوى الإملائى أو على المستوى النحوى.

وسوف نلحق بالدراسة ثبت بأهم المترجمين فى فترة الحملة ، بالإضافة إلى صور من المنشورات التى خضعت لهذه الدراسة .

* * *

أثارت إشكالية الترجمة جدلاً واسع النطاق فيما يتعلق بمطابقة الترجمة للنص الأصلى. هل تكون المطابقة "مطابقة للمضمون" أم "لبنية الجملة" أى، أيهما أفضل: الترجمة المتصرفة Traduction Libre أم الترجمة الحرفية Traduction Littérale؟

ونقدم فيما يلى مقارنة بين النص الأصلى المكتوب باللغة الفرنسية (LD) وبين الترجمة المقترحة له والمكتوبة باللغة العربية (LD) ونتبع فى تقديمنا لهذه الترجمة النظرية التفسيرية "La Théorie Interprétative" التى أرساها كل من :

DANICA SELESKOUITCH و MARIANNE LEDERER ، وفقاً لهذه النظرية فإن كل نص يهدف إلى توصيل رسالة ذات مضمون وقد يلجأ المترجم لنقل المضمون إلى تقديم تفسير لما يحويه النص الأصلى على أن يؤدى هذا التفسير إلى نقل المعنى بشكل واضح. ولكن، حتى تتضح هذه الأفكار يجب أن تندمج المعلومات اللغوية (Linguistiques) وغير اللغوية (Extralinguistiques) بحيث تتكامل هذه

المعلومات وتؤدى إلى وضوح المعنى، وقد يحتاج المترجم أيضاً لشيء من التصرف لشرح العلاقة بين الجمل أو الفقرات. أثناء عملية الترجمة، يجب الأخذ فى الاعتبار أن لكل لغة سمات خاصة وأسلوب خاص وكذلك قواعد خاصة بها يجب احترامها. كذلك يجب الأخذ فى الاعتبار أن صياغة الجملة بعد الترجمة وفقاً لنظم الجملة الأصلية لا يؤدى بالضرورة المعنى بل إنه فى كثير من الأحيان يضر به.

ففى وثيقة الرحيل نقرأ:

1 2 3 4 5 6

Aucun / habitant / de l'Egypte /, de quelque / religion / qu'il soit /

7 8 9 10 11

ne / poura être / inquiété /, ni dans sa personne /, ni /

12 13

dans ses biens,/ pour les liaisons qu'il aurait eues avec les

14 15 16

Français/ pendant / leur occupation de l'Egypte, / pourvu qu'ils se conforment aux loix du pays.

وهو ما تم ترجمته إلى اللغة العربية كما يلي:

1 2 3 4 5 6 7 8 9

"لا أحد ا- من أهالى- مصر المحروسة- من كل- ملة- كانت- لا -يكون - قلقا-

10 11 12

من قبل نفسه - و لا- من قبل متاعه-

13 14 15

- جميع الذين كانوا بخدمة الجمهور الفرنساوى - بمدة- إقامة الجمهور بمصر

16

-و لكن الواجب يطيعون الشريعة"

قدم المترجمون فى هذا المثال ترجمة حرفية حيث حرصوا على الاحتفاظ بنفس عدد العناصر المكونة للجملة الأصلية واحتفظوا لهذه العناصر بنفس أماكنها فى الجملة الجديدة (L.A) مما يعد خرقاً لقواعد اللغة العربية ويضفى على الترجمة الكثير من الغموض. ويقف هذا الغموض حائلاً دون فهم القارئ لهذه الترجمة. وقد أكسب المترجمون الوثيقة 7 من الحافظة 211 أكبر قدر من الغموض وذلك لإصرارهم على اتباع منهج الترجمة الحرفية. نختار من هذه الوثيقة المثالين التاليين:

1- "أما أنا ربطت لكم قولى لجميعكم أن قط أبداً لا أبلصكم وبينكم كل من كان مكتسب بتعب طويل وفضة وغنى كانوا ملزمين بكتمانها"

الأصل الفرنسى لهذه الترجمة هو:

"Je vous engage ma parole que je ne vous en exigerai jamais. Parmi vous ceux qui avaient acquis, par un long travail, des richesses ou de l'argent étaient obligés de les cacher"

2- "أنا أوعدكم باسم الجمهور الفرنساوى قدام الله ورسوله أن ولا أنا ولا أحداً من الفرنساوية مادام بقى لى شعرة فى راسى لا ينصدوا إلى أملاككم فمادام أنتم موديين الرسم الموضوع قانوناً من الشريعة بعينه فأنتم ماذونين بمحاظظة مع صفاء خاطركم كلما لكم مقتنى بلا أن أى من يصير يقتدر يمنعكم".

الأصل الفرنسى لهذه الجملة هو:

"Je vous promets au nom de la République, devant Dieu et son prophète, que ni moi ni aucun français tant qu'il me restera un cheveu sur la tête, n' attenterons à vos propriétés (...)".

اكتنف هذا الغموض ترجمة خمس وثائق من جملة سبع وثائق. أما الوثيقتان المتبقيتان فهما الأكثر صحة من حيث اللغة والصياغة. هاتان الوثيقتان هما وثيقتا الجنرال بونابرت، وقد تخلص فيها المترجم Venture de Paradis من قالب اللغة الفرنسية (LD) فلم يتقيد بالترجمة الحرفية.

فتقرأ على سبيل المثال فى الوثيقة 16 من الحافظة 206:

"وهم نظراً لكفرهم فى معتقدهم يجعلون الآلهة ثلاثة وإن الله ثالث تلك الثلاثة تعالى الله عن الشركاء".

وهى ترجمة لما يلى:

" ils croient qu il y en a trois ".

نلاحظ أن هذه الترجمة قد صيغت بطريقة تناسب المجتمع المصرى ذى الأغلبية المسلمة أى أنها راعت الموروث الاجتماعى والدينى للمصريين. كذلك الحال فى الوثيقة 15 من الحافظة 206 حيث تقرأ:

"بعون (الله) تعالى من اليوم فصاعدا لا يستثنى أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية".

الجملة الأصلية هى:

"Tous les Egyptiens seront appelés à gérer toutes les places" .

خضعت الترجمة هنا لعملية تطويع لتناسب المتلقي، بمعنى أن المترجم قد أضاف بعض العناصر لتلائم المتلقى كإضافة (بعون الله تعالى) وتوضيح أن (toutes les places) تعنى (المناصب السامية) و (المراتب العالية). وفى ذلك نقد غير مباشر لسياسة العثمانيين والمماليك حيث كانت هذه المناصب والمراتب حكراً لهم من دون أهل البلد أنفسهم، مما يدل على أهمية المعلومات العامة (تاريخية، اجتماعية، ثقافية، سياسية،...) لدى المترجم إضافة إلى المعلومات اللغوية.

وعلى الرغم من أن ترجمة وثيقتى الجنرال بونابرت هى الأفضل إلا أنها لم تخل من الأخطاء الإملائية والنحوية مثلها مثل باقى الوثائق الخمسة. والملاحظ فى مجمل ترجمة الوثائق أنها كتبت باللغة العامية مع محاولة المترجم أن تبدو الوثيقة مكتوبة بالفصحى. وهو ما ينقلنا إلى القسم الثانى من دراستنا ألا وهو ازدواجية اللغة.

2 - ازدواجية اللغة (Diglossie):

تنقسم اللغة العربية – كما هو معلوم – إلى فصحى وعامية. يطلق على الفصحى (variété H) وعلى العامية (variété L). والملاحظ فى هذه الوثائق السبع أنها أقرب للعامية منها للفصحى. هذا الدمج بين العامية والفصحى فى ذات النص يعرف باللغة الوسطى أو اللغة الثالثة وهو ما يسميه Dominique MAINGUENEAU "Interférences diastratiques".

والأمثلة التالية توضح لنا هذه الازدواجية:

1- "الشرط الأول ولا أحد من أهالى المدينة يقدر يخرج خارجاً من البلد غير ورقة أجازة (.....)". (و5، ح211) ، ويقابلها بالفرنسية:

« Il est défendu à tout habitant du Kaire de sortir de la ville sans avoir obtenu un passeport du commandant de la place (...) »

وعند الحديث عن فرار أهالى الريف من قراهم إلى القرى المجاورة وقرار الجنرال Menou بمصادرة أملاكهم فى حال عدم عودتهم خلال فترة حددها لهم. نقرأ باللغة العربية (L.A) : "يكون جميع مالهم مظبوط للجمهور الفرنساوى (...)". أما عن الأصل الفرنسى (L.D) لها: " Tous leurs biens seront confisqués au profit de la République".

2- وفى الوثيقة 15 حافظة 26 نقرأ:

"المشايخ فى كل بلد ليختموا حالاً جميع الأرزاق والبيوت والأملاك بتاع المماليك".

و هو ترجمة للأصل الفرنسى:

« Les cheiks feront mettre les scelles sur les biens, maisons, propriétés qui appartiennent aux Mamelouks".

كما نرى فإن اللغة العامية تغلب على أسلوب وصياغة الجملة لدى المترجين وهو

ما يعكس ضعف شديد فى اللغة العربية لديهم، وقد انعكس ذلك أيضاً على المستوى الإملائى حيث ظهرت العديد من الأخطاء الإملائية والنحوية نبينها تباعاً.

3- أخطاء تكشف ضعف اللغة العربية لدى المترجمين:

أ- على المستوى الإملائى :

- تخفيف الهمزة:

1- همزة تتوسط الكلمة

: diphtongue intermédiaire (ā'i) écrite āy -2

La représentation dans le corpus الكلمة كما وردت بالوثيقة	Sa transcription	Sa référence رقم الوثيقة	La réalisation orthographique codifiée التصحيح	Sa transcription
الفضايل	alfad āyel	Doc.15, doss.206.	الفضائل	Alfad ā'el
الايمة	al 'a yemma	bis	الأئمة	al 'a'emma
طايعين	t āy'in	Doc.16, doss.206.	طائعين	T ā'e'in
ساير	sāyer	bis	سائر	sā'er
دايما	dāyman	Doc.4,doss.211	دائما	dā'eman
قيمقام	Qîmqām	Doc.à références manquantes.	قائم مقام	qā'em maqām

2 - همزة متطرفة فى آخر الكلمة à la fin du mot

La représentation dans le corpus الكلمة كما وردت بالوثيقة	Sa transcription	Sa référence رقم الوثيقة	La réalisation orthographique codifiée التصحيح	Sa transcription
العقلا	Al'oqalâ	Doc.15, doss.206	العقلاء	Al'oqalâ'
الروسا	Arrosâ	Doc.7, doss.211.	الرءوساء	arro'asâ'
هولاى	Holây	Doc.4, doss.211.	هؤلاء	hâ'olâ'
العلما	Al'olamâ	Doc.à références manquantes.	العلماء	Al'olamâ'

3 - غياب علامة المد:

3. Statut du hamza dans le cas du signe dit « madda » ou prolongation;

La représentation dans le corpus الكلمة كما وردت بالوثيقة	Sa transcription	Sa référence رقم الوثيقة	La réalisation orthographique codifiée التصحيح	Sa transcription
القران	alqorân	Doc.15, doss.206	القرآن	alqor'ân
bis	alqorân	Doc.16, doss.206	bis	alqor'ân
اللام	Allâm	Ibid	اللآم	al li'âm
الالهة	alâliha	ibid	الآلهة	Al'âlihati
الافات	Alâfât	Doc.7, doss.211	الآفات	al'âfât

4- أخطاء إملائية متعلقة بالألف المكسورة

Permissivité du alif maqsûra (ou l'alif bref) :

La représentation dans le corpus الكلمة كما وردت بالوثيقة	Sa transcription	Sa référence رقم الوثيقة	La réalisation orthographique codifiée التصحيح	Sa transcription
الكبرا	alkobrâ	Doc.15,doss 206	الكبرى	alkobrâ
النصارا	annas ārâ	bis	النصارى	annas ārâ
ادنا	Adnâ	bis	أدنى	Adnâ

II- التاء المفتوحة والتاء المربوطة

Statut du tâ'maftûh ā et tā'marbût ā (ou tâ' lié)

La représentation dans le corpus	Sa transcription	Sa référence	La réalisation orthographique codifiée	Sa transcription
الحجت	alh ōğat	Doc.15,doss. 206	الحجة	alh ōğat
القضات	alqodat	bis	القضاة	alqodât
الصلات	as s̄ ālât	bis	الصلاة	as s̄ ālât
دولت	dawlat	bis	دولة	dawlat
حيات الدنيا	h āyâtaldonyâ	bis	حياة الدنيا	h āyâtaldonyâ
راحت الرعايا	rah ātara'âyâ	Doc.16,doss 206	راحة الرعايا	rah ātara'âyâ

ب - على المستوى النحوي:

1- من هذه الأخطاء نتناول ما يلي:

I- رفع الفعل المضارع بثبوت النون:

Les verbes conformes réguliers en fermeté de N (ou nûn) :

عندما يكون الفعل المضارع من الأفعال الخمسة فهو يرفع بثبوت النون إذا لم يسبقه ناصب ولا جازم، وهذا ما لم يحدث فى الوثائق حيث غلبت عليها العامية (variété L)، والجدول التالى يوضح لنا ذلك:

La source رقم الوثيقة	La ligne رقم السطر	La forme érronée الكلمة الخطأ	La transcription phonétique طريقة النطق	La correction التصويب	La transcription طريقة النطق
Doc.15, doss. 206, colonne1	4	يتسلطنوا	yatasalt ānû	يتسلطنون	yatasalt ānûn
Doc.16, doss.206, colonne1	18	وابتدوا ينزلوا	Webtadûyenzelû	وبدأوا ينزلون	wabada>û yanzilûn
Doc.5, doss.211	5	و يعطلوا	Wa yu'at t̄ elû	و يعطلون	Wa yu'at t̄ elûn
bis	14	يخرجوا	yah=ruğû	يخرجون	yah=ruğûn
Doc.6, doss.211	15	الذين يهتدوا ويتمسكوا	allad=ina yahtadû wa yatamassakû	الذين يهتدون ويتمسكون	allad=ina yahtadûn wa yatamassakûn

II – نصب وجزم الفعل المضارع بحذف النون:

Verbes conformes ouverts en élimination de N ou (nûm)

ينصب الفعل المضارع إذا سبق بإحدى الأدوات التالية (إن، لن، كي، حتى، لام التعليل) فإذا كان الفعل من الأفعال الخمسة نصب بحذف النون.

ويجزم الفعل المضارع (الأفعال الخمسة) بحذف النون إذا سبق بالحروف التالية: (لم، لما، لام الأمر، لا الناهية)

وفى الجدول التالى نضيف الرمز (++) إذا احتاج الفعل إلى إضافة أداة النصب (إن)، أما إذا احتاج إلى تغيير اللفظ نضيف الرمز (*) ويظهر الرمز (+ *) كلما احتاج الأمر تغيير تام للجملة ويظهر الرمز (#) مع لفظة (لكيما) وهو لفظ يجب أن نتوقف عنده حيث إنه لا وجود له فى اللغة العربية وقد رجعنا إلى موسوعة لسان العرب لابن منظور لحسم أمر هذا اللفظ فلم نجد سوى كيما ، كي، لكي، كي، لا. أما (لكيما) فلا وجود لها.

La source رقم الوثيقة	La ligne رقم السطر	La forme érronée الكلمة الخطأ	La transcription phonétique طريقة النطق	La correction التصويب	La transcription طريقة النطق
Doc.15, doss.206	14	# لكيما يعرفوا	likaymâ ya'rifû	لكي يعرفوا	Likay ya'rifû
Doc.16, doss.206	11	++يعملوا	ya'malû	أن يعملوا	ya'malû
Doc.5, doss.211	9	*لاجل يفحصوا	Lağl yafh as û	لكي يفحصوا	Likay yafh as û
	25	+* يحوشوا	yah ušû	أن يمنعوا	An yamna'û
Références manquantes	13	+ لكن الواجب يطيعوا	Lakinnalwağib yuti 'û	... أن يطيعوا	An yuti 'û
Doc.7, Do211	116	+*ما تلاقوا	matlaqû	لن تجدوا	Lan tağidû

2 - النواسخ: Les annulateurs :

تبدأ الجملة الأسمية فى اللغة العربية، بالمبتدأ (Primat) ثم الخبر (Prédicat) ويكونا مرفوعين. ولكن تتغير حالة الإعراب حين تدخل النواسخ على الجملة والنواسخ قسمان :

- حروف معان.
- أفعال ناقصة.

1- حروف المعان : Lettres de signification

هذه الحروف هى : أن وأخواتها ، لا النافية للجنس ، ما وأخواتها

أن وأخواتها ولا النافية للجنس تنصب المبتدأ وترفع الخبر بينما تعمل ما وأخواتها فى الاتجاه المعاكس لهما .

الملاحظ فى الوثائق السبعة أنه لم يتم تطبيق هذه القاعدة وهو ما يعد خرقاً لقواعد اللغة العربية .

ففى الوثيقة 15 حافظة 206 السطر رقم 15 نقرأ :

"وقولوا لهم ايضاً أن جميع الناس متساويين ...".

فكلمة (متساويين) هنا تقع خبراً لـ (أن) ولذلك يجب أن تكون مرفوعة لتصبح (متساوون) . كذلك الحال للفظة (روؤفا) وهى خبر (لكن) إحدى أخوات (أن)، لذلك يجب أن نقول (رءوف) محل (روؤفا) وكذلك فى (مسلمين خالصين) التى تصبح بعد التصويب (مسلمون خالصون).

ويتكرر هذا الخطأ مرات عديدة فى الوثيقة 16 حافظة 206 حيث يظهر لنا خبر (أن) فى حالة نصب بدلاً من الرفع فعلى سبيل المثال (باطلا) بدلاً من (باطل).

2- الأفعال الناقصة : (lettres déficients)

هذه الافعال هى: كان وأخواتها، كاد وأخواتها، ظن وأخواتها، وأرى وأخواتها.

كان وأخوتها وكاد وأخوتها ترفع المبتدأ وتنصب الخبر بينما ظن وأخواتها وارى وأخواتها تنصب المبتدأ وترفع الخبر. فيما يلى عرض لبعض النماذج التى تمثل خرقاً لهذه القاعدة ، تبدأ كل مثال باللفظ الخطأ متبوعاً بالتصويب، ثم نحدد الوثيقة التى ظهر فيها هذا الخطأ والحافظة والسطر.

مظبوط   مضبوطاً (وثيقة 5 حافظة 211 ، سطر 16).

كان مكتسب   كان مكتسبا (وثيقة 7 ، حافظة 211 ، ص 3 ، سطر 19).

كانوا ملتزمين البلاد   كان ملتزمون البلاد (الوثيقة ذاتها ، ص 4 ، سطر 47).

تكشف هذه الأخطاء ضعف اللغة لدى المترجمين وسيادة العامية لديهم على الفصحى الأمثلة التى قدمناها ليست بالطبع حصراً ؟ لكل الأخطاء التى تختص بهذا الموضوع ، فما هى إلا عرض لبعض الشواهد على خرق القاعدة المتعارف عليها فى الصرف .

3 - **الجملة**

الجملة فى اللغة العربية اسمية أو فعلية

الجملة الاسمية Phrase nominale :

تبدأ الجملة الاسمية بالمبتدأ (primat) ويكون اسماً مرفوعاً ثم الخبر (Prédicat) ويكون اسماً مرفوعاً أيضاً . ولكن هذه القاعدة أيضاً تم نسفها فى جملة الوثائق التى ندرسها . ونقدم فيما يلى الشواهد على ذلك :

- فأنتم مأذونين   فأنتم مأذونون (وثيقة 27 حافظة 211 ، ص3 ، سطر24).
- فأنتم منظورين ومحسوبين   فأنتم منظورون ومحسوبون.

(الوثيقة ذاتها ، نفس الصفحة ، سطر27).

- فهم منصوبين (...) ومأمورين   فهم منصوبون (...) ومأمورون.

(الوثيقة ذاتها ، ص4 ، سطر73).

- وهم منكرين – وهم منكرون.

(الوثيقة ذاتها ، الصفحة عينها ، سطر 87).

هذه الأخطاء النحوية والصرفية هى خير شاهد على أن هؤلاء المترجين لم يتعلموا اللغة العربية على أسس سليمة تدل أيضا على أنهم تعلموا سماعياً .

الجملة الفعلية (phrase verbale)

تبدأ هذه الجملة بالفعل ويختلف إعرابه وفقاً لزمنه ثم الفاعل ويكون مرفوعاً أيضاً وهو ما لم يتم مراعاته فى الوثائق ، فنقرأ على سبيل المثال لا الحصر :

ورد لنا خبراً صحيحا – ورد لنا خبر صحيح (وثيقة 4 ، حافظة 211).

وفى هذا المثال، (خبر) يقع فاعلاً للفعل (ورد). لذلك يجب رفعه لا نصبه ويتكرر هذا الأمر فى نفس الوثيقة:

أن لا يقعوا المذكورين – أن لا يقع المذكورون.

هذا المثال احتاج لإعادة صياغة لاعتماد المترجم الأصلى على اللغة المنطوقة (العامية) لا الفصحى . وهو أيضا خير شاهد هى على افتقار المترجين لأصول اللغة العربية الفصحى السليمة .

حروف الجر

فشل مترجمو الوثائق فى التعامل مع حروف الجر وتفعيلها فى مواضعها الصحيحة (توظيفها).

ومن أمثلة حروف الجر التى ضل هؤلاء المترجمون طريقهم إليها:

حرف الجر (من)

يرى بعض اللغويين المستشرقين المعاصرين[1] لنا أن (من) تحدد نقطة البدء أو الأصل الذى ينحدر منه هذا الشىء .ففى المثال التالى:

"وحسرتا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك يفسدوا فى الإقليم الأحسن الذى يوجد فى الأرض " (وثيقة 15 ، حافظة 206).

"Depuis très longtemps ce ramasis d'esclavages (...) tyrannise la plus belle partie du monde ."

إضافة (من) إلى (هذه الزمرة المماليك) تبين العلاقة أو الرابط بين (زمرة) و(المماليك) .

وكما يوضع اللغوى[2] LECOMTE فإن حرف الجر من يشير إلى المنشأ أو قد يوضح وجود علاقة جزء من كل .

ويتكرر عدم التوفيق فى اختيار حرف الجر المناسب فى المثال التالى :

"جميع القرى الواقعة فى دايرة قريبة بثلثة ساعات عن المواضع التى يمر بها العسكر الفرنساوى (....) " (وثيقة 16 ، حافظة 206).

« tous les villages situés dans un rayon de trois lieues des endroits où passera l'armée, (...) » (وثيقة 16 حافظة 206)

عند قراءة الترجمة العربية يمكننا أن نلاحظ عدم التوفيق فى اختيار الترجمة المناسبة للفظة lieues وهى تعنى بالعربية (فرسخ) وليس (ساعات). هذا بالإضافة إلى أننا نستخدم حرف الجر (من) مع (قريبة) فنقول (قريبة من)، أما إذا أردنا استخدام (عن) فالأنسب أن نستخدم (بعيدة) فنقول (بعيدة عن).

عدم التوفيق هذا فى التفريق بين (من) و (عن) قد تكرر فى نفس هذه الوثيقة أى وثيقة 16 ، حافظة 206 :

"ولايستثنى أحد من أهالى مصرعن الدخول فى المناصب السامية وعن المراتب العالية".

الفعل "يستثنى" يستدعى استخدام حرف الجر (من) وليس عن.

ويؤكد أن منظور ذلك عندما يقول فى معجمه "استثنيت الشىء من الشىء".

حرف الجر (على) :

"والمصريين باجمعهم ليشكروا فضل الله سبحانه وتعالى من انقراض دولة المماليك" .

(وثيقة 7 ، حافظة 211)

يوجد فى هذه الجملة العديد من الأخطاء النحوية ولكننا نتوقف فقط عند ما يتعلق بحرف الجر (على) كذلك تتناول فقط الفعل (شكر) . فحرف الجر المتفق على استخدامه مع الفعل شكر هو (على) ولتأكيد ذلك ، رجعنا إلى معجم لسان العرب لابن منظور حيث ورد فيه:

"الشكر مثل الحمد إلا أن الحمد أعم ، فإنك تحمد الإنسان على صفاته الجميلة وعلى معروفه ولا تشكره إلا على معروفه دون صفاته[3].

وبناء على ذلك فإنه بعد تصويب هذا الخطأ تصبح الجملة :

"والمصريين بأجمعهم ليشكروا فضل الله سبحانه وتعالى على انقراض دولة المماليك"

وتكرر هذا الخطأ فى موضع آخر هو الوثيقة 15 ، حافظة 206 حيث ورد فيها:

"فليكن رب العالمين هو رؤوف وعادل على البشر ."

حرف الجر (على) ليس هو حرف الجر المناسب الذى يتبع لفظة (عادل). والشاهد على ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.

(سورة النساء ، الجزء الخامس ، الآية 129).

أما عن (رءوف) ، فحرف الجر المناسب هو (بـ). وبناء على ما سبق، فإن الصيغة التى تقترحها لهذا المثال هى :

"فليكن رب العالمين هو رؤوف بالبشر وعدل بينهم ".

وقد امتد عدم التوفيق فى اختيار اللفظ المناسب ليشمل ضمير الوصل (الذى)

"فهو استماع نصايح الاشرار الذى سمعتم منهم ".

(وثيقة 7 ، حافظة 211)

" (..) les mauvais conseils que vous aviez écoutés " (doc7, doss.211)

" لاجل تأدية التكاليف الذى ما اديتوها "

(وثيقة 7 ، حافظة 211)

" pour vous faire payer des contributions que vous n'auriez pas acquittées (...) ".

(وثيقة 7 حافظة 211)

" يرسلوها إلى البلاد الذى اهالى مصر واحوا فيها ".

(وثيقة 5 ، حافظة 211)

"pour être envoyé dans les villes où les habitants du Kaire ont pu se retirer".

(doc . 5 , doss . 211)

(ال لا تحصى ولا تعد ...) بعد مثال فريد من نوعه حيث يكشف ميل المترجم إلى الصيغة العامية اللى وذلك فى الوثيقة 7 للحافظة 211.

والواقع أنه يوجد العديد من الأمثلة فى هذا الصدد ولكن ما نقدمه ما هو إلا نبذه سريعة لما ورد بشأن ضمير الوصل (الذى).

تعثر المترجمين فى التعامل مع النفى فى اللغة العربية.

(لا) النافية للجنس

ورد فى وثيقة الرحيل النهائى للحملة الموقعة من الجنرال بليار Belliard

"لا أحدا من اهالى مصر المحروسة (...) لا يكون قلقا (...)".

اسم لا النافية للجنس يكون مرفوعاً وخبرها منصوباً، وقد تكرر ذلك فى كل من الوثيقة 10 حافظة 211 ، سطر 15 والوثيقة 7 ، ح 211 سطر 66.

حرف النفى لم.

تكرر ظهور (لم) فى الصيغة التالية :

لم + احدا + فعل مضارع مجزوم + هم

ونقرأ فى وثيقة بليار التى يعلن فيها للمصريين رحيل الفرنسيين عن مصر:

لم احدا يقارشهم التى ترجمت إلى :

Ne cesseront d'être respctées

لم احدا يعارضهم Sans qu'après son départ sa famille soit inquiétée

فى النص الفرنسى جاء الفعل فى المستقبل بينما (لم) تأتى مع الفعل المضارع المجزوم لتغض وقوع الحدث فى الماضى فنقول مثلاً : لم يحدث ضوضاء وقد وردت فى وثيقة الجنرال بليار(صيغة أخرى لـ (لم) ألا وهى : " لم هم من هذه الوصايا ". والملاحظ أن هذه الجملة لا تشتمل على فعل .

* * *

إن النتيجة التى يمكن أن نستخلصها من هذه الورقة أن الترجمة من الفرنسية إلى العربية واجهت صعوبات ليست بالهينة، وهو ما انعكس بوضوح فى ضعف التركيبة اللغوية المستخدمة فى الترجمة وبالقدر نفسه فى الغموض الذى غلف مجمل النصوص المترجمة، والتى سببت فى كثير من الأحيان صعوبة فى فهم المصريين آنذاك لمضمونها ؛ ولهذا اضطر الفرنسيون فى بعض الحالات إلى إعادة ترجمة بعض المنشورات مرتين ! لكن على أية حال يجب أن نضع فى الاعتبار أن هذه الترجمة كانت المحاولة الأولى من نوعها فى مجال الترجمة من الفرنسية إلى العربية ، والتحليل المقارن أثبت أن مترجمى هذه الوثائق قد فضلوا "الترجمة الحرفية" ، وعلى الرغم من ذلك يجب أن نشير هنا إلى أن المترجمين قد نجحوا بدرجة أو بأخرى فى توصيل مضمون المنشورات بشكل مألوف للمصريين آنذاك وفى إطار يخضع إلى حد ما للموروث الثقافى ولنظم الحياة السائدة فى المجتمع المصرى عند أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر .

ثبت باهم مترجمى الحملة الفرنسية

لعب المترجمون أثناء الحملة الفرنسية على مصر دوراً كبيراً حيث كانوا يمثلون حلقة الوصل بين الغزاه الحاكمين وبين الشعب المغلوب على أمره وقد بلغ من أهمية الترجمة أن أصبح لها لجنة خاصة ضمن لجان المجمع العلمى الذى كونه بونابرت بالقاهرة وتتكون هذه اللجنة [1] من ثمانية أعضاء مثلهم كل من : فانتور (Venture)، مجالون (Magallon) ، لوماكا (L'Homaca)، جوبير (Jaubert)، دولابورت (Delaporte)، ريج (Reige)، براسفيش (Bracevich)، بلتيت (Belleteste).

وقد قسم الدكتور جمال الدين الشيال[2] المترجمين الرسميين فى عهد الحملة إلى أربعة أقسام :

1. الأسرى: تضمنت الحملة أسرى مالطة وهم أتراك وعرب ومغاربة حررهم الفرنسيون من أسر القديس يوحنا بجزيرة مالطة وصحبوهم إلى مصر وأطلقوهم ليوزعوا المنشور الأول لبونابرت بين المصريين .
2. المستشرقون: وهم العارفون باللغة العربية من رجال الحملة، وأهم هؤلاء :

1. فانتور Jean Michel Venture de Paradis

هو أحد أعضاء لجنة الترجمة بالمجمع العلمى وأكبرهم سناً قضى أربعين سنة من حياته فى الشرق . فكان مترجما بالسفارة الفرنسية فى تركيا، ثم مترجما للغات الشرقية للحكومة الفرنسية فى باريس ورحل كذلك إلى القاهرة قبل الحملة بثمانية أعوام حيث وطد علاقته ببعض المشايخ وكبار الأقباط وعدد من المماليك . وفى

باريس وصل Venture De Paradis قبل الثورة إلى منصب " سكرتير الملك ومترجمه للغات الشرقية " صحب بونابرت على الباخرة L'Orient حيث عين كبير مترجمين الحملة ومستشاراً لبونابرت فى الشئون الشرقية وهو الذى ترجم المنشور الأول الذى وجهه بونابرت للمصريين . واصطحبه بونابرت فى حملته على سوريا وهناك أصيب بالدوسنتاريا ومات أثناء حصار عكا .

2. جوبير (1779-1847) Louis – Amédée Jaubert

تتلمذ على أيدى كل من دى ساسى (Silvestre de Sacy) وفانتور . وقد خلف فانتور فأصبح كبير مترجمى الحملة .

3. براسفيش (Damien Bracevich)

كان يشغل قبل الحملة وظيفة المترجم الأول للقنصلية الفرنسية بطرابلس الشام. وعند مجىء الحملة الى مصر كان يعمل سكرتيراً لقنصليتهم بالإسكندرية . فألحق بالعمل مترجما مع الجنرال بوسيلج مدير الشئون المالية ثم كبيراً لمترجمى الجنرال كليبر Kléber وقد اشترك مع لوماكا L'Homaca" فى ترجمة الوثائق والمنشورات الخاصة بقضية مصرع هذا القائد .

4. لوماكا L'Homaca

كان يعمل بالترجمة العربية قبل الحملة فى بعض مناطق حوض البحر المتوسط ، كما عمل سكرتيراً ببعض القنصليات الفرنسية فى الشرق العربى . تم إلحاقه بالحملة فى عهد Kléber .

وإلى جانب هذا الصف الأول من المستشرقين عمل فى ترجمة المنشورات عدد أقل جهداً وذكراً . ومن بين هؤلاء جان جوزيف مارسيل Jean- Josephe Marcel الذى ساهم فى ترجمة بعض النصوص ، بيد أن دوره الأهم كان فى عملية الطباعة ؛ لذلك آثرنا عدم الحديث عنه فى مجال الترجمة، ولكن مما يذكر عنه أنه وجد صعوبة كبيرة فى التعامل اليومى مع الأهالى لجهله باللغة العربية العامية التى كانت دارجة على لسانهم .

5. المترجمون الشرقيون :

"كان السوريون أكثر شعوب الشرق الأدنى اتصالاً واختلاطاً بشعوب أوربا المطلة على البحر الأبيض المتوسط فى العصور الوسطى، ففى ربوع بلادهم كانت ميادين الحروب الصليبية ، وفى شواطئ سوريا قامت الإمارات اللاتينية ، وعاش أخلاط من هذه الشعوب اللاتينية ، وانتهت الحروب الصليبية ، ولكنها خلفت فى الشام طائفة من المسيحيين تدين بالمذهب الكاثوليكى ، وتعترف بالولاء لزعيم الكاثوليك ورئيسهم " البابا" المقيم فى روما ، ولذلك ظلت رحلة البطارقة والمطارنة والقساوسة السوريين دائمة إلى " روما" لزيارة مقر البابوية ، ولتلقى العلوم الدينية فى مدارس " روما " الدينية ، وكثر – تبعا لهذا – العارفون باللغتين الفرنسية والإيطالية بين كاثوليك سوريا"[3] . ثم تعرض مسيحيو سوريا للاضطهاد "فهاجر أهل دمشق الشام إلى مصر ولقبوا بالشوام ثم عم هذا اللقب كل السوريين المهاجرين إلى مصر . وعملوا بالتجارة وازداد نفوذهم ، حيث كان من بين أعضاء الديوان الذى أنشأه بونابرت اثنان من السوريين هما يوسف فرحات وميخائيل كحيل[4]". أما الجنرال مينو فقد اختار لنفسه مترجمان سوريان : القس رفائيل "ترجمان كبير " والياس فخر " ترجمان صغير " .

وفى أمر المترجمين الشرقيين ذكر الجبرتى : " كان فى الجزيرة (مالطة) نحو ثمانمائة من الأتراك الأسرى فأطلق نابليون سراحهم ، وأحضرهم لمصر فى السفن لإرسالهم إلى بلادهم (...) ثم ضم إلى الحملة عدداً وافراً من المالطيين والأسرى المغاربة الذين يعرفون اللغة العربية والفرنسية بصفة تراجمه "[5]. وقد تناول محقق كتاب الجبرتى قيام الشوام بالترجمة أثناء الحملة باستفاضة، ومما ذكره أن بونابرت " قد اصطحب معه فى حملته على مصر ، مترجمين شوام أغلبهم من رهبان المدرسة المارونية الشهيرة فى روما . ومن هؤلاء: الياس فتح الله ويوسف مسابكى، والراهب آنطون مشحرة الحلبى " وقد ذكر الدكتور أحمد حسين الصاوى أن الياس فتح الله قد عمل مترجما ورئيساً للعاملين بالقسم العربى لمطابع الحملة وأن مدينة ديار بكر الكردية هى

مسقط رأسه . أما يوسف مسابكى فهو من دمشق وقد عمل أيضا إلى جانب الترجمة فى مطابع الحملة .

أما التراجمة الشوام الكاثوليك المقيمون بمصر آنذاك فنذكر منهم :

1. **نصر الله النصرانى** وهو ترجمان قائم مقام بليار[6].

2. **عبود وميخائيل الصباغ** ، والمعروف أن الأخير ولد فى عكا وتعلم بها ثم عاش الأخوان فى مصر واتصلا بالفرنسيين عند دخولهم مصر وخرجا معها، وفى فرنسا اتصل ميخائيل بالمستشرق الكبير دى ساسى فى باريس التى كانت نهاية مطافه ؛ حيث توفى بها فى العام 1816 .

3. **الياس حنانيا فرعون :**

كان الياس حنانيا فرعون ، عند دخول الفرنسيين مصر ، يعمل معلماً للجمارك بالبلاد. وكان يجيد اللغات الإيطالية والفرنسية والتركية واليونانية إلى جانب معرفته بالعربية . وقد اتخذه بونابرت ترجمانا خاصاً وكاتما لأسراره بعد وفاة المستشرق الفرنسى الشهير Venture وقد استمر الياس فرعون بعد رحيل بونابرت عن مصر مترجما خاصا لكل من كليبر ومينو .

4. **الأب روفائيل :**

اسمه الأصلى انطون زخورة راهبة . وهو من أسرة سورية ولد فى مصر وتعلم فيها ثم سافر إلى روما ليكمل تعليمه الدينى هناك وأجاد الإيطالية والفرنسية إضافة إلى العربية ثم عاد لمصر . وبعد دخول الفرنسيين انضم إليهم وكان الشرقى الوحيد الذى عينه الفرنسيون عضواً بالمجمع العلمى بالقاهرة فى لجنة الفنون والآداب . كما أصبح كبير مترجمى ديوان القاهرة فى عهد مينو، ثم ارتحل بعد الحملة إلى فرنسا حيث عمل بالتدريس فى مدرسة اللغات الشرقية بباريس، ثم عاد إلى مصر بعد سقوط نابليون وأمضى بقية حياته يعمل بالترجمة فى عهد محمد على. وفى عام 1803 غادر مصر إلى فرنسا واتصل ببونابرت الذى عينه أستاذاً مساعداً بمدرسة اللغات

الشرقية بباريس على أن يقوم بإلقاء دروس فى اللغة العامية، وترجمة للمحفوظات العربية الموجودة فى المكتبة الخاصة بالآداب والتاريخ المصرى . وقد استفادت من هذه الترجمات اللجنة التى كانت تعمل لإخراج المؤلف الكبير "وصف مصر" وقد توفى رفاييل فى13أكتوبر 1831 بالقاهرة[7].

5. القس جبرائيل الطويل :

غادر مصر مع الحملة وبقى فى فرنسا إلى إن عين أستاذاً للغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس خلفاً للأب رفائيل زاخور راهبة .

ولعل السؤال الذى يفرض نفسه : ماذا عن دور المصريين فى حركة الترجمة المصاحبة للحملة ؟ والواقع أن حالة المصريين التعليمية عند دخول الفرنسيين مصر لم تكن لتؤهل أى من أفراد الشعب للقيام بهذه المهمة. ولم يعن المسلمون ولا الأقباط بتعليم اللغات فى مدارسهم آنذاك "أما علماء المسلمين الذين اتصلوا بالفرنسيين وأعجبوا بهم (فلم يكونوا) فى السن التى تسمح لهم ببدء تلقى لغة جديدة"[8]. وكان الأقباط قد اتصلوا اتصالاً وثيقاً بالفرنسيين . والمعروف أن الفرنسيين قد اختاروا مجموعة من شبان الأقباط لتعليمهم اللغة الفرنسية ، بيد أنه لم ينبغ من بينهم سوى " اليوس بقطر " الذى كان يبلغ من العمر آنذاك خمسة عشر سنة ، فتتلمذ عليهم وارتحل معهم من مصر إلى مارسليا وأتقن اللغة الفرنسية . وفى عام 1812 استدعى إلى باريس حيث عهد إليه بترجمة بعض الوثائق العربية الخاصة بالحملة إلى الفرنسية، ثم عين مدرساً للغة العربية العامية بمدرسة اللغات الشرقية فى باريس إلا أنه توفى قبل أن يقوم بهذا العمل .

والملاحظ أنه قد عُهِدَ إلى المترجين السوريين العمل داخل الدواوين أو كمترجمين خصوصيين للقادة الفرنسيين، أما الترجمة الرسمية بين الفرنسيين والشعب فإن المسؤلين عنها لم يكونوا "على علم متين باللغة العربية لذلك جاءت النصوص المترجمة ضعيفة وركيكة ، وأقرب إلى اللغة العامية منها إلى اللغة الفصحى "[9].

وكان الجبرتى ينقد فى ثنايا مؤلفاته اللغة العربية التى كتب بها هؤلاء الغزاة منشوراتهم . وفى ذلك يقدم الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم فى تحقيقه لكتاب الجبرتى " مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس" :

كان (الجبرتى) ينقد لغة هذه البيانات والأوامر والقرارات ، وفحواه" [10] .

مما يرويه د . جمال الدين الشيال عن هذه الانتقادات عن لسان الجبرتى عند ذكر قواعد وشروط إنشاء الديوان فقال إنهم كتبوها " بتعبيرات سخيفة يفهم منها المراد بعد التأمل الكثير لعدم معرفتهم بقوانين التراكيب العربية ". وعند رصد محاكمة سليمان الحلبى قال فى مقدمتها ." وقد كنت قد أعرضت عن ذكرها لطولها وركاكة تركيبها لقصورهم فى اللغة ، ثم رأيت كثيراً من الناس تتشوق نفسه إلى الاطلاع عليها... "[11].

ويذكر الجبرتى فى حادثة التحقيق مع سليمان الحلبى أن Bracevich أو (Brachwich) كما ذكره هو كان " كاتم سر وترجمان سارى عسكر العام"، فيقول :

" فحالا بدى الفحص بحضور سارى عسكر منو الذى هو أقدم اقرانه فى العسكر وتسلم فى مدنية مصر . والفحص المذكور صار بواسطة الخواجا براشويش (Brachwich) كاتم سر وترجمان سارى عسكر العام ومحرر من يد الدفتردار سارتلون الذى حضره سارى عسكر منو لاجل ذلك المتهوم المذكور"[12].

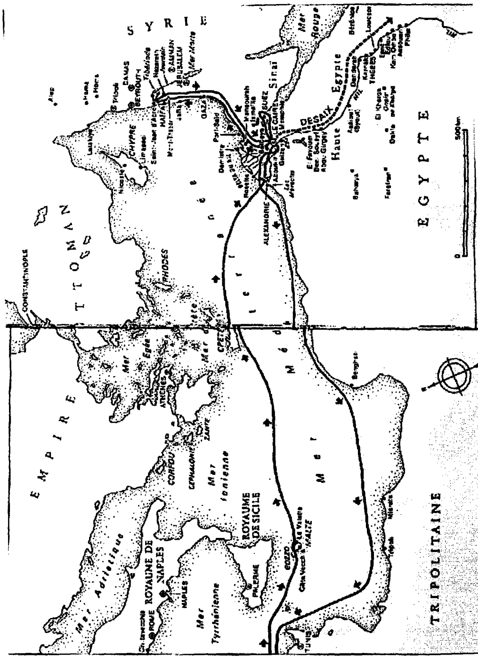
ولفظة (الفحص) لدى الجبرتى تعنى (الاستجواب) وقد ذكر ذلك بوضوح :

" فسارى عسكر منو أمر بفحصهم (استجوابهم) فبدى ذلك حالا فى حضور بعض سوارى العساكر المجتمعين بذلك بواسطة الستوين لوماكا الترجمان "[13].

وهذا يعنى أن المترجمين ليسوا من أصول عربية، وهذا يفسر ضعفهم فى اللغة العربية ، والوثائق التى بين أيدينا خير شاهد على هذا القصور وهذا الضعف فى اللغة العربية لدى المترجمين .

2- جدول يوضح أرقام المنشورات المستخدمة فى الدراسة وتواريخها الزمنية (وجميعها محفوظة فى أرشيف المكتبة المركزية – جامعة القاهرة)

رقم الوثيقة	تاريخها
1- وثيقة 15 ، حافظة 206	13 مسيدور سنة 6 من إقامة الجمهور الفرنساوى أى 17 محرم سنة 1213 من الهجرة أى 2 يوليو 1798.
2- وثيقة 16 ، حافظة 206	الأحد 17 صفر سنة 1214 للهجرة أى 3 ترميدور سنة 7 من إقامة الجمهور الفرنساوى أى 22 يوليو 1799.
3- وثيقة 5 ، حافظة 211	12 ربيع أول سنة 1215 من الهجرة 19 ترميدور سنة 8 إقامة الجمهورية الفرنسية.
4- وثيقة 7 ، حافظة 211	7 برومير سنة 9 من إقامة جمهور الفرنساوي
5- وثيقة 6 ، حافظة 211	12 رجب سنة 1215 من الهجرة ، 15 فريمير – سنة 9 من إقامة جمهور الفرنساوى.
6- وثيقة 4 ، حافظة 211	17 شعبان سنة 1215 من الهجرة 13 نيموز سنة 9 من إقامة جمهور الفرنساوى.
7- وثيقة انسحاب القوات الفرنسية من مصر	الثلاثاء 18 صفر سنة 1216 من الهجرة 10مسيدور سنة 9 من إقامة جمهور الفرنساوى ، 29 يونيو 1801.


EMPIRE OTTOMAN
SYRIE
EGYPTE
TRIPOLITAINE
ROYAUME DE NAPLES
ROYAUME DE SICILE
Mer Méditerranée
Mer Adriatique
Mer Tyrrhénienne
Mer Ionienne
Mer Egée
Mer Rouge
Sinaï
Haute Egypte
DESAIX
CONSTANTINOPLE
RHODES
CHYPRE
ALEXANDRIE
LE CAIRE
SUEZ
GAZA
JERUSALEM
DAMAS
BEYROUTH
HAIFA
ATHENES
CORFOU
CEPHALONIE
ZANTE
MALTE
GOZO
PALERME
NAPLES
ROME
TUNIS
THEBES
500 km

« Il n'y a pas d'autre Dieu que Dieu [illegible] son prophète. »

« Ne les contredisez pas ; agissez avec eux comme nous avons agi avec les Juifs, avec les Italiens ; ayez des égards pour leurs Muftis et leurs Imams, comme vous en avez eu pour les Rabbins et les Evêques.

» Ayez, pour les cérémonies que prescrit l'Alcoran et pour les mosquées, la même tolérance que vous avez eue pour les couvents, pour les synagogues, pour la religion de Moïse et de Jésus-Christ.

» Les légions romaines protégeaient toutes les religions. Vous trouverez ici des usages différents de ceux de l'Europe. Il faut vous y accoutumer. Les peuples chez lesquels nous allons traitent les femmes différemment que nous ; mais dans tous les pays, celui qui viole est un monstre.

» Le pillage n'enrichit qu'un petit nombre d'hommes ; il nous déshonore, détruit nos ressources et nous rend ennemi des peuples qu'il est de notre intérêt d'avoir pour amis.

» La première ville que nous allons rencontrer a été bâtie par Alexandre. Nous y trouverons à chaque pas des souvenirs dignes d'exciter l'émulation des Français. »

Pour indiquer que l'étude du pays et le progrès de sa civilisation l'emportaient dans son esprit sur sa conquête militaire, Bonaparte avait placé, en tête de sa proclamation, son titre de Membre de l'Institut avant celui de Général.

Les mêmes sentiments inspirèrent son appel aux populations. Rédigé en arabe, il était antidaté du 14 messidor an VI (2 juillet 1798), 18 du mois de Maharrem, l'an de l'Hégire 1213 :

« Peuples de l'Egypte ! [illegible] y lisait-on.

« Depuis assez longtemps les Beys qui vous [illegible] pas arrivés.

» Depuis trop longtemps ce ramassis d'esclaves achetés dans la Géorgie et la Caucasie tyrannise la plus belle partie du monde ; mais Dieu, de qui dépend tout, a ordonné que leur empire finît.

» Peuples de l'Egypte, on vous dira que je viens détruire votre religion : ne le croyez pas ! Répondez que je viens vous restituer vos droits, punir les usurpateurs, et que je respecte plus que les Mamelouks, Dieu, son Prophète et l'Alcoran.

» Dites-leur que tous les hommes sont égaux devant Dieu ; la sagesse, les talents et les vertus mettent seuls de la différence entre eux.

» Or, quelle sagesse, quels talents, quelles vertus distinguent les Mamelouks, pour qu'ils aient exclusivement tout ce qui rend la vie aimable et douce ?

» Y a-t-il une belle terre ? Elle appartient aux Mamelouks. Y a-t-il une belle esclave, un beau cheval, une belle maison ? Cela appartient aux Mamelouks.

» Si l'Egypte est leur ferme, qu'ils montrent le bail que Dieu leur en a fait ! Mais Dieu est juste et miséricordieux pour le peuple.

» Tous les Egyptiens seront appelés à gérer toutes les places ; les plus sages, les plus instruits, les plus vertueux gouverneront et le peuple sera heureux.

» Il y avait parmi vous jadis de grandes villes, de grands canaux, un grand commerce. Qui a tout détruit, si ce n'est l'avarice, les injustices et la tyrannie des Mamelouks ?

» Cadis, Cheiks, Imams, Tchorbadjis, dites au peuple que nous sommes les vrais amis des Musulmans.

» N'est-ce pas nous qui avons détruit le Pape, qui disait qu'il fallait faire la guerre aux Musulmans ?

N'est-ce pas nous qui avons détruit les Chevaliers de Malte, parce que ces insensés croyaient que Dieu voulait qu'ils fissent la guerre aux Musulmans ? N'est-ce pas nous qui avons été dans tous les siècles les amis du Grand Seigneur, le Sultan de Constantinople (que Dieu accomplisse ses désirs !) et l'ennemi de ses ennemis ? Les Mamelouks, au contraire, ne se sont-ils pas toujours révoltés contre l'autorité du Grand Seigneur, qu'ils méconnaissent encore ? Ils ne font que leurs caprices.

» Trois fois heureux ceux qui seront avec nous ! Ils prospéreront dans leur fortune et leur rang. Heureux ceux qui seront neutres ! Ils auront le temps d'apprendre à nous connaître, et ils se rangeront avec nous.

» Mais malheur, trois fois malheur, à ceux qui s'armeront pour les Mamelouks et combattront contre nous ! Il n'y aura pas d'espérance pour eux : ils périront. »

Cet appel était suivi d'un certain nombre de prescriptions, que les populations et leurs Cheiks étaient invités à respecter :

« ARTICLE PREMIER. — Tous les villages situés dans un rayon de trois lieues des endroits où passera l'armée, enverront une députation pour faire connaître au général commandant les troupes qu'ils sont dans l'obéissance et le prévenir qu'ils ont arboré le drapeau de l'armée bleu, blanc et rouge.

» ART. 2. — Tous les villages qui prendront les armes contre l'armée seront brûlés.

» ART. 3. — Tous les villages qui se seront soumis à l'armée arboreront avec le pavillon du Grand Seigneur, notre ami, celui de l'armée.

» ART. 4. — Les Cheiks feront mettre les scellés sur les biens, maisons, propriétés qui appartiennent aux Mamelouks et auront soin que rien n'en soit détourné.

» ART. 5. — Les Cheiks, les Cadis et les Imams continueront leurs fonctions et leurs places. Chaque habitant restera chez lui et les prières continueront comme à l'ordinaire. Chacun remerciera Dieu de la destruction des Mamelouks et criera : « Gloire au Sultan ! Gloire à l'armée française, son amie ! Malédiction aux Mamelouks et bonheur aux peuples d'Egypte [11] ! »

Si cet appel avait pour objet de dresser les Arabes contre les Mamelouks et d'isoler ceux-ci au sein du pays, la lettre adressée à Abou-Bekr, représentant du Sultan au Caire, écrite à bord de l'*Orient* le 30 juin 1798, était destinée à lui faire savoir qu'il n'avait rien à redouter de l'armée française, qu'elle arrivait en amie pour le libérer de la tutelle humiliante que lui infligeaient ceux qui auraient dû se considérer comme ses loyaux sujets.

« Le Directoire exécutif de la République française, y déclarait Bonaparte, s'est adressé plusieurs fois à la Sublime Porte pour demander le châtiment des Beys d'Egypte, qui accablaient les commerçants français.

» Mais la Sublime Porte a déclaré que les Beys, gens capricieux et avides, n'écoutaient pas les principes de la Justice, et que non seulement Elle n'autorisait pas les outrages qu'ils faisaient à ses bons et anciens amis les Français, mais que même Elle leur ôtait sa protection.

» La République française s'est décidée à envoyer

GÉNÉRAL DE DIVISION

BELLIARD,

andant le Kaire et les Troupes de l'Arrondissement,

ux Habitans du Kaire, de toutes les Religions.

من حضرة المكرم الجنرال بلـيار قيمقام مـصـر حالا وسارى عساكر الشرق
خطابا الى جميع اهالى محروسة مـصـر ✿

ثم انه اراد الله تعالى بالصلح ما بين
الفرنساوية وعساكر الانكليز وعساكر اله
مع هذا الصلح انفسكم واديانكم وعا
يفارقهم ورؤس عساكر الثلاثة جيوش
بينها كما ترونه فى الشرط الثانى عشر والثالث

الشرط الثانى عشر

كل واحد من اهالى مصر المحروسة من كل
الذى يريد يسافر مع الفرنساوية يكون مط
وبعد سفره كامل ما تبقى اعياله ومصالحه
يعارضهم

الشرط الثالث عشر

لا احدا من اهالى مصر المحروسة من كل
لا يكون قلقا من قبل نفسه ولا من قبل م
الذين كانوا بخدمة الجمهور الفرنساوى بد
الجمهور بمصر ولكن الواجب يطيعون الشريعة

ثم يا اهالى مصر واقاليمها جميع الملل انتم
حتى اخر درجة الجمهور الفرنساوى ناظر لكم
فيلزم انتم ايضا تسلكوا فى الطريق ال
وتفتكروا ان الله تعالى جل جلاله هو الـ
كل شي والسلام .

حرر فى .. صفر سنة ١٢١٥

ممضى

الجنرال بـلـيـار قيمقام مصر حالا .

PAR la volonté de Dieu tout puissant, l
paix vient de se conclure entre les armé
française, anglaise et ottomane ; mais par ce
arrangement vos personnes, vos religions,
vos propriétés ne cesseront d'être respectée
les trois puissances en prennent l'engagemen
formel, comme vous pouvez en juger par l
deux articles du traité de paix transcrits c
après :

ART. XII.

« Tout habitant de l'Egypte, de quelq
» nation qu'il soit, qui voudra suivre l'arm
» française, sera libre de le faire, sans qu'apr
» son départ sa famille soit inquiétée, ni s
» biens confisqués. »

ART. XIII.

« Aucun habitant de l'Egypte, de quelq
» religion qu'il soit, ne pourra être inqui
» ni dans sa personne, ni dans ses biens, pc
» les liaisons qu'il aurait eues avec les Fra
» çais pendant leur occupation de l'Egyp
» pourvu qu'ils se conforment aux loix
» pays. »

Habitans du Kaire et de l'Egypte, de tou
les religions, vous voyez que jusqu'au dern
moment les Français n'ont cessé de veille
votre repos et à votre sûreté : montrez-v
dignes de tout ce que nous avons fait p
vous, en ne vous écartant pas de la bo
voie ; songez toujours que Dieu est puiss
que c'est lui qui dirige toutes choses.

Le Général de Division,

Signé BELLIAR

MENOU,

GÉNÉRAL EN CHEF,

aux Cheykhs du village el-Qaouet el-Qouddamy, Province d'Attfyèhhly, ABOUKET et BARAKET.

من عبد الله جاك منو ساري عسكر
امير عام جيوش دولة جمهور الفرنساويه بالشرق
وناظر حكومتها بمصر
الى المشايخ ابوكت وبركت مشايخ بلد قوة القدامى
بولاية اطفيحيه

ايها الرجال المكرمين والموجودين لابد لهم دايما لجرة اعمال خيرهم

NOM DE DIEU, CLÉMENT ET MISÉRICORDIEUX.

Il n'y a de Dieu que Dieu, et Mahomet est son Prophète.

LES hommes généreux et bienfaisans reçoivent toujours la récompense de leurs bonnes actions. J'ai appris que vous aviez reçu trois Français qui avaient fait naufrage près du village où vous habitez; que vous leur aviez donné des vêtemens, ainsi que tout ce qui était nécessaire pour leur subsistance. J'ai également appris que vous aviez empêché qu'ils ne tombassent entre les mains de quarante brigands qui voulaient les enlever; que même vous et les habitans de votre village aviez pris les armes pour les défendre, et qu'ensuite vous les aviez conduits à Béni-Soueyf. Le Gouvernement français est toujours empressé de témoigner sa reconnaissance à ceux qui se conduisent bien. J'envoie à chacun de vous une pelisse, comme gage de mon amitié, et je remets à vous et à votre village le quart des impositions que vous auriez dû payer pour l'année courante. Que Dieu et son Prophète vous donnent de longs jours, et vous fassent jouir de tout le bonheur que vous méritez.

Au Kaire, le 23 nivôse an 9 de la République Française.

Signé MENOU.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا اله الا الله محمد رسول الله

ورد لنا خبرا صحيحا بانكما خلصتما ثلاثه فرنساويه الذين
تكسرت مركبهم قريبا لناحيتكما وكذلك اعطيتما لهم كسوات
وكنتما نزم لمعيشتهم وعرفنا ايضا من غير ذلك انكما منعتما ان
لا يقعوا المذكورين تحت ايادي اربعين الشرار والرار الذين كانوا
طالبين يلخذوهم وانتما واهالي ناحيتكما حملتم السلاح لحمايه
الفرنساويه المذكورين من هولاى الاشرار وان بعد ذلك ارشدتوهم
الى بني سويف امنا وسالما انما حكومة دولة جمهور الفرنساويه
دايما تستعجل لمكافاة معاملتها الى كامل من يهتدي بالاستقامة
لخدمتها فبناء على ذلك ارسلنا الى كل منكما فروه لاعلام
محبتنا لكما وانعمت عليكما وعلى بلدكما ربع الرسوم التي
عليكما اداها بسنة تاريخه فالله تعالى بحرمة رسوله النبي
يمن لكما ايامًا طويلة ويتمم لكما الخير بالذي تستحقوه
والسلام

في ٢٠ نيوز سنة ٩ الموافق في ١٠ شعبان سنة ١٢١٥
خالص الفياد
عبد الله جاك منو

MENOU,

GENERAL EN CHEF,

aux Habitans du Kaire et de toute l'Egypte.

من عبد الله جاك منو سر عسكر العلم وامير جيوش الفرنساويه ببر مصر حالا

Au Quartier-général du Kaire, le 15 frimaire an 9 de la République Française.

…M DE DIEU CLÉMENT ET MISERICORDIEUX.

…a de Dieu que Dieu, et Mahomet est son Prophète.

…ANS du Kaire et de toute l'Egypte, je …i déjà dit plusieurs fois que je ne pu…que les méchans et les hommes qui ne …ient pas Dieu et son prophète; je vous ai …e je punissais de mort les assassins et les …, parce que je voulais qu'en Egypte …pût vaquer à ses affaires et à son com… sans craindre d'être volé ou assassiné. …ous le répète encore, la République …se et le premier consul, le célèbre … BONAPARTE, m'ont ordonné de …uverner avec douceur, justice et hu… Ayez donc confiance en mes paroles …es promesses. Que ceux qui se con… avec un cœur droit et vertueux, vivent … paix et la tranquillité ; que les mé… les voleurs et les perturbateurs du re…lic, tremblent ; je les vois, je suis …s, je connais leur démarche.

…ans du Kaire et de toute l'Egypte, … invite à cultiver vos terres et vos jar… vois journellement des terreins incultes …donnés. Rebâtissez vos murs, raccom… vos citernes et les machines qui portent … dans vos propriétés. Fertilisez tous les … de l'Egypte ; n'ayez aucune crainte ; … vous trouverez sûreté et protection : …e, au nom du Dieu vivant, et de …t son prophète.

… les généraux et commandans mili… ainsi que le directeur général et comp… et le chef de l'administration de la jus… …ont distribuer cette proclamation dans …s villes et villages de l'Egypte. Elle …primée à deux colonnes en français …rabe.

Signé MENOU.

بمقام السر عسكر العلم بمصر القاهرة في ١٥ شهر فريمير سنة ٩ من اقامة دولة جمهور الفرنساويه الموفق في ٢٠ شهر رجب سنة ١٢١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

لا اله الا الله محمد رسول الله

ياأهالي مصر القاهرة وجميع بر مصر قلت لكم بمرات عديدة انما انا لا اعاقب الا الأشرار والذين لا خوف لهم من الله ورسوله قلت لكم ايضا انا اعذب بالموت القتالين والحرامية بما ان مقصودي هو انه ان كل واحد منكم يقتدر على الاقامة باشغاله وتجارته ببر مصر بلا خوف من القتل والسرقه

فاقول لكم مرة ثانية ان الجمهور الفرنساوي وقنصلها الاول اجل ارباب الجرأة والشجاعة بونابارته امروني بحسن سياسة هذه المملكة واهاليها وذلك بالانصاف والعدل والمروة فاعتمدوا في اقوالي ومواعيدي فليعيشوا بالاستراحة ورفاهية البال الذين يعبدوا ويتمسكوا بالتقوى وبالقلب السليم ولا احدا منهم يفزع انما يفزع المفسدون والأشرار والسراق انما غير ناظرين وتابعون خطواتهم وعارفون بمشيهم

فياأهالي بر مصر ومصر القاهرة اني انا ادعيكم بتفليح وتربيت اراضيكم وبساتينكم فاني ارى في كل يوم اراضي غير مروية ومتروكة تعمروا جدرانها ومعاريها والسواقي الناقلة لها الماء في املاككم واغتنوا بالبركة جميع اطيان بر مصر بالهنا والعافية فلا تفزعوا قط انما ستلاقوا في كل وقت في جميع المواضع الامانة والصيانة فاقسمت باسم الله الحي القيوم وبحرمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم

انا اوصينا وامرنا الى جميع السر عسكرية ورؤسا الجيوش والى مدير العلم المحتسب والى رئيس الشريعة باقرار وانتشار هذا النداء في البلاد والمدائن في اقاليم بر مصر وطبعها بالجهتين جهة بلسان الفرنساوي وجهة بلسان العربي والسلام

بمضي عبد الله جاك منو

Que sont devenus les biens appartenans aux mosquées? que sont devenues les immenses fondations pieuses, faites par vos ancêtres? à quoi étaient-elles destinées? A entretenir les mosquées? par-tout je les vois détruites ou prêtes à s'écrouler. A nourrir les pauvres? par-tout ils meurent de faim; les rues et les chemins en sont pleins. A soigner les malades, les infirmes, les aveugles et tous les hommes sans ressources? les maisons destinées à les recevoir, sont, ainsi que les mosquées, dans le plus grand désordre; les malheureux qui y sont renfermés, ressemblent plutôt à des victimes condamnées à perdre la vie, qu'à des hommes rassemblés pour recevoir des soulagemens. Qui a donc consumé tous ces biens, toutes ces fondations? des hommes puissans qui vous ont trompés jusqu'à présent.

Ce temps est passé: je vous répète encore que j'ai reçu l'ordre de la République Française et du consul BONAPARTE, de vous rendre heureux; je ne cesserai d'y travailler.

Mais je vous avertis aussi, que si vous n'êtes pas fidèles aux Français, que s'il vous arrivait encore, pressés par de mauvais conseils, de vous élever contre nous, notre vengeance serait terrible; et, j'en atteste ici Dieu et son prophète, tous les maux retomberaient sur vos têtes. Rappelez-vous ce qui est arrivé au Kaire, à Boulaq, à Mehhaleh-el-Kebyr, et autres villes de l'Egypte? le sang de vos pères, de vos frères, de vos enfans, de vos femmes, de vos amis, a coulé comme les flots de la mer; vos maisons ont été détruites; vos propriétés ravagées et consumées par le feu. Quelle a été la cause de tout cela? les mauvais conseils que vous aviez écoutés, les hommes qui vous avaient trompés: Que cette leçon vous serve pour toujours! soyez sages, tranquilles; occupez-vous de vos affaires, de votre commerce; cultivez vos terres; et par-tout vous n'aurez dans les Français que des amis généreux, des protecteurs et des défenseurs: je vous le jure, au nom du Dieu vivant, au nom du Dieu qui voit tout, qui dirige tout, et qui connaît jusqu'au plus secrettes pensées de nos cœurs.

LE GÉNÉRAL EN CHEF de l'Armée française,

Signé MENOU.

وكيف صارت الاموال المختصه للجوامع وكيف صارت الى العدما والانعد
اوقاف اجدادكم طالب تراهم فلاى شئ اوقفوهم لاجل جوامكم هو انه لتعمير
الجوامع فيالحيرتي هم مهدومين كليا او متهدما ولعيشة الفقرا فى الاجانب
والفقرا فى كل الجوانب ميتين من الجوع [illegible] منهم فهل ذاك
الاوقاف اوقفوهم الا الى المرضا والى [illegible] والعادمين المعيشه فبيوت
مسكنهم هم مثل الجوامع [illegible] والمعدومين البخت المحبوسين
فيها يتشابهوا [illegible] على رجال مجمعه ليلاخذوا خفه لحالهم
[illegible] الاموال وهذه الاوقاف فان سالتم عنها فهم
[illegible] غدروكم الى هذا الان

[illegible] لكم ايضا انه جانى امر من الجمهور الفرنساوى
[illegible] ان اسعدكم وافلحكم وانا اكون دايما مشغول بذلك
[illegible] ايضا ان كان انتم غير صادقين لجمهور الفرنساويه وان كان ايضا انتم
[illegible] الاشرار وتقوموا علينا بالعند والمخالفه ففى الحال انتقامنا قريب
[illegible] وعزة الله وحرمة رسوله ان كل ما يوقع من الضرور ما يسقط الا على روسكم
فتذكروا ما وقع بمصر القاهره وببولاق وبالمحله الكبرى وساير مداين بر مصر
فان دماء ابايكم واخوانكم واولادكم ونسايكم واحبابكم قد جرى مثل امواج
البحار وبيوتكم انهدموا واملاككم انتهبوا وتلفوا بالنار فماهو سبب صار كل
هذا الشى فهو باستماع نصايح الاشرار الذى سمعتم منهم وهم الناس الذين كانوا
غدروكم فليكون دايما هذا الدرس لخبركم وكونوا بعد اليوم عاقلين ومسترحين
واشتغلوا باموركم وتجارتكم وافلحوا اراضيكم فدكل المواضع ما تلاقوا من الفرنساويه
الا احباب كرمه وساينيكم وحاميينكم فاقسمت لكم باسم الله الحى باسم الله
الذى يرى ويهدى كل شى ويعرف ما فى الضماير وسراير قلوبنا

خالص الفواد

عبد الله جاك منو

امير عام جيوش عسكر جمهور الفرنساويه

AU KAIRE, DE L'IMPRIMERIE NATIONALE

*Je viens, ô habitans d'Égypte, de créer un tribunal suprême au Kaire : il est composé des cheykhs les plus recommandables par leur sagesse, leurs vertus et leur désintéressement; ils sont destinés à maintenir la religion dans sa pureté, et à vous juger. Je suis convaincu qu'ils s'aquitteront de leurs fonctions, ainsi que doivent le faire des hommes qui craignent Dieu et son prophète; mais je vous déclare, ainsi qu'à eux, que si, ce que je ne puis croire, ils manquaient à leurs devoirs, ils seraient punis avec la dernière sévérité.

Jusqu'à présent, les interprètes exigeaient de vous des avanies, en vous promettant la protection de leurs maîtres; ils vous trompaient; cela n'arrivera plus : si quelques-uns d'entr'eux exigent de vous de l'argent et des présens, avertissez en les généraux ou moi; ces méchans seront punis de la manière la plus terrible. Ces hommes, pour vous engager à leur donner de l'argent, vous disent que ce sont les Français, leurs maîtres, qui l'exigent; ou bien encore ils vous disent qu'il n'est pas possible de voir les généraux ou autres français en place, ni de leur parler: ils vous trompent; leurs paroles ne sont que mensonges; faites-les connaître, ils seront punis.

Souvent, quand les Français ou les troupes voyagent, un domestique, un interprète, un écrivain, ou tout autre, se détachent en avant, entrent dans vos villages, et vous disent, pour vous effrayer, que les Français demandent pour vivre un nombre considérable de buffles, de chèvres, de moutons ou autres objets. Alors vous les priez de s'intéresser pour vous; ils s'y refusent pour mieux vous effrayer, et vous finissez par leur donner de l'argent : ils vous ont encore trompés, et ils trompent leurs maîtres.

Dans les villes, les aghas qui sont chargés de la police, de la propreté, des subsistances, avaient jusqu'à présent exigé de vous des droits de toute espèce; tous ces droits particuliers sont abolis : je vous défends de leur rien payer; ils recevront un salaire que fixera la loi.

Je sais que ceux qui sont chargés de veiller à la justesse des poids, se présentent souvent chez les marchands : ils prétendent toujours trouver les poids faux : alors [illegible] gions. Le marchand s'effraye, il promet qu'il se rendra le lendemain chez l'agha des poids et mesures; il s'y rend effectivement, et porte en présent 20, 30, 50 pataques plus ou moins. C'est ainsi, ô peuples d'Égypte, que vous avez été trompés ou vexés jusqu'à présent.

Que sont devenus les biens appartenans aux mosquées? que sont devenues les immenses fondations pieuses, faites par vos ancêtres? à quoi étaient-elles destinées? A entretenir les mosquées? par-tout je les vois détruites ou prêtes à s'écrouler . . . .

وارميتهم لايرجعوا فى شا كهم لاالغنى ولا الفقير بس ينظروا الى مــا امر الحــق لذمتهم ولا يقبلوا هدايا وكل من يخالف هذا الامر فله عذاب عقيب

يااهالى بر مصر قد جعلنا وركبنا حالا ديوانًا منيفًا بمصر القاهره فهو مركب من المشايخ الابهى والاشهر بالتقوى والحكمه فهم منصوبين لتقوية الدين وطهره ومامورين بماكاتكم انى انا متيقن انهم يعروا وضايفهم كما ينبغى بين الناس خوفًا مــن الله ورسوله والا اعلنت لكم والنيهم ان كان لم هم تابعين فى الاستقامة الواجبــة لهم وان كان هم ناقصين من وجوب وضايفهم فلابد لهم منا من اعقب العذاب

الى هذا الان التراجمين كانوا يطلبوا منكم البلص وكانوا يوعدوكم حماية معلمهم لكن كانوا يغدروكم فاما بعد اليوم وان كان واحدًا منهم طلب منكم دراهمًا او هدايا فلتخبروني اوافهموا السرى عسكريه به فى الوقت اعذب هولاى الاشرار باهون الشكل هولاى يستعملوكم ليلزموكم اعطاه دراهمكم ويقولوا لكم ان الفرنساويه معلمهم هم طالبينها والا يقولوا لكم ان لايمكن تواجهوا او تكالموا الروســا او سايــر كبرا الفرنساويه اصحاب المناصب فهم يغدروكم فكلماتهم كلها كذب عرفونى اياهم فللوقت اعذبهم

مــرارًا كثيرًا لمــا الفرنساويه وجيوشهــم يتوجهوا الخدام او الترجمــان او الكاتب اوغيرهم يفترق منهم تقدمًا ودخولًا فى بلدانكم وقايلين لكم لتخويفكم ان الفرنساويه طالبين المعيشة مقدارًا كبير من الجاموس والمعز والغنم ومايســر اشيا مثلها فالحين تستعطفوهم بهموكم وهم منكرين لكم العيانه لتخويفكم فبنهاية هذا الفعل تعطوا لهم دراهم ويااهالى بر مصر ايضًا هم غدروكم

وبالمداين الاغوات المامورين للامن والنظافه والمحتسبين كانوا خالطين منكم الى هذا الان رسومات من كل الوجوه والاشكال فكل هذه الرســومات المفردات ابطلها بالكليه صحيح اوانهى اليكم ان لاتعطوا لهم شيا بما ان لهم بعد اليوم جمكيات مسعرة من الشرع والقانون

ومعلوم ان المحتسبين المامورين الى عدالة الاوزان مرارًا كثيرًا يتقدموا على [illegible] ويامروا بالضرب بالعصا او بغيرها من التعذيب فالمتسبب يفزع ويوعد لبكرة يطلع على المحتسب وكذلك يروح له بهديه تساوى عشرين ثلاثين اوخمسين ريال اكثر او اقــل وبهذا المنوال ياامم بر مصر انغدرتم وانظلمتم الى هــذا الان

كيف صارت الاموال المختصــه بالجوامع وكيف صــارت الى الانعما والاوقاف

12

que les percepteurs arrivent en foule, il lui en coûtera alors beaucoup plus que la loi n'avait exigé. Vous voyez donc, habitans de l'Égypte, qu'il ne tient qu'à vous de diminuer beaucoup vos impositions, et de n'éprouver aucunes vexations.

وحسماية ريال وفي اخر السنه فى كلت بما طلب منها القانون ـــلا تحمل ظلم ولا بلص فان كان مده هذا التدبير تتاخر العاديه فان المحصلين يوصلوا اليها بــالكثرة فحينيذ لابد لها مصاريف أكثر من ما أمر القانون وتنظروا ياأهالي بر مصر انما الى يدكم ان تصغروا التكاليف الموضوعه عليكم وان لاتجربوا ولا بلمسه واحده

Jusqu'à présent, les moultézimes des villages vous demandaient beaucoup plus qu'il ne leur appartenait; cela n'arrivera plus. Ce que devront recevoir les moultézimes, sera fixé par la loi: je vous défends de leur payer un médin au delà de ce que j'aurai réglé; et si l'un d'eux est accusé et convaincu d'avoir exigé de vous plus qu'il ne lui revient selon la loi, il perdra sa propriété.

الى هنا الان كانوا ملتزمين البلاد طالبين منكم أكثر من ماكان اللايق منكم فهذا لم يبقى بعد وكلما هو مستحق من الملتزمين يصير مضبوط بالشرع والقانون والذي اليكم ... درهمًا واحدًا أكثر من المستحق حينيذ ... وان [illegible]

Souvent les cheykhs-el-beled vous vexent, vous font payer des avanies qu'ils partagent avec les moultézimes, les percepteurs des impositions, et autres grands du pays, qui n'ont en vue que leur avarice et votre ruine; habitans de l'Égypte, cela n'arrivera plus. Ce que devront recevoir pour leur salaires les cheykhs el-beled, sera fixé par la loi que je vous enverrai; et si l'un d'eux exige quelque chose au delà de ce qui sera ordonné par cette loi, il perdra sa place et ses propriétés.

مرارًا كثيرة مشايخ البلدان يأذوكم ويأخذوا ظلمًا منكم أموال يقتسموها مع الملتزمين ومحصلين التكاليف وساير الاغنياء الذين ما لهم فى بصيرتهم الا ظلمهم وخرابكم فياأهالي بر مصر فهذا لم يبقى بعد وبعد اليوم تحكيمات مشايخ البلاد تصير لهم مصفوة من الشرع والقانون حكم القوايم المترسل لكم وان كان احدًا منهم طلب شيئًا اكثر من ما امر به الشرع والقانون فى الحال منصبه وماكينته ضايعين

Dorénavant, vous ne nourrirez plus les troupes qui marcheront dans les provinces, que dans le cas où elles iront pour vous faire payer des contributions que vous n'auriez pas acquittées dans le temps prescrit par la loi: dans tout autre cas, elles payeront tout ce qui leur sera fourni pour leur nourriture; je donnerai à cet égard des ordres à tous les généraux et commandans. Vous voyez donc bien qu'il ne tient encore qu'à vous de vous épargner de grandes dépenses: je vous avertis de tout; ce sera donc vous-mêmes, et non pas moi, que vous devrez accuser du mal qui vous arriverait.

بعد اليوم مابقى تغدوا العساكر المشاة فى ولاياتكم الا فى تقدير الذي هم ماشيين لكم لاجل تادية التكاليف الذي مــا اديتوها فى الاوقات المامورة من الشرع والقانون اما فى كل مواضع اخرى سيعطوا ثمن كلما تعطيهم لغدياتهم فانا باعطى أوامر على كل الروسا والامراء لهذا الفرع رايتوا كذا ان لا انما فى يدكم توفروا المصاريف الكبيرة فاخبرتكم بكل شئ ثم ان كان واصل لكم شئ من الشر فى تقدير غفلتكم فحينئذ اشتكوا من انفسكم ولا تشتكوا مني

Tous les généraux et commandans français veilleront à ce que personne n'exige rien de vous au delà de ce qui sera prescrit par la loi; je vous avertis encore que vous ne devez de présens à personne. Mon devoir et celui de tous les commandans et administrateurs, est de vous écouter, de vous donner aide et protection, quand vous vous conduisez bien. Je défends aussi à vos juges d'exiger de vous aucuns présens. Dieu et Mahomet son prophète leur ordonnent de vous rendre la justice; je le leur ordonne de même, en leur prescrivant de n'avoir, dans leurs jugemens, égard ni au riche ni au pauvre, mais seulement à leur conscience et à la vérité, et sans recevoir aucuns présens: ceux qui contreviendraient à cet ordre, seront punis sévèrement.

والوالات وامراء الفرنساوية يتقيدون بالبصيرة الفايقة ان لااحدًا يطلب منكم شى أكثر من ما أمر به الشرع والقانون واخبركم ايضًا ان لا عليكم هدايا الى احد وان وظيفتي وظيفة جملة الامرا والمدبرين هو ان يسمعوكم ويعينوكم ويحموكم ويرعوا حقكم ما دام انتم سايرين فى خير حالكم وكذلك انهى الى حكامكم ان لايطلبوا منكم ولا هديه واحده فالله ومحمد رسوله امروا باجراء الحق وكذلك امرت لهم واوصيتهم لايرجعوا فى حكمهم لاالغنى ولا الفقير بس ينظروا الى مــا امر الحق لامعهم الا يقبلوا هدايا وكل من يخالف هذا الامر فله عذاب عقيب

Je viens, ô habitans d'Égypte, de créer un tribunal suprême au Kaire, composé des ch...

promettons au nom de la République, devant Dieu et son prophète, que ni moi ni aucun Français, tant qu'il me restera un cheveu sur la tête, n'attenterons à vos propriétés : en payant exactement l'impôt fixé par la loi, vous serez libres de jouir de tout ce qui vous appartient, sans que personne puisse vous en empêcher, ou vous demander compte de vos richesses.

ليلا تاخذكم وبينكم كمن كان مكتسب بتعب طويل فهم وقد كانوا ملزومين بجعلها وايضاً بدفنها تحت الارض لئلا يذهبوا ويرفعوا الى ايادى الكبراء الذين كانوا دايماً مفتشين بعلة خطفها منكم فيااهالى بر مصر انــا اوعدكم بـاسم الجمهور الفرنساوى قدام الله ورسوله ان ولا انا ولا احداً من الفرنساويه ما دام بقالى شعره فى راسى لايتعدوا الى املاككم فما دام انتم مودين الرسم الموضوع قــانوناً من الشريعه بعينه فانتم ماذونين بمحافظة مع صفاء خاطركم كلما لكم مقتنى بــلا ان اى من يصير يقتدر يمنعكم من هذا المحافظه او يطلب منكم محاسبه مالكم

Les grands et les gens puissans vous traitaient beaucoup moins bien qu'ils ne traitaient leurs chevaux et leurs chameaux ; vous le serez dorénavant par les Français et par moi, comme si vous étiez nos frères.

الكبراء والاغنياء كانوا ينظروا ويحسبوا نفسكم اقل من ما كانوا يحسبون قيمة خيولهم وجمالهم اما بعد اليوم فانتم بالجملة محسوبين ومنظورين منى ومن جميع الفرنساويه مثل ما انتم اخواننا

Quand les percepteurs du myry et autres contributions voyageaient dans les provinces, ils étaient accompagnés d'une foule de serviteurs, de domestiques, d'écrivains, de kaouas, qui tous dévoraient vos propriétés, et vous enlevaient souvent jusqu'à votre dernier médin ; il n'en sera plus ainsi, habitans de l'Egypte : si quelqu'un de ceux qui sont destinés par moi à percevoir les impositions, vous prend un seul médin au delà de ce qui sera fixé par la loi, il sera arrêté, emprisonné et condamné aux châtimens les plus sévères. La République Française et son premier consul BONAPARTE m'ont ordonné de vous rendre heureux ; je ne cesserai de travailler pour exécuter leurs ordres.

وما محصلين الميرى وساير التكاليف العرفيه كانوا متوجهين فى الولايات فكانوا مسترفقين جمع كثير من خدما وكتبا وقواصين وغيرهم الذين كانوا مستبلعين املاككم ومراراً كثيراً الى فضتكم الاخيره فبعد اليوم يااهالى بر مصر لايصير الحال كذلك وان كان احداً اى ما يكون من المنصبين منى لتحصيل التكاليف يــاخذ منكم ولو درهم واحد اكثر من ما انتظم فيه من الشريعه وفى الحال ذلك الشخص يصير موقوفاً ومحبوساً ومحكوماً فى اعقب العذاب بما ان جمهور الفرنساويــه وقنصلها الاول بونابارته امرونى باسعادكم وانا دايماً بعد اليوم مشغول بامتثال اوامرهم

Habitans de l'Egypte, si vous le voulez, le myry que vous payez, en y comprenant les autres droits qui y ont été ajoutés, diminuera considérablement. En voici le moyen : lorsque vous connaîtrez par une loi écrite, et qui sera adressée par moi à toutes les villes et villages de l'Egypte, le montant du myry que vous aurez à payer, n'attendez pas que les percepteurs aillent vous le demander ; allez vous-mêmes le porter dans les caisses des trésoriers des provinces : et pour vous faciliter le paiement, je diviserai en quatre parties égales le myry qui vous sera imposé ; tous les trois mois vous en payerez une partie. Et pour vous bien faire comprendre ce que je veux faire pour votre avantage, lisez avec attention ce qui suit :

يااهالى بر مصر ان اردتم فالميرى الذى تودونه ومضموم له ساير التكاليف العرفيه سوف يستقل جداً فها هو تقريبه بعد ما عرفتم من قانون المكتوب الذى هو مستمرسل منى الى كل المداين والبلدان مصر قيمة الميرى الذى انتم مستأديينه فــلا تنتظروا طلب محصلينها من عند بيوتكم فروحوا انتم بانفسكم واحملوها الى صناديق خزندارية الولايات فاما لتسهيل التاديه سأقسم باربعة مقدارات متساويه الميرى الموضوع عليكم وكل ثلاثة شهور تودون له قسماً من الاقسام الاربعه ولاجل ما افهمكم ما اريده خيراً لكم فاقرأو بصيرة وتاملوا مــا ياتي بيانه

Je suppose qu'un village soit imposé à dix mille pataques par an, pour son myry ; tous les trois mois il devra payer dans la caisse du trésorier de la province, deux mille cinq cens pataques : au bout de l'année il aura satisfait à ce que la loi exige de lui, sans avoir éprouvé aucunes vexations, aucunes avanies. Si au contraire il attend, pour payer,

فــبت ان بــلده مــا مــوضــوع مـيريهـا مطلوبــاً بعشرة الاف ريال كل ثلاثة شهور فعليها ان تودى على صندوق خزندار الولايه الفين

AU NOM DE DIEU CLÉMENT ET MISÉRICORDIEUX

Il n'y a de Dieu que Dieu, et Mahomet est son Prophète.

MENOU,

GÉNÉRAL EN CHEF DE L'ARMÉE FRANÇAISE,

AUX HABITANS DE L'EGYPTE.

HABITANS de l'Egypte, écoutez ce que j'ai à vous dire au nom de la République Française.

Vous étiez malheureux ; l'armée française est venue en Egypte pour vous porter le bonheur.

Vous gémissiez sous le poids des vexations de toute espèce ; je suis chargé par la République et par son premier consul BONAPARTE, de vous en délivrer.

Une multitude d'impôts vous enlevait tout le fruit de vos travaux ; j'en ai détruit la plus grande partie.

Aucune règle ne fixait d'une manière précise tout ce que vous deviez payer ; j'en ai établi une invariable. Chacun dorénavant connaîtra à quel taux s'élèvent ses contributions ; dans chaque ville, dans chaque village, dans chaque maison, [illegible] seront affichés et publiés [illegible] chacun doit payer [illegible]

Les gens puissans et les grands exigeaient de vous des avanies ; je vous engage ma parole que je n'en exigerai jamais. Parmi vous, ceux qui avaient acquis, par un long travail, des richesses et de l'argent, étaient obligés de les cacher, de les enfouir même dans la terre, pour empêcher qu'elles ne tombassent entre les mains des grands qui sans cesse épiaient l'occasion de vous les ravir ; habitans de l'Egypte, je vous

بسم الله الرحمن الرحيم

لا اله الا الله محمد رسول الله

من عبد الله جاك منو

سر عسكر عام جيوش

الجمهور الفرنساويه

الي جملة اهالي بر مصر

اسمعوا يا اهالي بر مصر الى ما اقول لكم باسم الجمهور الفرنساوي :

كنتم لا بخت لكم فواصل العسكر الفرنساويه بر مصر حاملا لكم السعادة

كنتم هالكين تحت ثقلت الظلمات من كل نوع فانا مامور من الجمهور الفرنساوي

وقنصلها الاول بونابارته بتخليصكم من هولاى الافات

[illegible] كثرة التكاليف كان يخطف منكم كل الثمر تعباتكم وانا اتلفت اكثر مقدارها

[illegible] نظام واحدة كان يسكر بشكل معلوم كلما كنتم [illegible] منها وانا اثبت

[illegible]

[illegible] الكبراء والاغنياء كانوا يطلبوا منكم [illegible] مالا يليق اما بعد اليوم ولا احدا

[illegible] من هو الظاهر حكومة الجمهور الفرنساوي ما له قدرة يطلب منكم [illegible]

AUX

HABITANS DE L'EGYPTE

doc 7 dossier 2 11

AU NOM DE DIEU CLÉMENT ET MISÉRICORDIEUX

Il n'y a de Dieu que Dieu, et Mahomet est son Prophète.

MENOU,

GÉNÉRAL EN CHEF DE L'ARMÉE FRANÇAISE,

AUX HABITANS DE L'EGYPTE.

Habitans de l'Egypte, écoutez ce que j'ai à vous dire au nom de la République Française,

Vous étiez malheureux ; l'armée française est venue en Egypte pour vous porter le bonheur.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله محمد رسول الله

من عبد الله جاك منو

سر عسكر عام جيوش

الجمهور الفرنساوية

إلى جملة أهالي بر مصر

RÉPUBLIQUE FRANÇAISE.

Général de Division BELLIARD, *commandant la Place du Kaire,*

...ruit que plusieurs habitans quittent le ...e, que des cheykhs et principaux négocians ...ent leurs familles hors de la ville en con...ion aux ordres donnés ;

...nsidérant qu'une pareille émigration ne ...qu'alarmer le peuple, et nuire à ses intérêts;

...nsidérant que dans le moment où la ville ...ite sa contribution, tous les habitans doivent ...ouver, que les cheykhs et principaux du ...doivent rester chez eux, pour veiller à ce ...la répartition des sommes qu'on exige, se ...justement et également sur tous ceux qui ...t payer, et en raison de leurs moyens;

...DONNE ce qui suit :

...RT. I.er Il est défendu à tout habitant du ...de sortir de la ville sans avoir obtenu un ...port du Commandant de la place.

...Tous les habitans qui quitteront le Kaire ...autorisation légale, pour aller demeurer ...villages, seront regardés comme émigrés, ...biens confisqués au profit de la République.

...Tout les habitans qui sont sortis du Kaire ... le départ des Osmanlis, et qui ne seront ...rés dans un mois, seront regardés comme ...s, et traités comme tels.

... Tous les cheykhs, négocians, principaux ...s ou autres qui ont envoyé leurs familles ...la ville, devront les faire rentrer dans ...jours; et faute par eux de se conformer ...ent article, ils payeront une moitié en sus ...contribution.

...Les postes arrêteront tous ceux qui vou... sortir du Kaire sans passeport.

...Les habitans ou odjaqlys qui ont reçu des ...tions pour aller chercher les impositions ...s villages, ne sont pas compris dans le ...ordre.

... Le présent ordre sera remis aux cheykhs ...e, pour être envoyé dans les villages où ...itans du Kaire ont pu se retirer.

...Kaire, le 19 thermidor an 8.

Signé BELLIARD.

...on à publier en arabe et en français.

Le Général en Chef,

Signé MENOU.

من حضرة ساري عسكر بليار
قيمقام مصر حالا

تعلم ان بعضاً من اهالي مصر رحلوا عائلاتهم والاكثر من المشايخ والتجار ارسلوا حريمهم برّا عن المدينة بدون الوصية •

الهروب من المدينة ضررية لهم بسبب يلقي هولاً لهم ويعطلوا لمصالحهم •

تعلم ان في حال وقت المدينة توسط الفردة جميع اهل البلد لازم يستقيموا بمصالحهم والمشايخ والعلما الذي هم الكبار لازم يقعدوا في منازلهم لاجل يقسموا ويعملوا الفردة المطلوبة بوجه الحق كل واحد على قدر مقدرته •

حكم الشروط •

الشرط الاول • ولا احد من اهالي المدينة يقدر يخرج خارجاً من البلد من غير ورقة اجازة من حضرة قيمقام مصر حالا •

الشرط الثاني • كامل اهالي المدينة الذين يخرجوا بغير اجازة لاجل يقيموا في البلاد يكون جميع مالهم مضبوط للجمهور الفرنساوي •

الشرط الثالث • جميع اهل المدينة الذين خرجوا بسبب الحرب الذي حصل مع العثمانلي ان كان لم يحضروا من بعد تاريخه بثلاثين يوم فيكون حسب الشروط ويضبط بتاعه للجمهور الفرنساوي •

الشرط الرابع • جميع المشايخ والتجار والمتسببين وغيرهم الذين ارسلوا حريمهم خارجاً من البلد لازم من بعد مضي خمسة عشر يوم من تاريخه يرجعوا الى عائلاتهم وان كان لم يسمعوا الوصية يدفعوا زايد النصف فوق الفردة التي عليهم •

الشرط الخامس • طلع الامر على كامل الغفر الذي حوس البلد يمسكوا كامل الناس يخرجوا من غير ورقة اجازة من حضرة قيمقام مصر حالا •

الشرط السادس • اهالي اوجاقلي الذين خرجوا واخذوا ورقة اجازة لاجل يأخذوا دراهم من بلادهم لم هم من هذه الوصايا •

الشرط السابع • وهذه الوصايا تعطى الى المشايخ والعلما لاجل يرسلوهم الى البلاد التي اهالي مصر رحلوا فيها •

تحريراً في ١٩ ترميدور سنة ٨ من اقامة الجمهور الفرنساوي •
الموافق ١٢ ربيع الاول سنة ١٢١٥ اسلامية •
ممضي بليار •

حضرة ساري عسكر الجيوش الفرنساوية منو امر ان هذا الامر يكون مطبوع بالفرنساوي والعربي •

امضى ساري عسكر الكبير منو •

cueillis par des bombes et des boulets, ils ont été mouiller à Aboukir, où ils commencent à débarquer. Je les laisse faire, parce que mon intention est, lorsqu'ils seront tous débarqués, de les attaquer, de tuer tout ce qui ne voudra pas se rendre, et de laisser la vie aux autres pour les mener prisonniers, ce qui sera un beau spectacle pour la ville du Caire. Ce qui avait conduit cette flotte ici, était l'espoir de se réunir aux mameloucks et aux Arabes pour piller et dévaster l'Égypte. Il y a sur cette flotte des Russes qui ont en horreur ceux qui croient à l'unité de Dieu, parce que, selon leurs mensonges, ils croient qu'il y en a trois. Mais ils ne tarderont pas à voir que ce n'est pas le nombre des dieux qui fait la force, et qu'il n'y en a qu'un seul, père de la victoire, clément et miséricordieux, combattant toujours pour les bons, confondant les projets des méchants, et qui, dans sa sagesse, a décidé que je viendrais en Égypte pour en changer la face, et substituer à un régime dévastateur un régime d'ordre et de justice. Il donne par là une marque de sa toute-puissance; car ce que n'ont jamais pu faire ceux qui croient à trois, nous l'avons fait, nous qui croyons qu'un seul gouverne la nature et l'univers.

Et, quant aux musulmans qui pourraient se trouver avec eux, ils seront réprouvés, puisqu'ils se sont alliés, contre l'ordre du prophète, à des puissances infidèles et à des idolâtres. Ils ont donc perdu la protection qui leur aurait été accordée; ils périront misérablement. Le musulman qui est embarqué sur un bâtiment où est arborée la croix, celui qui tous les jours entend blasphé-

mer contre le seul Dieu, est pire qu'un infidèle même.

Je désire que vous fassiez connaître ces choses aux différents divans de l'Égypte, afin que les malintentionnés ne troublent pas la tranquillité des différentes villes; car ils périront comme Damanhour et tant d'autres, qui, par leur mauvaise conduite, ont mérité ma vengeance.

Que le salut de paix soit sur les membres du divan!

BONAPARTE.

Rahmanieh, le 3 thermidor an 7 (21 juillet 1799).

Au général Dugua.

Tous les drogmans, citoyen général, nous ont manqué: ces messieurs ont, probablement, assez volé. Je vous prie de faire arrêter le citoyen Bracevich, et en général tous les drogmans des généraux qui sont ici, de les embarquer sur une djerme armée, et de les envoyer à Rahmanieh.

Le citoyen Venture a deux jeunes gens de ceux que j'avais amenés de France, je vous prie de m'envoyer le plus intelligent.

BONAPARTE.

[illegible], le 3 thermidor an 7 (21 juillet 1799).

Au général Marmont.

La [illegible], citoyen général, quelques [illegible] de votre garnison, et, ce qui est plus

vous m'enverrez. Le général Reynier a dû vous envoyer tous les hommes du quatorzième qu'il a. Dessières m'écrit qu'une trentaine de nos guides seraient disponibles en leur donnant des chevaux.

Écrivez à Destaing d'activer sa marche avec le plus de monde qu'il pourra.

La trente-deuxième et la dix-huitième ont laissé, à elles deux, plus de 600 hommes au Caire. Si vous ne faites pas partir tous ces hommes de suite, je me trouverai avec fort peu de monde. Faites une revue rigoureuse, et que tout ce qui appartient à la vingt-deuxième, même le bataillon qui doit être arrivé de Benisouef, à la dix-huitième, à la trente-deuxième, à la treizième, à la soixante-neuvième, parte sans le moindre délai.

Le général Rampon aura sans doute à l'heure qu'il est dépassé le Caire. Il avait avec lui 60 hommes d'artillerie à cheval qu'il faut m'envoyer.

Faites partir le chef de bataillon Faure avec ses munitions qui sont nécessaires pour jeter dans Alexandrie.

L'ennemi débarque toujours à Aboukir.

J'ai trouvé ici et à Rosette des pièces de campagne. Je m'organise. J'ai été joint par les généraux Lanusse, Robin et Fugière. On a cependant laissé à Mourad une colonne d'[illegible].

J'ai vu aujourd'hui à midi le général Menou qui est de retour du lac Natron.

Vous trouverez ci-joint une lettre que vous remettrez au divan du Caire.

Que tous les envois que vous me faites soient toujours de 250 à 300 hommes, afin d'éviter toute espèce d'accidens.

Je demande au payeur de vous envoyer 100,000 fr.; il sera bon alors pour l'escorte de profiter d'un moment où vous aurez 600 hommes à nous envoyer.

Je vous recommande de nous envoyer jour par jour, et même d[illegible] jour, les hommes qui doivent [illegible] en sentez l'importance. Toutes [illegible] soit une affaire décisive, et dans [illegible] troupes que j'ai 300 hommes ne [illegible]ce.

BONAPARTE.

Rahmanieh, le 3 thermidor an 7 (21 juillet 1799).

Au divan du Caire.

Choisis parmi les gens les plus sages, les plus instruits et les plus éclairés, que le salut du prophète soit sur eux!

Je vous écris cette lettre pour vous faire connaître qu'après avoir fait occuper le lac Natron, et presque le Bahireh, pour rendre la tranquillité à ce malheureux pays et punir nos ennemis, nous nous sommes rendus à Rahmanieh. Nous avons accordé un pardon général à la province, qui est aujourd'hui parfaitement tranquille.

Quatre-vingts bâtimens, petits et gros, se sont présentés pour attaquer Alexandrie; mais, ayant été ac-

بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك في ملكه.

من طرف الجمهور الفرنساوي المبني على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير بونابارته أمير الجيوش الفرنساوية يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد السناجق الذين يتسلطنوا في البلاد المصرية يتعاملوا بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية ويظلموا تجارها بأنواع البلص والتعدي فحضر الآن ساعة عقوبتهم.

وأحسرتاه من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من جبال الأبازا والكرجستان يفسدوا في الإقليم الأحسن الذي يوجد في كرة الأرض كلها فأما رب العالمين القادر على كل شيء قد حتم على انقضاء دولتهم.

فيا أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت في هذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين وإنني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه محمدا والقرآن العظيم.

وقولوا أيضا لهم إن جميع الناس متساويين عند الله وإن الشيء الذي يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط وبين المماليك ما العقل والفضائل والمعرفة التي تميزهم عن الآخرين وتستوجب أنهم يتملكوا وحدهم كلما يحلو به حياة الدنيا.

حيثما يوجد أرض مخصبة فهي مختصة للمماليك والجواري الأجمل والخيل الأحسن والمساكن الأشهى فهذا كله لهم خاصة.

إن كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليوردوا الحجة التي كتبها لهم الله ولكن رب العالمين هو رؤوف وعادل على البشر ومن عونه تعالى من اليوم فصاعدا لا يستثنى أحد من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية فالعقلاء والفضلاء والعلماء بينهم سيدبروا الأمور وبذلك يصلح حال الأمة كلها.

سابقا في الأراضي المصرية كانت المدن العظيمة والخلجانات الواسعة والمتجر المتكاثر وما أزال ذلك كله إلا الطمع وظلم المماليك.

أيها القضاة والمشايخ والأئمة ويا أيها الشوربجية وأعيان البلد قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضا مسلمين خالصين وإثباتا لذلك قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الذي كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعموا أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين ومع ذلك الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه أدام الله ملكه ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم.

طوبى ثم طوبى لأهالي مصر الذين يتفقوا معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم طوبى أيضا للذين يقعدوا في مساكنهم غير مائلين لأحد من الفريقين المحاربين فإذا يعرفونا بالأكثر يتسارعوا إلينا بكل قلب.

لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدوا مع المماليك في الحرب علينا فما يجدوا طريق الخلاص ولا يبقى منهم أثر.

المادة الأولى

جميع القرى الواقعة في دائرة قريبة بثلاث ساعات عن المواضع التي يمر بها العسكر الفرنساوي فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر وكلاء من عندها كيما يعرفوا المشار إليه أنهم أطاعوا وأنهم نصبوا السنجاق الفرنساوي الذي هو أبيض وكحلي وأحمر.

المادة الثانية

كل قرية التي تقوم على العسكر الفرنساوي تنحرق بالنار.

المادة الثالثة

كل قرية التي تطيع العسكر الفرنساوي الواجب عليها نصب السنجاق الفرنساوي وأيضا نصب سنجاق السلطان العثماني محبنا دام بقاؤه.

المادة الرابعة

المشايخ في كل بلد ليختموا حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التي تتبع المماليك وعليهم الاجتهاد الزائد لكيلا يضيع أدنى شيء منها.

المادة الخامسة

الواجب على المشايخ والقضاة والأئمة أنهم يلازموا وظائفهم وعلى كل واحد من أهالي البلد أنه يبقى في مسكنه مطمئنا وكذلك تكون الصلاة قائمة في الجوامع على العادة والمصريون بأجمعهم ليشكروا فضل الله سبحانه وتعالى من انقراض دولة المماليك صارخين بصوت عال أدام الله إجلال السلطان العثماني أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي لعن الله المماليك وأصلح حال الأمة المصرية.

تحريرا بمعسكر إسكندرية في ١٣ من شهر مسيدور سنة ٦ من إقامة الجمهور الفرنساوي يعني في أواخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية.

الهوامش

(1) BLACHERE & GAUDEFROY-DEMOMYNES : **Grammaire de l'arabe classique** Maisonneuve & Larose, 2000, p 339.

(2) LECOMTE(G). **Grammaire de l'arabe**, Que sais-je, Paris, 1980 , p. 89.

(3) ابن منظور ، لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، مجلد 4 ، ص424.

(4) أحمد حسين الصاوى ، فجر الصحافة فى مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب السابق، ص260.

(5) جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ، دار الفكر العربى ، 1950 ، ص45.

(6) جمال الدين الشيال ، المرجع ذاته، ص51 – 52 .

(7) جمال الدين الشيال ، المرجع ذاته، ص56.

(8) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، 1997 ، الجزء الرابع ص44 .

(9) عبد الرحمن الجبرتى ، المرجع نفسه ، ص1083.

(10) عبد العزيز جمال ،ملحق رقم (39) ص1084 – 1087 من كتاب الجبرتى المذكور سابقاً .

(11) جمال الدين الشيال ، المرجع ذاته ، ص61 .

(12) جمال الدين الشيال ، المرجع ذاته ، ص64.

(13) الجبرتى، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1998، حتى ح .

* * *

قراءة نقدية لترجمة كاردان
لحوليات عبد الرحمن الجبرتى ونيقولا الترك
حول الحملة الفرنسية

أ. د/ مها جاد الحق

تتناول هذه الورقة دراسة ترجمة ألكسندر كاردان لنصين كتبهما معاصران للحملة الفرنسية، أحدهما للمؤرخ المصرى المشهور عبد الرحمن الجبرتى والثانى لمؤرخ شامى يدعى نيقولا الترك. والإشكالية الأساسية: فى هذة الورقة هى: كيف رأى الجبرتى ونيقولا الترك الحملة الفرنسية؟ وكيف ترجم كاردان نصهما إلى الفرنسية؟ ولماذا حرص على تقديم ترجمة النصين فى كتاب واحد أمام القارئ الفرنسى؟ وإلى أى مدى يمكن اعتبار النقل من اللغة العربية إلى الفرنسية قد تم تحقيقه؟ وهل يمكن التكلم عن خطابيين مختلفين، عن أيديولوجيتين؟ وماذا تعنى التشوهات التى طرأت على النص؟ وإلى أى مدى يمكن عن طريق هذه الترجمة معرفة طبيعة العلاقات بين الشرق والغرب فى دراسات القرن التاسع عشر؟ ويتصل بذلك تحديد ماهية الأسباب التى أدت إلى إعادة ترجمة نص الجبرتى مرتين أخريين (فى 1888ثم فى 1989)، وكذلك ترجمة نص نيقولا الترك مرتين (الأولى فى العام التالى لترجمة كاردان فى العام 1839 والأخرى فى العام 1950)؟. وللإجابة على هذه التساؤلات يتعين علينا أن نعقد مقارنة بين النصين العربيين والترجمة الفرنسية لهما.

منهج الدراسة:

يقوم منهج الدراسة على القراءة المقارنة للنصين، وذلك باستخدام منهج تحليل الخطاب analyse du discour. وقد بدأ بشكل تدريجي: أولاً، الكلمة مع استخدام الفرق بين المعنى والإيحاء connotation / dénotation، والكلمات المستعارة Les emprunts من اللغات الأخرى، وبعد ذلك تطرقنا إلى رصد المعانى المغلوطة، ثم المعانى العكسية فضلا عن أسماء العلم، كما كان من المهم دراسة الاختلافات على مستوى الجملة. (مثل: الإضافات، بالحذف، بالتبديل والإبراز)، وبالإضافة إلى ذلك تناولنا التشوهات التى حدثت على مستوى البيان énonciation لمؤرخنا. وقد درسنا التغييرات على مستوى الضمائر المتكلم ثم اختفاء الآيات القرآنية من النص والصفحات الأخيرة من كل عام، كما كان من الأهمية بمكان عدم إغفال دراسة النصوص المصاحبة للنص الفرنسى مثل مقدمة المترجم أو الصورة الموجودة فى بداية الترجمة ؛ لما لذلك من أهمية فى توضيح الأهداف الأساسية لكاردان من وراء ترجمة النص.

وسوف نتناول بالتحليل دراسة كل نص على حدة ورصد الاختلافات الموجودة بين النص العربى والنص الفرنسى، ومن خلال الاختلافات يمكننا أن نفهم الأفكار الاستشراقية السائدة فى ذلك العصر، ونحاول التعرف على القراءة الفرنسية لحدث الحملة بعد ثلاثة عقود، من خلال الترجمة والتعليقات التى ساقها كاردان، ثم نحاول فى النهاية وضع خلاصة مجملة للسمات الأساسية لترجمة النصين.

أولا: نص ترجمة الجبرتى

كتب عبد الرحمن الجبرتى ثلاثة نصوص تعرض أحداث الحملة الفرنسية، الأول منها يحمل عنوان: **"مدة الفرنسيين فى مصر"**، والثانى جاء تحت عنوان: **"مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين"**. أما الثالث والأخير والذى حظى بشهرة كبيرة فحمل عنوان: **"عجائب الآثار فى التراجم والأخبار"**، وهو نص لا يتحدد فقط بأحداث الحملة الفرنسية وإنما يرصد فيه كاتب الحوليات تاريخ المجتمع المصرى فى

الحقبة العثمانية ككل. ويقع النص الأخير فى 1927 صفحة، شغلت أحداث الحملة فيه 333 صفحة. ومن الأهمية أن نشير إلى أن ألكسندر كاردان قد اعتمد على هذا النص الأخير (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) عند ترجمته ليوميات الاحتلال.

يبدأ الجبرتى سنة 1213 هجرياً / 1798 ميلادياً (وهو عام الحملة) بهذه الكلمات: " **وهى أولى سنن الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى المِحن واختلال الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الخراب وتواتر الأسباب وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**".[1] وهى كلمات لا تعبر عن نظرة إيجابية للحملة، فكما نعلم أثارت الحملة الفرنسية العديد من ردود الأفعال تختلف اختلافاً شديداً بعضها عن البعض. فهناك من اعتبرها الصدمة الحضارية التى كانت بمثابة الزلزال الذى أخرج مصر من عصور الظلام، أما البعض الآخر، فقد رأى فيها حملة عسكرية استعمارية فاشلة لم تنجح فى تحقيق أهدافها فى مصر. فهل الجبرتى يعتبر من المجموعة الأولى أم الثانية؟ وإذا كان لاينتمى إلى أى منهما، فهل يمكن تحديد ملامح رؤية الجبرتى لهذا الحدث التاريخى الكبير؟

نشرت الترجمة الأولى للجزء الخاص بالحملة الفرنسية من "عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" بالفرنسية فى العام 1838، وتأتى ترجمة هذا الجزء فى ظرف تاريخى معين يتمثل فى سقوط مدينة الجزائر فى أيدى الفرنسيين فى عام 1830؛ ومن ثم تمثل الترجمة اهتماماً كبيراً لنا لأنها كما قلنا تعد الترجمة الأولى؛ حيث تم ترجمة النص نفسه بالفرنسية مرتين أخريين بعد ذلك، وبصفة عامة لم تخضع هذه النصوص المترجمة لأى دراسة مقارنة مع الأصول التى كتبها الجبرتى.

وقد واجهت هذه الدراسة بعض الصعوبات ؛ وذلك جراء قلة المعلومات المتوفرة عن المترجم ألكسندر كاردان: فنحن لدينا فقط وظيفته الذى حددها تحت اسمه وهى مترجم القنصلية الفرنسية فى الإسكندرية. على إننا لا نعلم نوع التكوين

العلمى الذى حظى به، ولا نعرف مستوى إلمامه باللغة العربية؟ وما هى آراؤه السياسية؟ كل هذه الأسئلة لم نستطع أن نجد إجابة عليها.

أضف إلى ذلك، أننا لا نعلم كيف وصل إليه النص العربى الذى لم ينشر فى مصر إلا سنة 1878 أى 50 عاماً بعد ظهور ترجمته فى فرنسا عام 1838، فقد استطاع الجمهور الفرنسى التعرف على نص الجبرتى قبل جمهوره المصرى.

الظرف التاريخى لترجمة كاردان:

يختم المترجم المقدمة بالكلمات الآتية: " **إذا أتصور فى حال نشر الترجمة الفرنسية لخواطر الجبرتى المسلم عن حملتنا فى مصر وفى حال تنبيه وتحذير العساكر الفرنسيين فى مدينة الجزائر من السهولة التى يتعاملون بها مع المنهزمين – فى حال تحقق ذلك فإننى لن أندم على سهر الليالى التى قضيتها فى إنجاز هذه الترجمة**". هل نفهم من هذه الجملة أن ترجمة الجبرتى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسياسية الاستعمارية الفرنسية؟ فقد تم نشر الترجمة فى عام 1838، وهو تاريخ قريب من سقوط مدينة الجزائر فى أيدى الفرنسيين وهو تاريخ أيضاً انتهاء حكم الملك شارل العاشر فى فرنسا وبداية حكم الملك لويس فيليب الذى سمح للبرجوازية فى فرنسا للصعود وقد سُمى هذا الملك، بـ "ملك أصحاب المصانع والبنوك والتجارات الكبيرة". وقد تم فى عهده سحق العمال الذين حاولوا أن يثوروا لمرتين متتاليين وقد كانوا مصدر قلق للحكومة الفرنسية إلا أنها استطاعت أن تنقلهم إلى الجزائر والتخلص منهم فى هذه المستعمرة. ومع انتعاش الرأسمالية، كانت الصناعات المختلفة فى حاجة إلى مواد خام لتصنيعها وأسواق مختلفة لتوزيع منتجاتها. وقد وجدت فرنسا فى الشرق وبخاصة فى الجزائر كل هذه الإمكانيات.

الدراسة المقارنة:

ونود أن نبدأ أولا بدراسة الكلمات المستعارة **Les emprunts** من اللغة العربية أو التركية والتى تم استعمالها فى الترجمة الفرنسية. وهناك نوعان منها كلمات معروفة

للجمهور الفرنسى، وأخرى ليست معروفة. ويمكن الاستشهاد للمجموعة الأولى بالجملة الآتية:

"وحضر الباشا والعلماء ورؤوس الناس" [الجبرتى ص185].

Cardin P.8 "... le pacha, les ulémas, et les grands...".

نلاحظ مثلاً أن هناك كلمات قد استخدمت بالفرنسية وقد تم استخدامها مثلاً من قبل الكاتب فولتير فى زاديك إلا أننا يجب أن نؤكد أنه بالرغم من أن هذه الكلمات دخلت فى الفرنسية إلا أنها فى اللغة الفرنسية أصبحت لها ايحاءات connotations معانى أخرى مختلفة عن العربية. فكلمات Le pacha أو les émirs تمثل أنواع من الكلمات المستعارة، تم إدخالها فى أدب القرن الثامن عشر، بينما "العلماء" و "القاضي" فى الثقافة العربية يمثلون مصادر الاحترام والعلم على حين أنهم فى العقل الفرنسى هم ممثلو الجهل وضيق الأفق ignorance et obscurantisme.

إذا تناولنا المجموعة الثانية أى الكلمات المستعارة غير المعروفة للقارئ الفرنسى نلاحظ عن طريق هذين المثلين أن المترجم لم يقم بشرح لهذه كلمات، الجبرتى فى الهوامش، وعند رصد الكلمات التركية وجدنا أن 49 من 61 كلمة هى فقط التى تم ترجمتها للفرنسية:

"فعندما خرج أهل الثغر وما انضم إليهم من العربان المجتمعة وكاشف البحيرة". الجبرتى ص180.

Cardin p.6:

"les habitants d'Alexandrie et le Kiachef de Behireh, ajoutés aux Arabes ont voulu leur opposer résistance"

(أراد سكان الإسكندرية وكاشف البحيرة والعرب أن يقاوموهم)

وفى هذه الجملة يمكن للقارئ أن يستنتج المعنى عن طريق سياق الجملة. ولكن لماذا لم يقم كاردن بإضافة الشرح؟ هل كان يعلم معناهم أم كان يجهلهم؟ لقد وجدنا أيضاً نوعاً آخر من الترجمات التى سميناها أخطاء الفهم erreurs d'incompréhension ويقول الجبرتى عن إبراهيم بك : **"وتولى ذلك هو صناجقة وأمراؤه وجماعة من خشداشينه".**(ص 185)

Cardin P.10:

"... Ibrahim Bey (...) s'y retourna avec son armeé, les habitants de Hachdachina (village)".

(وقد أقام فيها إبراهيم بيه مع جيشه ومع سكان الخشدانية" ويضيف المترجم بين القوسين (قرية).) ونجد فى قاموس دوزى Doz [2] أن خشداشينه تعنى "مملوك بصحبة مملوك آخر، يقوم بخدمة شخصية مهمة" إذًا اصطلاح خشداش يعنى رابطة الزمالة فى خدمة السيد المملوكى (الأستاذ) ؛ و من ثم ليس المصطلح دال على اسم قرية كما ذكر كاردان. ولقد وقع أحياناً المترجم فى المعانى العكسية بسبب الجهل بالواقع المحلى أو الديني: الجبرتى ص181.

" وأما ما كان من حال الأفراد بمصر فإن إبراهيم بيه ركب إلى قصر العينى".

Cardin p.8:

"Ibrahim Bey monte à cheval, arrive au Kiosk appellé Aini."

(ركب إبراهيم بيه حصانه وتوجه إلى الكشك المسمى العينى)

إن الترجمة التى أعطاها كاردان لكلمة قصر kiosk بينما كان يجب أن تترجم بقصر لأنه فى عام 1898 كان للقصر العينى معنى مختلفاً تماماً عن معناه فى عام 1838. (تاريخ نشر الترجمة).

قصر العينى فى سنة 1798 فى النص الجبرتى يشير إلى قصر من قصرين كانا ملكاً لإبراهيم بيه،[3] وقد سمى هكذا لأنه فى الأصل كان يملكه مملوك شرعى يدعى

"عينى" وقد أصبح بعد ذلك من ممتلكات إبراهيم بيه، وأثناء الحملة الفرنسية استخدمه بونابرت كمستشفى لعلاج الجيش الفرنسى وفى 1825، أنشئ محمد على فيه مدرسة الطب. فهذه الترجمة تعتبر خطأ لغويا وخطأ تاريخيا فى معرفة المترجم بالواقع المصرى آنذاك.

هناك الأخطاء العكسية Contre -sens

ومنها "أن الوزير أمر المصرلية بتغيير زيهم وأن يرتدوا زى العثمانية".

الجبرتى ص 505.

P. 245

“Le grand vizir força, les Egyptiens à porter le costume truc”.

ففى النص الأول، يسمى الجبرتى المماليك وذلك فى بعض فقرات "بالمصرلية" وكان هذا الاسم يطلق عليهم من قبل عامة المصريين. وقد وقع كاردان فى الخطأ لترجمته إلى "المصريين". أن النص العربى يؤكد أن الوزير التركى أمر المماليك بخلع ملابسهم وأن يرتدوا ملابس الترك، كعلامة تبعية وخضوع لهم لكن كاردان قدم لنا معنى مختلفا تماما لأنه حول المماليك إلى مصريين، وأضاف أن الوزير التركى أمر المصريين بترك الزى التركى،الأمر الذى يبدو غير منطقى بالمرة. وثمة نموذج آخر يقو فيه الجبرتى: "بعد أن طلب بونابرت من الشيخ السادات أن يرتدى الكوكارد ارتداها الشيخ ثم خلعها عند خروجه من القاعة"..."**فلما خرجا من عنده رفعه على أن ذلك لا يخل بالدين"**[الجبرتى ص204].

Cardin p2

“Quand il fut dehors, il ota cette cocarde parce que c’est contraire à la religion".

(عند ما خرج خلع الكوكارد لأن ذلك يتنافى مع الدين).

ففى النص العربى يشرح الجبرتى أن ارتداء الكوكارد لا يتنافى مع الدين، على حين أظهرت ترجمة كاردان عكس ذلك، هذا بالإضافة إلى أن النص الفرنسى جعل

الجبرتى يبدو وكأنه مؤيد لموقف السادات. وبالنسبة للأسماء الأعلام وجدنا أن هناك نوعين من أسماء العلم أسماء شرقية يعرفها القارئ الإسكندرية. (ص89)

ومثل أخرى جديدة على القارئ الفرنسى مثل: السيد محمد كريم -seid Mohamed –Koureim (ص179).

إن استخدام الشرطةtrait d'union بين الاسمين هنا يثير الدهشة ؛ لأننا نعلم أن لها استخدام خاص وهو فى الأسماء المركبة مثلا، ولكن هنا يضعها المترجم بين الاسم واسم الاب ولقب للاحترام.

وإذا انتقلنا إلى الأخطاء التى تظهر على مستوى الجملة نرى أن هناك تغييرات مختلفة. تغييرات بالإضافة إلى أننا قسمناها إلى "إضافات شرعية" و"إضافات غير شرعية". فالجبرتى مثلا يذكر العبارة التى جاءت على لسان الإنجليز "**فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم ولا تتمكنوا من منعهم**". (ص171)

Cardin p6

"Ils viendront peut- être à l'improviste".

(ربما يأتوا فجأة ولن تستطيعوا إبعادهم وحدكم نحن هنا لنقدم مساندتنا).

إن النص العربى لا يذكر كلمة بهذا المعنى إلا أن المعنى ضمنى لا يقدم كاردان هنا إلا التأكيد بشكل واضح على المعنى وقد وجدنا خمسة أمثلة فقط من الإضافات الشرعية، أما الإضافات غير الشرعية فنلاحظ أن عددهم أحد عشر مثالا يدورون حول صورة ثلاث جنسيات.

صورة المصريين (5 أمثلة).

صورة المماليك (3 أمثلة).

صورة الفرنسيين (3 إضافات).

فمثلا بالنسبة لصورة المصريين يتحدث الجبرتى فى هذه الجملة عن مسألة الورث: " **فقال ميخائيل كحيل الشامي وهو من أهل الديوان أيضا نحن والقبط يقسم لنا مواريثنا المسلمين** " (ص217).

ومن خلال استخدام كلمةNation للأقباط فإنه يعنى أنهم مثلوا كيانا مختلفا ومستقلا عن باقى المصريين مثلهم مثل الشوام، على حين أن الشوام لديهم عادات وتقاليد مختلفة وأصل مغاير، بينما ذلك لا ينطبق على الأقباط، فهل يمكن هنا أن نرى نوعا من سوء النية من قبل المترجم فى محاولة منه لتمييز الأقباط عن باقى المصريين،خاصة أنه كان من الممكن أن يترجم"**نحن والأقباط**" وقد قام أيضا بترجمة" المسلمين" بعبارة "**القانون التركى**" وذلك يعتبر خطأ خطيرا، ولطالما شاع فى الأدبيات الأوروبية ترجمة "مسلم "على أنها" تركى".

بالنسبة لصورة المماليك يمكننا أن نرى أن هناك تأكيدا على بعض الأفكار مثلا: **"وتركوا جميع الأثقال والخيام كما هى لم يأخذوا منها شيئا فإما إبراهيم بك والباشا والأمراء فساروا إلى جهة العادلية** "(الجبرتى ص 190).

Cardin p. 34

« Ibrahim –Bey et le Pacha s'enfuirent à toute bride ,en abandonnant leurs tentes et leurs bagages ».

(هرب سريعا إبراهيم بك والباشا تاركين خيامهم وأمتعتهم)

قام كاردان هنا بحذف الوجود المصرى كاملة من الجملة بينما النص العربى أشار إليهم وأضاف أفعالهم إلى المماليك" ترك الخيام والمتاع"، بينما يفصل النص العربى رد فعل سكان مصر عن المماليك بكلمة " أما" التى تعبر عن التقابل بين رد فعلين مختلفين إلا أن المترجم لم يرض بهذا الحذف والتغيير فقد قام أيضا بإضافة "سريعا" لإبراز جبن المماليك وهى نقطة سيؤكد المترجم عليها كثيرا أما بالنسبة لصورة الفرنسيين فقد راعى المترجم تحسين صورة الفرنسيين كلما أتاحت له الفرصة:

فمثلاً (الجبرتى ص 240): **"فنهب الفرنسيون ما وجدوه بالبندر من البن والمتاجر والأمتعة وغير ذلك"**. نجد النص المترجم:

(Cardin p.69)

« Les Français ,trouvant la ville déserte , s "étaient emparés des cafés et marchandises qu"ils avaient trouvés ».

(عندما وجد الفرنسيين المدينة خالية أخذوا القهاوى والبضائع التى وجدوها)

فقد أضاف المترجم الحجة "خلاء المدينة" من السكان حتى يبرر ويشرع سلب الفرنسيين لها. ويلاحظ أن المترجم لجأ إلى الحذف، ويمكن تصنيف الحذف إلى أنواع "بالإيجاز" والحذف والإيجاز معا عددهم 16 مثلا، وهناك حذف جهود المماليك مثل مراد بك فى صراعه ضد الفرنسيين.

"حضر مراد بك إلى بر إمبابة وشرع فى عمل متاريس هناك ممتدة إلى بشتيل (...) واحتفل فى ترتيب ذلك وتنظيمه بنفسه (....) " (ص185).

Cardin p.10

Murad –Bey vint Embaba, ,y fit construire des" retranchements jusqu'à Bechtil".

(جاء مراد بك إلى إمبابة وشرع فى بناء متاريس حتى بشتيل (....).

أى حذف اهتمام مراد بك لإجراءات الدفاع. مرة أخرى يقلل من جدية وأهمية المقاومة ضد الاحتلال الفرنسى، وقد تم حذف مثلين من هذه النوعية. وقد رأينا سابقا كيف قام المترجم بإضافة جمل لتحسين صورة الفرنسيين.

نلاحظ أيضاً أن نص الجبرتى وترجمته الفرنسية لا يملكان نفس المتلقى: فالجبرتى يحكى تاريخ مصر للمصريين، وذلك بهدف تربوى. بينما المترجم كاردان يترجم جزءا جزءاً منه لجمهور فرنسى بهدف استعمارى واضح وصريح(4).

ويلاحظ أن كل الجمل التى تضفى على الفرنسيين شيئا سلبيا قد تم حذفها ؛ فعلى سبيل المثال: (بينما يقول الجبرتى ص227) **"وفى وقت الحادثة هجمت على الدار العامة ونهبوها وقتلوا منها بعض الفرنساوية وفر الباقون "** نجد كاردان يترجمها على النحو التالى:

Cardin p.55

« Lors de cette dernière,le peuple assaillit sa maison et y tua quelques soldats ».

(فى هذه الحادثة هجمت العامة على بيته وقتلت بعض العسكر).

ومن الواضح أن الجبرتى يتحدث عن " بعض الفرنساوية"،الأمر الذى أبدله كاردان "ببعض العسكرية" وقد حذف أيضا باقى الجملة ألا وهى" وفر الباقون" و"الفرنسيين هربوا". إن عدد الجمل التى تم حذفها تدور حول الفرنسيين والتى تصل إلى 32.

ثمة أيضا حذف لوثيقة قدمها الجبرتى ألا وهى منشور بونابرت إلى المصريين والتى تشغل ثلاث صفحات وقد تم حذفه كاملاً، إلا أن كاردان لم يكن الوحيد الذى حذفها فهناك أيضا سلفستر دى ساسى فى أول طبعه لكتابه، وقد اعترف دى ساسى بذلك حيث كتب يقول: " لقد خشيت أن ألام على نشر هذا المنشور الذى يتباهى فيه بونابرت، قائد الجيش الفرنسى بأنه هدم كرسى البابا خاصة أنه كان قد أبرم اتفاقية مع البابا لذلك فقد حذفت الورقة من النص العربى."(5)

إن نص كاردان الذى تم نشره عام 1838 يرتبط بزمن معين وهو الزمن الذى كانت فيه فرنسا تحكمها الملكية الدستورية والتى كانت تساندها الكنسية؛ فذلك الحذف يمكن أن نطلق عليه "الحذف الرقابى" لأنه قد تم بسبب سياسة فرنسا آنذاك، ويمكن أيضا تفسيرها برغبة قوية فى المحافظة على صورة الفرنسيين فى إطار الخط العام لاستراتيجية التعامل مع التاريخ الفرنسى.

نلاحظ أن هناك أنواعاً أخرى من الحذف والذى نتج عنه تقليل كم المعلومات الموجود فى النص الأصلى فخطورة هذا الحذف أنه يخفى للقارئ الفرنسى النص الحقيقى للجبرتى، وهو أيضا يعطى صورة خاطئة عن معاصرى بونابرت وتنتج التعديلات عن وجود عمليات مختلطة من الحذف والإضافة، وقد تحققنا من حذف المترجم لجزء من الجملة وأحيانا الجملة كلها، ثم أضاف أخرى ويمكن تصنيفها إلى تبديلات خاصة بدقة المعلومات، فبالنسبة للتقويم الذى قدمه الجبرتى، نلاحظ أن كاردان فضل تعديله بتواريخ أخرى لإضافة شىء من الدقة والوضوح.

"ثم ورد فى ثالث يوم بعد ورود المكاتبات الأولى مكاتبات مضمونها (....)" (الجبرتى ص180).

Cardin p.5

" Le mercredi 13 Mouharrem ".

(الأربعاء 13 من محرم)

قدم كاردان اليوم مضافا إليه الشهر لمزيد من الدقة ؛ذلك أن الجبرتى ذكر قبل ذلك تاريخ "10 من محرم". ويصل عدد التبديلات من هذا النوع إلى 33 مثلا وهناك أيضا تبديلات أخرى قام بها المترجم لإعطاء عدد من الأفكار إلى المتلقى الفرنسى عن سكان مصر والتى تصل إلى خمسة أمثال، منها:

" فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقى القتال خرج العامة والغوغاء والرعية واخلاط الناس بالصياح ورفع الأصوات بقولهم يارب يالطيف ويا رجال الله ونحو ذلك. " الجبرتى ص188

Cardin p.13

« Les troupes du rivage oriental en voyant le combat commencé se mirent à pousser des cris: Dieu tout puissant,s'écriant –ils ,accorde nous la victoire sur les Français ».

(وعندما رأت فرق الضفة الشرقية أن المعركة قد بدأت أخذوا يصيحون يارب يا قوى، انصرنا على الفرنسيين).

يذهب النص الفرنسى إلى أبعد من النص الأصلى، فالمصريون يطلبون من الله النصر بينما فى الواقع الجبرتى يظهرهم وهم يطلبون من الله اللطف بهم، وذلك يعكس صورة المسلمين كما يتخيلها الفرنسيون وكما نراها فى المنشور الأول لبونابرت إلى الفرنسيين.

وهناك أيضا تعديلات تدخل لتغيير صورة المماليك فمثلاً: يتحدث الجبرتى هنا عن المماليك قائلا:

" وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة والفرس ملقاة على الأرض ببر إمبابة تحت الأرجل " ص189.

Cardin p.14

" Murad –Bey se sauva à Djizé entre dans son palais y resta un quart d'heure et prend le chemin de la Mecque ,laissant à Embaba ses effets ,ses armes et ses tentes".

فوجود متلقيين مختلفين يثير عددا كبيرا من الصعوبات بسبب الحضارتين المختلفتين: يجد المترجم نفسه أمام كلمات تدل على أشياء محلية ليست لها وجود فى الذهنية الفرنسية. فيلجأ إلى الكلمات المستعارة وقد وجدنا أن عدد ثمانى كلمات لم يتم إعطاء القارئ معناها، أحياناً أخرى، يحاول كاردان البحث عن كلمات بديلة mots équivalents (وقد ارتفع عددها إلى 30 كلمة بديلة، وقد وجدنا أنها لم تكن فى الواقع بديلة).

وقد أخطأ المترجم 19 مرة فى ترجمته للكلمات، وقد لجأ المترجم إلى حذف بعض الكلمات، كل هذا يعكس جهلاً ما بالحضارة الشرقية. إن دراسة أسماء العلم من أسماء الأشخاص أو الأحياء أو المدن الشرقية توضح أن كاردان لم يتبع طريقة واحدة فى كتابة الكلمات transcription. وقد وجدنا أيضاً أن هناك عددا من التحريفات (خمسة تحريفات شرعية أحد عشر تحريفا غير شرعية)وقد لاحظنا أن صور المماليك والمصريين قد تم إعطاؤها شكلا سلبيا.

إن دراسة الجمل أتاح لنا الفرصة أن نعين التشوهات المختلفة على مستوى الجملة مثل الإضافة(5 شرعية و 11 غير شرعية)وتدور حول صورتين متناقضتين: تم تشويه صورة المماليك والمصريين مقارنة بصورة الفرنسيين. أما الحذف فقد وجدنا أن هناك 34 جملة محذوفة. أما الجملة البديلة فقد بلغ عددها 26 جملة وهما يستجيبان إلى نفس مقاييس الجملة المضافة.

وقد وجدنا أن هناك نوعا آخر من التغير على النص ألا وهو إبراز بعض الكلمات

باستخدام الخط المائل Italique، إن الخط المائل فيه شد انتباه القارئ الفرنسى إلى شيء يريد المترجم إبرازه. (أى إن كان اسم ترجع إلى وقائع شرعية، أو أحاديث الرسول (ﷺ) أو البسملة الموجودة فى بعض منشورات بونابرت للمصريين، أو بعض الجمل المأثورة Citations التى قيلت على لسان الشعب المصرى والذى يحاول كاردان أن يميزها).

لقد استطعنا عن طريق دراسة بيان الجبرتى énonciátion التحقق من أن ظهور الآخر la non -personne قد خضع إلى تشوهات عديدة. أما الآيات القرآنية التى استخدمها الجبرتى فى نصه والتى أصبحت جزءاً من بيانه énoncialtion.فلم يتم الإشارة إليها على أنها نص مأخوذ من القرآن، فمع ترجمة الآيات إلى الفرنسية لا يستطيع القارئ الفرنسى أن يتعرف عليها على أنها آيات قرآنية. وقد تم تلخيص الصفحات الخاصة بالوفيات. ولم يحاول المترجم احترام أسلوب الجبرتى، ويمكن تفسير ذلك أن ما كان يهمه هو مضمون النص نفسه أو الحملة الفرنسية.

ولكن ما هو تأثير هذا النص على القارئ خاصة أن كل ما فى النص من مقدمة أو صورة ما قبل المقدمة أو الهوامش؟ إن صورة الجنسيات المختلفة الموجودة قد تم إخضاعها لنوعٍ من الرقابة الأيديولوجية؛ لدرجة أننا وجدنا أنفسنا أحياناً أمام صورتين متناقضتين فى النص المصدر والنص الهدف.

إن الإنجليز والترك والمماليك والمصريين، قد تم تقديمهم بسلبية مقارنة بالفرنسيين. أما آراء وتقسيمات الجبرتى فقد تم تحريفها، وينطبق ذلك أيضاً على نص نيقولا ترك (المسيحى الشرقى) وإن كان لابد من التأكيد على أن المصريين والفرنسيين هم الذين حدث لهم الجزء الأكبر من التحريفات. إذا فسرناهم طبقاً لمقدمة B ianchi وكذلك مقدمة كاردان، حيث يقدم نص الجبرتى كنص مفيد للفرنسيين فى الجزائر. وذلك يؤكد الهدف الاستعمارى لهذه الترجمة.

ومن الغريب أن نرى كاردان، غير راض بالتحريفات التى أدخلها على النص نفسه، وإذ قيَّم نص الجبرتى الذى يقدمه بشكل سلبى، بعيد كل البعد عن الصدق

غالباً ما بيّن تشويه الأحداث. فقد رصدها من خلال ظواهرها ومعتقده. فلا يمكن اعتبار هذا النص وثيقة تاريخية". إن الجمهور لا يمكن....

إن التحريفات التى اكتشفتها فى النص المترجم لا يمكن أن تفسر عن طريق المعادلة الشهيرة "**الترجمة هى خيانة للنص**"، لأن كاردان تجاوز كثيرا فى المضمون الذى صاغه للقارئ الفرنسى. فمن الواضح أن هناك رغبة واضحة فى إبعاد النص الأصلى للمؤرخ المصرى عن القارئ الفرنسى.

ورصدت الدراسة العديد من الأخطاء فى المعنى والتى تبين بشكل واضح نوعية التكوين الذى حصل عليه المترجم، إلا أن هذا النوع من الأخطاء يعتبر عددها قليلا بالنسبة للأخرى. إن التحريفات التى ظهرت تعكس بلا شك عملاً من أعمال الرقابة. إن المترجم الفرنسى قام بعمل نوع من adaptation لنص الجبرتى إلا أننا نعلم أن ذلك قد يكون جائزا بالنسبة للنص الأدبى وليس بالنسبة للنص التاريخى.

ويحق لنا أن نتساءل:عن أى منتصرين كان يتحدث المترجم؟ إن الفرنسيين خرجوا من مصر منهزمين وليسوا منتصرين كما يبينه المترجم، فهو يحول بفعل الكلمة الهزيمة إلى نصر بقدر ما يحرف الواقع.

فنحن أمام معرفة خاصة يحاول كاردان أن ينشرها "والخطر أن هذا النوع من النصوص قادر على خلق ليس فقط نوعاً من المعرفة، ولكن ايضاً الواقع الذى يصفه. ومع الوقت تقدم هذه المعرفة وهذا الواقع تقليداً وهو ما يسميه الأستاذ فوكوه خطاباً".

إن كاردان يحاول أن يقدم نص الجبرتى لخدمة الاستعمار وهو هنا يؤكد وباعترافه بنفسه "أن الاستشراق فى خدمة الاستعمار". ومن الواضح أن مستعمرى الجزائر قد اتبعوا نصائح كاردان ويكفى أن نذكر سحق المتمردين الجزائريين. ودلالة التحريفات الواعية التى طرأت على النص العربى تعكس بلا أدنى شك رغبة فى تأكيد صورة تلائم الأيديولوجية الفرنسية الاستشراقية فى القرن 19 ؛ حيث نرى الإنسان الغربى متفوقا وأعلى دائماً من الشرقى.

هل هذه الترجمة تشبه كتابات الفرنسيين مثل La Jonquiére أو غيره؟ وإن الترجمة المحرفة تقدم صورة شديدة الإيجابية للفرنسيين، والأمر واضح بالنسبة للنصوص الفرنسية لأن هدفها سرد المشاكل التى قابلوها. أما النص الجبرتى "المحرف" فهو يحكى مشاكل المصريين.ولكن من الذى قرأ هذه الترجمة؟ وما مدى نجاحها؟ من الصعب الإجابة على هذا السؤال لأننا لم نستطع معرفة رد فعل الجمهور الفرنسى. إلا أن المستشرقيين يذكرونها كنص حقيقى فيمكننا أن نذكر جاستون فيت في مقدمته للكتاب" مذكرات عن الحملة الفرنسية" يتحدث عن المترجم كاردان بهذه الكلمات:"أول مترجم للجبرتى". فقد أعطاه نوعا من المصداقية، وهذا يعنى أنه يشيد بإيجابية بالترجمة أو على الأقل لا ينتقدها. أما موسوعة الإسلام فتقدم نص كاردان "ترجمة الجبرتي" دون نقد بينما ترجمة 1888 التى قام بها بعض المصريين ووصفت بأنها غير دقيقة وسيئة ويحذر من استخدامها. ومن المعروف قوة تأثير رأى هذه الموسوعة على القارئ الفرنسى.

إلا أننا لاحظنا أن الترجمة المصرية، تحوى هى الأخرى العديد من الأخطاء ولكن أخطاء تختلف عن أخطاء كاردان. فالتحريفات فى هذا النص تظهر فى "صورة الأتراك" وليس "صورة الفرنسيين"؛ لأنها قد تمت على شرف إحدى أحفاد محمد على وابنه الخديو توفيق ثم عباس الثانى.

يعد جوزيف كويك الوحيد الذى انتقد ترجمة كاردان (فى مقدمته لترجمة الجبرتى وقد فارق بينهما ولكن قد أتم ترجمة كل الموسوعة).

إن الترجمة التى قام بها كويك المتخصص فى تاريخ نابليون فى العناويين الداخلية، وتاريخ الميلاد وقد وضع كل أدوات الاستقبال الأكمل لنص الجبرتى، ومن الواضح أن كويك يعلم جيداً الواقع المصرى. على أن كل الإضافات قد تم وضعها بين قوسين، وهى العلامة التى تبين أن هذه إضافة المترجم.

هل هذه الترجمة الجديدة(1979) هى بداية لمدرسة جديدة حيث الشرق يُدرس

بكل تفاصيله الحقيقية؟ وهل هى تعنى رفض هذا الاستشراق القديم الذى لا يعكس الحقيقة؟ وهل هناك استشراق جديد حيث العلم منفصل عن السياسة؟

إن هذه الأسئلة يمكن أن تجد إجابة لها فى التغير الملحوظ الذى طرأ على الذهنية الفرنسية فى النصف الثانى من القرن العشرين، إذ إن ما كان مقبولاً طوال القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الثانية لم يعد له مصداقية عند المؤرخين الفرنسيين المعاصرين.

ثانياً: نص ترجمة نيقولا الترك

بداية لابد أن نشير إلى أن نص نيقولا ترك قد تم ترجمته إلى الفرنسية ثلاث مرات: الأولى سنة1838 وقد ترجمها كاردان، والثانية سنة 1839 (أى بعد عام واحد من ظهور ترجمة كاردان) [6] وتم ترجمتها عام 1950 من قبل المستشرق الشهير جاستون فيت[7]. ويُلاحظ أنه فى الترجمتين الأوليين، اكتفى المترجمان بنقل الجزء الخاص بالحملة الفرنسية، أما الترجمة الثالثة والأخيرة لجاستون فيت فقد ترجم نص نيقولا ترك كاملاً.

يعترف كاردان فى المقدمة، أنه يقدم ملخصاً لنص نيقولا ترك. ويعرفه للقارئ الفرنسى فهو أحد الأتباع المخلصين للأمير الدروز. ويؤكد كاردان أن الدروز يدعوا أنهم من أصل فرنسى.

وقد ترجم مقدمة نيقولا ترك فى حين أنه لم يقم بترجمة مقدمة الجبرتى؛ ويمكن تفسير ذلك بأن مقدمة الجبرتى كانت تسبق النص الكامل للجبرتى، والصفحات التى يسرد فيها الحملة الفرنسية ليست إلا جزءاً صغيراً فيها. بينما مقدمة نيقولا ترك تسبق مباشرة نص تقريره عن الحملة الفرنسية.

والملاحظ أن ترجمة كاردان لنيقولا ترك أكثر التزاماً بالنص من ترجمة الجبرتى. ولو أن ذلك لا يمنع من وجود بعض التحريفات، ويأتى فى مقدمتها حذف بعض الجمل والعبارات: فمثلاً نلاحظ تعمده حذف ثلاث صفحات كان نيقولا ترك

يصف فيها أمجاد بونابرت العسكرية ويمدح عبقريته العسكرية. والسؤال: لماذا قام بحذفها؟ ربما لأنها أمجاد لم تكن فى بلاد شرقية؟. سنحاول أن نصف صور التحريفات والتشويهات المختلفة التى تظهر عبر النص المترجم:

صورة الإنجليز: لقد تم تحريف مثلين فقط لا غير.

المثل 1: يتحدث فيه نيقولا ترك عن انتصار الإنجليز فى أبو قير ويقول:

[ص 14] "وانتصرت عمارة الانكليز على العمارة الفرنساوية" وقد تم ترجمتها هكذا:

P14 "Les Anglais furent vainqueurs"

(وانتصر الإنجليز) ويلاحظ هنا أنه حذف "على العمارة الفرنساوية"، الجار والمجرور.

صورة المماليك

أطلق نيقولا ترك على المماليك أكثر من اسم:

- "الغز" 47 مرة.
- "المماليك الغز" 23 مرة.
- "الغز المماليك" 20 مرة

ماذا تعنى كلمة "غز" يقول دوزى Dozy فى قاموسه أنها جمع "غزى" التى تعنى قبيلة تركية والكلمة تم إطلاقها على الكرد. أما فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، جاءت فرقة الغز إلى مصر مع قراقوش. وهم رماحين، ورجال شرطة مسئولون عن حرق المساجين وجلدهم وقطع رؤوسهم.[8] وإذن عندما يطلق نيقولا ترك على المماليك كلمة "غز" فهو يؤكد على أنهم غرباء عن مصر. وهذا يوضح أن هناك جانباً سلبياً، خاصة أننا نتذكر أن الجبرتى كان يسميهم إما "الأمراء" أو "الأمراء المصرلية"، فقد كان الجبرتى يعتبرهم جزءًا من صفوة العلماء المقربين من

الصفوة العسكرية المملوكية. فقد تم ترجمة هذه التسمية الخاصة عند الجبرتى وكاردان بنفس الكلمة "Les Mamelouks".

هناك تحريفات أخرى قُصِدَ بها تقليل وقع الهزيمة والصورة السلبية للفرنسيين: مثال ذلك بعد إلغاء اتفاقية العريش يسرد نيقولا ترك على لسان الجنرال الإنجليزى Smith [ص 78]. "وتنزلوا أسارى مقيدين بمراكب".

فقد اختار كاردان أن يلغيها تماماً من النص. وذلك حتى لا تُظهر الفرنسيين بشكل سيئ.

صورة الأتراك

" [ص 56] وأن العمارة هى عثمالية لا ريب فيها." وقد ترجمها كاردان بـ

p.34 "L'armée était composeé de musulmans".

إننا لا يمكننا نفى إسلامية الأتراك، ولكن استخدام كلمة "musulmans" بدلاً من "ottomans"، تعطى بعداً آخر لجملة نيقولا ترك، المسيحى الذى يتحدث عن المسلمين. أما فيما يخص صورة المماليك عند نص نيقولا ترك، فنلاحظ أنها ليست جيدة مثل صورتهم عند الجبرتى. إلا أن المترجم لم يضف صفة "جبناء". ولكن يظهر التحريف على مستوى آخر :

المثال الأول:

يعلق نيقولا ترك على حروب المماليك "وهربت الغز لأن نار الفرنساوية لا تطاق، وحربهم من المذاق الصعب ولهم فنون كثيرة فى الحروب التى لا تدركهم الغز ولا العربان، لأن الغز والعربان ما عندهم سوى السيف والرمح والخيل والفرنساوية كانوا نفوسهم فى النار عريقة وكان لهم شجاعة (...) بل دايما كانوا منتصرون". [ص32]؛ ويترجم كاردان هذه الجملة:

p.21

"Ils se sauvérent en s'écriant "que leur guerre est amère! Aucun peuple

n'a atteint la perfection de leur lactique , nous savons manier le sabre, la lance, le cheval. Les français s'entouent d'un feu continuel et Trouvent la mort de sang-froid: noues ne les avons pas vu reculer une seule fois":

(هربوا وهم يصيحون: كم مُرة هى حربهم! لم يصل أحد إلى هذا الكمال فى التكتيك العسكرى، أننا نعرف كيف تستخدم الرمح والسيف والخيل. إلا أن الفرنسيين دائماً ما تكون حولهم نار وحرب وهم يلقون الموت بشجاعة، ولم نرهم قط يتقهقرون أمام عدوهم"

يلاحظ هنا أن كاردان أورد كلمة نيقولا ترك (المعجب بالفرنسيين) على لسان المماليك؛ وبذلك التحريف نجد أنفسنا أمام جماعة المماليك وهى تُقيّم نفسها، كمحاربين أقل من الفرنسيين.

وهناك فى النص الفرنسى إضافة أخرى ألا وهى وجود الخط المائل: فاعترافات المماليك تظهر بالخط المائل l'italique لكى يتم إبرازها لدى القارئ الفرنسى.

صورة الأقباط:

فى رواية الجبرتى، تم اتهام بعض الأقباط بالتعاون مع الفرنسيين، فالجبرتى لا يوافق على سلوك العامة تجاه الأقباط. إلا أننا لا يمكن أن ننفى أن الجبرتى كان يعتبرهم فى مرتبة أقل من المسلمين؛ لكن كيف قدمهم نيقولا ترك؟ لقد وصفهم بموضوعية ملحوظة. وبرغم أن الروايتين عند الجبرتى ونيقولا ترك قد تبدو متطابقتين إلا أن هناك اختلافا واحدا لنص نيقولا ترك عنهم، فهو يقول:

" وأول ما كان من أمر النصارى فوقع عليهم وهن عظيم وخوف جسيم وبدوا الإسلام يتطاولون بالقتل والسلب".[13] فالممارسات السلبية ضد الأقباط فى رواية الجبرتى تم نسبها إلى (العامة)، بينما نيقولا ترك ينسبها إلى كل المسلمين باستخدامه كلمة (الإسلام)، وهكذا يتم المبالغة فى الاضطهاد.

إن استخدام هاتين الكلمتين يمكن شرحهما بهوية كلا الروايتين فالجبرتى،

الشيخ المسلم، الذى يعد من الصفوة المثقفة، يشرح هذه الممارسات عن طريق جهل العامة. أما نيقولا ترك، الغريب عن المجتمع المصرى، فهو لا يرى تفاصيل الطبقات المختلفة للمجتمع المصرى كما يراها الجبرتى: العلماء/ أهل البلد/ العامة/ الحرافيش.

فعند نيقولا ترك لا نرى إلا "أهل البلد" أو "الإسلام". ومن الطريف أن كاردان ترجم كلمتى "العامة" عند الجبرتى و"الإسلام" عند نيقولا ترك بكلمة واحدة "les musulmans" (المسلمين). وهكذا تصبح الروايتين متطابقتين: والاقباط فى النصين المترجمين يصبحون مضطهدين.

العلماء:

إن الصورة التى تظهر للعلماء من خلال رواية نيقولا ترك ليست مختلفة عن صورتهم عند الجبرتى. إلا أن رواية الجبرتى تحمل تفاصيل أكثر، وذلك منطقى نظراً لأن الجبرتى كان من العلماء، فكان يعرفهم أكثر.

أما فى الترجمة فهى ليست واحدة. والأمثلة الآتية تؤكد ذلك:

مثل 1: يقول بونابرت للعلماء بعد ثورة القاهرة الأولى: "أيها العلماء إننى كنت أظنكم أناس عقلا على شيخوختكم وكبر سنكم. والآن قد تحققت أنكم أناس جهلا قليلى العقول" [ص89].

عند كاردان، تحولت هذه الجملة إلى:

p.51 "Je me plaisais à croire qu'en votre qualité de docteurs de la loi et en vertu de l'expérience d'un âge avancé, je trouverai en vous des hommes éclairé et prudents; j'ai acquis la malheureuse conviction que vois n'êtes que des fous aveuglés pas le fanatimse.

ومثل آخر: [ص 90] "ولكن من حيث أن هذا صادر من عنادتكم وجهلاكم فقد صفحت عنكم".

وقد تم ترجمتها هكذا:

p.52 "Je veux bien croire que vos avez été aveuglés par votre fanatisme et votre ignorance.

وهكذا، تظهر كلمة "fanatisme" التى تعنى "تعصب" بشكل متكرر. بينما نيقولا ترك يذكرها على لسان بونابرت.

صورة المصريين

لقد ذكرنا سابقا أن نيقولا ترك يستخدم كلمة "أهل البلد" أو "الإسلام" ليتحدث عن المصريين.

وتظهر الكلمة الأولى أكثر (260 مرة) بينما الثانية تظهر 23 مرة وكلمة "الإسلام" يستخدمها عندما يذكر الأقباط مثلاً:

[ص 17]

"وفى غضون ذلك طلب من تجار البهار الإسلام ألف فرانسا سلفة وطلب من طايفة الأقباط مباشرين الأقاليم وكتبه البلاد مايتين ألف فرانسا سلفة" .

يترجمها كاردان:

"Pendant ce temps, on demande aux marchands musulmans d'épices 200.000 francs francais comme emprunt, et des coptes…"

أما بالنسبة لكلمة "أهل البلد" [ص 85] "أخذت أهل البلد تهجم على قلاع السارى وبيت عسكر"، يقول. كاردان :

P.48

"Les musulmans étaient réunis autour des fort la maison du général en chef"

(أخذ المسلمون يجتمعون حول قلاع بيت سارى عسكر).

الواقع أن أغلب "أهل البلد" كانوا مسلمين، إلا أن موقف نيقولا ترك، عندما

يستخدم كلمة Les musulmans من خلال ترجمة كاردان، يصبح مختلفاً: ف "نيقولا ترك" المسيحى الديانة يتحدث عن "المسلمين" المختلفين عنه. بينما حين يقول "أهل البلد" فهو أكثر حيادياً (فلا توجد هنا حرب دينية وما ينتج عنها من "تعصب").

صورة الفرنسيين

نلاحظ أن صورة الفرنسيين عند نيقولا ترك مختلفة تماماً عنها عند الجبرتى. فهو معجب بهم. ويكفى أن نقرأ مقدمة الجبرتى حتى نتعرف على موقفه تجاه الفرنسيين وهناك تغييرات كثيرة تبين ذلك فى نص نيقولا ترك" نقرأ مثلا:

"الجنرال ميراد البطل الشجاع"[ص 45]، (الجنرال لاينوس "البطل الصنديد")[102] "الجنرال ديبوى البطل العظيم" [9]، ص5: الجنرال (بونابرت) شديد البطش وسعيد جدا فى الحروب".[ص5]

فلا نقرأ أحد أسماء الجنرالات الفرنسيين إلا وهى مقترنة بنعوت وصفات مادحة.

وثمة ملاحظة على جانب كبير من الأهمية توضح سمة غالبة على نص نيقولا ترك: فالملاحظ أنه لم يشاهد التجارب العلمية التى قام بها العلماء الفرنسيين فهو لا يذكر إلا العساكر وجنرالاتهم وشجاعتهم وقوتهم... وذلك لا يعنى أنه لم يذكر عيوبهم. إلا أن كاردان تعمد تجاهل ترجمة المآخذ والعيوب التى حددها نيقولا ترك فى القرنين ؛ فعلى سبيل المثال:

"ثم أن أحد الناس تفوه بهذا الخبر فبلغ ذلك إلى أمير الجيوش بونابرت فاحضره لديه وكان مراده قتله، فحصلت له شفاعة فأخذ منه ستماية فرانسا وأمر الجيوش أن كل من تفوه بهذا الشأن قصاصه ستماية ريال" [ص20].

وقد تم حذف هذه الجملة تماماً من نص ترجمة كاردان.

ويمكن طرح مثال آخر: " وساعد الفرنساوية على النصرة تلك الريح الشديد

التى خرج فى ذلك الوقت ضد الغز تلطمهم فى وجوههم فانكسرت عساكر الغز من شدة النار التى أمطرت عليهم". [ص14] فنجد كاردان يحذف هذه الجملة؛ لأنه على ما يبدو لم يعجبه أن تكون الأحوال الجوية سبباً فى انتصار الفرنسيين.

وقد لجأ كاردان إلى عملية ثنائية (حذف / إضافة) أربع مرات. وقد استخدم عبارة "السلب والنهب" يصف بها بعض أعمال الفرنسيين. فمثلاً: فى إحدى البيانات التركية للمصريين نقرأ: " لأن الفرنساوية الذين حضروا لهذا البر هم بذاتهم الذين خربوا بلاد إيطاليا وسلبوها وخربوا رميه وسلبوها وأخذوا مالطا وسلبوها" [ص2-0].

وقد حولها كاردان إلى:

p.4 "car les Français venus en Egpyte étaient les mêmes qu'avoient conquis Rome et Italie"

وهكذا فقد استبدل كاردان أفعال "سلب ونهب" بـ "conquis" "احتل" وهى كلمة ذات معنى إيجابى مقارنة بالكلمتين الآخرين. ولنطرح مثالا آخر: "وبدت الفرنساوية تحارب فى كل جهة من جهات مصر وتمزق فى بلاد وتنهب فى عباد" [ص25]. ترجمها كاردان:

p.15 "On pilla et incendia les maisons des fugitifs det de leurres débris on éleva des foritfications".

هناك فى هذه الجملة أكثر من حذف، لقد تم حذف "الفرنساوية" وتم استبداله بالضمير On وهو ضمير يفيد عدم تعريف الفاعل ويطلق عليه بالفرنسية "pronom indéfini". أما (الضمير غير المعروف) التغيير الثانى فهو أن كاردان يقول إنه تم السلب والحرق وذلك لبناء (éleva) قلاع...

* * *

هكذا نلاحظ أن نص نيقولا ترك يحتوى على تحريفات أقل من نص الجبرتى؛ ويرجع ذلك لأكثر من عامل. أولاً، يجب أن نتذكر أن نص الجبرتى ليس فقط

حوليات عسكرية مثل نص نيقولا ترك، فالنص الأول يحتوى أيضاً على صفحات عن تراجم الوفيات nécneogie، وكمّ كبير من التفاصيل عن الحياة اليومية للمجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر. وقد رصدنا عددا أكبر فى نص ترجمة الجبرتى، ويتم ذلك أساساً على مستوى صورة المصريين والفرنسيين. أما بالنسبة لصورة الإنجليز والأتراك والمماليك، فقد كان العدد أقل بكثير ويجب أن نضع فى الحسبان أنهم ليسوا موجودين فى الجزائر (الأرض التى تم احتلالها).

كان النصيب الأكبر من الحذف، كان لصورة المصريين المسلمين. فلكى نصبح أكثر دقة، ففى الإسلام يرى الفرنسيون العدو الأكبر وذلك يظهر فى تبديل كلمات "أهل البلد" و"المصريين" "بالمسلمين" إن نص نيقولا ترك يصبح مهم للترجمة لأنه يحمل جانب شديد الإيجابية تجاه الفرنسيين العساكر، وذلك البعد ليس موجوداً عند الجبرتى. فالجبرتى يعجب فقط بالجانب العلمى (بالعلماء الفرنسيين). والجدير بالذكر أن نص الجبرتى يسبق نص نيقولا ترك، أى أن هذا الأخير يتبعه فهو أقل أهمية، إلا أنه يكمله..

ويجب أن نؤكد: أن الأيديولوجية الاستعمارية قامت على بناء عدد من الأساطير mythes (أسطورة الفرنسى الأعلى، أسطورة المسلم المتعصب، أسطورة القبطى / المسيحى المضطهد). وتظهر هذه الأساطير فى الروايتين التى تم تحريفهما، وبذلك يتم تبرير استمرار الاستعمار...

الهوامش

(1) عبد الرحمن: عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ، الجزء الثانى، ص 179.

(2) Dozy:Supplément aux dictionnaires arabes ,Maisonneuve & co. Paris, 1881 ,tomo 2, P. 1021.

(3) عبد الرحمن زكي: خطط القاهرة فى أيام الجبرتى فى "عبد الرحمن الجبرتى دراسات وبحوث" الهيئة العامة للكتاب،القاهرة 1984، ص 493...

(4) مقدمة االترجمة عند ألكسندر كاردان.

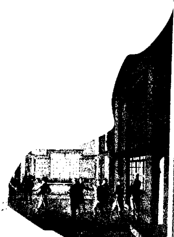
(5) De Sacy ,S.:Chrestomathie arabe ou Extraits de divers écrivains arabes tant en prose qu'en vers avec une traduction française et des notes ,vol.I,1828, reimp. Osnabruck,Biblio.Verlaig,p.223.

(6) وذلك يمكن أن يعطى الانطباع أن ترجمة كاردان لم تكن مرضية.

(7) G.Wiet: Chroniques d'Egypte: 1798-1804. IFAO, Le Caire, 1950.

(8) R. Dozy: Supplément aux dictionnaires arabes. Leyde, E.J. Baille, Maisonneuve & Co., Paris, 1881, p.210.

* * *



في المصادر

وصف مصر: نظرة الآخر
(الدولة الحديثة)

د. منال خضر

إن علاقة الغرب بالشرق علاقة ثرية ومركبة؛ فلقد كان الشرق –دوما– بالنسبة للغرب– الآخر القريب، ولانعنى بالقريب هنا المعنى الجغرافى فحسب وإنما القريب فى مخيلة الآخر وذهنه والمجاور له على مر العصور. على أية حال، فقد نتج عن هذا التجاور المكانى الرغبة فى الاكتشاف والمعرفة، كما أثار فضول الآخر فأحدث حروبا وولد أسفارا. وأخذت هذه الرغبة فى معرفة الآخر ألوانا متعددة من الغموض والتنافس والصراع والتهديد، وتبدلت النظرة عبر العصور؛ فتأرجحت بين الافتتان والسخط، إلا أن الشرق ظل هو الآخر بحق. ولاشك أن العلاقات المصرية الفرنسية قد خضعت لنفس هذا المصير، فقد تشابك الخيال مع الحقيقة منذ الاحتكاكات الأولى، سواء كانت تجارية أو فكرية أو دينية.. ناهيك عن الأخبار التى تناقلها الرحالة الذين كانوا ينقلون بدورهم ما رأوه أو ما جلبوه من البضائع الشرقية المختلفة خلال أسفارهم.

والواقع أن فرنسا تمثل حالة خاصة بالنسبة للضمير المصرى ؛ فكثيرا ماتعتبر مرجعاً أساسيا لنا كمصريين وإن كان هذا المرجع متغير فى لونه وشكله، متناقض فى خواصه، لكنه يظل ثابتا فى وظيفته الاستقطابية.. لهذه الأسباب اخترنا أن ندرس إشكالية نظرة الآخر على ضوء مؤلف "وصف مصر "الذى صدرت طبعته الأولى (الامبرالية) فى الفترة من 1809 إلى 1828، واشتمل على ثلاثة أطالس من

اللوحات فى عشرة أجزاء وتسعة أجزاء من النصوص، وزعت كلها على ثلاثة تقسيمات: مصر القديمة والدولة الحديثة والعلوم الطبيعية، بالإضافة الى أطلس يضم الخريطة الجغرافية والطوبوغرافية. أما الطبعة التى استعنا بها عمليا فى الدراسة فهى طبعة بانكوك التى صدرت بين عامى 1820 و 1829، وهى النسخة الموجودة فى مكتبة جامعة القاهرة.

من الطبيعى أن يعد مؤلف "وصف مصر" عملا رياديا و نموذجا فريدا لاسابق له، وربما لامثيل له من حيث الموضوع والحجم.. فالمعروف أنه حتى ذلك الحين لم يحظ أى مكان آخر فى العالم بهذه النوعية من الفحص والدراسة. فهو بالقطع عمل ضخم قام به نخبة من العلماء والمهندسين والرسامين الفرنسيين الذين صاحبوا الحملة العسكرية، وانكبوا جميعا على إحصاء الآثار المصرية وفحص حيواناتها ونباتاتها وسكانها، واقتصادها ومؤسساتها الاجتماعية والسياسية، إلخ. لذلك كثيرا ما يطلق عليه أنه موسوعة علمية حقيقية. لقد كانت قائمة الأسماء المشتركة فى هذا العمل مذهلة فلجنة العلوم والفنون التى صاحبت الحملة -لتكون المعهد المصرى فيما بعد- ضمت علماء لايستهان بهم، إلى جانب شباب الدارسين فى مجالات مختلفة ومتنوعة الذين أتوا لدراسة الحالة المصرية والوقوف على ظروف هذا البلد عن قرب. ورغم أن البحث فى السيرة الذاتية للباحثين الذين شاركوا فى كتابة "وصف مصر" قد أفاد أن معظمهم كانوا غيرمعروفين عند مجيئهم لمصر، إلا أن الملاحظات والمعطيات التى سوف تتوفر لديهم من خلال البحث الميدانى خلال إقامتهم سوف تكون لها دوى ملموس فى الأوساط العلمية لاحقا فى فرنسا، بل إنها سوف تنتشر منها الى أوروبا لتغذى مختلف المجالات العلمية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ كالطفرة التى ستحدث فى مجال العلوم الاجتماعية وكذلك الجغرافيا والفيزياء التجريبية؛ حيث ابتكر هؤلاء الشباب مناهج جديدة لم تكن متبعة سابقا: إن الخريطة الجغرافية التى وضعها جاكوتان Jacotin والمتضمنة فى "الدولة الحديثة" — مثلا- كانت أحدث ما توصل إليه علم الخرائط عند صدورها؛ إذ لم يكن فى أوروبا خريطة لمصر بهذه الحداثة حتى ذلك الحين.

من هنا أتى الالتباس؛ بمعنى أن مجرد التفكير فى أن بعض من شاركوا فى كتابة وصف مصر يمثلون فاكهة النخبة المفكرة فى فرنسا قد يجعلنا نتردد ألف مرة قبل إعادة فتح هذا الملف لتحليله أو نقده؛ إذ يبدو للوهلة الأولى أنها موسوعة علمية موضوعية لن يكون فيها مايثير الشك أو حتى النقد. بيد أن معرفة الآخر الحقيقية لابد أن تمر بذاتية الملاحظ وأيديولوجيته والمجموعة التى ينتمى إليها ويتحدث بالنيابة عنها. بالتالى فإن السؤال الذى من الممكن أن يكون عصب هذه الإشكالية هو: إلى أى حد تقدم هذه الموسوعة شهادة موضوعية فى وصف مصر؟ للإجابة على هذا السؤال لابد لنا أن نتذكر أن المشاركين فى الكتابة ينحدرون مما أطلق عليه "عصر التنوير" فى فرنسا، فهم متأثرون إذًا بفكر معين، والخطاب الصادر عنهم يسعى لأن يكون خطابا شموليا وعالميا. ويعتقد المشاركون فى كتابة هذا المؤلف أن لهم رسالة إنسانية وهى نشر التقدم والحضارة فى الأماكن التى تئن تحت وطأة العبودية والتخلف. فهل راهن علماء الحملة على القيام بعمل بضخامة ادعاءاتهم أم أن رؤية الآخر(بمعنى وصفه والحكم عليه) ليست سوى انعكاس لصورتهم الذاتية ؟ يجيب تسفتان تودوروف Tzvetan Todorov فى كتابه " نحن والآخرون" على هذا التساؤل فيقول مامفاده: إن أسوأ ما فى ادعاءات مذهب العالمية universalisme الذى يعد أحد البنود الأساسية فى فكر التنوير بفرنسا آنذاك- أنه ليس سوى قناع يخفى وراءه العرقية المتجردة.. وعندما انتحلت الذاتية اسم هذا المذهب أصبحت مسؤولة عن أحداث مشينة أقل ما يقال عنها: إنها وصمة عار فى تاريخ أوربا الحديث وهى الغزوات الاستعمارية [1].

وبالفعل، فإن مقدمة "وصف مصر" التى كتبها المهندس فوربيه Fourier وعدلها الإمبراطور نابليون بنفسه تظهر بوضوح مشروعه الاستعمارى الذى يسميه هو "رسالة حضارية"، ويقول فى معرض سرده لوجهة نظره عند تبرير سبب اقتحامه مصر: " إن البطل الذى قاد الحملة لم يكتف بمعاقبة هؤلاء الذين يعطلون مرور التجارة الفرنسية، لكنه أعطى مشروع الحملة بعدا أعظم حينما صبغها بعبقريته الخاصة؛ فبالإضافة لما لهذا الحدث من أثر على التجارة مع الشرق والعلاقات

الأوربية مع إفريقيا والملاحة فى المتوسط ومصير آسيا، فلقد أراد أيضا إزالة طغيان المماليك، ومد مساحة الزراعة والرى، وإيجاد وسيلة اتصال مستمرة بين المتوسط والخليج العربى، وإهداء نموذج الصناعة الأوربية النافع إلى الشرق، وأخيرا تحسين الظروف المعيشية للمصريين ومنحهم كل مزايا الحضارة الأوربية المكتملة...". لاشك أن فرنسا – بهذه النبرة المتعالية والادعاءات الواضحة – المتشربة بأيديولوجية التنوير – كانت تبدأ عصر الاستعمار الأوربى فى الشرق الأوسط. ومن العجب أن نجد نفس الخطاب الاستعمارى بحذافيره يتكرر فى مطلع القرن الحادى والعشرين؛ أى بعد مرور أكثر من مائتى عام على الحملة الفرنسية على مصر، فى رسالة جورج بوش الابن عند احتلاله للعراق!

من هذا المنظور اخترنا أن نتناول تحديدا الجزء الخاص بالدولة الحديثة؛ أى الجزء الذى ينقل حالة مصر – من وجهة نظرهم – فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى؛ لأنه –قطعا– الجزء الأكثر تورطا من الناحية الأيديولوجية وهو الذى يكشف عن الأفكار التى حرضت العلماء على وصف مصر بهذه الكيفية إيجابية كانت أم سلبية.

لعل من الضرورى أن ننوه إلى أن سياسة التوسع الإقليمى والأيديولوجية التى استتبعتها كانت من المفاهيم الرئيسة التى قامت عليها فلسفة التنوير، خلال القرن الثامن عشر الفرنسى: فالحروب الثورية – ومنها الحملة على مصر – تنبثق عنها مباشرة، وكذلك حروب نابليون فى أوربا فيما بعد. والأهم أن العلم – فى هذه الحالة – كان أداة أساسية لتدعيم الاحتلال على أساس أنه يعتمد بل ويؤكد سفلية البلاد المفتوحة ثقافيا وعلميا وسياسيا. فى هذا الصدد، تبدو الحالة المصرية حالة نموذجية يتصاهر فيها السيف مع القلم بحيث يبدو الجانب العلمى ملازما ومكملا للفتح العسكرى.

وتحاول هذه الورقة عرض أهم المحاور التى تناولتها أطروحة الدكتوراه التى تقدمنا بها إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة وموضوعها: وصف مصر: نظرة الآخر (الدولة الحديثة)[2]. وتتكون الدراسة من جزأين؛ الأول تاريخى،والثانى تحليلى.

والإشكالية التى يعالجها الجزء الأول هى: لماذا تم اختيار مصر فى هذا التوقيت بالذات؟ وما الملابسات التاريخية والمذاهب الفكرية التى دفعت الحركة السياسية؟ ثم من هم المؤلفون[3] ؟ وما موقفهم الأيديولوجى من مشروع الكتابة؟ وقد استوجب ذلك استرجاع الأيديولوجيات الخاصة بفلسفة التنوير والتى لها علاقة مباشرة بالحملة؛ على أساس أنها أثرت بشكل مباشر على فكر العلماء الذين تصدوا لكتابة المؤلف. كما عالجت الدراسة المبررات السياسية التى تشدق بها الفرنسيون آنذاك للاستحواذ على مصر. ولم يكن الغرض من الدراسة هو اجترار الأسباب التاريخية المعروفة لنا جميعا[4]، والتى طالما استعرضتها كتب التاريخ فى مناهجنا القومية، وإنما الكشف عن الإطار الفكرى الذى أدى إلى هذه الحملة ونتائجها الخطيرة على المستوى القومى والإقليمى وعلى مستوى العلاقات المصرية الفرنسية، بل وعلاقة الشرق بالغرب بشكل عام؛ لكونها فاتحة الحركة الاستعمارية التى ستنطلق من أوروبا إلى الشرق فى القرن التاسع عشر.

على حين عالج الجزء الثانى من الأطروحة الأسباب التى جعلت من هذا النص وثيقة تاريخية هامة من خلال الإجابة على سؤالين: كيف تم الوصف؟ ولماذا كان الوصف بهذه الكيفية؟ فبالرغم من أن عنوان المؤلف يعبر بشكل تام عن مضمونه - فإن موضوع الجزء - محل الدراسة- والمعنى بوصف مصر، أثناء وجود الحملة بها- يظهر مصر كما تراها العين الفرنسية: فالكاتب يعرض بالفعل وجهة النظر الفرنسية عن علاقة الإنسان بالأرض والعلاقات الأسرية ومختلف مظاهر الحياة اليومية والتركيبة الاجتماعية والتقاليد والدين، إلخ.. وبالتالى فإن هناك سؤالا يفرض نفسه: إلى من يتوجه الخطاب ؟ أو من هو المتلقى الذى يراد إخباره بحقيقة معينة والتأثير عليه فكريا ونفسيا؟ إن الرسالة موجهة - قطعا- إلى الرأى العام الفرنسى وبالأخص المشتغلين بالسياسة آنذاك. فإذا كانت النصوص تتضمن نفس الأفكار الرئيسة التى تسيطر على الكتاب وتظهر فى الغالب تعصبا ورفضا للآخر، فإنها أيضا دعوة بل تحريض للإدارة الفرنسية على العودة مرة أخرى وعدم التخلى

عن مصر. على حين تجاهل الخطاب القارئ المصرى الذى يمثل الطرف الآخر فى القضية؛ إنها نظرة فرانكو- مركزية تفرض السياسة وتحدد المصير. ومن هنا حاولت الدراسة استثمار التحليل الخطابى للتحقق من استنتاجاتنا الأولية بعد تبين الدلالة المنطقية الصادرة عن النص.

وقد راعينا فى اختيارنا للعينة النصية موضوع الدراسة أن تكون الموضوعات منصبة تماما على حالة مصر فى القرن الثامن عشر، وألا تكون موضوعات نظرية ذات طابع عام يمكن أن تنطبق على أى حالة أخرى. وعليه، فقد حصرنا الاختيار فى عشرة نصوص[5] مكونة من 1020 صفحة، حاولنا تحليل مضمونها بعناية بهدف التوصل إلى سيمانطيقا النصوص؛ حتى نتحقق من مغزاها كوثيقة تاريخية لها دلالات خاصة.

أولاً: السيف والقلم

1- فلسفة التنوير والحملة على مصر:

لا يمكن استحضار الملابسات السياسية التى أدت إلى الحملة دون الإشارة إلى فلسفة التنوير؛ لأن الذين خططوا للحملة سليلو الثورة الفرنسية (1789) ابنة التنوير، وقد كانوا من أشد المؤمنين بها، وكانوا يستلهمون أفكارهم من المبادئ الثورية التى اعتنقوها كالإيمان بالحرية والعلم والتقدم. وإن كان هناك تفاوت كبير بين مايقولونه ومايفعلونه، ولعل الوجه الأمثل الذى جسد بحق التناقض بين القول والفعل هو وجه بونابرت نفسه.

وقد استخلصنا -عموما- خمسة مفاهيم أساسية من فلسفة التنويركان لها أثر بالغ فى توجيه فكر كتاب الدولة الحديثة؛ وهى: التقدم، الحضارة، الحرية، العالمية، الاستبداد[6]. وتتلخص عقيدة التنويريين فى أنهم يقسمون الحضارة الإنسانية الناتجة عن الفكر البشرى إلى مستويات: فهناك تطور تاريخى وإنسانى نتج عنه أن أصبحت الحضارة الأوربية فى قمة هذه الحضارات جميعا؛ فهى تمثل المرحلة الأخيرة من

مراحل تطور الحضارات، وهى تعكس الحركة التقدمية المتصاعدة للنتاج الإنسانى، والمطلوب بناء على ذلك هو إعادة بعث الحضارات القديمة وترميمها، وهذا ماينطبق تماما على الحالة المصرية بما أنها مهد الحضارات القديمة ودرة الحضارة العربية؛ ولذلك فإن ماضيها المجيد لابد أن يضمن لها حسب مفهومهم - مستقبلا مبهرا وكأن أحد أدوار الحملة الفرنسية هو إعادة العلوم والفنون إلى موطنها الأصلى..

وهكذا يبدو منذ الوهلة الأولى أن حقيقة استغلال الشرق فى الفكر السياسى الغربى ظل دائما مغلفا بتبريرات فلسفية، ظاهرها خير وباطنها استغلال للشعوب. إن انتحال المبادئ الثورية لاغتصاب أرض الغير وإرادته يظل أحد سمات الحملة الفرنسية على مصر. لكن المدهش أن الشعب المصرى وعلى رأسه فقهاؤه وعلماؤه وعوا -تماما- هذه المفارقة ولم ينخدعوا بالصيغ الرنانة التى رددها القائمون على الحملة؛ والدليل هى الثورات الشعبية التلقائية تارة والمنظمة تارة أخرى التى قام بها المصريون، والوحشية التى قمع بها الفرنسيون هذه الثورات. إن الفكر الفلسفى والفكر السياسى متلاصقان هنا بشكل حميم. لقد كانت الأفكار تقود العالم من حولهم: يطرح الكتاب الرسومات التخطيطية من الناحية النظرية، فيتلقفها الثوريون ويحاولون تكييفها حسب مايقتضيه الموقف اللحظى.

فى هذا الوقت بدأت تتكون فى فرنسا الأيديولوجية القومية التى سيفتخر بها الفرنسيون ويسعون لنشرها فى أركان الكون برمته ومغزاها: أن الشعوب لابد أن تتحكم فى مصائرها -وأن الفرنسى " البطل " صاحب رسالة عالمية وهى تحرير الشعوب المقهورة - على الطريقة الفرنسية - وبث المفاهيم الثورية التنويرية الفرنسية إلى كل أرجاء العالم! وبما أن المشرق كان الآخر الأكثر قربا من فرنسا فقد وقع عليه الاختيار؛ ليكون أول من يخصه الفرنسيون بحملتهم التحريرية. لقد كان المفكر المنتمى إلى عصر التنوير رجلا عقلانيا يعتقد فى التقدم الإنسانى، وهو -قصرا وبالضرورة- الفرنسى الأوربى المؤمن بتفوق حضارته وبالواجبات التى تستتبع

هذا التفوق تجاه الشعوب الأخرى. ويرى الرجل التنويرى "برنامج الزحف الحضارى" على أنه برنامج طليعى لابد أن يغطى بقية العالم، وأن تكون فرنسا هى مركز الإشعاع فيه، لأنها مهيأة لتصديره من منطلق أن إعادة بناء الحضارات المندثرة لن يتحقق إلا من خلال نزعتها الاثنية. وكان قدر مصر أن تكون أول أرض غير أوربية تواجه هذا التحدى وهو التحضر عبر الفرانكو- مركزية.

كم من مرة تعثرنا أثناء قراءة الدولة الحديثة فى مصطلحات ومفاهيم من تلك التى ألصقها فلاسفة التنوير بالمشرق وبمصر؛ فهذا فولتيرVoltaire فى "البحث فى التقاليد"[7] يربط بين الخرافات والتخلف والطقوس المصرية التى تستحق الاحتقار (على حد قوله)، بل إن كثيرا ما كان المؤلفون يستشهدون بجمل أو حتى بعناوين بعض المنشورات المعروفة[8] لهؤلاء الفلاسفة الكبار لتأكيد أو تبرير وجهات نظرهم فى وصف مصر، كما كانوا -أحيانا- ينقلون عنهم نقلا حرفيا[9]. كذلك ساهم المفكر السياسى مونتسكيو Montesquieu (1689-1755) بوجه خاص فى نشر فكرة "الاستبداد الشرقى"، ففى كتابه روح القوانين "L'Esprit des Lois"، يظهر أن الحكم المستبد يتناقض مع الحكم الاعتدالى. إن أوربا تتميزبالنوع الثانى. أما المشرق فيتصف بالحكم الأول حتى اعتبرت الإمبراطورية العثمانية هى النموذج التام للنظام المستبد بمظهره العسكرى. من هنا، أخذ الثنائى "شرق / غرب" شكله الحديث كتناقض ثقافى اجتماعى يتعدى الاختلافات المؤسسية البسيطة بحيث لم يعد التفاوت بين الكيانين تاريخيا فقط، مثلما كان فى الماضى، بل أصبح أيضا تفاوتا ثقافيا لايستهان به. وسوف ينحت المفكرون الفرنسيون - من الآن فصاعداً - صورة للآخر من خلال مفهوم "الاستبداد الشرقى" الذى سيصبح أحد المحاور التى ترتسم حولها صورة الذات فى مقابل الآخر.

ولا يمكن إغفال اسم المستشرق فولنى Volney (1757- 1820)[10] عند الحديث عن الكتابات والآراء الخطيرة التى وجهت خطط الغزو وساهمت فى تشكيل صورة معينة عن مصر فى ذهن المسئولين عن الحملة سياسيا وعسكريا؛ ففى

كتابه "رحلة إلى مصر وسوريا"[11] ينتقد بعنف النظام المملوكى ويؤكد أن "مصلحة الشعب المصرى فى أن تسلم مصر إلى أياد أخرى". عموما كانت الصورة المنقولة عن مصر، فى مجملها، صورة بلد متخلف تسوده الفوضى والبؤس والظلام.

ويمكن لنا مما سبق أن نتتبع المنطق المبرر للغزو: إذا كانت المجتمعات الشرقية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية تغوص فى الانحطاط والظلامية فإن التدخل الخارجى وحده هو الذى يسمح بتحريرها من هذا التأخر. وهذا هو المبرر الفلسفى الذى سوف يستند إليه بونابرت لغزو مصر، فلنستمع إليه وهو يتحدث إلى الشعب المصرى: "لقد كان لديكم فيما مضى مدن عظيمة وقنوات كثيرة وتجارة رائعة.. فمن الذى هدم كل شىء؟ إنها أنانية وظلم وطغيان المماليك"[12]. كما أن التحليل الخطابى للبيان الذى ألقاه بونابرت على المصريين بمجرد استيلائه على الإسكندرية يظهر الازدواجية بل الالتباس الذى صدر من المتحدث حول مفهوم الحرية. وخلاصة القول: إن حصول المصريين على حريتهم من المماليك طريقها الوحيدة هى قبولهم الاحتلال من الفرنسيين. فالمحرر المحتل هو الذى سيوفر للشعب المصرى حياة رغدة كريمة ويعيد إليه أمجاد حضاراته السابقة! وهو نفس المعنى المكتوب صراحة فى المقدمة التاريخية لكتاب وصف مصر التى عرض فيها فوريبه Fourier معظم الأفكار التى استعرضناها سابقا. ولعل المقدمة التاريخية فى كتاب وصف مصر تحتوى على محصلة لكل هذه الأفكار، حيث تعرف الحملة على أنها " المشروع الذى سيعيد العلوم إلى ضفاف النيل بعد أن نفيت طويلا بعيدا عنه".

والواقع من المقارنة بين الكتاب المتميز الذى صدر عن فلسفة التنوير والذى عبّر بحق عن الفكر السائد آنذاك – وهو الأنسيكلوبديا L'Encyclopédie[13] – وكتاب وصف مصر[14]؛ تجلى العديد من الملاحظات: حيث يوجد تطابق واضح من ناحية الشكل والمدة التى استغرقتها الكتابة بالنسبة للعملين بحكم المفهوم العملى أوالصيغة التى كانت سائدة آنذاك؛ وقد أراد القائمون والمشتركون فى كتابة العملين أن يكونا عملين علميين يتميزان بالعقلانية ويتبعان المنهج العلمى فى البحث

والتمحيص. لذلك يمكن القول، من الناحية الفكرية: إن الأنسيكلوبديا هى الشاهد الأصيل على عصر التنويرمثلما يعتبر وصف مصر شاهداً على علماء الحملة الفرنسية. والكتابان يتميزان بأنهما عملان جماعيان تولاهما مجموعة مختارة من العلماء والمفكرين الممثلين لعصرهم؛ فإذا نرصد فى الأنسيكلوبديا النظريات السياسية والفلسفية التى تعكس فكر التنوير، نجد أن وصف مصر كان التطبيق العملى لوجهات نظرهم على الحالة المصرية.

وعند محاولة التعرف على صورة أوربا فى مقابل صورة مصر فى الأنسكلوبديا، جاء تعريف أوربا على النحو التالى: "لايهم أن تكون أوربا هى أصغر جزء فى أجزاء العالم الأربع من ناحية المساحة لكن أهمها من حيث التجارة والملاحة والخصوبة والصناعة وشعبها المستنير بمعرفته للفنون والعلوم ومختلف المهن "[15]. فى مقابل هذا المدح، جاءت صورة مصر وصفا لبلد متخلف قابع فى قاع السلم الحضارى: "إن تاريخ مصر -عامة- تاريخ مشوش يتسم فيه الدين والفلسفة على وجه الخصوص بالغموض والعتمة. لقد كانت مصر مهدا للمعتقدات الباطلة وللخرافات كما كانت مهدا للعلوم والفنون....[16] إلخ.. فى هذه الصفحة المستفيضة فى التعريف بمصر تكرر لفظ "خرافات" superstition خمس مرات وصفة "خرافية" superstitieuse خمس مرات، وجاءت كلمة "ساحر" magicien مرة. أليس من المنطقى إذًا أن تتعارض الخرافات المصرية مع الاستنارة العلمية الأوربية ؟ بالإضافة إلى ذلك، وجد كاتب المقال أن "مصر لم تعد رائعة كما كانت فى الماضى [....] لقد كانت فى السابق بلدا يثير الإعجاب، أما اليوم فهى بلد يدعو للدراسة ". وبالفعل، هذه الدعوة أو التحريض على اكتشاف مصر ودراستها ستجد صداها بعد عقود قليلة فى مشروع كتاب وصف مصر.

على أن صورة مصر فى عيون الفرنسيين لم تأخذ وضعها كمطمع سياسى فجأة فى القرن الثامن عشر؛ فقد ارتسمت صورة الشرق العربى على صفحات الكتب الأدبية ومن خلال روايات الرحالة المغامرين والتجار وماشاهدوه فى أسفارهم،

حتى إن بعضهم تعلم اللغة العربية وقرأ الكتب التقليدية عن الحضارة العربية الإسلامية، إلى أن صدر للقنصل العام الفرنسى فى مصر بونوا دى مايبه Benoît de Maillet كتابا فى وصف مصر، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يتم فيها إلقاء نظرة شاملة على هذا البلد فى محاولة أقرب إلى العلمية من سابقاتها.[17]

لم تكن صدفة إذًا أن ينشأ الاستشراق كعلم جاد فى نهاية القرن الثامن عشر، فقد عكس الاهتمام الشديد الذى يوليه التنوير للعالم العربى والإسلامى، وأظهر رؤية الآخر كما تصورها فلاسفة التنوير، حيث شغل التاريخ المقارن حيزا واضحا فى فكرهم، وهو نمط من الكتابة يهدف إلى استخلاص النتاج الحضارى البشرى عبر العصور والأمكنة، ووضع كل فى مكانه المناسب من خلال التصنيف غير الموضوعى. من هذا المنطلق يمكن اعتبار "وصف مصر" استمرارا لنوعية أدب الرحلات، والقول: إن "الدولة الحديثة"هى بالفعل تجميع لخلاصة ما قيل عن الآخر فى القرون السابقة وكأنها طرح جديد - دون أن يكون مختلفا- لنفس الآراء المسبقة عن مصر، وهى إضافة إيجابية على أية حال لصالح "وصف مصر" تميزه عن الكتب الفردية للرحالة السابقين، فالأمر هنا يرجع إلى فريق عمل منظم ومتكامل تحول معه المؤلف إلى مشروع قومى تبنته الإدارة الحكومية فيما بعد حتى أخرجته للنور.

هكذا تحول العرب من موضوع للتأمل إلى موضوع للجدل والتفكير، إلى أن اصطدم علم الاستشراق الذى قام فى بداياته على الفضول الإنسانى والرغبة فى معرفة الآخر بالضرورات السياسية ورغبة أوربا فى الزحف نحو العالم القديم، وتبلور -فعلا- على مستوى الخطاب والممارسة عند غزو مصر. لذلك فإن بونابرت عندما أتى إلى مصر لم يبتكر شيئاً وإنما ترجم على أرض الواقع حصاد المعرفة الاستشراقية لعصره فى أسس محددة. هذه هى الخلفية الفكرية التى وجهت المخططين للحملة نحو غزو مصر فى نهاية القرن الثامن عشر.

بيد أن أحد أسباب سقوط تاليران Talleyrand - وزير العلاقات الخارجية -

وأحد المخططين الرئيسين للحملة عام 1793 - هو فشل المغامرة المصرية: لقد تصور القائمون على الحملة من الدبلوماسيين (وعلى رأسهم تاليران) والعسكريين (وعلى رأسهم بونابرت) بالفعل- أن غزو مصر نزهة طريفة ستقابلها بعض المتاعب التى سيسهل التغلب عليها فى حينها، إلا أن الأحداث اللاحقة كذبت كل تنبوءاتهم وفشلت الحملة فشلا ذريعا.. ولعل مذكرات القادة الفرنسيين الذين عاشوا الأحداث – ومنهم على سبيل المثال لا الحصر دوجا Dugua نائب مينو Menou – قد كشفت عن يأسهم الشديد وتحطم معنوياتهم، يقول دوجا: " لقد كانت تنقصنا الأموال ثم الأموال ثم الأموال، والرجال والمعدات وصداقة السكان.. فهل سيحقق لنا رجوع الحملة من سوريا كل ذلك؟ هذا ما أتمناه من كل قلبى، لكنى أعترف لكم أنى أطوق شوقا لإنهاء هذه المأساة التى تفقد كل يوم بعض فاعليها النشطاء[18]. فما جدوى إصدار موسوعة شاملة كهذه بالرغم من الفشل الذريع الذى لاقته الحملة على الصعيدين العسكرى والسياسى؟ لقد بدأت رحلة المؤلف مع إنشاء "لجنة العلوم والفنون".

2- لجنة العلوم والفنون:

قبل مجيء بونابرت إلى مصر، قام بتجنيد بعض شباب الدارسين وضمهم إلى الحملة حتى يسند إليهم التنظيم الإدارى بعد وصولهم، فينشئون الطرق والكبارى والقنوات. كان بونابرت يعتقد أنه سيستقر للأبد فى مصر ويجعل منها مستعمرة فرنسية أو مقاطعة تابعة للإدارة الفرنسية على غرار ما سوف يحدث فى الجزائر فيما بعد (1830)، لهذا كله كان يستبق الأحداث وتصور أن مصاحبة العلماء والدارسين للحملة أمر لاغنى عنه. لذلك فلما غادرت الحملة ميناء طولون Toulon سرا فى مايو 1798كان على متن السفينة أربعة علماء معروفون هم: مونج Monge عالم الهندسة الوصفية، بارتوليه Berthollet وتخصصه الكيمياء الطبيعية، فوربيه Fourier أستاذ الرياضيات فى المدرسة الهندسية العليا (والذى سوف يخترع فيما بعد نظرية التحليل الرياضى التى سوف تخلد اسمه)، وعالم الفلك نوويه Nouet. وهناك ثلاثة

أسماء من الشباب الذين شاركوا فى الحملة سوف يكون لهم شأن عظيم بعد انتهاء الحملة ورجوعها إلى فرنسا؛ هم: مالوس Malus، جؤوفروا سانت إيلير Géoffroy Saint – Hilaire وسافينى Savigny. ثم جمع بونابرت الأعضاء البارزين من هيئة العلماء ومعهم كبار الشخصيات فى الإدارة والجيش فيما أسماه "المعهد المصرى"، وهى الصيغة الاستعمارية للمعهد الفرنسى الذى كان موجودا أصلا فى فرنسا وكان يضم هيئة من علمائها، وهناك اثنان من أعضاء المعهد المصرى ممن كانوا أساسا أعضاء فى المعهد الفرنسى هما: مونج Monge وبارتوليه.Berthollet ولإيواء كل هؤلاء، استولى الفرنسيون على أحد قصور وجهاء القاهرة، وهو بالتحديد قصر حسن بيك الكاشف، وجعلوه مقرا للمعهد، وعلى مقربة منه وضعوا المطبعة والمعامل اللازمة لهم.

افتتح المعهد يوم 23 أغسطس 1798، وكانت أهدافه الرئيسة هى:

1) إيجاد وسيلة لتحسين مستوى أفران الخبز الخاصة بالجيش.

2) إيجاد طريقة لمد الجيش بالمياه اللازمة.

3) التأكد من وجود المواد الأولية لتصنيع البارود الخاص بالمدفعية فى مصر.

ويتضح – جليا- من الأهداف التى وضعها الفرنسيون لأنفسهم عند إنشاء المعهد كيفية تسخير العلم لخدمة أغراضهم العسكرية والاستعمارية، وأن المعهد لم يكن على الإطلاق مكانا للبحث العلمى المطلق، يراد منه تقديم الخدمات للمصريين، وإنما كان مقصورا على دراسة أحوال الجيش الفرنسى وتلبية احتياجاته. كان بونابرت يولى اهتماما شديدا بهذا المعهد حتى إن إمضاءه على الأوراق الرسمية كان: " بونابرت، عضو المعهد، القائد العام للجيش ". وبناء عليه فإن الفرنسيين الذى أتوا برؤية محددة للاستيطان الدائم، أرادوا من خلال الدراسة والبحث أن يتعرفوا على طبيعة البلد الذى يرغبون فى الاستحواذ عليه؛ فكانت الدراسة هى الوسيلة الأنسب من وجهة نظرهم – إلى جانب السلاح – لتمكينهم من هذه

الأرض التى يطمعون فيها، خاصة بعد أن اصطدموا بمقاومة شعبية متأججة، لاتخمد ولاتلين، جعلت مهمتهم شاقة بحق.

ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر من فرق ولجان البحث الخاصة مجموعة العمل الأولى التى وضعت تحت سيطرة مهندس الكبارى جيرار Girard فى مارس 1799، وهم مجموعة من الشباب الذين كلفوا بدراسة نظام الرى وحركة النيل وكل مايخص مياه النهر، وإلى جانب هذه المهمة الهيدروغرافية البحتة، كان عليهم جمع كل البيانات المتاحة عن التجارة والزراعة والفنون والآثار[19]. ومما يثير الدهشة هذا التضافر البين والمنظم بين مجموعات الباحثين التى كان عليها اتباع الجيش. فى المرة المذكورة مثلا كانت الأوامر العسكرية قد صدرت من بونابرت على أن يقوم الجيش بمطاردة مراد بك حتى النهاية إلى آخر مصر العليا للقبض على هذا المناور الرهيب الذى دوخ من لاحقوه، بقدرته الفائقة وذكائه الشديد. فى نفس الوقت كان على الباحثين التابعين لخطوات العسكريين أن يدونوا ملاحظاتهم عن تأثير نهر النيل على خصوبة الأراضى المصرية بشكل عام. إلا أن روعة المواقع التى توقفوا عندها والمزارات الأثرية النادرة جذبت هؤلاء الشباب الهواة المتحمسين فقرروا من تلقاء أنفسهم أن يبادروا بعمل منظم وجاد، فكانوا ينتهزون فرصة أى عمل يوكل إليهم، بخصوص هيدروغرافيا المكان، ليدفعوا ببحثهم خطوات للأمام فينقبون ويدونون ويرسمون. ويبدو أن ذلك كان يثير حفيظة رئيسهم وسخطه- كما اتضح من بعض مراسلاتهم الخاصة؛ حيث كان جيرار Girard يتهمهم بإضاعة الوقت فى أشياء غير جادة وغير مطلوبة منهم[20]. كانت الدراسة إذًا فى بداياتها تلقائية صدرت عنهم بعفوية كرد فعل للروائع التى قابلوها على طول الوادى، إلى أن جاءت اللجان التالية المكلفة برفع الرسومات الأثرية بدءا من سبتمبر 1799. هكذا كانت لجنة العلوم والفنون الفرنسية المصاحبة لجيش الاحتلال هى الأولى من نوعها التى صاحبت حملة عسكرية فى التاريخ الحديث.

تشتمل الأطروحة بعد ذلك على فصل فى الجزء الأول قدمنا فيه ترجمة تفصيلية

شاملة لسيرة الكتاب الذاتية[21]، ونستبقى هنا من جملة الملاحظات التى قدمناها فى الأطروحة ملحوظتين أساسيتين:

1) أن الجزء الخاص بالدولة الحديثة هو من إنتاج موظفين فرنسيين وبعض الدارسين الذين تلقوا الأوامر من القيادات العسكرية بمتابعة الدراسة عن مصر، وليس نتاجا علميا لعلماء متخصصين فى مجالاتهم.

2) أن عددا من الشباب الذين شاركوا فى الكتابة سوف يصبحون بعد عودتهم لبلادهم ذوى شأن كبير، وسوف يحتلون مناصب سياسية أو إدارية هامة فيما بعد.

ومن ثم فالحديث عن القيمة العلمية لهذا الكتاب يتعين أن تؤخذ بحذر شديد؛ ذلك لأن أهمية كتاب وصف مصر لاتكمن فى مضمونه العلمى (نحن نعلم مثلا أن فك شامبليون للرموز الهيروغليفية بعدها بحوالى عقدين (1822) نفى كل التخمينات التى أتى بها كتاب الحملة عن مصر الفرعونية)، وإنما لكونه سباقا نحوالاهتمام البالغ بتغطية دولة ما بالفحص بأسلوب جديد لم يكن متبعا سابقا بغض النظر عن الأيديولوجية المستترة فى هذه الدراسة والنوايا الكامنة وراءها.

هذا التصور المبدئى الذى تم استخلاصه من خلال البحث فى أصل هؤلاء الكتّاب وانتماءاتهم بدأ يوجه تفكيرنا إلى نقاط معينة سعينا إلى البحث فيها فى الجزء الثانى من الأطروحة والخاص بتحليل الخطاب الموجه للجمهور الفرنسى، ماهيته وأدواته. والنتيجة الأساسية لهذا التحليل تميط اللثام عن بغية مؤلفى وصف مصر فى تشويه حاضر مصر وماضيها القريب حتى يمكن تبرير التواجد الفرنسى، بل وإثبات أن هذا التواجد ضرورة لامفر منها؛ لإنقاذ هذا البلد الذى كان بلدا حضاريا، ولم يعد، بفعل الظروف السياسية والتاريخية الأخيرة التى نهبته وحطت من شأنه. ومن ثم فإن الفرنسى "البطل" سوف يعنى بتغيير الحال تغييرا جذريا، وسبيله الوحيد لبلوغ هذا الهدف النبيل هو تحويل مصر إلى مستعمرة فرنسية! ولابد مع فشل المشروع الاستعمارى للفرنسيين وطردهم بشكل مخزٍ من مصر

واستعدادهم لنشر المقالات فى فرنسا، بعد الجلاء بعدة سنوات، أشعل الإحساس بالندم والأمل فى العودة وذكريات المجد الوهمى. لذلك كان لابد من غرس كل هذه الأحاسيس بين السطور والتلويح بأن خسارة مصر فادحة بخروج الفرنسيين وأن عودتهم ستظل أملا مرجوا للطرفين المستعمِر والمستعمَر. وقد أكد التحليل النصى فى الجزء الثانى من الأطروحة الانطباعات الأولية العامة التى استشعرناها منذ الوهلة الأولى فى الجزء الأول بعد تحليل الظروف التاريخية والملابسات السياسية التى أدت إلى غزو مصر.

ولعل السؤال الذى يطرح نفسه هو: متى نشأت فكرة " الدولة الحديثة"؟ ومن المحرك الرئيسى للفكرة؟ لقد ترك بونابرت الحملة فى حالة يرثى لها تحت قيادة كليبير Kléber كقائد عام للجيش، وفر عائدا إلى فرنسا، بحثا عن موضع آخر يسمح له بتحقيق الأمجاد التوسعية التى يطمح إليها. عندئذٍ، أصدر كليبير أوامره بتكوين " لجنة الاستعلام عن الدولة الحديثة":

" Commission des Renseignements sur L'Etat moderne".

لقد كان معظم أعضاء اللجنة من شباب العلماء الذين رافقوا زملاءهم العسكريين فى مصر العليا للقضاء على المماليك الفارين مع مراد بك. لكن مهمة هؤلاء كانت – بالتوازى مع العمليات العسكرية – تنصب على محاولة تدوين ملاحظاتهم عن عجائب الآثار المصرية ومايخص كل مظاهر الحياة الأخرى من سكان وتربة ومناخ وعادات، إلخ، وباختصار كل مايشاهدونه فى مصر قديما وحديثا. واجتمع كل من ساهم فى هذه المهمة تحت رئاسة نوويه Nouet أكبرهم سنا يوم 22 نوفمبر 1800، واتفقوا على إنشاء جمعية علمية تقوم بتجميع كل ماتم اكتشافه فى مصر العليا. لذلك فالجزء المبتكر الخاص بكليبير هو إضافة لجنة تتولى البحث فى شئون مصر الحديثة إلى جانب من كانوا قد انكبوا بالفعل على البحث فى مصر القديمة. واقترح الحاضرون فى البداية تأسيس شركة مساهمة من أربعة عشر عضوا تأخذ على عاتقها فكرة إصدار الكتاب فى فرنسا، وأيد –كليبير– مبدئيا هذا

الاقتراح إلى أن تولت الحكومة - فيما بعد- تمويل المشروع برمته. وبالتالى فإن كليبير هو الفاعل الرئيسى فى مشروع وصف مصر عموما، وهو الذى أضاف الجزء الخاص بمصر الحديثة، وقد شرح باستفاضة أسباب الاهتمام الشديد الذى يوليه لهذا "المشروع الأدبى" – كما أطلق عليه – فى الخطاب الذى أرسله للحكومة الفرنسية بتاريخ 8 يناير حيث يقول: "إن دراسة حالة مصر الحالية سوف تقدم إضافة هامة للفلسفة والسياسة. إن القوانين والعادات والتاريخ والحكومة والصناعة والدخل القومى يحتاج لأن يدرس بشكل أدق مما قام به الرحالة الفرنسيون والأجانب الذين سبقوا الحملة، وقد جمعت الأشخاص المؤهلين للقيام بهذا العمل ومنحتهم السلطة والأدوات التى يحتاجون إليها."[22]

هكذا نشأت فكرة كتاب وصف مصر. والآن علينا أن نقترب أكثر لنتعرف على المشروع بملابساته الخاصة.

3- طبيعة النصوص:

بداية يمكن أن ننسب النصوص إلى مجالين متكاملين هما التاريخ والأدب؛ فالنص كثيرا ما يأخذ شكل صحيفة سفر على أنه يمكن النظر إليه أيضا كأدب فكر مزود ببعض العناصر التاريخية، بمعنى أن يوجه السرد لخدمة قضية بعينها. كما أن الهدف من الكتابة ليس حصريا لنقل معلومة ما عن مصر، وإنما هناك الرغبة فى التأثير المعنوى على رأى القارئ بصورة معينة. لقد صمم الخطاب بالفعل لتأكيد فكرة متكررة بإلحاح وهى أن المصريين لايستطيعون تخطى حالة التخلف التى يوجدون فيها؛ لأنهم حاليا فى الدرك الأسفل من السلم الحضارى: فهم جهلاء يؤمنون بالطلاسم والتعويذات ويتمسكون بالخرافات[23]. وإذا كان الأمر كذلك فإن من مصلحة المصريين أن يقبلوا الاحتلال الفرنسى؛ ففرنسا هى الوحيدة التى سوف تنقذهم؛ لأنها الوحيدة التى تملك العلم اللازم لتحرير المصريين من عبوديتهم.

ولقد استخلصنا أيضا من تحليل الخطاب الموجه – عبر الجمل التى تم تركيبها

لتنم عن إيماءات وإيحاءات معينة - فكرة أن رحيل الفرنسيين عن مصر كانت بلاءً على المصريين؛ لأنه حرمهم من الحرية التى رمى إليها الفرنسيون وأوقف إعادة بناء البلاد. وهكذا يجمع الكاتب الأدلة التى تبرهن على صحة فكرته مع زعم الحياد التام، وسبيله إلى ذلك – ضمنا أو تصريحا – هو عقد المقارنات المستمرة بين الغازى المتحضر والمغزو المتخلف. وبالرغم من أن التقارير والملاحظات التى سيقت من خلال الكتابة تأخذ شكل الوصف البرىء إلا أنها تعد فى الحقيقة أحكاما تقويمية. ويلاحظ أيضا فى أكثر من موضع تمثل أوربا فى الوجود الفرنسى وكأن فرنسا هى التى تنوب عن أوربا فى مصر.

ثم إن أحد العيوب الكبرى لدى المصريين أنهم يرفضون الخضوع للفرنسيين، ويرفضون كل ما ليس عربيا، بل يفخرون بكونهم بدوا ويشعرون إزاء الأوربيين بالاحتقار الجم. فهذه القرى البسيطة – ياللعجب – ترفض بمنتهى الجسارة والتهور إعطاء الفرنسيين الضرائب والعطاءات المفروضة للفرق العسكرية الفرنسية التى تمر عليهم، أما شيوخ القبائل فهم يخطئون خطأ كبيرا؛ إذ يساندون المتشردين من أبناء عشائرهم ضد الحكومة الفرنسية. وكان لابد لهم أن يفهموا أن الضرائب المفروضة عليهم من قبل الفرنسيين تتيح لهم ضمان الحماية والاستقرار(24).

ومن الأساليب اللغوية التى لجأوا إليها فى التعبير: اللجوء إلى الغلو الذى يعكس التعصب، كوصف الموسيقى المصرية بأنها "تستفز الذوق السليم وتخدش الأذن "(25). هناك أيضا السخرية كانتقاد الزى الشرقى المزين بالسلاح واتهام الشرقيين بأنهم يولون اهتماما كبيرا لحمل السلاح وكأنه أداة للترف والوجاهة(26). وعليه فقد بدا واضحا لنا عند التحقق من طبيعة النصوص أن لها وظيفة إخبارية يمكن حصرها فى فكرة أساسية وهى السعى إلى التغيير والتحويل – إن وصف مصر هو الأداة التى ستتيح للإدارة الفرنسية أن تبدل حال مصر وربما كان هذا هو أحد الأهداف الرئيسة للجان العلمية؛ أى اكتشاف ما هو متاح، والتحقق منه، ثم

دراسة وسائل تغييره لصالح فرنسا؛ كى تصبح مصر أول مستعمرة فرنسية فى المنطقة التى سوف تسمى فيما بعد بالشرق الأوسط.

ولايمكن أن نغفل الجانب النفسى فى نبرة الكتابة واختيار الألفاظ التى تشيع الإحساس بالمرارة بصفة خاصة؛ فهناك الندم الذى يرجع إلى الفشل. لنتذكر أن الفرنسيين طردوا من مصر وأنهم أعيدوا إلى بلادهم إلى متن السفن الإنجليزية. ثم إن "هؤلاء البدو" لم يتيحوا لهم فرصة أن يصبحوا أسيادا على مصر، بل تعاملوا معهم -تماما- كما تعاملوا مع المماليك والأتراك سابقا؛ على أنهم مغتصبون لهذه الأرض وليس لهم أى حق فيها. وهكذا فقد تضافرت الظروف لتمنع الفرنسيين من تحقيق حلمهم. أما عن وصف المقاومة الشعبية المصرية المتمثلة -على وجه الخصوص- فى العرب المقاتلين - الرعاة أو البدو الرحالة - فحدث ولا حرج، فإن رائحة الحقد والبغض تفوح من بين الكلمات كلما جاءت سيرتهم فى معرض الحديث.

وإذا كانت الإدارة الفرنسية قد تمسكت بإصدار هذا المؤلف عن مصر "Ouvrage sur l'Egypte" – كما أطلق عليه فى البداية – بالرغم من تغير النظام السياسى، فلعل ذلك كان محاولة لإبقاء أى شىء من الحملة وإعادة تركيب صورة فرنسا المتحضرة مع التذكير بمغزى حركتها التقدمية التى لاتهدف إلى مصلحة خاصة وإنما إلى فائدة عامة، وهذا باللجوء إلى العلم والمعرفة، وكأن تنفيذ مشروع وصف مصر وإخراجه للنور كان نوعا من أنواع التعويض عن الهزيمة العسكرية. بيد أن هناك ظروف خاصة أحاطت بالمشروع. فما هى الظروف التى ساهمت فى كيفية إخراج مؤلف وصف مصر، وما مدى تأثيرها على المضمون؟ إنها ملابسات السياق التاريخى، فهناك مشكلة أساسية أثرت تأثيرا بالغاً فى تنفيذ المشروع وهى توقيت النشر: لقد تمت كتابة النص بعد العودة إلى فرنسا بعدة سنوات، والمادة العلمية التى كانت متوفرة لدى الكتّاب هى بعض الملاحظات التى تمكنوا من تدوينها والتى استجلبوها معهم عند الرحيل.. أما المعلومات الناقصة فقد

استكملت باستحضار الذكريات، لذلك فإن النص ليس تقريرا آنيا للأحداث والأوصاف التى ينقلها، إنما لابد من أخذ هذا التباعد الزمانى والمكانى بعين الاعتبار.

لقد تدخلت الذاكرة لترتب الأحداث وتنتقى الأفعال حسب درجة أهميتها بالنسبة للحاكى سواء بشكل متعمد أو عفوى. وساهمت المسافة واختلاف السياق المكانى واختلاف الظروف السياسية فى تحديد التفصيلات والأولويات. ولابد أن نظرة الفرنسيين ورأيهم فى مصر، وهم موجودون فيها (مع كل الخلفية التى أوضحناها سلفا)، اختلفت عن نظرتهم إليها بعد العودة لديارهم، صحيح أنهم عادوا إلى وطنهم، لكن خيبة الأمل وانهيار مشاريعهم الاستعمارية، وسقوط نابليون قائد قواد الحملة، والإحساس بالمهانة- انعكس على أسلوب الكتابة.

ومن ثم فإن رؤية الآخر أو وصف الآخر كان يحكمها عوامل نفسية وسياسية وتاريخية متعددة لانستطيع إغفالها عن التحليل؛ فماذا يصف الكتّاب الفرنسيون فى النهاية؟ إنهم يصفون مصر التى فى مخيلتهم إلى جانب مصر التى رأوها، مصر التى طالما أسالت لعابهم ولم يتمكنوا من امتلاكها، إن جزءا كبيرا من الأفكار المتكررة فى النصوص تتوجه نحو قطب رئيسى وهو حتمية القضاء على عرب مصر[27]. فهذه الكتلة التى تكون الأغلبية العظمى من سكان مصر قد تصدت بجسارة للفرنسيين حتى الموت؛ ومن الطبيعى أن يلعنوها على طول النصوص. لذلك ليس غريبا ألا يذكر على صفحات المؤلف أى حدث اجتماعى أو سياسى من الأحداث التى عاصرت الحملة فى مصر بالرغم من أن الهدف المعلن للكتابة هو نقل مصر المعاصرة للحملة بطبيعتها وأحداثها. لكن التجاهل التام للأحداث المعاصرة يكشف ضمن مايكشف أن الصمت كثيرا مايكون موحيا ربما مثله مثل الإفصاح والتصريح؛ مما يؤكد التفسيرات التى أوردناها منذ قليل عن هذه المسافة بين زمن المشاهدة وزمن الكتابة، كما يفسر بعض التناقضات التى تميز كثيراً من النصوص؛ فأحيانا مانجد المؤلف يؤكد على فكرة كان قد رفضها منذ قليل فى نفس النص، أو أن يظهر اشمئزازه من شيء كان قد بهره أعلى السطور... وهكذا.

من ناحية أخرى، فإن قصر المدة التى أمضاها الفرنسيون فى مصر لاتسمح بالبحث الكامل أو المستفيض؛ لذلك فإن الدراسات تتضمن أوجه نقص كثيرة وهم يعترفون من آن لآخر فى معرض الكتابة بأن ضيق الوقت لم يتح لهم جمع معلومات من كذا أو الوقوف على كذا[28]. ولهذا أيضا تبدو مجموعة الدراسات الخاصة بالدولة الحديثة مبتورة متفرقة، وكثيرا ماتكون مكونة من مجموعة ملاحظات عامة وغير متأنية، حيث تم التركيز على بعض المناطق دون غيرها، وهى تلك التى ذهبوا بالصدفة البحتة للهجوم عليها مع الجيش الغازى؛ ولهذا فإلى جانب التقطع الزمنى هناك أيضا تقطع مكانى يعطى انطباعا بمجتمع متجزئ وغير متجانس اجتماعيا وجغرافيا وتاريخيا، على الرغم أن المجتمع المصرى كان من أول التجمعات البشرية المعروفة بتناغمها البشرى واستقرارها المكانى وثبوتها الجغرافى.

ويقول جومار Jomard فى نص " ملاحظات عن عرب مصر الوسطى "[29]:

"أنبه أن الملاحظات الشكلية التالية ملاحظات عامة ولاتخص سوى محافظات متفرقة، وأنا لا أزعم أنى أطرح لوحة كاملة عن تقاليد العرب المصريين"؛ ذلك أن اختيار المنطقة موضوع الدراسة كان يتم بالصدفة وحسب ماتمليه الظروف؛ فعلى سبيل المثال قد يكون النص المكتوب فى وصف مدينة قصير مثلا كان بسبب الوجود القهرى للمؤلف فى هذه المنطقة: لقد تشاجر المؤلف دبوا إيميه Dubois- Aymé مع رئيسه جيرار فنفاه إلى البحر الأحمر لتأديبه، وهناك أخذ إيميه يدون انطباعاته على البيئة المحيطة والسكان كنوع من أنواع التسلية وملء الفراغ[30]، نفس الشىء نستشعره ونحن نقرأ الوصف المكتوب عن مدينتى رشيد والإسكندرية. لم يكن المؤلفون هناك فى مهمة علمية لكنهم وجدوا هناك بالصدفة البحتة لظروف اضطرارية.

ونلاحظ أن المؤلفين لايضعون حدا بين ما يرونه ويقيسونه فعلا وبين مايشعرون به؛ فهم يطلقون العنان لخيالهم، خاصة حين يتواجدون أمام الآثار؛ فينبهرون

بروعتها حتى إن شارل جيلبسى Charles Gillipsie يقول فى كتابه "الآثار المصرية"[31]: "إن هؤلاء الكتّاب سوف يمثلون الرعيل الأول لتيار الرومانسية فى فرنسا فى بداية القرن التاسع عشر".

ثانياً: الشكل والدلالة

إن وصف الآخر يستلزم الحكم والتقييم اللذين لايخضعان -فقط- لكينونة الموصوف أو المفعول به، وإنها يعكسان -أيضا- ذات الواصف أو الفاعل وتفسيره الخاص للأمور. و فيها يخص قضية الوصف فى الدولة الحديثة، هناك عنصران متقابلان: الأنا الفرنسية فى مقابل الآخر المصرى. وفى هذا الجزء من الأطروحة تم معالجة مسألة تقييم الآخر والطريقة التى يستدعى بها. فلقد أدى هذا التقييم إلى تشويه صورة الآخر؛ وهى صورة سلبية فى مجملها يود المؤلف أن يعطيها عن مصر؛ لكى يصل فى النهاية بالقارئ الفرنسى إلى فكرة أن الاستحواذ على مصر عمل مشروع ونافع لها لأنه سيرتفع بمستوى هذا البلد، ويعبر به من ظلمات التخلف إلى نور التحضر؛ لذلك كان المؤلفون يلجأون أحيانا إلى حجج وبراهين بهلوانية لتفسير ما رأوه فى مصر. فكيف تم تركيب المعنى ؟ وما الموضوعات الأساسية التى ود المؤلفون التركيز عليها لتثبيت وجهات نظرهم؟

1- النظرة المركبة والصور الملتبسة [32]:

لقد اختصرنا النصوص إلى مجموعات من الموضوعات تتعلق كل مجموعة منها بقطب دلالى واحد، بعدما قمنا بترتيب أهمية هذه الموضوعات حسب الكمية أو حسب تكرارها (وهو مايدل على مدى أهميتها بالنسبة للمرسل) ؛ حتى تسنى لنا - بعد هذا الترتيب - التوصل إلى الأيديولوجية التحتية التى تحرك عملية الوصف وتقود رؤية الآخر. وبغض النظر عن المفارقات التاريخية[33] أو المعلومات المغلوطة[34] فإن هدفنا كان استخراج الموضوعات التى تعمد الكتاب التركيز عليها بالذات دون غيرها فى عملية الوصف.

وإذا سلمنا بقضية أن الخطاب الذى يصف الآخر هو جزئيا وصف للذات، فهذا يعنى أنه يمكن من خلال الكتابة عن الآخر أن نكشف عن نوع من أنواع التأمل داخل الذات نفسها، والتوصل إلى نوعية العلاقة بين الأنا والآخر. وهذه القاعدة المنطقية المعروفة تنطبق -جليا- على نصوص مؤلف "الدولة الحديثة"، فمن خلال المقارنة المستمرة تبدو العلاقة المصرية – الفرنسية علاقة تناقض، فكلما حط الكاتب من شأن الآخر علا شأنه الخاص فى نظره.

مَن المعنيون بالوصف فى "الدولة الحديثة" ؟ يتضح بعد تحليل النصوص أن السكان فى مصر يقسمون إلى ثلاثة أنواع: 1- العرب، 2- الفلاحون و سكان المدن، 3- الأقباط. ويتحدث الوصف طويلا عن مكانة كل منهم اجتماعيا، عن موارده الاقتصادية وموقفه السياسى. كما تنقل عادات وسلوكيات "المصريين" وعلاقاتهم مع عائلاتهم. كذلك أخذت البيئة المحيطة فى الاعتبار، والمناخ، والحيوانات والأثاثات، ويمكن إضافة عنصرين لهذا الوصف هما: الفرنسيون والديانة المحمدية (حسب تعبيرهم). الواقع أننا بصدد مسح عام ومثير اعتبره بعض الباحثين تمهيدا لمجال العلوم السوسيولوجية التى ستنطلق كعلم مستقل فى العقود التالية.

- **الصور المختلفة للعرب:**

يظهر الوصف أنهم جماعة تقيم فى مصر لكنها لاتمثل المصريين الأصليين. وبالرغم من أنهم يمثلون غالبية السكان إلا أن المؤلفين يستبعدون " القبائل العربية التى تسكن الصحراء "، والحديث هنا للفرنسيين -عند تعداد السكان ويضعون لهم بيانا منفصلا[35]. لكن المشكلة – بالنسبة للفرنسيين – هى أن العرب يتصرفون وكأنهم أسياد مصر ويعتبرون أن هذا البلد بلدهم وأن هذه الأرض ملك لهم. والطامة الكبرى هى أن البدو مازالوا يرون أنهم الحكام الشرعيون لمصر دون المماليك والأتراك. وواضح أن فكرة الملكية هذه تؤرق الفرنسيون بشكل خاص لما لها من انعكاس على التواجد الفرنسى على الأراضى المصرية. فى هذا الإطار الأيديولوجى، يأخذ أسلوب الكتابة أهمية خاصة عند التحليل فتلاحظ أن النبرة

تدل على اشمئزاز المرسل ورفضه التام للهيمنة العربية الصلبة التى لاتنكسر ولاتلين.

يرفض المرسل الوجود العربى فى مصر وحجته أن العرب قد وفدوا إلى هذه البلاد قديما، ولم يكونوا أساسا من السكان الأصليين فى هذا البلد؛ لكنهم استقروا فيه، وأصبحوا جزءا لا يتجزأ من نسيجه. لذلك يتساءل المرسل عن مدى شرعية التواجد العربى فى مصر: أليسوا قوما وافدين مثلهم مثل الفرنسيين الذين أتوا إلى مصر راغبين فى الاسقرار فيها؟ فلماذا إذًا يعتبر المصريون الفرنجة "دخلاء"، ويعاملونهم معاملة الأعداء الألداء، فى الوقت الذى يقبلون فيه - وبصدر رحب - التواجد العربى، ويصبغون عليه صفة الشرعية القومية؟ ما سر هذه الثقة تجاه العرب الذين وفدوا قديما إلى مصر؟ إن المصريين لايقبلون ولا يعترفون سوى بالعنصر العربى، حتى المماليك والأتراك، مرفوضون، وينظر إليهم المصريون على أنهم مغتصبون للأرض[36]. الواقع أن هذا الموقف يبدو غير عادل بالنسبة للفرنسيين، وهو يثير سخطهم بشكل واضح. لذلك يسارع الفرنسيون بتوبيخ هذه الطائفة وينسبون إليها كافة التهم السلوكية والعيوب الخلقية. فهم كذابون، جشعون، منتفعون، غشاشون[37]. ثم إن مصر – بالنسبة للعرب – غنيمة سهلة – يستغلونها أسوأ استغلال وينهبون خيراتها، إلخ. وتتكدس الاتهامات حتى تطول كل ما له صفة "العربية" بل إن مصر نفسها تستحق عقابا شديدا لأنها تتمسك بعروبتها حتى إن أول صفحتين فى النص الرابع[38]ومنذ السطر الأول، يصب المؤلف غضبه على الطبيعة الجغرافية لهذا البلد العربى: فهى بلاد فقيرة ليس بها نبات ولاماء كافٍ، وتتكرر كلمات مثل: "جدباء،قحط، جاف"، ثم يمتد الوصف ليشمل البشر "الشرسين" والمدن "القبيحة" والبيوت التى لاتتعدى الخيم. "يجول فيها العرب كالحيوانات الجائعة حول فريسة غنية".

والخلاصة أن هناك نوعا من التنافس الخفى على تملك مصر يثير سخط الفرنسيين ويدفعهم للمغالطة التاريخية والمنطقية؛ لأننا لو اتبعنا نفس المنطق الذى

يتبناه كتاب "الدولة الحديثة" يحق لنا أن نتساءل نحن أيضا عن أصل الفرنسيين ونسبهم: فهل ينتمون إلى الفرانك Les Francs، أم إلى الغاليين Les Gaulois ؟ أم إلى البوربون Les Bourbons؟ وهكذا.. ألم تنصهر كل هذه العناصر وتختلط وتندمج يوما ما حتى أفرزت العنصر الفرنسى الموحد والإنسان الفرنسى الكائن الآن ؟

يقول الوصف: إن هؤلاء العرب المتحدين الذين يمثلون عقبة أمام الاحتلال الفرنسى ويتصدون للوجود الأجنبى فى البلاد يحتقرون الأوربيين ويفتخرون ببدويتهم، وهم يرفضون دفع الضرائب الباهظة التى فرضها الفرنسيون فى مصر. ويتعجب الفرنسيون من حال المصريين الفلاحين الذين يستأمنون العرب، ويأمنون لحمايتهم، ولايطيعون الفرنسيين كما لا يرهبون العقوبة التى سوف ينزلونها عليهم إذا ما امتنعوا – بتحريض من العرب – عن السداد والطاعة. ثم إن هذه القرى بقيادة العرب تقوم بثورات عارمة ضد الفرنسيين البؤساء (والحديث كله للفرنسيين) الذين يمرون بهم. وكان الأولى بشيوخ القبائل أن يساندوا الفرق الحكومية المنظمة (ويقصد مندوبو الإدارة الفرنسية فى مصر) بدلا من أن يغيثوا المتشردين الذين يتوالون عليهم لنهبهم يوما بعد يوم[39]، وكأنه كان يتعين أن يعوا أن مصلحتهم تقتضى وقوفهم إلى جانب الحكومة الثابتة التى لاتتغير، ويطالبون بوقوفها معهم ضد المتسكعين وقطاع الطرق، فهم لايفهمون أن الضرائب التى يدفعونها تعطيهم حق الحماية من قبل هذه الحكومة: هذا هو الحل المقترح فى النصوص لنجاة مصر من براثن التخلف.

مع هذا فقد حظى البدو العرب بشىء من المدح فى بعض المواضع. فمتى قدموا العرب بصورة مختلفة على صفحات "الدولة الحديثة" ؟ فقط عندما يظهرون أنهم "محمديون" (أى مسلمون) اسما فقط ولايعيرون أى اهتمام لإقامة الشعائر الدينية. هنا فقط يتحول البدوى العربى فجأة إلى ملاك طاهر. لقد ظللنا طويلا حيارى أمام المدح المفاجىء الذى كان يقابلنا فجأة عن وصف بعض القبائل العربية، إلا أننا مع

تكرار القراءة والتمحيص توصلنا إلى السبب الوحيد فى هذا التحول المفاجىء، ففى كل مرة يتحول الذم إلى مدح وإطراء لطبيعتهم الشخصية أو لشكلهم لابد أن يحتوى النص على جملة أو جملتين تصف الممدوحين بأنهم "لايعرفون محمدا (ﷺ) إلا اسما فقط"[40] أو أنهم "يمتنعون عن الممارسات الدينية"[41]. فى هذه الحالة، لايصبح العرب "سفاحين" ومجرمين بالفطرة "كما كانوا فى المواضع النصية الأخرى، بالعكس، الألفاظ المستخدمة فى وصفهم حينئذٍ تفيض بالرضا والسلام والثقة. هذه الصورة الإيجابية التى يدخرها المؤلفون للعرب غير المتدينين أو الذين لايمارسون شعائر الدين الإسلامى هى الوحيدة من نوعها التى تخترق الكليشهات المتكررة عن صورة العرب السلبية، وكأن موقف هؤلاء العرب من الدين يشفع لهم عند الوصف ويسمح للمؤلفين بتبديل الصورة، أو كأنها اعتذار مقبول من المؤلفين عن خروجهم على الصورة المعتادة.

لاتتيح لنا حدود هذه الورقة التوقف عند التركيبة الاجتماعية والسياسية لطائفة العرب وعلاقات الفرد المختلفة بمحيطه البيئى والاجتماعى ووضع الطفل والمرأة والشيوخ داخل الجماعة[42]، لكن الحديث السابق يدفعنا بالأحرى إلى إثارة صورة الدين الإسلامى كما وردت على صفحات " الدولة الحديثة".

- **صورة الدين الإسلامى:**

الجرعة الكبرى فى الوصف مخصصة للذم والانتقاد اللاذع، وعليه يمكن تلخيص رؤية الإسلام فى صفتين، فهو يتصف إما بالتعصب **le fanatisme** أو بالخرافة **la superstition**.

من الملاحظ مثلا أنه عند وصف البرابرة أو سكان النوبة فى النص الثانى[43] يقوم الكاتب بالإطراء عليهم وعلى صفاتهم الحميدة – مقارنة بالعرب البشعين – إلا أن فيهم عيبا وحيدا هو أنهم "محمديون". أما العبابدة – وهم سكان مدينة القصير – فيقول عنهم الكاتب: "صحيح أنهم محمديون لكن البلد الذى يسكنونه والحياة النشيطة التى يقومون بها دوما تمنعهم من اتباع تعاليم هذا الدين [..]،

وعندما كان يقودنى الفضول إليهم كنت ألاقى منهم ترحيبا شديداً[44]".

"باختصار الإسلام تهمة تؤثر سلبيا على أخلاق من يعتنقونه، والدين الإسلامى هو منبع آلام المصريين المختلفة، فهو دين مدمر لأنه ملىء بالخزعبلات، وهو السبب فى الازدراء الذى يظهره السكان تجاه الآثار الرائعة الموجودة على أرض مصر والتى يتعامل معها الناس باستهتار شديد.

ثم إن التعصب الدينى عقبة كبيرة تحول دون اتخاذ الإجراءات الواقية ضد الأمراض المستعصية[45]. وهناك حديث مستفيض فى النص الرابع من عينة الدراسة[46] عن التعويذات والسحر. أما فى النص السابع فتبدو الأمور أكثر اعتدالا إذ يقر المعلق أن العيب فى البشر الذين يدنسون دينهم بجهلهم وممارساتهم المشينة[47]. على أية حال، يوجد فى مصر عالم متخلف يتصف بالغرابة، عالم تملؤه الدراويش والسحر والتشنجات الناتج عن الخرافات والخزعبلات. وهكذا، تعوق المعتقدات الدينية التنمية العامة للمصريين – على حد قولهم – وتحول دون التقدم الفكرى لهذا الشعب[48]. وهذا يقودنا من جديد لنفس الفكرة التى نضطر لتكرارها بين الحين والآخر تمشيا مع الفكر السائد فى "الدولة الحديثة"، وهى فكرة أن التدخل الفرنسى فى مصر – والحال هذه – ليس مترفا أو غير ذى منفعة، لكن لابد من الحركة الاستعمارية حبا فى البشرية، وانقاذا لها من ويلات التخلف والجهل! ونشرا للحضارة الفرنسية السباقة إلى العلم والتحضر.

وهناك حيز رفيع خصص لمفهوم التسامح، وقد صادفناه بشكل استثنائى فى القسم الثالث من النص السابع[49] يقول فيه المرسل: "إن محمدا (ﷺ) كان سياسيا محنكا بحيث سمح لغير المسلمين أن يمارسوا دينهم بحرية". وعلى عكس الصراعات الدموية الرهيبة التى شهدتها فرنسا فى القرن السادس عشر بسبب انشقاق البروتستانت عن الكنيسة الكاثوليكية، فإن مصر – رغم اختلاف الديانات والملل – لم تعرف هذا النوع من الصراع الدينى؛ فكل جماعة تتقبل الأخرى وتبادلها الاحترام، ويقول المؤلف عن التسامح الدينى فى مصر: "ليس هناك اضطهاد من الأغلبية للأقلية والكل يتميز بالاعتدال الشديد"[50].

- صورة المصريين:

الفلاحون وسكان المدن:

هم العنصر الثانى المكون للشعب المصرى، بعد العرب، وهم السكان الأصليون ويمثلون الطبقة العاملة التى تعمل من أجل الآخرين ولاتمتلك شيئا؛ ووصفهم يقوم أساسا على صفتين:

1- الفلاح يمثل المصرى الأصيل.

2- الفلاح يتميزبالخزى والهوان.

إنهم بؤساء وحالهم يقترب من العبودية. لكن من المسئول عن هذه الحال؟ إنهم العرب. يقول المرسل[51]: "إن الفلاحين يئنون بسبب الإرهاق والعرق بدون ملابس أو خبز وذلك لإطعام هؤلاء السادة الوقحين (العرب). بينما يفيض كل شىء عن حاجة العرب الذين ينهبون الفلاحين". وفى نفس النص[52]: "وهكذا فإن الفلاحين مضطرون لتقبيل اليد التى تقتلهم".

أما عن سكان المدن، فإذا أخذنا سكان محافظات البحر الأحمر كمثال: فهم يغطون فى سبات عهود ماقبل التاريخ، يتغذون على السلحفاة والسمك النيىء وهم عشائر تقطن الكهوف. وبالنسبة للبرابرة فهم شعب فقير طيب نبيل، وهم يصعدون إلى مصر للبحث عن الرزق وتحسين مستواهم المعيشى. أما سكان القاهرة فيسكنون أماكن لاتصلح إلا لسكنى الكلاب – على حد قولهم[53] وهم مقززون من شدة البؤس والقذارة.

الأقباط:

يفرد لهم الكتاب وصفا خاصا بغض النظر عن كونهم ريفيين أم حضريين: هم المصريون الحقيقيون – حسب التعبير الوارد فى النص التاسع من عينة الدراسة[54]. لكن على طول النصوص المقترحة للدراسة هناك تناقض واضح فى طريقة وصف الأقباط؛ فهم تارة يمثلون الأقلية المقهورة، وتارة يتمتعون بحرية ملفتة للنظر فى

ظل نظام متسامح، وهم خبثاء متسلقون، وهم متوحدون ومنظمون مقارنة بالفوضى والتأخر العام، ويتمتعون بحرية التعبير والتقاضى وممارسة الحقوق والشعائر الدينية. باختصار - فى الوصف - محاولة يائسة للتحريض عن طريق إثارة الشفقة أحيانا والإطراء أحيانا أخرى والذم أحيانا ثالثة - كنوع من أنواع المعاقبة على موقفهم الرافض للوجود الأجنبى.

ومما لاشك فيه أن الفرنسيين حاولوا استمالة أقباط مصر فى أكثر من مناسبة على اعتبار أن الدين المسيحى يشملهم جميعا، بغض النظر عن كون مسيحيى مصر أورثوذوكس فى معظمهم، فى حين أن مسيحيى فرنسا ينتمون إلى الكاثوليكية. وقد ظهر ذلك فى مراسلات كليبير (خليفة بونابرت فى مصر) مع الإدارة الفرنسية[55].. إلا أن مسيحيى مصر لم يستجيبوا على الإطلاق للمزاعم الفرنسية، واعتبروا قضية التحرير قضية عامة تمس كل المصريين على حد سواء؛ مما أدهش كليبير وغيره من القادة الفرنسيين الذين فوجئوا خلال ثورتى القاهرة فى أكتوبر 1799 ومارس 1800 بتماسك عنصرى الأمة بشكل أزعجهم؛ حتى إننا نشعر بالمرارة والاستغراب التى عبر بها كليبر عن هذا الموقف حتى فى مراسلاته الخاصة[56]. وبغض النظر عن كل هذه الحقائق والمفارقات فمن البديهى أن يسود أى محتل على حساب الوحدة الوطنية عملا بمبدأ: " فرق تسد"، وهو تكتيك من السهل الإمساك بخيوطه عند القراءة المتأنية "للدولة الحديثة" فمن خلال الوصف تقسم الأمة إلى عناصر وشيع وتتأثر الرؤية بذات المرسل ومصلحته.

- صورة الفرنسيين:

فى مقابل هذه الصورة المتجزئة والمتخلفة للشعب المصرى كيف رسم المؤلفون صورة الفرنسيين عبر صفحات "الدولة الحديثة" ؟ إن الأفكار المطروحة فى هذا الخصوص تبدو وكأنها من البديهيات التى لاتحتاج التحقق منها أو التحقيق فيها. وهذه المسلمات يمكن تركيزها فيما يلى:

إن وصف العنصر الفرنسى يظهر أن هناك انتقاء فى المحمول الأيديولوجى؛

بحيث يحقق دوما المعادلة (مصر / فرنسا = التخلف / التحضر) وهى علاقة تناقض وتنافر مستمرين فاختيار الألفاظ الخاصة بوصف فرنسا والفرنسيين يدل على التقدم العلمى – الوحدة – الرقى، إلخ...[57] كثيرا مايولج الكاتب صورة فرنسا المتميزة تحت صورة مصر البائسة[58] حتى يصل الكاتب فى النص الثامن إلى مقولة: "إن هذا البلد البائس لن يكتب له الخلاص إلا إذا دخل تحت سيادة شعب متحضر.."[59] و"المصريون فى الدرك الأسفل من الحضارة الإنسانية ولن يستطيعوا المواصلة إلا إذا امتدت إليهم يد التحضر؛ لتنتزعهم من غياهب التخلف... "[60]. لقد كان الوجود الفرنسى سينقل مصر نقلة حضارية هامة فيحولها من مجتمع قبلى إلى دولة مؤسسية. هناك صورة مشوهة يقابلها صورة أسطورية تحمل وجهة نظر معينة وتدفع القارئ لتصديق الدواعى والمبررات.

الوصف هنا يقوم إذًا بوظيفة محددة، والتقييم السلبى يأتى من الإسراف والشطط ومن اللذعة غير المتوقعة التى تثير الدهشة والاستغراب فى عين القارئ الغربى. فلا شيء يحرك الذهن أفضل من البديهيات التى تعرضها النظرة العقلانية الأوربية عندما تقع على العموميات والأشياء العادية وهى نظرة تقوم على المقارنة، تنفى خصوصية الآخر وتبحث عن إدماجه فى دائرة الثقافة الذاتية.

2- من الاختلاف إلى التعصب: صور رفض الآخر

ينتج عن المقارنة أن يتبنى المؤرخ –دوما– نظرة ثنائية للعالم يحدها من الجانبين أنا والآخر. ويصبح القارئ فى حضرة عالمين متضادين يصطدم فيهما هنا وهناك، وتعتبر العادات المصرية فى هذا الإطار شيء بشع وعجيب.. فلنأخذ مثلا الطريقة التى يعرض بها الكاتب حفل زفاف عادى، إذا به يكتب واصفا العريس: "إن خطوته البطيئة والحزينة وهيئته الكئيبة توحى بأنه ذاهب لقضائه"[61].

وعليه، فإننا نرى على صفحات "الدولة الحديثة" نموذجا ثقافيا واحدا من خلال وصف يفخم فى البعض على حساب الآخرين، وهذا الأسلوب المغالى فيه لاينجح فى إخفاء النوايا وتضليل الباحث المتأنى – فالمقارنة تقوم دائما مع.. أو

بالنسبة إلى.. أو بدءا من الذات الفرنسية. ولاتقف المقارنة عند حد قياس مايرونه بها يعرفونه، لكن الأسلوب والنبرة ينقلبان تماما عندما تأتى سيرة فرنسا، فيسعى الكاتب إلى فرض قيمه باسم نظام مطلق لايعترف بغيره. إن كل ما يبتعد عن العرف الفرنسى أو يخرج عن المعيار نفسه يعتبر لاغيا.

من هنا فإن صورة فرنسا قد ارتسمت بشكل يضمن لها أن تظل المرجع العالمى الوحيد، وكأن العالم قد قسم إلى طيبين وأشرار[62]. والنتيجة المنطقية لهذا التقسيم ألا يكون البشر متساويين بأى حال من الأحوال. إن رفض النسبوية Relativisme هو أحد المظاهر الخاصة بمؤلف "الدولة الحديثة" ؛ فإصدار الأحكام الراديكالية واتخاذ موقف الرفض من كل ماهو مختلف يجعلان منه فى النهاية كتاباً بعيداً عن الموضوعية العلمية. لقد استوقفتنا بالفعل جملة على لسان أحد المؤلفين تشبه إلى حد كبير الاعتراف حيث يقول:"إن الرذائل تستوقفنا والفضائل تفوتنا[63]". وتتضح سمات الأحكام الذاتية فى التعميم وتكرار موضوعات دون غيرها كعناصر محركة للوصف. يعنى ذلك أن النص يحتوى على عيوب، لكن المزايا ضائعة وسط سيل التفاصيل السلبية.

فى مسألة التعصب، قمنا من خلال النصوص بتتبع كل الألفاظ والتعبيرات التى تدور حول مفهوم "الجمال" فى نظر الآخر. تعددت الأمثلة التى استخرجناها والتى كانت تصف ألوان الفنون المختلفة من العروض المسرحية المصرية التى كانت تعرض فى الساحات العامة إلى الموسيقى والغناء الشعبى إلى ملامح البشر المختلفة وغيره، فلاحظنا أن المرجع دائما كان إلى الشىء الأوربى، والأوربى فقط وأن كل ماعداه كان قبيحا، غير مستساغ، دميما، لايحتمل، إلخ... ويعلق الكاتب - فى أحد النصوص- على العادات المصرية التى يجدها ضالة فيقول: "لا يمكن إذًا أن يكون المصريين قد أخذوا هذه العادات عن الأوربيين "[64]. كلما اقترب الإنسان من الصفات الأوربية كلما اكتملت إنسانيته، أما هؤلاء الذين يتمسكون بمصريتهم فيكرس لهم الوصف أرذل الصفات، كما أن كل مالايتفق مع مصلحة فرنسا يستحق الإغفال أو الاحتقار.

3- الأيديولوجية الاستعمارية:

لعل من أهم مايميز الدولة الحديثة تبنيها لكثير من الرؤى الاستعمارية التى من الممكن أن تنطبق على حالات مختلفة. و يبدو أن الأيديولوجية النابعة من الفكر الاستعمارى تظل متناقضة على مر الأزمنة واختلاف العصور، وتتسم فى جوهرها بصفات مميزة منها: فكرة تحقيق التحضر عن طريق الاستعمار، كان هذا هو شعار كتاب "الدولة الحديثة" وكأن هذين المفهومين (التحضر والاستعمار) وجهان لعملة واحدة. لذلك تظهر النصوص شرعية الاحتلال. وباسم الحضارة كان للمحتل الحق فى إحراق القرى وهدم الأحياء ومحاولة إلغاء خصوصية الشعب المصرى، هذه الحركة المدمرة ليست حركة معابة بما أنها موجهة ضد شعب "داع للقتال" بقيادة شيوخ "متعصبين"، لذلك لابد من تهذيبه عن طريق الاستعمار[65].

يتعمد المؤلفون رسم خطوط معينة للوحة بانورامية تشع منها دلالات خاصة (كاللوحة الشهيرة التى رسمت لنابليون بونابرت بعد موقعة إمبابة التى أطلق عليها الفرنسيون اسم "موقعة الأهرامات"، لإعطائها جاذبية خاصة، وقد ظهر فيها بونابرت وكأنه الفاتح المنتصر المقتحم لظلمات التخلف، مرفوع الرأس شديد البأس وسط حشد من القتلى الجبناء والمتوسلين إليه طالبين العفو والسماح..).

والفكرة التى ظلت تتردد حتى يومنا هذا لدى كثير من المفكرين فى أحاديثهم وفى كتبهم هى عزل مصر عن الكيان العربى واعتبار أنها دولة مختلفة، وكأنهم يقدرونها بإبعادها عن الهمجية والتخلف، فهناك عدو واحد يهدد مصر وفرنسا معا: هو الوجود العربى. لابد من التعامل مع مصر على أنها ذات حضارة فرعونية متوسطية[66] وأن عبور العرب واستيطانهم بها ليس سوى حدثا عابرا لم يؤثر على ذاتها وعلى مصريتها البتة.

أما وحشية حرب الاحتلال كما رواها شهود العيان وكما قصها الفرنسيون أنفسهم فى مذكراتهم، وضراوة النيران، فهى العقاب العادل إذا ما اعترضت الشعوب على التدخل الأجنبى الفرنسى أو حاولت مقاومته؛ إذ كيف يجرءون على

رفض الاحتلال "المستنير" للفرنسيين ؟! لابد إذًا من دفع ثمن الرفض والتحدى. هذه بالتحديد هى "العلموية" Le Scientisme بالمعنى الذى يستخدمه تودوروف فى الكتاب السابق ذكره؛ أى الاستخدام السياسى للعلم لتحقيق هدف معين؛ خاصة أن تدريب المصريين وتأهيلهم علميا كانت مسألة مستبعدة -تماما- من جانب المحتلين، فالخضوع والتعلم مفهومان لايلتقيان أبدا، وهذا مافعله -بالفعل- الفرنسيون وما أعلنوه فى جلساتهم عندما رغبوا فى بناء بعض المصانع الصغيرة لسد حاجة الجيش الفرنسى وتوفير مستلزماته - أن يمنعوا المصريين من الاشتراك فى أى نشاط اقتصادى، وأنهم لو اضطروا للجلاء عن مصر فسوف يقومون بترحيل المعدات على بواخر العودة أو يقومون بتدميرها[67]. ويكفى هذا الموقف لدحض مزاعم الاستعمار - أى استعمار - عن النتائج العلمية والثقافية التى يمكن أن تترتب على تواجده ببلد ما.

ثم إن الخطاب غير منطقى ويعكس ازدواجية فى التعامل مع الأحداث، فما يطلق عليه - مثلا- العنف، نرى -عبر الوصف- أنه فى حقيقة الأمر- مقاومة شعبية باسلة، وحرب تحرير حقيقية ضد المحتل[68]. والحديث متناقض يتحدث فيه المؤلفون عن القمع الموجود فى مصر فى الوقت الذى يحكى أحدهم فى زلة لسان عن بعض أساليب القمع الوحشية التى تعامل بها الفرنسيون مع الأهالى. لهذا كله يمكن أن نجد فى مؤلف "الدولة الحديثة" تطبيقا عمليا للنظرية الاستعمارية، فهو ليس مجرد رصد معتاد للأحداث أو ملاحظة نوعية لواقع البلاد، لكنه مشاركة فعالة من أجل تغيير حقيقى وتحويل كامل لها. والتأريخ فى هذه الحالة يخضع لتوجهات الرؤية الفرنسية المغرضة. ومن خلال الوصف يحدث تزييف للحقيقة وتصبح للكتابة وظيفة أبعد مما يلوح به عنوان الموسوعة "وصف مصر"؛ لأن الكتابة هنا هى الوسيلة الباقية للتعويض عن الهزيمة العسكرية، والسبيل الوحيد لشجب الإحساس بالمرارة وخيبة الأمل، وربما الانتقام من التجربة السيئة التى مروا بها فى مصر.

وتطل الصورة الهزلية والمفككة - من تحت اللذعة الساخرة- عن طريق التجزئة: تجزئة المكان تعنى أن العلاقة هنا لاتبدو كأنها علاقة الجزء بالكل، مع تعمد حجب فكرة الأمة الواحدة المتجانسة. وقد لايمس هذا التفكيك المتعمد الأماكن فقط وانما أيضا البشر، فمن السهل أن نلتقط فكرة أن الأرض مأهولة بجماعات ليس بينها خواص مشتركة، ولكن مفهوم "الشعب المصرى" متغيب -تماما- وسط حديث يعطى كله إيحاء بشعب غير موحد، متفرق ومرتحل. والغريب أن الكتاب عند وصفهم لمنطقة معينة يسعون لمقارنتها بمصر وكأنها ليست جزءا منها، سواء على المستوى المعمارى، أو التاريخى، أو ملامح البشر، أواللغة المستخدمة أوالفنون، وهكذا[69].. فتبدو الثقافة المصرية كأنها تجميع لبعض الخطوط المفقودة وليست كبنيان واحد متماسك. لايمكن إذًا لهؤلاء البشر الذين يقطنون فى أماكن متباينة المعالم أن يصبحوا ندا للأمة الفرنسية المتماسكة المنظمة، أو أن يقوموا ببلورة مجتمع حديث ومتحضر كما أقامه الآخرون. من ضمن الدعاوى الاستعمارية أيضا قلب المعايير فما يعتبره البشر عادة ميزة يتحول بريشة المؤلفين إلى عيب خطير. وتتحول القيم الإيجابية كرفض الخضوع والاستسلام إلى "تعصب"، ويصبح أهل البلد الأصليين دخلاء عليها، ويتم تبرير وتمجيد أى فعل يصدر من الذات طالما أنه يخدم وجهة النظر المشار إليها.

أحيانا يكون لحجب المعانى مدلولات أبلغ من التصريح بها. فهل يمكن أن يصبح الصمت نوعاً من أنواع التعبير؟ إن إلغاء الحدث أو تجنب التحدث عنه يعنى أن للحدث أهمية قصوى يسعى المرسل لإخفائها. مما يلفت النظر -مثلا- أن الإسهامات العربية فى دفع الحضارة الإنسانية ودورها البارز -حين كانت أوربا تغط فى سبات عميق فى العصور الوسطى- لم يتم الإشارة إليه أبدا فى النصوص عند إثارة موضوع "العرب المقيمون فى مصر" على حد قولهم. كذلك مسألة هزيمة الفرنسيين وجلائهم عن مصر- لماذا لم تُثَرْ نهائيا على الورق؟ لأن الكتّاب يرون فيها عارا وخزيا يتناقض مع الصورة التى يريدون بثها عن مجد فرنسا الثورية وعظمتها التى لاتضاهى. كما أن اللعب بمشاعر المستمع ومحاولة إقناعه بوجه نظر معينة

يستلزم اختيار الألفاظ المناسبة. وقد ظل الخطاب السياسى، المنقول عبر النصوص، يتعمد التذكير بالرسالة الحضارية التى أخذتها فرنسا على عاتقها عند المجىء إلى مصر، مع إخفاء حقيقة الهزيمة النكراء التى تعرضت لها واضطرتها للجلاء على البواخر الإنجليزية، ثم هناك التحريض على العودة مرة أخرى، ولكن مع تقديم المحاذير اللازمة المستمدة من التجربة الفعلية.

على أن مشروعية الأمر من عدمه ليست محل شك أو تساؤل؛ فأسلوب الكتابة والبراهين المقدمة -سلفا تثبت- يقينا- أن حركة الاستعمار مشروعة تماما ولاتحتمل المراجعة. هنا أيضا تظهر ازدواجية الحكم على الأمور التى تميز أى أيديولوجية استعمارية؛ فمفهوم الحرية الذى كان أحد الأسس الثلاثة التى نادت بها الثورة الفرنسية يفَسَر حسب أهواء من يكتبون؛ لأن الاحتلال هنا عملية تحرير تعيد للشعوب المقهورة حريتها.. وفى الوقت الذى يطالب فيه الآخر بتحقيق العدالة لنفسه يرفض الاعتراف بظلمه وعدوانه.

ربما من المفيد أن نذكر أنه فى السياق الاستعمارى فى العصر الحديث، كانت الحملة الفرنسية على مصر أول محاولة استعمارية أوربية للمنطقة منذ عصر الحملات الصليبية التى باءت إلى فشل ذريع تاركة وراءها - بالنسبة للفرنسيين - الإحساس بالمذلة والمرارة: فمصر لم تصبح مستعمرة ولم تحول إلى أرض فرنسية، وسرد الحكاية على حقيقتها بدون تزييف يعد طعنة لشرف فرنسا وسمعتها، وهو ما كان لابد من تجنب الإشارة إليه.

هذا التأرجح بين تزييف الواقع أو الصمت عنه، واللجوء إلى مصطلحات وصيغ نمطية معينة، يسهل تصنيفه داخل إطار الأيديولوجية الاستعمارية التقليدية. إن الخطاب التاريخى هنا خطاب سياسى من الدرجة الأولى، ووظيفة الوصف هى التبرير والإقناع والتحريض، وليس -كما يبدو من اسم الموسوعة- وصفاً بريئاً لواقع مصر وحالها فى نهاية القرن الثامن عشر. وهنا يأتى الاستفهام المحير عن ارتباط الوصف بالموضوعية العلمية بشكل عام ثم وضعه فى "وصف مصر" بشكل

خاص؛ فمما لاشك فيه أن الوصف -غالبا- ما يخضع لرؤية الواصف وذاته ومواقفه الخاصة تجاه البشر والأشياء، وإذا نحن اتخذنا من وصف مصر نموذجا على صحة هذا الاعتقاد فسوف نفهم كيف كانت الكتابة هدفا لنقل أيديولوجية المرسل، واستغلال المسميات والقيم الإنسانية العامة كالحرية والشرف والمساواة؛ لبث وجهات النظر عن الذات وعن الآخر، وإخفاء كل مالايتفق مع النظرة الخاصة للأمور.

* * *

يتضح بعد هذا البحث فى نظرة الآخر، عبر الجزء الخاص "بالدولة الحديثة" فى موسوعة وصف مصر، أن النظرة التى يوليها المؤلفون لمصر لاتقف عند حدود التأمل، وإنما هى نظرة الطامع المشتهى. لقد جعلت الثورة الفرنسية من نفسها فاعلا رئيساً، وربما أوحد لبرنامج هدفه "إعادة بناء المجتمع الإنسانى". لكن برنامج الهيمنة الجديدة كان يتطلب أيديولوجية تحقق الهدف، وترتبط -عضويا- بفلسفة التنوير، بعد أن بث التنويريون فكرة أن فرنسا هى الأمة العظيمة العليا. وعليه فإن القدر (أو التاريخ) قد كلفها بمأمورية خاصة؛ وهى تحرير الشعوب ونقل التحضر إليها. لكن واجب نقل الحضارة إلى الأجناس المتخلفة يستلزم حق التدخل من الأجناس المتقدمة؛ فابتكر مفهوم "الرسالة الحضارية" من فرنسا إلى الآخرين، وكان الغرض الحقيقى هو تبرير طموحاتها الاستعمارية. وهكذا فقد طارت فرنسا لمد يد العون إلى المصريين البؤساء؛ لتذيقهم حلاوة التحضر الإنسانى، لكنها فشلت فشلا ذريعا فى ذلك واتهمت مصر – من خلال المادة الوصفية – بأنها بلاد تتمسك بالرجعية والتخلف ولاتصبو إلى التقدم الإنسانى المنشود. وسواء على مستوى النظرية أو الممارسة فإن المؤمنين بهذه القضايا كانت لهم رؤية معينة للكون تحددها – فقط– المصالح الفرنسية.

فى هذا الإطار الفكرى يمكن تصنيف الحملة العسكرية على مصر وما نتج عنها بعد ذلك على المستوى الثقافى بإصدار موسوعة وصف مصر، بأنها كانت مشروعا

استعمارياً وبالرغم من كل الحجج والتبريرات التاريخية السياسية التى أعطيت وقتها لغزو مصر وماتلاها من نتائج، إلا أن السياسة الاستعمارية تؤسس دائما - على نحو ما هو معروف - على مذاهب عنصرية واضحة، مهما حاول المرسل إعادة تركيب أو تزييف الواقع، حتى يبدو -أحيانا- كأننا فى حضور مسرحية هزلية مضحكة.

أما عن القيمة التاريخية والعلمية لمؤلف وصف مصر، فيما استطاع أن يضيفه - موضوعيا- عن مصر، فهذا الموضوع يقع فى سياق جدل أوسع عن التأثير الثقافى والفكرى للحملة الفرنسية- عموما، وماتلاها من لجوء الوالى محمد على إلى إرسال البعثات العلمية لفرنسا بالذات، واعتماده -هو وأولاده من بعده- على نخبة من الفنانين والمفكرين الفرنسيين لإعادة بناء مصر الحديثة: فهناك من يدافع وهناك من يشجب بشدة، وإذا كانت مسألة فشل المبادرة الاستعمارية الفرنسية على مصر قضية مفروغ منها ولاجدال فيها على المستوى العسكرى، إلا أن التأثير الثقافى والعلمى لهذه الحملة يستوجب مزيدا من الدراسات الموضوعية؛ لوضعه فى سياقه الواقعى دون مغالاة.

أما عن التأثير المعنوى الذى تركته الحملة فقد كان صداه مختلفا لدى الطرفين؛ أى فى كل من مصر وفرنسا: فبالنسبة للأخيرة تتعمد المناهج الدراسية الفرنسية إخفاء تاريخ بداية ونهاية الحملة على مصر، وقصر ذكرها على بضعة جمل تأتى فى إطار الدرس العام الخاص ببونابرت أو حكومة المديرين Le Directoire وعدم إفراد جزء كاف لها فى المنهج الدراسى المدرسى؛ ربما لأن القائمين على التعليم يتعمدون إظهار الحلقات والأحداث التى تمجد تاريخ فرنسا، وإغفال مالا يحقق هذا الهدف (75). أما فى مصر فرغم المحاولات المستعصية لإفراغ هذا الحدث من مضمونه الاستعمارى فقد تسبب فى أزمة للوعى والضمير المصرى، وفى تحديد صورة العلاقات المصرية الغربية بشكل عام؛ حيث أدرك الكثيرون أن نظرة الآخر لنا هى وجه من وجوه إنكاره لوجودنا.

الهوامش

1 Tzvetan TODOROV: Nous et les Autres, Paris, Seuil, 1989, p.425.

2 Manal KHEDR: La Description de l'Egypte: le Regard de l'Autre (l'Etat moderne),, thèse de doctorat P.H.D, Université du Caire, Le Caire, 1998.

3 قدمنا فى الأطروحة، ص ص. 134- 140 قائمة بأسماء الكتّاب المشاركين فى الجزء الخاص بالدولة الحديثة مع نبذة عن السيرة الذاتية لكل منهم.

4 نذكر أن السبب المعلن وقتها كان سوء معاملة المماليك للتجار الفرنسيين الموجودين فى مصر وفرضهم ضرائب باهظة عليهم، ولا يخفى علينا رغبة فرنسا فى ضرب إنجلترا -عدوها التقليدى- بقطع طرق مواصلاتها الى الهند.

5 ذكرنا عناوينها وموضوعها وعدد صفحاتها بالنسبة لطبعة بانكوك فى نص الأطروحة: ص ص 116-119.

6 المساحة المحددة وعنوان الورقة يضطرنا للتعميم وتخطى الخلافات الفكرية التى ظهرت بين فلاسفة التنوير آنذاك، فهدفنا هنا هو استخلاص جوهر فلسفة التنوير فيما ينعكس منها على غزو مصر.

7 Voltaire: L'Essai sur les Mœurs, Paris, Bordas, 1990, t.1, p. 83.

8 هذا واضح تماما فى النص السابع مثلا من عينة الدراسة وعنوانه: "Essai sur les Mœurs des Habitants modernes de l'Egypte".

9 هذا ما لاحظناه على سبيل المثال وليس الحصر،عند مقارنة ص 22،23 من النص المذكور أعلاه بصفحة 276 من مؤلف فولتير "الطوائف المحمدية" "Les Sectes Mahométanes"

10 أمضى فولنى سبع شهور فى مصرعام 1783 وكان تأثيره شديدا على تفكيرعلماء الحملة حتى إن كتابه كان الكتاب الوحيد الذى حمله بونابرت ذاته معه أثناء الرحلة على متن الباخرة.

11 Voyage en Egypte et en Syrie , Paris et La Haye, Mouton, 1959.

لقد لاقى هذا الكتاب إقبالا شديدا عند صدوره؛ حتى إنه أصبح المرشد الأمين للفرنسيين فى مصر.

12 هذا الجزء مأخوذ من البيان الذى أعده بونابرت للشعب المصرى على متن السفينة الحربية فى عرض البحر المتوسط وهو فى طريقه إلى مصر، والنص الكامل للبيان موجود فى كتاب هنرى لورنس عن الحملة، ص 40:

Henry LAURENS: L'Expédition d'Egypte (1798-1801) , Paris, Armand Colin, 1989.

13 معناها بالفرنسية الموسوعة، وقد بدأ التفكير فيها لمحاكاة وترجمة أنسيكلوبيديا العلوم والفنون التى ظهرت فى لندن عام 1728، ثم توسعت الفكرة وأصبح الهدف منها هو تسجيل كل أنواع المعارف الإنسانية وكل ماتوصل إليه العقل البشرى فى كل مجالات العلوم والفنون والتقنيات المختلفة؛ وقد صدرت بين عامى 1750و 1772 فى باريس.

14 صدر مؤلف وصف مصر فى فرنسا بعد عودة أعضاء الحملة بعدة سنوات (1809-1828).

15 ترجمة حرفية للنص الأصلى.

16 هذا الاستشهاد مأخوذ عن مقال لديدرو Diderot الذى يعتبر من أفضل من مثلوا الفكر الأنسكلوبيدى.

17 Maillet, D.: Description de l'Égypte, Composée sur le memoire de M. De Maillet par Moscrier, Paris 1935.

18 Dugua au Général Dumas, le 6 mai 1799, cité par H. Laurens: L'Expédition d'Egypte, op. cit., p. 206.

19 هذه البيانات الخصبة والغزيرة سوف تكون فيها بعد المادة الخصبة لوصف مصر.

20 Henry LAURENS: L'Expédition d'Egypte, op. cit., p.343.

21 ص ص134- 140.

22 Courrier de l'Egypte, le 23 janvier 1800.

23 لقد استشهدنا فى الأطروحة بالنصوص الدالة على ذلك واستجلبنا الجمل التى تعضد وجهة نظرنا.

24 إن هذه المبالغات ليست من تأليفنا لكن كثيراً من الجمل التى نعبر بها عبارة عن ترجمة حرفية من النصوص محل الدراسة.

Voir E. JOMARD:" Observstions sur les Arabes de l'Egypte moyenne" , t. XII, pp. 305, 318.

25 M. de CHABROL: " Esai sur les Moeur des Habitants modernes de l'Egypte ", t.XVIII, p.41.

26 Idem, p. 40.

27 يأتى تحديد ماهيتهم فى الجزء التالى من هذا البحث تحت عنوان: " النظرة المركبة والصور الملتبسة ".

28 M.COSTAZ: "Mémoire sur la Nubie et les Barâbras, t.XII", pp 249 , 258.

29 E. JOMARD: " Observations sur les Arabes de l'Egypte moyenne", t.XII, p.268.

30 H. LAURENS: L'Expédition… , op. cit., p. 340.

31 Charles Coulston GILLIPSIE et Michel DEWACHLER: Les Monuments de L'Egypte , trad de l'ang. , Paris, édit. Hazan, 1989, p.28.

32 إن كل رأى وتحليل أوردناه فى الأطروحة صاحبناه بالجمل النصية التى تدل على صحته من النص الفرنسى الأصلى.

33 كثيرا ماوجدنا هناك – تناقضا أوعدم دقة فى سرد الأحداث أو تضخيماً لواقع معروف يصل بالكتابة إلى خاتمة وهمية يشوبها الكثير من سوء النية المتعمدة. انظر:

Manal KHEDR: La Description de l'Egypte, op. cit, pp. 175 – 195.

34 التحقق من صحة الخبر التاريخى أمر سهل إذا ماقورن النص موضوع الدراسة بكتابات تاريخية أخرى تتحدث عن مصر وقت وجود الفرنسيين بها.

35 كل ماورد فى هذا التحليل وثقناه فى الأطروحة بعرض الجمل الدالة على صحته من داخل النصوص نفسها، و كثيرا مما نقدمه فى التحليل هو ترجمة حرفية لما استخرجناه من النص الفرنسى.

Cf, par ex., E. JOMARD: " Observations..., pp.295, 320, 321.

36 M.Du Bois-Aymé: "Mémoire sur les Tribus arabes des Déserts de l'Egypte, t. XII, p.374.

37 قدمنا أمثلة كثيرة فى الأطروحة من النص الفرنسى الأصلى تؤكد كل صفة من هذه الأوصاف، خاصة وأن اللفظ كثيرا ماكان يقال مباشرة بدون مواراة.

38 استخرجنا أيضا من النصوص الفرنسية بعض الصور البلاغية التى تعكس هذا الحنق الشديد على العنصر العربى.

39 JOMARD: "Observations...", p.305.

40 A ce propos, voir entre autres: J.M.J.COUTELLE, t.XVI, pp.179, 180.

41 Voir M. Du Bois-Aymé, t. XII, p. 386.

42 انظر الأطروحة الأصلية، ص ص 196 - 205

43 M.COSTAZ, membre de l'Institut d'Egypte:" Mémoire sur la Nubie et les Barâbras", t.XII, pp.253, 254.

44Voir M.DU BOIS-AYME: "Mémoire sur la ville de Qoçeyr et ses Environs et sur les Peuples nomads qui habitant cette partie de l'ancienne troglodytiqu ", t. XI, pp. 391, 394.

Voir aussi J.M.J. COUTELLE: " Observations sur la Topographie de la presqu'île de Sinaï, les Mœur, les Usages, l'Industrie, le Commerce et la Population des Habitans ", t.XVI, p. 179.

45 M. JOMARD: "Description abrégée de la ville et de la Citadelle du Kaire, suivie de l'Explication du Plan de cette ville et ses Environs, et contenant des Renseignements sur sa Distribution, ses Monuments, sa Population, son commerce et son industrie ", p. 371.

46 M.DU BOIS-AYME: " Mémoire sur les Tribus arabes des Déserts de l'Egypte", p. 355.

47 M. DE CHABROL: " Essai sur les Mœurs de habitants modernes de l'Egypte ", t. XVIII, section III:"Des différentes religions", pp. 11, 12.

48 يظهر ذلك على سبيل المثال فى النص السابع ص 3 والنص العاشر ص 456.

49 Ibidem, p. 12.

50 Idem, p.16.

51 JOMARD, " Description abrégée de la ville et de la Citadelle du Kaire...", p. 290.

52Idem, p.317.

53 Idem, p.438.

54 M. le baron LARREY, docteur en chirurgie de Paris et en médicine de l'Université d'Iéna, member de l'Institut d'Egypte et de plusieurs academies, l'un des

commandans de la Légion d'honneur: "Notice sur la confrontation physique des Egyptiens et des différentes races qui habitant l'Egypte, suivie de quelques réflexions sur l'Embaumement des momies " , p.64.

55 هذا ما ذكره كليبير فى تقريره إلى الإدارة الفرنسية بعد ثورة القاهرة الثانية فى مارس 1800. بخصوص نص التقرير، انظر

H. LAURENS: L'Expédition d'Egypte, op. cit., p. 261.

56 Kléber en Egypte, 2 vol., col. Voyageurs occidentaux en Egypte; étude historique, présentation et notes par Henry Laurens, Le Caire, IFAO, 1988.

57 أما عن الأمثلة الوثائقية التى تدل على ذلك فقد قدمناها باستفاضة فى الدراسة الأصلية.

58 إن صفة البؤس من الصفات التى ترددت كثيرا فى المؤلف للتعبير عن كل ماينسب لمصر.

59 FEU M. MALUS: "Extrait d'un Mémoire sur l'Etat ancient et moderne des Provinces orientales de la Basse-Egypte", t. XVIII / 2, p. 28.

60 Voir M. DU BOIS-AYME: " Mémoire sur les Tribus arabes... ", pp. 382 – 384.

Voir aussi M. DE CHABROL: op cit., p.30.

61 M. JOMARD: " Description abrégée de la Ville et de la Citadelle du Kaire...", op.cit., p. 454.

62 بالفعل، كانت إرهاصات التيار الرومانسى قد بدأت تشق طريقها مع بداية القرن التاسع عشر، فى الكتابة الأدبية فى فرنسا.

63 M. JOMARD:" Description abrégée de la Ville...", op. cit., p. 348.

64 M. JOMARD: idem, p. 440.

65 انظر مثلا نص جومار، صـ 134 حيث كتبت الفكرة صراحة بدون أى مواراة.

66 نفس الفكرة التى اقتبسها ورددها بعض المفكرين المصريين، ومنهم طه حسين فى كتابه الذى أثار ضجة عند صدوره: مستقبل الثقافة فى مصر، القاهرة، 1949.

67 Henry LAURENS: L'Expédition d'Egypte, op.cit., p.287.

68 E. JOMARD: Observations sur les Arabes de l'Egypte moyenne", pp. 275, 282.

69 كما فى وصف مدينة قصير فى النص الأول من عينة الدراسة DU BOIS-AYME: "Mémoire sur la ville de Qoçeyr",op.cit.

70 فى هذا الصدد انظر رسالة دكتوراه فريدة جاد الحق:

La Représentation de l'Orient arabe dans le Discours historique français 1945-1969, thèse de doctorat P.H.D, Le Caire, Université du Caire, 1997.

* * *

لوحات الدولة الحديثة فى كتاب "وصف مصر"
(دراسة تحليلية للصورة)

أ. د. مها جاد الحق

"إنها مصلحة هذا الشعب أكثر من مصلحة آثاره التى تملأ علينا رغبة أن تصبح مصر بين أيدى أمة صديقة للفنون، ففى مصر سنجد ثراءً، يرفض العالم إعطاءه لنا".

فولنيه

كان بين مصر وفرنسا علاقات تاريخية عميقة، والتى لم تكن جميعها علاقات ود وسلام، فبعد خروج فرنسا من المنطقة إثر الحروب الصليبية، أخذ الفيلسوف ليبنيتز Leibneiz، فى القرن السابع عشر يشجع الملك لويس الرابع عشر على احتلال مصر[1]. و لم يتحقق ذلك إلا فى القرن الثامن عشر عندما التقط بونابرت كتاب فولنيه[2] ذلك الكتاب الذى كان بمثابة المرشد للحملة الفرنسية؛ حيث قدم فيه واصفاً لطبيعة مصر بشكل مفصل ورصد المشاكل والصعوبات التى يمكن أن تواجه أى وجود أجنبى فيها. ثم جاءت الجيوش الفرنسية بقيادة الجنرال بونابرت لاحتلالها، فى محاولة لضرب إنجلترا فى مستعمراتها وبحثا عن انتصار يربط اسمه باسم الأرض التى مجدت الإسكندر الأكبر.

جاء إذًا الجنرال إلى مصر، مصطحبا معه36 ألف جندى و 167عالماً، بهدف الوقوف على طبيعة ثروات البلد.وحدث كل ما نعرفه من صراع من قبل الإنجليز والترك ومقاومة عنيفة من المصريين.

لن نذكر تفاصيل الحملة التى نعرفها جميعا؛ ولكننا سنعرض الدراسة التى قمنا فيها بتحليل جزءٍ من كتاب وصف مصر، الجزء المرسوم الخاص "بالدولة الحديثة" الذى بدا لنا ذا أهمية كبرى.ومن الأفكار المعروفة عنه أن الرسومات الموجودة تمثل صور دقيقة تكاد تكون صور فوتوغرافية،وهى فكرة نقرأها مثلا فى كتاب زينات البيطار.[3] فهل هى حقا كذلك؟ وإذا كان ذلك صحيحا، فإلى أى مدى يمكن اعتبارها صورا فوتوغرافية؟

وصف مصر والنصوص التى يُقدمها

قبل أن نبدأ بتحليل الصور، يتعين أن نلقى الضوء على العمل الموسوعى "وصف مصر": فهو يتكون من أجزاء مختلفة، أبحاث ودراسات قام بها علماء الحملة فى كل المجالات وتتكون هذه الدراسات، بالنسبة للطبعة الأولى، من تسعة كتب، وأجزاء أخرى مرسومة، عددها أحد عشر جزءاً، تدور حول ثلاثة موضوعات أساسية: الآثارAntiquités والدولة الحديثة Etat Moderne. والتاريخ الطبيعى.Histoire Naturelle.

ومن المهم أن نشير إلى تأثير موسوعة القرن الثامن عشر على كتاب "وصف مصر"، فهى تملك مثلها صفحات مكتوبة وأخرى مرسومة إلا أن الصور تتميز بأن لها خاصية الاستقلال بالنسبة للنصوص، فهى تظهر، بعكس موسوعة القرن الثامن عشر، فى أجزاء منفصلة تماما عن مثيلاتها المكتوبة.

ظهرت موسوعة وصف مصر للجمهور الفرنسى على أجزاء متتالية، من 1809 إلى 1821، أى بعد نشر "فيفان دونون Denon" لكتابه الذى يحمل الاسم التالى Voyage en Haute et Basse Egypte وقد تم ذلك فى 1802.وكان بمثابة الكتاب الذى يمكن من خلاله معرفة الانطباعات السريعة والواضحة عن الحملة.

وقد بدأت فكرة الرسومات على يد الرسام "دونون" الذى اصطحب الجنرال "ديزيه" فى أحد حملاته إلى صعيد مصر، فأخذ الرسام بجمال وروعة الآثار المصرية،

وحاول أن ينقل شمخاتها وعظمتها على الورق. وعندما وصل إلى القاهرة، اطلع بونابرت على الرسومات فأعجب بدقتها وانبهر بها، وأمر بونابرت، على أثر هذا اللقاء بتكوين لجنة مسئولة عن رسم ونقل هذه الآثار فى رسومات، كان هذا بالنسبة للآثار. أما بالنسبة للجزء الخاص برسومات الدولة الحديثة، فيرجع الفضل فى وجودها للجنرال كليبر، فلما أدرك فشل الحملة، أمر برسم هذا الجزء،فى محاولة منه لتخليدها. وتتكون صور الدولة الحديثة من كتابين، يشتملان على 244 لوحة ورقية planches (والجدير بالذكر أن اللوحة يمكن أن تحمل أكثر من صورة). وقد ظهرت أول ما ظهرت فى حجم كبير 7.13 × 2.81 سم، فكما نعرف تم نشر موسوعة وصف مصر بالفرنسية ثلاث مرات 0فقد نشرتها "المطبعة الإمبراطورية" وبعد تغيير النظام السياسى الفرنسى، أعادت نشرها "المطبعة الملكية" من عام 1809 إلى 1821. وقد علق هـ. بارى على حجمها بالكلمات الطريفة الآتية:"حجم كبير"، "يكاد يضاهى حجم الآثار الفرعونية"[4]. ثم أعيدت "مطبعة بانكوك" Pancoucke تقديمها إلى الجمهور الفرنسى من 1821 إلى 1829 فى ألف نسخة ولكن فى حجم عادى، ولذلك أصبح عدد الدراسات 26جزءًا و11 مجلدا للرسومات، وقد طبعها للمرة الثالثة "معهد الشرق" Institut de L'Orient، إلا أن الناشر ميشال سيدهم قام بنشر فقط الصور ووعد بطبع الدراسات،" و هكذا سنجعل من هذا العمل رمزاً للتعاون بين فرنسا و مصر"[5]. وخرجت هذه الطبعة للجمهور فى 1991بمناسبة زيارة الرئيس ميتران لمصر.

ومن الجدير بالذكر أن آثار مصر كانت قد حظيت بالرسم قبل ذلك من قبل "بوكوك Pococke " فى كتابه "وصف الشرق وبلاد أخرى" A Description of The East and Other countries اهتم فحسب بتصوير الآثار الفرعونية. وهناك أيضا الكاتب الدنماركى "نوردن" Drawings of Some Ruines and colossol statues at Thebes in Egypt with an account of the same in a letter of the royal Society.

وبدأ الاهتمام بالعمارة الإسلامية مع كتاب كاسا Cassas "رحلة شاعرية وتاريخية إلى سوريا وفينيقيا وفلسطين وصعيد مصر"، الذى نشر فى عام 1787.

Voyage pittoresque et historique de la Syrie , de la Phénicie ,de la Palestine et de la Basse Egypte

وقد لاحظنا أن الرسومات تتبع نظاما محددا فى تعاملها مع المكان؛ فهى بالنسبة للجزء الخاص بالآثار والدولة الحديثة تتجه من مدينة إلى مدينة؛ أى من الجنوب إلى الشمال، وهذا يعنى أنها لم تتبع الواقع الزمنى للحملة؛ لأنه كما نعلم نزل الفرنسيون بادئ ذى بدء فى الإسكندرية ثم اتجهوا جنوبا. وسنعلق على هذه النقطة فى نهاية الدراسة.

وقبل أن نبدأ فى تحليل الصور يتعين أن نعرج على المقدمة التاريخية والتنبيه اللذين سبقا نصوص وصف مصر؛ فقد كتب عالم الرياضيات "جوزيف فوربيه Joseph Fourier" المقدمة، وكان فوربيه منذ بداية الحملة قريبا من السلطة، فقد كان عضوا فى معهد مصر و رئيس إحدى اللجان المسئولة عن الصعيد، وكان أيضا السكرتير الدائم لديوان القاهرة ،علاوة على ذلك فقد تولى مدير الصحيفة الفرنسية التى تم طبعها خلال السنوات الثلاث للحملة الفرنسية ، والتى حملت عنوان: "لوكوربيه دى ليجيبت Le Courrier de Egypte " وهو الذى حرر الخطبة الخاصة بجنازة كليبر...

يبدأ "فوربيه" فى المقدمة بتحديد المكان الجغرافى لمصر، ويؤكد فيها أن قدر مصر أن تنادى الأمم العظيمة والرجال العظام مثل: "يوليوس قيصر" و"انطونيو" و"أغسطس" و"أفلاطون" ... ثم أخذ يروى بداية وتاريخ فكرة احتلال مصر منذ القرن السابع عشر، وذكر الأسباب التى دفعت بونابرت لاحتلال مصر، فمنها مضايقات المماليك للتجار الفرنسيين وظلمهم للشعب المصرى.وذكر نبذة عن تاريخ المستعمر وأهدافه. ثم أكد أن مصر ليست فقط مفيدة بثروتها الطبيعية التى تملكها ولكن أيضا بالأشياء التى تحتاجها، وهنا يبدأ كاتب المقدمة بإدخال فكرة

احتلال جديد لمصر: " يمكننا أن ننقل حديدا و رصاصا وخاصة أخشابا لبناء المبانى والمراكب... ومن هذا المكان نبدأ الركيزة لاستعمار شمال إفريقيا "[6] وقد تم ذلك الاستعمار باحتلال مدينة الجزائر فى 1830 أى بعد 21 عاما من كتابة هذه السطور. تمثل هذة المقدمة نصا مهمًّا على أكثر من مستوى؛ فهو يعبر فيها "فورييه" بشكل صريح عن الأهداف الاستعمارية والأيديولوجية الفرنسية السائدة فى ذلك الوقت. ومن الجدير بالذكر أن هذه المقدمة والتنبيه قد تم نشرها فى كتاب "على حدى"، فمن الجائز أن قارئ الموسوعة لم يتح له فرصة قرائتهما.

يختلف ذلك كلية عن مضمون "التنبيه"، فهو يتضمن سطوراً ترشد القارئ فى استخدامه للموسوعة، وتعكس العلاقة بين الراسل وهو هنا "جوزيف فورييه"، ممثل العلماء، والمرسل إليه هو الجمهور الفرنسى، فهو خطاب عن الخطاب، وهو يحمل وظيفة "ميتالغويه". فيمكننا عن طريق التنبيه التعرف على تفصيلات كثيرة عن ظروف كتابة الموسوعة: عندما رجع العلماء إلى فرنسا طلب منهم تقديم وتسليم كل ما قاموا به من أبحاث ودراسات فى مصر، ثم قامت الحكومة بعد ذلك بتكوين لجنة مكونة من ثمانية علماء تم اختيارهم تحت إشراف وزير الداخلية وهى اللجنة المسئولة عن مراقبة دقة الأبحاث والرسومات، وفى الحالات التى يختلفون فيها كانوا أحيانا يلجأون إلى التصويت " وقد كانوا يقومون أيضا بتعديل أو استبعاد الأبحاث والرسومات الخاطئة أو غير الدقيقة " هذه الجملة تبين أنه كان هناك اختيار ولم يقم فورييه بتعريف مقياس البحث الدقيق وغير الدقيق.

يعرض كاتب المقدمة إنجازات الفنانين فى رسم اللوحات، فقد أبدع العالم "كونتيهConté " آلة لإبراز صفاء سماء مصر.ويعرض الكاتب الأجزاء المختلفة الخاصة بالآثار والدولة الحديثة والتاريخ الطبيعى للرسومات الموسوعة والنظام المتبع من الجنوب إلى الشمال من جزيرة فيلة إلى البحر المتوسط من الشرق إلى الغرب، من الصعيد إلى الإسكندرية. وتبعا لمقالة "جرينفلد"، فقد كتب "فورييه" المقدمة بإشراف "جومار" الذى" يعتبر المهندس الأكبر للموسوعة و المسئول الأول عن المشاكل التقنية للعمل"[7].

وقد عرض التنبيه ما تحمله الصور من عناوين وأسماء؛ فمثلا: يمكن أن نقرأ فى أعلى الجانب الأيمن للوحة رقما مكتوبا بالأرقام اللاتينية، يعكس رقم الجزء، ثم رقما آخر بالأرقام العربية يبين رقم اللوحة.أما فى حالة وجود أكثر من صورة فى الورقة،فدائما ما يكون هناك رقم فوق كل صورة. ويظهر عل الأيسر فى الأسفل، فى داخل الصورة، اسم الفنان الذى رسمها، أما الذى نقشها فنرى اسمه فى الجانب الأيمن.

أنواع مختلفة من الرسومات:

يتضمن الجزء الخاص بالدولة الحديثة، أكثر من نوع؛ فهناك الرسومات ذات الإطار encadrées وأخرى بلا إطار. ويمكن تصنيف الرسومات ذات إطار إلى نوعين:الرسومات الجغرافية التى تمثل الخطط والخرائط، والرسومات الفنية التى تبين أنواع معروفة من الصور، مثل المنظر الطبيعى والبورتريه ومشاهد من الحياة اليومية.

يفاجأ مشاهد صور الموسوعة بقلة عدد الخطط والخرائط الموجودة مع الصور الأخرى ويمكن تفسير ذلك بأنه قد تم فى إطار عمل، يحمل اسم "الأطلس " والذى لم ينشر إلا فى 1828 أى بعد ظهور أغلب أجزاء الموسوعة.وقد عددنا الخرائط التى بصحبة الصور الأخرى ووجدنا أنها لاتتجاوز الأربع، وتعتبر الخريطة الأولى قديمة تم نشرها قبل ذلك فى1765، فقد اجتنب الفرنسيون وضع الخريطة التى تم تصميمها أثناء الحملة حتى لا يستخدمها الإنجليز.وهذا يبين قوة وسطوة السياسة على العلم.أما باقى الخرائط، فهى تدور حول مصادر المياه الموجودة فى مصر، إذ من الطبيعى أن يهتم جيش بذلك حتى يتسنى له السيطرة على البلد.

تمثل الصور الفنية العدد الأكبر وتظهر بشكل منظم، فتبدأ من صعيد مصر ومصر الوسطى ثم القاهرة والدلتا فالسويس وما حولها،أما فى الجزء الثانى فقد بدأ بالإسكندرية، ثم عرض المجموعة المسماة "فنون وحرف"، ثم مجموعة الملابس والبورتريهات، وبعد ذلك مجموعة النقوش والعملات.

وتخضع المجموعة الأخيرة لما أسميناه "صور بدون إطار مرسوم"، اللهم إذا اعتبرنا أن حدود الصفحة الورقية تمثل نوعا منه، وهى صور تختلف عن غيرها بأنها تحمل فى ثناياها صفة النقل الوافى عن الحقيقة؛ فهى ليست إلا صورا علمية تتم بالتماثل analogie؛ فلذلك نرى أنها اهتمت بالرصد الكامل للموجود. فهى تمثل الورقتين الأخيرتين فى مجموعة الملابس والبورتريهات ومجموعة الأوانى والأثاث والآلات الموسيقية. وتعد من الصور القليلة التى تحمل ارتباطا بالدراسات لأننا كثيرا ما نرى إشارة إليها بجملة "انظر لوحة رقم..." فهى لاتتمتع بالاستقلال مثل باقى الصور، وقد رسمهم العالم المستشرق الشهير "مارسيل" (كبير مترجمى الحملة والمترجم الخاص لبونابرت)، وكان من الطبيعى أن يقوم برسمها من يجيد العربية لما تحمله صور الأوانى والعملات من حروف وكلمات عربية.

شكل الصور وتحليلها:

نظرا لغلاء طباعة الصور الملونة فى ذلك الوقت، فقد اختارت اللجنة المسئولة عن طباعة عدد معين من الورقات لكى تظهر للقارئ بالألوان. فتبعا للرسومات الأصلـية فقد كان هناك 71 لوحة ملونة؛ 59 فقط ظهرت بالألوان (14 تمثل الطيور و15 المعادن وبعض الورق الخاص بالآثار وورقة واحدة لأسماك مصر). لم يتم إذا تقديم أى صورة ملونة من الدولة الحديثة. إلا أننا إذا نظرنا جيدا لاكتشفنا أنه على مستوى الصور هناك علامات تحل محل الألوان فمثلا: بالنسبة للسماء قاموا باستخدام خطوط رفيعة وفاتحة. أما مياه النيل، فقد رسم الفنانون خطوطا أكثر سمكا من السماء. فى حالة كون المياه بحر، تصبح الخطوط متعرجة نظرا لوجود موج وقد رسمت الأرض فى شكل خطوط متقاطعة داكنة اللون، وتبعا لكونها رمالاً أو طيناً يظهر لونها أكثر سمكا وقتامة. وقد بنيت هذه الأشياء على مقاييس تماثل الحقيقة فضلا عن مجال آخر يظهر فيه استخدام العلامات signes، فى الموسوعة هناك ثلاثة أنواع من تصنيفات الملابس:

1-ملابس تظهر فى صور من الحياة اليومية.

2- ملابس تظهر فى الجزء المسمى فنون وحرف.

3- ملابس تظهر فى الجزء الخاص بملابس وبورتريهات وهى تعكس صوراً.

ومن الطبيعى أن تسهم الملابس فى عملية التعرف على الشخوص خاصة بالنسبة لصور مشاهد الحياة اليومية؛ حيث يظهر المصريون والفرنسيون معا فى نفس مساحة الصورة وللملابس دور آخر وتمييزى différentielle. ففى الفنون والمهن تظهر الشخوص وهى تلبس تبعا للواقع وهم يرتدون جميعا ملابس متشابهة، إلا إذا اقتضى عملهم عكس ذلك؛ فنرى مثلا: أن عمال الدباغة أجبروا على تخفيف ملابسهم (ورقة 24)، وهنا يبدو الدور التوظيفى للملابس. و فى الورق الخاص بالملابس والبورتيهات نجده يلتزم بمفردات الواقع، حيث يظهر أشخاص يرتدون ملابسهم المحلية تبعا لمكانهم (سيناء الإسكندرية).

وتبقى ملاحظة أخيرة وهى أن العسكر الفرنسيين ارتدوا ملابسهم العسكرية أيا كان موقعهم أو المكان الذى وجهوا إليه. كان القارئ يتوقع بسبب ارتفاع الحرارة فى الصعيد مثلا، يتم التخلص من جزء من الملابس إلا أن الفرنسيين يظهرون بكامل ملابسهم، ويمكن تفسير ذلك -كما قلنا، بأن الملابس تقوم بمساعدة المشاهد على التعرف على الجنسيات المختلفة ولكن ظهور الفرنسيين بكامل هيئتهم، بجانب المصريين ذى الملابس الفقيرة، يعكس نوعاً من السمو وعلو شأنهم.

سنحاول فى هذا الجزء تناول ثلاثة محاور: وهى المكان والزمان والجنسيات، نلاحظ أن المكان المعمارى يبدو تبعا لنظام ثنائى مضاد:

مكان حياة / مكان موت

مكان مدنى / مكان ريفى

مكان عام / مكان خاص

مكان للحماية/ مكان لغير الحماية

إلا أنه يتعين التأكيد على أن المكان الذى يصنف على أنه مكان حضرى يمكن

إدراجه ضمن الأماكن التى ترمز للحياة.يظهر فى كتاب وصف مصر 8 مدنا و10 قرى و4 كبارى و37 منزلا مملوكيا وقصرين و5 حدائق و8 ميادين وبزار واحدا وسبيل وحمامان وبابان و7 أبراج و17 صورة للقلعة و16 جامعاً ومسجدين (منهم اثنان منهاران) و7 أديرة (منهم 6 مدمرون) و18 قبرا.

يمكننا بعد القراءة البسيطة لهذه الأرقام أن نؤكد بأنها لا تمثل كل ما يوجد على أرض مصر والبحوث الموجودة فى وصف مصر تبينه: يؤكد جومار فى دراسته التى قام بها عن المساجد أن هناك 253 مسجدا فى القاهرة و27كنيسة و10 معابد يهودية. وقد علق جومار على ذلك "أن عكس ما هو جارٍ و معروف فى أوربا،فكل طائفة دينية فى مصر تتعبد فى حرية تامة."(8)

وإذا نظرنا للمنازل التى سكنها الفرنسيون والتى كانت فى الأصل منازل خاصة بالمماليك، نلاحظ أن هناك صورتين لمنزل "ألفى بك" و هو المنزل الذى سكنه "بونابرت" واستخدمه كمقر للقياده، وأربعة رسومات لمنزل "حسن كاشف" الذى كان مركز "معهد مصر". وقد استخدمه "مونج وبرتوليه" كمسكن أيضا. وبخلاف ذلك ليس ثمة صور أخرى، وذلك على الرغم من أن أغلب منازل المماليك قد سكنها الفرنسيون.فهل كان هذا نوعا من تحييد الاحتلال الفرنسى لتلك الأمكنة الخاصة؟

بالإضافة إلى ذلك فقد تم تصوير باب النصر وباب الفتوح: وقد استخدم بونابرت باب النصر للدخول منه مع جيشه عند عودته من فلسطين برغم هزيمته. "وقد دعى أعيان البلد لحضور العرض الذى استمر خمس ساعات، وقد كان بقايا العسكر الفرنسيين يدخلون من باب ويخرجون من آخر ثم يدخلون من باب النصر مرة أخرى؛ حتى لا يظهر للمصريين قلة عددهم. وقد دعا بونابرت نخبة المصريين إلى عشاء فخم وعندما حل الظلام أدخل الفرنسيون عسكرهم الجرحى والموتى".(9)

لقد تم إذًا تصوير جزء فقط من المكان المعمارى، وهو الجزء الذى نستطيع من

خلاله قراءة رغبة الفرنسيين فى السيطرة عليه، وقد كان من أهدافهم العلم، وكذلك الاحتلال العسكرى.

إذا انتقلنا إلى الزمان، نلاحظ أن الزمان موجود بقوة فى وصف مصر؛ فمثلا: إذا نظرنا إلى ملابس الأشخاص، نجدها تعكس زمنا معينا. هناك أيضا عناوين تدل على الزمن مثل: " نزول الجيش الفرنسى إلى مصر فى برج مارابو:فهذة الصورة لوحة 99 من الجزء 2 (شكل1) تحمل الحدث التاريخى الوحيد المصور فى وصف مصر، ولم يتم فى المقابل، رسم لحظة خروج الفرنسيين من مصر، ويمكن تفسير ذلك أنه حدث سلبى، من وجهة نظر الفرنسيين، تعين عدم تسجيله. وإذا توقفنا قليلا أمام هذه الصورة، نلاحظ أنها تحمل فى مساحة الصورة الواحدة زمنيين؛ زمن البدء وزمن النهاية، فهى تمثل كما يقول العنوان "نزول الفرنسيين فى مصر". يرى القارئ فى الصدارة سفينتين فى اليسار تتقدمهما مراكب أخرى صغيرة فى اليمين واليسار. أما فى الخلف فيظهر البرج، حيث نرى علم فرنسا وهو يرفرف: إن اختزل الزمنين فى صورة واحدة يبرز سرعة حدوث الحدث (نزول الفرنسيين)، خاصة ان المشاهد لا يرى أى شخص يمثل الجانب المصرى صاحب البرج، وذلك يتناسب مع باقى الصور، حيث لا يظهر الفرنسيون والمصريون فى حالة مواجهة. هل تحرى عدم وضع المصرى فى مواجهة الفرنسى بهدف تصوير القوة العسكرية الفرنسية على أنها لم تجد مقاومة.وإنما وجدت (حسب مزاعمهم) الترحاب، والنظر لمقدم الفرنسيين على أنه لحظة الخلاص من الحكم الاستبدادى المملوكى ؟ وربما لسبب آخر هو تصوير المصرى على أنه وعى أهمية الحدث ليس فقط للخلاص من المماليك وإنما للتفاعل مع هذا الآخر لإيجاد مبرر لمزاعمهم بشأن المهمة الحضارية للجيش الفرنسى. أم ثالثا بهدف اعتبار المصريين مسلوبى الإرادة، ولم يشكلوا قوة تذكر فى مواجهة الجيش المنتصر دائما ؟! أم أن هناك تفسيرات أخرى للمسألة ؟

أما الجزء الخاص بالملابس والبورتريهات، فيعكس أيضا الزمن من خلال الملابس والشخصيات المشهورة التى ترجع إلى حقبة معينة من تاريخ مصر، فعلى

سبيل المثال يمثلا مراد بك وسيد مصطفى باشا ...يظهر مراد بك (صورة ج الجزء الثانى، شكل 2)، خاصة فى الطبعة الأصلية الكبيرة، مهيباً بسبب وضعه المملوكى الذى يوحى بالقوة والقسوة: أنه يرتدى الملابس المملوكية،ويمسك فى يده اليسرى المنشة. أما يده اليمنى فهى ممتدة وقد وضع سيفه بجانبه: إن هذا العدو المملوكى فى حالة راحة، فقد انتهى بالاتفاق مع الفرنسيين على أنهم يتركون له حكم صعيد مصر.

أما "بورتريه سيد مصطفى باشا" ممثل الباب العالى فى مصر فيحمل العنوان التالى: "سيد مصطفى باشا الذى جرح فى معركة أبو قير " لم يتم تصوير المعركة، إلا أنها تم ذكرها فى العنوان، فالقارئ هنا أيضا لايرى إلا إحدى نتائج المعركة: ممثل الباب العالى الذى تم جرحه وأسره. ويلاحظ أن يده اليمنى ممضدة وذلك يوافق تماما الصورة الموجودة فى مخيلة المشاهد الفرنسى عن الدولة العثمانية، "ذلك الرجل المريض العجوز".(انظر صورة 5، الجزء الثانى، شكل 3).

إن الزمن يظهر بشكل واضح فى الجزء المسمى "فنون وحرف "، حيث يرى المشاهد المراحل الزمنية المختلفة لصناعة الشيء. ففى اللوحة رقم 22 من الجزء الثانى (شكل 4) نرى فى صدر الصورة الأوانى الخزفية المختلفة. أما فى الثانى، تظهر فى مرحلة التجفيف ، وفى الثالث، نرى العامل فى أوج نشاطه وهو يقوم بعملية التصنيع والمستويات المكانية المختلفة تتبع المراحل المتتالية، فهى تمثل الزمن لصناعة الأوانى فلقد تم وضع الأوانى الخالصة فى الجانب الأمامى، أى فى المكان الأقرب مكانيا وزمنيا من المشاهد (انظر اللوحة 22،الجزء الثانى، شكل 4). وتقدم اللوحة رقم 24 من الجزء الثانى (شكل 5) صانع الملح وهى تتبع النظام العكسى ؛ أى أن ما تم الانتهاء منه يظهر فى الخلفية، بينما ما يصنع يظهر فى الأمام.ويمكن تفسير ذلك بسبب توظيفى بحت خاص بظروف تجفيف الملح، فهو يحتاج لمكان مفتوح الذى نراه من خلال الباب شبه المفتوح. يمكن إضافة، كما ذكرنا سابقا، أن الصور تبدأ من الجنوب الى الشمال وذلك يتناقض مع الواقع، فكما نعلم نزل الفرنسيون فى

الإسكندرية.إن النظام من الجنوب الى الشمال الذى تم تصويره يحاكى نظام الرساميين فقد بدأوا برسم آثار الصعيد (أى الجنوب).هل تجنب الفرنسيون تقديم خط سير الحملة العسكرية من الشمال إلى الجنوب لأنها فشلت؟

ومن جانب آخر، يمكن دراسة الأشخاص فى الصورة من زاوية الحجم والوضع والاتجاه [10] وذلك من خلال المفاهيم الآتية: كبير/ صغير، يمين / يسار، فى المركز/ فى الهامش، أفقى / رأسى، وقد حاولنا أن نبحث على سبيل المثال عن عدد ظهور العسكر الفرنسيين، فقد اكتشفنا أنهم يظهرون 38 مرة فى 124 صورة، ويمكن التعرف عليهم من خلال ملابسهم العسكرية، وأسلحتهم والعلم الفرنسى المرفوع خاصة على السفن والمبانى. ولكن متى ظهر الفرنسيون لأول مرة؟ فى اللوحة 3، نراهم فى اللوحة 2، الجزء الأول (شكل 6) التى تحمل العنوان التالى: "منظر الكوبرى الموجود فى مدخل المدينة" وعلى هذا الكوبرى نرى فى اليسار العسكر الفرنسيين وهم يدخلون على مسرح الأحداث المصرية، يسيرون فى خط مستقيم يتقدمهم عسكريان ويتبعهم ثلاثة آخرون راكبون الحمير. ويمكن ملاحظة الفرنسيين بسهولة بسبب عددهم. على الجانب الآخر من الكوبرى، ثلاثة فلاحون يركبون الجمال وخلفهم مسجد، مكان شديد الشرقية. إن الفرنسيين والمصريين يظهرون على نفس الخط إلا أنهم يتعارضون فى بعض النقاط تبعا للقراءة الغربية (من اليسار إلى اليمين):

يسار	يمين
عدد كبير	عدد صغير
عسكر	مدنيون
معهم علم	بدون علم
يركبون الحمير	يركبون الجمال

بيد أنهم لا يمثلون الشخصيات الوحيدة فى الصورة، فهناك فى الأسفل فلاحات على الشط يبتعدون منه بعد ملء البلاليص.أما آخر ظهور لهم فهى فى اللوحة 105

صورة 3 (شكل 7) التى تمثل ثلاثة أديرة: دير الأنبا بشاى ودير الصعيد ودير السوريين. ثلاثة عسكر يركبون الخيول يصحبهم 7، ولكن هناك فارس مصرى. ونرى أيضاً مجموعة من الرهبان المصريين وهى تقترب لمقابلتهم. تظهر هنا تقابلات ثلاثة:

فرنسى مصرى

عسكرى مدنى

غير دينى دينى

ويمكن استخلاص هذة التقابلات من خلال ملابسهم، غير أنهم يظهرون فى نفس المكان وهو الجزء الأيمن من الصورة ولديهم نفس الخلفية ألا وهى الدير المصرى.

بعد دراسة باقى الصور يمكن القول إن: الصور التى تعكس الأمكنة تبدو شديدة الأهمية لأنها تمثل الصور الوحيدة التى يظهر فيها الفرنسيون والمصريون معا. ويلاحظ أن حركة العسكر الفرنسيين ونظرتهم تتجه من اليسار إلى اليمين، وهى فى استمرارية متزايدة بالنسبة للمكان، وذلك يعكس دخول الفرنسيين للمكان المصرى؛ مما يدل أيضا على تملكهم لهذا المكان. ويعتبر المكان ذا دلالة؛ لأنه يمثل الأماكن ذات الثقل ولكن أهمية المكان تبرز من أنه يحمل الجنسيات المختلفة التى تعكس علاقات مختلفة تبعا لوجهة النظر الفرنسية. والنتيجة المحملة أن: الفرنسيين أصبحوا يحتلون كل المسافة المصورة ويصحبهم المصريون كمرشدين أو كخدم لهم، وذلك يهدف للإيحاء بأن الاحتلال الفرنسى كان من النوع السلمى،أى الذى لم يلق مقاومة من قبل المصريين الذين تكالبوا على التعامل معهم. نفهم من ذلك أنه لم يتم أى مقاومة، أو مواجهه مصرية.

وهكذا يتبدى التناقض بين دراسات وصف مصر التى تتحدث عن المعارك وبين الصور التى تعمد الرسامون الفرنسيون تجاهلها،على أن ذلك اختلف تماما عن نهج دينون ورسوماته.

بالنسبة للعدد ومكان الفرنسيين فهم يظهرون 10 مرات فى الجانب الأيسر، 5 فى الأيمن، 14 فى الوسط، 13 فى مجموعات صغيرة، 5 فى الامتداد الأفقى للصورة، مرتين على المرتفعات.هذا يعنى أن المكان الأكثر استخداما هو الوسط ويليه فى تجمعات صغيرة، وهذان المكانان يعكسان نوعا من التحكم فى مساحة الصور؛ أى فى المكان المصرى. بينما يظهر المصريون بمفردهم 8 مرات فى الجانب الأيسر،8 مرات فى الجانب الأيمن،11 فى مركز الصورة، 9 مرات متفرقين، مرة واحدة على امتداد الصورة ومرتين فى مكان مرتفع.وهم يتجاذبون أطراف الحديث أو يدخنون و يتنزهون.أما ظهورهم مع الفرنسيين، 8 مرات على اليسار ومرتين على اليمين و13 مرة فى الوسط و9 مرات فى مجموعات متفرقة، (مكونة من ثلاثة أفراد) ومرة واحدة على امتداد الصورة.إذن فالمصريون فى لحظة وجود الفرنسيين معهم لا يستطيعون ملء الارتفاع، ومن ثم فالفرنسيون هم الذين يبرزون على نحو دائم.

إن اختفاء المعارك من صور وصف مصر له مغزى: فهو له دور مهم فى تبيين أن الاحتلال الفرنسى كان احتلالا سلميا.فعدم ظهور المعارك حتى التى انتصرت فيها فرنسا، وذلك يتناقض مع رسومات دينون الذى رسم معركة إمبابة (لوحة 11) ودمنهور(ل037) وخطة معركة "أبو قير". وقد أظهر "دينون" عذابات العسكر الفرنسيين. وعلى ذلك فلوحات "دينون" تبدو أكثر واقعية من لوحات الموسوعة التى ألغت كل مظاهر العنف، وهذه النتيجة تتناقض تماما مع ما ذهب إليه فاتان [11].

الملاحظ -مثلا- أن النصوص تتحدث عن افتتاح فم الخليج،وتحكى عن وجود الباشا والمماليك بهذه الكلمات:"ذهب الوالى ومعه عدد كبير من المماليك للقناة فى المكان المخصص لذلك، وكان البكوات يتبعهم المماليك،فى موكب مهيب وأناس أخرى، ومجموعة كبيرة من الشعب يضيفون لهذا الاحتفال شكلا عظيما" [12]. أما اللوحة 19، الجزء الأول (شكل8) التى من المفترض أن يبدو فيه السلطة العثمانية، لا يظهر منها إلا العلم العثمانى على مركب، بينما نرى ثلاثة أعلام فرنسية على المبانى

الفرنسية. إن الأماكن المرتبطة بالفرنسيين ثابتة وليست متحركة كالمركب التركى، الذى يمكن إبعاده عن الأرض المصرية. ولا يظهر أى أثر لشخصيات من السلطة العثمانية أو المملوكية.

و من المهم التأكيد على أن الرسومات تخضع للتقابل على كل المستويات: الملابس والمكان والفعل نذكر مثلا اللوحة الأولى (لوحة3، شكل6) التى يظهر فيها المسلمون واللوحة الأخيرة (ل105) (شكل 7) التى يبدو فيها الأقباط. إن الفنانين الفرنسيين رسموا المسلمين والأقباط وكأنهم لا يرفضون الوجود الفرنسى فى مصر. ونلاحظ أنه ليس هناك أى صورة للشعب المصرى ككيان موحد (فذلك مرتبط بغياب كل رسومات فى موسوعة وصف مصر للثورتين القاهرة الأولى والثانية). لقد درسنا صور المصريين مع الفرنسيين إلا أننا لاحظنا أن الجنسيات الشرقية (مصريين أو مماليك أو أتراك) يظهرون بمفردهم فى الجزء المسمى "فنون وحرف". تمثل أغلب هذه اللوحات صور رسمها Dutertre ديترتر أو هى لوحات من الجزء الثانى من الدولة الحديثة وعددها إحدى عشرة صورة. إن المكان الذى يظهر فيه الرجال و النساء وأحيانا الأطفال يبين العلاقات الموجودة بينهم (فاللوحة ا، شكل 9) تظهر رجل وامرأة فى صورتين متباينتين وهما ينتميان إلى نفس الطبقة الاجتماعية البسيطة، طبقة الفقراء: سايس وامرأة من عامة الشعب يجمعهما نفس اللوحة، يظهران فى مكان مفتوح، على أنهما يختلفان فى أكثر من شيء، تكاد تبدو صورة الرجل منغلقة من اليسار بفعل وجود بعض الشجيرات- وكما نعلم فإن اليسار هو نقطة بدء القراءة الغربية -وقد رسم الفنان الفرنسى السايس المصرى من الجانب (البروفيل)، وفى يده اليمنى عصا تشير إلى مسجد موجود فى الخلفية. إن دور هذه العصا هى أن تربط بين الرجل والمسجد، إن الرجل يبدو كأنه ينظر إلى المرأة الموجودة فى الصورة الأخرى، أما المرأة فهى مرسومة من الأمام وتظهر الأهرامات الثلاثة كخلفية لها. وترتدى المرأة الملابس التقليدية للفلاحات؛ أى الجلابية والطرحة التى تغطى رأسها حتى قدميها، ونلاحظ تقابلا فى بعض عناصر ملابسها: إن الجانب الأيسر من جسدها مغطى بالكامل، فالجانب الأيمن يظهر منه

الذراع وما بعده لأن الفلاحة تحمل بلاصا (يمكن رؤية أيضا جزء من الثدى الأيسر) ويتقدم قدمها اليسرى عن الآخرى (هذه الوقفة تمثل إحدى الوقفات التقليدية للصورة المرسومة الغربية). إن هذين الشخصين ينظران نحو اتجاهين مختلفين، فالرجل ينظر للمرأة التى تنظر إلى الرسام أو إلى المشاهد الفرنسى.

أما اللوحة B، (شكل 10) فهى تقدم وسطا ثقافيا، الشاعر وعالم الفلك اللذان تم رسمهما فى مكان مغلق؛ وهو مغلق بالكامل بالنسبة للأول ونصف مغلق بالنسبة للثانى -إن وظيفة عالم الفلك تحتم عليه ذلك حتى يستطيع أن يتأمل السماء كما يتطلبه عمله، وهما ينظران فى اتجاهين مختلفين؛ فالشاعر ينظر إلى يمين ويحمل فى يده أوراقا وقلما و نرى على الأرض بجانبه، كيساً من النقود، ويعكس ذلك طبيعة هذا الشاعر الذى ينظم شعره بالطلب. إنه يظهر فى ديكور يحمل خطوطاً عربية:إن الرسام هنا لا يقدم كلمات بعينها ذات معنى ولكنه يقلد فقط شكل الخطوط0 أما عالم الفلك فهو يظهر فى ديكور أكثر ثراء، ويبدو الخط العربى هنا أكثر تركيبا؛ ربما لكى يوحى بالدقة، وتظهر بعض أدواته مثل: التلسكوب والكرة الأرضية.. ونلاحظ أن الشكل الدائرى للكرة قد تم توظيفه فى الديكور الخلفى. إن الخطوط هنا تبدو أكثر دكانة نظرا لأن المكان نصف مغلق.

يظهر الرجل والمرأة من جديد فى اللوحة C(شكل 11)، ولكن هذة المرة فى شكل عالمة ورجل دين؛ يظهران فى لوحة واحدة: فالرقصتان تبديان فى صورة نساء مستهترات نصف عرايا ويظهر فى خلفيتهما صندوق خشبى مفتوح، سلم، نافذة ذات المشربية المكسورة، الملابس الملقاة، كل هذه الأشياء تعكس وتكرر دنو هذه المهنة وتؤكد سوء حالهم، وهما تجلسان على الأرض أمامهما طبلة ورق إحداهما تنظر إلى اليمين، بينما الأخرى نحو الرسام إلى اليسار، وكلاهما ينظران فى حزن شديد.

على حين يبدو رجل الدين فى مظهرين؛ فالحبشى أسود اللون يرتدى اللون الفاتح، بينما القسطنطينى الأبيض يلبس الغامق، فهل مثلا الحدود الجغرافية للإسلام آنذاك؟ ولماذا تم تصوير هذين الشخصين-الراقصة ورجل الدين- اللذين

ينتميان إلى عالمين مختلفين ؟ فهل ذلك يرجع إلى الحدود الجغرافية للإسلام آنذاك؟! هل لإبراز التقابل بينهما على المستوى الأخلاقى؟

فى اللوحة التالية، لوحة D الجزء الثانى (شكل 12). إن المملوك والبحار السكندرى يظهران فى مكان مغلق (الأول) ونصف مغلق مع وجود شباك (الثانى). إن التناقض بين الخلفيتين واضح فالأول مرسوم فى قصره الملىء بالرسومات الزخرفية، الجدران زاخمة بالأشكال النباتية والزهور والمشربيات والرسومات الهندسية ولكن دون أى كتابة عربية: ينظر المملوكى إلى اليسار، أى إلى مكان بداية قراءة الصورة (وإلى الرسام والمشاهد الفرنسى) ويواجه أداة التدخين نحوهم بينما سيفه فى حزامه، أما البحار السكندرى ذو الوجه الأسمر الذى يتناقض مع بشرة المملوكى البيضاء، فهو يتجه بنظره نحو الرسام، أما أداة التدخين فهى موضوعة على الأرض، موجهة نحو الفنان.

يمكننا هنا أن نلاحظ شيئين فى صورة البحار السكندرى: الأول منهما: وجود علامتين تشيران إلى الوجود الفرنسى، العلامة الأولى تتمثل فى المنشور الذى قام بونابرت بطبعه للمصريين، وهنا نراه مكتوباً بالفرنسية. أما العلامة الثانية فتتمثل فى وجود أعلام فرنسية ترفرف على المراكب التى نراها من النافذة، فى نور واضح. أو المنشور أيضا مرتبط بالنور بما أننا نرى حبلا يحمل مصباحا يبدأ منه هناك نص آخر فى الصورة مكون من حروف هيروغليفية مرسومة على الأحجار التى يجلس عليها البحار. فهل كان الرسام يريد الإشارة إلى" النور الفرنسى" الذى بفضله سيتم فك غموض الحروف الهيروغليفية ؟. المنشور الفرنسى له وظيفة أخرى إذ يفسر السبب الذى من أجله جاء بونابرت لمصر: إنقاذ الشعب المصرى من ظلم المماليك الذى أصبح فقيرا والذى نراه من خلال صورة البحار ويتجلى لنا ثراء المماليك فى الصورة الأخرى.

تقدم اللوحة التالية: لوحة E خمس شخصيات، أمير الحج، لاعب الكمان، اثنان من سكان الواحة وجبل سيناء، ودمشقى، والشيخ السادات. نلاحظ أن جميع

الصور تعكس أسماء، وليست أسماء علم إلا الشيخ السادات. لماذا تم وضع صورته فى هذة المجموعة؟ سنحاول الإجابة على هذا السؤال لاحقا ولماذا الأمير الحج وشيخ السادات ينظران إلى الرسام؟

إذا لاحظنا سمات الوجوه، نجد أن "بورتريه" مراد بك يشد انتباهنا، فقد تم رسمه وهو جالس ووضعه يوحى بالعظمة؛ يلبس الملابس المملوكية،يده اليمنى ممدودة واليسرى تمسك المنشة، فهو جالس يستريح لأن مراد بك – عدو الفرنسيين -اختار فى النهاية التعاون معهم مقابل ترك صعيد مصر لمراد و مماليكه..

وقد تم رسم "سيد مصطفى" ممثل الباب العالى الذى أسر فى موقعة "أبو قير" وقد تم تحليل هذه الصورة سابقا. ومن الجدير بالذكر أن مراد بك وسيد مصطفى باشا رسما فى مكان مغلق: إن الصورتين تؤكدان رسالة واحدة وهى أن الشخصيتين، بسبب وجود الفرنسيين، قد تم وضعهما فى مكانين محددين.

ونلاحظ أن عدداً من الشخصيات المرسومة تنظر إلى الرسام الفرنسى: المرأة من عامة الشعب، العوالم، أمير الحج، الشيخ السادات ومراد بك. لماذا تم رسمهم هكذا؟ إن النظرة تعنى الاتصال أو على أقل رغبة فيه، فتبعا للوقائع التاريخية، كانت هناك علاقات بين العسكر الفرنسيس والراقصات وأمير الحج، وقد لعب الشيخ السادات دور الوسيط بين العلماء والفرنسيين[13].أما بالنسبة لمراد بك فقد تم التصالح بينه وبين الفرنسيين.إذن فقد تم فعلا الاتصال بينهم فى النهاية.

إن التقابل الموجود فى الصور مبنى على السيميترية والذى نراه فى توزيع الصور على مساحة اللوحة، يظهر أيضا فى المجموعات المتسلسلة séries،خاصة مجموعة الوجوه وهذه السيميترية تعكس تنسيقاً، ليس على مستوى لوحات الموسوعة كلها فحسب، ولكن أيضا على مستوى اللوحة الواحدة، وتنتمى هذه السيميترية إلى مدرسة فنية تسمى "المدرسة الكلاسيكية الجديدة". ومن الملاحظ أن هناك أيضا سيميترية فى عدد الصفحات الجزء الأول من صور الموسوعة (لوحة 97) والجزء الثانى (92 لوحة).

على أن هذا النظام لا يظهر في الدراسات والبحوث، لا على مستوى الشكل ولا على مستوى المضمون؛ فالبحوث تتوالى دون أى ترتيب أو نظام؛ فمن يقرأ الدراسات يتملكه الانطباع أن كل عالم بحث على حدة، دون أى محاولة للتنسيق مع الآخرين.

لقد أبرز تحليل الصور الآليات التى تم من خلالها رسمها، فكما ذكرنا، كان هناك عدد من الفنانين ذوى الثقافات المختلفة والذين كانوا على اختلاف مشاريعهم الثقافية يتبعون نفس القواعد المشتركة فى الشكل وفى المضمون.

إن التقابل الممثل بين العسكر والعلماء الفرنسيين الذى يمكن استنتاجه عن طريق الملابس يبين أكثر من شيء. ولكن، كيف تم تصوير العلماء وما عدد صورهم؟

لقد عَيَّنَّا وجودهم مرة واحدة فى اللوحة 55 (شكل 13)، لوحة معهد مصر. (وهذه اللوحة تقع فى الوسط تماما). من المهم هنا أن نتوقف عند هذه الصورة، فهى تبين كما يشير العنوان القاعة الرئيسة لبيت حسن الكاشف؛ حيث كان أعضاء معهد مصر يجتمعون.وهى ككل البيوتات العربية زاخرة بالزخارف الإسلامية بأنواعها المختلفة. ويظهر فيها العلماء واقفين يستقبلون بونابرت -الذى يبدو فى وسط القاعة. ونستطيع التعرف عليه من وقفته وقبعته المعروفة - وجنرالاته وبينهما القائد كافاريللى، ذو الرجل الخشبية. ونلاحظ شيئا هاما ألا وهو مكان الضوء فكما نرى، يقع الضوء على الجانب الأيمن من القاعة أى فى مكان وجود العلماء؛ ذلك لا يعنى إلا اهتمام الفنان بإبراز الدور التنويرى للعلماء. ومن الضرورى أيضا التأكيد على أن بونابرت لم يظهر إلا مرة واحدة فى كل الموسوعة فهو هنا يبدو للقارئ فى مكان كان يتردد عليه أقل كثيرا من مقر قيادته الذى لايظهر فيه، ويمكن هنا تفسير قلة ظهوره بأنه عند رسم اللوحات، لم يكن بعد فى الحكم إلا أنه استطاع أن يستخدم الصورة فى البروباجنده السياسية خلال فترة حكمه كإمبراطور (1804-1815): لقد ترك العديد من اللوحات التى صنعت أسطورته السياسية أو التى

أظهرت عبقريته العسكرية، يمكننا مثلا أن نذكر لوحة الفنان "جرو" الزيتية التى تحمل عنوان: "مرضى الطاعون فى يافا"، حيث نرى فيها بونابرت وهو يلمس عساكره المرضى دون خوف، وهو بذلك يحاكى أسطورة ملوك العصور الوسطى صانعى المعجزات العلاجية 0rois thaumaturges[14].

هناك صورة تشير إلى بونابرت دون تصوير شخصه، وهى الصورة التى تبدو فى مقدمة الجزء الأول من الأبحاث والنصوص (شكل 14).ومن منطلق مكانها،تأخذ هذه الصورة أهمية قصوى،ومن تكوينها أيضا،فقد رسمها المعمارى "سيسيل Cécile" وقد استخدم عدداً من العلامات يجب فك رموزها حتى يتسنى الفهم الكامل لهذة الرسالة المرئية. الملاحظة الأولى هى أن الصورة لها شكل مستطيل أفقى، فهى تشبه أبواب المعابد الفرعونية: تملك فى الجزء الشمالى الشمس المجنحة ومزودة بالثعابين الكوبراء.

ويتميز هذا الباب بكونه مغلقاً من أسفل، هذه الإضافة لها بالطبع دور: فهذا الجانب يحمل رسومات (سنتناولها بالبحث بعد قليل) ويحول الباب إلى إطار. وإذا عزلنا الجزء العلوى، الجزء الفرعونى، سيزداد انطباعنا بالإطار، ويظهر لنا إطار آخر. ونرى بشكل واضح شكلا هندسيا يمثل الحرف N الذى يتكرر على امتداد الإطار كله..يجب قراءة هذه الصورة من أعلى إلى أسفل تبعا لمنطق زمنى. ولكى يفهم المشاهد معنى الرسالة،عليه البدء بالجزء العلوى من الإطار من اليسار حيث يقرأ عبارة "جيش إيطاليا"، ثم يرى أربع مجموعات من الفتيات، كل مجموعة تتكون من ثلاث فتيات، يحملن كتبا وأقلاماً وريشاً، وفى الخلفية تظهر عجلات وترس وكرة أرضية. فى الوسط يظهر فارس، يحمل رمحا ودرعا،ويقف فى عربة تجرها الخيل ويرشدها نسر. على الجانب الأيمن هناك شخصيات شرقية، نتعرف عليها من ملابسها، البعض منها جرحى، أما الآخرون فيفروا من أمام هذا الفارس ونرى كخلفية لهذا المشهد الأهرامات... ليس من الصعب التعرف على الفارس إنه بونابرت فى شكل أبولو، إله الشمس. أما الفتيات فهن تبعا للميثولوجيا الإغريقية،

الفصول الأربعة وتحملن بعض علامات العلوم والفنون. إن وجود النسر، رمز "جوبيتر Jupiter" إله الآلهة، والرمز الذى اختاره نابليون فيما بعد يؤكد ذلك.

بعد أن شاهد القارئ مشهداً من مشاهد المعركة، عليه أن يتبع جانبى الإطار حيث يقرأ أسماء المعارك التى تبدأ بـ"الإسكندرية "وتنتهى على الجانب الآخر بـ "أبو قير "، وبعد كل اسم هناك "النسر الرمز النابليونى" ونلاحظ هنا، مرة أخرى، السيميترية الشديدة. ثم تصل عين المشاهد إلى الجزء السفلى للإطار الذى يبدأ وينتهى بمربع، حيث نرى أيضا أشكال فرعونية يتوسطها رمز آخر لنابليون وهى النحلة. أما الباقى فيمثل مجموعتين من الشخصيات الشرقية. المجموعة اليسرى تصحبها جمال تقبع على الأرض فى وضع راحة أى فى وضع سكون وتحمل أحمالا ثقيلة. تتجه المجموعة الثانية إلى الاتجاه الآخر ومعها الخيول التى تتجه ببطء إلى الاتجاه العكسى أى إلى المركز حيث الحرف N متوج. إن المجموعتين تتجه نحو هذا الحرف فى شكل سلمى من الدرجة الأولى: أسلحتهم على ظهورهم (المجموعة الأولى) أو متجهة إلى الأسفل (المجموعة الثانية)، وفى الحالتين فقد تم تحييدهما.

لكن ما معنى الصورة الموجودة داخل الإطار – الباب ؟ نرى عدداً من آثار مصر من الإسكندرية إلى أسوان ولا نرى هنا أى شخص: ليس هناك إلا آثار مصر الفرعونية والصورة تبدو كأنها تقدم غنائم معارك بونابرت. إن مساحة الصورة مليئة برموز من حكم نابليون. إذن الإطار هنا له دوران ففى إطار الحملة بونابرت، أصبحت مصر الفرعونية ملك للفرنسيين وفتحت للفرنسيين عالم المصريات. أى زائر لمتحف اللوفر، يمكنه أن يدرك حجم الكنوز المصرية التى تم أخذها من مصر.

ولما كان قد تم حذف المعارك العسكرية والفعل العسكرى فقد حاول الرسامون تصوير الحملة على أنها تنوير وحضارة ،وهى الصورة التى ما تزال فرنسا تهتم باستمرارها حتى الآن لدرجة أننا بعد قرنين من الحملة نسمع عنها كمغامرة علمية[15] "أو كعمل تنويرى" [16].

* * *

ونخرج هنا من هذا البحث بعدة ملاحظات أساسية على الصور التى درسناها وهى:

1-حاول الفنانون الفرنسيون من خلال الصور الإيحاء بوجود جو من السلام والمعايشة بين الفرنسيين والمصريين. فقد رأينا المصريين المنهزمين يقومون بخدمة الفرنسيين أو بإرشادهم ويتم تصويرهم وهم يدخنون للإيحاء بحالة اللامبالاة، ومن ثم فالوجود الفرنسى على أرض مصر لا يزعجهم البته.

2- كل المعارك قد تم تجنبها حتى المعارك التى خرج فيها الفرنسيون منتصرين.

3- لم يتم إيجاد أى صورة يبدو فيها المصريون كشعب أو ككيان موحد.

4- تفوق الفرنسيين المتكرر ينعكس من خلال مكانهم فى الصور ومن خلال ملابسهم.

5- لقد تم تحييد الفعل العسكرى مقابل إبراز الفعل العلمى للحملة، فالقارئ الفرنسى يرى موسوعة وصف مصر كنتاج لعصر التنوير إلا أنها تعكس أيضا الأيديولوجية الاستعمارية الفرنسية.

لقد تم تصوير الشرق ككيان استاتيكى، فكل الشخصيات التى تنتمى إليه وجدناهم واقفين أو جالسين، وفى كلتا الحالتين ثابتان بما فى ذلك المماليك أنفسهم، أفضل فرسان العالم "تبعا لمقولة فولنيه". وذلك ينطبق أيضا على العوالم أو الرقصات اللاتى تحتم عليهن مهنتهن الحركة. لقد تم تصويرهن قابعين على الأرض.

ويمكننا القول: إن المتخيل تدخل فى الواقع، فالتمثيل المرئى أو الصور يتخلله القوالب والأفكار المسبقة: أن المتخيل هنا هو كل ما تم إضافته والذى يقوم بدور تفسيرى للأهداف الاستعمارية، وتظهر التناقضات والأفكار المكررة طبقا للأيديولوجية الفرنسية الاستشراقية التى تحدد علاقة العالم المحسوس بالعمل الفنى المرسل.



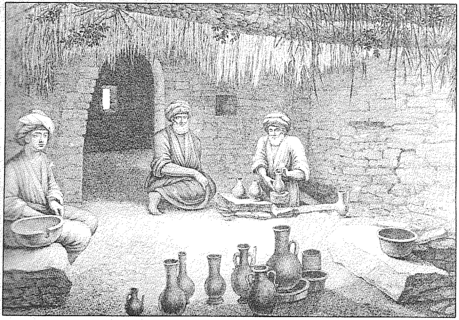
شكل (1)



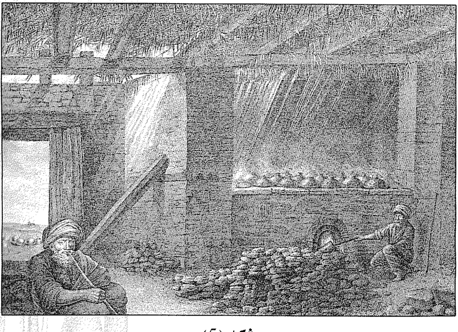
شكل (2)



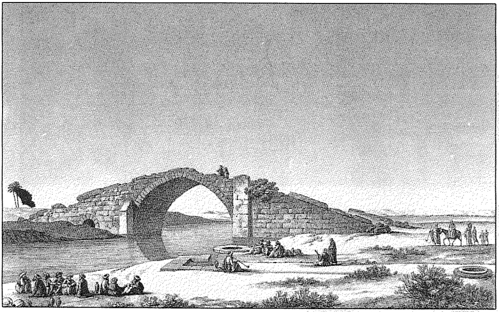
شكل (3)



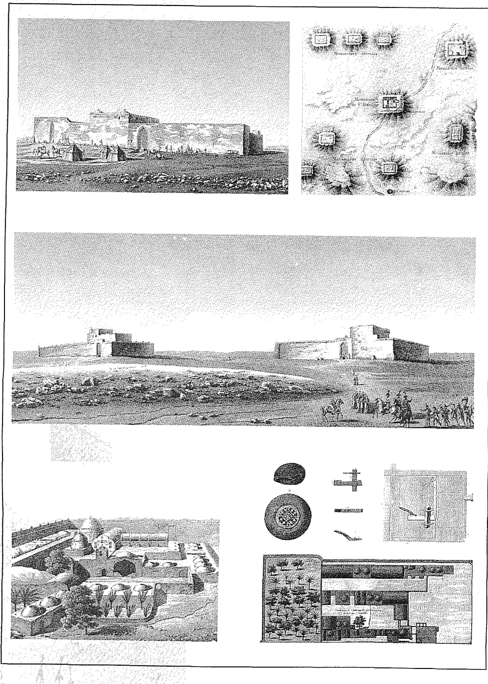
شكل (4)



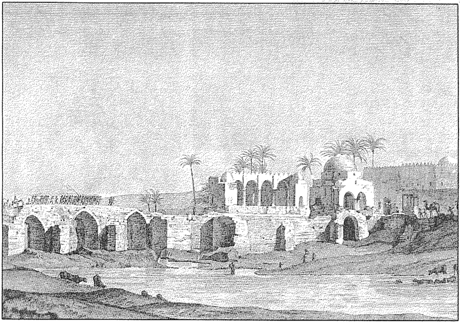
شكل (5)



شكل (6)



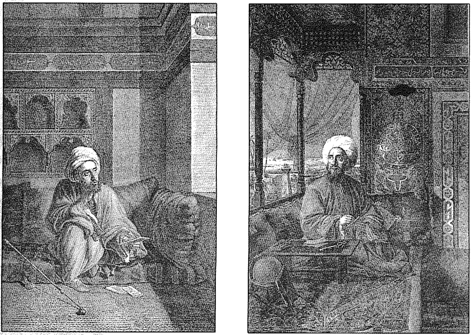
شكل (7)



شكل (8)



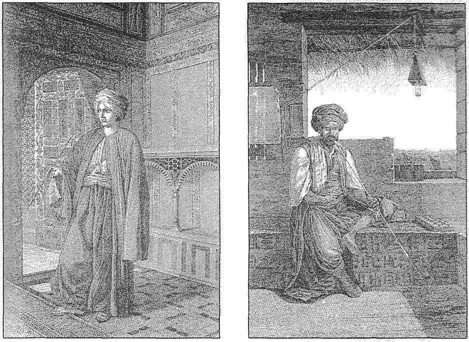
شكل (9)



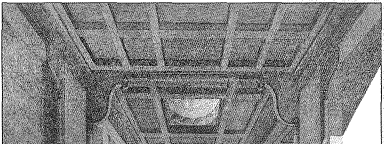
شكل (10)



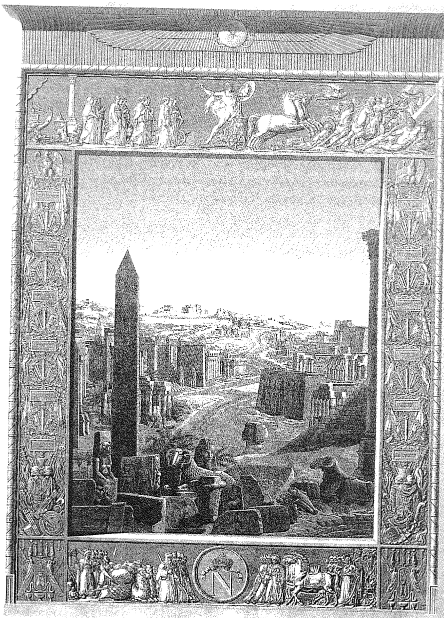
شكل (11)



شكل (12)



شكل (13)



شكل (14)

الهوامش

(1) نشر أحمد يوسف نص مشروع ليبنتز مترجما إلى العربية تحت عنوان:"المخطوط السرى لغزو مصر" كتاب الهلال العدد(525)،سبتمبر 1994.

(2) Volney:Voyage en Egypte et en Syrie,Paris,Bossange,1821.

(3) د.زينات البيطار: الاستشراق فى الفن الرومانسى الفرنسى،الكويت،عالم المعرفة، 1992[2]،ص 59.

(4) Bari,H.: « La Description d"Egypte »in **Mémoires d'Egypte,Hommage de l'Europe à Champollion** ,Strasbourg,La Nuée Blanche,1990,p.44.

(5) Descrption de l'Egypte,Institut de l'Orient,Paris,1991,p.3

(6) La Préface historique p.7.

(7) Grinevald,P:"La Description de L'Egypte" in Il y a deux cents ,les savants en Egypte,Nathan,Paris, 1998,p.122.

(8) La Description de l'Egypte,Etat moerne,vol.I,p.680

(9) Baselli,J. : Biographies égyptiennes ,E F/Jomard in Revue d'Egypte IV /1-4/1897,p.152-172.

(10) Edeline, F: Traité du signe visuel.Pour une rhétorique de l'image , Paris, ed. et al du Seuil,1992,p.210.

(11) Vatin, J.CL.: « Conformité et Pittoresque de quelques illustrations comparées au Voyage de Denon et de la Description »in Images de l'Egypte:De la Fresque à la Bande dessinée, 1987,P.P.209-227.

(12) Père Primé: « Mémoires sur la Vallée du Nil »in Description de L'Egypte ,Imprimerie Impériale ,Paris ,1809,PP.558-561.

(13) أحمد عزت عبد الكريم وآخرون: عبد الرحمن الجبرتى، رسائل وبحوث، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 1976، ص.207.

(14) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر زينات البيطار: الاستشراق فى الفن الرومانسى الفرنسى،الكويت،عالم المعرفة،1992.

(15) هذا عنوان أحد الكتب التالية:

Yves Laissus:Il y a 200 ans ,les savants en Egypte,Paris ,Nathan,1998

(16) هذا اسم مؤتمر تم عقده فى باريس احتفالا بمرور مائتى عام على الحملة، انظر:

L'Expédition en Egypte ,une entreprise des Lumières 1798-1801,Actes du colloque international du 8 -10 juin, Paris,Tec 2000.

* * *

رفض الآخر والرفض المضاد
تحليل خطابى لتاريخ الحملات الفرنسية على مصر
للضابط الفرنسى "هوويه"

أ. هناء فريد

الوثيقة التى تحمل اسم "الحملة على مصر من 1798، 1799، 1800، 1801"[1] هى عبارة عن تأريخ للحملات الأربع التى قام بها الجيش الفرنسى، بقيادة نابليون على مصر وسوريا. قام بكتابة هذا التأريخ ضابط فرنسى يدعى هوويه شارك فى العمليات العسكرية، منذ وصول الجيش الفرنسى إلى الإسكندرية، فى عام 1798 حتى جلائه عام 1801.

استخدم هوويه فى كتابة هذا التأريخ اليوميات التى كان يدونها أثناء وجوده فى مصر كما يقول فى مقدمة مؤلفه، مؤكداً أن كل ما يقدمه هو حدث بالفعل، فلا يشوب هذا النص التاريخى أية معلومات خاطئة أو منافية للحقيقة[2]. وملخص هذه الحقيقة، وفقاً برواية هوويته، هى أن الجيش الفرنسى قد أتى إلى مصر ليخلصها من الاستبداد وليعيد إليها مجدها السابق.

وتتعارض هذه الأهداف المسالمة مع ما ورد فى تأريخ هوويه من أحداث وعمليات عسكرية كانت فى أغلبها عنيفة. ومن خلال تحليلنا لخطاب هوويه يتضح لنا من ناحية أنه يبوح بأكثر مما يريد أن يقول، وأن خطابه يحتوى على دلالة ضمنية من ناحية أخرى. وهاتان الملاحظتان تجعلنا ننظر إلى خطاب هوويه ليس فقط كنص تاريخى يسرد الأحداث، إنما كخطاب ذى نزعة أيديولوجية، تأسست على مفهوم صريح لرفض الآخر، ومفهوم ضمنى للرفض المضاد. وللوصول إلى ما هو صريح

وما هو ضمنى فى خطاب هوويه، سوف نتبين أولاً الخصائص اللغوية لخطاب هوويه وسوف نحاول أن نحدد ماهيته؛ لنستخلص السمات الدلالية لمفهوم رفض الآخر عنده. وثانياً سوف نحاول أن نكشف عن مفهوم الرفض المضاد من خلال تحليل ثلاثة أحداث أوردها هوويه والتى تبرز، على عكس ما يذهب إليه، مقاومة الشعب المصرى للاحتلال الفرنسى.

خصائص الخطاب وماهية هوويه

ويستخدم هوويه فى كتابة تاريخ الحملات الأربع على مصر وسوريا صيغة السرد التاريخى التى تعتمد على "العرض المقنع لشىء حدث"[3]، فهو يستخدم السرد من منظور البرهان والإقناع، فيؤكد هوويه أنه كان دائماً حريصاً أن يكون متصلاً بالواقع وأن يكون هناك تلاؤماً بين نصه والواقع والحدث، آخذاً دائماً فى الاعتبار عند الكتابة ظروف المكان والزمان والكيفية ومراعاة ضرورة حبكة الحدث[4] دون تدخل مباشر منه.

وبوسعنا أن نَصِفَ خطاب هوويه بأنه خطاب مسرود يتميز بغياب الراوى، كشخصية فى الحدث من حيث الصيغة. ويؤكد هوويه أن غياب الراوى لا يقلل من مصداقية روايته فهو حريص أن يذكر القارئ أنه "شاهد على الأحداث ومشارك فيها"، ويعرضها بكل "تفاصيلها أمام القارئ على أساس أنها كاملة وحقيقية"[5]. إن خطاب هوويه فى تناول التاريخ هو "خطاب الحقيقة".

وموقف هوويه هذا من التأريخ يضفى على نفسه بنية سردية تتميز من جانب بالوصف ومن جانب آخر بالفعل، بمعنى أن السرد عند هوويه يقترن بطابع الوصف للأشياء والأشخاص والمواقف عن طريق الأقوال الوصفية، أما الأقوال الفعلية فهى تشير إلى الحركة والحدث الواقع فى إطار زمنى محدد[6].

وتتضح هذه البنية السردية عند هوويه من خلال نظرتنا للنص من حيث البنية الكبرى macro-structure. وتتسم بالتماسك ذات الطبيعة الدلالية والتى تتحدد

عن طريق الأبنية المتتالية micro-structure، أى الجمل داخل النص نفسه[7]. والبنية الكبرى واضحة فى مؤلف هوويه؛ إذ إنه مقسم إلى جزأين تقريباً متساويين: الجزء الأول مخصص لوصف مصر قديماً وحديثاً، آخذاً فى الاعتبار ظروف المكان والزمان، والجزء الثانى يقدم أحدث الحملات الأربع على مصر، مراعياً حبكة الأحداث، أى أن الجزء الأول يتميز بالرؤية السكونية؛ أى بالأقوال المتتالية الوصفية والجزء الثانى بالرؤية الحركية؛ أى بالأقوال المتتالية الفعلية[8].

ماهية هوويه

ويأتى تماسك البنية الكبرى أيضاً من وضع الراوى(المؤرخ نفسه)، إذ إنه يتحدث من موقع القوة. فهو، قبل كل شىء، ضابط فى الجيش الفرنسى، ينتمى إذاً إلى سلطة عسكرية مغيرة تجعل منه "فاعلاً عاملاً" فى التسلسل المنطقى للسرد. إنه كضابط يمثل المؤسسة العسكرية الفرنسية التى جاءت إلى مصر بهدف احتلالها بالقوة، فهوويه كاتب يمثل إذاً هذا الكيان الذى يمتلك السلطة والقوة والنفوذ أى يمتلك "الحقيقة"[9]. فاختفاء ذات هوويه فى عملية الكتابة تعدُّ شيئاً طبيعياً، فهو يتحدث من وضع القوة التى تعطيه القدرة على تحديد العلاقات كما يحلو له.

ومن موقع هذه القوة يأتى خطاب هوويه تحت محور دلالى يدور بطريقة صريحة حول الرفض، إذ يقوم هوويه بوصفه ضابطاً ومؤرخاً بتحديد كل العلاقات من هذا المنطلق ولكن فى الوقت نفسه لا يمكن أن يثبت هوويه وجوده ككيان ذات نفوذ إلا إذا أوجد الآخر أى الطرف الثانى[10]. ومن هنا تأتى إشكالية تحديده لملامح وقسمات هذا الآخر.

رفض الآخر – الرفض فى الصيغة الوصفية

يحرص هوويه منذ البداية على أن يوضح هذه العلاقة القائمة على الرفض، بينه وبين الطرف الآخر، على أساس –كما قلنا- أنه يتحدث ليس فقط من موقع القوة، أى السلطة العسكرية الغازية، ولكن أيضاً من موقع السلطة المعرفية المتحضرة،

وعندما يرسم ملامح هووية الطرف الثانى، أى الطرف المصرى، نجده يمحى ملامحه، ويبرزه على أنه لايمتلك أية قوة أو سلطة أو معرفة.

ونرى هذا واضحاً فى الجزء الوصفى من مؤلف هوويه، والخاص بتاريخ مصر القديم والحديث، إذ يصور هوويه المصريين القدماء بناة حضارة عظيمة، ازدهرت أثناءها الحياة السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية والاجتماعية. ولكن سريعاً ما يؤكد هوويه أن صفة العظمة هذه قد تلاشت واختفت فى مصر، منذ أن احتلها الغزاة، الرومان أولاً ثم العرب. ومنذ ذلك الحين يعتبر هوويه أن الوجود السياسى لمصر قد انتهى خاصة، كما يقول، بعد الفتح العربى، فعاش سكان مصر "تعساء تحت وطأة الاستبداد العربى لمدة 1200 سنة"[(11)]، وإن كان يعترف هوويه فى الجزء الخاص بتاريخ مصر الحديث أن المصريين قاوموا الفتح العربى فى الإسكندرية لمدة 14 شهر وكبدوا العرب خسائر فادحة؛ إذ وصل عدد القتلى –وفقاً لتقديره – 25 ألف قتيل. ولكن لم تفلح هذه المقاومة فى صد الغزاة، وأصبحت مصر "فريسة العرب" وفقدت بالتالى حريتها ومعابدها وديانتها" و"عاش المصريون البؤساء تحت قسوة العرب فى حالة من البربرية والاستعباد"[(12)].

ويتجلى رفض هوويه للمصريين فى هذا الجزء الذى يقع تقريباً فى خمسين صفحة من مؤلفه؛ إذ يعطى هوويه صورة فى غاية السلبية عن المصريين. ويكثر فى هذا الجزء استعماله لصيغ لغوية ذات الدلالة السلبية سواء كانت فى استعمال المفردات مثل الأفعال أو الأسماء أو الصفات، فكلها تدل على بدائية الحياة فى مصر خاصة فى الريف، فتعيش مثلاً النساء: "حياة فقيرة بائسة" ولا تستطيع بالتالى العناية بأطفالهن الذين يعانون من شدة الإهمال ومن عديد من الأمراض ينتج عنها "فقدان النظر وبطون منتفخة وأجسام نحيفة"، أما الرجال فهم "فلاحون بؤساء"، مسلوبون من أى إرادة، لا يستطيعون إطعام أسرهم ويتحولون فى النهاية إلى "لصوص ومجرمين". إذاً الصورة التى يعطيها هوويه، على مدى تلك الصفحات من مؤلفه، تصور حياة رجال ونساء وأطفال مصر بدائية، فقيرة، تعيسة. ويجب علينا أن

نتساءل: لماذا هذا التصميم من قبل هوويه فى تصوير المصريين بهذه السلبية؟ لماذا تعمد هوويه إبراز جميع الجوانب التى تنفى عن المصريين صفات الإرادة والإبداع والتنظيم والعمل المتضامن؟

ونعتقد أن تقسيم المؤلف إلى قسمين يبديان منفصلان ليس من قبل التنظيم الخطابى البحت، برغم أن هوويه يؤكد فى مقدمته أن الهدف من الجزء الأول الذى يعرض فيه تاريخ مصر القديم والحديث هو "إعطاء القارئ الفرنسى فكرة عن تاريخ هذا البلد الذى كان مسرحاً لعمليات الحملات الفرنسية"[13].

ونرى أن هناك صلة وثيقة بين الجزأين، فالجزء الأول يبرر الجزء الثانى؛ أى أن وصف المصريين تحت استعباد خلفاء محمد "المتوحشين"[14] على مدار اثنى عشر قرناً يبرر قيام الحملة الفرنسية على مصر؛ لتخليصها من عبودية العرب والأتراك ولكى تسترد مجدها السابق.

ومن هنا نرى أن الموقف الذى يتبناه هوويه، والمؤسسة العسكرية التى يمثلها، هو موقف الرفض : رفض لثقافة دينية متمثلة فى الإسلام، رفض لسلطة سياسية مستبدة متمثلة فى العثمانيين والمماليك، رفض لأوضاع اجتماعية متمثلة فى بؤس حياة المصريين واستعبادهم، فكان مهماً، من وجهة نظر هوويه، لتبرير الحملة على مصر، أن يصور الأوضاع فى مصر على أسوأ حال. ولكن من جانب آخر كان مهماً أن يصور هوويه المصريين مسلوبى الإرادة، ومعدومى القوة، غير قادرين على المقاومة؛ لكى يثبت للقارئ الفرنسى من ناحية أخرى أن الجيش تحت قيادة بونابرت لم يتكبد خسائر فادحة أثناء العمليات العسكرية فى مصر، فهكذا يكون هوويه قد رد أيضاً على اللوم الذى وجه لقادة الجيش الفرنسى عند عودته من مصر فى 1801[15].

ومن هذا المنطلق الذى لا يعترف بالآخر ناكراً له أية إرادة أو عزيمة، يكون هوويه قد هيأ القارئ الفرنسى أن يجد فى نصه ما يعبر عن رفض المصريين للاحتلال الفرنسى.

وإذا انتقلنا إلى الجزء الثانى من مؤلف هوويه الذى يعرض فيه أحداث العمليات العسكرية، نجد أن هوويه يحاول بالفعل أن يقلل من حدة المقاومة التى واجهها الجيش الفرنسى فى مصر، وبالعكس يبرز من الصفحة الأولى بسالة وشجاعة الجنود الفرنسيين، أما المتاعب التى واجهوها فتدور فقط حول سوء الأحوال الجوية ونقص المياه والطعام. ولكن هل نجح هوويه حقاً عند سرده للأحداث أن يمحى ملامح الرفض والمقاومة لدى الشعب المصرى؟ ومن خلال تحليلنا لخطاب هوويه لنتبين ما حاول هوويه ألا يقوله أو ما حاول أن يكتمه أو أخيراً ما قلل من شأنه. نرى أن خطابه يكشف لنا ما عمل على إخفائه، حيث إن وظيفة الخطاب لدى المتلقى لا تمضى دائماً فى الاتجاه المحدد لها، إذ تلقاها الأخير بصورة عكسية، ذلك لأن "الكلمات تتغير معانيها وفقاً لمواقف الذين يستخدمونها"[(16)]، فهى تأخذ دلالاتها من منطلق استخدامها فى مواقف معينة. والموقف المحورى الذى ينطلق منه هوويه هو الصراع للاستيلاء على مصر، ويحتم منطق الصراع وجود طرفين متصارعين، فإن وُجِدَ غازٍ فسوف يوجد أمامه حتماً مدافع عن أرضه وكيانه، بمعنى أن مقاومة الشعب المصرى للجيوش الفرنسية الغازية هو أمر بديهى.

الرفض المضاد – المقاومة

وقد اخترنا ثلاثة أحداث أوردها هوويه فى مؤلفه؛ لنبين من خلال تحليل التركيبات اللغوية ودلالتها أن خطاب هوويه يتضمن ما يفيد برفض مصرى للوجود الفرنسى.

• الحدث الأول من بين الأحداث الثلاثة التى استوقفتنا هو الحدث الذى يبدأ به هوويه تأريخه عن الحملات والذى يسرده فى ثلاثة عشر صفحة يتمثل فى : نزول الجيش الفرنسى إلى الإسكندرية فى الثالث من يوليو سنة 1798 ثم زحف هذا الجيش واصطدامه بالمماليك عند شبراخيت فى الرابع عشر من يوليو من نفس السنة وصولاً إلى القاهرة.

•والحدث الثانى يتعلق بثورة القاهرة الأولى فى الثانى والعشرين من أكتوبر سنة 1798، وقد أورد هوويه هذا الحدث فى أقل من صفحة.

•أما الحدث الثالث فيتعلق بمقتل كليبر الذى وقع فى الرابع عشر من يونيو سنة 1800، ويرويه هوويه فى خمس صفحات.

الحدث الأول : مقاومة نزول جيش بونابرت إلى الإسكندرية

يتميز الحدث الأول الذى يحكى نزول الجيش الفرنسى إلى الإسكندرية، ثم زحفه إلى القاهرة، بإبراز بادئ ذى بدء العلاقة غير المتكافئة من خلال استخدام صيغ النعت ذات الدلالة الإيجابية؛ لوصف نزول الجيش الفرنسى: فهو مكون من كتائب يقود كل واحدة منها قائد : رينييه وكليبر ومينو وبون. يؤكد هوويه أن هذه الكتائب اتبعت مخططاً عسكرياً "دقيقاً ومنظماً" للنزول إلى الإسكندرية، وأن كل كتيبة اتخذت "بسرعة ونظام" موقعاً معيناً تستطيع من خلاله أن تسيطر على الموقف فتقع مدينة الإسكندرية سريعاً تحت سيطرتها.

ويقع الاستيلاء على الإسكندرية فى صفحتين من مؤلف هوويه يستعمل فى كتابتها، إلى جانب صيغ النعت، نوعين من صيغ الصوت. فيستعمل وبصفة مستمرة صيغة المعلوم للإشارة إلى كل عمليات الجيش الفرنسى من نزول وهجوم واستيلاء وصد وقتل ومحاصرة. ولكن من هو هذا العدو الذى تهاجمه هذه الجيوش وتحاصره وتقتله؟! يحرص هوويه فى روايته على عدم ذكر الطرف الآخر؛ ليبرز نجاح الجيش الفرنسى فى الاستيلاء على الإسكندرية بسهولة: فقد نجحت كتيبة "كليبر" فى هجومها على المدينة القديمة واستولت عليها، ونجح "مينو" فى الاستيلاء على الميناء القديم، ونجحت كتيبة "بون" فى الدخول إلى مدينة رشيد، ولا يذكر هوويه أن تكون هذه الكتائب قد تعرضت لأية مقاومة. وعندما يضطر هوويه إلى ذكرها فهو يستخدم مصطلحات توحى أنها لا تمثل خطراً على الجيوش، فالذين يلاحقون كتيبة رينييه التى نزلت فى برج العرب ليس إلا "مجموعة من البدو" لا تستطيع بطبيعة الحال أن تقف أمام جيش منظم من حيث العدد العُدَّة.

ونلاحظ أنه بالرغم من عدم ذكر أية مقاومة من قبل المصريين، فمن الواضح أنه كان هناك رفض عام تجاه دخول الفرنسيين إلى مصر. فيذكر هوويه أن الجيش الفرنسى قد نزل إلى شواطئ الإسكندرية فى منطقة غير مأهولة شرق الميناء القديم بسبب الأخبار التى تلقاها والتى كانت تفيد بعدم ترحاب أهالى الإسكندرية له. وحسب رواية هوويه، فإن الاستيلاء على الإسكندرية قد تم بدون خسائر وبدون مقاومة. ولكن كيف نفسر أن كليبر ومينو قد جُرِحا أثناء الهجوم؟! ونلاحظ هنا أن هوويه عندما يقلل من حدة هذا الحدث، يستخدم "صيغة المجهول" لذكر هذين الحدثين؛ ذلك لأن هذه الصيغة تسمح فى اللغة الفرنسية بعدم ذكر الفاعل الحقيقى وبالتالى تلغى دوره، فيقع تأثير الفعل مباشرة على المفعول به الذى يأخذ وضعاً مرموقاً فى ترتيب الكلمات فى الجملة فيوضع فى أولها. فالمهم بالنسبة لهوويه أن يبرز مشاركة "كليبر ومينو" الشجاعة أثناء الهجوم، وأن يكتم شدة المقاومة التى لابد وأنها كانت شديدة وعنيفة بحيث استطاعت أن تنال من هذين القائدين، إذ جرح "كليبر" فى الرأس وأصيب "مينو" بطلقة نارية فى الفخذ!

ولا يشير هوويه إلى مسئولى المقاومة، فهم كما قلت "مجموعة من البدو" و"بعض الأتراك والأهالى"، والاسم الوحيد الذى يذكره هو الشريف "محمد كريم" حاكم مدينة رشيد والذى، حسب رواية هوويه، وفى ثلاثة سطور بالضبط، "استسلم بسرعة وبهدوء" بعد أن حُوصِر داخل قلعة الفنار مع "الأتراك". وينهى هوويه هذا الجزء عن الاستيلاء على الإسكندرية بذكر خسائر الفرنسيين البشرية التى بلغت من 150 إلى 200 جريح وقتيل من ضمنهم الجنرال المساعد "مارس".

ونرى أن هوويه قد حرص فى هذا الجزء أن يقلل من ذكر حدة مقاومة الإسكندرية، سواء كان يقودها جنود أم أهالى أم بدو، من خلال استعماله لصيغة المجهول أو الجمل الاسمية الأقل تأثيراً عامة من الجمل الفعلية، فصيغة المجهول لا تشير إلى الفاعل الحقيقى والجمل الاسمية لا تشير إلى الفعل.

يواصل هوويه روايته بزحف الجيش الفرنسى إلى القاهرة ولكن قبل أن يتطرق للأحداث العسكرية يتوقف لوصف مدينة الإسكندرية وأهاليها. ويتابع هذا هوويه النمط السردى الذى استخدمه فى وصف تاريخ مصر القديم والحديث بإبراز التناقض بين حالين : فيوصف حال مدينة الإسكندرية على أنها "أطلال مهدمة" وشعبها "فقير وحاف ونحيف"، وفى نقيض ذلك حال الجيوش الفرنسية والاستعدادت والترتيبات والتعزيزات من رجال ومعدات للسيطرة على المدينة قبل التوجه إلى القاهرة.

ويواصل هوويه روايته برحلة كتيبتى "رينييه" و"ديسكس" إلى دمنهور متوجهين إلى القاهرة. ويشرح هنا هوويه فى صفحة كاملة عذاب الجنود والضباط من العطش والجوع، وفى بعض الأحيان من "بربرية العرب" الذين كانوا يلاحقونهم ويقتلونهم.

وابتداء من هنا نلاحظ تغيراً فى نمط سرد أحداث دمنهور، إذ يبدو أن أهالى هذه المدينة كانوا ينتظرون العدو فاستعدوا مع بدو المنطقة للتصدى إليه. فبدلاً من صيغة المجهول التى استخدمها هوويه قبل ذلك، بدأ يستخدم صيغة المعلوم ليسرد أعمال الأهالى الذين "تسلحوا داخل منازلهم وقاموا بإخفاء الأطعمة وخاصة الحبوب وقاموا بإطفاء الأفران". ولكن لا يتحدث هوويه عن أية مواجهة بين الأهالى والقوات الفرنسية إلا فى هامش الصفحة مشيراً بواسطة جملة اسمية إلى مشاهد عنف وقتال مريرة فى دمنهور. وهنا أيضاً يحاول هوويه أن يقلل من مقاومة أهالى دمنهور، فيظهرهم فى موقف المدافع السلبى وليس المهاجم، فإنهم "يختبئون داخل منازلهم ويخفون الحبوب"، ولكن فى الوقت نفسه يناقض نفسه بالإشارة فى الهامش إلى المواجهات العنيفة بين القوات الفرنسية وأهالى دمنهور.

ويبدو أن القوات الفرنسية كانت تخشى مواجهة المماليك الذين كانوا يقتربون منهم؛ ذلك لأن الاستعدادات كانت على أشدها من جانب القوات الفرنسية لشن المعركة ضد جيش المماليك. وفعلاً حدثت المواجهة بين القوتين، ويستعمل هوويه

هنا تارة صيغة المجهول ليروى أن القوات الفرنسية هُوجِمت من قبل المماليك وتارة صيغة المعلوم ليبين كيف تصدت القوات الفرنسية للعدو باستخدامها لسلاح المدفعية، وكيف أجبرت قوات المماليك إلى الانسحاب لتواصل تقدمها حتى الرحمانية على ضفاف النيل الذى كان بمثابة المنقذ حيث المياه الوفيرة والأراضى الزراعية الخضراء وقطعان الماشية. وتعتبر هذه المعركة الأولى التى يتواجه فيها الجيشان ولكن يصورها هوويه على أن النصر كان سهلاً للغاية للقوات الفرنسية؛ بسبب تفوقهم من حيث الأسلحة وإتقان الخطط الحربية الهجومية أمام عدو لا يملك بعد ذلك إلا أن ينسحب حتى وإن كان قد بادر بالهجوم.

وتجتمع كل القوات الفرنسية فى الرحمانية بعد وصول بقية القوات إليها سالمة، وإن كانت قد تعرضت لهجوم العرب فى الطريق. ومرة أخرى وفى الهامش يذكر هوويه بالاسم مقتل ثلاثة ضباط هم: "موويرير" و"كامين" و"جالوا" وآخرون وصل عددهم إلى 150 ضابطاً وجندياً.

والتناقض بين ما يكتبه هوويه فى نصه وما يذكره فى الهوامش يبدو واضحاً، ويعتمد هوويه على التركيبات اللغوية؛ ليحد من هذا التناقض، فيستخدم الجمل الفعلية فى سرده للأحداث ليصبح مدلولا الحركى والعملى فى صالح القوات الفرنسية. أما تركيبات الهوامش فكلها جمل اسمية توصف حالة عامة يصعب على القارئ أن يحسم الموقف لصالح أحد الطرفين.

ويبدو أنه كلما اقتربت القوات الفرنسية من هدفها أى الاستيلاء على القاهرة كانت الأمور تزداد صعوبة، ويبرز هذا واضحاً من الاستعدادت الكبيرة التى كانت تتخذها القوات الفرنسية، إذ كانوا يعلمون، وبونابرت على رأسهم، أنهم سوف يواجهون قوات المماليك مرة أخرى وهذا ما حدث فعلاً فى شبراخيت[17]. وقبل المواجهة يعطى هوويه تفاصيل الاستعدادات وخطط الهجوم إلى جانب ذكر عدد الكتائب (6) من مشاه وفرسان ومدفعية إلى جانب الأسطول النهرى الذى كان يصاحب القوات البرية.

ويسرد هوويه معركة شبراخيت فى صفحتين كاملتين[18]. ويبدو أنه قد أدرك أهمية هذه المعركة من حيث العدد الهائل للقوات الفرنسية ووجود جيش من المماليك ذى السمعة القوية. فالأمانة التاريخية أملت على هوويه أن يأتى بحقائق الأحداث حينما يذكر الهجوم على الأسطول النهرى الفرنسى وإخفاق قائده على التصدى للأسطول المملوكى. وبداهة يستعمل هنا هوويه صيغة المجهول أيضاً عندما يهاجم الأسطول الفرنسى، وصيغة المعلوم عندما تتحول المعركة النهرية لصالح القوات الفرنسية فيقول : "تم الاستيلاء على ثلاث مركبات مدفعية وجرح "بيريه" قائد الكتيبة النهرية، ولكن مع هذا استطاع بيريه "بشجاعته" أن يسترد المركبات الثلاث وأن يغرق بعض مراكب العدو المملوكى، وأن يجبر الآخرون على الانسحاب"[19]. استطاع إذاً "بيريه"، وفقط بمساندة القوات البرية، أن يسيطر على الموقف بعد أن أوشك أن يفلت منه زمام الأمور من شدة هجوم المماليك على أسطوله. ووفقاً لما يقوله هوويه فقد فقدت القوات الفرنسية فى هذه المعركة النهرية 15 إلى 20 قتيلاً بالإضافة إلى عدد من الجرحى من بينهم "بيريه" نفسه قائد الأسطول. وعلى الفور تبدأ المعركة مع وصول ثلاثة آلاف فارس مملوكى وأربعة آلاف نفر من عرب القبائل الذين أتوا، كما يقول هوويه "للسرقة وجمع الغنائم وليس للمشاركة فى المعركة"، وإن كان هوويه يعتبرهم قوة لا يستهان بها من حيث العدد.

وتختلف هنا نظرة هوويه للمماليك إذ يصفهم، ولأول مرة، بأنهم "ذوى جرأة ومحاربين أشداء"، ولكن يضيف فى نفس الوقت أنهم لا يستطيعون الوقوف ضد قوة نيران القوات الفرنسية و"النظم الحديثة المتبعة فى إدارة المعارك". ويحسم هوويه المعركة لصالح القوات الفرنسية بعد تقهقر وانسحاب قوات المماليك، تاركين وراءهم 300 قتيل على الأقل وعدد كبير من الجرحى. أما عرب القبائل فيشير هوويه أن دورهم كان ضئيلاً للغاية ولم يشاركوا فى المعركة. أما القوات الفرنسية فقد فقدت من 40 إلى 50 قتيلاً فقط و80 جريحاً تقريباً.

وهكذا يختتم هوويه هذا الجزء الذى يروى فيه نزول الجيوش الفرنسية الإسكندرية وزحفها إلى القاهرة محاولاً أن يثبت تفوق القوات الفرنسية أمام عناصر بلد لا تمثل قوة فعالة فى نظره.

وقد استند هوويه على البنية السردية بصيغها اللغوية ليظهر هذه العناصر فى حركتها ضعيفة، مفككة، غير فعالة، واستند أيضاً على المفردات من أفعال وأسماء وصفات ليصور هذه العناصر فى صورة سلبية للغاية وعلى نقيض تام بالصورة التى يعطيها للمؤسسة العسكرية الفرنسية، فاستغل هوويه اللغة لبناء خطاب يخدم أغراضه : إبراز عظمة القوات الفرنسية وإنكار قدرة الآخر على المقاومة.

ولكن "الخطابات ليست مسالمة على الإطلاق"[20]، ومعانيها تنشأ فى ماهو علاقات تعارض، إذا يخلق الخطاب المعارض فى طياته خطاباً مضاداً آخر، يكشف أن هذه العناصر المكونة من الأهالى والمماليك والبدو شكلت حركة جماعية شاملة تصدت للقوات المغيرة، وشلت حركتها فى بعض الأحيان وكبدتها خسائر، وأخرت بالتأكيد تقدمها. ويمكننا بالتالى اعتبار هذه العناصر قوة رافضة فعالة، أى حركة مقاومة أمة على عكس ما ذهب إليه هوويه.

ثورة القاهرة الأولى

ورواية ثورة القاهرة الأولى خير دليل على عدم اعتراف هوويه بهذه القوة الرافضة للوجود الفرنسى فى مصر. فهو كما يذكرنا فى أقل من صفحة يحاول أن يقلل من أهميتها فيشير إليها على أنها "تمرد عام وانتفاضة شعبية"، ولكن نراه يعنونها فى الهامش "ثورة القاهرة والأقاليم من 22 إلى 26 أكتوبر"[21].

ويحيط هوويه هذه الثورة بظروف تنكر للشعب المصرى المبادرة بالقيام بها، ففى نظر هوويه تكمن أسباب الثورة فى نظم الإدارة الجديدة للبلاد[22] التى وضعها بونابرت بعد الاستيلاء على القاهرة، ويعتبر هوويه تذمر المماليك بعد تضررهم من هذه الإجراءات هو من الأسباب الرئيسة لقيام ثورة القاهرة الأولى، إلى جانب نداء

الباب العالى إلى الجهاد ضد الغزاة. فيصور هوويه الثورة على أنها ليست إلا تمرداً من قبل المماليك دفاعاً عن مصالحهم الشخصية وإذعاناً لنداء السلطان العثمانى[23].

ونستشف هنا أيضاً من خطاب هوويه هذا التناقض الذى أشرنا إليه من قبل، ففى الوقت الذى يحاول فيه أن يصور الثورة على أنها تمرد، يضيف بعد ذلك أن الإجراءات الجديدة للإدارة أثارت الغضب فقامت الثورة.

ولكن ينكر هوويه وجود الآخر فيشير إلى الثوار بالضمير الغائب "on" فى عبارات مثل : هاجم، قتل. ومن خصائص هذا الضمير أنه لا يشير إلى أحد بالذات ويزيل من تأثير فاعلية الفاعل[24]، فهو لا يحسم ولا يحدد من هاجم الفرنسيين ومن قتلهم. وإنكار الفاعل يأتى مع استخدام أفعال تشير إلى قوة الثورة، ولكن مستخدمة هذا أيضاً فى صيغة المجهول : فالفرنسيون هوجموا وقتل منهم أكثر من 500 جندي، كما قتل "المتمردون" الجنرال "دوبوي" الذى كان قد هرع "لتهدئة" الأوضاع[25].

ويستمر التناقض فى خطاب هوويه لأنه يعطى القارئ عكس الصورة التى يريد أن يفرضها. ففى مقابل إنكار الخصم والتقليل من شأنه، يحكى هوويه كيف أخمدت الثورة : "قذفت القوات الفرنسية المدينة بالقنابل"، "كان تبادل النيران على أشده فى الشوارع"، "أجبرت القوات الفرنسية "عشرين ألف متمرد" على الاختباء فى جامع الأزهر، وحاصرت قرابة الألف داخله وعند رفضهم الاستسلام قامت بقتلهم جميعاً"[26].

وتشير شدة رد الفعل الفرنسية لإخماد الثورة على أنها كانت حركة شعبية عامة رافضة وقوية من حيث اتساع رقعتها فهى شملت كل المدينة، ومن حيث العدد الهائل الذى اشترك فيها (عشرون ألف شخص)، ومن حيث شدة المعارك داخل المدينة نفسها وخاصة من حيث عدد الضحايا من كل جانب وفوق كل هذا من حيث مقتل الجنرال "دوبوى" نفسه باعتباره حاكما على القاهرة.

وعدم الاعتراف بالآخر يأخذ هنا بعداً آخر عن ما كان عليه فى الحدث الأول، فرفض هوويه للطرف الآخر يزداد كلما ازداد حدة رفض الآخر له، فرفضه للمصرى فى الحدث الأول يعتمد أساساً على وصف القوى للضعيف، وصف المتحضر للبدائى. أما فى الحدث الثانى يأتى الرفض محاولة لإنكار فاعلية الآخر ومحاولة لإبطال تأثيره، ذلك أن قسوة القوات الفرنسية لإخماد الثورة يتعارض مع محاولة هوويه لتصويرها على أنها مجرد تمرد قام به فوضويون لا أكثر ولا أقل، خاصة أنه يضيف بعد سطور قليلة أنه قد تم القبض على الرؤوس المنظمة للثورة وتم إعدامهم، وهذا يدل على أنها لم تكن انتفاضة إنما كانت حركة شعبية، هدفها مقاومة محتل وإجباره على الجلاء عن البلاد.

مقتل كليبر

وتكتمل البنية السردية فى خطاب هوويه عندما يروى مقتل كليبر، وهو الحدث الثالث الذى سنتناوله لاستكمال تحليلنا لمفهوم الرفض المضاد.

يقص هوويه مقتل الجنرال كليبر محاولاً نقل الأحداث كما وقعت بالفعل ليكسب روايته أقصى درجة من المصداقية، آخذاً فى الاعتبار ظروف المكان والزمان : الساعة الثانية عشرة ظهراً فى منزل الجنرال "داماس" المطل على ميدان الأزبكية. وآخذاً أيضاً فى الاعتبار المناسبة : حفل غذاء جمع جنرالات من الجيش الفرنسى والمهندس الذى قد كلفه كليبر ببعض الأشغال[27].

يحاول هوويه أن يعرض حادث مقتل كليبر محاكاة تامة وبشكل تفصيلى ودقيق ليعطى الانطباع أنه شاهد عيان وينفى عنه بذلك مبدأ احتمالية حدوث الفعل أو "مبدأ التخييل"[28]. ومن هذا المنطلق يسرد هوويه بدقة متناهية كيف تم مقتل كليبر مستخدما هنا صيغة المعلوم المباشر التى تضع تحت أعين القارئ الفعل نفسه والمسئول عنه، فلا يحاول هوويه هنا إخفاء شخصية الفاعل، فهو "تركى اختبأ فى حديقة المنزل ثم خرج من مخبئه وانطلق نحو كليبر وطعنه فى أسفل البطن".

ويشير هوويه إلى الفاعل مرة ثانية، ويستخدم هذه المرة كلمة "القاتل" الذى ينطلق هذه المرة نحو المهندس، ويطعنه عدة طعنات، ثم يرجع إلى كليبر ليطعنه ثلاث مرات، ولكن كليبر كان قد لفظ أنفاسه من أول طعنة. ويواصل هوويه سرد تفاصيل الحادث من هروب القاتل إلى القبض عليه ولكن الذى يهمنا هنا هو الجزء الذى يروى فيه التحقيق مع القاتل.

ويحرص هوويه على إبراز مقتل "كليبر" كأنه عمل فردى قام به "غريب من حلب يدعى سليمان الحلبى"[29]. ويأتى هوويه بنص التحقيق الذى تم على يد يونانى يدعى "برتلمى"[30] ليعضض هذه الفكرة. ويقول التحقيق إن "سليمان الحلبى" كان ضحية متآمرين فى حلب، وأنه أقدم على مقتل "كليبر" ليخلص أبيه من قبضة حاكم حلب الذى أودعه فى السجن، ولكن فى نفس الوقت يقول التحقيق على لسان "سليمان الحلبى" نفسه أنه اعتبر مقتل كليبر "عملاً مقدساً" وفعلاً يحمد عليه[31]. ولا تستوقف هذه التصريحات الأخيرة هوويه؛ إذ ما يهمه هنا هو تبرئة الشعب المصرى من هذه التهمة وإثبات عدم تورط الشيخ السادات فى مقتل كليبر؛ حيث إن الشيخ السادات كان على رأس متمردى ثورة القاهرة الثانية. ويأخذ هوويه هذا الموقف ليس حباً فى الشعب المصرى إنما كما يقول: "لتجنب مجزرة فى شوارع القاهرة" يقوم بها الجنود الفرنسيون انتقاماً لمقتل كليبر. ولا يعطى هوويه أية إشارة لرد فعل أهالى القاهرة لهذا العمل فيذكر فقط أنهم اختبأوا فى منازلهم وأن نتيجة التحقيق تشير بوضوح إلى أنهم لا يد لهم فى هذه "الجريمة".

بيد أن الحكم بالإعدام الذى نُفذ فى سليمان الحلبى لا يمكن أن ينظر له كمجرد عقاب، وإنما إنذار قوي لكل مصرى يحاول أن يثور، فتصبح العقوبة سلاحاً فى يد السلطة لقمع أية مقاومة أو رفض. ويدرك هوويه المغزى الرمزى لعقوبة إعدام سليمان الحلبى التى تمت فى نفس يوم توديع جثمان كليبر فى احتفالية كبيرة و"مؤثرة"، ففى الوقت الذى كانت تطلق المدافع فيه تحية للجنرال كليبر، استمر تعذيب سليمان الحلبى لمدة أربع ساعات كاملة إلى أن لفظ أنفاسه.

ولكن هذه "الجريمة" نالت من أكبر رأس فى الجيش الفرنسى المحتل واستطاعت أن تزعزع مؤسسة قوية كان "كليبر" ركيزتها الأساسية فى مصر، كما أنها، وهذا حسب رواية هوويه، أدت إلى وضع الجنرال "مينو" على رأس الجيوش الفرنسية فى مصر، كما يعتبر هوويه هذا القرار بمثابة كارثة، وسبب كل المشاكل التى تعرضت لها القوات الفرنسية فيما بعد.

وإذا كان هوويه قد استدرك رمزية طقس الإعدام[32]، فلم يتدارك رمزية مقتل كليبر. فهو لم يتناوله من منظور المقاومة للاحتلال، ولم يأخذ فى الاعتبار احتمال مجيء المقاومة من الخارج أو أنها سوف تلقى مساندة من الداخل، وأهمل هوويه عن عمد رمزية دلالة المقاومة فى هذا الحدث مركزاً على النتيجة السياسية للحدث التى تخص الجيش الفرنسى لا المجتمع المصرى، فالنظرة التى يلقيها على الحدث هى من وجهة نظر الذى يمتلك القوة والسلطة، ويترجم خطاب هوويه هذا الموقف فى التركيبات اللغوية والمفردات المستعملة ومعانيها والتى تنطلق من مواقع المؤسسات التى ينتمى إليها الخطاب وفى حالة هوويه تكون المؤسسة العسكرية، وهى التى تحدد "ما يمكن أو ما ينبغى قوله"[33] وتملى عليه تجاهله لرمزية مقتل كليبر واعتباره مجرد جريمة يعاقب عليها.

* * *

ويتضح من خلال تحليلنا لخطاب هوويه أنه اتبع عملية خطابية أنتجت فى النهاية نصاً موجهاً رغم ادعائه، تعوزه المحايدة التاريخية وينتمى إلى الخطاب الأيديولوجى، اعتقد هوويه أنه نجح من خلاله الوصول إلى أهدافه عن طريق وضع بنية دلالية تفيد بالآتى:

تقديم صورة ناجحة للقارئ للحملات على مصر على المستوى الحضارى والعسكرى، وذلك باستخدامه الصيغ اللغوية التى ترفع من شأن المؤسسة العسكرية التى ينتمى إليها، فاستخدم صيغة المعلوم والأفعال الحركية ذات الدلالة

الإيجابية لتخدم الرؤية الحركية التى يريد أن يصل إليها. وللوصول إلى هذا الغرض، كان على هوويه أن يعمل على تهميش صورة المقاومة المصرية، فصوَّر المجتمع المصرى على أنه مجتمع مستسلم، بدون إرادة، وذلك عن طريق أيضاً الصيغ اللغوية مثل صيغة المجهول والألفاظ التى تؤدى إلى معانى سلبية، فيخدم بذلك الرؤية السكونية التى يريد أن يصل إليها.

ولكن أثار رفض هوويه للمجتمع المصرى فى الوقت نفسه عملية خطابية ضمنية موازية للأولى تفيد برفض مضاد متمثلاً فى مقاومة المجتمع المصرى للاحتلال الفرنسى. إن الخطاب الأيديولوجى المبنى على مفهوم الصراع يتضمن حتماً طرفين متصارعين، وفى إنكاره للآخر من خلال الأبنية النحوية والدلالية، أوجد هوويه الطرف الآخر رافضاً للأوضاع، وهكذا تضمن خطاب هوويه الرفض المضاد الذى تمثل فى حركة جماعية منظمة شملت الجيش المملوكى والأهالى والبدو، هى بمثابة مقاومة أمة، والذى تمثل أيضاً فى حركة جماعية غير منظمة قام بها شعب القاهرة، ونعتبرها مقاومة شعب وأخيراً تمثل فى حركة فردية رمزية، نالت من أكبر رأس فى المؤسسة العسكرية الفرنسية، ونعتبرها مقاومة شعب وأمة جسَّدها سليمان الحلبى.

* * *

الهوامش

(1) الوثيقة محفوظة فى دار الوثائق القومية بالقاهرة وتحمل رقم 2402.

(2) هوويه، الحملة على مصر، المقدمة، ص3.

(3) د. صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، 1992، ص276.

(4) نفس المرجع، ص 279.

(5) هوويه، المقدمة، ص 3.

(6) د. صلاح فضل، المرجع السابق، ص315.

(7) المرجع السابق، ص255.

(8) د. عبد السلام المسدى، اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، تونس 1986، ص122.

(9) "إن خطاب السلطة هو خطاب الحقيقة"، انظر :

J.C. Coquet, La quete du sens. Le langage en equestion, PUF, 1997, p.149.

(10)J.C. Coquet, Op. Cit., p.76; E. Benveniste, Problemes de Linguistique generale, vol.I, 1966, p.25.

(11) هوويه، ص 43.

(12) هوويه، ص49.

(13) هوويه، المقدمة، ص4.

(14) هوويه ، ص 43.

(15) يحدد هوويه فى المقدمة أن تأريخه للعمليات العسكرية فى مصر وسوريا هو بمثابة رد على كل من حاول أن يسيء إلى حملة نابليون على مصر، متهماً إياه أنه كبد الجيش والدولة خسائر كبيرة. انظر هوويه، المقدمة، ص3.

(16) د.صلاح فضل، المرجع السابق، ص178.

(17) اختلط الأمر على هوويه فى تسمية هذه المعركة، فهى فى الحقيقة موقعة أمبابة وليست شبراخيت، ويلاحظ أن هوويه يروى الأحداث بعد قرابة ثلاثين سنة من حدوثها.

(18) هوويه، ص127 و 128.

(19) هوويه، ص 127.

(20) ديان مكدونيل، مقدمة فى نظريات الخطاب، ترجمة وتقديم د.عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2001، ص109.

(21) هوويه ، ص135.

(22) يذكر هوويه أن القوات الفرنسية كانت تعمل على وضع إدارة جديدة لمصر للاستفادة من الموارد والثروات الموجودة فى البلاد من خلال لجان فى الأقاليم لوضع حد لاستغلال المماليك، كما يذكر تأسيس ديوان مكون من الأعيان للنظر فى قضايا البلاد المختلفة، انظر هوويه، ص 135.

(23) هوويه، ص 135.

(24)H.Weinrich, Grammaire textuelle du français, Didier-Hatier, 1989, p.78.

(25) هوويه، ص135.

(26) هوويه، ص 135.

(27) هوويه، ص 195.

(28) د. صلاح فضل، المرجع السابق، ص306 : "المحاكاة تتحدد بأنها تعنى الحد الأقصى من البيانات والأدنى من المرسل".

(29) هوويه، ص 197.

(30) حسب الجبرتى برتلمى هذا هو الذى كان المصريون يسمونه "فرط الرمان".

(31) هوويه، ص 198.

(32) ديان مكدونيل، المرجع السابق، ص113.

(33) نفس المرجع، ص181.

* * *

قراءة سيميوطيقية
لبعض لوحات قسم الآثار
فى كتاب وصف مصر ورحلة فيفان دينون

أ.د. عايدة حسنى

يعتمد هذا البحث على منهج التحليل السيميوطيقى الذى يتيح للباحث استعمال أدوات تحليلية غير مألوفة فى المناهج المعتادة ، وعلى الأخص تلك الأدوات التحليلية التى حددتها "مدرسة باريس" والتى أرسى مبادئها الباحث الشهير "جريماس".

وتحدد مدرسة باريس (والتى صارت من أهم التيارات الفكرية فى مجال السيميوطيقا أو علم دراسة العلامات) عدة نقاط منهجية منها، وأهمها فى رأينا، نقطة "التوافقات المحورية" - أو ربما نستطيع ترجمة المصطلح الفرنسى أيضا "بالمحاور التوافقية " لأن المصطلحين(فكرة محورية ، أو محور فكرى) يعبران عن مضمون واحد له وجهان: وجه إيجابى ووجه سلبى: ومثال على ذلك أنه لو قال شخص بأنه سيخرج بالمظلة لأن الأمطار تسقط، وقال آخر إنه يشعر بالحر، فمن الملاحظ أن كلا القولين ينتمى لنفس الفكرة المحورية أو المحور الفكرى لأنهما يدوران حـول الجو، ولكن يمكننا أن نحدد أن أحدهما راض بالحال بينما الآخر منزعج من شعوره بالحر، إذن فحالة الأول إيجابية وحالة الثانى سلبية.

ولا بد من التحديد هنا أن طرفى المحور – الإيجابى والسلبى - لا يعادلان

بالضرورة فكرة اللفظ وعكسه على مستوى الكلمات وإنما هما ينتميان لفكرة واحدة بوجهيها المختلفين ، كما رأينا فى المثال الذى ضربناه ، ولكن اللفظ وعكسه (على مستوى الألفاظ المفردة) من العناصر التى تدخل ضمن ذات المحور. وعلى كل فهذه الأفكار النظرية ستتضح للقارئ من خلال قراءته للدراسة، لأن اهتمامنا ينصب هنا على العمل ذاته الذى نحلله. وينبغى فقط الإشارة إلى أن باحثى "مدرسة باريس " قد حددوا خمسة محاور أساسية تأتى بعدها بقية المحاور المختلفة. والمحاور الأساسية – وسميت كذلك لأنها لا يكاد يخلو منها أى نص- هى نوع من التقسيم المنطقى للفكر البشرى لأن أى نص يعبر عن الفكر لابد وأن يتحدث عن شخص أو كائن أو شىء. ولابد وأن يحدده بمكان وزمان. والحديث يتسم بالاستمرارية أو عدمها، وتظهر خلاله مشاعر محددة قد تكون إيجابية وقد تكون سلبية. وهكذا تكون المحاور الأساسية الخمس هى الآتية:

1- الحى (فى مقابل) غير الحى

إنسان حيوان جماد نظرى

مذكر مؤنث مذكر مؤنث

2- المكانية فى مقابل اللامكانية

3- الزمانية فى مقابل اللازمانية

4- الاستمرارية فى مقابل اللااستمرارية

5- الشعور السار فى مقابل الشعور غير السار (المضجر)

أما بقية المحاور فهى تختلف باختلاف سياق النص فإذا كان أمام عينى القارئ نص يتحدث عن السيارات فلا شك أن محور السرعة سيكون من مكونات المعنى الرئيسية فى ذلك النص، وكذلك محورى المتانة والتقنية المتقدمة. وقد يتساءل البعض عن الكيفية التى يستشف بها وجود أحد محاور المعنى فى نص ما. هنا يجيب باحثو " مدرسة باريس " بإجابة " السيمة " (على وزن " تيمة ") وهى أصغر وحدة

معنى. على سبيل المثال ، لو حللنا كلمة مثل كلمة " طالبة " إلى وحداتها الصغرى سنجد أنها: حى / إنسان / مؤنث يرتبط بالجامعة والدراسة.

(حيث إن المدرسة ترتبط بها كلمة "تلميذة") فإذا ما وجدنا تكرارا فى النص لنفس السيمة نقول بوجود المحور0 على سبيل المثال ، فى نص للكاتب الفرنسى "جورج بيريك" بعنوان: "أنا أسكن باريس" "نجد فى هذا العنوان وحدتين متشابهتين فى كل من "أسكن" و "باريس". فالكلمتان تدلان على فكرة المكانية وبالتالى يمكننا الجزم بوجود الفكرة فى العنوان ، مما يشير إلى الاحتمال الأكبر لوجودها داخل النص ذاته حيث إن العنوان ما هو إلا "برنامج" قراءة النص.

هذا المنهج إذن يشبه فك شفرة علامات النص المختلفة وقد آثرنا تطبيقه (رغم وجود مناهج عديدة لقراءة الصور) فى تحليلنا للصور المختلفة لأنه دقيق، والصورة فى رأينا مثل النص التحريرى، صُممت وفقاً لمخطط وضعه مؤلفها بدقة (ويكفى للتأكد من فكرة التخطيط والتنظيم قبل عرض العمل الفنى – نصا كان أو صورة – على الجمهور المتلقى، دراسة نصوص أو أطوار الإعداد المختلفة، وفقاً لما تقوم به بعض التيارات الدراسية النقديه التى تنكب على دراسة الأطوار المختلفة للعمل حتى اتخاذه شكله النهائى. وهناك أيضاً مذكرات صاحب العمل التى تثبت ذلك التطور التدريجى والذى إن كشف عن شىء ذى أهمية فهو إنما يثبت أن كل عمل يخرج للمتلقى يكون قد مر بمراحل من التنسيق الداخلى حتى يؤدى دوره فى توصيل المعنى).

بدأ الاهتمام بدراسة "الصورة" فى فرنسا فى الستينيات وازداد فى السبعينيات، وفقا لمنهج دراسة العلامات بالمعنى التحليلى كما ذكرنا (فهناك بالطبع دراسات كثيرة سابقة تهتم بالتيارات الجمالية أو الفلسفية أو غيرها مما تم الاعتياد عليه فى دراسة كل ما هو رسم أو ألوان ، هذا بالإضافة إلى التحليلات النفسية).

فى تلك الآونة كان التفكير السيميوطيقى يركز على درجة التشابه بين العمل التصويرى والواقع الذى أخذ عنه. وإذ يتساءل قارئ هذا المقال عن المغزى

التاريخى لهذا التحليل – أو على الأقل لهذا المنهج – فإننا نؤكد له أنه يسمح لنا بتناول زاويه مختلفة لربما ساعدت على المزيد من التعمق فى رؤى الآخر.

نعمد إذن إلى فك شفرة بعض لوحات قسم الآثار من وصف مصر بواسطة التحليل السيميوطيقى، فنلقى الضوء على المحاور المختلفة لنستشف منها قراءة جديدة أو على الأقل مختلفة الزاوية.

الواقع وتصويره

تصوير الواقع فى تناول وصف مصر لا يقدم فقط للمتلقى ما يطلق عليه الباحثون مصطلح analogon أو "وحدة المماثلة" وإنما هو أيضا يقدم له ما يمكننا أن نطلق عليه اسم وحدة" المماثلة – زائد" أى أننا إذا تأملنا بعض اللوحات عن كثب سنجد أنها بالإضافة إلى الواقع الذى تصوره تزيد إليه بعض العناصر، فتجعل المشاهد تتراوح ما بين التقليد الوفى للواقع المرئى من جهة والخيال من جهة أخرى؛ أى أن المحور التوافقى يدور حول الخيال وعدمه أو بالأصح الواقع وغير الواقع.

وإذا نحن بإزاء هذا التحليل يجب ألا ننسى الدور الذى لعبه كل من كتاب "وصف مصر" و"كتاب الرحلة إلى مصر السفلى و العليا" الذى دونه " دينون " والذى كان ضمن العلماء الذين صاحبوا نابليون إلى مصر. فقد عمل الكتابان – سواء كان ذلك عمدا أم عن غير عمد – إلى تغذية الخيال الغربى حول الشرق، ولكن يمكننا أن نضيف إلى ذلك مرجعية ثقافية محددة سوف نتكلم عنها بعد قليل. وقد ورد الكثير عن دور الخيال فى تكوين بعض اللوحات ، وعلى الأخص من قبل الباحثين المنتمين لثقافات غير فرنسية من أجل انتقاد وتفنيد عمل مثل وصف مصر...على سبيل المثال أشار " أندرسون " و " فوزى " * – وإن كان لهذه الإشارة مغزى آخر على الأخص فى الثمانينيات – إلى جو مسرحى يحيط بتصوير قصر قارون تحت ضوء القمر (اللوحة 56) ، وانتقدا أهرامات الجيزة التى تظهر عند شروق الشمس (اللوحة 60) والمشاعل المشتعلة داخل السرداب الكبير بهرم خوفو (اللوحة 62)، وكذلك لم يريا بعين الارتياح إعادة التكوين الهندسى للمعابد التى

قام بها " ديفيلييه " "وجولوا " (رغم أن هذا هو ما يفعله المهندسون فى المعتاد). وبصرف النظر عن النية فإن ما يلفت النظر هنا هو هذه الصفة التى تم الإشـارة إليها، أى وجود العنصر الخيالى فى عمل مفترض أساسا أنه علمى.... فكيف ؟ ولماذا ؟

من المعروف أن اللوحات ليست وليدة يد واحدة وإنما هى متعددة الأيدى؛ إذن لنا أن نقترح وجود خطة عمل جماعية تربط بين تلك اللوحات التى أضيفت إليها عناصر خيالية... مما يعنى أن ما نراه نصب أعيننا يعادل فكرا موحد رغم تعدد الأيدى التى رسمت تلك اللوحات ذات الطابع الخيالى، مما يؤكد رؤيا "فرنكاستل" من أن التمثيل التصويرى ما هو إلا ظاهرة ثقافية.... وقد أتاحت دراستنا لتلك اللوحات بالتمييز بين ثلاثة أنواع من الخيال،هى الآتية:

أ - خيال يتصل بالآثار والأبنية.

ب- خيال يتصل بشخصيات غير واقعية.

ج- تمثيل لبعض العناصر المستوحاة من الواقع.

وسوف نتناول كل منها على حدة، حيث إنها ستقودنا إلى تحديد المغزى التاريخى:

أ - الخيال المتصل بالآثار والأبنية

ونعنى بذلك كل التفاصيل المضافة إلى التمثيل التصويرى للمعابد والأبنية الفرعونية ومن بينها ما ذكره "فاتان" عن مجموعة من النقوش لعامود فى معبد دندرة تم تكرارها على كل الأعمدة الأخرى فى لوحة رسمها "ديفيلييه" "وجولوا" وقد لاحظ نفس الاتجاه لدى "شابرول" و "جومار" فى تصوير آخر لمعبد دندرة/ البوابة الشمالية إذ يظهر النهر وراء البوابة، وفوقه جسران يؤديان إلى مساكن ترجع إلى زمن المصورين.

ب - الخيال المتصل بشخصيات غير واقعية

وهذا أيضا لاحظه " فاتان " حيث يظهر بجانب المعبد فى اللوحة المذكورة

للبوابة الشمالية لدندرة موكب لعبادة " ايزيس " يمر عبر الأعمدة، وخارج المعبد يرى كاهن يتضح من ملابسه أنه ينتمى إلى عصر مختلف، وهذا على سبيل المثال لا الحصر. فاللوحات التى تحاول جاهدة تقديم مشهد فرعونى تاريخى تتخللها عناصر تنتمى للقرن الثامن عشر ؛ أى أن المشهد كما رآه الرسام وصوّره ليس هو ما يراه المتلقى، وإنما أضيفت إليه شخصيات من الماضى السحيق، بل ومن أكثر من زمان.

ج - عناصر بشرية مستوحاة من الواقع

يبعث وجودها فى حد ذاته- داخل تلك اللوحات - على الدهشة، ويمكننا أن نقسمها بدورها إلى ثلاثة أقسام:

1- شخصيات من الفلاحين تم رسمها خارج المعابد، وهى نفس المشاهد التى نرى فيها كهنة مصر الفرعونية بينما الفلاحون من نفس زمن الرسام.

2- الجنود الفرنسيون الذين نراهم وسط الآثار، ووظيفتهم فى اللوحات واضحة ، إذ تحدد الزمن بالإضافة إلى الحدث التاريخى ذاته.

3- الرسامون: فإننا نرى فى ركن من أركان اللوحات رساما يمارس مهنته.

وجدير بنا ألا ننسى أن هؤلاء المصورين علماء أوعلى أضعف الإيمان يرسمون ضمن مشروع علمى. ومن هذا المنطلق فإن ما نعتبره مغالطات تاريخية يتناقض وطبيعة الأمر. لنا إذن أن نتساءل عن ضرورة وجود تلك العناصر وسط سياق علمى/ تاريخى.

وإذا حاولنا الإجابة عن التساؤل البرجماتى لوجود تلك العناصر وعلى الأخص الشخصيات باختلافها، بينما يمثل القسم الثانى فى "وصف مصر الدولة الحديثة" وتصور لوحاته عناصر الشعب المختلفة بدقة ، فإننا لا نطرح فقط قضية جمالية أو دلالية وإنما هى أيضا قضية تاريخية و فكرية.

والإجابة عن ذلك التساؤل لا تكمن فى اللوحات ذاتها وإنما فى المتلقى الذى خصصت له اللوحات. يجب ألا ننسى أن اللوحات تهدف فى الأساس الجمهور الفرنسى، لذا فهى تتبع "برنامجا" يتفق وإياه، وهذه الوظيفة البرجماتية تزداد

وضوحا إذا عرفنا أن ظاهرة اليد الثانية التى تضيف إلى الرسم الهندسى الشديد الدقة والمقاييس شخصيات ما كان لها أن تتواجد بها تظهر بشكل لا يقبل الشك فى لوحات عديدة. وقد ثبت ذلك بمقارنة الأصول المخطوطة يدويا باللوحات المطبوعة، على الأخص وأن الرسم الأصلى كان يحفر على ألواح الطباعة بواسطة متخصصين آخرين. ولربما كان "للأيدى الثانية" رؤية محددة فى رغبة تشبيه تلك اللوحات بما يطلق عليه-فى إطارالثقافة الفرنسية- "صور إبينال"، وهى نوع من المنتج الفكرى الشعبى يصدر فى مدينة "إبينال" الفرنسية ويعمد إلى تقديم الأحداث بشكل مبسط وملىء بالرسومات الملونة التى تجتذب غير المثقفين ببساطتها فتروى لهم الحدث وكأن هناك راو يمتع جمهورا برواياته ذات الخيال المتألق.

من جهة أخرى يمكننا قراءة "رسالة" زمنية فى بعض العناصر المضافة فعندما يتأمل المتلقى لوحات للأهرامات ، ويرى بها مجموعة من الجنود بالزى العسكرى الفرنسى سيتمكن من تحديد الحدث التاريخى ذاته، وكذلك عندما يرى زيا أوروبيا يتكون من بنطلون منتفخ وسترة تشبه المعطف (أو الردنجوت)، بينما صاحب الزى يقف تحت الشمس وسط الآثار، مرتديا أيضا الحذاء ذى الرقبة العالية، فإن ذلك المتلقى سيتمكن بلا شك من تحديد الموسم الذى يشير إليه ذلك الزى وعلى الأخص إذا كان المتلقى فرنسى. إن قيمة الزى أو وظيفته تتكرر بوجه خاص فى لوحات الآثار التى قام العديدون برسمها. وسواء كانوا نفس الرسامين هم الذين أضافوها، أم أن تلك العناصر الدخيلة أضيفت فيما بعد فإن وظيفتها لا تتغير، فهى إن دلت على شيء فإنما تدل على "زمن" بعينه، والرؤية الخاصة بذلك الزمن (ولا نقصد من ذلك الرؤية الجمالية على وجه الخصوص وإنما بوجه عام رؤية تعادل اتباع لشفرة محددة ويسهل على المتلقى فهمها)؛ أى إننا بهذا الشكل بصدد ما يُعرف بتاريخ الأفكار.

ونتوقف لحظة لنذكر قارئنا بأن الثورة الفرنسية أعطت للصورة حقها فى الأداء

الفعلى، إذ عرفت كيف تستخدمها لصالحها، كما أن الصورة لم تعد رسما زيتيا لشخصية من شخصيات المجتمع الهامة ولم تعد القواعد الجمالية ذات القواعد وإنما بدأ الاهتمام ينصب على تصوير الشعب فى حياته اليومية وحركاته. وهذا يفسر جزئيا اهتمام العلماء والرسامين بنقل صورة هذا الشعب، مبتدئين بلوحات قسم الآثار حتى يقدمونه بشكل أكثر دقة فى قسم الدولة الحديثة. هكذا يبدو قسم الآثار وكأنه مقدمة لمحور الأحياء فى القسم التالى له.

إن الاهتمام بالأزياء المختلفة يمكن إرجاعه إلى أسباب عدة ذكرنا منها تحديد زمان الحدث، تحديد الموسم، تحديد المكان، وتاريخ المكان وحاضره (الأزياء القديمة فى مقابل الأزياء الحديثة لسكان مصر). وهناك سبب آخر يمكننا أن نعزو إليه أيضا ذلك الاهتمام بالزى ؛ فالمسرح من الأنشطة التى ينصب فيها الاهتمام على الديكور بالنسبة للخلفية والإضاءة بالإضافة إلى الأزياء من أجل بلورة المشهد الدرامى، تأثرا بأعمال الأوبرا الايطالية التى عرفتها فرنسا خلال القرن الخامس عشر فانطبعت فى مكوناتها الثقافية، ومن جهة أخرى فإن وجود الرسامين ممثلين فى اللوحات يشبه وجود الراوى على خشبة المسرح، فى المسرح الإغريقى والذى يعتبر أم الفكر المسرحى الغربى. إذن فنحن هنا بإزاء جذورثقافية وتاريخيه عميقة، وإذا دققنا النظر فى لوحات قسم الآثار من وصف مصر لوجدنا كل العناصر المسرحية من خلفية المكان والشخصيات الرئيسية والشخصيات الثانوية، والرسام / الراوى بالإضافه إلى الإخراج الخاص الذى يوزع الشخصيات الحية (مع الكائنات التي تستعملها فى حياتها اليومية، وفقا لنشاطها) على زوايا اللوحة المختلفة. نحن فى هذه اللوحات أمام إرث ثقافى يرجع بنا إلى قرون ماضية، وليس فقط إلى زمن تنفيذ اللوحات. والآن ننتقل إلى التحليل السيميوطيقى للمشاهد الطبيعية والآثار فى رحلة دومنيك فيفان دينون التى تحمل عنوان: " رحلة إلى مصر السفلى والعليا خلال حملة الجنرال بونابرت".

صدر كتاب "دينون" قبل صدور وصف مصر فصار هكذا بمثابة المقدمة له،

ولكن يمكن اعتبار كتاب "دينون" أكثر قربا من القارئ العادى، على مستوى النص، فهو كثيرا ما يوجه له حديثه، طارحا عليه الأسئلة بأسلوب يجعل المتلقى راغباً فى الاستمرار فى قراءة ذلك الكتاب الذى يتبع نفس منهجية وصف مصر أى إنه ليس نصا فقط وإنما تملؤه الصور التى رسمها "دينون" لمصر.. وصور المشاهد الطبيعية والآثار كثيرة وتستحق وقفة أمامها.

جدير بالذكر – قبل الاستغراق فى التحليل – أن قطع المسافات يُعتبر فى ثقافات عديدة وسيلة لتملكها، ولكن قطع المسافات عبر المكان لا يقتصر على الحركة فيه، فالنظرة هى أهم عنصر، لأن النظرة هى التى تنقل للإنسان التفاصيل التى يراها فتنتقى ما يهم المرء وفقا لطبيعة اهتماماته العسكرية كانت أم هندسية، أو إن كان رساما أو بكل بساطه مسافرا يبغى مشاهدة العالم ؛ لذلك ما إن بدأ "دينون" رحلته عبر البحر المتوسط حتى بدأ يصف ما يراه فى طريقه من فرنسا إلى مصر. ولا شك أن نفس ما يصف النص هو ما يراه مسافر اليوم، خاصة وأن مائتا عام ونيف لم تغير السطح الجغرافى للمنطقة، فهو يشير إلى المرور بجانب جزر كورسيكا وسردينيا وصقلية، ويرسم كل ما يلفت نظره.

ويمكننا اعتبار النظر ذاته من أقوى العناصر فى هذا العمل، فالمؤلف، بصفته رساما، يعتمد كثيرا على عنصر الرؤية، بل ويختم أيضا نصه قائلا بأنه: "شاهد عيان رسم كل شيء ووصف كل شيء عن الطبيعة" (أى من المصدر المباشر).

نظرة دينون

الرحلة إذن تندرج تحت شعار: "النظرة النشيطة"، التى لا تتوقف عند النظر، ولكنها تمتد إلى الفعل الذى يتُرجمها نصا ورسماً.

وأول ما تنصب عليه فى مصر تلك النظرة النشيطة هى ميناء الإسكندرية الذى يلمحه المؤلف من بعيد فيرى الساحل يمتد كشريط أبيض على أفق البحر الأزرق... ويرسم الإسكندرية من على مسافة 3 فراسخ. ويخبر المؤلف قارءه بأنه مضطر لرسم هيئة الأشياء التى تحلو لعينيه وليس التفاصيل، حيث إن الوقت لا

يسعفه لذلك. ترى هل هو الوقت حقا، أو إن المؤلف يترك مجال التفاصيل لكتاب وصف مصر الذى لن يخرج إلى الوجود الفعلى إلا بعد كتابه بعشر سنوات؟ إذ يجب ألا ننسى أنه كان عضوا ضمن مجموعة العلماء التى جاءت لرصد أقل أو أبسط تفاصيل الحياة فى مصر، ويستمر المؤلف فى تعليل سبب رسمه للمناظر من بعيد بضيق الوقت من جهة، لكنه من جهة أخرى يضيف شيئا جديدا، وهو أن رؤيته للأشياء تكون دائما أجمل من بعيد، وتنطلى هذه النظرة على حصن "أبو قير"، ومشهد القاهره بمآذنها العديدة التى تعلو الحدائق المحيطة بالنيل، وهكذا فنظرة "دينون" إلى مصر هى نظرة جمالية، تستبعد ما لا يسر العين، ولا شك فى أن "دينون" قد أحب مصر، ويدل نصه على أنه بدأ يشعر بالشفقة تجاه المصريين – ولا يخفى علينا التاريخ أن كثيرين ممن كانوا مع الحملة الفرنسية ارتبطوا بمصر وظلوا بها. أما "دينـون" فقـد أسـرع بالعودة إلى فرنسا بعد أن ملأ أوراقه بمذكراته المختلفة.

والقارئ لمذكرات "دينون" والتى ترسله دائما إلى الرسومات التى قام بها، يشعر أثناء القراءة بأن المؤلف تأثر كثيرا بما سبقه من كتابات ورسومات – وقد أشارت الباحثة الفرنسية "مادلين بينو – سورنسن" (فى تعليق لها على نفس المصدر) إلى أن أعضاء الحملة درسوا كل ما كُتب أو صُور عن مصر قبل المجيء إليها، حتى يتمكنوا من رصد التفاصيل بيسر:عرفوا مصر إذن قبل المجيء إليها، عرفوا خرائطها ومشاهدها إلا إنهم لم يكونوا على علم بالمقاييس الحقيقية لكل ما هو جغرافى أو أثرى. و"دينون" مثلهم قرأ كل ما وقعت عليه عيناه، ولا شك فى أن المرء – أى مرء – يتأثر بقراءاته فيظهر التأثر خلال كتاباته أو رواياته للأحداث. وإذا كان نص " دينون " يذكرنا فى بعض الأحيان بقصص ألف ليلة وليلة، فإن رسوماته قد تأثرت كثيرا برسومات الرسامين "نوردن" السويدى و "بوكوك" الإنجليزى.

نشعر أيضا خلال تصفحنا للكتاب أنه تأثر بالمنهج الذى يُتبع فى الحديث عن مصر فى الرحلات السابقة على زمان الحملة، بدءا من القرنين الخامس عشر والسادس عشر، والتى تزخر بها المكتبات.

ويلاحظ أن أعضاء البعثة العلمية عابوا على "دينون" رؤيته للمشاهد وتقديمها من بعيد لأنهم – مهندسون وجغرافيون – يفضلون الدقة، ولكن "دينون" كان منبهرا بروح مصر،روح المكان التى تضفى على المناظر عمق المساحة والتى يزيد من الإحساس بها امتداد نهر النيل من جنوب البلاد إلى شمالها، يُعجب المؤلف بالنهر فيتناوله بالوصف والرسم مرات عديدة، ويندهش من مساحة الصحراء وقربها من النهر وخطرها عليه، والصحراء تشعره براحة الجلوس على ضفاف النيل وسط النسمة المنعشة، وإذا كان هذا هو شعور المؤلف يعبر عنه بكلماته، فهو يعبر عنه أيضا برسوماته، وبنظرة تعتنق أسلوب التمثيل عن بعد منهجا جماليا.

وقد أشار المرحوم أمين إبراهيم غالى إلى أن رحلة "دينون" ما هى إلا مرحلة من استمرارية بحثه عن السعادة، لأن المؤلف لديه روح فنية، اكتسبها من دراساته وميوله ومن واقع عمله، وهو كثير الأسفار.. زار قبل مصركل من سويسرا وروسيا والبندقية، وهو الذى طلب الحضور إلى مصر مع أعضاء البعثة العلمية، لذا فهو يختلف عنهم فى أنه أتى بمحض اختياره، وأهم ما تعبر عنه رسوماته كما ذكرنا هو تلك المساحة الشاسعة للمشهد الطبيعى، بحرى كان أو صحراوى، ويولع المؤلف بالمعابد الفرعونية وبمعبد دندرة على وجه الخصوص.

جدير بالذكر أيضا أن تلك المنطقة لم تطأها قدم قبله، لذلك فهو يفرد لها أهـــم موقع – وفقا للرؤية الكلاسيكية – لأى كتاب، وهو منتصف الكتاب، فكتابه يتكون من 224 صفحة، ويتحدث عن دندرة فى صفحة 112.. وهنا يتضح لنا تأثير القرن السابع عشر فى تكوين عقلية مفكرى القرن الثامن عشر !

ويتوقف "دينون" أمام الشكل الهندسى للآثار الفرعونية، ويحدد أن الخط البسيط المستقيم هو أساس هذا المعمار، وهذه الفكرة هى نفس ما سيذكره أيضا الفيلسوف "هيجل" فى كتاباته عن الآثار المصرية دليلا على نقاء العقلية الهندسية الفرعونية. ومن بين العناصر التى أوردها "دينون" فى مشاهده المصرية الرمز

المعمارى للإسلام، أى الجامع، ولا عجب فى ذلك إذا حضر إلى أذهاننا أن جمهور القراء الذى يوجه له كتابه هو جمهور لا يعرف مصر ولا يعرف الشرق ولا يعرف الإسلام معرفة مباشرة، ويكون الجامع من العناصر التى تجتذب القارئ الغربى ولا سيما فى تلك الآونة، وتختفى الكنائس أو تكاد، لنفس السبب، فالقارئ الغربى يعرفها، ويبحث عن الجديد والغريب.

ولا يدعى المؤلف كونه مؤرخا ولا عالم آثار، ولا يدعى أن كتابه وثيقة تقدم معلومات عن مصر، ومع ذلك فكتابه يعتبر بالفعل وثيقة هامة لرصد تاريخ الفكر من جهة، ولأنه مقدمة وافية للعناصر التى سوف يقرأها القراء فى وصف مصر، كما أن أسلوبه شيق مما يجعل قراءاته سهلة، ويكفى للاقتناع بذلك الاطلاع على قسم التاريخ الطبيعى فى وصف مصر، وعلى فصل "الديدان الحلقية" على سبيل المثال والذى قمنا بترجمته، ليتضح الفرق بين أسلوبى الكتابة وأسلوبى الرسم والتصوير.

عاب عليه علماء وصف مصر أن مشاهده لا توضح بالتحديد المكان الذى رسمت فيه: فهل كانوا يريدون أن ينشر نفس ما كانوا ينوون نشره بحذافيره؟ إذًا لما كانت هناك فائدة من نشر نتيجة أبحاثهم. ولكن "دينون" اختار أن يقدم للقارئ الفرنسى روح المكان، باتساعه، ذلك المكان الذى يتصل اتصالا وثيقا بأفقية النهر وامتداده يمثل رؤية خاصة، رؤية فنان فى مقابل رؤية علمية. ولا شك أن المغزى التاريخى من رصد رؤية "دينون" يضع نصب أعيننا الثراء الذى تنم عنه الاختلافات على مستوى الرؤية فى داخل الثقافة الواحدة من جهة، ويرينا كيف مهد لوصف مصر من جهة أخرى.

ومصر التى قام " دينون "بتصويرها هى مصر كل العصور، فالمشاهد الطبيعية، بما تحمله من آثار، مشاهد لم تتغير مع مرور الزمن، ولا عجب، فقد كتب المؤلف فى كتابه: " أنا أنتمى للمستقبل " !

مصادر الدراسة

-Anderson(R.),Fawzi(I): *Egypt revealead. Scenes from Napoleon` Description de l`Egypte*, Le Caire, American University Press, 1987.

-Henault(A):*Les enjeux de la sémiotique*, Paris, PUF,1970.

-Hosni(A.):"Lecture sémiotique de quelques planches de l`Antiquité", in *L`Expédition d`Egypte, une Entreprise des Lumières*, 1798-1801, Actes du colloque international du 8-10 Juin 1998, Tec& Doc, Paris, 1999, pp.177-186.

: "Analyse sémiotique des paysages dans *le Voyage*", in *L`Egypte de Denon,* presentée au colloque de l`Université de Bourgogne, Chalo-sur–Saone, septembre2005(sous impression).

-Pinault-Sorensen(M.): Du dessin d`artiste ou d`ingénieur, au dessin archéologique in *L`Expédition d`Egypte, une entreprise de Lumières*, 1798-1801,Tec & Doc, Paris,1999,pp.157-177.

- Vatin (J-CL.):" Conformités et pittoresque…."in *Images d`Egypte. De la fresque à la bande dessinée*, Le Caire ,CEDEJ, 1991.

❋ ❋ ❋

قراءة فى رحلة فيفان دينون
رحلة فى مصر السفلى و العليا خلال حملات الجنرال بونابرت

د . رغدة أبو الفتوح

كانت سياسة بونابرت تعتمد بشكل أساسى على "البروباجندا" أو الدعاية واستخدام كل وسائل التأثير التى تشكل صورته فى ذهنية الجمهور الفرنسى . وكان نشر المذكرات الخاصة بأعضاء الحملة المختلفين، سواء أكانوا من العلماء أم كانوا من العسكريين، تعد إحدى تلك الوسائل. وكان أول نشر لمذكرات عن الاحتلال الفرنسى على مصر من نصيب "فيفان دينون". وهو اسم يجهله الكثيرون اليوم ولكنه معروف عند علماء تنظيم المتاحف؛ وذلك بسبب دوره المهم فى تنظيم متحف اللوفر، ومده بالآثار التى جُمِعَت عن طريق النهب أو الشراء من مختلف بلدان العالم، وذلك خلال فترة مصاحبته لبونابرت فى ميادين القتال المختلفة.

تم نشر مذكرات فيفان دينون عن مصر فى ألفى العام 1802، وذلك تحت عنوان: "رحلة فى مصر السفلى والعليا أثناء حملات القائد بونابرت". وتتكون هذه المذكرات من جزأين الجزء الأول مخصص لسرد يومياته عن الفترة التى قضاها فى مصر، وتمتد من 19 مايو 1798 إلى 23 أغسطس 1799، فى صحبة بونابرت ثم فى صحبة ديزيه فى أعالى الصعيد ؛ حيث كان يدون ملاحظاته وانطباعاته أولا بأول عن كل ما يراه فى رحلته؛ لذا امتزج فى يومياته الحديث عن المواقع الحربية

بانطباعاته عن البلاد وعن حاضرها وماضيها على حد سواء . أما الجزء الثانى فقد خصصه لرسوماته عن مصر (آثار ـ طبيعة ـ فئات مختلفة ـ معارك حربية .. إلخ). وجدير بالذكر أن مذكرات دينون هى الوحيدة التى أرفق بها رسومات فى ذلك الحين.

واستُقبِلَت هذه اليوميات فى فرنسا بل وفى أوربا جميعها كما لم يتم استقبال أى مذكرات أخرى، فقد بلغ عدد الطبعات والترجمة والتعديل لكتاب دينون 42 طبعة وترجمة. وكان لهذا النجاح بالغ الأثر فى تشكيل صورة مصر لدى المواطن الفرنسى بل الأوربى فى العامة ـ فالكتابة لا تحمل الصبغة الأكاديمية والرسمية التى تتحلى بها مذكرات سابقة (مثلا رحلات فولنى وسافارى فى مصر) ولاحقة (وصف مصر)، والتى قد تمثل عائقا أمام قراءة سهلة وسريعة وممتعة لما قد تسببه من سأم، بل تتميز بالذاتية وبالأسلوب الشخصى السهل والممتع سريع التأثير على القارئ العادى.

وقبل أن نتعرض بالنقد والتحليل لهذا المصدر المهم الذى يعد ـ كما سبق أن ذكرنا ـ الأول والأكثر انتشارا وشهرة حينئذٍ ـ فإنه من الضرورى تعريف هذا الرحالة فيفان دينون فى سطور قليلة وسريعة:

ولد دومينيك فيفان دينون فى الرابع من يناير فى عام 1747 وهو ينحدر من عائلة نبلاء ريفية ساعدته على تلقى التعليم جيداً وعلى تكوين ثقافة واسعة. وأظهر منذ صغره استعداداً طيباً لموهبة الرسم. وفى ألفى عام 1765 رحل دينون من بلدته الريفية إلى باريس، وهناك استطاع أن يحقق نجاحا فى التردد على علية القوم من وزراء وماليين ونبلاء، كما تردد على الفنانين مثل الرسامين والنحاتين وجامعى التحف واللوحات؛ وذلك لما يتمتع به من ذكاء وشخصية جذابة ولياقة عالية، وبهذه الصفات وصل دينون إلى بلاط الملك لويس الخامس عشر الذى عينه فى وظيفة أمين على مجموعة الأحجار النفيسة الملكية، ولا شك أنه فى هذه الفترة تكوَّن عند دينون هواية التكديس أو "فيروس التجميع " كما يسميه جان كلود فاتان الذى

ظل يلازمه إلى آخر عمره، ثم تطرق دينون لمجال المسرح حيث كتب مسرحية تتناسب مع ذوق العصر ولكنها لم تلق أى نجاح يذكر، كما تطرق أيضاً لمجال الدبلوماسية حيث عُين فى سفارة فرنسا فى بيترسبورج فى روسيا، وتولى مهمة جمع المعلومات عن الإعدادات العسكرية والمشاكل الاقتصادية لهذا البلد، كما يقوم بالتقصى عن الحياة الخاصة للإمبراطورة كاترين وعن ديدروه أحد مؤلفى الموسوعة الفرنسية والمدعو الخاص للإمبراطورة .

وتنتهى مهمة دينون أيضاً بالفشل الذريع حيث تم طرده بتهمة التجسس ويعود إلى فرنسا ويظل بدون عمل لمدة ثلاث سنوات، يقضيها بين هوايته فى الرسم وبين رحلاته، يرسم خلالها العديد من الرسومات، كان من بينها بروتريه للفيلسوف الشهير فولتير، وتثير هذه الرسومات غضب الكاتب الكبير ولكنها تحقق لصاحبها الشهرة.

فى العام 1777 نشر دينون رواية جنسية فاضحة دون توقيع، أثارت اللغط حول مؤلفها، ولكنها نسبت فى النهاية إلى دينون وكانت هذه آخر محاولاته فى مجال الأدب، بعدها أُسنِدَ لهذا الرجل النشيط مهمة سكرتير بالسفارة الفرنسية فى نابولى ولقلة انشغاله المهنى يجد دينون متسعا من الوقت لممارسة هوايته فى تجميع التحف وفى مشاهدة الآثار، ثم رسمها أو وصفها وفى التنقيب والكشف الأثرى. وتفصح الفترة التى قضاها فى ايطاليا عن العديد من الجوانب المختلفة فى شخصية هذا الرجل الاجتماعى ذو الحياة المدنية : فهو جوال مولع بالفنون وفطن يتمتع بالحماس والإخلاص والتفانى فى عمله، دقيق الملاحظة، رسام، جامع للتحف والآثار ومنقب عنها ومكتشف وعلامة ومؤلف،وأخيرًا "ابيقورى" أو محب للحياة . وفى أثناء إقامته فى ايطاليا انضم دينون لمجموعة من العلماء فى مهمة كشف أثرى فى صقلية قام خلالها بتدوين مذكراته اليومية للرحلة ثم أعدها بعد ذلك للنشر فى باريس فى عام 1788 تحت عنوان: "رحلة إلى صقلية". تدرج بعد ذلك دينون فى السلك الدبلوماسى حتى وصل لمنصب القائم بأعمال الفرنسى فى نابولى، وبالرغم من إخلاصه وتفانيه فى عمله إلا أنه تم فصله من منصبه وعاد إلى باريس عام 1785 وهو فى الأربعين من عمره، يجر أذيال الخيبة فى عمله فى مجالى الأدب والدبلوماسية.

ولم يؤثر هذا الإخفاق سلبا فى دينون، فقد استطاع أن يستفيد من تجاربه الدبلوماسية، وأن يضع لنفسه نهجاً يسير عليه لا مكان فيه للفشل، وعاد ثانية لهوايته المفضلة ألا وهى الترحال والاغتراب والاستكشاف.

وفى هذه الأثناء قامت الثورة الفرنسية وتردد دينون بين مساندة الأرستقراطية التى ينتمى إليها وبين الانضمام إلى صفوف النظام الجديد ـ ولكنه اختار البديل الثانى خوفا من مصادرة أملاكه ومن اعتباره مهاجراً ملكياً مناهضاً للثورة ؛ ولذا فقد عاد من ايطاليا إلى فرنسا فى عام 1793 فى أحلك وأقصى سنوات الثورة ولتأمين نفسه استطاع دينون بذكائه المعتاد أن يضع نفسه تحت حماية الفنان دافيد رسام الثورة الرسمى حينئذٍ، وأن يصبح هو الآخر رسامًا ونقاشاً وطنياً، وأتاح له ذلك طرق أبواب الكبار والمسئولين فى البلد ومن بينهم صالون جوزفين دى بوهارنى وزوجها القائد الشاب بونابرت العائد من ايطاليا بأمجاد النصر. وما إن تثار فكرة الحملة على مصر حتى يتحمس لها دينون فهو بطبيعته رحالة "لم يرتبط بأحد أو بشىء فى حياته على العكس تماما كان أسير الحركة والانتقال الدائم"(1) كما يقول عنه فاتان، أما موهبته فى الوصف وفى النقل فهى التى شفعت له للمشاركة فى الحملة العسكرية والعلمية على مصر.

وبالفعل صاحب دينون بونابرت فى حملته على مصر فى 19 مايو فى عام 1798 ويعود معه فى 23 أغسطس 1799، ولكنه ينفصل عن قائد الحملة أثناء تواجده بمصر وذلك لرغبته فى مشاهدة آثار مصر القديمة، ويتبع القائد ديزيه فى مطاردته لمراد بك عبر وادى النيل وحتى الشلالات فى أقاصى الصعيد ثم يتجه ثانية للشمال وحتى الساحل، ويشهد معركة "أبو قير" الثانية ويرحل عن مصر فى أغسطس 1799.

ولدى عودته لباريس شرع دينون فى صياغة يومياته من ملاحظاته ورسوماته المأخوذة من الواقع المصرى لمدة ثلاث سنوات ونشرها فى عام 1802، ولاقت مذكراته نجاحا باهرا حيث تعددت الطبعات والترجمات، وكان لهذا النجاح نتائج

أخرى إذ تم تعيين دينون فى نهاية نفس العام على رأس متحف اللوفر، ويقوم بالإشراف على العديد من المتاحف وأصبح مسئولاً عن اقتناء وكسب التحف الفنية للدولة .

وهكذا حقق أخيرا دينون المجد والشهرة التى طالما حلم بهما، ولم تستطع تجاربه الأدبية والسياسية السابقة تحقيقها، وإنما كان اشتراكه فى الحملة العسكرية العلمية على مصر هى الورقة الرابحة إيذانا ببداية عصر جديد، عصر اهتمام القوى الغربية وتطلعاتها الاستعمارية، بتشجيع من شعوبها، والتى ستتمثل بعد ذلك فى موجة "الاجزوتيزم" أو حب كل ما هو غريب فى القرن التاسع عشر فى أوربا.

وظل دينون مديرا للوفر واستطاع أن يجمع له مجموعة فنية رائعة عن طريق الشراء أو النهب خلال مصاحبته للإمبراطور نابليون بونابرت فى معاركه فى أوربا ولكن بعد سقوط الإمبراطورية اضطر دينون لإعادة التحف المنهوبة وانتهى بتقديم استقالته من منصبه فى عام 1815، وعاش بعدها عشر سنوات قضاها بين الحياة الاجتماعية المدنية وبين الفن. ومات فى 26 ابريل فى عام 1825.

* * *

يتعرض دينون لمصر فى يومياته من خلال زاويتين: أولا مصر القديمة والحديثة كما يراها هذا الرحالة المغامر، وثانيا الفكر الاستعمارى للحملة والناحية العسكرية. وكما سبق ذكره فهذه اليوميات "رحلة إلى مصر السفلى والعليا أثناء حملات القائد بونابرت" تتبع الترتيب الزمنى فى كتابتها، ومن هنا يتداخل وصف المعارك الحربية مع وصف الآثار والطبيعة والشعب المصرى ومع آراء الكاتب وتحليلاته فيما يرى أو يسمع،وكان لزاما علينا تقسيم هذه الانطباعات حتى يمكننا دراسة وتحليل صورتنا لدى الآخر وكيفية تفسير العالم لنا ونظرته إلينا.

يحصر الكاتب فى حديثه عن مصر القديمة الآثار المصرية، ومنها ما اختفى اليوم فى الوجهين البحرى والقبلى مع محاولته لفهم هذه الحضارة القديمة فى وقت لم تكن الهيروغليفية قد تم فك رموزها بعد. أما الدولة الحديثة فتسترعى انتباهه من خلال

السكان والثقافة، ومن جهة أخرى من خلال الطبيعة المتمثلة فى نهر النيل وفى الصحراء ولكن ينصب اهتمامه الأساسى على زيارة الآثار فى صعيد مصر، كما يعترف دينون، ويعود هذا الاهتمام لشغفه العام بالآثار كما سبق أن ذكرنا فى ايطاليا وغيرها من دول أوربا. أما الآثار المصرية القديمة فتشكل عنصر الجدة لدى القارئ الفرنسى تستجيب لولعه بكل ما هو فرعونى، وهو التيار الذى بدأ فى فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر، ليس هذا فقط، بل إن الاهتمام بالحضارة المصرية القديمة والكتابة عنها كفيل بتحقيق المجد والشهرة لدينون الذى طالما حلم بهما ـ ومن هنا أفرد دينون للكتابة عن الآثار ووصفها فى أكثر من نصف ما كتبه فى مذكراته.

بدأ جولته فى الإسكندرية والوجه البحرى محاولا التعرف على الآثار على الطبيعة بعد أن كان قد تسلح بقراءات عديدة ومختلفة منها القديم والحديث عن مصر أثناء رحلته البحرية من فرنسا متجها إلى الإسكندرية : فهو يذكر على سبيل المثال لا الحصر أسماء: هيرودوت_ سترابون ـ اوزيب ـ فولنى ـ سافارى.

ويجد أن هذه المنطقة المليئة بالسكان على مر العصور قد اختلفت معالمها واختفت بعضا من آثارها فى حين أن مدينة الإسكندرية تذكره بمجدها السابق أثناء الإمبراطورية الرومانية وبمجد أوربا السابق أثناء الفتح الرومانى _ فهم يمشون على خطى يوليوس قيصر ليعيدوا للإسكندرية مجدها السابق "هذا الساحل الغربى أصبح اليوم من أكثر مناطق العالم التى طواها النسيان، لا تتذكرها إلا بميداليات رائعة باقية"[2] وهذا الاسترجاع للغزو الغربى السابق بمثابة تبرير وحجة للحملة الفرنسية ذات الأهداف الحضارية التى ترفع شعار تحقيق الحريات وإعادة الأمجاد للدول الرازحة تحت نير المماليك والعثمانيين، ويخدم دينون هنا الشعارات الرسمية للسياسة الفرنسية.

ولا تشبع جولته فى الوجه البحرى رغبته فى رؤية الآثار المصرية القديمة، ولذا يحصل دينون على موافقة بونابرت فى مرافقة الكتيبة الفرنسية المتجهة إلى الصعيد لمطاردة المماليك بقيادة مراد بك.

وتسنح له الفرصة كاملة لاستكشاف الآثار الفرعونية والتعرف عليها بيسر وسهولة طبقا لقراءاته فى هذا المجال، ثم يقوم بوصفها مستخدما أسلوب الكاميرا والجيشتهالت التى يعتمد على إعطاء الشكل الفنى العام للأثر ثم ينتقل للتفاصيل مع التركيز على خصوصية الأثر وتميزه، وفى كل زيارة جديدة لنفس الأثر يثرى وصفه بإضافة تفاصيل جديدة وتصحيح تفاصيل أخرى، ويجرى مقارنات عديدة بين النقوش والرسومات على حوائط المعابد ويرى بعين ثاقبة الاختلافات والتشابهات فى الفن المصرى القديم، ويقوم بتحليل ودراسة ملاحظاته ويصل إلى نتائج كثيرا ما تكون صحيحة تماما.

ويتوقف دينون عند أصالة الحضارة الفرعونية التى اعتمدت على بيئتها واستمدت منها العناصر المختلفة مثل: رسم الطبيعة،ووجه المرأة المصرية، وزخرفة واجهات المعابد بزهرة اللوتس والنخل والأعناب والسلال. ومن ضمن استنتاجاته أن المصريين القدماء كان لديهم كتب وليس فقط لوحات مكتوبة معلقة على الحوائط، وقد توصل لهذه النتيجة عند رؤيته لرسم للكاتب المصرى القديم على أحد حوائط المعابد.

ويقع فى يده أول ورق بردى مما يثير انفعاله بشكل كبير إذ إنه يدعم ريادته المنشودة فى هذا المجال. ونتوقف قليلا عند موقف دينون من الآثار المصرية وهو موقف يتراوح ما بين الإعجاب والثورة : فبحكم عقليته التى لم تعرف سوى الفن الإغريقى والرومانى يقع فريسة التناقض، فتارة يشدو منبهرا بسحر وجمال ودقة التنفيذ للأثر وتارة يشجب الحكم الفرعونى الذى سخر البشر لتنفيذ أعمال بهذه الضخامة تطلبت مجهودا خارقا فوق طاقة الإنسان. ففى كل زيارة لمدينة الأقصر حيث يوجد أكبر تجمع للآثار الفرعونية وخاصة لمعبد الكرنك تنتابه حالة من الإرهاق البدنى والذهنى والوجدانى، إذ لا يجد تفسيرا معقولا يدفع الحكام والشعوب للقيام ببناء ضخم كهذا، وهذا يدفعه لإدانة الحكم الفرعونى ووصفه بالاستبداد والشعب المصرى بالجهل والطاعة العمياء، ولا غرابة فى ذلك فكل ثقافة

دينون فى هذا المجال مستمدة من قراءته للإغريق الذين صوروا الشعب المصرى يعانى من تسخير الفراعنة له فى بناء الأهرامات، ولكن فى الواقع كل التماثيل التى تصور الذين عاشوا فى هذه الفترة لا تدل على بؤس الشعب المصرى وإنما تدل على رضائه بهذا العمل الرامى إلى الخلود، وهى الفكرة التى لم تدركها العقلية الغربية الأوروبية. ويؤخذ فى الاعتبار أن إدانة دينون للحضارة المصرية لعقليتها ولضخامة وأحجام فنها ، هو فى الواقع الاستثناء فالإعجاب والانبهار غلبا على هذا الهاوى والعجوز ذى الخمسين عاما وذى التكوين الثقافى المنبثق من أيديولوجيات القرن الثامن عشر عصر التنوير والفلاسفة فمشاهدة هذه الآثار العريقة والأنقاض تثير فى نفسه الأشجان ومشاعر الحزن التى كانت منتشرة حينئذٍ فى فترة ما قبل الرومانسية تحت تأثير روسو ولكنه سرعان ما تغلب عليه طبيعته الواقعية فيضع جانبا البكاء على الأطلال ليرى فى هذه الآثار المبهرة تعاليم الثورة الفرنسية الداعية لإحياء هذه الحضارة العريقة عن طريق محو الاستبداد العثمانى والنظام المملوكى اللذين يعدان من الأسباب الرئيسة فى انحدار هذا الشرق ذى المجد العريق، ثم عن طريق تصدير التقدم الفكرى والعلمى والتقنى من الغرب المتفوق. إذن دينون لا ينسى مهمته فى خدمة هذه السياسة، سياسة الترويج للسياسة الفرنسية.

وعلى شاكلة من سبقه ومن لحقه من الرحالة يمضى دينون قدما فى نهب كل ما يستطيع حمله من تماثيل ويبدى أمنيته فى نقل بعض المعابد والتماثيل الضخمة لفرنسا، وهو ما سيتم بالفعل فى وقت لاحق مع المسلة المصرية التى تم نقلها إلى باريس، وذلك لإثراء متحف اللوفر ولإشباع هوايته فى جمع التحف (**) وكما يقول إبراهيم غالى: " فى هذا الوقت وفى هذا البلد كان يكفى أن تنحنى لتلتقط ما تشاء من الآثار "[3]. وربما يتساءل القارئ عن سر اهتمام دينون بالفن الفرعونى على حساب الفن القبطى والإسلامى اللذين تعرض لهما سريعا . فى الواقع كان كل ما يدفع دينون فى هذه الرحلة هى رغبته فى الريادة والسبق وفى اكتشاف أرض بكر مغلقة أمام الأوربيين منذ ألفى عام. وتفصح مذكراته عن رغبته فى أن يكون الأول فى هذا المجال.. أول من وصل إلى أسوان.. أول من عاد من الصعيد.. أول من نشر

يومياته عن مصر فى فرنسا ـ وبالفعل فقد حصد دينون نتيجة ريادته فى زيارة الصعيد. فعندما رأى بونابرت مجموعة رسومات دينون عن الآثار وعن الطبيعة فى صعيد مصر وجد أن نشر مثل هذه الصور ستخدم مصلحته. ومن هنا كان اصطحابه لدينـون فـى رحلة عودته لفرنسا فى عام 1799 أى قبل نهاية الحملة بعامين[4].

ومن هنا أيضاً كان تحمل دينون لصعوبات عديدة فمرافقة جيش ومواجهة ظروف صعبة مثل الحرارة الشديدة ونقص المياه والمواد الغذائية والسير لمسافات طويلة ليس بالأمر السهل على كهل فى الخمسين من عمره عاش حياة مترفة اجتماعية كنبيل أو كدبلوماسى، بل فى مواجهة مخاطر الوقوع فى يد السكان وهو فى حالة حرب معهم تضفى بعدًا آخر لصعوبة مهمته التى أنجزها فى ظروف لم يخضها غيره من الرحالة وإن كان لمصاحبة الجيش الفضل فى توفير الحماية لدينون ومساعدته على التوغل إلى أماكن لم يستطع أحد قط الوصول إليها.

ولم يبق إلا أن نؤكد على طبيعة هذه اليوميات :فهى تستهدف القارئ العادى وليس المتخصص أو الأكاديمى ـ ومن هنا جاء نجاحها الساحق الذى لعب دورا كبيرا فى انتشار موجة الهوس بكل ما هو مصرى فى نهاية القرن الثامن عشر، ثم فى تأسيس علم المصريات فى القرنين الـ 19 والـ 20، بالإضافة إلى ذلك فقد كان ليوميات دينون تأثيرها الكبير فى الفن الفرنسى والأوربى فى القرن التاسع عشر حيث إن التيمات المصرية والشرقية سيطرت بدرجة عالية على فن الرسم والزخرفة فى هذا الوقت. "وهكذا كان الانتقال من الهوس بكل ما هو مصرى فى نهاية القرن الـ18 إلى علم المصريات فى القرنين الـ19 و20 ". [5]

كانت هذه هى صورة مصر القديمة عند دينون فكيف رأى هذا الرحالة مصر فى نهاية القرن الثامن عشر ؟

يتطرق دينون للحياة اليومية المعاصرة له متحدثا عن عناصر عديدة ومختلفة.. مثلا المجتمع المصرى وثقافته وعاداته وفئاته معطيا فى النهاية صورة عامة ذات قدر من الأهمية ليس بفضل دقتها أو جودتها وإنما بفضل تنوع عناصرها. ويسلك دينون

منهج الانطباعية حيث يقدم رؤيته لما يراه خلال تقدمه فى رحلته. وجدير بالذكر أن رسومات دينون أكثر إيحاء من نصه فيما يخص الحياة المصرية المعاصرة فى ذلك الوقت.

يحاول دينون دراسة الأصول المختلفة التى ينتمى إليها الشعب المصرى واتبع منهجا فى التحليل والربط بين الشكل والأخلاق والظروف البيئية لكل مجموعة عرقية، ويقسم دينون السكان إلى فئات مختلفة ويبدأ بفئة الأقباط، ويرى فيهم أصل سكان مصر، وهذا يعد خطأ إذ إن الأقباط هم فى الواقع مصريون قدماء اعتنقوا المسيحية فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى، وبالتالى لا يمكن اعتبارهم أصل الجنس المصرى؛ إذ إن المصريين عاشوا منذ آلاف السنين قبل العصر المسيحى.

وينتقل دينون لفئة السكان العرب ويقسمهم إلى فلاحين ورعاة وبدو، ويرى أن الفلاحين أكثر حضارة وأكثر فسادا وخضوعا ومهانة، ويبدى إعجابه بالرعاة الذى يرى فيهم أصل الجنس العربى . أما عن السكان غير الأصليين فيقدم للأتراك صورة مقولبة كرسها الأدب الفرنسى فى القرن الثامن عشر وهى صورة تبرز بلادة التركى وانعدام سلطته. أما اليونانيون فإن دينون يعتبرهم من الأغراب: فهو يرى فيهم الصفوة، ويجد أنه تم تهميشهم فى المجتمع المصرى خوفا من تفوقهم الذهنى . ويمضى دينون قدما فى مدح هذه الفئة وما تتمتع به من ذكاء وذوق ومرونة فى الطباع والملامح تذكره بأجدادهم الإغريق، وتؤهلهم من وجهة نظر دينون لحكم مصر.

ويظهر هنا تأثر دينون بثقافته وتكوينه الفكرى الكلاسيكى ذى الأصل الإغريقى الرومانى، فمن وجهة نظره كان التفوق ولا يزال حكرا على الغرب، قديما متمثلا فى الإغريق والرومان، وحديثا متمثلا فى أحفاد الإغريق وفى الفرنسيين المنحدرين من نفس الأصول الأوربية، ويستند دينون على المرجعية التاريخية لتبرير تمييزه العنصرى، ومن ثم الغزو العسكرى والثقافى.

ثم ينتقل لفئة اليهود ويقدم لهم أيضاً صورة مكررة ومقولبة، وهى صورة اليهودى المكروه الذى يسعى لجمع الأموال، ولا يهتم إلاّ بمصالحه الشخصية.

وتأتى فى النهاية فئة (البربر) كما يسميهم دينون وهم سكان النوبة، ويبدى دهشته من نشاطهم المتقد وخفتهم بالرغم من نحافتهم الشديدة.

وتظهر هذه الدراسة توفيق دينون فى بعض الزوايا مثل الوصف الدقيق للملامح والأخلاقيات: فقد نجح فى مسحه الشامل للأجناس المختلفة التى يتكون منها الشعب المصرى وأعطى صورة عامة عن هذا الشعب، ولكنه لم يعالج هذه المعطيات بنفس العمق، لذا نجدها غير مرتبة وغير متساوية فى تناولها وتحليلها مما لا يؤهلها لأن تكون مرجعا فى علم الأجناس.

وينتقل دينون لوصف بعض أنماط المجتمع المصرى فيتحدث عن المرأة المصرية مبديا إعجابه بخفتها ورشاقتها، ولكنه يدين ملابسها وخاصة (اليشمة) التى تترك انطباعا فى العامة كئيبا لمظهرها، ويساعد على هذا ظروفها ووضعها السيئ فى المجتمع، ويرى دينون أن تحسين أوضاع المرأة المصرية يبدأ بتخليها عن حجابها ويضيف قائلا : " أرجأت متعة رسمى للمرأة المصرية لحين أن يؤتى تأثيرنا على عادات الشرق ثماره بحيث تخلع المرأة الحجاب الذى ترتديه"[6]. ويتضح هنا البعد الثقافى للغزو الفرنسى الرامى إلى تغيير العادات والتقاليد وطمس الهوية الشرقية.

وفى تناوله بالوصف لبعض الأنماط الاجتماعية يقع دينون فريسة التناقض إذ ينحى جانبا حسه النقدى ويطلق لنفسه العنان للتنديد والانتقاد معبرا عن مكنون نفسه وطويته، فهو على سبيل المثال، يدين طائفة الخدم بصفة عامة ثم يختص خادمه الشخصى بمدح طويل، كذلك يدين طائفة العمال واصفا إياهم بالكسل الشديد ثم يمتدح سرعتهم ومهارتهم فى أداء عملهم!.. فعند محاولته للفهم يقع دينون فى خطأ التعميم، ولكنه فى أحيان أخرى، يبدى الاعتدال فى محاولاته للفهم وفى إبداء الأعذار.

ويتعرض دينون للثقافة المصرية، فنجده يبدى استياءه من الشعر والرقص الشرقى الذى يعد تعبيرًا عن الانفلات الغريزى فى حين تجذبه الحواديت المصرية وموهبة الرواة الحقيقية. ونتوقف قليلا عند موقفه من الدين الإسلامى فهو بالنسبه

له مرادف للاستبداد والفوضى والجهل والتجهيل، وتتكرر إدانته له فى أكثر من موضع من يومياته، ومثل هذا الحكم على الدين الإسلامى ينم عن موروثات ثقافية توارثتها الأجيال الأوربية منذ عهد الحروب الصليبية وحتى يومنا هذا فى التحقير بالاسلام. ولهذا الموقف السلبى سبب آخر لا يمكن إغفاله وهو ما حدث من زعزعة للنظام السياسى والأخلاقى والدينى الذى قامت عليه المجتمعات الأوربية السابقة. ففى عصر التنوير ؛ أى فى القرن الثامن عشر، تم رفض الحلول الدينية وما بعد الطبيعة وكذلك سلطة التقاليد على البشر من قبل الفلاسفة وإحلال الإيمان بالإنسان وبقدرته على تحقيق التقدم والسعادة محل الاستبداد والتعصب المنبثق عن الدين، ويعبر دينون عن هذه الآراء من خلال موقفه الرافض للأديان فى العامة وللإسلام خاصة، وكما يقول فاتان: "لم يكن من الممكن أن يعجب دينون بدين محمد أو بأى فكر دينى آخر ـ فهو يرى أنه إذا كان لابد من الإيمان بشىء ما ـ فمن الأحرى أن يكون هذا الإيمان بالإنسان وليس بالله، ومن الأولى أن يكون الإيمان بالفن وليس بالجنس البشرى"[7].

ويعود موقف دينون من الدين الإسلامى إذن لتكوينه الفكرى المعبر عن جيله الرافض للأديان عموما، ولكنه يعبر أيضاً عن موقف الغرب من الإسلام، وإصرارهم على نعت الإسلام بالجهل .

ولاستكمال بيانه عن مصر القديمة والحديثة، يعطى دينون انطباعاته عن الطبيعة فى مصر ـ يصف النيل والصحراء فى أسلوب أدبى وشاعرى جميل مبينا ما يثيره الأول من إحساس بالحياة وما تثيره الصحراء من مشاعر الخوف والحزن والموت، وكذلك يعطى وصفا دقيقا للغاية عن ظاهرة رياح الخماسين.

ويمر دينون سريعا على الحيوان والنبات فى مصر، مركزا على التماسيح التى تثير فضول الأوربيين لعدم وجودها فى بيئتهم، وهدف الكاتب هو إعطاء صورة عامة عن مصر المعاصرة له وليس توفير المعلومات العلمية ولاستكمال عناصر اللوحة التى يرسمها بقلمه عن البلاد، يهتم بتصوير كل ما هو جديد وغريب على الحياة

الفرنسية والأوربية، فيتناول سريعا البيوت المصرية والقوافل ووسائل النقل والحرملك ومواكب العرس ومراسم الدفن والموائد العربية والملابس وأدوات الزراعة .. إلخ .

أما المدن المصرية، مثل القاهرة والإسكندرية فلا تثير إعجابه، وبالرغم من ذلك فهو يشعر بالحزن عند مغادرته القاهرة كما يشعر بالإحباط عند رؤيته لمدينة الإسكندرية.[8] وجدير بالذكر أن الإسكندرية كانت أول مواجهة للجيش الفرنسى مع الواقع المصرى، إذ إن الفكرة التى سيطرت على الجميع أن مصر بلاد العجائب والأساطير تقع فى نهاية العالم وكلها خيرات، وظن الجنود أنهم ذاهبون إلى مهمة سهلة، ولكنهم اصطدموا بأرض الواقع عندما لاقوا مقاومة عنيفة من أهل الإسكندرية .

وننتقل للناحية العسكرية كما صورها دينون فى يومياته، وكان لا يمكن أن يغفل هذا الجانب لخدمة بونابرت وبناء مجده الذى كرسه الأدب الفرنسى بعد ذلك فى القرن الـ 19، والذى ضمن لدينون الوصول إلى القمة بعد نشر مذكراته وهو تعيينه مديرًا على متاحف اللوفر.

ومن هنا يأتى وصفه للمعارك الحربية، وجدير بالذكر أن دينون لم يشهد أيا من المعارك الكبرى، وإنما استعلم عنها لاحقا، ثم قام بوصفها ووصف نهاياتها كأنه شهدها.

ويلجأ دينون لأكثر من وسيلة لتمجيد الفتوحات والانتصارات الفرنسية فى مصر، على سبيل المثال، يقوم بتمجيد العدو وإبراز قوته وذكائه للوصول لأحد الهدفين : الإعلاء من شأن الانتصار على الخصم العنيد أو تبرير الهزيمة أمامه ـ فنجده يرسم بكلماته صورة بطل لمراد بك وهو قائد المماليك الذى طارده ديزيه فى صعيد مصر، ويصف جيشه وخاصة الخيالة بأنها الأمهر فى الشرق كله لكى يتغنى بعد ذلك قائلا: "استطاع عدد صغير من الفرنسيين تحت قيادة بطل، أن يغزو جزءا من العالم، وأن يدفع بإحداث تغييرات معينة فى الإمبراطورية (العثمانية)، وأن يحطم

كبرياء المماليك أمام حراب المشاة"[9] ويذكر أن الجبرتى أعطى لمراد بك صورة مناقضة تماما لتلك التى رسمها دينون، فهو يصفه بالجبن والاندفاع والحماقة ولكن كما ذكرنا، فهذا أسلوب كلاسيكى لتمجيد الذات عن طريق تعظيم الآخر، ومن الوسائل الأخرى التى لجأ إليها دينون لتمجيد الحملة، ربطها بالتاريخ، فهو يقوم بمقارنات عديدة بين حملتهم وبين الحملات الصليبية السابقة، ويذكر فى أكثر من موضع من مذكراته اسم لويس التاسع الذى قاد الحملة الصليبية السابعة فى مصر فى عام 1249 مقارنا بين أخطائه التى ارتكبها فى فتحه لمصر وبين خطة حملة بونابرت، وهكذا يعزف دينون على وتر الأمجاد الفرنسية، متجاهلا الفظائع التى ارتكبها الجيش الفرنسى فى مصر.

ونتوقف هنا عند كيفية التوفيق بين التعارض الصارخ فى أفكار الثورة الفرنسية الرافضة للفكر الاستعمارى وأهدافه الاقتصادية وبين تبنيها للحملات الاستعمارية كالحملة على مصر أو بشكل أبسط التناقض بين الأقوال والأفعال، وتم معالجة هذا التناقض بالادعاءات بأن الهدف من الحملات أصبح تحضير الشرق برفع الظلم عنه وتحريره من الاستبداد العثمانى والمملوكى ثم تحقيق الرخاء والسعادة لشعوبه.. وظل دينون يردد هذه الشعارات طوال كتابته لليوميات.

أيضًا يظهر هذا التناقض فى صورته الوحشية التى استخدمها الجيش الفرنسى لقمع المقاومة المصرية، ويسطر دينون بقلمه صورة حية لبسالة الشعب المصرى فى المدن والقرى فى مواجهة العدو متهما إياه بالتعصب، وفى نفس الوقت يصور الانتقام الشديد من الثورات المصرية عند حديثه عن المقاومة فى دمنهور: "لم يعد لدمنهور وجود : فقد تم إعدام وحرق 1200 من سكانها" [10]. وفى انتفاضته ضد الغازى الفرنسى، يتعجب دينون من إنسانية ومن كرم السكان المصريين الذين مدوا يد المساعدة للفرنسيين فى أثناء ثورة القاهرة الأولى (20 أكتوبر 1798). كذلك حسن معاملة الأسرى الفرنسيين الذين كانوا يقعون فى يد السكان، كما يبدى إعجابه ببسالة المجاهدين القادمين من الحجاز لمساندة الشعب المصرى فى مقاومته للاحتلال .

كذلك يقرر دينون النهج السياسى للحكومات الاستعمارية التى انتهجتها الحركات الاستعمارية الأجنبية فيما بعد، وهو تعيين أحد المواطنين العملاء بالمشاركة مع أحد الفرنسيين فى نظام الجمع الضريبى، فقد وضعت الحملة الفرنسية وهى أول مد استعمارى غربى لمنطقة الشرق الأوسط فى العصر الحديث الأسس والقواعد التى صارت عليها الموجات الاستعمارية اللاحقة فى القرن التاسع عشر.

وبالرغم من أن دينون كان مكلفا بتأييد وتبرير الحملة فإن التناقض الواضح بين الشعارات المرفوعة عن تحرير الشعب من ظلم الطغاة وإقامة النظام والعدل وبين سلوك الجيش والنهج الذى انتهجه من قمع ونهب وانتقام وحشى من الشعب المصرى يجعل الشك يتسلل إلى نفسه حول مشروعية قضيتهم ويسرد دينون تفاصيل الانتقام الفرنسى من القرى الثائرة، ومنها النهب والسلب لكل صغيرة وكبيرة والإتيان على الأخضر واليابس مما يدفع دينون للقول :" كنت أحب أن أجد القرى وقد تركها أهلها وذلك لتجنب سماع صرخاتهم ونحن نقوم بنهبهم : لم نترك سوى الحوائط.. حتى الأبواب وأطر النوافذ كان يتم نهبها، وكانت القرية التى تم سلبها منذ ساعتين فقط تبدو وكأنها أطلال عمرها مائة سنة" !! (11)

وفضلاً عن هذا بين ما لاقاه المصريون من عنت جباية الضرائب الباهظة التى فرضها عليهم بونابرت لتعويض الصعوبات والمشاكل المالية التى كانت تواجه جيشه ولتحصيل الضرائب اتبع الفرنسيون أسلوب المماليك، وفى هذا الصدد يقول دينون: "اتبعنا طريقة المماليك (فى جمع الميرى)، حيث كنا نقوم بجولة عسكرية فى المنطقة التى عليها دفع الضرائب، وكنا نخيم أمام القرى والمدن، ونأكل على حسابهم حتى السداد"(12).

ولا يذكر دينون فى يومياته انتقام بونابرت من المصريين بعد ثورة القاهرة الكبرى وهمجية جنوده فى تدنيس الأزهر الشريف، ولكن إدانته للإفراط والشطط للسلوك الفرنسى العنيف يدفعه لتبرير مشاعر الضغينة والعداوة التى يحملها المصريون للفرنسيين:

"كنا نتفاخر بأننا أكثر عدلاً من المماليك ـ ولكننا كنا نرتكب يوميا العديد من الأعمال المتعسفة ... لم يكن مصير السكان الذين جئنا من أجل سعادتهم، أفضل من أحوالهم أيام المماليك" (13) . ويتساءل فى موضع آخر قائلا: "لقد استطعنا بالفعل طرد المماليك، ولكننا عند قدومنا وبعد طردهم، ألم نحل محلهم" (14) .

ولكن هذه الخواطر لا تنسى دينون واجبه الأول فى تدعيم مجد بونابرت وتبرير جميع خطواته، ومن هنا نجده يردد المزايا التى تحققت للشعب المصرى على يد الفرنسيين مثل القضاء على عمليات الثأر فى الصعيد وتحقيق الأمن والأمان للمواطنين على حد اعتقاده.

ويظهر دهشة المصريين من عدالة الفرنسيين حتى إنهم أطلقوا على ديزيه لقب (العادل) كما يدعى دينون، ويسوق الأمثال الدالة على عدالة وتسامح ديزيه، كعفوه عن الصبى ابن الثانية عشرة سنة، وذلك عندما ضُبط الصبى متلبسا وهو يسرق الأسلحة من الجيش الفرنسى، ويتغافل عن حقيقة أن هذا المتهم تم جلده ثلاثين جلدة .

وأشار دينون إلى أهمية الموقع الاستراتيجى الجغرافى والسياسى لمصر، كذلك لاحظ ثراء البلاد وحلم بأن تصبح مستعمرة فرنسية ثرية بها مدن وأقاليم جديدة وبها عمال ماهرون ومزارعون بارعون يحلون محل الجهل والفقر والتعطل، ويصل فى أحلامه إلى إبداء رغبته فى جلب مستوطنين من أمريكا لزراعة قصب السكر فى الدلتا وفى الجزر النيلية.

* * *

فى النهاية يتضح من دراستنا أهمية يوميات دينون التى سجلت بداية ما عُرف بعد ذلك بـ "الهوس" بكل ما هو مصرى، كما أنها كشفت عن الوجه البشع للاستعمار الذى دفع دينون للتشكك حول مشروعية حقهم وقضيتهم فى هذه

الحملة: فدينون لم يكن من هؤلاء الكتّاب الذين سطروا "الملحمة النابليونية" فى صورة مثالية؛ ومن ثم يظهر التناقض الذى لاحق كاتب هذه اليوميات، فدوره الأساسى فى خدمة سياسة بونابرت والتغنى بمجده لم يستطع حجب هذا الصوت الداخلى النابع من ضميره والمُدين - رغما عن صاحبه - للحملة .

المراجع العربية

- إلهام ذهنى: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ 1991.
- جمال بدوى: طبيعة الأمة المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ 1996.

  مصر من نافذة التاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة 1995.
- زينات بيطار: الاستشراق فى الفن الرومانسى الفرنسى، عالم المعرفة ـ الكويت ـ 1992.
- سليمان حزين : حضارة مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ 1995.
- عبد الرحمن الجبرتى: يوميات الجبرتى، دار المعارف ـ القاهرة.
- عبد العزيز الشناوى: صور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى نهاية القرن الـ 18، دار الكتب ـ القاهرة ـ 1971.
- ليلى عنان: الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة، دار الهلال ـ القاهرة ـ 1992.
- محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر، الزهراء للإعلام العربى ـ القاهرة ـ 1990.
- محمد شفيق غربال: تكوين مصر عبر العصور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ 1996.
- محمود محمد شاكر : رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا، دار الهلال ـ القاهرة ـ 1987.

مصادر الدراسة

BRUNON, Raoul : *Présentation du Voyage dans la Basse et Haute Egypte* Pygmalion , Paris, 1990.

CHATELAIN, Jean : *Dominique Vivant Denon et le Louvre de Napoléon.*Librairie Académique , Perrin , Paris , 1973.

GHALI , Ibrahim Amin : *Vivant Denon ou la conquête du bonheur*Institut français d'archéologie orientale , Le Caire , 1986.

VATIN , Jean،Claude : *Présentation du Voyage dans la Basse et Haute Egypte pendant les campagnes du général Bonaparte,*

Institut Français d'archéologie orientale , Le Caire , 1989.

AMBRIERE, Francis : *L'Egypte* Hachette , Paris , 1971.

CARRE , Jean،Marie :*Voyageurs et écrivains Français en Egypte* Institut Français d'archéologie orientale, Le Caire , 1956.

DESROCHES،NOBLECOURT , Christiane : *L'art égyptien*

PUF , Paris , 1962.

LAURENS , Henry : *L'Expédition d'Egypte* Armand Colin , Paris , 1989.

MONNET , Janine : *L'Egypte* Fernand Nathan, Paris , 1963.

Revues et périodiques

GOBY , Jean،Edward : *Les quarantes éditions, traductions et adaptations du « Voyage da ns la basse et haute Egypte » De Vivant Denon.*

Cahiers d'histoire égyptienne , Série IV, Décembre 1952 , Maison d'édition Al، Maaref , Le Caire.

Annales historiques de la Révolution Française, Louis Charles Antoine Desaix N° 324، Avril /juin 2001.

الهوامش

1. جان كلود فاتان : تقديم لرحلة فى مصر السفلى والعليا أثناء حملة القائد بونابرت، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة 1989، ص20.
2. يوميات دينون، ص 14.
3. إبراهيم أمين غالى : فيفان دينون أو السعى إلى السعادة معهد الآثار الشرقية، القاهرة 1986، ص269.
4. هنرى لوران: الحملة على مصر، باريس 1989، ص329.
5. يوميات دينون، ص 50.
6. جان كلود فات : مرجع سبق ذكره، ص 20.
7. يوميات دينون، ص 14
8. نفس المرجع السابق، ص 27.
9. إبراهيم غالى،المرجع السابق، ص167 .
10. يوميات دينون، ص 109.
11. نفس المرجع، ص 75.
12. نفس المرجع، ص 158،195.
13. نفس المرجع، ص 31.
14. نفس المرجع ، ص 31.

* * *



ماذا علم علماء الحملة الفرنسية

في
المناهج

الحملة الفرنسية فى الخطاب التاريخى الفرنسى

(نموذج الكتب المدرسية للمرحلة الابتدائية)[1]

(1945 -1969)

أ.د. فريدة جاد الحق

يستطيع الدارس للخطاب التاريخى أن يرصد مضمون هذا الخطاب من خلال ثلاثة نماذج رئيسة: أولها الخطاب المدرسى المتمثل فى كتب التاريخ المقررة على تلاميذ المدارس، وثانيها الخطاب التعميمى،حيث تقدم المادة التاريخية المبسطة لجمهور واسع من المتلقين غير المتخصصين، وثالثها خطاب البحث العلمى،وهو الخطاب الموجه للمتخصصين فى مجال التاريخ.

ويحظى النوع الأول من الخطاب بأهمية كبيرة نظرا لأنه يتوجه إلى أكبر عدد من المتلقين، وهم تلاميذ المدارس، وخاصة مع نظام التعليم الإلزامى،والذى تم إقراره فى فرنسا منذ عام 1882، بالنسبة للمرحلة الابتدائية. ويكتسب كتاب التاريخ المدرسى فى هذه المرحلة أهمية خاصة؛ لأنه يحتوى على أول خطاب رسمى موجه إلى "مواطنى المستقبل". ويتكون المتلقون فى هذه الحالة من غالبية أفراد المجتمع الفرنسى.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن تحليل المادة التاريخية بشكل عام يظهر مشكلات الزمن الذى تمت كتابة هذه المادة فيه أكثر من مشكلات الزمن الماضى محل الدراسة. وهكذا نجد أن دراسة فترة ما، مثل الفترة ما بين 1945 و 1969، تسمح لنا بدراسة

فرنسا فى علاقاتها مع الآخرين فى هذه الفترة. ويبرز هنا تساؤل هام: لماذا تم اختيار هذه الفترة بالتحديد؟ فى الواقع، هناك أكثر من سبب وراء هذا الاختيار؛ فمن الناحية السياسية والتاريخية، يشير عام 1945 إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، هذه الحرب التى هزت بشدة المجتمع الفرنسى. وقد حدث تغيير جذرى فيما يخص القوى الموجودة على الساحة الدولية، فقد حلت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى محل القوتين العظميين: إنجلترا وفرنسا. وبشكل موازٍ لهذا التغيير، بدأت عملية إزالة أو تصفية الاستعمار، والتى امتدت على مدى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. إن السؤال المطروح هنا: هل تم تعديل الطريقة التى قدم بها المؤلفون الفرنسيون تاريخ بلدهم فى كتب التاريخ المدرسية، بحيث يواكب هذا التعديل التغييرات على أرض الواقع؟

ونرجع إلى الأسباب الأخرى المتعلقة باختيار فترة 1945–1969، فنجد أن هذين التاريخين يتعلقان بإدخال تعديلات هامة فى مقررات الكتب المدرسية، وبصورة خاصة كتب التاريخ؛ فقد تم إجراء تغيير على أثر انتهاء الحرب فى 1945 وإعلان قيام الجمهورية الرابعة فى فرنسا، ثم تم إجراء عدة تعديلات جوهرية فى الفترة التالية والتى امتدت إلى نحو ربع قرن من الزمان، وكان أهم تعديل هو الذى حدث عام 1969 بعدما تعرض المجتمع الفرنسى لهزة أخرى عميقة: فمع أحداث مايو – يونيو 1968، تأثرت بشدة كل جوانب الحياة فى فرنسا – السياسية منها والاجتماعية والثقافية. وقد تمت إعادة النظر فى القيم التقليدية للمجتمع الفرنسى. وعلى مستوى تدريس التاريخ فى المدارس الابتدائية، حلت مادة disciplines d'éveil [2] محل مادتى التاريخ والجغرافيا، اللتين ظلتا تدرسان منذ عهد الجمهورية الثالثة (1875–1940) بشكل شبه ثابت. ومن ضمن الأسباب الأخرى الهامة أن فترة 1945–1969 تشكل أيضا على المستوى الدولى مرحلة هامة للصراع العربى – الإسرائيلى، مما يمكن أن يكون له أثر على طريقة تقديم الكتب المدرسية للشرق العربى بصورة عامة، وللحملة الفرنسية بصورة خاصة. وأخيرا فإن فترة الأربعة والعشرين عاما التى تمتد من 1945 إلى 1969 تشمل جيلا من الفرنسيين، وسنرى إذا كان قد تم

تقديم نفس المعرفة لأبناء الجيل الواحد أم تم تغييرها على ضوء الظرف التاريخى الذى مرت به فرنسا ذاتها؟

وبعد هذه المقدمة التى وجدنا أنها مهمة بالنسبة لفهم خصوصية المادة التاريخية محل الدراسة، ينبغى الإشارة إلى نقطة هامة للغاية تتعلق بالنظام التعليمى فى فرنسا، وهى الخاصة بتعدد وتنوع الكتاب المدرسى،وفقا لتعدد دور النشر: ففى فرنسا، هناك أكثر من كتاب مدرسى بالنسبة للمادة الواحدة وبالنسبة للصف الواحد[3]. وفى إطار دراستنا الحالية عن الحملة الفرنسية على مصر، يصبح التساؤل: هل ساهم هذا العامل فى إنتاج صور متعددة للحملة؟ أم أن الصورة كانت واحدة ومشتركة ومتماثلة؟ إن هذا التساؤل إنما يمثل لب الإشكالية التى تهتم الدراسة بمعالجتها من خلال تحليل مضمون خطاب كتب التاريخ المدرسية الفرنسية.

أول ملاحظة يجب الإشارة إليها هى أن كتب التاريخ المدرسية فى فرنسا تهتم – خاصة فى المرحلة الابتدائية – بالتركيز على أهم الأحداث التاريخية التى يريد "المرسل" أن ترسخ فى أذهان المتلقين؛ أى الأطفال الفرنسيين، وذلك عند دراسة هؤلاء لمادة التاريخ.

وفى حين يبرز حدث الحملة الفرنسية على مصر من بين الأحداث المتعلقة بتاريخ فرنسا كحدث كتب عنه المؤرخون – فرنسيون كانوا أم غير فرنسيين – الكثير، مما يظهر التحليل الكمى للكتب محل الدراسة حقيقة هامة، ألا وهى أن هذا الحدث لم ينل اهتماما كبيرا من قبل مؤلفى هذه الكتب.

فالجداول التاريخية – والتى تتضمن أهم الأحداث التاريخية – نادرا ما تتضمن تاريخ 1798، الذى يشير إلى بداية الاحتلال الفرنسى لمصر، والأهم هو أن هذه الجداول لا تتضمن على الإطلاق تاريخ 1801، وهو الذى يشير إلى هزيمة الفرنسيين وجلائهم عن مصر.

أما بالنسبة للسياق التاريخى الذى يتم فيه تقديم الحدث، فعادة ما يختار مرسل هذا الخطاب المدرسى بين موضوعين: تاريخ الديركتوار Directoire[4]، أو تاريخ

الجنرال بونابرت. وفى كلتا الحالتين يتم استعراض الحدث فى فقرة واحدة أو فقرتين على الأكثر، مع عنوان فرعى هو "الحملة الفرنسية" أو "الجنرال بونابرت".

وتوضح المقارنة بين كتب المستويات الثلاثة (CEP, CM, CE) [5] أنه كلما انتقل التلميذ إلى مستوى أعلى، ازداد الاهتمام بالحدث محل الدراسة، فالمستوى الأولىّ هو أقل المستويات إشارة إلى هذا الحدث، ويعد هذا الوضع مفهوما إذا ما تذكرنا أن كتب هذا المستوى لا تهتم إلا بالأحداث التى تعتبر الأكثر أهمية فى تاريخ فرنسا. نجد إذًا أن الحملة الفرنسية لا تصنف بين تلك الأحداث.

ونقدم النص التالى كمثال لمضمون كتب المستوى الأولىّ، وقد تمت إشارة سريعة للغاية إلى الحملة فى سياق تقديم تاريخ الجنرال بونابرت، والذى انتصر فى حملته على إيطاليا – هذه الحملة التى تأخذ حجما من الاهتمام أكبر بكثير من الحملة على مصر:

"لقد قاد بونابرت حملة إلى مصر، بهدف قض مضجع إنجلترا بالنسبة لمستعمراتها بالهند"[6].

وأول ملحوظة فى هذا الصدد أن الصراع بين فرنسا وإنجلترا يقدم - دون مواربة- كسبب رئيسى لهذه الحملة على مصر، وهذا ما سنجده مذكورا فى جميع الكتب. وفى بعض الأحيان تتم الإشارة إلى أن إنجلترا كانت تشكل مصدرا للتهديد بالنسبة لفرنسا، بما يوحى أن فرنسا كانت فى موقع الدفاع عن النفس عند قيامها بالحملة، وذلك يعزز بالقطع مشروعية هذه الحملة. وفى أحيان قليلة، يذكر المرسل المتلقى بأن إنجلترا كانت قد قامت عام 1763 بالاستيلاء على المستعمرات الفرنسية فى الهند، على أثر هزيمة فرنسا أمامها. ويتحدث النص المدرسى عن الحملة الفرنسية على مصر على أنها خطوة على طريق استعادة الممتلكات الفرنسية، مما يضفى أيضا شرعية للحدث. وهذه التفاصيل وغيرها، نجدها أكثر فى كتب المستويين المتوسط والعالى،سواء فيما يخص بالوضع الداخلى فى فرنسا، أو فيما يخص الحملة نفسها.

ولكن ماذا تختار الكتب فعلا أن ترويه عن الحملة؟

فى الواقع، تقدم الكتب حقيقة الموقف السياسى بدون اللجوء إلى استخدام أى من التبريرات المعروفة مثل: إنقاذ سكان مصر من استبداد المماليك، أو إنقاذ التجار الفرنسيين من الظلم، أو نشر مبادئ الثورة الفرنسية فى مصر. فكل هذه الحجج لا تظهر على الإطلاق فى كتب التاريخ للمرحلة الابتدائية.

ومن خلال سرد الحدث، يتم دائما إبراز معركة "الأهرام" الشهيرة، والتى انتصر فيها الفرنسيون. وهذه المعركة قد حدثت بالفعل كما نعلم، ولكن هل يتم هنا رواية الحقيقة التاريخية، أم يقدم من خلال السرد جزء من "المتخيل" يتم مزجه "بالحقيقى"[6]؟

عند تحليل الخطاب، يتضح لنا أنه يتم إبراز المعركة التى انتصر فيها بونابرت، وذلك من خلال عنصرين:

1- التسمية الفرنسية للحدث وهو "معركة الأهرام"، ففى حين أن هذه المعركة معروفة تاريخيا تحت مسمى "معركة إمبابة" وذلك وفقا للمكان الذى دارت فيه تلك المعركة، ولكن الفرنسيين اختاروا هذه التسمية لإضفاء المزيد من المجد لهذا الانتصار. ويبدو الأمر وكأن الفرنسيين أرادوا "استعارة" المجد الماضى للحضارة الفرعونية القديمة وإضافته لمجدهم الحاضر، (بالنسبة لتلك الفترة).

2- تهتم أغلب الكتب المحللة بذكر المقولة الشهيرة التى نسبت إلى بونابرت فى هذه المناسبة، عندما أراد حث جيشه على قتال الأعداء: "أيها الجنود، إن أربعين قرنا لتنظر إليكم، من أعلى هذه الأهرام"[7].

والجدير بالذكر، أن بعض هذه الكتب لا تكتفى بذكر هذه الكلمات، بل تقدم أيضا رسما إيضاحيا مصاحبا للنص، وتكون وظيفة هذا الرسم التأكيد بصورة أكثر فاعلية على مجد الجيش الفرنسى ومجد بونابرت نفسه.

ويحتل الجنرال بونابرت مكانة هامة فى هذه الكتب فيتم توجيه الأنظار إليه، ولا ننسى أنه سيتولى مقاليد الحكم فى فرنسا عام 1799، وتظهر الأسطورة التى تم خلقها حول شخصية بونابرت من خلال نصوص كالنص التالى:

"وفى عام 1798، كان بونابرت ملازم أول وهو فى عامه العشرين. وقد تم تعيينه قائدا للجيش الذى كان يحارب فى إيطاليا، وكان عمره حينئذٍ 27 عاما. وقد تمكن من دحر خمسة جيوش نمساوية الواحد تلو الآخر. ثم ذهب إلى مصر ليقاتل. وعند عـودته إلـى فـرنـسا، أصبح قائدا للفرنسيين، ولم يكن قد بلغ حينئذٍ إلا ثلاثين عاما"[8].

أما بالنسبة للحملة الفرنسية، فنرى بوضوح كيف أن الخطاب يقدم جملا مقتضبة فى هذا الشأن. وفى حقيقة الأمر، نجد أن متلقى هذا الخطاب – أى التلميذ – لا يعرف هكذا إلا القليل جدا عن الحملة الفرنسية. والجدير بالذكر أيضا أن طريقة تقديم الأمور فى هذا المقال توحى أن بونابرت قد انتصر فى مصر، بما أن الفترة التى سبقت الحملة كانت مليئة بالانتصارات (خلال الحملة على إيطاليا)، وكذلك بالنسبة للفترة التى أعقبت الوجود الفرنسى فى مصر (تولى بونابرت زمام السلطة فى فرنسا). وهكذا تعتبر الهزيمة الفرنسية فى مصر عام 1801 ضمن المسكوت عنه ولا يتم الحديث عنها.

وفى بعض الكتب، يتم الحديث عن تدمير الأسطول الفرنسى على يد الإنجليز فى "أبو قير": "وبسبب هذه الكارثة (تدمير الأسطول)، أصبح جيشنا« بمصر معزولا عن فرنسا. وتشكل حينئذٍ تحالف أوروبى جديد ضدنا« (...). فقام بونابرت، والذى كان يتابع بكثير من الاهتمام ما يجرى على الساحة الفرنسية، بترك جيشه فى مصر، وعاد وحده إلى فرنسا"[9].

ماذا سيكون إذًا مصير جيش بونابرت فى مصر؟ نلاحظ أنه بشكل عام، تلتزم الكتب المدرسية الصمت حيال هذه النقطة، وتهتم فقط بتولى بونابرت مقاليد الحكم فى فرنسا. ويشير كتاب واحد فقط، وباقتضاب، إلى استسلام الجيش الفرنسى،ويقدم هذه الواقعة كحدث دعت إليه الضرورة:

"ونجح بونابرت فى العودة إلى فرنسا، ولكن جيشنا اضطر للاستسلام"[10].

أما بالنسبة لهزيمة أخرى سابقة على هزيمة 1801، وهى التى مُنِّى بها الجيش

الفرنسى فى عكا، فنجد أن كتابين فقط من مجموع الكتب قاما بالإشارة إليها: الأول يربط بين هذه الهزيمة ورجوع بونابرت بعد ذلك إلى فرنسا نظرا لأنه اضطر أن "يصرف النظر عن مقاومة الإنجليز وعرقلتهم فى الهند"[11]، والكتاب الثانى مؤلفه يدعى لافيس LAVISSE [12]، وهو صاحب أشهر كتاب مدرسى فرنسى،وقد عزز النص بتقديم اللوحة الشهيرة للرسام الفرنسى جرو GROS، والتى تحمل عنوان: "المصابون بالطاعون فى يافا". ونرى فى هذه اللوحة الجنرال بونابرت وهو يلمس بشجاعة يحسد عليها، مريضا بالطاعون، فى مشهد يذكرنا بالسيد المسيح وبقدرته على شفاء المرضى. وينهى المؤلف نصه المفسر للوحة بتقييم نقدى يقول فيه: "هذه لوحة دعائية". وهذه أول مرة – بل المرة الوحيدة – التى نقرأ فيها هذا النوع من التقييم، والذى يوضح إحدى وظائف الصور والرسوم. ولكى نفهم جيدا هذا التقييم، لا بد أن نذكر أن صاحبه لافيس LAVISSE كان ينتمى إلى التيار الجمهوري؛ فكان تبعا لانتماءاته السياسية، يقف موقف المعارض للسياسة التى اتبعها بونابرت؛ مما أدى إلى وضع نهاية لنظام الجمهورية الأولى فى فرنسا، وأرسى بونابرت مكانه فى النظام الإمبراطورى فى فرنسا، وذلك فى أوائل القرن التاسع عشر.

وإذا كانت بعض أسباب هزيمة الفرنسيين قد تم ذكرها – مثل تدمير الأسطول الفرنسى،أو هزيمة بونابرت فى عكا – فإن الكتب المدرسية لا تذكر على الإطلاق أسباباً أخرى لا تقل أهمية عن السابق ذكرها؛ وهى المتعلقة بالمقاومة المصرية ضد المحتل الفرنسى. وذلك يمثل العنصر الثانى فى المسكوت عنه بالنسبة لحدث الحملة الفرنسية على مصر، فلا أثر للثورات التى قام بها المصريون ضد الاحتلال الأجنبى،بل الأدهى من ذلك أنه لا يتم ذكر المصريين فى أى من الكتب المدرسية محل الدراسة – ويبدو الأمر كما لو كانوا غير موجودين أصلا، وهكذا، وبمنتهى البساطة، يتم محوهم من على الساحة. فماذا إذًا عن صراع بونابرت فى مصر؟ وفقا للخطاب، فإن الصراع هو بالأساس مع إنجلترا من ناحية، ومع الأتراك[13]، أو

المماليك وهم "جنود السلطان"[14] من ناحية أخرى. ولكن يظل الغريم الإنجليزى هو الذى يحتل المكانة الكبرى على الساحة.

وإذا كان الكتاب المدرسى قد تجاهل الثورات المصرية ضد المحتلين الفرنسيين؛ حيث لم ترد أى إشارة إلى المصريين، فإن الثورات قد تم محوها من السرد التاريخى. والجدير بالذكر أننا وجدنا إشارة واحدة للمصريين فى كتاب مدرسى لا ينتمى إلى الحقبة محل الدراسة، ولكن إلى عام 1938؛ ففى كتاب **تاريخ فرنسا** لمؤلفيه GUILLEMAIN et LE STER نجد جملة يتم فيها الحديث عن المصريين، وذلك فى سياق محدد، بعد أن يتم سرد معركة الأهرام، والتى انتصر فيها الفرنسيون على المماليك – يخلص الكتاب إلى القول بأنه: "ومنذ ذلك الحين، أعجب المصريون بشجاعة الجنود الفرنسيين، كما كانوا قد أعجبوا من قبل بشجاعة الصليبيين وقت حملة القديس لويس إلى مصر"[15].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الكتاب كان ضمن سلسلة من الكتب المدرسية يطلق عليها "الكتب الكلاسيكية الكاثوليكية"، فذلك يفسر سبب مقارنة الحملة الفرنسية على مصر عام 1798 بالحملة الصليبية عام 1250.

وتبقى ملحوظة هامة تتصل بهذا المثال المنفرد فى ذكر المصريين، هو أن المصريين هنا حاضرون وغائبون فى نفس الوقت – فهم يبدون كما لو كانوا يحتلون مقاعد المتفرجين، يعجبون بشجاعة الفاعلين الإيجابيين (الفرنسيين) – ويبدون وكأن لا علاقة لهم بالفاعلين السلبيين فى هذا المشهد، ألا وهم المماليك.

وكما لم يتم ذكر المصريين فى المادة محل الدراسة، فلا تتم أيضا الإشارة إلى ما قام به الفرنسيون من أفعال قمعية ومن أعمال عنف تجاه المصريين خلال فترة احتلالهم لمصر، والتى دامت ثلاث سنوات. فالفاعل الفرنسى دائما ما يقوم بأفعال إيجابية – أو على الأقل، أفعال لها مشروعية واضحة؛ لأنه يرد بها مثلا على استفزاز أو تهديد معين، إلخ.

وفى إطار سرد حدث الحملة الفرنسية، يتحرك الفاعل الفرنسى فى مساحة تسمى "مصر"، ويذكر كتابان فقط أنها جزء من الإمبراطورية التركية. ولكن تظهر

مصر أساسا كمكان للمواجهة الفرنسية – الإنجليزية، وهو المعبر المفضل للتجارة البريطانية فى الهند. وهو أيضا المكان الذى شهد أحد الفصول الأكثر مجدا فى تاريخ الجنرال بونابرت، ألا وهو معركة الأهرام. مصر هى أيضا أرض الحضارة الفرعونية القديمة، ولا يتم الحديث عن هذه الحضارة إلا فى كتب المستوى الأعلى (CEP) التى تبدأ سردها للتاريخ بصفحات مكرسة لهذه الحضارة. وهم يسارعون فى الحديث عن الدور العلمى للحملة الفرنسية، وذلك منذ هذه الصفحات الأولى، فبفضل أعمال العلماء الذين صاحبوا الجيش الفرنسى إلى مصر، تم الكشف عن العديد من أسرار الحضارة القديمة، ويتم الحديث فى هذا الصدد عن شامبليون، ويعد اسم هذا العالم ضمن الشخصيات الفرنسية الشهيرة. ولكننا لا نجد إشارة – إلا فى حالات نادرة للغاية – لهؤلاء العلماء فى الدرس المخصص للحملة الفرنسية. فسرد حدث الحملة يركز – كما رأينا – على الجانبين السياسى والعسكرى.

ونصل بعد تحليل نصوص الكتب، إلى دور مرفقات النصوص من عناوين وعناوين فرعية، وجداول تاريخية، ورسوم، وخرائط، ومفاتيح الخرائط، وملخصات، وأسئلة وتدريبات، ووثائق – إن وجدت -. ونحاول الإجابة على السؤال التالى: هل قامت مرفقات النص بالتأكيد على الصورة التى يقدمها النص نفسه عن الحملة؟ أم قامت بتقديم صورة مختلفة؟. فى الواقع، نجد أن دور هذه المرفقات بالنسبة لهذا الحدث، بالأخص، محدودة للغاية؛ فالأسئلة مثلا تظل متعلقة بأسباب الحملة، أما الملخص، فيعيد بصورة عامة مضمون النص، ولكن مع إبراز الجوانب الإيجابية بصورة خاصة. فيصل الأمر أو بأحد الكتب إلى درجة أن يتم الحديث فقط عن الانتصارات فى الملخص، فى حين أن النص كان قد قدم واقعة تدمير الأسطول الفرنسى:

"أصبح الجنرال بونابرت شهيرا بفضل انتصاراته فى إيطاليا وفى مصر"[16]. وهكذا يصبح ما يجب على التلميذ أن تعيه ذاكرته، وتحتفظ - بالأخص - بصورة بونابرت التى تتحول شيئا فشيئا إلى أسطورة. ويصبح من خلال خطاب كتاب التاريخ المدرسى،أحد أهم رجال فرنسا العظام على مر التاريخ.

هذا عن أسطورة بونابرت. فماذا عن أسطورة الحملة الفرنسية نفسها، والتى تناقلها المؤرخون الفرنسيون خلال القرن التاسع عشر؟. فى الواقع، لا تظهر هذه الأسطورة على الإطلاق فى الخطاب محل الدراسة – فحجم "الواقعى" و"الحقيقى" يفوق حجم "المتخيل". ولكننا سجلنا حالة واحدة لتشويه تاريخى واضح ، حيث ينسب إلى بونابرت فضل بناء الدولة الحديثة فى مصر؛ ويتضح ذلك من خلال المثال التالى:

"قام بونابرت بتنظيم شئون مصر كما لو كان يريد البقاء بها، وأمر بإقامة عدة مشروعات كبرى مكنت هذا البلد من أن يصبح بعد ذلك دولة قوية وغنية"[17] ولا يحدد مرسل الخطاب تلك المشروعات الكبرى أو عن أى فترة لاحقة يتحدث. وتسهم صيغة الجملة المستخدمة فى التأكيد على أن ما يقال مطابق للواقع. وتأتى هذه الجملة بعد إشارة سريعة إلى هزيمة الجيش الفرنسى بميناء "أبو قير". ولكن يبقى هذا المثال هو الوحيد (الموجود بالكتب المحللة) الذى يمجد الأيادى البيضاء لبونابرت فى مصر.

وهكذا نرى أن الكتب المدرسية لا تعطى اهتماما يذكر لحدث الحملة الفرنسية؛ فهى لا تخصص له درسا قائما بذاته. صحيح أن الكتب تقدم حقيقة الموقف ممزوجا بشيء من "الخيالى" (تمجيد بونابرت) وبشيء من المسكوت عنه (غياب المصريين عن المشهد، عدم الإشارة إلى هزيمة 1801، إلخ).... أما بالنسبة للأسطورة المتصلة بالجوانب الإيجابية للحملة الفرنسية على مصر، فنجدها فى كتب المرحلة الثانوية، الأمر الذى يثير الدهشة: لأنه كان من المتوقع أن يكون خطاب هذه المرحلة أقرب إلى تحرى الدقة وتقديم الحقيقة التاريخية، ولكننا نكتشف أن "الخيالى" يتخذ مكانا أكبر بكثير من مكانه فى المرحلة الابتدائية، مبتعدا بذلك عن الموضوعية المطلوبة فى كتابة التاريخ: ففى كتب المرحلة الثانوية، نجد أن الخطاب يقوم بتمجيد بونابرت من ناحية، وتمجيد الحملة الفرنسية من جانب آخر. ولكن هذه الملحوظة تخرج عن نطاق تقديم صورة الحملة فى كتب المرحلة الابتدائية، وتحتاج إلى دراسة أخرى.

وإذا أردنا أن تتضح صورة الحملة الفرنسية أكثر، فإن من الأهمية بمكان مقارنة طريقة تقديم هذا الحدث بطريقة تقديم حدث آخر ينتمى إلى تاريخ الاستعمار الفرنسى – ألا وهو احتلال الجزائر. وكما نعلم، فإن الفرنسيين قاموا باحتلال الجزائر عام 1830 – أى بعد مرور نحو 29 عاما على انتهاء الحملة الفرنسية على مصر. واستمر المستعمر الفرنسى فى التوغل فى الأراضى الجزائرية على مدى سنوات طويلة حتى نجح فى استعمار الجزائر بأكملها واستقر فى هذا البلد الذى أصبح أهم مستعمرة فرنسية فى القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين.

والتساؤل الذى يهمنا الإجابة عليه هنا هو: هل تم تقديم هذا الحدث على غرار تقديم حدث الحملة الفرنسية؟ إن تحليل كتب التاريخ المدرسية للمرحلة الابتدائية يبرز لنا عدة حقائق، نذكر منها النقاط الرئيسة التالية:

– تقدم غالبية الكتب محل الدراسة موضوع استعمار الجزائر، وتفرد له صفحات متعددة (على المستوى الكمى)، بل وفى كثير من الأحيان، يكون هناك فصل كامل مخصص لهذا الموضوع. وفى بعض الأحيان، يتم تقديم الموضوع على مدى فصلين: أولهما يختص بمسألة استعمار الجزائر، وثانيهما يقدم النموذج الجزائرى كمثال إيجابى للمستعمرات الفرنسية. وهكذا يتضح أحد أوجه الاختلاف مع حدث الحملة الفرنسية، والذى كان يتم الإشارة إليه – كما رأينا – بصورة مختصرة جدا.

– نجد أن عنوان الدرس يحمل مفردات ذات دلالة إيجابية، فيتكرر استخدام تعبير "فتح الجزائر" بدلا من "استعمار الجزائر"[18] (مع العلم بأن الخطاب الفرنسى كان يستخدم كلمة "استعمار" فى هذه الفترة بمعنى إعمار الأرض واستصلاحها. ولكن تظل كلمة "فتح" لها وقع إيجابى أكبر). ونجد فى كثير من الكتب أيضا العنوان التالى: "الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية" . وفى بعض الأحيان يركز العنوان على: "مجد" أو "عظمة" هذه الإمبراطورية. وكما نرى من خلال هذه النماذج، فإن كل المفردات المختارة تقدم لتلميذ المرحلة الابتدائية صورة إيجابية لهذا الحدث، وذلك منذ لحظة قراءة عنوان الدرس.

- تتضمن القوائم التاريخية تاريخ 1830 فى حين أنها لا تشير إطلاقا إلى تاريخى 1954 (بداية حرب الجزائر) و1962 (نهاية الحرب وجلاء الفرنسيين عن الجزائر). وهكذا نرى أنه يتم بمنتهى البساطة "التخلص" من التواريخ التى تشير إلى أحداث تتعلق بجوانب سلبية للفاعل الفرنسى (الهزيمة،..).

- والجدير بالذكر أن "المسكوت عنه" هو حرب الجزائر وكذلك النتيجة التى انتهت إليها هذه الحرب، ألا وهى هزيمة الفرنسيين عام 1962 واضطرارهم للتخلى عن هذه المستعمرة. فيتم التعامل مع الحرب ثم مع الاستقلال على أنهما من الموضوعات التابو Tabou، وذلك فى الفترة اللاحقة لعام 1962. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الخطاب التاريخى بنماذجه الثلاثة (المدرسى،والتعميمى،وخطاب البحث العلمى) قد خلا لسنوات طويلة من ذكر تلك الأحداث التى مثلت – وما زالت تمثل – جرحا غائرا فى الذاكرة الجماعية الفرنسية.

وإذا رجعنا إلى الكتب المدرسية المقررة بعد عام 1962، فسنجد أنها لجأت إلى أحد الحلين للتعامل مع موضوع استعمار الجزائر:

- إما أن تستمر فى سرد الأحداث وتقديم الموضوع كما لو كانت الجزائر ما زالت مستعمرة فرنسية.

- وإما أن يتحول موضوع استعمار الجزائر إلى موضوع تابو Tabou، وقد لاحظنا ذلك بصورة خاصة فى كتب المستوى الأولى (CE).

وبعد هذه الملاحظات الأولية، ماذا عن السياق التاريخى الذى تم تقديم حدث استعمار الجزائر من خلاله؟

إذا كان تقديم سياق الحملة الفرنسية تميز بأنه كان مطابقا للحقيقة التاريخية، فإن حدث استعمار الجزائر تم تقديمه فى سياق مختلف تماما. فالكتب تفرد مساحة واسعة لسرد واقعة سب (أو إهانة) حاكم الجزائر للقنصل الفرنسى،مما يعد إهانة لفرنسا، خاصة أن الحاكم يرفض الاعتذار عن موقفه، وبعد أن تصبر فرنسا عليه مدة طويلة، تضطر إلى إرسال الجيوش (!!) إلى مدينة الجزائر وتستولى عليها.

وتقدم الكتب أيضا مبررا آخر للاستعمار الفرنسى حين تؤكد أن السفن التجارية الفرنسية كانت تعانى لفترة طويلة من عمليات قرصنة من جانب سكان الجزائر مما اضطر (أيضا) فرنسا أن تسعى لمنع هذه الاعتداءات، وذلك عن طريق إرسال الجيوش. ونقدم هنا مثالا يحمل بعضا من الطرافة حيث يؤكد المؤلفين M. et S. CHAULANGES أن "القراصنة كانوا يهاجمون سفننا، وذلك منذ عدة قرون"[19]. فالفرنسيون أقدموا إذاً على خطوة الذهاب إلى الجزائر بعد طول صبر!

وفى إطار المقارنة التى تهمنا هنا مع حدث الحملة الفرنسية، نكتشف أن تقديم أسباب استعمار الجزائر ينطوى على مبررات لا تستند إطلاقا إلى الحقيقة التاريخية. وإذا يتم الحديث عن الصراع الفرنسى – الإنجليزى فى الحالة الأولى، لا تتم الإشارة إطلاقا إلى هذا الصراع فى الحالة الثانية.

ويؤكد الخطاب التاريخى المدرسى على "اضطرار" فرنسا و"واجب" فرنسا والذى يحتم عليها القيام بهذه الخطوة مما يضفى الشرعية الكاملة لهذا الاستعمار. ثم ينتقل الخطاب من تبرير الاستيلاء على مدينة الجزائر إلى تبرير استعمار الجزائر كله، حيث إن الفرنسيين يضطرون لذلك لسببين رئيسين، وفقا للخطاب:

أ) "اضطرارهم" للتصدى "لهجمات" بعض القبائل الجزائرية لهم، وتكون أصعب المعارك مع عبد القادر الجزائرى،لكنها تنتهى بأن يتحول هذا العدو، بعد هزيمته أمام الفرنسيين واستسلامه هو وقواته، إلى "صديق وفى لفرنسا". ولا يتوقف الخطاب إطلاقا لحظة واحدة لتفسير هذه النتيجة غير المنطقية. فالعدو قد تحول فجأة إلى "صديق وفى". "ولا تستخدم مطلقا أية مفردات أو تعبيرات من قبيل "مقاومة المحتل الأجنبى".

ب) المبرر الثانى الذى تقدمه الكتب هو الخاص "بالمهمة الحضارية لفرنسا" فى الجزائر. وتفرد الكتب فقرات طويلة للحديث عن إنجازات فرنسا فى الجزائر – وهى لا تعد ولا تحصى. ويتم التأكيد على الخير الذى عم البلاد وعاد على سكان البلد بفضل الوجود الفرنسى. ويؤكد الخطاب على الفاعل الفرنسى والذى لا يقدم

إلا على أفعال إيجابية للغاية لدرجة أنه يتم تقديم الفرنسيين على أنهم ضحوا بأنفسهم من أجل إنجاز هذه "المهمة الحضارية" النبيلة، وذلك بالرغم من قسوة الحياة فى الجزائر (الصحراء الجرداء، الطقس القاسى،القبائل الهمجية، إلخ...).

ولا يمكن فى إطار المقارنة السريعة بين حدثى الحملة الفرنسية واستعمار الجزائر إلا أن نشير إلى وجه هام من أوجه التشابه – وهى قليلة فى واقع الأمر – ويتمثل هذا الوجه فى أنه لا يتم الإشارة إلى الجزائريين "كشعب" بل يتم الحديث عن "قبائل" و "قراصنة" و "سكان". وقد رأينا كيف أن الكتب لم تشر أيضا إلى المصريين كشعب. ففى الحالتين يتم الحديث كما لو كان الفاعل العربى (المصرى أو الجزائرى) غير موجود. ويسهم هذا الوضع فى إعطاء شرعية لكل من الحدثين. وهذه سمة من سمات الخطاب الاستعمارى الفرنسى،كما ظهر من خلال تحليل كتب التاريخ المدرسية للمرحلة الابتدائية...

ثبت الكتب المدرسية الفرنسية المحللة فى الدراسة وعددها (92 كتابا)

- **كتب المستوى الأولى (Cours élémentaire):**

1- GUILLEMAIN et LE STER, *Histoire de France,* Ecole et Collège, 1945.

2- DUPREZ, *Histoire de France,* Albin Michel, 1946.

3- LECAT, LOCQUENEUX et PITON, *Histoire de France par l'image et le récit,* Delalain, 1946.

4- POMOT et BESSEIGE, *Petite Histoire du Peuple français,* Presses du Massif Central, 1947.

5- FLANDRE et MERLIER, *Histoire de France,* Gedalge, 1948.

6- BONNE, *Grandes figures et grands faits de l'Histoire de France,* Bibliothèque d'éducation, 1948.

7- GUILLEMAIN et LE STER, *Histoire de France,* Ecole et Collège, 1949.

8- TEISSIER et CHOUET, *Histoire de France,* Fernand Lanore, 1949.

9- AUDRIN, M. et L. DECHAPPE, *Notre France, son histoire*, Charles Lavauzelle, 1951.
10-SEGOND, *Histoire de France des Origines à nos jours*, Hatier, 1951.
11-MAUREL et EQUY, *Mon histoire de France en Images,* de Gigord, 1952.
12-TROUX, DE LABLANCHE et MANGEOT, *Histoire de France,* Hachette, 1952.
13-BONIFACIO et MERIEULT, *Histoire de France. Images et Récits,* Hachette, 1952.
14-PERSONNE, BALLOT et MARC, *Histoire de France,* Colin, 1952.
15-POMOT et BESSEIGE, *Petite Histoire du Peuple français,* Presses du Massif Central, 1953.
16-TROUX, DE LABLANCHE et MANGEOT, *Histoire de France,* Hachette, 1953.
17-BROSSOLETTE et OZOUF, *Mon Premier Livre d'Histoire de France*, Delagrave, 1953.
18-LAVISSE, *Histoire de France,* Colin, 1954.
19-DAVID, FERRÉ et POITEVIN, *Histoire*, Nathan, 1955.
20-GAUTROT-LACOURT et GOZÉ, *Premier Livre d'Histoire de France*, Bourrelier, 1955.
21-Une réunion de professeurs, *Histoire de France,* Ligel, 1955.
22-AYMARD, *Histoire de France,* Hachette, 1956.
23-ANNARUMMA et al, *Histoire de France,* Magnard, 1957.
24-BELOT, *Nouveaux Récits d'Histoire de France,* Istra, 1958.
25-CANAC et DUPAQUIER, *Couleurs de l'Histoire,* Didier, 1959.
26-OZOUF ET LETERRIER, *Belles Histoires de France,* Belin, 1961.
27-BONIFACIO et al, *Histoire de France,* Hachette, 1963.
28-PRADEL et VINCENT, *Histoire de France,* S.U.D.E.L., 1964.
29-GRIMAL et MOREAU, *Histoire de France,* Nathan, 1965.

30-M. et S. CHAULANGES, *Premières Images d'Histoire de France,* Delagrave, 1965.

31-GÉRON et ROSSIGNOL, *Belles Images d'Histoire,* Rossignol, 1965.

32-GAUTROT-LACOURT et GOZÉ, *Premier Livre d'Histoire de France,* Colin-Bourrelier, 1966.

33-M. et S. CHAULANGES, *Images et Récits d'Histoire de France,* Delagrave, 1967.

34-OZOUF et LETERRIER, *Images d'Histoire*, Belin, 1967.

35-BERNARD et REDON, *Notre Premier Livre d'Histoire,* Nathan, 1967.

36-GAUTROT-LACOURT et GOZÉ, *Premier Livre d'Histoire de France,* Colin-Bourrelier, 1967.

37-GRIMAL et MOREAU, *Histoire de France,* Nathan, 1967.

38-AUDRIN, M. et L. DECHAPPE, *Histoire de France. Images et Récits,* Charles Lavauzelle et Cie, 1968.

39-PERSONNE, BALLOT et MARC, *Nouveau Livre d'Histoire de France,* Colin, 1968.

40-M. et S. CHAULANGES, *Premières Images d'Histoire de France,* Delagrave, 1969.

41-AGEORGES et ANSCOMBRE, *Images et Récits d'Histoire*, M.D.I., 1969.

• كتب المستوى الأولّ والمستوى المتوسط

(Cours élémentaire et cours moyen)

42-RUHLMANN et GARNIER, Histoire. De la Gaule à Nos Jours, Société d'éditions classiques de Lorraine et d'Alsace, 1947.

43-PLOTHIER et TRIAUD, Histoire de France, Les éditions scolaires, 1949.

44-BESSEIGE et LYONNET, Petite Histoire de France, Istra, 1950.

45-AYMARD, Histoire de France, Hachette, 1952.

• كتب المستوى المتوسط (Cours moyen)

46-LECAT, LOCQUENEUX et PITON, L'Histoire de France par l'Image et le Récit, Delalain, 1945.

47-LAVISSE, Histoire de France, Colin, 1946.

48-M. et S. CHAULANGES, Histoire de France, Delagrave, 1946.

49-BERNARD et REDON, Nouvelle Histoire de France et de la Civilisation Française, Nathan, 1946.

50-BILLEBAUT, Au Temps de .... Histoire de France, L'Ecole, 1947.

51-TROUX et GIRARD, Histoire de France, Hachette, 1947.

52-TROUX et GIRARD, Histoire de France, Hachette, 1949.

53-HALLYNCK, Éléments d'Histoire de France des Origines à nos jours, Masson et Cie, 1950.

54-M. et S. CHAULANGES, Histoire de France, Delagrave, 1950.

55-PERSONNE, BALLOT et MARC, Histoire de France, Colin, 1951.

56-ALBA et PAGES, Histoire sommaire de la France, Hachette, 1952.

57-OZOUF et LETERRIER, Histoire de France, Belin, 1952.

58-CLOZIER, DEPAIN et GUYOMARD, Histoire de France, Larousse, 1953.

59-AUDRIN, M. et L. DECHAPPE, Notre France, son Histoire, Charles Lavauzelle, 1954.

60-LE TERRIER et OZOUF, Notre Livre d'Histoire, Belin, 1955.

61-DAVID, FERRÉ et POITEVIN, Histoire, Nathan, 1956.

62-BONNE, Notre Histoire, S.U.D.E.L., 1957.

63-GRIMAL et MOREAU, Histoire de France, Nathan, 1960.

64-M. et S. CHAULANGES, Histoire de France, Delagrave, 1963.

65-FLANDRE et MERLIER, Histoire de France, Belin, 1963.

66-BONIFACIO et MARÉCHAL, Histoire de France, Hachette, 1964.

67-BILLEBAUT, Histoire de France et des Français, L'Ecole, 1964.

68-PERSONNE, BALLOT et MARC, Nouveau Livre d'Histoire de France, Colin, 1966.

69-M. et S. CHAULANGES, Histoire de France, Delagrave, 1966.
70-PLANDÉ, M. et L. DECHAPPE, Histoire, Charles Lavauzelle, 1966.
71-ANSCOMBRE, Je comprends et j'aime l'Histoire, M.D.I., 1969.

• كتب المستوى المتوسط والمستوى العالى

(Cours moyen et cours supérieur)

72-AYMARD, Histoire de France, Hachette, 1948.
73-BONIFACIO et MARÉCHAL, Histoire, Hachette, 1961.
74-BARON, Histoire de France, Magnard, 1963.

• كتب الصف النهائى للدراسات الابتدائية

(Classe de fin d'études primaires)

75-ROPS, Notre Histoire (Tome 1), Didier, 1946.
76-ROPS, Notre Histoire (Tome 2), Didier, 1946.
77-BERNARD et REDON, Le Livre Unique d'Histoire, Nathan, 1948.
78-GUILLERMIT et LE STER, Histoire de France, L'Ecole, 1948.
79-TROUX et GIRARD, Histoire de France, Hachette, 1948.
80-POMOT et BESSEIGE, Petite Histoire du Peuple français, Presses du Massif Central, 1949.
81-M. et S. CHAULANGES, Histoire de la Civilisation, Delagrave, 1950.
82-ROPS, Notre Histoire (Tome 1), Didier, 1950.
83-ROPS, Notre Histoire (Tome 2), Didier, 1951.
84-ARNOULD et MATHIEU, A la Découverte des Choses et des Gens d'Autrefois, Alsatia, 1951.
85-CLOZIER, DEPAIN et GUYOMARD, La France dans l'Histoire de la Civilisation, Larousse, 1954.
86-Une réunion de professeurs, Toute Notre Histoire, Ligel, 1955.

87-AUDRIN, M. et L. DECHAPPE, De l'Antiquité à la France d'aujourd'hui, Charles Lavauzelle, 1958.

88-PRADEL et VINCET, Histoire, S.U.D.E.L., 1961.

89-LAVISSE, Histoire de France, Colin, 1963.

90-AUDRIN, M. et L. DECHAPPE, De l'Antiquité à la France d'aujourd'hui, Charles Lavauzelle, 1964.

91-PERSONNE, BALLOT et MARC, Histoire de France et Initiation à l'Histoire de la Civilisation, Colin, 1965.

92-M. et S. CHAULANGES, L'Histoire vivante des Peuples de l'Antiquité aux Français d'aujourd'hui, Delagrave, 1967.

الهوامش

1. كانت الكتب المدرسية للمرحلة الابتدائية بفرنسا، والمقررة فى الفترة ما بين 1945 و1969، هى المادة التى تم تحليل مضمونها، وذلك فى إطار دراسة موضوع رسالة الدكتوراه للباحثة. وكان عنوان الرسالة هو:

La Représentation de l'Orient arabe dans le discours historique français: 1945-1969 (les manuels scolaires du cycle primaire), Faculté des Lettres, Université du Caire, 1997.

(*) المدرس بقسم اللغة الفرنسية وآدابها – كلية الآداب – جامعة القاهرة.

2. الترجمة الحرفية لاسم المادة هى: "المواد التعليمية المختصة بالتيقظ"؛ أى التى تعطى التلميذ معلومات أولية تشد بها انتباهه بصورة مبسطة.
3. تتكون عينة الكتب المدرسية المحللة هنا من 92 كتابا. وتتعدد دور النشر التى أصدرت هذه الكتب بحيث يصل عددها إلى 27 دور نشر (انظر القائمة المرفقة بالبحث). وقد تم اختيار هذه الكتب بناء على معيارين أساسيين: 1- أهمية دار النشر، مما يعد مؤشرا على مدى انتشار استخدام كتاب مدرسى بعينه، 2- إمكانية الاطلاع على الكتاب.
4. هى الحكومة التى أدارت شئون الحكم فى فرنسا فى الفترة ما بين 1795 و 1799.
5. تنقسم المرحلة الابتدائية إلى ثلاثة مستويات: cours élémentaire (CE) وهو المستوى الأولى (لمدة عامين) ثم cours moyen (CM)، وهو المستوى المتوسط (لمدة عامين آخرين)، وأخيرا classe de fin d'études primaires (CEP) وهو الصف النهائى للدراسات الابتدائية.
6. BELOT, Nouveaux Récits d'Histoire de France, CE, Istra, 1958, p. 78.
7. Une réunion de professeurs, Toute Notre Histoire, CEP, Figel, 1955, p. 260.
8. TROUX, DE LABLANCHE et MANGEOT, Histoire de France, CE, Hachette, 1952, p. 50.

(*) يوظف الخطاب صيغة الـ"نحن" ليتم خلق شعور واحد لدى مرسلى ومتلقى هذا الخطاب وتوحدهم مع الجيش الفرنسى. ومن خلال هذا التوظيف، يتم استيعاب المتلقين – أى التلاميذ - للخطاب، ويحدث نوع من التماثل أو التطابق مع شخصيات المشهد التاريخى أو الفاعلين الفرنسيين فى الحدث المقدم.

9. CLOZIER et DEPAIN, Histoire de France, CM, Larousse, 1957, p. 128.

10. BILLEBAUT, Histoire de la France et des Français, CM, L'Ecole, 1964, p. 91.

11. Une réunion de professeurs, op.cit., p. 261.

12. LAVISSE, Histoire de France, CEP, Colin, 1963, p.241.

13. CANAC et DUPAQUIER, Couleurs de l'Histoire, CE, Didier, 1959, p.35.

14. GRIMAL et MOREAU, Histoire de France, CM, Nathan, 1960, p. 91.

15. GUILLEMAIN et LE STER, Histoire de France, CE, Ecole et Collège, 1938, p. 173.

16. CANAC et DUPAQUIER, op.cit., p. 35.

17. M. et S. CHAULANGES, Histoire de France, CM, Delagrave, 1950, p. 151.

18. نذكر في هذا الصدد على سبيل المثال لا الحصر الكتب المدرسية التالية:

- LECAT, LOCQUENEUX et PITON, *Histoire de France par l'image et le récit,* CE, 1946.
- M. et S. CHAULANGES, *Histoire de France,* CM, 1950.
- ROPS, *Notre Histoire,* Tome 2, CEP, 1951.

19. M. et S. CHAULANGES, *Histoire de France*, op.cit., p. 158.

* * *

الحملة الفرنسية فى الخطاب التاريخى المصرى
(دراسة تحليلية لمناهج مادة التاريخ فى المرحلة الإعدادية)
(2006- 1960)

ا. هناء فريد

منذ أن ترك الإنسان الأول بصماته من رسوم وعلامات مختلفة على جدران الكهوف، تكونت ذاكرة الإنسانية، هذه الذاكرة التى من شأنها أن تبنى وتحدد هوية المجتمعات من خلال التصوير والتمثيل والرمز. ومنذ ذلك الحين تنوعت الأساليب والسبل لتصوير ما كانت عليه حياة المجتمعات بتكويناتها المختلفة حتى نشأت الكتابة التى كرّست لتسجيل أهم الأحداث وأهم الشخصيات التى برزت فى فترات معينة أو متتالية فى حياة هذه المجتمعات.

وكانت الأهداف المرجوة من كتابة التاريخ متعددة وأهمها تسجيل الأحداث وإبراز دور الشخصيات التى قامت أو أثّرت فى هذه الأحداث لتخدم الفكر السياسى أو الفكر الدينى أو الذات الشخصية كما كان هو الحال فى العصور القديمة فتسجل الأحداث على فترات زمنية طويلة متعاقبة دون أن تخضع هذه الأحداث لكتابة موضوعية ومنظمة، فهى ترصد لإحياء الماضى وإبراز أحسن أو أسوأ ما به بتضخيمه أو بطمسه.

وسواء كان تسجيل الأحداث وكتابة التاريخ يخدما أغراضا محددة وفى أحيان كثيرة وقتية ومعزولة بالنسبة للتسلسل التاريخى الذى عرف به كتابة التاريخ فيما بعد، فإن أهمية تسجيل الأحداث وكتابة التاريخ كانت على مرّ العصور مغروسة فى الثقافات المجتمعية وفى الإطار الحسى للقوميات، تخاطب الأجيال المعاصرة والقادمة لتزرع فيهم الإحساس بالانتماء لأرض الوطن وتغرس فيهم القيم والمعتقدات لتنمية الشعور بالمسئولية والترابط والتضامن.

وقد اهتم قدماء المصريين بتدوين تاريخ ملوكهم وأعمال هؤلاء الملوك لشعورهم بالانتماء إلى دولة كبيرة أنشأت حضارة عظيمة، فكان من واجب كل فرد فى المجتمع أن يتعرف على هذه الحضارة ويفتخر بها عن طريق تدريسها للتلاميذ؛ ليتشبعوا بروح الانتماء وعظمة بلدهم. لم تغب هذه الأهمية عن أذهان معلمى مصر القديمة، فقد كانوا دائما حريصين على تنبيه تلاميذهم إلى أهمية معرفة تاريخ بلدهم. نجد مثلا أن فى بردية تعاليم "مرى كا رع" من الأسرة الثامنة عشرة من الدولة الحديثة يصور المعلم الحاكم المثالى والمسئول مستشهدا بأحداث سالفة وكيفية التعامل معها. أما البردية التى تسرد رحلة "ون آمون" فى عصر رمسيس الحادى عشر من الدولة الحديثة فهى تحكى بمنتهى الدقة الأحداث التى مرّ بها "ون آمون" فى رحلته إلى بلاد لبنان موضحا نوعية العلاقات التى كانت تربط مصر بدول حوض البحر المتوسط. وقد حرص كاتب هذه البردية على معالجة الأحداث معالجة تاريخية فى تتابعها الزمنى وفى دقة وصف الأشخاص والأماكن التى مرّ بها "ون آمون". وكانت هذه البرديات تستعمل فى مدارس مصر القديمة على مر القرون سواء لتعلم القراءة والكتابة أو للتعرف على الماضى والاستفادة من دروس هذا الماضى.

وإذا تأملنا اليوم مناهج التاريخ المقررة على تلاميذ مدارس مصر، نجد أن الأهداف مطابقة لما كان عليه فى الماضى، وإن كان مفهوم كتابة التاريخ قد تغيّر وتطور إلى حد كبير، إذ لم تعد كتابة التاريخ تقتصر على سرد الأحداث الخاصة ببلد بعينه وعلى الاستفادة من دروس الماضى وإعطاء النصائح لتفادى الأخطاء. وإنما

تشمل كتابة التاريخ جوانب عديدة من تاريخ الشعوب على المستوى القومى والمستوى العالمى، بالإضافة إلى تناول الأحداث وتفسيرها وتوضيح تأثيرها على مصير الأمم والشعوب.

تعتبر تربية النشء على معرفة تاريخ بلده من مهام الدولة الأساسية فى عصرنا الحديث لأهمية غرس بذور الانتماء والولاء فى نفوس التلاميذ وربط حاضرهم بماضيهم فى عملية مستمرة تربط مصائر الأجيال المتتالية عبر السنين والقرون. لذا تعرض المادة التاريخية فى المناهج المدرسية وفقا للخطط التى تضعها الدولة والتى تتمثل فى الاتجاهات والإرشادات التى تقرر الدولة إبرازها وتطويرها فى مناهج التاريخ بغرض تنمية المعرفة والحس التاريخى عند التلاميذ لخدمة فكر معين يكون مطابقا لتوجهات الدولة السياسية والأخلاقية والمنهجية.

لا تخرج مناهج التاريخ المقررة على تلاميذ مصر عن هذا الإطار وخاصة المناهج التى وضعت بعد ثورة يوليو 1952. ولا عجب فى هذا إذ إنه كان ضروريا ومنطقيا أن تعرض مادة التاريخ من منظور جديد يتفق مع الظروف الجديدة التى أنجبت فكر جديد وقيم جديدة تنذر بسلوكيات جديدة، ليس فقط تجاه الأحداث القادمة ولكن بالأخص تجاه الأحداث الماضية. كان على عاتق واضعى المناهج التاريخية أن يأخذوا فى الاعتبار كل هذه العناصر الجديدة محاولين توجيه فكر وشعور النشء الجديد إلى قيم كانت من وجهة نظرهم غائبة أو مطموسة فى مناهج ما قبل ثورة 1952. ومنذ قيام ثورة يوليو 1952 أصبح حاضر مصر وماضيها ومستقبلها فى يد أصحابها يغيب عنها أية وصاية خارجية أم داخلية تتحكم فى كتابة تاريخ هذا البلد الذى أصبح حرا مستقلا.

يحرص مسئولو المناهج التاريخية فى إرشادات إدارة المناهج والكتب بوزارة التربية والتعليم وفى مقدمة المقررات.. يحرصون على توضيح فلسفة الدولة العامة متمثلة فى الأهداف المعرفية والوجدانية والمهارية؛ من أجل غرس القيم السامية

والنبيلة فى نفوس التلاميذ. وعليه فقد جاء الخطاب التاريخى فى المقررات ممثلا ومترجما لهذه القيم من خلال الأحداث التاريخية التى يتناولها.

والسؤال الذى نطرحه هو: هل نجح واضعو المناهج التاريخية فى مصر من الوصول إلى الأهداف الموضحة فى إرشادات الوزارة وفى مقدمة المقررات؟ هل استطاع الخطاب التاريخى عند عرض الأحداث التاريخية أن يغرس فى نفوس التلاميذ القيم التى من أجلها وضعت هذه المناهج ؟ هل استطاع الخطاب اللغوى فى ترجمة هذه الأهداف؟ هل نجح المنهج الذى اتبع فى كتابة التاريخ من إتمام المهمة؟

للإجابة على هذه الأسئلة سوف نعتمد فى دراستنا على تحليل خطاب مناهج التاريخ وإرشادات ومقدمات المناهج التى وضعت بعد ثورة 1952 لتلاميذ المرحلة الإعدادية، والتى تتناول موضوع الحملة الفرنسية على مصر والشام فى الفترة ما بين 1798 و 1801.

ينبع اختيارنا لمناهج المرحلة الإعدادية من أن التاريخ فى هذه المرحلة من التعليم الأساسى يعرض بشكل من التوسع على عكس ما يجرى فى المرحلة الابتدائية الذى يتناول التاريخ بإيجاز، وإن كانت مادة التاريخ تدرّس فى هاتين المرحلتين ضمن المواد الاجتماعية أى ضمن مادة الجغرافية والتربية القومية، وبمعنى أنه لا تعرض فى كتاب منفصل عن هاتين المادتين، وبالتالى فإن عرض الأهداف سواء فى إرشادات الوزارة أو فى مقدمة المقرر يخص الثلاث مواد على حد سواء. ويبدو هذا واضحا فى عنوان الإرشادات لعام 2002-2003: "الأهداف العامة لمقررات الدراسات الاجتماعية (المرحلة الإعدادية) 2002/ 2003."

يبدأ تنمية الوعى التاريخى عند التلاميذ فى إطار العملية التعليمية ابتداء من المرحلة الابتدائية ويتعمق خلال المرحلة الإعدادية. تعتبر المرحلة الإعدادية من المراحل المهمة فى حياة التلميذ إذ إنه يبلغ حين يصل إلى هذه المرحلة سن الثانية عشرة وينهيها فى سن الخامسة عشرة. يتطور خلال هذه الفترة من عمر التلميذ

إدراكه الذهنى وقدراته فى الفهم والتحليل والاستيعاب والنقد، ويتم أيضا تنمية حسه بالنسبة للمجتمع الذى يعيش فيه والوطن الذى ولد فيه كما يزيد إدراكه بالأحداث التى مرت به فى تاريخه. يكمن الاختلاف بين المرحلتين الابتدائية والإعدادية فى مضمون المنهج الذى يعرض لتناول المادة التاريخية، فيهتم المؤلفون فى المرحلة الابتدائية بعرض أحداث التاريخ فى مجملها، وبإيجاز ليكون الهدف من هذه المرحلة هو أن يتعرف التلميذ على الملامح العامة لتاريخ بلده دون الدخول فى تفاصيل الأحداث. أما واضعو مقررات المرحلة الإعدادية فيعرضون التاريخ بنوع من التفصيل محترمين فى ذلك التتابع الزمنى للأحداث وكاشفين الظروف التى أحاطت بكل فترة موضحين الأسباب التى أتت بالحدث ومبينين النتائج التى ترتبت عنه. ويأتى عرض الأحداث وأسبابها ونتائجها ضمن مشروع غرس القيم الوجدانية والمعرفية والمهارية فى نفوس النشء كما هو موضّح فى أهداف الإرشادات العامة للوزارة ومقدمة المقررات.

لا يخرج العرض التاريخى للحملة الفرنسية على مصر والشام عن هذا المنهج وذلك المشروع، وسوف نحاول فى تحليلنا من خلال هذا الحدث بالذات أن نوضح مدى استيفاء النص التاريخى للأهداف التى رمت إليها الإرشادات والمقدمات، وكيف تمخضت داخل الخطاب الذى كوّن النص التاريخى.

إن الإرشادات العامة لتدريس مادة الدراسات الاجتماعية واضحة الأهداف من حيث التوجيهات لاكتساب المعرفة وتوطيد القيم الوجدانية وتنمية المهارات. يتم عرض الإرشادات فى نقاط عبارة عن جمل اسمية تبدأ بمصدر اسمى مثل: التعرف، تقدير، إصدار، تنمية، تأكيد، تحقيق. فجاءت كلمة "التعرف" ثمانى مرات للتعبير عن الأهداف المعرفية، وكلمة "تنمية" إحدى عشرة مرة للتعبير عن الأهداف الوجدانية والمهارية، وكلمة "تقدير" ثلاث مرات للإعراب عن الأهداف الوجدانية، و"إصدار" و"تأكيد" و"تحقيق" و"إبراز" مرة واحدة للتعبير عن الأهداف الوجدانية كما هو موضح فى الجدول التالى:

المصدر الاسمى	عدد مرات استخدام المصدر الاسمى	نوعية الأهداف	محتوى الهدف
التعرف	8	أهداف معرفية	على مظاهر البيئة
			على الظروف والعوامل والخصائص
			على النظم والمؤسسات
			على العصور التاريخية
			على دور الشعوب
			على المفاهيم والحقائق
			على أساليب التفكير العلمى
			على التطورات والأحداث
تنمية	11	أهداف وجدانية	القدرة على تقبل الرأى والرأى الآخر
	4		اتجاه إيجابى نحو التعلم الذاتى
			أهمية التكامل الاقتصادى
			القيم الروحية والفضائل الخلقية
			مهارة قراءة الخرائط
	7	أهداف مهارية	مهارة قراءة وتفسير الجداول والرسوم البيانية
			مهارة استخدام الأشكال التوضيحية
			مهارة عمل الرسوم البيانية
			القدرة على الملاحظة
			مهارة إعداد وقراءة الأبحاث
			القدرة على المقارنة والربط بين ما يدرس وما يحدث فى المجتمع
تقدير	3	أهداف وجدانية	عظمة الخالق
			دور الأمم فى بناء حضاراتها
			أهمية العلم ودور المعلم والعلماء

إصدار	1	أهداف معرفية	أحكام صحيحة وموضوعية
تأكيد	1	أهداف وجدانية	انتماء مصر للعالم الإسلامي والإفريقي
تحقيق	1	أهداف وجدانية	الانتماء للوطن
إبراز	1	أهداف وجدانية	أهمية الوحدة الوطنية

يتضح لنا من البيان السابق أن أكثر المصادر الاسمية استعمالا هى "التعرف" و"تنمية" سواء استعمل هذان المصدران للأهداف المعرفية أو الوجدانية أو المهارية فى جمل اسمية دون الإشارة إلى من "يعّرف" أو من "ينمى"، ولمن يعّرف أو عند من ينمى، فمثلا فى حالة التعرف على مظاهر البيئة أو على العصور التاريخية أو على دور الشعوب فى بناء حضاراتها فإنه من الواضح أن المصدر الاسمى موجه إلى التلميذ ليحصل ويكتسب هذه المعلومات.

تنطبق هذه الملاحظة على بقية المصادر الاسمية لتشمل كل أهداف الإرشادات العامة لمقررات الدراسات الاجتماعية التى تخص أولا التلميذ فهو المتلقى الأساسى الذى لابد "أن يتعّرف" و لابد "أن ينمى" قدراته ومهاراته.

ولكن لابد ألا ننسى أن هذه الإرشادات موجهة قبل كل شيء إلى المعلم لكى يقرأها ويأخذ بها لنقل وتوصيل المعلومة المعرفية والقدرات المهارية والقيم الوجدانية للتلميذ. وتظهر هذه الإرشادات أهمية دور المعلم عند تدريس المواد الاجتماعية، فيقع على عاتقه مسئولية العملية التعليمية بكل أبعادها المعرفية والوجدانية. وتؤكد الإرشادات الخاصة بتدريس مادة التاريخ هذا الدور إذ يشير عنوان هذا الجزء من الإرشادات إلى مهام المعلم فى جملة فعلية: "يجب عند تدريس التاريخ"، تستند على فعل الوجوب "يجب" يصحبه شبه جملة ظرفية "عند تدريس التاريخ" التى تشير ضمنا إلى فاعل تدريس التاريخ أى المعلم الذى لابد عليه أن يقوم بـ: "التركيز و"إبراز" و"إظهار" فى سلسلة من النقاط التى توضح ما يجب التركيز عليه وما يجب إبرازه وإظهاره. ويتوقع القارئ أن تستكمل هذه المصادر الاسمية بالأهداف التى ذكرت فى الإرشادات العامة ألا

وهى الأهداف الثلاثة المعرفية والوجدانية والمهارية، ولكن يتركز الوجوب هنا أساسا على الأهداف الوجدانية لتنمية قيم أخلاقية عند التلميذ مرتبطة بمفاهيم الوطنية والمواطنة والانتماء إلى الوطن والشعور بالفخر والاعتزاز، وذلك على النحو التالى:

- "التركيز على مظاهر الحضارة المصريه القديمة"،
- "إبراز دور المصريين فى تطور هذه الحضارة"،
- "دور الحضارة الإسلامية فى حماية الأمة الإسلامية والعربية من الأخطار الخارجية"،
- "إظهار دور الشعب المصرى فى النهضة الحديثة"،
- "إظهار دور مصر فى صد الغزاة فى جميع العصور والتصدى للتدخل الأجنبى ومقاومة العدوان على الشعوب العربية"،
- "إبراز دور العلماء ورجال الفكر والاقتصاد الذين أثروا فى مصر".

من الواضح أن كل هذه النقاط لا تستحوذ الأهداف المعرفية أو المهارية إلا بطريقة ضمنية وغير مباشرة، وبالعكس تحدد بوضوح الهدف الوجدانى الذى من أجله تدرّس مادة التاريخ بالإشارة إلى فاعلين أساسيين على الساحة التاريخية تربطهما علاقة خصومة وصراع بين الخير والشر. تقوم مصر وبالتالى المصريون بدور الفاعل الأول فى صورة إيجابية تظهر عظمة الحضارة المصرية على مر العصور وتبرز حب المصريين لوطنهم. أما الفاعل الثانى فتصوره هذه النقاط فى صورة العدو المهاجم الذى يطمع فى الاستيلاء على أرض الوطن ويهدد سلامته.

ويوضح الجدول التالى تلك الثنائية القائمة على الصراع والتحدى بين الخير والشر والتى تهدف إلى تنمية الشعور بالوطنية عند التلاميذ.

الفاعل الأول	صورة إيجابية (الخير)	الفاعل الثانى (الشّر)	الهدف
مظاهر الحضارة المصرية القديمة			معرفى
دور المصريين	فى تطور الحضارة المصرية القديمة وما حولها من حضارات		معرفى ووجدانى
دور الحضارة الإسلامية	فى حماية الأمة الإسلامية	من الأخطار الخارجية	وجدانى
دور الشعب المصرى	فى النهضة الحديثة منذ عهد محمد على حتى الوقت الحاضر		وجدانى معرفى من حيث التسلسل التاريخى
دور مصر	فى صد والتصدى ومقاومة	الغزاة للتدخل الأجنبى العدوان	وجدانى وجدانى وجدانى
دور العلماء ورجال الفكر والاقتصاد	الذين أثروا على مصر		وجدانى

إن الهدف من التركيز على دور مصر فى بناء وحماية حضاراتها هو وجدانى أكثر مما هو معرفى. وإن كانت الناحية المعرفية متواجدة أيضا ولكن موظفة كمادة يرتكز عليها لتنمية الشعور بالوطنية تجاه أمة بأكملها. يشار إلى هذه الأمة بمسميات مختلفة لإظهار تعدد مظاهرها و طول المدة الزمنية التى استغرقتها كل حضارة مثل "الحضارة المصرية القديمة"، "الحضارة الإسلامية"، "الشعب المصرى"، "مصر". ويأتى هذا الهدف الوجدانى لتعزيز شعور الفخر عند التلميذ بالانتماء لهذه الأمة وحضاراتها سواء أكان دور هذه الأمة موجها للنهوض بها كما هو الحال فى عصر محمد على أم للتأثير إيجابيا على الحضارات الأخرى. يبدو أن الدور الأساسى المراد

إظهاره يكمن فى تصوير تصدى مصر للغزاة وحماية أراضيها من العدو المشار إليه بمسميات متعددة مثل:"الأخطار الخارجية"، "الغزاة"، التدخل الأجنبى"، "العدوان".

إن تعزيز روح الوطنية هنا ليس موظفا لبناء الأمة والإعلاء بها، ولكنه يضع دائما هذه الأمة فى وضع الضحية التى لا بديل لها إلا الدفاع عن نفسها ضد الغزاة عبر التاريخ، فهى "تحمى" و"تصد" و"تتصدى" و"تقاوم" عدوا، وبالتالى تكون دائما فى وضع دفاعى أمام قوة عسكرية أجنبية تحاول الاستيلاء على أراضيها وتدمير حضارتها باستلاب إرادتها واستقلالها.

يؤكد مؤلفو المقررات الدراسية هذا المفهوم فى مقدماتهم بالتركيز على تصوير مصر فى وضع الضحية التى عانت عبر العصور من التدخل الأجنبى فى شئونها خاصة ابتداء من حقبة الحكم العثمانى إلى ثورة يوليو سنة 1952 موجهين خطابهم إلى التلاميذ مباشرة بقولهم:"تلاميذ وتلميذات"، أو باستخدام عبارات عاطفية مثل: "عزيزى الطالب"، "أبناؤنا التلاميذ والتلميذات". إن المخاطبة المباشرة للدارسين هو بمثابة توجيه عناية التلاميذ إلى قراءة ودراسة المادة التاريخية بالطريقة التى يشير إليها مؤلفى المقررات. وإن كانت إرشادات الوزارة تخاطب المدربين ومقدمات المقررات تخاطب التلاميذ، ففى كلتا الحالتين يكون الهدف واحدا: تناول التاريخ من الزاوية الوجدانية لاستثارة العواطف تجاه المادة نفسها التى تصور الوطن فى وضع الضحية أمام أطماع الاستعمار وفى وضع المدافع عن حريته واستقلاله. إذ تشير بوضوح مقدمة مقررات الدراسات الاجتماعية لسنة 2005- 2006 أنها تتناول "دراسات فى تاريخ مصر الحديث مع التأكيد على طبيعة الشعب المصرى ورفضه لجميع أشكال التدخل والاستعمار، وذلك منذ الفتح العثمانى حتى الجهود الحالية للنهوض بمصر والدخول بها إلى آفاق القرن الحادى والعشرين". ويستدل من هذه الفقرة أن مصر منذ الفتح العثمانى كانت تقع تحت وطأة الغزاة ومنهم العثمانيين حتى استطاعت التخلص منهم لكى تدير جهودها للنهوض بالبلاد. ينحصر إذًا دور مصر فى الدفاع عن نفسها من

الأعداء من جهة، وفى محاولات للنهوض من جهة أخرى. وصورة مصر فى كلا الموقفين ليست بالإيجابية، ففى الأولى "ترفض أشكال التدخل" وتدافع عن نفسها، وفى الثانية "تبذل الجهود للنهوض" وتحاول الدخول قوية فى القرن الحادى والعشرين، بمعنى أن مصر لم تستطع على مر أربعة قرون أن تبنى نفسها لكى توصف بالبلد المزدهر القوى.

أمـا كتابة المادة التاريخية ومعالجة محتواها، فيوضح مؤلفو المقررات فى المقدمة أنها تؤكد أولا على "قيمة الانتماء والولاء للوطن" الذى يصفونه "بالغالى"، ثانيا على "تقدير الزعامات الوطنية وما قدمته من عطاء للوطن"، ثالثا على "إبراز صمود وكفاح الشعب المصرى من أجل الحرية والاستقلال". وإلى جانب القيم الأخلاقية الواضحة فى هذه الفقرة التى تتواءم مع الأهداف الوجدانية سالفة الذكر، يحدد مؤلفو مقررات التاريخ الشخصيات التى سوف يكون لها دور فى الأحداث التاريخية، منها شخصيات فردية مثل "الزعامات الوطنية" وعطائها للوطن، وأخرى جماعية متمثلة فى "الشعب المصرى" وكفاحه من أجل الحرية. وسواء كانت الشخصيات فردية أم جماعية فهى تصور على أنها نموذج للبطل يقتضى الاقتداء به على عكس تصوير الخصم الذى يحاول سلب "حرية واستقلال" هذا البلد.

يبرهـن النـص التاريخـى الـذى يعـرض المـادة التاريخيـة للحملة الفرنسية هذا التحليل، إذ يقدم من خلال أحداث الحملة الفرنسية على مصر التصور التاريخى الذى يخدم الأهداف المعرفية والوجدانية المذكورة أعلاه من خلال الأحداث والشخصيات الفردية أو الجماعية: من ناحية الشعب المصرى والزعامات الوطنية ومن ناحية أخرى الجيش الفرنسى وقياداته، تربطهم علاقة خصومة وعداء، تنتهى بالطبع بانتصار الوطن والشعب المصرى.

وتبرز مقررات ما بعد 1952 تلك العلاقة الثنائية القائمة على الصراع فى عدة أحداث تحت عناوين رئيسية وثانوية كما هو مبين فى الجدول التالى:

مقرر الصف الثالث الإعدادى لسنه 1960. من ص 47 إلى ص 79	مقرر الصف الثالث الإعدادى لسنة 1985-1986. من ص 22 إلى ص 33	مقرر الصف الثالث الإعدادى لسنة 2005-2006. من ص 83 إلى ص 88
قيام الحملة من فرنسا موقف انجلترا وصول نابليون إلى الإسكندرية موقف المماليك دخول الفرنسيين القاهرة إصلاحات نابليون الإدارية معركة "أبى قير" البحرية ونتائجها ثورة القاهرة سياسة نابليون بعد الثورة حملة نابليون على سوريا نتائج فشل نابليون فى فتح عكا موقعة أبى قير البرية وهروب نابليون حالة الحملة الفرنسية بعد سفر نابليون واتفاقية العريش ومعركة عين شمس الجنرال مينو نتائج الحملة الفرنسية المقاومة الشعبية فى مصر وسوريا فى مصر. ثورة القاهرة الثانية فى سوريا. أحمد الجزار	الحالة فى فرنسا قبل الحملة أولا- أسباب الحملة ثانيا - الاستيلاء على مصر الإعداد للحملة خط سير الحملة احتلال الإسكندرية الزحف على القاهرة موقعة شبراخيت موقعة إمبابة أو الأهرام تسليم القاهرة مطاردة المماليك موقعة "أبو قير" البحرية ونتائجها صور من مقاومة مصر للحملة ثالثا- ثورات المصريين وتدخل تركيا وانجلترا ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر 1798) التدخل التركى والانجليزي حملة بونابرت على الشام: أسبابها سير الحملة موقعة "أبو قير" البرية عودة بونابرت إلى فرنسا مفاوضات الصلح بين الفرنسيين والعثمانيين ثورة القاهرة الثانية (20 مارس 1800) جلاء الفرنسيين رابعا- نتائج الحملة الفرنسية	أسباب الحملة الحملة على مصر الاستيلاء على مصر موقعة إمبابة دخول القاهرة موقعة أبى قير البحرية (أغسطس 1798 م) ونتائجها سياسة نابليون فى مصر ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر 1798م) الحملة الفرنسية على الشام (فبراير 1799 م) سير الحملة موقعة أبى قير البرية (يوليو 1799 م) اتفاقية العريش (يناير 1800 م) ثورة القاهرة الثانية (مارس 1800 م) مينو وجلاء الفرنسيين عن مصر نتائج الحملة

	النتائـــج الحربيـــة النتائـــج السياسيـــة النتائـــج العلميـــة النتائج الاقتصاديـة النتائج الاجتماعيـة مقـــتطفات وثائقـــية للقـــراءة والدراسة	

يمكننا أن نستخلص من خلال الجدول السابق مفهوم كتابة التاريخ فى عرض أحداث الحملة الفرنسية على مصر حيث يتناول المؤلفون المادة التاريخية بإظهار أسباب ونتائج الحملة على مصر كما هو واضح من العناوين، وبعرض الأحداث ذاتها على أنها نتيجة حتمية للأسباب التى أدت إلى قيام الحملة. ويختار المؤلفون عند تناول الأحداث الكتابة السردية التى تتبع الخط الزمنى للأحداث بتواريخها المتعددة والموظفة على أن تكون بمثابة المراحل المختلفة لتطور الحدث، يستطيع التلميذ من خلالها أن يتدارك الحدث ويتعرف عليه وعلى تفاصيله ليحفظه.

ويلاحظ أنه كلما تضاءل عدد صفحات النص التاريخى زاد عدد التواريخ، وهذا واضح فى المقررات المذكورة فى الجدول السابق، إذ يتكون مقرر سنة 1960 من 32 صفحة يتخللها 8 تواريخ فقط، فى حين أن مقررات سنة 1985–1986 وسنة 2004–2005 تتكون كل منها من 12 صفحة و6 صفحات، أما تواريخ المقرر الأول فعددها 19 تاريخا والمقرر الثانى عددها 13 تاريخا.

إن تجريد الحدث من النص التاريخى وتحويله إلى نقاط موجزة متتالية تستند على التواريخ، يفقده ترابطه المنطقى ويظهر كل حدث على سواه غير متماسك مع الحدث السابق أو الحدث التالى. وهذا التناول للنص التاريخى يتعارض مع مفهوم كتابة التاريخ المبنى على إبراز الأسباب التى ينتج عنها الحدث والتى من خلالها يمكن فهم سلوكيات الفاعلين والقرارات التى يتخذونها للتأثير فى مجريات الحدث فى إطار يشمل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تحيط بكل طرف ومصالحه.

من ناحية أخرى إن الهدف من كتابة وتدريس التاريخ ليس فقط التعرف على الأحداث التى مر بها الوطن والعالم فى الماضى، إنما هو محاولة البحث عن الأسباب التى أدت إلى الحدث وفهمها والتعرف على دور ومسئولية كل الأطراف فى خلق الحدث وتطويره من خلال البحث والتحليل والنقد البناء. وذلك لا يحدث إلا عن طريق تنمية الأهداف المهارية لدى التلميذ. لقد أغفلت مقررات مادة التاريخ للمرحلة الإعدادية هذا الهدف فى عرض الحملة الفرنسية على مصر ونظرت للحدث التاريخى فى حد ذاته ليتفق مع الأهداف المعرفية والوجدانية المذكورة فى الإرشادات ومقدمة المقررات، فالأهداف المدرجة فى بداية كل درس، وبالتالى فى بداية الدرس الذى يتناول الحملة الفرنسية على مصر تشير ضمنا إلى هذين الهدفين وتغفل ذكر الأهداف المهارية وتوضيح سبل اكتسابها وتنميتها إذ إن المطلوب من التلميذ أن "يتعلم" فقط:

أسباب الحملة/ أهم أحداثها / الحكم الفرنسى فى مصر / ثورات المصريين ضد الفرنسيين.

تأتى أسباب الحملة كنتاج للخلاف الحاد بين فرنسا وانجلترا، ويذكر النص التاريخى أنه أمام قوة الأسطول البريطانى "فكرت" فرنسا فى الاستيلاء على مصر بالرغم من تبنيها مبادئ ثورتها من "حرية وإخاء ومساواة". ولا يشرح مؤلفو المقررات هذا التناقض فى السلوك الفرنسى ولا يذكرون فى هذا الإطار الأفكار الاستعمارية التى كانت قد تبلورت أثناء القرن الثامن عشر فى أوربا نتيجة الثورة الصناعية التى دفعت البلاد الأوربية إلى التنافس على الاستيلاء على الموارد الطبيعية الموجودة فى القارات الأخرى. فلا يربط مؤلفو المقرر بين الحدث والأطر العامة التى أتت به والتى كانت لها أثر كبير ليس فى مصير شعب مصر فقط، إنما فى مصير شعوب الدول الإفريقية والآسيوية أيضا.

إن إغفال الإطار العام للأيديولوجية الاستعمارية التى سادت هذا العصر يجعل من استيلاء فرنسا على مصر حدثا فرديا مختصرا على مصر وحدها، فتبدو وكأنها

الضحية الوحيدة التى وقعت تحت وطأة الاستعمار الفرنسى وأصبحت فريسة الأحداث التى توالت عليها الواحدة تلو الأخرى. فيعرض النص التاريخى فى المناهج فى صورة قصة قصيرة تتلخص أحداثها الأساسية على النحو التالى: تتعرض مصر لهجوم فرنسى، من ناحية يتقدم الجيش الفرنسى، ومن ناحية أخرى يفشل جيش المماليك فى التصدى إليه فى معارك ومواقع يخرج منها الجيش الفرنسى منتصرا، وأمام فشل الجيش المملوكى فى حماية الوطن تنهض مصر كشعب وتقاوم المعتدى بكل السبل.

يساهم سرد الحدث بهذه الطريقة فى التركيز على المشاعر والعواطف، ويصبح النص التاريخى عبارة عن قصة صراع بين الشر والخير تترجم عبر مفردات تحمل فى مدلولها معانى الخصومة والعداء مثل: "موقعة"، "معركة"،"زحف"، "استيلاء"، "احتلال"، "مقاومة"، "ثورة". يتم تصوير هذه "القصة" فى بناء ثنائى غير متكافئ يظهر من ناحية قوة الطرف الفرنسى من حيث تجهيز الجيش من معدات وأعداد أفراده ونظامه، ومن ناحية أخرى يظهر ضعف الطرف الثانى أى مصر الدولة من حيث عدم تنظيم الجيش المملوكى وقلة أعداد أفراده، ومن حيث الصراعات الداخلية وسوء الأحوال الاقتصادية التى من شأنها أنها أضعفت موقف مصر ككيان مؤسسى أمام العدوان الفرنسى.

وترتب عن هذا الوضع المتردى استعمال مفردات فى العناوين تحمل مدلول الاستسلام والخضوع مثل: "احتلال" و"استيلاء" و"تسليم" و"مطاردة" ومفردات أخرى فى النص ذاته تترجم عدم قدرة مؤسسة الجيش المملوكى "غير المصرى" الصمود أمام العدو حيث "انهزم المماليك لاعتمادهم على الفروسية، بينما كان الفرنسيون يستخدمون المدافع والمعّدات الحديثة" فى موقعة شبراخيت، وفى موقعة إمبابة انهزم المماليك مرة ثانية "وقتل منهم عدد كبير"، وفرّ القائدان مراد بك وإبراهيم بك.

ويختلف موقف مصر ككيان شعبى من العدوان الفرنسى عن موقف الجيش

المملوكى الذى أخفق فى مهمته وفشل فى صد العدوان، إذ حرص مؤلفو المقررات أن يظهروا مقاومة الشعب المصرى وبسالته أمام الجيش الفرنسى منذ اللحظة الأولى وأكدوا على الدور الجماعى والفردى للمقاومة ككيان واحد ذى الأهداف الواحدة أى ردّ العدوان وإن كان لم ينجح هذا الكيان الشعبى فى صد نابليون فى الإسكندرية، فقد قاوم الهجوم وسقطت المدينة "بعد مقاومة أهلها بزعامة السيد محمد كريم".

يتجلى الدور الشعبى عند قيام ثورة القاهرة الأولى والثانية برفضه للأوضاع التى فرضها عليه المحتل من ضرائب قاسية وظلم وقهر حيث "أعدم بعض المصريين ومنهم السيد محمد كرّيم، فازدادت نفوس المصريين غضبا"، و"ثار الشعب". ويأتى رد الفعل الفرنسى عنيفا وقاسيا خاصة على الرموز الدينية حيث أطلقت المدافع على حى الأزهر، وإن كان الأسوأ قد جاء من قبل الجنود الفرنسيين الذين اقتحموا "الجامع الأزهر بخيولهم وعاثوا فيه فسادا".

يعرض النص التاريخى قوة وشراسة المقاومة الشعبية بطريقة غير مباشرة من خلال وصف شدة رد الفعل الفرنسى أثناء ثورة القاهرة الأولى، إذ يؤكد مؤلفو المقررات أن الثورة الشعبية قد قُوبِلَت بأساليب عنيفة وقوية عندما اتخذ الفرنسيون إجراءات قاسية لإخمادها من "إعدام الناس" و"فرض الغرامات المالية" على الأهالى و"إلغاء الديوان" لمعاقبة شعب بأسره تجرّأ وثار على من هو أقوى منه.

لكن يختلف الأمر عند سرد أحداث ثورة القاهرة الثانية حيث لا يصفها مؤلفو المقررات من خلال رد الفعل الفرنسى، ولكن يعرضونها بشىء من التفصيل من خلال ما قام به الشعب "بزعامة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف" من إقامة المتاريس وحفر الخنادق وإغلاق أبواب المدينة واشتداد الثورة فى أحياء القاهرة خاصة فى بولاق. وإن كانت الثورة قد أخمدت للمرة الثانية، إلا أن النصر جاء على يد سليمان الحلبى الذى قتل القائد الفرنسى كليبر فى منزله. يركز النص التاريخى عند سرد أحداث ثورة القاهرة الثانية على دور القوى الشعبية وعلى دور الزعماء

مثل السيد عمر مكرم الذى قاد الغضب الشعبى أو سليمان الحلبى الذى خلص مصر من الطاغية الفرنسى والاحتلال. ويفهم من تسلسل الأحداث أن جلاء الفرنسيين من مصر وإن جاء بسبب الضغط البريطانى إلا أن الفضل يرجع إلى سليمان الحلبى الذى خلص مصر من كليبر، وبالتالى من خليفته مينو الذى "اضطر إلى التسليم (سبتمبر 1801 م)، وبذلك انتهت الحملة على مصر".

يوضح العرض السابق تبنّى الرؤية الثنائية القائمة على علاقة العداء والصراع فى عرض الأحداث التاريخية فى المناهج المدرسية، هذه الرؤية التى تجعل من الحدث نفسه محور المادة التاريخية، ينتهى الحدث عندما ينتهى الصراع بين الطرفين كما هو واضح فى آخر جملة من مقرر 2005-2006: "وبذلك انتهت الحملة على مصر" كما لو كان لا مردود للحدث على المجريات فى المستقبل إلاّ فى حدود معينة.

يظهر هذا بوضوح عند تناول نتائج الحملة السياسية التى توضع فى الإطار الزمنى الخاص بالحدث بمعنى أنها تنطوى على الحقبة الزمنية التى استغرقتها الحملة أى ثلاث سنوات فقط، كما تعرض فى إطار العلاقة الثنائية العدائية بالإشارة من ناحية إلى انتهاء العدوان الفرنسى دون أن يحقق أهدافه وبالإشارة من ناحية أخرى إلى إيقاظ الروح القومية لدى المصريين. وتشير أيضا النتائج السياسية للحملة إلى مطامع بريطانيا المستقبلية حيث أدركت بريطانيا "أهمية موقع مصر الجغرافى" فحرصت "على الحيلولة دون وقوع مصر مرة أخرى فى يد إحدى الدول الأوروبية القوية". إن الإشارة إلى بريطانيا فى هذا السياق ينبئ بوقوع مصر مرة أخرى فى تلك العلاقة الثنائية العدائية عند تناول أحداث الاستعمار البريطانى على مصر.

أما عن النتائج العلمية للحملة فيصفها النص التاريخى "بأعظم النتائج"، حيث استطاع الفرنسيون "دراسة أحوال مصر من مختلف نواحيها، وألفوا كتابا أسموه وصف مصر يتضمن وصف مصر من أقدم العصور حتى نهاية عهد الحملة". ولا تشير هذه النتائج إلى أهداف الفرنسيين من القيام بهذه الدراسات ولا تذكر مغزاها بالنسبة للأيديولوجية الاستعمارية الفرنسية المبنية على القوة العسكرية من ناحية

وعلى التأثير الثقافى من ناحية أخرى، بل بالعكس يذهب مؤلفو المقررات إلى أبعد من ذلك عندما يذكرون توجه المصريين إلى الأخذ "بأساليب المدنية الحديثة فى النواحى الاقتصادية والثقافية وغيرها"، ويفهم من ذلك أنه لولا الحملة لما تأتى للمصريين الأخذ بالمدنية الحديثة فى عصر محمد على.

إن تقييم النتائج على هذا النحو الإيجابى يجعل مؤلفو المناهج وكأنهم يتبنون نظرية "الاستعمار الإيجابى" التى تحاول أن تقرها اليوم بعض الدول الاستعمارية القديمة والتى تفيد بأنه لابد ألاّ ينظر إلى الاستعمار بمساوئه فقط، بل لابد أن يعترف أنه جاء بإيجابيات أتاحت للمجتمعات المستعمرة الفرصة للتمدين والتعرف على أساليب الحياة العصرية والحديثة، سواء كانت من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية. تعتمد هذه النظرية على أفكار راجت أثناء القرن الثامن عشر مفادها إنقاذ الشعوب من التخلف والفقر والعبودية، تلك الأفكار التى ضمّنها بونابرت فى منشوره الأول الذى أذاعه على المصريين ليعلن عليهم "أنه جاء مصر للقضاء على ظلم المماليك"، وأنه يكن كل الاحترام للدين الإسلامى والقرآن الكريم والعادات والتقاليد المصرية.

إن التركيز على النتائج الإيجابية بهذا الشكل يضع دارس المادة التاريخية فى تناقض، من ناحية يتعرف على مدى المساوئ التى جلبها الاستعمار لوطنه ومن ناحية أخرى يقرأ فى النص التاريخى أن هذا التدخل الأجنبى وإن باء بالفشل إلا أنه جاء بنتائج إيجابية سمحت للبلاد الدخول فى عصر الحداثة والمدنية عن طريق الاحتكاك بالخارج والاضطلاع على كل ما هو حديث بفضل ما اصطحبه الفرنسيون معهم إلى مصر. وفى هذا السياق يوحى عدم إشارة النص التاريخى إلى إرادة مصر محمد على تبنى "أساليب المدنية الحديثة" لتطوير البنية والحياة المصرية إلى أن الفضل يرجع فى ذلك إلى الحملة الفرنسية. وكان بإمكان مؤلفى المقررات التاريخية أن يؤكدوا أنه قلما يأتى النهوض بالمجتمعات من الخارج سواء بالقوة أو بالسلم، وإنما ينبع النهوض بالوطن من إرادة داخلية تدفع عزيمة الشعوب فى

مشروع نهضوى قومى، وذلك ما حدث عند تولى محمد على حكم مصر وأخفقت نتائج الحملة الفرنسية بالإشارة إليه.

* * *

الخاتمة

يتيح لنا هذا العرض التوقف أمام الأهداف المعلنة لدراسة مادة التاريخ لتلاميذ المرحلة الإعدادية لكى نتساءل عن نوعية القيم التى يود تلقينها للتلاميذ عبر أحداث الحملة الفرنسية على مصر: إذ يتم تصوير مصر والمصريين طبقا لثنائية "القاهر والمقهور"، ثنائية تظهر مصر فى دور الضحية التى تقاوم فى الداخل حكاما ضعافا ليسوا مصريين وغير قادرين على حمايتها، وفى نفس الوقت تصورها فى دور بطولى تقاوم عدوانا خارجيا يحاول سلب ثرواتها وحريتها.

يضاف إلى هذه الثنائية ثنائية أخرى فى عرض النتائج حيث الإخفاق السياسى للحملة ومتابعته بالإنجاز فى إيقاظ روح المقاومة عند المصريين يجعل تقييم هذه النتيجة بالإيجابية حتى وإن كان جلاء الفرنسيين قد جاء على يد البريطانيين بعد معاهدة العريش. إن عدم الربط بين الأحداث يجعل النص التاريخى غير متضامن، تغيب عنه العناصر التى تسمح بالتحليل للوصول إلى الاستنتاجات المنطقية التى تحتمها الأحداث.

إن عدم ترابط المادة التاريخية يجعلها تبدو وكأنها يتخللها نوع من الانفصام، فمن ناحية تسرد الأحداث من خلال خطاب العنف المتمركز فى العدوان الفرنسى والمقاومة المصرية التى تقابله، ومن ناحية أخرى يتم عرض النتائج من خلال خطاب التقييم العلمى الإيجابى للحملة. بالتالى تبدو المادة التاريخية لعرض الحملة الفرنسية على مصر مقسمة إلى جزأين: يتضمن الجزء الخاص بالأحداث الأهداف المعرفية والوجدانية التى أشرنا إليها سلفا. وقد انتهج مؤلفو المقررات للوصول إلى هذه الأهداف نهجا يعتمد على عرض الحدث التاريخى بطريقة سردية وفقا

للتسلسل التاريخى للأحداث، كل حدث بتاريخه مبينين الأسباب والنتائج الفورية والوقتية للحدث حتى يتعرف عليه التلميذ ويحفظه بمساعدة معلمه دون الإشارة إلى الأساليب المهارية والتحليلية التى يجب استخدامها لتناول وفهم المادة التاريخية. فى نفس الوقت يبرز سرد الأحداث الأهداف الوجدانية التى من شأنها تنمية روح الانتماء والولاء للوطن وروح المواطنة والتمسك بالحرية والاستقلال عند التلميذ، وإبراز دور الشعب المصرى وزعمائه فى مقاومة المحتل.

ويخص الجزء الثانى نتائج الحملة بإيجابيتها دون ربط هذا الجزء بما سبق من أحداث فى الجزء الأول الذى صور دور الشعب المصرى فى مقاومته للمعتدى فى صورة الضحية المغلوب على أمرها أمام عدو أقوى منه وأمام حكام خذلوه وفشلوا فى صد العدوان ولاذوا بالفرار. إن روح المواطنة التى يود واضعو المناهج غرسها فى نفوس النشء، لا يمكن أن تنمو عند الشعور بالفشل والخذلان. إن تنمية المواطنة لابد أن ينبع من الشعور بالفخر والثقة بالنفس ويكون موجها إلى الأمام أى المستقبل فى عملية بناءة، تفتح الأفق أمام نشء مسئول تجاه نفسه وتجاه المجتمع الذى يعيش فيه، وذلك لا يتأتى إلا بوضع المادة التاريخية فى إطارها العام وبتحليل هذه المادة لمعرفة أسبابها ومسبباتها ونتائجها وليس فقط بسردها.

إن عرض أحداث الحملة الفرنسية على مصر على هذا النحو يجعل من كتابة التاريخ عملية قائمة على نسق يعتمد على ترتيب المضمون وفقا لثلاثة توجهات ألاّ وهى:"اختيار الأسباب التى أدت إلى الحدث"، "سرد الأحداث" و"تحليل النتائج" دون أن يكون هناك "استراتيجية فكرية فى تعليم التاريخ". إن تبنى "النهج السردى" يجعل من الحدث ونتائجه محور الكتابة التاريخية ليصبح حدثا فرديا وظرفيا، ومحدد الزمان والمكان، دون أن يكون مرتبطا بالبنية الزمنية الشمولية التى من شأنها أن تعطيه البعد التاريخى، ليدخل فى إطار حقبة تاريخية من بين الحقبات التاريخية الأخرى، وليأخذ الحدث مكانته الصحيحة ومدلولاته الكاملة ضمن منظومة التراث الإنسانى.

مصادر الدراسة

1. المناهج التاريخية

- وزارة التربية والتعليم، الإدارة العامة للتعليم الإعدادى، إدارة المناهج والكتب، الأهداف العامة لمقررات الدراسات الاجتماعية (المرحلة الإعدادية) 2002-2003.
- مصر فى العصر الحديث لتلاميذ السنة الرابعة الإعدادية، 1954، وزارة التربية والتعليم.
- تاريخ الوطن العربى فى العصر الحديث للصف الثالث الإعدادى، 1959. الجمهورية العربية المتحدة. وزارة التربية والتعليم.
- الإقليم المصري- التاريخ الحديث للوطن العربى الكبير للصف الثالث الإعدادى، الطبعة الأولى 1960. وزارة التربية والتعليم.
- تاريخ مصر الحديث والمعاصر للصف التاسع من التعليم الأساسى، 1985-1986. وزارة التربية والتعليم.
- الدراسات الاجتماعية. مصر والعالم الخارجى للصف التاسع من مرحلة التعليم الأساسى، 1988-1989. وزارة التربية والتعليم.
- الدراسات الاجتماعية. مصر والعالم، الصف الثالث الاعدادى، 1995-1996. وزارة التربية والتعليم.
- الدراسات الاجتماعية. جغرافية العالم ودراسات فى تاريخ مصر الحديث- الصف الثالث الإعدادى، 1997-1998. وزارة التربية والتعليم.
- الدراسات الاجتماعية. جغرافية العالم ودراسات فى تاريخ مصر الحديث. الصف الثالث الإعدادى. الفصل الدراسى الأول، 2005-2006. وزارة التربية والتعليم.

2. المراجع

- د. كمال مغيث، نابليون فى عقول الطلبة، مجلة سطور، العدد 19، يونيو 1998.
- د. زكى البحيرى، تاريخ مصر الحديث والمعاصر فى مقررات المدارس المصرية. بين الاحتلال والاستقلال، دار نهضة الشرق، جامعة القاهرة، تاريخ الإيداع 1996.
- المدرسة التاريخية المصرية 1970–1995، إشراف د. محمد عفيفى، دار الشروق، CEDEJ القاهرة، 1997.
- د. محمود خليل إبراهيم، دراسات فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر، الجزء الأول 1516–1900، الطبعة الثانية، 1999.
- Dominique Borne, « Une discipline d'enseignement », in *L'histoire aujourd'hui*, Ed. Sciences Humaines, PUF, 1999.
- Antoine Prost, « Les acteurs dans l'histoire », in *L'histoire aujourd'hui*, Ed. Sciences Humaines, PUF, 1999.
- François Bourguignon, « L'écriture de l'histoire: le discours en question », in *L'histoire aujourd'hui*, Ed. Sciences Humaines, PUF, 1999.
- Mare Ferro, *Comment on raconte l'Histoire aux enfants à travers le monde entier*, Paris, Payot, 1985.
- Pierre Nora, « Le retour de l'événement », in *Faire de l'histoire. Nouveaux problèmes 1*, Paris, Gallimard, 1974.

* * *



اتجاهات التفسير

صورة المصريين والفرنسيين أثناء الحملة الفرنسية
عند بعض المؤرخين المصريين والفرنسيين
خلال حكم الملك فؤاد الأول

د. جيهان القاضي

تتناول هذه الدراسة صورة المصريين والفرنسيين أثناء الحملة الفرنسية على مصر عند بعض المؤرخين الفرنسيين أمثال "شارل رو" الدبلوماسى الفرنسى الذى كان يعمل فى الوكالة الدبلوماسية فى القاهرة و"هنرى ديهران " عضو المجمع الفرنسى والذى كان مسئولا عن مكتبة فؤاد الأول ، وكذلك عند بعض المؤرخين المصريين أمثال "عبد الرحمن الرافعى" المؤرخ المصرى المعروف، و"محمد فؤاد شكرى" الأستاذ الجامعى والمؤرخ التاريخى.

وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مدى تأثير الفكر الفرنسى على الفكر المصرى فى هذه المرحلة المبكرة من تكوين الفكر المصرى، وذلك من خلال نقطة محددة ألا وهى الرؤية الفرنسية فى بداية القرن العشرين، أى عندما كانت الإمبراطورية الفرنسية فى أوج عصرها.

فهدفنا الأول كان التوصل إلى معرفة العقلية السياسية والأيديولوجية فى مصر وفرنسا فى هذا العصر.

ولعل القارئ يتساءل : لماذا الحملة الفرنسية ؟

لا يوجد فى تاريخ مصر صفحة كانت ولا تزال مثاراً للجدل مليئة بالتناقضات مثل حملة بونابرت على مصر. وكان الهدف من هذه الحملة تحقيق مآرب سياسية خارجية وداخلية لفرنسا. فيتمثل الهدف الخارجى للحملة فى قطع طريق الهند على إنجلترا، أما داخلياً فتتمثل فى رغبة حكومة الإدارة فى إبعاد جنرال أصبح مثاراً للإزعاج. ومع هذا، فلا يمكن أن نفصل بأية حال من الأحوال الهدف الاستعمارى للحملة؛ حيث أراد الفرنسيون تعويض خسائرهم بعد أن استولت إنجلترا على مستعمراتهم القديمة.

وبالرغم من ذلك فقد ظل علماء الحملة وقادتها العسكريون معتقدين أنهم جاءوا إلى مصر حاملين مشاعل الحرية، رافعين لواء الحق والعدالة والمبادئ الكبرى للثورة الفرنسية.

وقد جذبت هذه الصفحة من تاريخنا القومى انتباهنا؛ لأنها احتلت مساحة كبيرة من كتابات الفرنسيين. وعلى سبيل المثال؛ فإن عناوين مذكرات أعضاء الحملة من علماء وعسكريين ملأت وحدها مجلداً كاملاً (انظر : "مونييه" فى كتابه مراجع حملة بونابرت الفرنسية على مصر، القاهرة، 1943).

لهذا كان لزاماً علينا أن نقارن بين دعاوى بعض المؤرخين الفرنسيين مع معاصريهم المصريين، مع التسليم بأن المقارنة بين كل المؤلفات التى تكلمت عن الحملة تفوق بكثير حدود أى بحث أكاديمى. وبالرغم من كثرة الكتابات التى تناولت الحملة الفرنسية فإنه لم تتم أى دراسة فى هذا الموضوع المحدد؛ إذ لم تتعرض الدراسات السابقة للمقارنة بين الكتابات التاريخية فى مصر وفرنسا عن الحملة الفرنسية. لذا فقد قمنا بعمل مقارنة بين بعض هذه الأعمال؛ خاصة تلك الكتابات التى كُتبت إبان حكم "الملك فؤاد الأول" :

افتتحت الجامعة المصرية عام 1908، بعد عام واحد من رحيل "اللورد كرومر" وانتهاء سيطرته على التعليم المصرى : فلقد كان كرومر يخشى إنشاء جامعة مصرية، على غرار الجامعات الأوروبية، تستطيع أن تكون أداة نهضة للبلاد، تساعدها على التحدى لاحتلال الإمبراطورية البريطانية.

وأخذت رعاية الملك فؤاد الذى كان شغوفا بالعلوم والفنون وراعياً سخياً لهما أشكالاً متعددة، من أهمها: عطاؤه المادى السخى للجامعة ومساندتها بسلطانه واستقدام العلماء الأجانب للتدريس فيها؛ خاصة العلماء الفرنسيين؛ لأنه كان محباً لهم.

والتفتت الجامعة المصرية الجديدة فى البداية نحو المستشرقين الأوروبيين إلى حين عودة الطلبة المصريين من بعثاتهم بشهاداتهم العلمية. وقد مثّل بعض هؤلاء المبعوثين الجيل الأول من مؤرخى العهد الحديث. ومن هنا تأتى أهمية تأثيرهم على التفكير المصرى الجديد: فهم الذين شكلوا فكر ووجدان مؤرخى الأجيال اللاحقة؛ وهذا ما دفعنا لاختيار مؤرخى هذا العصر بعينه.

ويجدر بنا أن ننوه إلى أن "الملك فؤاد" لم يعهد إلى مؤرخين مصريين كتابة تاريخهم القومى: فلقد كلف بعض المؤرخين الفرنسيين وعلى رأسهم " جابريل هانوتو " كتابه تاريخ الأمة المصرية (7 مجلدات)، فكتب " ديهران " المجلد الخامس عن الحملة الفرنسية. والجدير بالذكر أن هؤلاء المؤرخين قد كتبوا الخطوط العريضة للتاريخ الوطنى المصرى من خلال رؤيتهم الخاصة للأشياء؛ إذ إنهم أهملوا تماماً أى مصادر مصرية أو عربية ولم يرجعوا إليها اللهم إلا فى النادر اليسير. هذا كله وسط مناخ ثقافى مضطرب لأن السياسة قد أثرت كثيراً فى المناخ العام للبلاد.

ويجب علينا أن نشير هنا إلى أن كتابات المؤرخين الفرنسيين والمصريين قد كتبت فى فترة مضطربة من تاريخ كلٍّ من فرنسا ومصر؛ فلقد كانت فترة ما بين الحربين فى فرنسا فترة عصيبة، فبالرغم من خروجها منتصرة من الحرب العالمية الأولى، وبالرغم من استردادها الألزاس واللورين، بموجب اتفاقية فرساى 1919، إلا أنها خرجت من هذه الحرب مثقلة بالديون ومنهكة اقتصادياً ومعنوياً؛ فألمانيا – عدوتها اللدود– مازالت تشكل خطراً دائما وتهديداً مستمراً بالنسبة لها على الرغم من خروجها خاسرة من الحرب، هذا بالإضافة إلى الدمار والتخريب الذى لحق بالأرض الفرنسية.

ولقد تفاقمت الحالة الاقتصادية بسبب الأزمة العالمية فى عالم 1931.كذلك كان هناك عدم استقرار سياسى؛ والدليل على ذلك وجود اثنتين وأربعين وزارة فى عشرين عاماً. وترتب على هذا كله ارتفاع رهيب فى نسبة البطالة (نحو مليون) فى سنة 1936. وبالرغم من معاناة الفرنسيين من ويلات الحرب إلا أنه كان هناك رغبة شديدة فى التوسع الاستعمارى؛ فالحروب زادت من هذه الرغبة بفضل الاشتراك الفعال للمستعمرات فى الدفاع عن فرنسا. وكانت هذه المستعمرات تمثل للرأى العام الفرنسى امتدادا حقيقياً لفرنسا إلى ما وراء البحار.

وقد أخذ أصحاب هذا الاتجاه يمجدون العمل الحضارى لفرنسا فى مجالات ما وراء البحار. وهو الاتجاه الذى طغى على اتجاه أنصار نزعة القومية الفرنسية. ولم يفكر أحد سوى فى منافع الاستعمار التى يمكن أن تعود على فرنسا؛ حيث إن الأيديولوجية الاستعمارية قد سيطرت على الجميع سواء من اليمين أو من اليسار. وكان الاشتراكيون أنفسهم من أبرز أنصار هذه الأيديولوجية. هذا عن فرنسا، أما فى مصر، فقد كانت تعانى فى هذه الفترة من صراع بين القوى السياسية المختلفة؛ الملك والإنجليز من ناحية، والوفد من ناحية أخرى. واشتد هذا الصراع وتفاقم منذ 1922 إلى عام 1936، بل استمر حتى عام 1952: "فالملك فؤاد الأول" بالرغم من كونه راعياً للآداب والفنون، كان غيوراً على امتيازاته كملك مناهضٍ للقوى السياسية التى تمثل الحركة القومية المصرية. كان شغله الشاغل هو إبعاد حزب الوفد عن الحكم.

والإشكالية الأساسية فى هذه الورقة تدور حول الكيفية التى قدم بها المؤرخون الفرنسيون[1] " شارل رو " و " ديهران " [2] صورة جيش الشرق وصورة المصريين، وكيف قدم فى المقابل، المؤرخون المصريون [3]" محمد فؤاد شكرى " و " عبد الرحمن الرافعى"[4] نفس هذه الصورة ؟

وبعد أن قمنا بتحليل كل صورة على حدة، قمنا بعمل مقارنة بين التصور الفرنسى والمصرى؛ كيما نستخلص أوجه التقارب وأوجه الاختلاف بين الأعمال الفرنسية والأعمال المصرية.

اتفق المؤرخون الأربعة على أن الحملة الفرنسية تعد بداية مصر الحديثة. وأكدوا على أن هذه الحملة كانت سببا فى استيقاظ مصر النائمة من سباتها العميق. وحاز بونابرت على إعجاب المؤرخين الفرنسيين والمصريين. لكن " شارل رو" و"هنرى ديهران " قد أحاطا هذا القائد بهالة أسطورية، فقد جاء إلى مصر لإنقاذها من ذل واستبداد المماليك، لذلك يكثر استخدامهما لكلمات (المنقذ) و(المحرر).

أشاد "محمد فؤاد شكرى" بقدرة "بونابرت" وقوته العسكرية والسياسية. فهو خبير بالخطط الحربية والاستراتيجية. ولكن خيل للقارئ أنه قد رسم شخصية "يوليس ulysse " البطل الإغريقى الذى كان يبحث عن المستحيل. فهذا المستعمر قد فعل كل شىء من أجل بناء مستعمرة ثابتة فى مصر تكون نواة للإمبراطورية الاستعمارية الجديدة فى الشرق. وأكد "شكرى " مثل المؤرخين الفرنسيين أن "بونابرت" هو المنقذ وأن له دوراً حضارياً؛ لذلك فقد أطلق عليه مثلهم لقب (المنقذ) و (الملهم). واعترف "الرافعى" أن بونابرت قائد عسكرى كبير كانت له عيوبه ومميزاته. كما أنه استبعد كلياً هذه الصورة الملحمية التى قدمه بها الفرنسيون و"شكرى". ورفض "الرافعى" الاعتراف بالدور الحضارى للحملة الفرنسية. معللاً بأن الادعاء بتحرير مصر من الظلم وإدخال الحضارة إليها يتناقض مع الرغبة فى استغلالها كمستعمرة. ويرى "الرافعى"أن الشعوب المحتلة يجب ألا تنتظر خيرا من المستعمر. فلن يجنوا من المحتل سوى الهدم والحرائق، والاغتصاب والسلب والنهب. على حين امتدح " شارل رو، وديهران، و شكرى" الأعمال العظيمة التى قام بها "بونابرت" الذى يعد بحق أحد عظماء فرنسا. فهدفهم هو كتابة الأسطورة الشرقية لهذا القائد العسكرى الذى نجح باقتدار أن يلعب دوره كحاكم لمصر؛ ولقد أطلق عليه لقب (السلطان الكبير).

إن المؤرخين الفرنسيين و"شكرى" قد أعجبوا بشدة بنواياه الطيبة تجاه المصريين؛ فلقد عظموا وأشادوا بإنشاء الديوان. ورأى المؤرخون الثلاثة أن هذا الإجراء الإدارى الأول الذى اتخذه "بونابرت" كحاكم عسكرى هو خير برهان على حب

الغير والنزاهة المطلقة. فهدف بونابرت هو إسعاد الشعوب ونشر العدالة بينهم. ولم يجد "شكرى" أى غضاضة فى الاعتراف بأن الديوان ليست له أى سلطة؛ فلقد كان شديد الاعتقاد بأن الرقابة الصارمة من جانب الفرنسيين كانت لازمة لحفظ الأمن والنظام.

كذلك أطنب المؤرخون الفرنسيون و"شكرى" فى إطراء السياسة التى اتبعها "بونابرت" مع المصريين، مادحين سلوكه الإنسانى معهم كما أشادوا بحرص هذا القائد - منذ وصوله إلى مصر - على بث الثقة والأمان فى نفوس الشعب المصرى. بل إنه تكفل باحترام الدين الإسلامى والعادات والتقاليد. وادعى "شارل رو" أن "بونابرت" كان يعامل المصريين برحمة واعتدال شديدين حتى إنه اتهمه بالظلم البين على جيشه، وادعى "رو" أن "بونابرت" قد اضطر إلى إعدام ثلاثة جنود فرنسيين شجعان يحتمل أن يكونوا أبرياء بعد أن علم بقتل ثلاث سيدات مصريات. ولكن "شارل رو" و "ديهران، وشكرى" لم يستطيعوا أن يغيروا أو ينفوا الحقائق التاريخية ولا أن يخفوا الفظائع التى ارتكبها الجنود الفرنسيون. غير أنهم تحدثوا عنهم بطريقة غير مباشرة، ووصل بهم الأمر إلى محاولة إيجاد ما يبرئهم منها؛ فالذكريات الجميلة التى صادفوها فى إيطاليا ثم جاءوا إلى قسوة الصحراء الجرداء فى مصر والحرارة الشديدة والجوع والعطش والمقاومة المستمرة للمصريين التى أتعبت الجنود الفرنسيين وكانت سببا لعدم انضباطهم.

وبالغ "شكرى" أكثر من الفرنسيين فى محاولة تبرئة ساحة الجنود من التهم الشنيعة؛ إذ ذهب إلى أن بعض الغوغاء أو الأوغاد قد انضموا إلى صفوف الجيش كمقاتلين أو كمدنيين وأنهم هم الذين ارتكبوا أعمال السلب والنهب.

أما بالنسبة "للرافعى"، فهو يرى دائما ما لا يراه المؤرخون الفرنسيون و"شكرى". فلقد ندد بما فعله "بونابرت" وجنوده من اغتصاب وابتزاز وهدم الأرض وتعذيب الشعب. ولقد أعطى الرافعى للقارئ الإحساس بأن "بونابرت" استطاع أن يحتال على المصريين بكلماته المعسولة والجميلة. ويؤكد أن التاريخ قد

أثبت أن هذا القائد لم يف بوعوده أبدا مع الشعوب التى استعمرها؛ وهو يعاملهم كأنهم بضاعة يمتلكها وتساعده فى تحقيق أهدافه فى الحكم والاستعمار. ويؤكد "الرافعى" أن "بونابرت" قد أفصح عن نواياه الشيطانية فى أول منشور صدر فى 2 يوليه 1798 حينما هدد بحرق كل القرى التى تحاول أن تقاومه.

ويرى "الرافعى" أن هذا المنشور الأول الذى يحتوى على التهديد والوعيد يتناقض مع مبادئ الحضارة الإنسانية ومعاملة الشعوب. ويشجب هذه التهديدات التى لم تكن موجودة فى منشورات "نابليون" إلى الإيطاليين أثناء حملته على إيطالية.

ويشير "الرافعى" إلى أن ذلك يؤكد أن "نابليون" لا ينظر إلى الإيطاليين بنفس النظرة التى عامل بها المصريين. ويجدر بنا أن ننوه إلى أن "شكرى" مثل "شارل رو، و ديهران"، لم يذكروا هذا التهديد الوارد فى أول منشور وجهه "بونابرت" إلى المصريين، ولقد فضح الرافعى أكثر من مرة أعمال السلب والنهب والحرائق التى قام بها الفرنسيون.

ونددالرافعى بمحاولات المؤرخين الفرنسيين تبرئة ساحة "نابليون" من هذه الجرائم؛ إذ يرى أن هذا الجيش الاستعمارى قد تصرف فى مصر بهمجية شديدة وحرية مطلقة وأن بونابرت حاول دون جدوى استمالة المصريين وكسبهم إلى صفه والعيش معهم فى سلام ووئام عن طريق الاشتراك فى الاحتفالات الدينية والقومية وإنشاء الديوان وأشاد "الرافعى" مثل "شارل رو "و" ديهران "و" شكرى " بإنشاء الديوان؛ ورأى مثلهم أنها محاولة هدفها تحقيق الرفاهية للشعب المصرى. ولكنه انتقد عدم فاعليته؛ فأعضاؤه لا يمتلكون القوة أو السلطة.

وإذن من يقرأ جيدا كتابات "شارل رو، و ديهران" يجد أن المؤرخين يرون أن بونابرت هو المثال النموذجى لكل محتل فرنسى. فهم لا يتخيلون أن المصريين يمكن أن يتمنوا حرية أخرى غير التى منحهم إياها. ولا يعتقدون أن هذه الحرية يمكن أن تكون قيداً بالنسبة للمصريين. ولقد لاحظنا أن هذا الشعور بالقوة العنصرية (التمييز العنصرى) سيطر تماما على "شارل رو، و ديهران".

وظهرت عنصريتهم -جليا- فى موافقتهم على إجراءات القهر والإرهاب التى قام بها القائد الفرنسى حامل لواء الحضارة. ويرون أن استخدامه للقوة كان رد فعل طبيعى؛ فلقد حمل دون إرادته عصا القمع: فهو قائد فاتح متسامح حاول إقناع المصريين وكسبهم بالمودة وليس بالقوة. ولكن المصريين هم الذين بدأوا بالهجوم ودفعوه إلى أن يقتص منهم.

على حين شجب "هنرى لورنس" [5] استخدام "بونابرت" للقوة وأكد أن عنف الجنود الفرنسيين يرجع إلى عنصريتهم لأن سلوكهم مع الأوروبيين كان أقل فظاعة. كذلك حاول " شارل رو " و " هنرى ديهران " أن يزيفا العمل الدنىء الذى قام به الفرنسيون حينما دخلوا جامع الأزهر. ولم يذكرا هذا إلا بعد أن تحدثا باستفاضة عن حسن نوايا "بونابرت" وصدقه. واتهما المصريين بأنهم هم الذين بدأوا أولا باستخدام المسجد لأهداف حربية. ووصلت المبالغة إلى ذروتها حينما وصف "شارل رو، و ديهران" "بونابرت" بالرحمة الزائدة؛ نافين ما أعلنه "بونابرت" صراحة بأنه يقطع كل مساء ثلاثين رأساً بل ويؤكدون بأن القائد الفرنسى بالغ عن عمد من أجل أن يمنع اندلاع ثورة جديدة. كذلك ذهب "شارل رو " بأن "بونابرت" لم يفرض أى ضرائب فادحة على المدينة[6]. فالأموال التى جمعت بعد شهر من قيام الثورة لم تكن سوى متأخرات الضرائب بينما أكد الرافعى أن أعمال السلب والنهب والحرائق قد تضاعفت، ولم تقتصر على يوم نشوب الثورة بل امتدت إلى ما بعدها، وأن الفظائع التى ارتكبها الفرنسيون كانت زائدة عن الحد.

واستمر"شارل رو" و "ديهران" و "شكرى" فى الدفاع عن "بونابرت": فحالما كتبوا عن الحملة على سوريا؛ باختصار شديد؛ كانوا يهدفون إلى أن يمحوا من ذاكرة القارئ الأثر المخيف لمذابح عكا، وحاولوا أن يدافعوا عن وحشية "بونابرت" فى عكا، وأن يثبتوا للقارئ أن نقص المؤن والعتاد لنقل الأسرى إلى الإسكندرية قد أجبر القائد الفرنسى على ذلك الفعل الشنيع.

وأضاف "شكرى" بأن "بونابرت" قد عقد مجلس حرب من أجل بحث مسألة

الأسرى الأتراك، وبأن هذا المجلس هو الذى قرر إعدامهم وليس القائد العام. فلقد خشى المجلس من أن ينضم هؤلاء الأسرى لو أفرج عنهم إلى صفوف جيش الأعداء أو أن يسقطوا فى أيدى الإنجليز فى حال إرسالهم عن طريق البحر إلى مصر. وبالغ "شكرى" مبالغة كبيرة حينما حاول أن يظهر مذابح عكا وكأنها رحمة من السماء. فأشار إلى أن المجلس قرر إعدامهم رميا بالرصاص بدلا من أن يتركهم يموتون من الجوع فى عكا.

إذاً كان هدف "شارل رو" و"ديهران" و "شكرى" أن يمحوا الأثر السيىء الذى تركته هذه الجريمة الشنعاء خاصة حين أشادوا برحمة "بونابرت" الذى أعاد المصريين الذين وجدهم بين صفوف الأتراك فى عكا إلى مصر سالمين معافين. بينما احتج "الرافعى" عاليا على ما فعله "نابليون" فى عكا. ومؤكداً بأن هذا يعد انتهاكاً صريحاً لحقوق الإنسان، ورفض كل المبررات والحجج غير المقنعة التى ساقها المؤرخون من أجل تبرئة القائد الفرنسى.

واستمراراً فى دفاعهم المستميت عن "بونابرت" رفض " شارل رو" و"ديهران" و" شكرى " الاعتراف بأن هذا القائد قد هرب من مصر: فهم يرددون دائما بأنه لم يتخل عن المستعمرة التى بناها، ولكن أنباء هزيمة الجيوش الفرنسية فى إيطاليا قد دفعته إلى مغادرة مصر سرا. بينما يؤكد "الرافعى" بأن أحلام هذا القائد الطموح قد أجهضت فى مصر، وأنه قرر الهرب بعد فشله فى سوريا. وأن فرنسا كانت فى حاجة لرجل مثله يعيد إليها هيبتها الضائعة.

ويُلاحظ أن هناك فرقاً بين الصورة الرائعة التى رسمها المؤرخون الفرنسيون "لبونابرت" وبين صورة "كليبر" وهذا يعد خير دليل على أنهم غير موضوعيين فى معالجتهم : فقدم " شارل رو" "كليبر" كقائد لجيش الشرق فقط، وأهمله تماما كحاكم لمصر، متهماً إياه بأنه لم يكن مستعمرا حقيقيا؛ أى لم يكن رجلا عظيما. لقد كره "شارل رو" "كليبر"؛ لأنه قام بخطأ فادح ولم يتبع تعاليم معلمه. فلقد ضاعت مصر لأنه رفض أن يدافع عنها رغم أنه يمتلك القدرة العسكرية على ذلك.

وندد "شارل رو" و "ديهران" و"شكرى" بسوء نية "كليبر" وعدوانيته تجاه "بونابرت" التى ظهرت فى التقرير الذى أرسله إلى حكومة الديركتوار فى 8 أكتوبر 1799: إذ رأى المؤرخون الثلاثة أن هذا التقرير يعد اتهاماً صريحاً "لبونابرت"؛ حيث بالغ "كليبر" فى وصف سوء الأحوال العسكرية والسياسية والمالية للحملة. وزاد نقدهم له بعد أن قبل الجلاء عن مصر بدون شروط؛ فمعاهدة العريش هدمت كل ما فعله "بونابرت". وأشار المؤرخون الثلاثة أن "كليبر" كان يتصرف دون تعقل: فعلى الرغم من انتصاره فى "معركة هليوبوليس" وقمعه "لثورة القاهرة الثانية" إلا أنه ظل حتى موته مناهضا للاستعمار.

وعلى النقيض من ذلك أعجب الرافعى بهذا الجنرال الذى كانت لديه مؤهلات مهنية كبيرة؛ ولم ينتقد إرساله التقرير إلى الديركتوار ولم يتهمه بالمبالغة؛ بل إنه قد أعطاه الحق لأن "بونابرت" قد ترك الفرنسيين فى مصر فى حالة يرثى لها. وأيده حينما قام بالتوقيع على "معاهدة العريش" التى تعد نهاية لأحلام الفرنسيين لإنشاء مستعمرة فرنسية فى وادى النيل.

ولكن "الرافعى" قد لاحظ –بذكاء- أن كراهية الاستعمار كان مجرد مرحلة مؤقتة وليست دائمة عند "كليبر". فأكد أنه قد حدث تغير جذرى فى شخصية "كليبر" الذى أصبح مؤيدا للآراء الاستعمارية، وأنه قرر البقاء فى مصر بعد انتصاره فى "معركة هليوبوليس" و"ثورة القاهرة الثانية". وتعرض "كليبر" لنقد لاذع من "الرافعى" وذلك لأنه قد تحول إلى طاغية لا يبحث إلا عن إرهاب المصريين ونشر الرعب فى كل مكان.

كذلك أعلن " شارل رو "و" ديهران " أن "كليبر" قد قتل على يد متطرف مسلم. وهذا يؤكد عنصريتهم، وأنهم يرون أن الدين هو العقبة الوحيدة التى لا يمكن تجاوزها. وهذا ما أبعد المصريون عن الفرنسيين. ولم يتكلم "شارل رو" عن محاكمة "سليمان الحلبى" ولكن "ديهران" ذكرها سريعا. ولأول مرة نجد أن "الرافعى "و" شكرى " قد اتفقا سويا حينما استبعدا فكرة التعصب الدينى.

وكذلك حينما أشادا بالمحاكمة: فالفرنسيون برغم حزنهم الشديد على مقتل "كليبر" إلا أنهم قاموا بعمل تحقيق فعلى من أجل الحكم على الجناة بدلا من الانتقام من كل المصريين. وانبهر "الرافعى" بالشكل النموذجى للمحاكمة التى تولاها قضاة فرنسيون، بل إنه أعلن صراحة أنها تعد رمزاً من رموز العدل.

حاز " منو " على إعجاب المؤرخين الفرنسيين و"شكرى" بسبب وفائه "لبونابرت" ولتصميمه النبيل على الدفاع حتى النهاية عن المستعمرة الفرنسية التى ولى أمرها بعد مقتل "كليبر". ولكن هذا الإعجاب لم يمنعهم من نقده بسبب التدابير السيئة التى اتخذها والتى كانت سببا فى هزيمة الفرنسيين فى "معركة كانوب".

وحاول " شارل رو" و"ديهران" أن يَمْحُوَا أى خطأ ارتكبه "منو" بأن أَلْقَيَا على عاتق "كليبر" مسئولية انهيار الحملة. ولكن "شكرى" أضاف بأن المسئولية تقع على عاتق "بونابرت"، و"كليبر"، و"منو"، أى الثلاثة معا.

لقد أنكروا اتفاقية تسليم القاهرة التى عقدها "الجنرال بليار" الذى سار على نهج "كليبر" فى العريش؛ حيث وجدوا أنها غير جديرة بالاحترام. وبينما أشادوا بالجلاء عن الإسكندرية الذى قام به "منو"؛ لأنه كان مبررا أكثر من جلاء "بليار" عن القاهرة دون قتال.

ويجدر بنا أن ننوه أن "شارل رو" قد أهمل "منو" كحاكم استعمارى كما فعل مع "كليبر". ولكنه قال بإيجاز شديد بأنه يمكننا أن نرد الاعتبار "لمنو" كحاكم وكرجل سياسة، لكن من المستحيل أن نرد له الاعتبار كقائد عسكرى. على حين كتب "ديهران"، و"شكرى" باستفاضة عن "منو" كحاكم ممتاز. ووافق "الرافعى" ، مثل "شارل رو" و"ديهران" و"شكرى" ، ضعف "منو" كقائد عسكرى، بل إنه قد حمله نتيجة فشل الفرنسيين فى "كانوب".

وكان "الرافعى" دائما على النقيض من المؤرخين الفرنسيين ومن "شكرى" . فلقد مدح الجلاء عن القاهرة الذى قام به الجنرال "بليار"، لأنه كان مجبرا عليه

بسبب الوضع السيئ للفرنسيين فى القاهرة. ولكم كرر "الرافعى" - مرارا- أن اختيار "منو" كان سيئا من "نابليون"، وذلك لأنه لم يكن قائدا عسكريا سيئا فقط ولكنه كان أيضا حاكما سيئا، وعاب عليه طغيانه وظلمه للمصريين.

ومدح المؤرخون الأربعة الأعمال الرائعة التى قام بها العلماء الفرنسيون. لقد أعلن " شارل رو "و" ديهران "و" شكرى " أن مهمة العلماء كانت ذات أهمية كبرى للجيش الفرنسى ولمصر: فهدفهم كان متمثلا فى دراسة مصر جيدا وأن ينقلوا علمهم للمصريين. ولكن الرافعى لا يتفق معهم فى ذلك. فهو ينكر هذا الهدف التعليمى؛ لقد ندد بالفرنسيين حين ادعوا أنهم قد جاءوا إلى مصر لتحرير المصريين من العبودية والتبعية، موضحاً بجلاء أن هدفهم لم يخرج عن خدمة الاحتلال الفرنسى وليس من أجل مصر. ويقول "الرافعى" : "إن العلماء كان هدفهم استعمارى أى أن يستغلوا هذه المستعمرة الناشئة لخدمة فرنسا فقط". والدليل الذى قدمه على ذلك هو رفضهم تعليم المصريين بعض صناعات النسيج.

* * *

ويلاحظ أن صورة المصريين لا تحتل موقعا متميزا عند المؤرخين الفرنسيين وكذلك عند "شكرى"؛ فهدفهم الأول هو سرد ما فعله الجنرالات الثلاثة؛ فهم ينظرون إلى المصريين على أنهم شعب بدائى، جاهل، يعتقد بالخرافات.

ويحلو " لشارل رو وهنرى ديهران " أن يرددا دائما كلمة "السكان الأصليين" بدلا من كلمة "المصريين". وهذا يدل على أن تفكيرهما عنصرى واستعمارى. ويحب "شكرى" أن يردد هذه الكلمة أى " السكان الأصليين " ولكنه يستخدم أيضا كلمة المصريين من أجل التخفيف من التأثير السلبى لهذه الكلمة السيئة. ولم يستخدم "الرافعى" كلمة "السكان الأصليين".

وتعد هذه الصورة من أوضح الصور المعبرة عن موقف الرافعى: فهو فخور بمقاومتهم الباسلة للاحتلال الفرنسى؛ فالشعب المصرى قد أعلن حالة التعبئة العامة منذ دخول الفرنسيين حتى خروجهم منها.

ونعتقد أن "الرافعى" قد تعمد استخدام "نابليون " بدلا من "بونابرت "؛ حتى يدرك القارئ حجم المقاومة الرائعة التى بذلها المصريون أمام إمبراطور المستقبل الذى سيذل جيوش أوربا فيها بعد. استطاع هذا الشعب الضعيف أن يقف فى وجه " نابليون " القائد الفرنسى العظيم وفى وجه خلفائه من بعد.

واتفق "شارل رو" و "ديهران" و "شكرى" على أن الدين كان عقبة أساسية أمام الاحتلال الفرنسى؛ فالمصريون لا يرون فى الفرنسيين سوى كفار وأعداء للإسلام. كذلك صور المؤرخون الثلاثة المصريين على أنهم مسلوبو الإرادة؛ فهم أداة فى أيدى الأتراك الذين أصدروا لهم الأوامر بأن يثوروا على الفرنسيين.

وأضاف "شارل رو" و"شكرى" أن الإجراءات الأمنية التى اتخذها "بونابرت" أدت إلى اندلاع ثورة القاهرة الأولى، وكانت سبباً فى كراهية المصريين للفرنسيين. كذلك اعترف المؤرخون الفرنسيون و"شكرى" أن الضرائب التى فرضها "بونابرت" كانت السبب الرئيس فى قيام المصريين بالثورة.

ولا يمل "شارل رو" و "ديهران" من الترديد -دائما- أن الحاجة إلى المال والظروف السيئة بعد هزيمتهم فى "أبو قير" وانهيار كل أمل فى وصول الإمدادات من فرنسا - هى التى أجبرت الفرنسيين على فرض هذه الضرائب. لقد رسم المؤرخون الفرنسيون صورة قاتمة لثورة القاهرة، وكتبوا - باستفاضة- عن المذابح وأعمال السلب والنهب التى قام بها الثوار المسلمون.

رفض "الرافعى" "فكرة النفور الدينى". وقال : إن المصريين قد كافحوا وناضلوا من أجل الحرية وليس من أجل الأتراك. ولم يذكر الدعاية التركية إلا بعد أن تكلم عن قمع الفرنسيين للثورة وليس قبل ذلك. وأكد أن الضرائب الفادحة وهدم أبواب الحارات والمساجد وعزل الشعب من الأسلحة والإجراءات الصحية الصارمة كانت من الأسباب الرئيسة لقيام ثورة القاهرة الأولى. وكان "الرافعى" سعيدا لأنه رغم العنف والقسوة التى استخدمها الفرنسيون فى قمع الثورة إلا أن

روح المقاومة قد طافت جميع أنحاء البلاد؛ فحين يتم قمعها فى مكان، تظهر فى مكان آخر.

لم يهتم "شارل رو" بثورة القاهرة الثانية كثيرا بينما أعطى "ديهران" و"شكرى" صورة رهيبة إن لم تكن فظيعة للمصريين وللتخريب وأعمال السلب والمذابح التى ارتكبوها ضد المسيحيين. كما أنهم ذكروا الأعمال البطولية التى تنم عن شجاعة وبسالة الفرنسيين. وجد "ديهران" و "شكرى" أن القمع كان على مستوى العنف والثورة التى قام بها المصريون.

وأخذ "الرافعى" على عاتقه أن يدافع عن الشعب المصرى فشجب العدوان الذى قام به البعض ضد المسيحيين، ولكنه أكد أن الأتراك الفارين والمماليك هم الذين يستوجبون اللوم والتعنيف. وأبدى "الرافعى" إعجابه ببساطة الشعب المصرى الذى تحدى الموت وقاوم الفرنسيين دون أن يكون له منافع شخصية. ولكنه أخذ يصرخ من عنف الفرنسيين فى قمع الثورة. ولقد أكد أنها كانت مجزرة بشرية حيث إن الفرنسيين أمعنوا فى القتل وأضرموا الكثير من الحرائق.

* * *

إذن قسم "شارل رو" و "ديهران" و "شكرى" الشعب المصرى إلى مسلمين وأقباط. وأوضحوا أن الأقلية المسيحية كانت ضحية طغيان واستبداد السكان الأصليين. وأعلنوا بفخر أن مجىء بونابرت هو الذى أنقذهم من الذل والهوان الذى كانوا يشعرون به.

بينما احتج الرافعى على تقسيم الأمة المصرية إلى مسلمين ومسيحيين؛ فهو على يقين بأن المسلمين والمسيحيين قد اشتركوا معا فى الصراع المسلح ضد الفرنسيين، وأشار إلى أن هذا التحالف القومى يذكره بما حدث أثناء ثورة 1919. ولقد أكد "الرافعى" مثل "شارل رو" و "ديهران" و "شكرى" أنهم قد تخصصوا فى المجال المالى. ولقد استعان بهم الفرنسيون مثل المماليك من قبلهم فى جمع الضرائب.

لم يتحدث "شارل رو" باستفاضة عن حملة ديزيه فى صعيد مصر لكنه أشاد بإيجاز بعدالة هذا الجنرال الفرنسى حتى إنه قد أطلق عليه لقب "السلطان العادل" فى محاولة منه لإخفاء فشل حملته العسكرية. كذلك حرص "ديهران" على إظهار الوفاق والانسجام التام الذى ساد صعيد مصر بين الفرنسيين والمصريين. على حين أنكر "فيفان دينون Vivant Denon" (7) هذه التصرفات الملائكية. وكشف اللثام عن حقائق تاريخية أخفاها الفرنسيون. وبيّن أن الجيش الفرنسى تصرف فى مصر مثل كل الغزاة المستعمرين وحسب قوانين الحرب فى ذلك الوقت قاموا بأعمال السلب والنهب، بالإضافة إلى سياسة الأرض المحروقة. ولقد اندهش "فيفان دونون" من أن الأمهات يقتلن بناتهن حتى لا يتعرضن للاغتصاب.

وعلى حين أوجز " شارل رو " فى الحديث عن حملة ديزيه، فإن "ديهران" قد خصص لها فصلا كاملا ليمدح أعمال هذا الجنرال الفرنسى فى صعيد مصر. لقد قلل " ديهران " من أهمية الدور الذى قام به السكان الأصليون فى صعيد مصر. وأكد أن المماليك وبعض عرب ينبع وجده هم الذين قاوموا الفرنسيين.

وكتب "شكرى" مثل "شارل رو" بإيجاز عن حملة ديزيه. ولكنه صرح كذلك بأن "مراد بك" والسكان الأصليين قد بذلوا قصارى جهدهم فى المقاومة فى صعيد مصر. بيد أن "الرافعى" كان أشد قسوة على "مراد بك" من "شكرى". فأشار إلى أن "مراد بك" اكتفى بدور المتفرج، وأنه لم يكن لديه النية لإعلان حرب هجومية على الفرنسيين بعد هزيمته فى "معركة الأهرام". وأشار أيضاً إلى أن المصريين هم الذين دفعوه إلى المقاومة منذ البداية. ولقد حرص هذا المؤرخ المصرى على التأكيد بأن عاتق المقاومة كان يقع منذ البداية على كاهل المصريين وليس المماليك. لذلك كانوا هم أكبر الخاسرين فى هذا النضال. وكان "الرافعى" شديد الفخر بالمصريين لأن ديزيه لم يستطع هزيمتهم بالرغم من استخدامه للإرهاب. واعترف "ديهران" بأن الفرنسيين هم الذين بدأوا محاولة التقرب من "مراد بك" وليس العكس. وبين أن "مراد" قد وافق طوعا على العرض الذى تقدم به "كليبر" ولكن "شكرى"

و"الرافعى قالوا: إن "مراد بك" هو الذى مهد لعقد معاهدة تحالف بين الفرنسيين من أجل تجنب خطر التحالف الإنجليزى والتركى.

على أن هؤلاء المؤرخين قد أعربوا عن استيائهم من الدور المخادع القذر الذى قام به "مراد" أثناء ثورة القاهرة الثانية، حيث إنه أرسل للفرنسيين سفناً محملة بالمتفجرات. واعترف "ديهران" بطريقة مختصرة بأن "مراد" كان له الفضل فى نجاح "كليبر" فى قمع الثورة.

* * *

إن أكثر شيء يمكن أن يدهش قارئ "شارل رو" و "ديهران" هو أن هذين المؤرخين قد حاولا تغيير الحقائق التاريخية؛ فهما ينكران كل انتصار حققه الإنجليز. لقد قلل "شارل رو" و "ديهران" من حجم انتصار الإنجليز فى "أبو قير" ولكنهما مجدا كل ما فعله الجنود الفرنسيون أثناء هذه المعركة.

لقد دافع "شكرى" عن الفرنسيين ولكن بطريقة مختلفة عن التى اتبعها "شارل رو" و "ديهران". فلقد عظم انتصار "نلسن" وبالغ فى الآثار المترتبة على هذه الهزيمة.ويمكننا القول بأن هذه المبالغة كانت فى صالح الفرنسيين.

لقد حاول "شكرى " أن يقنع القارئ أن هذه الهزيمة قد أجبرت الفرنسيين على أن يعيشوا فى شدة بعد تحطيم أسطولهم، وأجبرتهم على الاعتماد على موارد البلاد وإرهاق الشعب بالضرائب. ولم يكن هذا بالطبع حقيقيا. فلقد بدأ الفرنسيون فى فرض الضرائب منذ اليوم الأول لوصول الفرنسيين؛ أى نحو شهر قبل هزيمتهم فى "أبو قير". بينما قام "الرافعى" بتفخيم الانتصار الساحق للإنجليز؛ إذ أبدى إعجابه بشخصية "الجنرال نلسن" الذى شبهه بالسفينة البشرية.

ولعل القارئ قد لاحظ أن "شارل رو" و "ديهران"، على نحو دائم، قد قاما بالتقليل من أهمية انتصارات الإنجليز وهزائم الفرنسيين. لقد قللا من حجم فشل الحملة. بينما رأى "الرافعى" أن المساندة الإنجليزية "للجزار" فى "عكا" كانت

حاسمة، وأن وقع الهزيمة التى لحقت بجيش "بونابرت" هناك كان أكثر مرارة مما تركته أنباء تحطم الأسطول بالإسكندرية، وأن المقاومة فى "عكا" قد هزمت العبقرية الحربية "لنابليون" وأجبرته على التراجع بعد شهرين من الحصار.

ويرى كل من "شارل رو" و"ديهران" و"شكرى" أن نجاح التحالف الإنجليزى والتركى كان وليد الصدفة؛ إذ هم يعتقدون أن الحملة البريطانية سنة 1801 كان يمكن أن تفشل وتتحول إلى كارثة لو أنها قوبلت بمقاومة من الفرنسيين، على حين يُولى " الرافعى " أهمية خاصة وكبيرة لهذا التحالف الذى استطاع أن يطرد الفرنسيين المحتلين من مصر. ولقد أشاد بتفوقهم العددى والعسكرى على الفرنسيين.

إن كتابات "شارل رو" و"هنرى ديهران" ما هى إلا تبرير ومحاولة مستميتة لتبرئة تصرفات المستعمر الغربى الذى غزا بلاد الشرق، وخلافاً لذلك أحاطوا الجيش الذى أطلق عليه "جيش الشرق" بهالة أسطورية. بل إنهم قد سخروا كل كتاباتهم لسرد ملحمة هذا الجيش الذى لم يفقد موارده فقط، بل فقد الأمل فى العودة بعد انقطاع وسائل الاتصال بينه وبين الوطن الأم.

لقد كان "شارل رو" و"هنرى ديهران" فخورين كل الفخر "ببونابرت" وخلفائه الذين أدوا واجبهم على أكمل وجه فى مدة زمنية قصيرة. ويجدر بنا أن ننوه إلى أن طريقة سردهم للأحداث التاريخية تخلوا من الموضوعية؛ فالقارئ يجدهما خلف كل كلمة، وكأنهما يكتبان سيرتهما، كما أنهما يذكران القارئ دائما أنه يقرأ تاريخهما الوطنى أى تاريخ فرنسا وأمجاد جيشها. فهما لا يتحدثان إلا عن أنفسهما. ومما يؤكد هذه الذاتية المفرطة التى سيطرت على كل الصفحات التى كتباها استخدامهما لضمير المتكلم المفرد "أنا" والجمع "نحن" بدلا من ضمير الغائب المذكر المفرد " هو " والجمع " هم "،الذى اعتدنا قراءته فى كتب التاريخ التى تتسم بالموضوعية : " فشارل رو" و " هنرى ديهران " هما ليسا إذًا سوى مثالين واضحين للعقيدة العنصرية الاستعمارية للجمهورية الثالثة ولمبادئها ولتعاليمها. ومما تجدر

الإشارة إليه أن كلمة "استعمار" بالنسبة لهذين المؤرخين كانت مرادفا لكلمة حضارة.

فلقد ساد الاعتقاد بين الفرنسيين أن الإمبراطورية الاستعمارية هى وسيلة لإعادة بريق وعزة فرنسا. وتعد هزيمتها بعد ذلك فى عام 1940 على يد هتلر فى أقل من شهر أكبر دليل على ضعف هذه البلاد. وهذا يفسر لنا سبب هذه الرؤية العنصرية والاستعمارية عند " شارل رو " و"هنرى ديهران ". فهما يحاولان تبرئة المستعمر الذى يغزو ويحتل من أجل هدف سامٍ ألا وهو تقديم ونشر "الحضارة". "فبونابرت" وجيشه ما هم إذاً إلا محررون ومنقذون للسكان البدائيين الذين ليس لهم سوى هدف واحد؛ ألا وهو تحويلهم إلى مواطنين فرنسيين.

ومن الواضح أن " رو " و" ديهران " يمثلان الاستشراق الفرنسى الذى يمجد الحملة الفرنسية تمجيدا هائلا، فضلا عن أنه ظل طويلا منغلقا حول مبدأ أن مصر ضئيلة ولا تساوى شيئا مقارنة بفرنسا. وقام المؤرخون الفرنسيون بمدح تصرفات جيش الشرق طوال فترة إقامتهم فى مصر؛ إذ يرون أن سلوكهم اتسم بالانضباط. بل وصل بهم الأمر إلى أن حولا كل أعمال الجيش السيئة والأضرار التى اقترفها الجنود والضباط إلى أعمال نافعة وجليلة.

ولما قمنا بعقد مقارنة بين ما كتبه هذان المؤرخان وبين ما كتبه "هنرى لورنس" وجدنا أن لورنس يتحرى رصد الحقائق؛ إذ كان على يقين بأن سرد الحقائق التاريخية كاملة هو الكفيل الوحيد بإزالة أى شك، وهو الأكثر قدرة على إقناع الجميع. لقد أخفى "شارل رو " و "هنرى ديهران " الكثير من الحقائق التاريخية : قام "ديهران" بسرد جميع الأحداث التاريخية بطريقة موجزة وبشكل إجمالى، على حين عمد "شارل رو" إلى تحليل وتفسير بعض الأحداث التى اختارها عن عمد، فهو لم يذكر -على سبيل المثال- وبشكل مفصل - "معركة الأهرام" و"حملة ديزيه على جنوب مصر" وكذلك "ثورة القاهرة الثانية"، وأغفل ذكر أى شىء عن العلماء تحت حكم "كليبر" و"منو" كحكام لمصر بعد رحيل "بونابرت".

وهذا يؤكد أن "شارل رو" لا يهتم إلا "ببونابرت" ولا يرى فيه إلا بشيراً للمدنية وللحضارة الفرنسية؛ فهو النموذج الفريد للمحتل الفرنسى. ومما يؤكد الأمر إنه قد جعل عنوان أهم كتبه عن الحملة: "بونابرت حاكم مصر".

وانقسم الفكر المصرى إلى اتجاهين متضادين كلياً : اتجاه يؤمن بما يردده الأوربيون والمنتمون للغرب ويدافع عنه باسم العقل. وقد كانت رؤية هذا الاتجاه أن مصر تعيش فى عالم العصور الوسطى، وتفتقد الآراء السياسية، وأن الفكر السياسى المصرى المطروح ما هو إلا نتاج مباشر للتعرض للأيديولوجيات والآراء الاجتماعية للحضارة الغربية. كان انتصار "التيار الجديد " أو العقلية الغربية بمثابة نفور من القديم، وأنه لا سبيل إلى التقدم إلا بتقليد الغرب حتى تصبح مصر جزءاً من أوربا، ويمثل "محمد فؤاد شكرى" هذا الاتجاه.

وثبت بالشواهد والقرائن التاريخية -فى كثير من الأحيان- أن "شارل رو" و"ديهران" و"شكرى" لهم وجهة النظر نفسها، ويتحدثون بنفس اللغة، بل ويستخدمون نفس الكلمات حتى لقد خيل إلينا أننا أمام مؤرخ واحد!

ويجدر بنا إلى التنويه أن "ديهران وشكرى" قد استفادا استفادة كبيرة من "شارل رو" واعتنقا نفس أفكاره؛ حتى لقد تخيل القارئ -فى كثير من الأحيان- أنه يقرأ كتباً تاريخية فرنسية مترجمة إلى اللغة العربية، وأن "شكرى" ليس إلا مترجماً حاذقاً لما كتبه الفرنسيون. لقد حذا حذو المؤرخين الفرنسيين بلا تبصر ودون أن يتحقق من مصداقيتهم. لقد مجد، لأعلى درجة، أعمال جيش الشرق، وأبدى إعجابا شديداً "ببونابرت" وأشاد بأعماله، واستنكر بشدة ما قام به "كليبر". ورأى -مثل المؤرخين الفرنسيين- أنه قد حاول أن يهدم بيديه العمل العظيم الذى قام به "بونابرت" هذا الفاتح العظيم. ولقد أثنى ثناء كبيراً على "عبد الله جاك منو" وعلى تعلقه وحبه الشديد لبونابرت. كما أنه أشاد بمشاريعه الإصلاحية التى قام بها فى مصر. كذلك قلل "شكرى" من أهمية انتصار الإنجليز على الفرنسيين أثناء الحملة 1801، ومن أهمية المقاومة المصرية، حتى وصل به الأمر إلى محاولة تبرير التصرفات

السيئة التى قام بها الجنود الفرنسيون. ولاحظنا أن ثمة تناقضات كبيرة بين أسفه الشديد على فشل الفرنسيين فى مصر وبين ما يدعيه هذا المؤرخ فى مقدمة كتاب "الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين عن مصر" من أنه يكتب تاريخ مقاومة الشعب المصرى الذى لم ينحن أمام أى معتدٍ. وفى هذا الكتاب يرى أن هذه المقاومة كانت صاحبة الفضل فى نشأة وبزوغ نزعة القومية العربية.

أما الاتجاه الآخر الذى انقسم إليه الفكر المصرى فيبنى آراءه على أساس الدين والتاريخ والماضى المزدهر. كان أنصار "التيار القديم" أو العقلية الشرقية يرون أن الخير كله فى القديم وأن الشر كله من الجديد. وأن هناك تناقضا وصراعا بين مصر والغرب ولا يمكن أن يكون ثمة وفاق ووئام بينهما، ويمثل " عبد الرحمن الرافعى " هذا التيار. ولقد وجدنا اختلافا حادا يفصل بين "شكرى" وبين "الرافعى" اللهم إلا بعض التشابه الطفيف جدا. كذلك كانت آراء " الرافعى " فى معظم الأحيان، إن لم تكن دائما، على النقيض التام ليس فقط من المؤرخين الفرنسيين بل ومن "محمد فؤاد شكرى" أيضا.

ولاحظنا أن " الرافعى " قد نقل عن الفرنسيين ولكنه كان له هدف مختلف عن "شكرى". إذ قام بعمل دراسة مقارنة بين روايات الفرنسيين وما كتبه شيخ المؤرخين " الجبرتى ". وقام -فى أحيان كثيرة- بنقد الاثنين معا، وبالسخرية من المؤرخين الفرنسيين الذين يبحثون -بشتى الطرق- عن تبرئة أعمال جيش الشرق، كما نجده يُفند مزاعمهم التى تسيء للمقاومة المصرية الباسلة. هذا إلى جانب انتقاده لأعمال "بونابرت" و"كليبر" قبل مقتله و"منو". ومن الجدير بالذكر أن النتائج التى توصل إليها "الرافعى" كانت قريبة من تلك النتائج التى توصل إليها "هنرى لورنس" بعد ذلك فى التسعينات.

وظهرت النزعة القومية المصرية "للرافعى" بوضوح حينما خصص فصولاً بأكملها للحديث عن المقاومة البطولية للمصريين خلال الحملة؛ إذ كان يكتب عنها باعتزاز شديد. على أية حال يلفت " الرافعى " نظر القارئ إلى نقطتين أساسيتين حاول المؤرخون الفرنسيون و"شكرى" حجبهما وهما :

- الفظائع التى ارتكبها المستعمر الفرنسى.
- المقاومة الشديدة للشعب المصرى المحتل.

ويجدر بنا القول: إن "شارل رو" و"الرافعى" قد استخدما نفس المنهج فى شرح التاريخ على الرغم من اختلافاتهم الفكرية. فلقد قام الاثنان بتحليل الأحداث التاريخية مع إضافة تفسير وتعليق شخصى ذاتى يعكس بوضوح آراءهم الشخصية. بينما نقل "ديهران"و" شكرى" التاريخ بطريقة نموذجية أو شبه آلية عن الآخرين خاصة "شارل رو".

* * *

وختاما يمكننا القول : إن " شارل رو" و"هنرى ديهران" و"محمد فؤاد شكرى" كتبوا تاريخ الحملة الفرنسية من منظور، ولقد اقتبس "شكرى" تاريخهم المتحيز والمغرض ذا الأهداف الاستعمارية والوطنية المتطرفة. ويبدو أنه كان مبهورا بالفكر الفرنسى ووقع تحت تأثير الكتابات الفرنسية وانقاد بإرادته انقيادا كاملا له. لقد دفع "شكرى" القارئ المعاصر أن يرى فيه مؤرخاً فرنسياً يكتب باللغة العربية عن تاريخ الأمة الفرنسية ومحاولتها بناء إمبراطورية استعمارية جديدة تعوض بها خسائرها القديمة. بينما قام الرافعى بتقديم الأحداث التاريخية نفسها لكن من "وجهة نظر قومية". لقد كتب "الرافعى" تاريخ الأمة المصرية تحت وطأة الاحتلال الفرنسى بمنظور مصرى بحت. فلم تؤثر فيه كتابات الفرنسيين ولم ينقاد لأفكارهم. لقد نجح الرافعى فى أن يُكوِّن لنفسه رؤية خاصة تعكس القراءة المصرية لهذا الحدث؛ وهى رؤية تتبوأ موقع الندية لنظيرتها الفرنسية فى النصف الأول من القرن العشرين.

الهوامش

(1) Charles-Roux (F), Les Origines de Expédition d'Egypte ,Paris, plon ,1910, Autour d'une route l' Angleterre , l'Estme de suez et l'Egypte au xvlll eme siecle, Paris , Plon ,1922.

,Bonaparte gouverneur d Egypte ,paris ,plon ,1936.

(2) Hanotaux (G.) , Histoire de la Nation Égyptienne , Paris, Plon ,1931(Déhérain , 5éme volume).

(3) محمد فؤاد شكرى، الحملة الفرنسية وظهور محمد على، دار المعارف، القاهرة، 1943.

ـــــ عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة، جامعة الأزهر للنشر والتأليف، 1953

ـــــ مصر فى مطلع القرن التاسع عشر 1801-1811 دار الفكر العربى، مطبعة جامعة القاهرة، 1958 الجزء الأول.

ـــــ الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربى، مطبعة جامعة القاهرة، 1962.

(4) عبد الرحمن الرافعى، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، القاهرة، دار المعارف، 1981، الجزء الأول والثانى.

(5) Laurens (H), L Expédition d'Égypte ,Paris ,Armand colin ,1989

(6) اختلف "ديهران" لأول مرة مع "شارل رو" حينما أعلن صراحة بأن "بونابرت" قد فرض ضرائب فادحة عقب ثورة القاهرة الأولى .

(7) Denon (v) Voyage dans la Basse et haute Egypte pendant les campagnes du général Bonaparte , Paris , Didot l' Arné ,1802.

* * *

اتجاهات فى تفسير نتائج الاحتلال الفرنسى لمصر
(دراسة فى نماذج من كتابات المؤرخين الفرنسيين والأمريكيين والمصريين)

أ.د. محمد صبرى الدالى

حظى الاحتلال الفرنسى (الحملة الفرنسية)[1] بقدرٍ كبير من اهتمام مؤرخى تاريخ مصر الحديث، الأمر الذى تضاعف مع النصف الثانى من القرن العشرين، وبلغ الذروة مع حلول الذكرى المئوية الثانية للاحتلال، بل وصُوحب بضجة – وأحياناً صخب – حول حقيقة دوره فى تطور مصر الحديثة، وتباينت الآراء : فهل كان مجرد مشروع عسكرى فاشل لم يهدف إلا لإنجاز أهدافه فى إطار الصراع بين الشرق والغرب؟ أم أنه – بقصد أو بدون قصد – أدى إلى تداعيات إيجابية على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية لمصر، ومن ثم لعب دوراً مهماً فى المشروع الإصلاحى والتحديثى منذ عهد محمد على؟. أم أنه أجهض مشروعاً مصرياً كان فى طور التكوين، ومن ثم كانت نتائجه تدميرية بأكثر مما كانت بناءة؟ [2].

وإذ تهتم دراستنا بالعرض لنماذج من الدراسات التاريخية الأمريكية والفرنسية والمصرية التى تناولت الاحتلال بشكل أساسى أو عرضى، فإن هذا لايعنى أنها تقوم بتقييم تلك الدراسات، بل بتحديد رؤيتها لنتائج الاحتلال وفهم أسباب ذلك، إن وجدت. وفى اعتقادنا أن المدخل الصحيح لمعرفة تباين المواقف من نتائج

الاحتلال إنما ينبع من عدة أمور؛ منها وجهة النظر المبدئية فى تقييم الحدث فى ظل ما قبله وما بعده من تطورات، والموقف من"مفاهيم" التخلف والجمود فى مقابل مفاهيم التطور والتحديث : فهل تقتصر تلك المفاهيم بما هو معروف عنها فى الغرب؟. ومنها الموقف الفكرى وطبيعة الأسئلة المطروحة وأهدافها وكيفية الإجابة عنها. إن الإمساك بهذه الأمور ربما تقودنا إلى معرفة المدى الذى كانت فيه كل دراسة من تلك الدراسات موضوعية فى رؤيتها لنتائج الاحتلال على مصر، وهل طال بعضها " وباء التفكير الخطأ "(3).

الكتابات الأمريكية : اهتمام دائم، وثورية أحياناً

على غير المتوقع اهتمت المدرسة الأمريكية مبكراً بتاريخ مصر فى العصر العثمانى، ربما بسبب توجهات الولايات المتحدة الأمريكية فى المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية، ثم التغييرات الثورية فى مصر منذ 1952 وتداعياتها على الاهتمام بالتاريخ المصرى وتفسيره، وربما نتيجة للتطورات العلمية فى الولايات المتحدة وتأثر بعض مؤرخيها بالمادية التاريخية (4). وإذا كان ستانفورد شو أنهى عام 1958 رسالته للدكتوراه " التنظيم الإدارى والمالى فى مصر العثمانية " فإن هيلين ريفلين لحقت به فى العام التالى بدراستها عن " السياسة الزراعية لمحمد على". وإذا كانت دراسة شو توقفت عند عام 1798 ولم تتناول الاحتلال الفرنسى، فإن ريفلين فى محاولتها لتقييم حقيقة أوضاع مصر فى عهد محمد على، انتهت إلى رؤية جديدة بعض الشيء لأوضاعها أواخر العصر العثمانى. ومع أنها اعتبرت الحكم العثمانى كان "رجعياً".. إلا أنها ذهبت إلى أن المجتمع كان يعيش حالة من إعادة ترتيب الكثير من أوضاعه(5). فى الوقت نفسه أدت تفرقتها بين الأسباب الحقيقية لـ (الحملة) وبين الذريعة التى اتُخذت لإنفاذها، وتوضيحها أن أحد أسباب فشل الحملة تمثلت فى مقاومة المصريين (نتيجة كرههم ورفضهم للإصلاح على النسق الفرنسى، بالإضافة إلى البُعد الدينى والضغوط الاقتصادية وتردى الفرنسيين فى مظالم لا تختلف كثيراً عن مظالم المماليك)(6).. أدى بها هذا إلى عدم المبالغة فى نتائج الاحتلال.

لقد اعتبرت أن بعض معالم التحديث بدأت مع الاحتلال، لكنها رفضت المبالغة فى تصويرها. وهكذا لم توافق على ما تردد " فى صيغٍ مُبالغٌ فيها " بأن "الحضارة الحديثة دخلت مصر.. بجهود الباحثين الفرنسيين الذين رافقوا نابليون"، خاصة وأن " من المستحيل أن نقيس بأى درجة من الدقة تأثير أى شخص أو نظام أو حدث على مجرى تاريخ أمة ". صحيحٌ أن عمل العلماء " سيظل شاهداً مستمراً على أصالة البحث العلمى الفرنسى" ولكن " يجب الاعتراف بأن أعظم ما حققه الباحثون هو تقديم مصر للغرب أكثر من التأثير فى المصريين. وعلى كلٍ فإن ثلاث سنوات تعتبر فترة من القصر بحيث لا يمكن لُممثلى إحدى الحضارات أن يتركوا خلالها أثراً دائماً على مُمثلى حضارة أخرى. يضاف إلى هذا أن حاجات جيش الاحتلال.. كانت لها الأسبقية على الإصلاحات المثالية الطويلة الأمد التى كان يمكن أن تُحدث تغييراً ثورياً فى مصر؛ فقد تمخض المركز المالى الحرج الذى تردى فيه نابليون وخلفاه عن إجراءات تعسُفية لا تقل عن الطغيان المملوكى. ولم تتمتع البلاد إلا بفترة سلام بالغة القصر.. فمن غارات البدو، إلى معارك المماليك، إلى ثورات المدن، إلى أعمال التمرد فى القرى. وسار السخط الشعبى جنباً إلى جنب مع سخط الجيش الذى لم يكن يتلقى رواتبه أو يجد الكساء الكافى وكان رجاله متشوقين للعودة إلى الوطن بعد أن تبددت آمالهم، وأصبحوا موضع كراهية المصريين". لكنها فى المقابل ترى أنه " لو قُيِّض للاحتلال أن يستمر فربما قُدِّر لمينو ورجاله أن يتركوا فى مصر أثراً عميقاً. لكن فى ظل تلك الظروف لم يكن مُقدّراً للنفوذ الفرنسى أن يتجاوز فترة الاحتلال ما لم تُنعشه مؤثرات أخرى ". وبالتالى فالتأثير الفرنسى الذى يتم الحديث عنه لم يكن مجرد حصيلة السنوات الثلاث التى قضاها الاحتلال، بل بالأحرى " نتيجة استمرار تدفق النفوذ الفرنسى فى أشكال شتى (من فرنسيين التحقوا بخدمة محمد على، وبعثات علمية، والسان سيمونيين، والرحالة) تضافرت لكى تجعل الحضارة الفرنسية هى الأثر الأوربى الغالب فى مصر أثناء وبعد عهد محمد على "[7].

وهكذا فمع قبولها أن سياسات محمد على الخاصة بحيازة الأرض تأثرت بالإصلاحات الزراعية التى قام بها الاحتلال الفرنسى.. فإنها تشير أيضاً إلى تأثُرها بالإصلاحات العثمانية، وأن إصلاحات الفرنسيين إنما كانت وثيقة الصلة " بزيادة الدخل لتغطية نفقات الحكومة المدنية والعسكرية.. وأصبحت الحاجة إلى الإصلاح الزراعى أمراً حيوياً بالنسبة للفرنسيين عندما وجد نابليون نفسه مُعتمداً اعتماداً كُلياً على موارد الدخل المحلية، بعد أن دمر نلسون الأسطول الفرنسى.. ثم ازدادت صعوباته حين فشل فى إحراز انتصار حاسم على المماليك "[8]. ومع أن مينو "أبدى موهبةً حقيقيةً باعتباره إدارياً. ولو قُيِّض له أن يستمر طويلاً.. لأدخل على نظام ضرائب الأراضى إصلاحات أساسية لها أثرها الحاسم على حيازة الأرض ".. إلا أن ذلك كله بقى مجرد آمال وطموحات[9]. وهكذا يمكن القول بأن الرأى الذى توصلت إليه ريفلين فى تقييم الاحتلال إنما نبع من اعتدالها فى تقييم أوضاع مصر فى العصر العثمانى، وفى عهد محمد على.

وفى عام 1962نشر هيرولد كتابه " بونابرت فى مصر" واعتبره محاولة للوصول إلى " الحق الراجح " بخصوص (حملة) اعتبرها " مغامرة من أشد مغامرات العصور الحديثة إثارة للمشاعر ". بيد أن الحق عنده " لا يُظهر بونابرت ولا الجنود ولا المدنيين الفرنسيين.. فى صورة طيبة جداً " لاسيما وأنها كانت " حملة استعمارية " وأن " الجنود والمدنيين الفرنسيين الذين شاركوا فيها كانوا خارجين لتوهم من ثورة هى أشد الثورات التى سجلها التاريخ وحشية ". وهكذا حمل بشدة على الحملة من حيث ظروف تجريدها، وأهدافها التى اندمجت فيها " النزعتان الوطنية والتجارية فأسفر اندماجهما عن وليد هو " الامبريالية " وأطماع جنودها و"الأطماع الخسيسة " للتجار الفرنسيين فى مصر وترحيبهم بالغزو[10] الذى تم استغلال " ظلم المماليك " ذريعة له [11] وأحلام بونابرت من ورائها [12] واستخدام القوة والدين فى آن[13]. بل ولكونه اهتم بـ" الحقائق الإنسانية " ومن ثم أشار إلى أن الاحتلال الفرنسى ارتبط، ومن الناحية الاجتماعية، بما أسماه "خطراً على الآداب العامة " و"المتع الرخيصة" أو "الوباء النفسى". وهكذا أضاف الفرنسيون إلى ظلمهم للأهالى اغتصابهم

للنساء، حتى إن الجنرال بليار " كان يسمح لجنوده باغتصاب النساء ليرفع معنويتهم "[14]. على أن هيرولد فى الوقت نفسه تحدث عن "استسلام السكان " للمماليك والعثمانيين بما يعنى تجاهله أو عدم وعيه بالانتفاضات التى قاموا بها، وكرر مقولات سائدة عن " التخلف " و" الجمود " والذى حاول بونابرت القضاء عليه لإخراج مصر من" العصور الوسطى"[15]. كما وصف رد فعل زُوّار المجمع العلمى من المشايخ بما لا يقلل من جهلهم، وإن أشار إلى شعورهم بعزتهم واحترامهم لاستقلالهم وهويتهم[16].

فى الإطار السابق جاء تقييمه لنتائج (الحملة) واعتبر أن لها نتائج إيجابية وسلبية، ولكن بشكل أوقعه أحياناً فى تناقضات. فنهايتها تعتبر طياً لـ " صفحة عميقة من تاريخ الاستعمار " ولم تحقق غير " خسارة الأرواح والخراب والقسوة ". لكنها فى الوقت نفسه " ذات دلالة أبقى.. فقد تحطمت قوة المماليك.. ونفذ محمد على وخلفاه كثيرا من المشروعات التى بدأ الفرنسيون بالتفكير فيها ليجعلوا من مصر بلداً عصرياً. وظل أثر الفرنسيين الثقافى والتكنولوجى ظاهراً إلى اليوم. لقد حرك نابليون فى مصر.. قوى تعمل على التغيير رغم شدة جمود تقاليد الماضى ". على أنه عاد سريعاً للتخفيف من ذلك بالقول " ومن العبث إطالة الكلام فى جميع هذه النتائج.. فمصر كان مآلها إلى التغير حتى ولو لم يظهر بونابرت قط فى سمائها، وآيات الفن وروائعه.. كان مصيرها إلى الكشف حتى ولو لم يزحف ديزيه قط إلى الصعيد، والرموز الهيروغليفية كانت ستنفك حتى ولو لم يكشف حجر رشيد إلا بعد الحملة بسنوات، وقناة السويس كانت ستحفر حتى ولو لم يأمر بونابرت بمسح برزخ السويس.. صحيح أن كل شر يحمل فى ثناياه بعض الخير عرضاً ولكن هذا لا يعنى دائماً أن الشر ضرورى لجلب الخير. وأدخل فى موضوعنا أن نعتبر الحملة أول محاولة أوربية كبرى لاستعمار البلاد التى أطلق عليها حديثاً (المناطق المتخلفة). ولعلها كانت فريدة بين الحملات الاستعمارية كافة، لا بسبب من شارك فيها من شخصيات فذة فحسب، ولا بسبب مجال تخطيطها أو ما يثيره مغامرتها فى النفوس من انفعالات، بل أهم من ذلك بسبب الجدية التى حاول بها بونابرت وخلفاه أن

يُحققا الاندماج بين الغرب العلماني والشرق الإسلامي على قدم المساواة. فإن محاولة كهذه لم تبذل منذ ذلك التاريخ "[17]!.

ورغم وعيه بأن الهدف الحقيقى من إنشاء الدواوين كان " إضفاء الصفة الشرعية على السياسات الفرنسية وإقرارها بفضل مكانة العلماء والفقهاء الذين تتألف منهم.." بالإضافة إلى دورها فى نقل شكاوى الأهالى إلى السلطات الفرنسية و " جس الرأى العام " وأنها كانت " فى المهمة الثانية لا يُركن إليها إطلاقاً شأن كل هيئة تُضمر العداء للمحتل وإن أذعنت لمطالبه ".. إلا أنه أشاد بتجربتها، وإن أخذ عليها أنها لم تؤد لإصلاح جذرى ومن ثم لم يعتبرها " حدثاً تاريخياً "[18]. ورغم وعيه بأن " اللجنة العلمية الفنية كما سُميت " لم تكن إلا " لجنة خبراء وفنيين " ولا تقل أهمية عن الجيش "طالما أن هدف الحملة كان تحويل مصر إلى مستعمرة لفرنسا".. وأن أعضاءها - بخلاف عامة الجند - كانوا " على وعى بهدف إيجابى يستطيعون تحقيقه ".. إلا أنه شكّك فى قدرة بونابرت منذ البداية على إنجاز مطالب (الحملة) - بما فيها من مهندسين وعلماء وإخصائيين فى الطيران وفنانين وأثريين واقتصاديين وكيميائيين وجراحين وكتاباً وموسيقيين ومترجمين وطابعين - فى نحو عشرة أسابيع فقط. ورغم كل ما سبق، خاصة تشكيكه فى قدرة بونابرت على توفير مطالب الحملة من العلماء، إلا أنه بالغ فى دور اللجنة والمجمع العلمى الذى كانت أهدافه "لم يسبق لها نظير " وتراوحت بين " خدمة مطالب الحملة، والنهوض بمصر من أجل الحملة "، كما تراوحت المهام التى أُوكلت إليه بين " التافه والجليل" و" وانصرف أعضاء اللجنة العلمية وأعضاء المجمع العلمى إلى هذه المهام كُلياً بهمة وقدرة إنتاجية مُذهلتين، وأثمرت جهودهم أثراً خالداً من آثار الدرس الجماعى.. وصف مصر "[19].

وهكذا فهيرولد الذى كتب لتوضيح "الحق" عن "مغامرة" الاحتلال والصورة "غير الطيبة تماماً" لرجاله.. انتهى به الأمر بالوقوع فى تناقضات حول نتائجها، لذا كان من الطبيعى أن يكتب " ولاريب فى أن الحملة - برغم فشل جميع أهدافها- كان لها نتائج بعيدة شديدة التباين. أما كون حصيلة الموازنة بين هذه النتائج إيجابية

أو سلبية فمسألة يختلف فيها الرأى "[20]. ونعتقد أن ذلك التناقض يعود لموقفه من مفهوم الحداثة، لاسيما وأنه مع نقده للاحتلال، امتدح ما أدخله من تحديث على مصر " المتخلفة " التى تعيش فى العصور الوسطى[21] ! وتلك إحدى سمات التفسير الليبرالى للتاريخ الذى خرج منه ما أسماه جران " الاستشراق الجديد".

وبعيداً عن تناقضات هيرولد، قام بيتر جران فى " الجذور الإسلامية للرأسمالية المصرية " بإعادة تقييم نتائج الاحتلال بتقديم تفسير جديد لأوضاع مصر قبله وبعده. ويمكن القول بأن تقييمه بدأ من التاريخ الذى وضعه لدراسته 1760-1840 والذى يعنى بوضوح أن التحديث فى مصر بدأ قبل مجىء الاحتلال الفرنسى الذى لا يُعتبر مسئولاً عن ذلك إلا بقدرٍ مُعين، وأن مصر كان من الممكن أن تنجز عملية التحديث بنفسها[22]. وتعتمد دراسته فى تحديد نتائج الاحتلال ونقد ما قيل من مُبالغاتٍ بشأنه على أمورٍ ثلاثة يمكن ترتيبها كما يلى :

أولاً: شهدت مصر تطوراً اقتصادياً واجتماعياً مُهماً فى القرن الثامن عشر نتيجة التحول الرأسمالى الذى شهدته تجارتها منذ القرن السابع عشر، وتعاصر ذلك مع مجموعة من العوامل التى بلغت درجة من الوضوح والنضج فى ستينيات القرن الثامن عشر. أما العوامل الداخلية فتمثلت فى تدهور نفوذ الباب العالى، وظهور البكوات المماليك فى تجمُع شبه مستقل من المقاتلين ذوى نزوع قوى نحو التجارة لتلبية احتياجاتهم. وأما العوامل الخارجية فتمثلت فى نتائج "ميلاد السوق العالمى الحديث " وتقدُم الثورة الصناعية فى غرب أوربا وخلقها نوعاً جديداً من السلع والسوق، بحيث لم يعد الأوربيون يكتفون بالبحث عن بعض المنتجات كالسابق، بل أصبحوا يُصرون بشكل متزايد على البحث عن المواد الخام التى يمكن مُعالجتها صناعياً. أدى هذا الضغط من داخل النظام الأوربى، مع تطور التقنيات، إلى محاولات السيطرة على القطاعات الرأسمالية فى البلاد الإفريقية والآسيوية والعمل على التوسع فيها. وفى هذا الإطار اندفعت فرنسا، خاصة بسبب تداعيات هزيمتها فى حرب السنوات السبع، للبحث عن مصادر المواد الخام فى المناطق القريبة منها ومنها مصر التى حظت باهتمامها كمصدر للحبوب وسوق للسلع الفرنسية. وقد

اعتمد التغلغل الفرنسى على التجار والإرساليات الدينية والأقليات المحلية. على أن ما سبق عزز من الازدهار التجارى فى مصر وشجع على نمو طبقة جديدة من غير المصريين تقود اقتصاداً شرقياً فى اتجاه التصدير. ومع تحقق عالمية قطاع التجارة وارتفاع أهمية الصادرات الزراعية فإن بنية الطبقة الحاكمة تغيرت لاسيما وأن تلك الفترة شهدت السقوط التدريجى للنظام العثمانى. وفى ظل ذلك كان المماليك وغيرهم يتصارعون ليضمنوا المصادر الجديدة للثروة، كما أن الروابط التضامنية القائمة على بنية الطوائف بدأت تتداعى لتحل محلها روابط جديدة أكثر تمييزاً للبنية الطبقية الحضرية. وهكذا فمع أن مصر " كانت تعيش مجتمع العصور الوسطى حتى بداية القرن الثامن عشر، وتسود فيها مجموعة من المؤسسات تقوم كل منها على الاكتفاء الذاتى وتتميز ببنية رأسية " مثل الطائفة الحرفية والمذاهب الدينية والأزهر والبيوت المملوكية وجماعات التجار.. إلا أن الازدهار التجارى صاحبته صحوة اجتماعية مهمة لم تؤثر على المماليك والطبقات الوسطى فقط، بل وعلى طوائف الحرفيين والطرق الصوفية، مع الوضع فى الاعتبار أن تلك التطورات شهدت تراجعاً بعد 1790. وبناء على ذلك فإن الفترة النابليونية كانت أقل أهمية لمصر عن فترة التطور الرأسمالى غير المتوازن فى فرنسا فى القرن الثامن عشر، كما أن الفترة الواقعة بين1760– 1815 تمثل وحدة مترابطة وحلقة واحدة من حلقات التاريخ المصرى، وهى سنوات فاصلة تم فيها ظهور الهيكل الأساسى لمصر الحديثة. ومن ثم فنتائج الاحتلال فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية لا تخرج عن تلك التطورات، بل إن عهد محمد على يعتبر فى الأساس " استمراراً لنفس الاتجاهات التى بدأت فى القرن الثامن عشر "[23].

ثانياً : تركت تلك التطورات تأثيراتها على الحياة الفكرية وكانت مراحل الصحوة الثقافية " لاحقة للتحول الاجتماعى الاقتصادى ". لقد حاولت مصر فى الفترة 1760–1840 الاحتفاظ بسيطرتها على تجارتها وألا يقتصر دورها على الإنتاج والاستهلاك، ولذلك لم يكن أمراً مُفاجئاً أن تنمو فى محيط التجار والبيروقراطية الحاكمة فى هذه الفترة عملية تحديث محلية فى الفكر الإسلامى، لتثبيت الواقع

الاقتصادى. ومن ثم يجب التخلى عن الافتراض الشائع بأنه لا يوجد فكر حديث غير غربى فى بلاد الأطراف إلا ويستمد جذوره من الغرب، وكذا عن "الصورة التقليدية " عن مصر فى القرن الثامن عشر باعتبارها " تتسم بالبربرية والفوضى"[24]. ولتوضيح ودعم أفكاره هذه ودحض المقولات عن تفوق الغرب (الآخر) على الشرق، وأن ازدهار الغرب يعنى اضمحلال الشرق [25]، وكذا مقولة "الفراغ الثقافى" فى مصر قبل الاحتلال، وأن " أوربا ملأت هذا الفراغ بالأفكار الحديثة ".. قام بنقد ما قيل عن تقدم أوربا فى القرن الثامن عشر "بشكل مثير" فى الطب أو العلم، كما اعتبر أن دراسة دقيقة لما كتبه المصريون فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر لا توضح أن البلاد كانت فى حالة انحطاط ثقافى. وعنده أن السبب فى عدم تقبل مصر للتكنولوجيا، سواء كان هذا هو الحال أو لم يكن، لم يكن هو الجهل أو النظرة الدينية بل عدم ملاءمة التكنولوجيا للأوضاع القائمة[26]. وفى الاتجاه نفسه نادى بضرورة تعديل المؤرخين لرأيهم – بشكل إيجابى – فى الحواشى والشروح والتقارير[27]. بيد أن " الصحوة الثقافية " شهدت تدهوراً منذ 1790 لتدهور الأوضاع السياسية والمشاكل الاقتصادية والاجتماعية، حتى ليبدو أن الحياة الثقافية اقتصرت " بشكل متزايد على الحد الأدنى اللازم لدعم الحياة الدينية. وإذا كانت هذه الظروف أدت ببعض أبناء هذا الجيل إلى الشعور بالمرارة والسلبية أو الاستسلام (الجبرتى والخشاب) فإنها أدت بالبعض إلى الصراع (العطار) الذى "قاده الفشل فى تحقيق النجاح إلى عدم الرضا عن الحياة الفكرية القائمة، ثم دفعه هذا الفشل إلى الثورة بشكل متزايد على هذه الحياة "، وهو ما ستظهر نتائجه فى عهد محمد على[28].

ثالثاً : ومن ثم فالتحديث – باعتباره عملية محلية وذاتية – كانت تشهده مصر قبل مجىء الاحتلال. وعنده أن المتتبع للأوضاع " يلاحظ أن هناك تحولات عميقة تجرى فى مصر حتى قبل مجىء نابليون ". ومع أنه لا ينكر أهمية التأثير الأوربى على الاقتصاد والثقافة فى مصر، خاصة وأن " التأثير الفرنسى عمل على تعزيز قرار

الحكام المصريين اللاحقين كى يتحالفوا مع الأجانب وفى الحدود التى يريدون فيها خلق صفوة تقنية مدربة محلية، وفى ظل الرعاية الأجنبية ".. إلا أنه يعارض القول بأن " أصول مصر الحديثة " ترجع إلى الاحتلال ويرى أن الثقافة الحديثة لها أساسها المنطقى فى مصر نفسها، وذلك فى التحولات الاجتماعية والاقتصادية التى مرت بها فى منتصف وأواخر القرن الثامن عشر ". بل ولقد اعتبر أن الغزو الفرنسى " أضر بالطبقات الوسطى وبالثقافة العقلانية التى كانت تفرزها "(29).

ورغم وجاهة ما توصل إليه (30) بخصوص نتائج الاحتلال، فإن السؤال الذى يبقى : لماذا قدم جران هذا التفسير؟. هل للجو العلمى الذى عاشه منذ الستينيات سواء فى الولايات المتحدة الأمريكية أو فى مصر، ووجود عفاف لطفى السيد وإدوارد سعيد هناك؟(31). أم لكونه مفكراً يسارياً يقف ضد كل استعمار(32) وضد فكرة المركزية الأوربية، ومن ثم وقوفه مع التجارب الخاصة للبلاد "المتخلفة"؟(33). أم لأن مصر قبل الاحتلال كانت تشهد بالفعل ما يستحق الوعى به وإظهاره، بدلاً من الحديث عن مصر الحديثة فقط بسبب نتائج الاحتلال؟.

أما دراسة كونو " فلاحو الباشا " فجاءت لتضيف الجديد، وفى الاتجاه النظرى نفسه الذى سار فيه جران من قبل. وهو فى عمله على وعى تام منذ البداية بالقضية التى نناقشها، ومن ثم – ورغم حيرته الفكرية –لم يعتبر نفسه من أنصار "الانقطاع" الكامل الذى يمثله عام 1798 أو 1805 رغم عدم إنكاره أن " تغييراً هاماً حدث فى القرن التاسع عشر ". وبعيداً عن البحث عن التحديث " بمعناه الخطابى".. أسس موقفه هذا انطلاقاً من التركيز على" التاريخ الاجتماعى والاقتصادى" ومن الإجابة على أسئلة مثل: "متى وكيف اندمجت مصر فى اقتصاد العالم الرأسمالى " وكذا البحث عن حقيقة نظام أراضى الفلاحة، والتجارة الحضرية الريفية، والبنية الاجتماعية الريفية، وتفاعُل القانون مع التصرفات والاتجاهات التقليدية الريفية فى التعاملات(34).

لقد انتهى إلى أن بعض الظواهر الخاصة بحيازة الأرض فى القرن التاسع عشر

"إما أنها لم تكن جديدة أو أنها كانت تطورات مؤسسة على أبنية وتعاملات كانت موجودة فيما سبق " وكانت هناك حيازة فردية " وإن افتقدت إلى عدالة التوزيع بين المزارعين ". أما القول بأن مصر كانت تعيش على " اقتصاد معيشى" قبل تحولها إلى اقتصاد "موجه للتصدير" فغير صحيح لأن سجلات المحكمة تثبت أنه قبل عام 1800 كان يوجد نظام تسويق وعلاقات من القروض والاستثمارات ربطت القرية بالمدن وبالأسواق العالمية، واتسع نطاق إنتاج المحاصيل من أجل السوق ". وهكذا أيد القول بأن المجتمع الريفى شهد " ملامح الرأسمالية " فى القرن الثامن عشر، وهو ما مهد للتحول فى القرن التاسع عشر إلى مزيد من الزراعة التجارية، وأن الفلاحين لم يتحولوا " فجأة وفى جيل واحد من مجرد نظام الزراعة المعيشية إلى الزراعة التجارية، ولا اندفعوا إلى عالم غريب من تبادل العملة وزراعة محاصيل السوق وتحويل الأراضى إلى سلعة، بل كانت هذه الأمور مألوفة لديهم، باستثناء الصعيد الذى شهد نظاماً جماعياً لحيازة الأرض "(35).

وإذا كانت مصر قد شهدت تلك التطورات الإيجابية فى القرن الثامن عشر، فإن نتائج (الحملة) كانت سلبية فى هذه الناحية لأنها "أوقعت البلاد فى الاضطرابات مرة أخرى، وعاد المماليك يلجأون إلى الصعيد بينما احتل الفرنسيون القاهرة. وتسبب الحصار الانجليزى فى نقص الصادرات إلى الثلث مما أدى إلى تدهور صناعة النسيج والزراعات المتصلة بها. وترك الفرنسيون الصعيد لمراد، ولم يتمكنوا من إخضاع الدلتا بالكامل، ولم يحققوا أياً من خططهم الإصلاحية بسبب صراعهم المستميت للبقاء. وفى هذه الظروف لم تختلف طرقهم فى جباية الضرائب عن المماليك " حتى قرر كليبر ضرورة أن (يعصر مصر كما تعصر الليمونة فى العصارة) لكى يملأ خزانته الخالية ". ولقد كان ذلك سبباً يضاف إلى الأسباب السابقة، والتى أدت لاستمرار تراجع الاقتصاد الريفى، بل ووقوعه فى أزمة(36). وإذا كان نظام الالتزام قد تعرض للمتاعب أواخر القرن الثامن عشر، فإن الاحتلال الفرنسى القصير الأمد أضاف إلى المتاعب الاقتصادية للبلاد، وأربك

نظام الالتزام تماماً، حيث صودرت الالتزامات - فيما يقرب من ثلثى مساحة الأرض الزراعية - من المماليك الهاربين كـ (ممتلكات للجمهورية) وحاول بونابرت بيعها لملتزمين جدد فلم ينجح إلا قليلاً، ووضع الفرنسيون الضرائب على أراضى الأوسية، وزادوا نصيب الحكومة من عوائد القرية على حساب من تبقى من الملتزمين، ووُضعت خطة لإلغاء نظام الالتزام ووضع ضرائب مباشرة وتمليك الأراضى " غير أنها لم تنفذ أبداً ". وهكذا انتهى كونو إلى عدم وجود " انقطاع تاريخى"، وإلى عدم صحة القول بأن الاحتلال، وتولى محمد على " أوصلا مصر إلى الاتصال بالغرب، وبذلك تم تدشين عصر من التغيير التقدمى الذى أدى إلى ظهور أمة حديثة "(37).

هكذا تضمنت النماذج الأمريكية الأربعة التى عرضنا لها ثلاثة اتجاهات فى تفسير نتائج الاحتلال الفرنسى. وبقدر ما تعكس تلك الاتجاهات قدراً من الثراء الفكرى، إلا أنها تعكس تبايناً له جذوره وأسبابه. ونعتقد أن الاختلاف بقدر ما نتج عن الموقف من أوضاع مصر فى العصر العثمانى، إلا أنه نتج أيضاً عن الموقف من الحداثة (معناها ومظاهرها ودور الغرب فيها) وإلى حد ما الموقف من الاستعمار القديم (الاستعمار الفرنسى لمصر نموذجاً) والجديد (بما فيه من تنافس وتلاقى على المصالح والأهداف بين الولايات المتحدة وأوربا الغربية). وهكذا فعلى الرغم من المنحى الأخلاقى لهيرولد فى تناول ممارسات وتجاوزات الاحتلال الفرنسى، إلا أنه تعامل مع نتائجه انطلاقاً من موقف يقصر مهمة التحديث على الغرب، مع أنه لم يكلف نفسه معرفة حقيقة أوضاع مصر فى العصر العثمانى. أما ريفلين وكونو فلم يقصرا التحديث على الغرب، بل وجعلوا للشرق (مصر) دوراً فيه. أما جران فجعل للتحديث أساسه المصرى الأصيل، وإن لم يكن مُنبت الصلة – فى إطار تفاعل إيجابى – مع التطورات فى أوربا. ونستطيع القول - تجاوزاً – إن الاتجاه الليبرالى لهيرولد الذى تمخض عن تفسيرات ومواقف متناقضة، قابله اتجاهاً يسارياً ثورياً عند جران، وبقيت كتابات ريفلين وكونو لتمثل اتجاهاً وسطاً.

لم يقدم لنا " ريمون " فى "الحرفيون والتجار فى القاهرة " ما نطمئن إليه فى تحديد رأيه بشكل مباشر فى نتائج الاحتلال. ومع ذلك لا نستطيع إغفال بعض الفقرات التى أوردها، خاصة وأن موضوعه استغرق القرن الثامن عشر كله. ففى إطار تناوله لحالات الابتزاز التى تعرض لها المصريون فى تسعينيات القرن الثامن عشر أنهى ريمون عمله بالقول " وعقب سنوات طويلة من البؤس والمصائب المتواصلة، كانت الأمور تنذر بالنهاية المحتومة "[38]. فهل قصد بـ"النهاية المحتومة" الاحتلال الفرنسى، أم التداعيات التى حدثت منذ الاحتلال وفى عهد محمد على؟. فإذا ما عُدنا لمقدمة دراسته وجدناه وقد أشار إلى أنها تناولت " البنية الاقتصادية للقاهرة، والمجتمع المصرى تحديداً.. فى إطار التطور التاريخى لمصر خلال القرن الأخير من السيادة العثمانية، وذلك قبل أن يوشك التدخل الأوربى وبدايات التحديث أن يُغيرا التنظيم الاقتصادى والبناء الاجتماعى (التقليدى) "[39]. ولعل هذا يدعم القول بأن " النهاية المحتومة " للاقتصاد والمجتمع (التقليديين) عنده إنما تمت منذ الاحتلال، حيث بدأت " بدايات التحديث ".

على أن الرجل - مع ذلك - سيرفض فى موضعٍ تالٍ رأى القائلين بأن المجتمع المصرى فى القرن الثامن عشر " اتسم باتجاه شديد نحو الركود " أو أن مصر دخلت "عالماً مُغلقاً تماماً راكداً ركوداً نسبياً". فعنده أن هذه الأقوال "محض افتراءات يتعين التصدى لُمسلماتها الجامدة والخاصة بمفاهيم التقدم أو التدهور والازدهار أو البؤس التى عادة ما يتم توظيفها عند توصيف حالة مصر العثمانية". ومن ثم فمن الضرورى "أن نتحرى المعانى الصحيحة الواقعية لها". كما أخذ على الرحالة ووكلاء القناصل فى مصر فى القرن الثامن عشر أنهم "غالباً" ما لاحظوا وتحدثوا عن "حالة الانحطاط التى ألَمت بالحِرف الرئيسية" كما أخذ على (علماء الحملة) "قسوتهم فى حكمهم على التقنية المستخدمة ". بل وأشار إلى ضرورة تقييم الدور الذى ساهم به أهالى البلد (العامة) خلال الثورات الكبيرة للقاهرة ضد الاحتلال الفرنسى، وفى إطار الأزمات التى سبقت ارتقاء محمد على الحكم، على اعتبار أنه

"شكل ظاهرة مُلفتة للنظر، ولابد أن ثمة فترة طويلة سبقت نضج هذه الظاهرة، تتطلب الكشف عنها "[40] وهذا يعنى وعيه بأن تطوراً ما قد طال وعى المصريين قبل الاحتلال، ولكنه لم يصل إلى درجة " التحديث ".

من ناحية أخرى فإن ريمون عند تناوله لتدهور الأمور فى مصر تحت حكم المماليك حتى وصول الاحتلال، ثم إصدار بونابرت لمنشوره الشهير.. الذى أكد فيه على أن " رب العالمين " قد " حكم " بانقضاء دولة المماليك الذين " يفسدوا أحسن إقليم فى هذا الكون".. يقول: "وإذا كان هذا التوجه الشرقى بمقولة (الحرب على القصور والسلام للأكواخ) ليس سوى ما كان ينتظره الغازى، فعلى الأقل كانت هذه هى إحدى النتائج الحاسمة التى حققتها الحملة بالفعل والمتمثلة فى انهيارالنظام المملوكى سريعاً.. وبطريقة كاملة بحيث بات من المستحيل استعادة نفوذهم القديم". وهكذا طرح نتيجة أخرى من نتائج الاحتلال. لكن السؤال: هل نعمت الأكواخ هى الأخرى بالسلام؟!. بالإضافة إلى ذلك فإن حديثه عن " وصف مصر" باعتباره كتاباً " خالداً " و" مُنتجاً علمياً للحملة الفرنسية الفاشلة ".. يمكن أن نعتبره نتيجة أخرى، وإن شكك أكثر من مرة فى صدق ما أورده[41]. وربما كنا على صواب إذا قلنا إنه اعتبر مصر كانت مجتمعاً يعيش فى ظل أوضاع " تقليدية " ولكن " غير راكدة " وإن التحديث بدأ فقط مع الاحتلال. ولكن إذا ما صدق هذا فإنه يعنى إهماله لخصوصية المفاهيم التى نبه عليها من قبل !!.

بيد أن الغموض الذى خيّم على موقف ريمون فى " الحرفيون والتجار " اتضح - إلى حد ما – فى " المصريون والفرنسيون فى القاهرة ". لقد حاول مناقشة الأمور والقضايا المُؤلمة بأسلوب هادئ وبشكل يلطف منها، كما حاول – وهو الفرنسى والمحب لدراسة تاريخ مصر – أن يتناول تاريخ الاحتلال بشكل "وسطى" ومن ثم وضع " المتناقضات " أمام بعضها[42] حتى تبرز الأمور فى النهاية فى قدر من "التعادلية" رغم أن أحد أسباب تأليفه للكتاب كان محاولة " عرض وجهة النظر المصرية " غير الواضحة !![43]. وفى الإطار السابق ناقش نتائج الاحتلال. فهو ينقد - بشكل أقرب إلى" اللاموقف " - تباين وجهات النظر فى تقييمه " والحال أن

نرجسية تاريخية، أوصلها تمجيد (الملحمة النابوليونية) إلى ذروتها، والمبالغة فى تقدير أهمية النتائج العلمية للحملة قد بررتا، من الجانب الفرنسى، تقييماً إيجابياً بشكل مبالغ فيه للحملة ولنتائجها، يصل إلى حد إرجاع يقظة مصر إلى عام 1798. أما المصريون فقد ترددوا بين رؤية إيجابية للحملة (التى يقال إنها قد رمزت إلى بداية تحديث مصر) واتجاه يميل إلى اعتبارها بمثابة (لاحدث) بحكم أن مصر لم تكن (نائمة) البتة فى عام 1798 وبحكم أن الآثار المباشرة للاحتلال كانت محدودة ". على أن هذا لا يلغى أن ريمون يرى - ومن جديد - أن الاحتلال جاء ببذور " الحداثة " إلى مصر وكانت له " مهمة تنويرية " وإن لم يستطع مد جذورها للعديد من العوامل ومنها قصر المدة التى قضاها، ومشاكل الدين [44] واللغة والعادات [45] والموقف من النساء [46] و" العنف والمُطالبات " [47] والذى أسماه " ممارسات الاحتلال " [48] ومقاومة المماليك والعثمانيين [49] بل ونتيجة لـ "سيئات الحداثة "[50]. وفى هذا الإطار سارت رؤيته لنتائج الاحتلال.

كانت الممارسات الإدارية - ومنها الديوان - من صور الحداثة، لكن التجربة "لم تمس غير عدد محدود من المشايخ، والإصلاحات الإدارية كانت مجرد مشاريع ولم تطبق قط بالفعل ". ومع أن " الديوان الكبير.. لم يكن أكثر من شبح برلمان " إلا أننا معه " إزاء جمعية يمكن اعتبارها تمثيلية بشكل ملحوظ لأنه حتى الفئات الشعبية للمجتمع الحضرى كانت ممثلة فيه، وإن كان ذلك يشكل حدا متواضعا". ورغم بقاء بعض الممارسات الإدارية من فترة الاحتلال " إلا أنه لم تبق أية مؤسسة، أو أية مُدونة تشريعية أو إدارية، أو أية آثار من شأنها تأكيد فكرة أن بوسع (التنوير) والحداثة تحقيق إحياء مصر ". لكن الأهم هو أن الشعور" بأن التحديث شرط لتقدم مصر، وذكرى العلاقة التى أوجدتها الظروف بين الحداثة وتأثير فرنسا قد تجذرا فى مصر وفى فرنسا، وكانا عنصرين فى المشروع الذى دشنه محمد على فى مصر"[51]. وفى هذا الإطار أكد على " ديوان مينو " الذى "يجب عدم اعتباره تجربة تافهة " وكان عليه " أن يُسهم فى تشكيل الذهنية العامة المصرية وينشر فكرة الحداثة التى شكلت إحدى الركائز (وذريعة فى الوقت نفسه) للوجود الفرنسى..وهنا

ننتقل من الدعاية المجردة إلى تربية كان مينو يتوقع منها نتائج إيجابية..على أن الأكثر أهمية بكثير مسألة الحالة المدينية التى وجدت فيها شواغل الفرنسيين الحداثية والصحية صدى إيجابياً لدى المشايخ..وفى حدود معلوماتنا فإن ديوان مينو يبدو أنه كان مؤسسة لها حيويتها، وربما فعاليتها. والحال أن نشاط الديوان جعله على اتصال شبه يومى بمينو والسلطات الفرنسية، وطور بين الطرفين علاقات ثقة متبادلة مهمة" وإن ساهمت الظروف من جديد فى إفشالها. وهكذا " لا يمكن القول بأن الاحتلال فى ممارساته شجع بشكل حقيقى على صعود مصر إلى مرحلة أعلى من التمدن والذى كان الهدف المعلن للفرنسيين "[52] !!.

والاحتلال ترك بعض التأثير الخاص بفكر التنوير والحداثة رغم ضآلته الملموسة والمباشرة على المفاهيم السياسية والاجتماعية والثقافية. وهكذا فحسن العطار " الذى يُشكل استثناءً جد بارز لم تُتح له الفرصة لكى يطبق المؤثرات التى تعرض لها إلا بعد ربع قرن من رحيل الفرنسيين، بعد أن كان قد سافر كثيراً وتأمل كثيراً ". أما أفكار الجبرتى" التنويرية " عن الفرنسيين والحداثة فظلت حبيسة عمل تاريخى لم يبدأ فى ممارسة تأثير واسع إلا بعد نشره بعد عقود طويلة[53]. طالت الحداثة أيضاً أموراً علمية وعقلية " والحال أن مثال الحداثة الذى تجلى فى عدد من المؤسسات (المجمع العلمى والمجالس) وفى المبتكرات (الطباعة والسياسة الصحية) وفى المخترعات (المنطاد).. كان عليه أن يسمح بالتشجيع على تقدم الروح العامة وضمان انتصار العقل ". ومع أن موانع عديدة حالت – ومرة أخرى– دون تجذر تلك الأمور[54].. فإن ريمون لا يمل من التأكيد على أهمية "التنوير" الذى قام به الاحتلال. وهكذا فالجبرتى كان "منفتحاً" على الأدوات التى جاء بها الفرنسيون وذكر " بإعجاب واضح ظهور النقالة واستخدام أدوات جيدة النوعية.. وبالمدفع الذى يضرب كل يوم ليحدد وقت الزوال". أما عدم إعجابه بالمنطاد فيعود " إلى فشل التجربة الأولى " وأنه "لم ير فائدة " من ذلك. وبخلاف الجبرتى أبدى غيره من المشايخ إعجابهم بالمجمع العلمى ومناقشاته، وبالمكتبة وما فيها من كتب عن علوم مختلفة، وبالمطبعة وما يمكن أن تفيد به الشعوب، وبتجارب الكيمياء

والفيزياء " عجائب العلم والمؤسسات العلمية التى نظم الفرنسيون زيارات إليها وتوضيحات لها " والتى – وباعترافه– لم يتأثروا بها كثيراً !!(55).

ومن الناحية السياسية كان للاحتلال أثره. صحيح أن الفرنسيين – الذين جاؤوا لطرد المماليك وتمكين "السكان الأصليين" من استعادة الحقوق التى حرموا منها – انتهوا إلى التحالف مع المماليك ضد العثمانيين والثناء على عودتهم للسلطة.. لكن من الصحيح أيضاً أن ما فعلوه ترك تأثيره، ومن ثم " كان الاحتلال الفرنسى حدثاً فى تاريخ مصر الحديث" لأنه وجه ضربة ساحقة لنظام حكم المماليك " بحيث إن أية عودة إلى الماضى كانت مُستبعدة " لاسيما فى ظل عجز العثمانيين عن استعادة سلطتهم، وظهور ضابط عظيم الشأن جاءت به الصدف، محمد على، الذى سيُعقد معطيات المشكلة بإضافة مرشح آخر لتولى السلطة(56). من ناحية أخرى فإن "تجربة عهد الاحتلال المزدوجة (المشاركة فى الدواوين والنضال المسلح(*)) ساعدت القاهريين على إقامة نظام تمنوا أن يكون أخف وطأة من النظام المملوكى أو العثمانى. ومن ثم فالتوجه الذى اتخذته مصر نحو الحداثة.. تحت سلطة محمد على لم يكن عديم الصلة بالاحتلال الذى حتَّم (اختراع) نظام جديد وجر السكان، العلماء والجماهير، إلى المعركة السياسية وقدم مرجعاً لتحويل منظم للبلد ". هذا وإن صادر محمد على " تطلعات النخبة وآمال السكان " لتوجهه " نحو مشروع تحديث سلطوى، ناخت خصائصه بشكل فادح ومُقيم على تطور مصر الحديثة والمعاصرة". على أن رأى ريمون يتضح أكثر عندما كتب "لم يصل الفرنسيون..كفاتحين عاديين، فقد اعتبروا أنفسهم حاملين لرسالة تحريرية للمصريين الذين ستُرد إليهم حقوقهم التى صادرها المماليك لزمن طويل جداً، ولرسالة عالمية تمزج مُثل الجمهورية الفرنسية بمُثل الإسلام. ولكى ينجح مشروع بونابرت لم يكن يكفى إخضاع مصر، إذ كان يجب إغراؤها ". لكن الأهم هو أنه " بعد طمأنة الشعب المصرى على هذا النحو.. سيكون بالإمكان إشراكه فى حكم بلاده وقيادته عبر مثال استخدام العقل والتنوير، نحو مستقبل يشكل تواصلاً مع ماضيه الرائع "(57).

انطلق ريمون بعد ذلك إلى إثبات " إيجابية وجهة نظر المصريين" تجاه "التنوير" فكتب: "والواقع أن أعضاء النخبة بمشاركتهم فى نشاط الدواوين وبإبدائهم اهتماماً واضحاً بعدد معين من التدابير التقدمية، قد أوضحوا مع ذلك أنهم ليست لديهم أية عداوة مبدئية لحداثة معينة. لكن التطورات التى كان الفرنسيون ينشدونها لم يكن بالإمكان أن تتحقق بالسرعة التى تمنوها. وقد أبدى المصريون تحفظاً خاصاً مفهوماً حيال تبنى الحداثة المقدمة إليهم على أسنة الحراب، كما أن أسباباً قوية تمس مجال السياسة، وإن كانت تمس بالأخص الدين والتقاليد، قد منعتهم من اجتياز الخطوة، لابد من قول الهوة، التى تفصلهم عن محتليهم ". و" أياً كانت آمال الفرنسيين.. فإنهم عاشوا بشكل لا مفر منه فى جيتو، ومن ثم فإن إمكانيات نشر ثقافة حديثية وتطوير العادات المحلية عبر محاكاة النموذج المقدم كانت محدودة تماماً.. وكان الفشل واضحاً أيضاً فيما يتعلق بالمؤسسات التى أقاموها للسماح للعسكريين بإعادة خلق وسط يذكرهم بأوروباهم البعيدة"[58].

من ناحية أخرى " لا جدال فى أن المصريين، أو على الأقل الذين كان بوسعهم التعامل مع الفرنسيين على مستوى ندية نسبية[*] اعترفوا لهم بعدد من المزايا.. شجاعتهم وانضباطهم وبساطتهم " فى مقابل غطرسة المماليك. والمصريون الذين أتيحت لهم الفرصة للتفكير فى هذه المشكلات " تأثروا أيضاً بتنظيم إدارى حديث ومنضبط وفعال، تباين بالضرورة مع التهاون والتجاوزات التى كانت مقبولة فى ظل المماليك.. بل إن سير عمل الإدارة نفسه أتاح المجال لتأملات تتميز على نحو واضح بالإعجاب "[59]. أما " الصرامة التى قضى بها أحياناً على أعمال عنف ارتكبها عسكريون فرنسيون " فكانت تتميز أيضاً بطابع قابل للتأثير بشكل إيجابى على المصريين وإثارة إعجابهم بقضاء يمكن أن يُمارس فى نهاية الأمر على المحتلين أنفسهم ". بل وعنده أن من دلالات موقف المصريين من التنوير أن بعض العلماء بالديوان "لم يترددوا فى أن يناقشوا مع مينو تدابير تقدمية اقترحتها الإدارة "[60] كما عبر بعض المصريين عن " الأسف " على رحيل الفرنسيين !![61].

وعلى كلٍ فقد اتفق ريمون مع قول " الجنرال موران " فى سبتمبر 1798: "إن مجيء الأنوار إلى مصر لابد بلا ريب تأجيله إلى حد ما ". وأنه " ربما كان من المناسب أن ننتظر إلى أن يتعرف الشعب تعرفاً أفضل على أخلاقنا وعاداتنا حتى نتمكن من العمل على اختفاء هذا الاستبداد " أى الاستبداد الذى مارسه المماليك ومن بعدهم الفرنسيون. على أنه وصل لنتيجة أخرى فى غاية الأهمية حينما كتب: "وبقدر ما أن الحملة الفرنسية بدت للأهالى كشكل جديد للعلاقات الصراعية بين الإسلام والعالم المسيحى، لم يكن بوسع الطوائف المسيحية المحلية أن تفلت من أن تكون ضحية ربطٍ أسهم فيه الفرنسيون أيضاً بسياستهم ". وهكذا تعرض للخطر "مجمل التنظيم التقليدى للمجتمع " لأن " الاحتلال قد أنعش المشكلات الطائفية فى مصر "(62).

على أن ريمون لم يقدم لنا تبريراً لما حدث فى ثورة القاهرة الثانية –التى أسماها تمرداً– وشهدت باعترافه "جهداً تنظيمياً يجعل من تمرد 1800 حالة فريدة تماماً"حتى لقد استطاع المصريون آنئذٍ – الذين تم وصف مستواهم التقنى من قبل بالتخلف – أن يقوموا بصناعة المدافع والقنابل " والأكثر إثارة للدهشة أيضاً أن القادة قد نظموا صنع الأسلحة لتلبية حاجات المقاتلين " ومن ثم كتب فريان: "لقد أبدى جميع السكان نشاطاً لا يمكن توفيره فى هذا البلد إلا عن طريق الدين وحده. لقد أقاموا مصانع للبارود وتوصلوا لصنع قنابل من حديد المساجد أو المطارق أو الآلات.. وبما أنهم لم يجدوا قنابل أو قذائف من عيار هذه المدافع.. اتجهوا إلى صنع هاونات ومدافع، بما يشكل صناعة غير عادية فى هذا البلد، وقد نجحوا فى ذلك ". وإذا كان ذلك نتيجة مباشرة للوجود الفرنسى ومحاولة التخلص منه؛ فهل تلك الخبرة كانت نتيجة " الحداثة والتنوير "؟!. وإذا كان قد تناول أشكال " المقاومة" وأشار إلى أنها تنوعت بين " المقاومة بالأقوال العدائية" التى " كانت الدرجة الأولية لمقاومة القاهريين للاحتلال" و"المقاومة من خلال الشبكات المنظمة" و"ارتبطت غالباً بالمماليك والعثمانيين" و"المساعدة على الفرار من الجيش"، والتى قدمت للجنود

الفرنسيين الذين تدهورت معنوياتهم، و" العداوة للمتعاونين " مع المحتلين و" حيازة الأسلحة " التى " كانت محظورة رسمياً منذ وصول الفرنسيين " و" الأعمال الجماعية التى تفوقت على الأعمال الانتقامية الفردية "[63].. فإنه من جديد لم يوضح لنا كُنه تلك المقاومة وهل كانت نتيجة لتراكم وعى سياسى مصرى قبل الاحتلال، أم نتيجة من نتائجه فقط؟!.

ونستطيع القول بأن " رؤية " ريمون " الحقيقية " أن الاحتلال الفرنسى هو الذى أتى بالتحديث إلى مصر. على أن هذه الرؤية كانت غامضة ومتناثرة : إعادة جمع وقراءة المادة العلمية وفق أهداف وأُطر نظرية محددة، إثارة الأمور بأسلوب يجمع متناقضاتها وبشكل أوجه ومُمنهج، طرح أسئلة فى صورة تبدو فيها وكأنها قد طُرحت فى حينها، محاولة الظهور فى موقف يبدو وكأنه اللاموقف!!. ورغم كل ما سبق فإن كتاباته، فى التحليل الأخير، تثبت رؤيته التى مفادها أن الاحتلال هو المسئول عن بدء الحداثة فى مصر. ولكن لماذا كل تلك الصعوبة والمتناقضات؟. لقد حظيت كتابات ريمون بتقدير بالغ عند المؤرخين لأنها أثبتت حقائق كثيرة منها أن المجتمع المصرى لم يكن بالفقر والتخلف الذى اعتاد البعض الحديث عنه، وأنه كان يشهد تطوراً مهماً. ولكن كيف يتسق ماكتبه عن ذلك، وما كتبه عن نتائج الاحتلال الفرنسى لمصر؟!. وكيف يتحدث عن " ثورة القاهرة الأولى " ثم يعود ليعتبرها "تمرداً" بعد ثلث قرن؟ هل يعود ذلك لتطور فكرى ومنهجى أم لأسباب أخرى تتصل بعضها بـ " الرسالة الحضارية لفرنسا " والتى عادت من جديد لتوصيلها، فى ظل مصطلح " المصالح "؟!. وإذا كان قد تحدث عن خصوصية التحديث وفقاً لحضارة وظروف كل شعب.. فلماذا ربط التحديث بالفرنسيين وبشكل تنتفى معه خصوصية الشرق مع أن الكثير من مظاهر التحديث التى أشار إليها كانت تخدم فى الأساس مصالح الاحتلال الأمنية والاقتصادية والسياسية؟!. هل هو" الاستشراق الجديد " مرة أخرى؟!.

وبقدر ما يُرهق ريمون القارئ فى الإمساك بالحقيقة حتى النهاية، يبدو هنرى

لورنس- فى البداية - واضحاً فى وجهات نظره، كما أن أعماله تعتبر ذات أهمية فى الرؤية الفرنسية التى تفضح -أحياناً- الأهداف الاستعمارية لفرنسا لأنه ينتمى إلى مدرسة "المؤرخين الجدد"[64] الذين أعادوا أيضاً النظر فى تاريخ الاحتلال[65]. ففى "الأصول الفكرية للحملة" وبعد تتبع مسيرة الاستشراق الفرنسى وأوربا غير المحايد ولا الموضوعى فى ظل ظهور" النزعة المركزية الأوربية ".. انتهى إلى أن احتلال مصر "لم يكن صدفة تاريخية بل اختباراً عملياً لروح استعمارية جديدة تهدف من حيث الجوهر إلى تغريب معمم لمجمل العالم غير الغربى " ومدى تورط الاستشراق فى الاستعمار ومعه " تحت الوجه العقلانى العلمى والغربى". وفى هذا الإطار أوضح كيف أن فكرة " تحرير" مصر و" تحديثها وتطويرها ".. قد رُفعت كشعارات فى الأساس قبل الغزو [66] ولكن العمل مع ذلك لم يوضح حقيقة ما إذا كان الاحتلال قد قام بتحديث فى مصر أم لا؟!.

وإذا كان لورنس فى عمله السابق لم يتعرض لذكر نتائج احتلال فرنسا لمصر، فإنه اقترب من ذلك فى " كليبر فى مصر". لقد أورد بعض عبارات كليبر الدالة " لماذا قاتلت حتى الآن؟. لأجل مجد جيوشنا ولأجل الحرية. ومجد جيوشنا فى الذروة، لكن الحرية تبتعد بقدر ما أتقدم ". ورغم ذلك " يصدق كليبر بإخلاص برنامج الحملة التحريرى. فمصر بالنسبة له هى ساحة معركة ضد انجلترا وأرض يجب تحريرها وموضوع دراسة علمية.." [67]. وربما كنا على صواب إذا قلنا بأن ما كتبه كليبر قد عبر عن بعض آراء لورنس الذى استمر فى نقل مثل تلك الفقرات، وكانت له تعليقاته التى توضح أن " الحملة " كانت دليلاً على أن الثورة الفرنسية بدأت بإعلان حقوق الإنسان وانتهت بالاستعمار، وأنها أدخلت الحداثة إلى مصر فقط على المستوى " الجيوبوليتيكى " بمعنى "تحويل مصر إلى رهان بالنسبة للعالم الحديث". أما فيما عدا ذلك " فإن الانفتاح على العلم قد قام به محمد على فيما بعد. وإذا كان لورنس اعتقد ـ ضمنياً ـ بأن مصر لم تكن قد عرفت الحداثة قبل وصول "الحملة".. فإنه يرى فى الوقت نفسه أن (الحملة) لم تستطع القيام بذلك، وهو ما توضحه

تعليقاته على بعض ما كتبه كليبر[68]. فهل تابع الاتجاه نفسه فى عمله " الحملة الفرنسية فى مصر " الذى ملأه هو الآخر بالتفصيلات؟.

كان لورنس واعياً بإشكالية نتائج الاحتلال " إن الكتابة التاريخية الليبرالية فى الشطر الثانى للقرن التاسع عشر، فى أوربا كما فى الشرق.. جعلت من حملة مصر نقطة بداية الحداثة فى الشرق العربى. فهى تذهب إلى أن عالماً مُقفلاً وراكداً شهد - عبر العنف - انفتاحاً قسرياً على العالم الحديث أدى إلى نهوض ثقافى وقومى ما يزال تأثيره محسوساً فى أيامنا. ونجد صورة غير مغايرة جذرياً لهذه الفكرة عند الإسلاميين المعاصرين : فهم يذهبون إلى أن تجانس وانسجام الحضارة الإسلامية المصرية والشرق أوسطية قد تمزقا بشكل لا يمكن علاجه من جرَّاء العدوان الثقافى الذى رافق هذه الحملة العسكرية وتلاها- وهى صورة باطلة- فى نظر عدد من المؤرخين الأنجلو - ساكسونيين، الذين أعلنوا منذ وقت مبكر أن هذه المسألة لم تك غير حدث بلا أثر مقيم فى تاريخ مصر العارم أواخر القرن الثامن عشر "[69]. وإذا كان لورنس ظهر غير ميَّال إلى أىٍّ من التفسيرات التى عرض لها، إلا أننا نعتقد بأنه انتهى إلى تأييد تفسير الليبراليين !!.

لقد تحدث عن أن الثوار الفرنسيين " كانوا ينتمون إلى عالم التنوير، ولم يكن بوسع تناول اقتصادى للمشكلات أن يكفيهم". ومن ثم فإنهم" تمشياً مع ماقاموا به فى أوربا، كانوا يفكرون من زاوية إدخال تحويل شامل على المجتمعات الإسلامية. وقد أكدوا على ذلك باستمرار وحاولوا تحقيقه ". وفى الوقت نفسه كان الشرق بالنسبة للمشجعين على الحملة يبدو على حافة التمرد، وكان العالم العثمانى يبدو مفعماً بالحركة وعلى وشك أن يشهد " أحداثاً جساماً ". وبعيداً عن المغامرة الشخصية لبونابرت وعن ملحمة جيش الشرق " فمن المؤكد أن حملة مصر هى مواجهة بين ثورة فرنسية على طريق التوسع العسكرى وإسلام عزيز بتراثه التليد، لكنه فى معمعان تجدد اجتماعى واقتصادى. ومن نواح عديدة تبدو تلك السنوات الثلاث بمثابة نبوءة بالعقود التالية. وتكشف كل لحظة عن أصالتها وتستحق

دراستها فى ذاتها ". وعنده أيضاً أن مصر كانت تعيش قبل الحملة "مرحلة ثورية" رغم تردى الأوضاع الاقتصادية والسياسية بسبب " انخراط الجماعات الاجتماعية المختلفة فى التنافس على السلطة، واستخدام العثمانيين للشعور الإسلامى" سعياً إلى إثارة المسودين تحت قيادة العلماء ضد المماليك. وقد نجح رجال الدين فى خلق تحالف مع الشعب ضد المماليك فلم يعودوا مجرد وسطاء..". وهكذا وصل إلى حد القول بأن " إضفاء الشرعية الإسلامية على التمردات مع التأكيد على حق مقاومة الجور إنما يمثل النظير الشرقى للثورة الفرنسية "[70]. وما سبق يوضح لنا أن لورنس تحدث عن أمرين : ثوار فرنسيين يرغبون فى حمل رسالة التحرير وتغيير الشرق وتحديثه (نلاحظ استخدامه مقولات التنوير بديلاً عن مقولات الاستعمار التى استخدمها فى السابق!) ومجتمع شرقى يعيش حالة من التجديد و" الثورة "و" على حافة التمرد" (نلاحظ تراجع مقولات التخلف لصالح مقولات التجديد والتمرد والثورة !). ولكن إذا كان الأمر كذلك فإلى أى مدى عنده أفاد المجتمع المصرى من(الحملة)؟.

كانت "الهوية المصرية" من أهم القضايا التى طرحها. فعندما تحدث عن سيطرة غير المصريين (الإيطاليين والفرنسيين والمغاربة والسوريين والأتراك) على العلاقات التجارية بين مصر وأوربا والمغرب والشام واستانبول وأن تجارة البن وحدها التى تظل مصرية.. يخلص للقول: "والحال أن وجود هذه العناصر غير المنحدرة من صفوف سكان البلد الأصليين إنما يفسر الوجه العالمى (الكوزموبوليتى) والعثمانى الخاص لمصر فى القرن الثامن عشر، كما يفسر صعوبة انبثاق هوية مصرية بشكل حقيقى". وعنده أن الهوية المصرية آنذاك، رغم وجودها، لم تكن واضحة بين المصريين " الأصلاء " حيث تم تمييعها بين الفوارق الدينية والانتماءات العرقية. ومع أن " الهوية " لم تكن غائبة عن وعى المصريين، وإن بشكل يختلف عن الوعى الأوربى بها "[71] إلا أن من المهم هنا الإشارة إلى ما ذكره لورنس من أن " شخصية سياسية مصرية أصيلة " كانت فكرة ثانوية فى دعاية بونابرت لأنها لا يمكن أن

"تخدمه فى زحفه على الهند". وفى مقابل ذلك أثار "الهوية العربية " وشعار " تحرير شعوب الشرق" لاستخدامها فى مقابل" ورقة الإسلام السياسى " التى " حاول استخدامها فى البداية وفشل "جراء " حرب الدعاية " التى شنها الباب العالى[72].

ورغم ماسبق كتب لورنس " إن الحضارة والأمة سوف تكوّنان الفكرتين الأساسيتين من بين أفكار الثورة الفرنسية اللتين يتم تبنيهما من جانب شعوب الشرق. وستوجد هاتان الفكرتان الرئيسيتان العظيمتان بشكل دائم فى خطابات فرنسيى حملة مصر. فهل يعنى هذا أن الكتابة التاريخية الليبرالية فى القرنين التاسع عشر والعشرين محقة فى اعتبار أن هذه السنوات الثلاث تكمن فى أساس إدخال الحداثة إلى الشرق؟. الواقع أن الفكرة مغرية وقد أشار أيديولوجيو هذه الحركات المختلفة إلى هذا الأصل". على أنه لايقصر حديثه على مفهوم الهوية المصرية أو العربية، بل طال الأمر عنده الهوية الإسلامية واللبنانية والصهيونية![73] وهو مايعنى توافقه مع الليبراليين!.

وإذا كانت مصر قد شهدت نوعاً من " الإحياء الفكرى " على يد العلماء قبل الاحتلال " إذ يجرى إعداد القواميس وبحوث فى النحو وتعليقات على النصوص المقدسة. كما أن الشعر ممارسة شائعة.. وبعضهم كالشيخ الجبرتى.. يهتمون بالعلوم وخاصة الفلك. وقد قاد هذا النشاط من جهة أخرى إلى دراسة الميكانيكا ".. ومع أن " علماء الحملة سيتسنى لهم العثور على بعض المحاورين التواقين إلى المعرفة فى مجال العلوم ".. إلا أن لورنس سينادى بضرورة عدم المبالغة فى شأن تلك النهضة " فهى تظل قاصرة على دائرة محدودة تماماً من المثقفين وتعتمد بالكامل على تداول نصوص مخطوطة. فالمطبعة الناسخة والمروجة الهائلة للمعارف والمعروفة بالفعل فى لبنان.. مجهولة فى مصر. والبحوث التقنية التى تستهدف تحسين أدوات العمل لا تهم طوائف الحرف، المعقل الحقيقى للنزعة المحافظة "[74]. وهكذا قال من جديد بقول الليبراليين!!.

وإذا كان لورنس على وعى تام بالفرق بين أهداف بونابرت الحقيقية وشعاراته

المعلنة، والتى صحب العلماء على أساسها معه إلى مصر (اختلاط شعار العلم بالأيديولوجية، والرسالة الحضارية ونشر المعرفة بالتوسع، والأهداف الشخصية لبونابرت بالأهداف القومية، وإثارة قضية التراث المصرى مقابل المعاصرة والتحديث الفرنسى).. إلا أنه سيعود للحديث عن" تأثير حقيقى" ومقصود للحملة !. وهكذا فإن الهدف من إنشاء المعهد (المجمع) المصرى " يتطابق تماماً مع فلسفة الأيديولوجيين، فهو (معهد للعلوم والفنون) يهدف إلى ترقية ونشر الأنوار فى مصر، وبحث ودراسة ونشر المعلومات الطبيعية والصناعية والتاريخية " كما أنه "لا يهمل الثقافة العربية ". أما الطباعة " فمن عمل الفرنسيين فى مصر.. وعودة الطباعة إلى الظهور.. فى عهد محمد على سوف تكون نتاج كل هذه المؤثرات". وعلى كل فلعل "الشىء الأكثر أهمية للمستقبل " هو المطبعة " التى حازت إعجاب بعض المشايخ الذين عرفوها لأول مرة وترددوا عليها. بل ولقد "دهش " بعض أولئك الذين عرفوا المطبعة فى استانبول ولبنان " من سرعة ودقة العمال الفرنسيين". وهكذا فـ" عبر الإدخال البطىء لهذا التنوع من الأفكار فى أوساط العلماء المتجاوبة بالفعل فيما يتعلق بالعلوم والآداب، وهى الأوساط التى يسميها جيلبير ديلانو بالعلماء أنصار التنوير، تتهيأ النهضة الثقافية التى سيشهدها القرن التاسع عشر". وعندما يُقترح " إنشاء حديقة للنباتات مكرسة للمحاصيل الكولونيالية".. سوف تكون بمثابة مدرسة زراعية بالنسبة للمصريين. أما اقتراح ديجينيت بتنظيم خدمة طبية بالنسبة للمصريين فسيؤدى إلى " تعويد السكان على الطب الجديد ". وإذا كان قد طُرح اقتراحاً بضرورة إنشاء مدرسة للحكيمات ونشر التطعيم، بل وجعل الملاجىء مراكز لتعليم ونشر اللغة الفرنسية.. فإن "غياب الإمكانات المالية "حال دون التطبيق، وعلى كل فالمشروع " لن يتجسد إلا بعد ثلاثين سنة ". أما ضم "لارى " جثمان سليمان الحلبى " إلى مجموعته " وعرض جمجمته على طلبة العلم فى فرنسا.. فمن" الروح العلمية التى لا تغيب أبداً "، وذلك سعياً إلى تمكين الطلبة "من رؤية علامة الجريمة والتعصب " !![75].

ومع أنه أشار إلى رفض الفرنسيين تعليم المصريين شيئاً من أمور الصناعة(76) إلا أنه يعود لترديد أن " المعهد هو أداة الحضارة بامتياز، ومكتبته ومعامله مفتوحة للمصريين الذين يجرى استقبالهم بأقصى حد من الحفاوة.. وهم يجرون تجارب علمية أمام زائريهم دون أن يترددوا فى التأثير عليهم بتلاعبات الكهرباء. إلا أنه إذا كان العلماء يعتبرون ذلك كله، مُحقين، غير عادى، فإنه بالنسبة لهم ليس غير نتاج العقل الذى يعتبر، فى ترتيب المعرفة، أدنى منزلة من الوحى.. ومن ثم فإنه لا يجب التهويل من شأن وقع العلوم الأوربية فى عصر كانت الثقافة الإسلامية التقليدية ماتزال مسيطرة فيه سيطرة تامة " (77). هذا مع ملاحظة أن ما ذكره إنما يقع تحت عنوان " الاستخدام السياسى للعلم " والذى أشار إليه(78).

وعندما يشرب بونابرت – فى 4 أكتوبر 1798– سلسلة من الأنخاب فى الاحتفال بذكرى بداية صعوده السياسى ويقول ".. إننا نضرب للعالم أول مثال على مُشرعٍ فاتح. وقبلنا كان الغالبون يتبنون دائماً شرائع المغلوبين، فلنحرز عليهم انتصار العقل، والأصعب من انتصار السلاح ولنظهر لهم أننا أرقى من الأمم الأخرى، بقدر ما أن بونابارت أرقى من جنكيز ".. يعلق لورنس: " ومن الواضح أن هذا الرهان الثقافى هو الهدف الرئيسى للحملة " !!. وهكذا فرغم حديثه عن " الحملة الاستعمارية " إلا أنه يستمر حتى النهاية فى القول: " إن التركة الأساسية لحملة مصر هى تركة علمية وأيديولوجية [نلاحظ أنها كانت تركة جيوبوليتيكية فى عمله السابق] ونحن ندين أولاً بهذا الأثر المهم (وصف مصر) وهو عمل يثير الإعجاب ويكمن فى أساس أى معرفة علمية عن مصر أكانت مصر القديمة أم مصر الإسلامية [نلاحظ أنه أهمل الربط بين وصف مصر كعمل علمى، وبين الأهداف التى كمنت وراءه]. وبعد ذلك ببضع سنوات، سوف يسمح اكتشاف حجر رشيد بفك أسرار الهيروغليفية.. وهكذا سيتم الانتقال من إجيبتومونيا أواخر القرن الثامن عشر إلى إجيبتولوجيا القرنين التاسع عشر والعشرين "(79).

وعنده أن الفرنسيين " دون خطة حقيقية موضوعة سلفاً، وبسبب الضرورات..

بدأوا فى تعديل هياكل مصر الريفية ". كما وصف نظمهم الإدارية والضريبية على اعتبارها " نموذج الإدارة العقلانية الذى طورته الثورة الفرنسية " والتى اعتمدت على الدواوين وأهل الخبرة. والفرنسيون كانت لديهم رغبة واضحة " فى أن يطبقوا فى مصر برنامج التجديد الاجتماعى العزيز على أفئدة الثوار "، لكن الظروف حالت دون تحقيق البرنامج.. ولم يستفد منه سوى الريف لمدة قصيرة. ومع ذلك فإن "هياكل ملكية الأرض، أى نظام الالتزام، تعرضت لانقلاب حاد بحيث إن العودة إلى النظام الزراعى القديم سرعان ما تتكشف استحالتها ". ومع أن عهد مينو ارتبط بانسحاب الحملة إلا أنه ارتبط أيضاً بالتفكير فى مشروعات إصلاحية مهمة سينفذها محمد على مستفيداً من خطط الحملة. بل إن صعود محمد على إلى السلطة كان "المحصلة المنطقية للنداءات الموجهة إلى المصريين أولاً من جانب العثمانيين ضد المماليك عام 1787 ثم من جانب الفرنسيين"، ومن ثم فإنه "يسعى إلى الظهور فى أعين الأوربيين بوصفه المخلص للثورة الفرنسية " من خلال البعثات والترجمة وغيرها. وعلى كل فإن "هذه القصة هى بالدرجة الأولى تبرير لسياسة (الحضارة).. وإذا كان من الواضح أن فكرة (الحضارة) هى الفكرة الرئيسية الأولى من بين نتاجات الفكر الثورى التى يتم تبنيها فى الشرق، فإن فكرة الوطن سوف تتلوها بسرعة "(80).

وعلى كل فعند لورنس أن للاحتلال نتائج أخرى، مثل دوره فى نقل الصراعات الأوربية إلى المنطقة حيث احتلت مصر وضعاً مهماً فيها، واللعب"على الأوتار السياسية والثقافية والاقتصادية والأيديولوجية للمجتمعات الشرقية "، وكون الاستشراق " أصبح السلاح الأساسى لعملاء كل دولة"، بالإضافة إلى الأدوار المهمة للديبلوماسيين والمغامرين والسياسيين والعلماء..ناهيك عن بدء وجود الماسونية فى مصر. ومع ما سبق كله وأنه " إذا ما رأى المرء أن حملة مصر هى أيضاً نتاج استشراق التنوير الذى هو سياسى بقدر ماهو علمى، واعترف بأن الاستشراق ليس مجرد لغو أيديولوجى" ومع أن "رجال التنوير لم يفهموا الشرق المعاصر لهم..

ولكنهم فهموا الشرق فى صيرورته إلى المستقبل ".. مع ذلك فإن "ماجرى بين 1798 و1801 فى المكان الممتد بين البحر المتوسط والإندوس إنما يظهر بوصفه مختبر سياسات للمستقبل، مدخلاً يجرى فيه إعلان كل الأفكار الرئيسية الكبرى. وفى أوربا كانت الثورة الفرنسية هى أيضاً ذلك الإسقاط الضوئى الفارز لصيغ المستقبل السياسية. وبهذا المعنى أيضاً فإن حملة مصر إنما تنتمى إليها تماماً "[81].

وفى اعتقادنا أن لورنس بما طرحه لم يختلف مع آراء الليبراليين، بل اختلف مع ما طرحه فى " الأصول " و" كليبر " !!. وهذا يدفعنا إلى التساؤل عن سبب تلك المفارقة؟. وهل كانت ليلى عنان محقة فى القول بأن " كلام لورنس فى النتيجة النهائية التى يستخلصها من دراسته الوافية وتعليقاته الذاتية، تسبب نوعاً من البلبلة للقارئ المنطقى "[82].

والخلاصة: أنه إذا كان القارئ لأعمال جران وكونو عليه أن يكون مع أو ضد القول بالتحديث فى مصر منذ القرن الثامن عشر، فإن القارئ لأعمال ريمون ولورنس عليه أن يسلم بأن مصر دخلت التحديث مع الاحتلال الفرنسى، وأنه دَيْنٌ لا يمكن التشكيك فى مصداقيته. وربما كان عمل ريمون " المصريون والفرنسيون فى القاهرة " وعمل لورنس " الحملة الفرنسية فى مصر " فى حاجة لدراسة لغوية تُعيد تفكيك وبناء مفرداتهم وعباراتهم، بداية من العنوان الذى يستخدمان فيه " فى" القاهرة ومصر " بدلاً من " على " القاهرة ومصر، وهو أمر له دلالته.

الكتابات المصرية : كثير من الاهتمام والارتباك فى المنهج والأهداف.

ظلت الكتابات التاريخية المصرية معظم القرن العشرين أسيرة النظر إلى نتائج الاحتلال الفرنسى انطلاقاً من اعتبارها العصر العثمانى عصر تخلف وتدهور..إلخ، سواء لعوامل سياسية أو معرفية [83] أو حتى نتيجة الانبهار بفرنسا والذى لا زال موجوداً عند البعض[84]. ولقد كان "تاريخ مصر السياسى" لمحمد رفعت من النماذج المبكرة حين جعل من أسباب(الحملة) " كشف مصر علمياً وإدخال مبادئ

المدنية الحديثة ". فى ظل كان من الطبيعى أن تأتى النتائج من جنس الأسباب وأن تكون ثرية للغاية. وهكذا فمع أنها لم تكن لها نتيجة حربية تذكر إلا أن نتائجها السياسية والاقتصادية والأدبية " كانت ذات شأن عظيم ". وإذا كانت أهم نتائجها السياسية " ولادة المسألة المصرية ".. إلا أنه مما يلفت النظر حديثه، وبشكل يدعو للدهشة، عن أن " وجود نابليون فى مصر كان مدعاة إلى التفكير فى تكوين وحدة عربية " وشجعه على ذلك " ما شاهد من العداء والخلاف المستحكم بين العنصرين العربى والتركى". أما دلالات اهتمامه بتنفيذ الفكرة فتمثلت فى " عنايته باللغة العربية.. واتفاقه مع الشعوب العربية فى سوريا أثناء حملته على تلك البلاد. ومع أن الحملة باءت بالفشل، ظلت الفكرة قائمة وحاول محمد على تنفيذها"[85].

فى ظل ذلك الموقف من الوارد أن يكتب " كان المصريون (قبل الحملة) فى سُبات عميق، بمعزل عن العالم المتمدين، لا يعرفون عن المدنية الأوربية شيئاً فأيقظتهم الهزة العنيفة من سبات كانوا فيه منذ العصور الوسطى، وفتحت أعينهم لعصر جديد ومدنية جديدة تنطوى على معلومات وعدد وأفكار وأنظمة لا عهد لهم بها.. فآنس المصريون من هذا الضوء بريقاً لامعاً وتنسموا فى الهواء عنصراً منعشاً.. فاندفعوا بالطبيعة نحوها وأصبحت أوربا من ذلك الوقت موضع إعجابهم وإرهابهم فى آن واحد. كذلك قضت الحملة على سطوة المماليك.. وفلت شوكتهم وأظهرت ضعفهم.. وكان من أول أعمال نابليون.. اشتراك المصريين فى الحكم وتكوين المجالس الوطنية فى القاهرة وفى الأقاليم لمساعدة الحكام العسكريين من الفرنسيين وقد أدخل مبدأ الانتخاب بدلاً من التعيين فى الوظائف الهامة فترك للديوان الوطنى حق اختيار رئيسه وسكرتيره، ولما خلت وظيفة قاضى القضاة.. دعى المشايخ إلى اختيار شيخ مصرى يقوم بالوظيفة بدلاً من القاضى العثمانى. وهكذا تمرن المصريون فى أثناء وجود الفرنسيين على أن يقوموا بنصيبهم فى حكم البلاد فكان لهذا التدريب أثره فى الحوادث المستقبلية ". وعنده أن " أهم وأبقى أثر تركته الحملة.. ما خلفه العلماء من الأبحاث العلمية والعملية التى أضاءت الطريق

أمام الباحثين ووضعت أساس تقدم البلاد العلمي والصناعي والاجتماعي " خاصة وأن " من حسن طالع البلاد أن جاء مع الحملة نوابغ النظريين ونوابغ العلميين" الذين طافوا البلاد "باحثين منقبين مستعلمين.. عن كل ما له علاقة بموضوع بحثهم، ومن أهم هذه الأبحاث وصل البحر الأحمر بالأبيض. ومن الأعمال المهمة أيضاً وضع خريطة جغرافية صحيحة للقطر المصرى.. والأبحاث العلمية والطبية والفنية والمناخية والجيولوجية والمائية.. وماقاموا به فى دراسة الآثار القديمة.. أما الصناعات والمعامل التى أقامها الفرنسيون بمصر.. فكثيرة أهمها صناعة المنسوجات والورق والبارود وعمل آلات لسك النقود ولرفع المياه ودبغ الجلود وللجراحة. وللحملة يرجع الفضل فى إنشاء المستشفيات والمكاتب وطبع الجرائد وإدخال المطبعة.. ولهم فضل كبير فى تأديب عرب الصحراء..وغير ذلك من الإصلاحات التى وإن لم تكمل إذ ذاك فإنها كونت النواة التى تجمعت حولها إصلاحات محمد على فى المستقبل "[86]. ومن الواضح أن رفعت كان مُتبعاً لوجهة نظر المؤرخين الأوربيين، والفرنسيين خاصة [87] ومن ثم جعل كل ما جاء به الاحتلال من "الحسنات". ومع ذلك ترددت أصداء ما كتبه فى الكثير من الكتابات التاريخية اللاحقة !!.

تناول الرافعى بشكل مفصل تاريخ (الحملة) فى " تاريخ الحركة القومية " ولم يخل ما كتبه من آراء مهمة عن نتائجها، رغم موقفه من أوضاع مصر حتى الغزو الفرنسى ووصفها بالتأخر والفاقة والفوضى.. وسيطرة السرد والوصف والتقرير على كتابته. وانطلاقاً مما سبق فعنده أنه " تبدلت الحال غير الحال فى عهد الحملة.. وطرأ على نظام الحكم فى مصر تغييرات ذات خطر وشأن كان لها نتائج بعيدة المدى فى حالة البلاد السياسية والاجتماعية ". فمنشور بونابرت - بما فيه من وعود ووعيد - استثار " الروح القومية المصرية، ولم يسبق لفاتح قبل ذلك العصر أن يشيد بمكانة مصر وعظمتها ويوجه خطابه إلى المصريين ويعدهم بأن يكونوا أصحاب الحل والعقد". بل " إن فكرة إنشاء حكومة أهلية من المصريين هى أظهر ما فى المنشور

من الوعود التى أراد أن يجتذب بها قلوبهم ". وهو يعود للقول بأن " العامل القومى" ظهر فقط خلال الحملة " حين نهضت الأمة لمقاومة الاحتلال.. بكل ما أوتيت من حول وقوة " وظل محتفظاً بقوته بعد جلائها[88]. ومعنى هذا أنه بينما "استثار" بونابرت العامل القومى فإن المقاومة للحملة " أظهرته".

ومع أن مشاركة المشايخ فى الديوان كانت أحياناً "مهزلة" وأن مهمة الديوان لم تتعد مدينة القاهرة " ولم تكن له سلطة قطعية فى الأمور" بل كانت سلطته "استشارية ومقيدة.. فضلاً عن أنهم كانوا يعملون ويتداولون.. تحت المراقبة المستمرة" وأن اختصاصه تعلق بـ" السلطة المدنية للحكومة " فقط وأن جيش الاحتلال كان " المرجع الأعلى للسلطة ".. إلا أن الرافعى ثمن غالياً دور الديوان. فمن ناحية التوقيت والأهداف كان " أول ما فكر فيه " بونابرت فى حديثه مع المشايخ " هو تأسيس الديوان من كبار العلماء والأعيان (لتدبير الأمور والنظر فى راحة الرعية وإجراء الشريعة) أى أنه فاوضهم فى فكرة تأسيس حكومة أهلية يكون العنصر السائد فيها من المصريين". ومن ناحية أخرى " لاجدال فى أن تأسيس الديوان..كان نواة نظام شورى لم تعرفه البلاد من قبل " ومن ثم كان نظاماً جديداً ومهماً " خاصة وأنه " يجعل للعنصر المصرى صوتاً فى حكومة البلاد " بعد أن تم استبعاده من قبل " وهذا شيء جديد له أثره فى التطورات التى ظهرت فى البلاد " بعد ذلك. وهنا ثمن الرافعى من جديد دور بونابرت والفرنسيين، خاصة وأن الحركة الشعبية " الانقلاب" التى قادها العلماء بعد خروج الفرنسيين كانت "فاتحة الخير والاستقلال لمصر والمصريين، والأساس الذى شيدت عليه دعائم الدولة المصرية فى تاريخ مصر الحديث"[89].

ورغم وعيه التام بالظلم الذى حاق بالمصريين، وأن الأوضاع الاقتصادية "ساءت عما كانت عليه قبل الحملة " وأن البلاد " عانت.. أشد ما يمكن تصوره من الضيق والفاقة " وزادت أحوالها "ضنكاً على ضنك " بسبب" توالى الضرائب والغرامات والمصادرات والنهب والتخريب والإحراق والتدمير أتلف الزراعة

والتجارة والصناعة"[90].. رغم ذلك كله فإنه لا يهمل الحديث عن " إنجازات " الاحتلال حتى لو اتصلت بخدمة أهدافه ومطالبه فقط !. وهكذا تحدث عن أنهم أنشأوا " جريدتين.. ومحاجر صحية.. وأمر نابليون بإنشاء عدة مستشفيات عسكرية خاصة بالجنود.. وفكر فى إنشاء مستشفى للوطنيين وألف لهذا الغرض لجنة.. لكن المشروع لم ينفذ شىء منه.. ويدخل فى الأعمال الصحية التى أجراها الفرنسيون ما قرروه من إنشاء لجنة لإدارة الشئون الصحية فى القاهرة ومصر القديمة وبولاق ووضع اللوائح لنظافة المدينة وتقرير الوسائل الصحية فيها ". وهو يؤكد بشكل خاص على دور المجمع العلمى " ومما عمله أعضاء المجمع العلمى أنهم أنشأوا طواحين الهواء.. وأصلحوا دار الصناعة.. وأنشأوا مصنعاً للجوخ وآخر لصنع القبعات و..لصناعة البيرة و..لدبغ الجلود..ومصنعاً ميكانيكياً ومصنعاً للنجارة..وأصلحوا بناء المقياس.. وأصلحوا شارع الفجالة.. ومهدوا طريقاً مستقيماً غرسوا على جانبيه الأشجار من الأزبكية إلى بولاق.. ومدوا الطريق بين باب الحديد وباب العدوى.. وأنشأوا منتدى للتنزه.. وأقاموا مسرحا.. وخلاصة ما تقدم أن أعضاء المجمع بذلوا جهوداً كبيرة فى خدمة العلم والفن وكانوا دائمى النشاط مجدين فى أعمالهم مثابرين فى أبحاثهم، فكان المجمع العلمى من أعظم المجامع العلمية قدراً وأكثرها ثمرة "[91]. وإذا كان أشاد فى أكثر من مرة بإنجازات المجمع باعتباره بقى الأثر الوحيد الباقى من آثار الاحتلال..فإنه أشاد بدور بونابرت فى ذلك[92]. وفى الإطار السابق أشاد بالمطبعة التى " أخذها الفرنسيون معهم عند جلائهم " وبالتنقيبات الأثرية للعلماء " نقبوا على الآثار.. وبذلوا جهوداً عظيمة فى اكتشافها، فأزاحوا الستار عن عظمة مصر القديمة، ودونوا أبحاثهم.. فكانت أعمالهم وأعمال أعضاء المجمع العلمى هى الخالدة من آثار الحملة الفرنسية (وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) ". أما وصف مصر فهو " الكتاب الخالد.. أعظم كتاب ظهر فى العصر الحديث عن تخطيط مصر.. دائرة معارف لمصر القديمة والحديثة إلى انتهاء عهد الحملة "[93]. ومرة أخرى فإذا كان الرافعى تأثر أيضاً فيها كتبه بالمدرسة الأوربية التقليدية، فإن ما كتبه سيترك

تأثيره الكبير والطويل المدى على الكتابات التاريخية المصرية، ولازالت الكثير منها تعول على وجهة نظره حتى الآن!!.

لم تخرج آراء صبرى السوربونى كثيراً عما سبق. فأوضاع مصر قبل (الحملة) غاية فى السوء " حل الجدب بالبلاد فحالت أخصب البقاع فلوات جرداء، وشلت حركة التجارة والزراعة والصناعة ". أما الشعب فكان " فى أتعس حال من الجهل والشقاء، فنسى ذكر ماضيه المجيد وما خلف من آثار وانقطع ما بينه وبين العالم الخارجى، وانصرف إلى العرافة والتنجيم والسحر والخرافات والبطالة ". أما " حملة العلم " فكانوا " حملة الشرع.. يتوهمون أنهم محيطون بالعلوم كافة ". وفى هذا الإطار تناول نتائج (الحملة) واعتبر أن لها " الأثر الأول فى تكوين مصر الحديثة إذ قضى الفرنسيون على زهرة الفرسان المماليك، فمكن ذلك محمد على فيما بعد من القضاء عليهم". ومع أن " الشعب لم يمل إليهم لأنهم أرهقوه بضرائبهم ولم يصانعوه" إلا أنهم فى الحقيقة " دخلوا هذا القطر لينقذوه من مظالم المماليك وينشروا فيه لواء العدل ". وهو يثمن تجربة الدواوين خاصة وأن ما ذكروه فى الديوان العام عن غنى مصر الذى أطمع الأمم والبلاد الأخرى فيها "كل ذلك كان من شأنه إيقاظ الشعور القومى..خصوصاً وأن زمن احتلال الفرنسيين كان زمن معارف من جهة وزمن حرب وثورة من جهة أخرى، فحدثت من جراء ذلك هزة عنيفة فى البلاد تمخضت عنها الفكرة الاستقلالية التى ظهرت ملامحها فى عصر محمد على". وبالتالى فعنده أن بونابرت " كان أول من أدخل المبدأ النيابى فى مصر " خاصة وأنه أدى لاشتداد ساعد العلماء والمشايخ " وكان لهم فيما بعد أثر كبير فى اختيار محمد على". أما مجيء العلماء مع الحملة للتنقيب عن آثارها والوقوف على أسرار طبيعتها المجهولة فإنه "لاريب.. أيقظ فى المصريين روحاً جديدة ". من ناحية أخرى" عمل الفرنسيون على تحسين العاصمة فأنشأوا طرقاً واسعة منتظمة فى المدينة وغرسوا الأشجار على حافتيها، وأرغموا السكان على الإضاءة ليلاً، وردموا بركة الأزبكية وحرموا الدفن فى جبانتها..اتباعاً لأصول الصحة، وأصلحوا مقياس الروضة". ونتائج الحملة عنده لها تأثيرها على تجربة محمد على الذى "نشأ فى كنف الحملة..

وفطن إلى أغراضها، فعول على تحقيقها وتكوين دولة كبرى مستقلة فى آسيا وإفريقية تكون مصر قاعدتها ". لقد" لمح..من خلال أعمال الفرنسيين فى مصر الحضارة الأوربية وأثرها فى تكوين الممالك والنظم الحديثة، فشرع فى الجرى على سياسة واسعة النطاق فى مصر والاستعانة بالفرنسيين فى تنفيذها"[94]. وإذا كان من الوارد أن السوربونى تأثر بما كتبه محمد رفعت، فمن الأوجه القول بأن كل ما كُتب فى تلك الآونة، إنما كان يمثل تياراً عاماً فى " المدرسة التاريخية المصرية " !!.

وعلى الرغم من دور محمد أنيس الرائد فى دراسة تاريخ مصر من منظور مادى[95] وجهره مُبكراً بأن دراسة تاريخ مصر فى العصر العثمانى "لم تُستكمل " لتركز الاهتمام على القرن التاسع عشر، ودور أسرة محمد على فى ذلك[96].. إلا أنه – واتساقاً مع منظوره فى تفسير تحول مصر من الإقطاع إلى الاشتراكية - اعتبر، وبشكل قسرى، أن المجتمع المصرى كان " إقطاعياً (من نوع معين) حتى القرن الثامن عشر " وإن شهد فى أواخره ظهور قوة اجتماعية جديدة تتمثل فى المشايخ ورجال الدين من ناحية، والتجار والحرفيين من ناحية أخرى. وتدريجياً اشتد ساعد هذه القوة " سياسياً أكثر منه اقتصادياً " حتى استطاعت إحراز انتصارات على البكوات المماليك فى صدامها معهم[97]. ومن الطبيعى فى ظل ذلك أن يكرر – رغم اختلاف المنهج - ما كان معروفاً عن التدهور السياسى والاقتصادى والفكرى لمصر فى العصر العثمانى، مع اعترافه بأن العصر فى حاجة إلى إعادة تقييم[98]. ومن هذا المنطلق جاء تفسيره لنتائج (الحملة).

فعنده أنها قامت بمحاولات مجهضة لهدم النظام الإقطاعى، مثل دورها فى زيادة نفوذ ونشاط الطبقة الوسطى المصرية الوليدة (خاصة المشايخ) ودورها فى توجيه ضربة قاتلة لحكم المماليك اللامركزى والإقطاعى والعسكرى " الأمر الذى أدى إلى تخلخل النظام الإقطاعى فى مصر من أساسه " رغم فشل محاولات الفرنسيين إيجاد حكم مركزى بديل بسبب الثورات المصرية المتكررة ومقاومة المماليك. كذلك حاول الفرنسيون إبان حكم مينو إزالة مظهر هام من مظاهر الأوضاع الإقطاعية فى

الزراعة، وهو تعدد الضرائب المفروضة على الفلاح بجمع الضرائب فى ضريبة واحدة، لكن لم يقدر النجاح للمشروع لرحيل الحملة. أما محاولات بونابرت بعث النشاط فى التجارة الخارجية فانتهت بالفشل سواء لعدم تنفيذ مشروع حفر قناة السويس، أو لعدم إثمار مراسلاته مع الحكام المسلمين فى البحر الأحمر وشمال إفريقيه، أو للحصار. أما محاولات الفرنسيين لإقامة المصانع فلم يقدر لها النجاح كثيراً. من ناحية أخرى " قام الفرنسيون دون قصد بمحاولة تحويل مصر إلى مجتمع علمانى قومى. فحاولوا استعداء المصريين على الأتراك عن طريق بعث الروح القومية المصرية الفرعونية والعربية عن طريق نشرات بونابرت المتكررة، وإن باءت أيضاً هذه المحاولات بالفشل لإدراك المصريين أنها للحيلولة دون قيام جبهة إسلامية موحدة ضد الحكم الفرنسى. كذلك يدخل فى باب هذه المحاولات ما فعله الفرنسيون من إنشاء فيلق من الأقباط يعمل فى خدمة الجيش الفرنسى وادعوا أن مثل هذه الخطوة مما يساعد على إدماج الأقباط فى جسم الأمة.. ولكن الواقع أن الفرنسيين قصدوا بهذه الخطوة.. تفرقة عنصرى الأمة، واستغلالها إلى أقصى حد لحكم البلاد "[99].

وفى السياق السابق سار جلال يحيى، فهاجم كتابة التاريخ وفق هوى الحكام، خاصة الذين يمولون كتابته، وطالب بـ" إعادة كتابة تاريخ مصر الحديث" بالربط بين العوامل الاقتصادية والاجتماعية والاستراتيجية والسياسية وبين البنيان الفوقى والبنيان التحتى، كما اعتبره يبدأ منذ 1517م. ومع مجاراته للقائلين بأن العصر العثمانى كان عصر تدهور، إلا أنه اعتقد أن الدراسات المتعمقة ربما أبرزت وجود بعض علامات التطور فيه، خاصة وأن نهايته شهدت تغيراً " بعد مرحلة السكون والخمود " لزيادة " الأضواء المسلطة على مصر نتيجة لبدء التفكير لدى بعض دول الغرب فى إحياء طريق التجارة العالمية القديم.. ومحاولة الوصول إلى الهند من طريق قصير " [100] وهذا يعنى أن التطور عنده ارتبط بالعوامل الخارجية فى الأساس.

وفى ظل تشابه المنهج والمناخ العام، اقترب يحيى إلى ما انتهى إليه أنيس، واعتبر

أن (للحملة) تأثيراتها المهمة؛ فمعها وجدت مصر نفسها " فجأة " فى مواجهة نمط جديد من الجندية ونظم الحكم وطريقة التفكير والعمل، وهو ماكان صدمة قاسية وكافية لإيقاظ المصريين. والحملة تعتبر " فاتحة لعهد جديد " لمحاولتها كسب المصريين، بإعلانها أنها جاءت لتخليصهم من تحكم الأتراك والمماليك، ولمجيئها إليهم بمبادئ الحرية والإخاء والمساواة. أما الاختلاف فى اللغة والدين والعادات وتحكم الأجانب، فأدى للمساعدة على بعث الروح الوطنية.. وظهور قيادات جديدة تشارك فى ممارسة السلطة بطريقة حرمت منها من قبل. والصدام بين "النظم الإقطاعية القديمة والقوات الاستعمارية.. البورجوازية " سيساعد على تحطيم قوى الإقطاع فى مصر، بعد هزيمته العسكرية. ورغم الأهداف الاستعمارية للحملة، إلا أنها ساعدت على تبلور الشعور الطبقى بين المصريين والمماليك. وبتعاصر إضعاف النظام الإقطاعى مع ظهور روح المقاومة الوطنية، تهيأت البلاد لتغيير أساسى فى بنيانها الاقتصادى والاجتماعى.كذلك قامت الحملة بإدخال نظم جديدة أهمها فرض الضرائب المباشرة وتسجيل عقود الملكية والمبانى والحوانيت، ووضعت ميزانية لها إيرادات ومصروفات، وأوصت بضرورة العناية بمشروعات الرى والاهتمام بالمحصولات الصيفية، علاوة على إنشائها المصانع اللازمة لتزويد قواتها بالذخائر والملابس والمواد الاستهلاكية. وإن كانت الحملة لم تصل بالفعل إلى القضاء تماماً على نظام الإقطاع.. لقصر المدة التى مكثتها.. وانشغالها بالظروف الاستراتيجية وبالحروب والثورات، إلا أنها أقلقت هذا النظام من أساسه، ومهدت الطريق أمام العمليات التى قام بها محمد على"[101].

وإذ طالب أنيس ويحيى بإعادة النظر فى أوضاع مصر فى العصر العثمانى، ومع ذلك بالغا فى نتائج الاحتلال، فإن أحمد عبد الرحيم مصطفى أعاد التأكيد على سيطرة التخلف والجمود على ذلك العصر، ولكنه خفف من غلواء ما قيل عن نتائج (الحملة). فمع قوله بأنها كسرت " جدار العزلة.. وحطمت التركيب العضوى للوظائف والحقوق، فمهدت السبيل لضعضعة البنيان الاجتماعى القائم.. وهدت قوى المماليك المادية والمعنوية فمهدت للقضاء النهائى عليهم، وأفسحت بذلك

المجال لإدخال النظم الحديثة.. وخلق نظام سياسى- اجتماعى على أنقاض تنظيمهم ".. إلا أنه يرى أن " الحكم الفرنسى القصيرلم يترك آثاراً ذات بال فى المجالين الاجتماعى والثقافى، برغم أن عيون المصريين تفتحت على آفاق تدفعها الأفكار الجديدة وتسيطر عليها قوى العلم والتنظيم. أما القول بأن الحملة هى التى أثارت الوعى القومى والدستورى وأعدت المصريين للحكم الذاتى فإنه يتضمن نوعاً من الإسراف " لأن حواجز اللغة والدين والقيم الاجتماعية حدّت من تفاعلهم بالمؤثرات الغربية " خاصة وأن الجهل والأمية كان فاشيين "[102]. فهل فتح بذلك باباً " مصرياً " – ولو ضيقاً – للتشكيك فى نتائج (الحملة)؟. ربما، خاصة وقد تعاصر مع ذلك – وتلاه – تطورات مهمة؛ سواء تلك التى شهدها حقل الدراسات العثمانية، أو فى تطور رؤية بعض المؤرخين الأمريكيين والأوربيين.

كان رءوف عباس من أولئك الذين طوروا وجهة نظرهم تجاه نتائج (الحملة) استجابة للتطورات المعرفية. ففى نهاية سبعينيات القرن الماضى كان يرى أن العصر العثمانى عصر انحطاط، وإن اعتبر القرن الثامن عشر بمثابة انتقال لتاريخ مصر من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة بسبب ما شهده من" محاولات " سياسية لإبراز كيان مصر الخاص" وما صاحبها من " صحوة فكرية ". وفى الوقت نفسه اعتبر أن الحملة " كانت ذات شأن عظيم " بما نجم عنها من " آثار تتلخص فى هز دعائم الحكم العثمانى، وإتاحة الفرصة لإبراز الكيان المصرى من خلال المقاومة الشعبية التى قادتها زعامات مصرية.." ولكنه لم يمل " للمبالغة فى تقدير الأثر الذى تركته على التطور الاقتصادى والاجتماعى والثقافى والسياسى فى مصر"[103]. وفى نهاية الثمانينيات طوَّر موقفه من جديد. فرغم استمراره فى الحديث عن سيطرة الجمود والتخلف فى مصر إبان العصر العثمانى.. إلا أنه أعادهما لظروف تاريخية سابقة على دخول العثمانيين " التحديات الخارجية التى تعرضت لها المنطقة وماترتب عليها من إغلاق باب الاجتهاد.. وطرح المنهج العقلى.. واتجاه العلماء إلى التقليد". بل وطرح أيضاً ضرورة إعادة النظر فى مقولات " الجمود والركود الفكرى " و" الموسوعات " وقال بأن مصر شهدت فى القرن الثامن عشر "حركات

إصلاحية محدودة استهدفت تطهير السلوك الديني..كما شهدت إرهاصات نهضة فكرية " ولعب علماء الأزهر دوراً بارزاً في الحياة الاجتماعية[104]. على أنه – ومنذ التسعينيات– أصبح من المشاركين في التطورات التي تعيد النظر في حقيقة أوضاع مصر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر؛ إما من خلال ترجمته للعديد من المؤلفات، أو من خلال تشجيعه للدراسات في العصر العثماني[105]. وفي هذا الإطار انتهى" قلقه الفكرى " إلى " ضرورة إعادة تقييم حدث الحملة.. على ضوء الظروف الموضوعية التي أحاطت به كما تكشفها الوثائق.. وضرورة إعادة النظر في المبالغة غير المنطقية في الآثار (الحضارية) أو (الثقافية) التي ترتبت على الحملة". ومع ذلك " لا يعنى هذا أن الحملة كانت مجرد (سحابة صيف) في سماء تاريخ مصر، فقد كشفت للمصريين عجز وفساد النظام العثماني/ المملوكي القديم، وأكسبتهم قدراً ملحوظاً من الثقة بأنفسهم تجلت في الحركات الاحتجاجية التي شهدتها السنوات التالية لجلاء الحملة عن مصر، والتي توجت باختيار محمد على والياً على مصر بإرادة نخبة المصريين في عمل غير مسبوق في تاريخ الحكم العثماني "[106].

أما عاصم الدسوقي فأكد من جديد وجود نتائج مهمة للحملة، حتى وإن كانت استعمارية وإن لم يقصد الفرنسيون ذلك. فبونابرت " عمل على تنظيم أمور الإدارة والحكم..على نمط ما حدث في فرنسا بعد الثورة من حيث نقل السلطة إلى الطبقة الوسطى"، ومع أنه " كان نقلاً شكلياً بحتاً دون أن تكون هناك فرصة حقيقية للممارسة الفعلية "، ومع أن السلطة النهائية كانت بيد الفرنسيين.. فإن تأسيس الديوان " كان نواة لنظام نيابي لم تكن تعرفه البلاد من قبل" كما أن " وجود نواب عن المصريين له فوائد من حيث استثارة الروح القومية " وهو ما بدا ظاهراً في المقاومة والثورة حيث "لم ينخدع المصريون بمظاهر الشورى والمشاركة". أما علماء الحملة فتوصلوا لدراسة واقع مصر، ودفعهم الحصار الانجليزي لتنفيذ بعض المشروعات في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة والصحة والقضاء. وإذا كان بونابرت وكليبر لم يتمكنا من تنفيذ سياسات في المجالات الاقتصادية والاجتماعية، نظراً لعدم الاستقرار.. فإن مينو، لنيته البقاء في مصر وتحويلها إلى مستعمرة، بدأ في

ذلك وإن حال الجلاء دون تنفيذ مشروعه " العظيم ". أما التأثيرات الفكرية فكانت الأبرز لمجيء طائفة من علماء فرنسا النابغين فى مختلف فروع علوم العصر، والمجمع العلمى الذى أقامه بونابرت وجعل فى عضويته " خلاصة علماء الحملة " وكان غرضه " ربط السياسة بالعلم ". وكان وجود المجمع العلمى بكل إنجازاته نافذة أطل منها المصريون على تقدم أوربا فى العلوم والأفكار السياسية والاقتصادية، بحيث اعتبرت الحملة صدمة حضارية وثقافية. ومن الناحية الاجتماعية " نبهت الأذهان إلى وجود أنماط من الحياة والعلاقات فى أوربا تختلف عن تقاليد المجتمع الشرقى، ومن ثم نزع البعض إلى محاكاة هذا النوع من الحياة. من ناحية أخرى تعتبر الحملة بما حملته من أفكار فى الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع بداية ظهور تنازع الولاء بين الفكرة الدينية.. التى تقوم على طاعة الخليفة والسلطان وأولى الأمر، وبين الفكرة العلمانية التى تقوم على عزل الدين عن السياسة وأمور الحكم "[107].

ورغم كل التطورات السابقة، تفاوتت رسائل الماجستير والدكتوراه.. تفاوتت فى التعامل مع نتائج الاحتلال. لقد كتب وجيه حمزه عن نتائج سياسية واقتصادية وإدارية للحملة، ولكن بشكل مرتبك ومشوش، ويفتقر المنهجية[108]. أما نبيل الطوخى فقلل من نتائج (الحملة) فى الصعيد لعدم قدرة الفرنسيين من السيطرة التامة عليه، والمقاومة وعدم التعاون من الأهالى، وهو ما قوبل بالمزيد من القسوة والإرهاب. وعنده مثلاً أن ما استحدثه الفرنسيون من تنظيم إدارى خدم مصالحهم بالدرجة الأولى ولم يكن لصالح الأهالى أو للعمل على راحتهم. أما الدواوين فكانت وسيلة تمكنهم من الاتصال بأعيان البلاد وتفهم مايجرى فى أنفسهم وتفهيمهم حقيقة مشروعاتهم ونياتهم حتى لايبقى مجالاً لدس الدسائس وسوء الفهم. ونتيجة للغزو والحصار.. زادت الأعباء الضريبية على فلاح الصعيد زمن الاحتلال، وتراجعت التجارة ولم تتطور الصناعة[109].

أما ناصر إبراهيم فكان أول المصريين المتخصصين فى تاريخ الاحتلال إدراكاً لمعنى الكتابة بالنظرية والمنهج. وفى أطروحته للدكتوراه ناقش نتائج الاحتلال بالإجابة على تساؤلات دقيقة منها : إلى أى مدى كان للحملة دور فى إحداث تغيير

ما على هيكل النظام الاقتصادى والاجتماعى فى الصعيد من خلال تعاملها مع النظام المالى؟ وإلى أى مدى عملت للقضاء على المماليك فى الصعيد؟. وعنده أن سلطات الاحتلال -رغم ضجيج الدعاية- لم تكن تنوى إقصاء المماليك عن قرى التزامهم شريطة أن يكفوا عن عدائها، الأمر الذى يؤكد بأن قضية الالتزام كنظام لإدارة الحيازات الزراعية لم تكن محور اهتمامها، وأن الأولوية كانت موجهة لاحتواء المماليك وبذل كل ما يمكن أن يدفعهم للتعاون. ومع ذلك لم تنجح سياسة الاحتواء وظلت غالبية المماليك مصدر قلق دائم للفرنسيين، وحالوا دون سيطرتهم على الموارد الضريبية فى معظم أقاليم الصعيد، مما اضطر بونابرت إلى المضى قُدماً فى مصادرة قراهم[110]. ومع أن الغزو-كسلطة جديدة لها حق التصرف بها يتفق ومصالحه- فتح ملف العلاقة بين السلطة المركزية ومُلتزمى الأراضى.. فإن مناقشات الديوان بينت أن الالتزام ليس مجرد نظام مالى ولكنه نظام اجتماعى-اقتصادى ترتبط به مصالح فئات اجتماعية متعددة بل ومصالح المؤسسات الدينية، وأن التفكير فى الإطاحة به يعرض مجمل التنظيم التقليدى للخطر ويوسع دائرة الصدام، وهو ما حرص الاحتلال على تفاديه خاصة بعد تحطم الأسطول. وقد أدى ذلك لإقرار الالتزام كإطار عام ينتظم من خلاله مجمل السياسة المالية، وليظل التغيير الحقيقى قاصراً على ما أصاب التزامات المماليك المُصادرة، مماسيهدد الوضع الطبقى للمماليك ويؤثر تأثيراً سلبياً وعميقاً على مستقبلهم السياسى. وهكذا فإن "التفكير الجدى فى الإجهاز على نظام الالتزام..لم يكن نتاجاً لهدف أيديولوجى كانت حكومة الاحتلال تبشر به منذ البداية وتعمل طوال الوقت على تحقيقه"[111].

من ناحية أخرى فلما لم يكن لدى الفرنسيين تصور ناجز لإدارة جباية الضرائب من القرى، وفشلوا فى البحث عن ملتزمين أو مستأجرين.. فقد اضطروا للاعتماد على مشايخ القرى وإرغامهم على تحمل مسئولية الجباية، ومن ثم برز دورهم كأهم طبقة يمكن الركون إليها فى حفظ الأمن وجباية الضرائب. وإذا كان ذلك يمثل امتداداً لدورهم التقليدى، والذى سيستمر فى عهد محمد على، إلا أنه كان يعنى تعزيزاً لوضعيتهم كأهم طبقة فى المجتمع الريفى تتمتع بالثراء الواسع والسلطة. وفى

مقابل ذلك انزوى دور كبار الملتزمين من الأمراء المماليك. ومن ثم فاللحظة التى أعلن فيها عن ضم (قرى المماليك) لأملاك (الجمهور الفرنسى) كانت فارقة، وتلاشت بعدها صورة سادة الأمس فى عيون فلاحيهم الذين ارتبطت قراهم بالدولة المركزية. ومع ذلك فإن إدارة الجباية فى (قرى الرعايا) لم تلق تحديات أقل مما واجه نظيراتها فى (قرى الجمهور) وبات واضحاً صعوبة ترويض الريف، خاصة فى الصعيد، على التجاوب مع الإدارة المالية التى لم تستطع تحقيق سيطرة على جميع الموارد الضريبية، مما فاقم أزمتها المالية لحد عجز الخزانة عن تأمين الاحتياجات الأساسية للجيش. وهنا لم يجد الفرنسيون سوى الإطاحة بـ" الوسطاء" وبالنظام المالى الذى يشملهم وإدخال تغيير جذرى يختزل المسافة الفاصلة بين دافعى الضرائب والسلطة المركزية بهدف السيطرة على معظم الفائض. ومع أن وصول العثمانيين والإنجليز حال دون تحقيق ذلك، فإن التجربة تركت آثاراً عميقة، خاصة بعد إضعاف قوة المماليك إلى أقصى حد، وهو ما مهد الطريق للإجهاز على نظام النظام بعد 1801[112].

وهو يفرق بين نتائج الاحتلال كضرورة فرضتها ظروفهم وبين كونها أهدافاً طمحوا لتحقيقها. وهكذا لم يكن الجلاء الاضطرارى للحملة هو الذى أبقى مساوئ نظام الالتزام وحرم الفلاح من التمتع بالملكية، ولم تكن عقلية الفلاح منحطة أو أقل نزوعاً لامتلاك الأراضى، وأن الدعاية المستمرة هى التى أدت لتلك الاعتقادات، وتم التحامل على الحقائق أو حتى طمسها. وبصفة عامة تبدو محصلة تأثير الاحتلال على مجتمع الصعيد محدودة إلى أقصى حد، إن لم تكن سلبية فى معظمها. فقد كان فشلهم فى القضاء على المماليك أو فى إلحاق هزيمة ساحقة بهم سبباً فى خراب العديد من القرى، خاصة وقد ساهمت الأزمة المالية فى إهمال الإدارة المالية لشبكة الرى، كما أن السباق المحموم بين الفريقين على جمع الضرائب، فى الوقت الذى لم يكن أى طرف يعترف بما سدده الفلاحون للطرف الآخر– أفقد الكثيرين الحافز على الإنتاج واكتفوا بزراعة مساحات معينة.. وكان هذا نوعاً من المقاومة السلبية التى رمت إلى حرمان الجانبين من الحصول على ضرائب الأراضى.

وعلى خلاف ما أشاعه البعض من دور بعض الأقباط المؤيد للفرنسيين، أثبت دورهم فى المقاومة، واستخدامهم "سلطة المعرفة والكفاءة الحسابية". وعنده أن هم الإنفاق " ربما يلقى بظلاله على الظروف التى أملت على بونابرت ضرورة اصطحاب مجموعة ضخمة من العلماء.. ليدفع بهم إلى دراسة أحوال مصر الاقتصادية والطبيعية، بُغية التعرف على المصادر المهمة التى تؤمن تغطية نفقات مشروع إقامة مستعمرة فرنسية "[113].

جسر للتواصل: لعبت عفاف لطفى السيد دوراً بنَّاءً فى كتابة تاريخ مصر الحديث حتى اعترف بفضلها الكثير من المؤرخين الأمريكيين والفرنسيين والمصريين، وجاء ذلك فى جزء منه بسبب إعادتها النظر منذ وقت مبكر فى نتائج الاحتلال الفرنسى. وعندها أن مصر شهدت العديد من التطورات فى القرن الثامن عشر مثل نمو تجارتها الخارجية استيراداً وتصديراً، وأن الأرض الزراعية أصبحت "تُعامل كما لو كانت سلعة"، ونمو دور الشرائح الغنية من الصفوة الوطنية والحضور المتزايد للتجار والعلماء فى صفوف المُلاَّك، وأن المعاملات النقدية أصبحت أمراً مألوفاً أكثر من ذى قبل، وظهور " المسحة شبه الوطنية " لثورات تفجرت ضد الاستغلال المتزايد من البكوات المماليك باعتبارهم " طبقة حاكمة أجنبية ". ومع ذلك فالقطيعة الكاملة بين الحكام والمحكومين لم يكن قد آن أوانها، وكانت الأمور بحاجة إلى الاحتلال الفرنسى والفشل الواضح للبكوات فى أداء واجبهم وحماية البلاد من الغزو، وذلك هو الحادث المنفرد الوحيد الذى يفسر سبب قيام الأهالى وقياداتهم الوطنية بالتحول إلى شخصية مجهولة مثل محمد على بدلاً من قبول حكم البكوات مرة أخرى[114]. وهى تربط بين رغبة الاحتلال فى استغلال ثروات مصر من المواد الخام والحبوب لإطعام جنوب فرنسا، وبين خططه فى البداية لإصلاح ضرائب الأرض.. لكن العملية بأكملها انتهت للعدم بسبب ثورة القاهرة الأولى. ورغم تكرار المحاولات - خاصة فى عهد مينو - إلا أنها لم يتحقق من ورائها سوى القليل لاستمرار المشاكل التى أثارها المماليك والعثمانيين والانجليز. وعلى كلٍ فإن قصر فترة بقاء الاحتلال كانت غير كافية " لأن يترك

خلفه أية آثار "، ومن ثم فإنه "لم يُغيِّر مصر بالقطع اقتصادياً أو سياسياً أو ثقافياً، على الرغم من أنه كثيراً ما ترددت مزاعم بأنه فعل ذلك. لقد كانت فجوة زمنية فى التاريخ المصرى وكانت لها أهميتها لأسباب أخرى لأنها حطمت آخر الصلات بين الأهالى والبكوات الذين عجزوا عن إنقاذ مصر من الغزو، وجلبت خبراء فنيين فرنسيين، كثير منهم من أتباع مذهب سان سيمون ممن ألهمتهم الآثار القديمة التى رأوها فى مصر لأن يعودوا إليها ويحاولوا وضع نظرياتهم موضع التجربة ويقدموا خدماتهم لمحمد على بعد 1815، كما أن تسريح الجيش الفرنسى آنذاك جعل معظم رجاله بلا عمل، وهو ما كان بمثابة حافز إضافى لحضور بعضهم إلى مصر"[115]. ومن الواضح أن هذه المنطلقات التى كانت جديدة فى حينها بُنيت عليها أسس دراسات تالية، ومن ثم اعترف بفضل عفاف لطفى كثيرين منهم بيتر جران وكينيث كونو وغيرهم.

* * *

صفوة القول: إن الكتابات التاريخية المصرية استمرت لوقت طويل تنظر إلى نتائج الاحتلال الفرنسى من منظور فرنسى/ أوربى، مدفوعة فى ذلك بعوامل معرفية وسياسية، لاسيما فى النظر إلى القضية من منظور التقييم التقليدى لأوضاع مصر فى العصر العثمانى. وإذا كانت هناك بعض محاولات التجديد فى كتابة تاريخ مصر الحديث منذ ستينيات القرن العشرين، فإنها لم تكن لتطال نتائج الاحتلال. أما التغيير الجوهرى للنظرة التقليدية فجاء من جرَّاء إعادة تقييم عهد محمد على فى ضوء ما أنتجته الدراسات الجديدة عن أوضاع مصر فى القرن الثامن عشر. وبناء على ذلك – وبالعودة إلى المصادر الرئيسية، والوعى بالعلاقة بين الأيديولوجيا وكتابة التاريخ – بدأت بعض الدراسات التاريخية المصرية فى تناول نتائج الاحتلال الفرنسى بعيداً عن الانبهار.

إن ما سبق يؤكد على أن حدث الاحتلال الفرنسى وإن كان فريداً ومثيراً فى حينه لجسامته، وهو ما عبر عنه الجبرتى.. إلا أنه لا يزال مُثاراً ومثيراً حتى الآن لما ترتب عليه من خلاف يتصل بإشكالية بداية التحديث فى مصر والمنطقة، وهو الخلاف

الذى يعكس قضية أكبر، يمكن صياغتها فى السؤال : هل فرنسا (الغرب) كانت صاحبة الريادة فى حمل رسالة التحديث، أم أن مصر (الشرق) كانت قادرة على القيام بذلك بنفسها؟. وإذا كانت الكتابات التاريخية قد اختلفت – ولا تزال – فى الإجابة عن السؤال، فإن هذا يعكس أهميته لكونه يطرح إشكالية المعانى الحقيقية للتخلف والجمود والمحافظة فى مقابل التطور والتقدم والتحديث. وهل يجب النظر إلى تلك المفاهيم بمعايير تُثمن خصوصية وقيمة التطورات التى شهدتها مصر قبل الاحتلال الفرنسى حتى ولو اختلفت مع قيم التحديث عند الغرب؟ أم أنه من الضرورى النظر إلى ما حدث باعتباره لا ينتمى إلى التحديث الذى كان وليد الاحتلال فقط؟!. وهنا يُطرح السؤال من جديد: ما هو التحديث (الحداثة) بالتحديد، وهل ترتبط ماهيته ومعاييره بالمحددات الغربية فقط؟ وهل له وطن بعينه يخرج منه ؟!. إن الإجابة على تلك الأسئلة وغيرها لاتزال فى حاجة للمزيد من الدراسات المتخصصة والجادة والواعية. لقد استغرقت " المدرسة التاريخية المصرية" زمناً طويلاً لكى تبدأ فى التخلص من هيمنة التفسيرات الغربية لنتائج الاحتلال الفرنسى، وهى التفسيرات التى لا تزال موجودة بقوة وجاذبيه، سواء بوعى واقتناع، أو بدون. وما نأمله ألا نأخذ فترة أطول فى ترسيخ أسس مصرية تتعامل مع تاريخ مصر باستقلالية فكرية، وأن نقرأ ما يُكتب عنها قراءة واعية. وعلى كل فإن هذه الأمور وغيرها تثبت أننا فى حاجة لتوسيع مجال نقد الدراسات التاريخية الذى لم يعد ترفاً – ولا كان – بل أصبح ضرورة [116] حتى نتحول إلى منتجين للمعرفة فى الحقل التاريخى، بدلاً من الاكتفاء بدور المُستخدمين لها أو التابعين.

هوامش الدراسة

(1) طالما استُخدم مصطلح الحملة للإشارة إلى الاحتلال/ الغزو الفرنسى، رغم أن مصطلح الحملة فى الفرنسية له عدة معان، فهو : expédition أى حملة/ رحلة، وأيضاً رسالة، وخاصة رسالة بحرية : وهى السفينة والبضاعة المشحونة عليها بما يكون معرضاً للأخطار البحرية فى أثناء السفر. وهو campagne أى حملة. وهو بذلك يختلف كثيراً أو قليلاً عن الحقيقة. واعتقادنا أن الأصح استخدام مصطلح الاحتلال أو الغزو لأن مصطلح الحملة، بالإضافة إلى عدم دقته، يعبر عن نزعة لتخفيف وقع ما حدث. وبالنسبة لنا سنستخدم مصطلح الاحتلال، ولكن سنُبقى غالباً على ما استخدمته الدراسات التى عرضنا لها كما هو. ومن الطريف أن العادة قد جرت فى مصر على استخدام مصطلح الحملة، رغم استخدام بعض المؤرخين الفرنسيين مصطلح الاحتلال !!. رجعنا فى ذلك إلى بعض المعاجم اللغوية مثل : القاموس القانونى (فرنسى – عربى)، مكتبة لبنان، ط3، 1991، وهو من وضع إبراهيم نجار وآخرين.

(2) فى إطار تباين الآراء وكون القضية أصبحت محل نقاشات واسعة ساهمت فيها أقلام أساتذة فى أقسام اللغة الفرنسية، ومثقفين ومفكرين، بالإضافة للمؤرخين، تعدى الأمر مناقشة نتائج الاحتلال / الحملة وطُرحت قضايا تتناول فى مجملها علاقة الغرب بالشرق حتى الحملة الأمريكية على العراق. انظر العروض الضافية فى: د. ليلى عنان : الحملة الفرنسية : تنوير أم تزوير؟ القاهرة، كتاب الهلال، العدد 567، 1998. الحملة الفرنسية فى محكمة التاريخ، القاهرة، كتاب الهلال، عدد 574، 1998، د. مصطفى عبد الغنى : حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001. محمد إسماعيل زاهر : أزمة الوعى العربى بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية، مركز البحوث العربية والإفريقية، القاهرة، 2004.

(3) كرستوفر هيرولد : بونابرت فى مصر، ترجمة : فؤاد أندراوس، مراجعة : د.محمد أحمد أنيس، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986، ص 138.

(4) ذكرت ريفلين أنها " وحتى قبل سقوط الأسرة الحاكمة السابقة فى مصر " أرادت إعادة تقييم " ما قام به مؤسسها لتقويم التحريفات التى دسها عليجمهور ساذج المؤرخون الرسميون وغيرهم ممن خلبت ألبابهم أسطورة محمد على". أما هيرولد فمن الواضح أنه كان يحترم ثورة 1952. فعند إشارته إلى محمد على يقول " مؤسس الأسرة المالكة التى ختمها الملك فاروق ختاماً غير مُشرِّف ". كما اعتبر مشاركة انجلترا فى عدوان 1956 على مصر " أحدث أمثلة التخبط " السياسى لها. وعلى كلٍ قدمت المدرسة الأمريكية عدداً من الكُتَّاب والباحثين الذين كتبوا بإنصاف عن مصر. ومنهم ألبرِّت فارمان فى " مصر وكيف غُدر بها " ودافيد س. لاندز فى عمله المهم " بنوك وباشوات ".

هيلين آن ريفلين : الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر، ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، مصطفى الحسينى، دار المعارف، 1968، ص 7. وقد تُرجم عنوان الدراسة للعربية بتصرف كرستوفر هيرولد : بونابرت فى مصر، ص 332، 367.

(5) لقد أعادت، وبشكل مُبكر، تقييم الوضع السياسى فى مصر، واعتبرت أن الصراع على السلطة أواخر القرن 18 اقتصر على الفئات الحاكمة، ولم يكن يمس السكان إلا حين تزداد مُطالبتهم بالمؤن والضرائب.. وأن البيروقراطية الإدارية - التى واصلت عملها بغض النظر عمن يكون فى السلطة - أنقذت المجتمع من الفوضى الكاملة، وأن سكان الريف والمدن الصغيرة.. توصلوا إلى أساليب تمكنهم من التكيُّف مع الظروف السياسية القائمة ". ومن هنا كتبت " وقد أساء الزوار الغربيون لمصر فى القرن الثامن عشر فهم هذا الوضع، فلم يروا شيئاً غير الفوضى السياسية ووصلوا إلى نتيجة مفادها أن الحكومة لا تقوم إلا على نظام من الاستغلال ولا توفر أى حماية للسكان ". وعندها أن النظام التركى- المملوكى لم يكن يتصف بالفوضى أو التعسف بقدر ما كان رجعياً. ولكن حين اختل التوازن القديم الذى حافظ على عناصر المجتمع المصرى لعدة قرون، بسبب عوامل خارجية، أصبح من الضرورى أن تُستبدل الأشكال العتيقة من التنظيم الاجتماعى والنظم السياسية بأشكال أكثر صلاحية. هيلين ريفلين : الاقتصاد والإدارة، ص21، 22.

(6) اعتبرت الاحتلال مرحلة فى الصراع بين الدول الأوربية لبناء الإمبراطوريات والحصول على الامتيازات التجارية والصناعية. وكتبت " كان المماليك طغاة لكنهم كانوا مسلمين، وكانت إدارتهم تتسم بالفوضى فى نظر الأجنبى لكن فهمها المصريون الذين كانوا يعرفون كيف يتملصون من أسوأ مظاهر الحكم التعسفى. وعندما أجبر الفرنسيون على الجلاء استقبل الأهالى سادتهم الأتراك فرحين. ربما ندموا أحياناً على رحيل الفرنسيين ولكنهم رأوا أن حاكماً مسلماً سيئاً أحسن بكثير من كافر طيب ". المرجع السابق، ص22- 27.

(7) هيلين ريفلين : الاقتصاد والإدارة، ص 32، 33.

(8) وعندها أن الإصلاحات التى اقترحها بونابرت "لم تخرج إلى حيز التنفيذ " لأن ثورة القاهرة الأولى قضت على مشروعاته " وبعد إخماد الثورة فُرضت الضرائب.. ولكنها كانت إجبارية أكثر منها جزءاً من خطة عامة للإصلاح الزراعى ". هيلين ريفلين : المرجع السابق، ص 66 - 69.

(9) وأوضحت أن هدف مينو " كان مزدوجاً.. أن يجعل مصر مستعمرة فرنسية وطيدة الأركان ويحقق رخاء الشعب المصرى. ولهذا أدخل على الحكومة المركزية والحكم المحلى إصلاحات.. الهدف منها الحد من العجز والإهمال واختلاس الدخل من جانب الإداريين الفرنسيين أنفسهم؛ فأُعيد تنظيم الإدارة المالية.. وفُرضت قائمة طويلة من الضرائب.. ورغم ثقل هذه الضرائب فإنها امتازت بتحديد مقاديرها، كما أنشأ هيئات تمثيلية فى المدن والأقاليم ليخلق بين المصريين إحساساً بالمسئولية، وأُدخلت إصلاحات على القضاء ووُقعت معاهدات صلح مع عدد من قبائل العرب وقُدمت لمراد.. تنازلات جديدة لكسب تأييده والمحافظة على السلام.. وأُجريت دراسات لنظام الرى.. ووُضع برنامج صناعى للمستقبل وأُجريت تجارب لإيجاد حاصلات زراعية جديدة ". ونتيجة فشل الحملة فإن " الإحساس بالقدر التاريخى " و " الآمال الكبار " و " الحماس الجارف " الذى تملّك الباحثين الفرنسيين الذين رغبوا فى مرافقة نابليون والذى كان شبيهاً بـ" وباء الجنون ".. كان مُعادلاً لمدى " خيبة آمالهم " عند رحيلهم من مصر. المرجع السابق، ص 25، 69، 70.

(10) للمزيد راجع : كرستوفر هيرولد : بونابرت فى مصر، ص 7، 10، 13، 14، 18- 22.

(11) كتب وزير الخارجية الفرنسى تاليران فى أغسطس 1798 " ومن حسن الحظ أن أتاح لنا موقف الأمراء المماليك، الذى غلبت عليه الوقاحة والوحشية باستمرار، وعجز الباب العالى عن الانتصاف لنا منهم، أن ندخل جيشنا فى مصر وأن نثبت أقدامنا فيها دون أن نُعرض أنفسنا لتهمتى الاغتصاب والجشع.. إن الإدارة مصممة على الاحتفاظ بمركزها فى مصر بكل الوسائل الممكنة ". هيرولد : بونابرت فى مصر، ص143.

(12) أشار إلى ما كتبه بونابرت عن أهمية الشرق التى لا تُعتبر أوربا فى مقابله سوى " تل صغير حقير.. لا تتيح مجالاً كافياً للأمجاد. فلابد إذن من الذهاب إلى الشرق لأن كل مجد عظيم لم يظفر به أصحابه إلا فى الشرق ". أما التقرير الذى كتبه بونابرت لحكومة الإدارة بعد جولته التفتيشية السريعة بمناطق الغزو المزعوم لانجلترا فى فبراير 1798 وأظهر فيه أن " الموارد العسكرية والمالية المتاحة ناقصة نقصاً شديداً، وأنه ربما كانت اللحظة المواتية للغزو قد فاتت إلى الأبد، وأن على فرنسا أن تختار بين : إما أن تعقد الصلح مع انجلترا، وإما أن تغزو هانوفا بدلاً من الجزر البريطانية، وإما أن تستولى على مصر فتقطع بذلك شريان الحياة بينها وبين الهند ".. فقد علق عليه هيرولد بأن بونابرت إنما أراد بحديثه المتشائم عن صعوبة غزو انجلترا أن يضع حكومة الإدارة أمام اختيار غزو مصر لرغبته فيه. المرجع السابق، ص10- 12، 23- 25، 28، 29.

(13) وكتب " ولما كانت مصر لم تنضج بعد لتقبل ما يجلبه الحكم الفرنسى من إصلاح ومزايا، لم يكن بد من كسب الشعب بطرق أقل مباشرة. فما داموا لا يحترمون غير القوة فيجب أن يحكموا حكماً حازماً، وما دام الحافز الوحيد لهم هو النعرة الدينية فلابد من توجيه هذه النعرة واستغلالها ". وعلى كل حاول بونابرت استخدام الدين فى مصر كما استخدمه الاسكندر الأكبر من قبل. المرجع السابق، ص 195- 197.

(14) المرجع السابق، ص 169، 170، 266 - 269.

(15) وكتب "لم يكن يُحسن القراءة والكتابة سوى الأقباط وحفنة من المشايخ.. أما الجامع الأزهر.. وإن احتفظ بسمعته.. إلا أنه حفل بالمتعصبين من الشحاذين والدراويش.. مَعقلاً للمحافظين، عَطَّل طلب العلم أكثر مما شجعه. وهكذا استحالت مصر.. صورة مجسمة للجهل والفقر والخرافة والمرض". المرجع السابق، ص 148.

(16) وكتب " وتُجمع شهادة شهود العيان الفرنسيين على أن زوار المجمع المسلمين لم يقع من نفوسهم ما رأوه أى موقع. ولكن رواية الجبرتى تُكذبهم.. لقد تأثر الشيوخ ما فى ذلك ريب، وقد أعجبوا.. بهذا الانقطاع للعلم، أكثر من إعجابهم بعرض الألاعيب والحيل الرخيصة، ولكنهم أبوا الخضوع لسيطرة الغريب. وبعد قرن ونصف من الزمان تعلمت آسيا وإفريقيا كل هذه الحيل.. فأى الرجلين أكثر سذاجة؟ أهو الشرقى الذى لم يسمع من قبل بالكهرباء، أم الأوربى الذى ظن أن اكتشاف الكهرباء يعطيه حقاً أبدياً فى السيادة على غيره؟. هذا مع التسليم بأن مصر التى حققت قبل أربعين قرناً معجزات فى الصناعة مازالت تثير الدهشة قد هبطت فى ذلك الحين إلى مستوى بدائى لا يكاد يُصدق". المرجع السابق، ص184، 185.

(17) المرجع السابق، ص 13، 14، 400، 401.

(18) لقد كتب " إن موقفاً من المواقف لا يصبح تاريخياً إلا لأحد أمرين : إما لأن المشاركين فيه على

وعى بأنهم يصنعون التاريخ، وإما بفضل نتائج أعمالهم. ولو كان النواب الذين حضروا افتتاح الديوان العام الذى عقد بالقاهرة فى 4 أكتوبر 1798 يعلمون أنهم يؤلفون أول مجلس نيابى فى الشرق الأوسط، أو لو كانت اجتماعاتهم خلال الأسبوعين التاليين تمخضت عن أى نتائج، لكان هذا الموقف تاريخياً. ولكن الذى حدث هو أن هؤلاء النواب غلبتهم الحيرة والارتباك، وكان همهم الوحيد إرضاء الفرنسيين دون إحداث أى تغيير فى النظام القائم ". وعلى كلٍ لم يتشجع أى من المشايخ لتأييد ذلك. المرجع السابق، ص 153، 192، 193.

(19) المرجع السابق، ص 82، 153، 154، 162، 163، 176، 178، 179.

(20) المرجع السابق، ص 28.

(21) عنده أنه إذا كان المصريون مُحقون فى التشكك فى إخلاص إسلام بونابرت.. إلا أنهم غير محقين فى الخوف على دينهم " فالذى كان بونابرت يريد القضاء عليه هو جمود الناس وتشبثهم بالتقاليد العتيقة.. وكراهتهم الخروج من العصور الوسطى، وعدم رغبتهم فى مساعدته على النهوض بهم.. وقد أمضى العالم الإسلامى قرنًا ونصف قرن .. ليُدرك أن المسلمين يستطيعون الاحتفاظ بدينهم وتقاليدهم سليمة لا تمس، ومع ذلك يسيرون مع عجلة الزمن ". المرجع السابق، ص 152، 153.

(22) فى تقديمه للطبعة العربية كتب " صدر هذا الكتاب بالانجليزية عام 1979وقُرأ على نطاق واسع. وما أزعجنى أن من كتبوا عن مصر بعد هذا التاريخ لم يتخلوا عن عام 1798.. كبداية للتحديث فى مصر، بل ولم يفكروا فى مجرد طرح الافتراض القائل بأن مصر كانت تتمتع بثقافة حية وكان من الممكن أن تُنجز عملية التحديث بنفسها ". كما اشتكى أيضاً من ندرة الاستشهاد بكتابه من قِبل حركة الاستشراق، وهو مادفعه لطرح سؤال فى غاية الشجاعة والأهمية: " هل هناك استشراق جديد كما أن هناك امبريالية جديدة؟ أعتقد ذلك ". وفى إطار حديثه عن بدايته الإطار الزمنى لدراسته كتب " قصدت بهذا الإطار الزمنى بالتحديد تحدياً لما يمكن أن نطلق عليه (نظرة تاريخية أوربية المحور) وهى نظرة تنطوى على مفهوم أن العالم الثالث كان فى سُباتٍ عميق حتى (مجيء الغرب). وكان هدفى أن أبرهن على أن مجيء بونابرت..لم يكن ذا أهمية كبيرة فى التاريخ المصرى كما تزعم حركة التاريخ الأوربية منذ وقت طويل.. ثم نبدأ بعد ذلك مناقشة الزعم بأن بونابرت وعلماء الحملة غيروا إلى حد ما هذا الفكر. لقد ناقشت فى الكتاب ضمنياً بعض الفروض عن عزلة مصر وعن الكيفية التى تتطور بها الأفكار فى مصر وهى مقولة مبتذلة عن انتشار الثقافة من المركز الأوربى، كما ناقشت بشكل خاص الاعتقاد بأن الجيش الفرنسى كان بدرجة ما أداة للتحول الثقافى. والخلاصة: أننى اكتشفت أن التركيز على عام 1798 يبدو جزءاً من التاريخ الكلونيالى الذى لم يمت بعد".بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية.. مصر 1760 – 1840، ترجمة : محروس سليمان، مراجعة : د. رؤف عباس، دار الفكر، القاهرة، 1993، ص 5، 6.

(23) بيتر جران : الجذور الإسلامية، ص22، 28– 31، 66، 80،79، 154.

(24) بيتر جران: الجذور الإسلامية، ص 23، 154.

(25) وهو يرفض مقولة أن ازدهار الغرب يعنى اضمحلال الشرق، وأن مسار التاريخ الأوربى إلى

الازدهار، فى حين أن التاريخ العربى والإسلامى فى طريقه إلى الانحدار. وعنده أن " نظرية ازدهار وانحلال الحضارات هذه لم تثمر نموذجاً ملائماً لدراسة القرون الطويلة التى تفصل بين العصر الذهبى عند العرب فى القرن العاشر الميلادى والقرن التاسع عشر، وهو قرن التحديث ". بيتر جران : الجذور الإسلامية، ص 19، 20.

(26) ضرب مثالاً على ذلك بالطباعة التى كان استخدامها سيؤدى إلى " بطالة قطاعات ضخمة مختلفة من قوة العمل وهى قوة منظمة جيداً، وبالتالى كان على الدولة أولاً أن تعد القوة اللازمة لسحق الناسخين قبل إدخال الطباعة ". وعنده أن ما حدث فى مصر حدث ما يشبهه فى دول أوربية. المرجع السابق، ص10، 11.

(27) راجع للمزيد : بيتر جران : الجذور الإسلامية، ص 12، 21، 81، 82، 103، 104، 117.

(28) المرجع السابق، ص 147، 148، 154.

(29) المرجع السابق، ص 10، 27، 58.

(30) مع تقديرنا لإثارة جران لمفهوم الصحوة / البعث.. إلا أننا لا نستطيع مسايرته فى أنها تعود فقط للقرن الثامن عشر وأن مصر قبلها كانت تعيش فى العصور الوسطى. وعندنا أن الكثير مما أثاره عن القرن 18 يمكن العثور له على نماذج شبيهة فى القرن 17. ومن ثم فالأمر بحاجة للمزيد، حتى وإن لم يرتبط بالبحث فقط عن جذور الرأسمالية. وتعتبر دراسة نللى حنا " ثقافة الطبقة الوسطى " خطوة فى الاتجاه الصحيح.

(31) كتب جران " إننى لمدين فى توجهى إلى هذه الدراسة لسلسلة المقالات التى كتبتها الأستاذه عفاف لطفى.. فى الستينيات. لقد عاونتنى.. على إدراك التناقض حول المزاعم التى استمرت خلال قرون حول التدهور الكامل فى الأزهر والإبداع السريع بعد مجىء الغرب، وعن جيل من الطلبة الذين تعلموا الفرنسية بسهولة وترجموا الأدب ومراجع الطب، كما ساهموا بإبداع فى وضع أساس اقتصادى جديد ". المرجع السابق، ص21.

(32) أكد ذلك فى قوله: " إن النظرة التاريخية المتحررة من الاتجاه الاستعمارى لدى علماء الغرب، ومنهم أنا شخصياً، بطيئة فى نموها.. ". المرجع السابق، ص 327.

(33) نشير هنا إلى دراسة بيتر جران : ما بعد المركزية الأوربية، ت : عاطف أحمد، إبراهيم فتحى، محمود ماجد، م : رؤف عباس، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، العدد 41، 1998.

(34) اعتبر كونو أن جران أول مؤرخ اجتماعى يبتعد عن التقسيم الزمنى السائد لتاريخ مصر الحديث، وقد سار على الدرب نفسه فى دراسة الاقتصاد. وفى تصديره للطبعة العربية أشار للجدل الذى كان مُثاراً حول ذكرى الحملة وهل يحتفل بها أم أنها كانت احتلالاً؟ وكان من الناقدين لفكرة أن مصر الحديثة بدأت مع بونابرت. كينيث كونو: فلاحو الباشا.. الأرض والمجتمع والاقتصاد فى الوجه البحرى1740- 1858، ت :سحر توفيق، م : عاصم الدسوقى، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، عدد 136، ص 12، 275.

(35) أشار إلى أن أرض الصعيد كانت تقسم سنوياً طبقاً لحق الحراثة الذى تحوزه كل عشيرة. أما فى معظم مصر وطوال قرون عديدة قبل القرن 19 فكانت الأرض فى حيازة الأفراد تورث حيازتها

وتنقل، وكان نقل حقوق الانتفاع إلى أبناء الحائزين (وبناتهم أحياناً) تصرفاً تقليدياً بل وحقاً مفروضاً فى القانون.. وعند فقهاء المسلمين. وكان نقل حق الانتفاع بطرق مساوية لبيعها أو تأجيرها أو رهنها يتم أيضاً بشكل تقليدى.. وهو ما يفسر وجود مجتمع ريفى مقسم طبقياً على مستوى عالٍ قبل 1800. المرجع السابق، ص16، 26، 249-251.

(36) كينيث كونو : فلاحو الباشا، ص 57، 58.

(37) كينيث كونو : فلاحو الباشا، ص 74، 249.

(38) أندريه ريمون:الحرفيون والتجار فى القاهرة فى القرن الثامن عشر،ج2، ت: ناصر إبراهيم، باتسى جمال الدين، م:رؤوف عباس، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، عدد 819، القاهرة، 2005،ص1074.

(39) أندريه ريمون : الحرفيون والتجار، ج1، المجلس الأعلى للثقافة، العدد 818،، 2005، ص19.

(40) المرجع السابق، ج1، ص 25، 27، 361، 362.

(41) شكك تماماً فى تقدير " وصف مصر " لعدد الوكالات بالقاهرة. وتكرر ذلك عند حديثه عن عدد طوائف الحرف الذى أوردها الكتاب. المرجع السابق، ج1، ص 21، 93، 433. ج2، 738-741.

(42) فى هذا الإطار قارن بين " دخول العثمانيين " وطول وجودهم و" الاحتلال الفرنسى " وقصر مدته، وبين كثرة ماكتبه الفرنسيون قبل الحملة والتحامل الذى تحمله كتاباتهم أحياناً وبين مصر التى تحولت إلى " أطلال " قبل وصولهم، وبين بيان بونابرت الذى اعتبره " قطعة جميلة من قطع البلاغة السياسية " لفهمه أوضاع مصر وما كتبه الجبرتى الذى لم يكن " مُمثلاً لمجمل المجتمع المصرى فى تنوعه " بل يمكن " الاعتراف بأنه يجسد مشروع البورجوازية المثقفة التى توجه إليها بونابرت.. وطمح إلى إغرائها لكى تخدمه فى مشروعه بالسيطرة على البلد ". وفى هذا الإطار كتب ".. فلاشىء فى تعليق الشيخ يوصد الباب أمام تعاون معين مادام الشك مستمراً حول رأى الباب العالى فى مشروع بونابرت..وفيما يتعلق بمشكلة الحداثة، بإمكانية العمل على تطوير البلد فى اتجاه نظام مختلف، لم يعبر الشيخ عن عداوة مبدئية بقدر ما عبر عن الشك النابع من جهله العميق بالعالم الذى لايعرف منه سوى الدولة العثمانية ". أندريه ريمون : المصريون والفرنسيون فى القاهرة 1798 -1801، ت: بشير السباعى، عين للدراسات، القاهرة، ط1، 2001، ص3، 9، 22، 80، 83.

(43) أندريه ريمون: المصريون والفرنسيون، ص3 - 7.

(44) وقد اعتبر مشكلة الدين " الأكثر هولاً بكثير " حيث اعتقد المشايخ أن الإسلام " قدم إليهم إجابة عن جميع المشكلات المطروحة ". المرجع السابق، ص270 - 272، 331.

(45) أشار إلى أنه " بعد فترة الفزع والخوف التى ميزت وصول الفرنسيين، نشأت علاقات أكثر انفراجاً.. واتجه المحتلون وضحايا الاحتلال إلى تعرف كل طرف على الآخر ". ورغم حديثه عن أن عادات الفرنسيين كانت تثير " الاستغراب وغالباً الصدمة، وتبدو.. غير لائقة وعبثية " إلا أنه انتهى إلى أنه " بوجه عام بدا السكان غير مبالين ولطفاء غالباً، وإن كان من الواضح أن الصعوبة الوحيدة هى صعوبة التواصل معهم " (!). ومع ذلك أشار فى مواضع أخرى إلى العداء بين

الطرفين وإن أرجعه إلى " الحرص على صون وضعية الإسلام، العداوة للمحتلين المسيحيين، الولاء للعثمانيين ". كما أكد أكثر من مرة على صعوبة التواصل " بين المديرين الفرنسيين والمدنيين المصريين " بسبب اللغة. المرجع السابق، ص95، 96، 272 – 274، 307-310.

(46) واعتبرها من المشاكل التى واجهت التنوير الفرنسى " كانت مشكلة النساء أكثر إيذاءً بكثير للعلاقات بين المحتلين وضحايا الاحتلال ". المرجع السابق، ص 274 - 278.

(47) وهنا استمر فى أسلوبه الذى يحتمل عدة أوجه، فكتب عن مقدمات ثورة القاهرة الأولى " أياً كانت رغبة المحتلين فى إقامة علاقات طيبة مع السكان.. فإن الوجود العسكرى الفرنسى استتبع بالضرورة أعمال عنف بررتها ضرورة الحفاظ على النظام، ومطالبات متنوعة فرضها الحرص على وجود تأمين الوجود المادى للجيش ". كما كتب " ولامراء فى أن إلقاء القبض.. على شيخ الجعيدية وبعض الآخرين الذين جرى إعدامهم.. أثار ارتياحاً بأكثر مما أثار انزعاجاً[!]. أما الصدمة الكبرى الأولى فتمثلت فى إعدام السيد محمد كريم، رجل مراد الذى يتمتع بثقته فى الإسكندرية.. ويكرس الجبرتى سرداً مطولاً لهذه القضية فى المدة دون أن يبدى.. انزعاجاً عظيماً جداً "[!]. ويستمر فى الاتجاه نفسه بالقول " والشىء المهم بالدرجة نفسها من حيث نتائجه هو التعديات التى استهدف بها الاحتلال مصالح السكان. فما كادت الحملة تبدأ حتى أرهقت المصريين بسلسلة من المطالبات التى مع أنها لم تتميز بالطابع الوحشى والتعسفى لمطالبات المماليك ـ كان لابد أن تؤدى إلى سخط المصريين. والحال أن وجود وحاجات القوات الفرنسية بررت مصادرات شكلت إزعاجاً للسكان محدودى الموارد ". وعنده أن الفرمانات التى أصدرتها الدولة للولايات والداعية لخوض الجهاد أدت إلى " أن رأت النور التجليات الأولى لولاء (عثمانى) ومن ثم لعداوة سياسية للفرنسيين "[!]. المرجع السابق، ص104- 108.

(48) وكتب أنها خلقت بين المحتلين وضحايا الاحتلال هوة من المستحيل ردمها " ومن ذلك عبء الضرائب العادية أو الاستثنائية. فمع أن الإدارة الفرنسية كانت " أكثر كفاءة " إلا أنها كانت "أكثر فداحة" من الإدارة السابقة، بل ووصل الأمر إلى حد اللجوء إلى " سخرة حقيقية ". المرجع السابق، ص 284 – 289.

(49) وعنده أن المماليك والعثمانيين كانوا من العقبات التى حالت دون نجاح " المهمة التنويرية " وأن "أسس السياسة الفرنسية تعرضت للخطر عندما أصبحت معارضة الباب العالى واضحة، ثم انهارت هذه الأسس انهياراً حاسماً عندما انخرط الجيش الفرنسى فى حملة الشام.. بل إن الانهيار امتد ليشمل السياسة (المعادية للمماليك) التى تداعت إلى درجة التوصل لاتفاق مع مراد.. وهكذا فإن ثلاثة أعوام.. فى مصر أدت إلى انقلاب كامل لعين المبادئ التى كان بونابرت قد أسس عليها تدخل الجيش الفرنسى". المرجع السابق، ص260، 270.

(50) فى إطار الموقف الوسطى نجده، وتحت عنوان: " سيئات الحداثة " وقد كتب " كان المحتلون يشعرون بالثقة فى أن الحضارة الأحدث التى جلبوها معهم ستلقى القبول من جانب السكان.. الذين رأوا أنهم سيقابلون هذا التطور بالتأييد. وعلى محك التجربة رصدوا أن الأمور أكثر تعقيداً.. فمن جهة لم يكن المصريون غافلين عن دوافع الفرنسيين العميقة. ومن جهة أخرى استاؤا من المساوئ المترتبة على البدع التى فرضت عليهم باسم الحداثة. ولم يكن هناك مفر من أن

ينفروا لأنهم كانوا على وعى بأن هويتهم ومصالحهم قد أصبحت مهددة. ومن هنا وقعت سلسلة من الحوادث المحدودة التى تكشف عن التدهور التدريجى للعلاقات بين المحتلين وضحايا الاحتلال " وضرب أمثلة، منها نزع بوابات الحارات. المرجع السابق، ص 101، 102.

(51) المرجع السابق، ص93 - 95، 138، 139، 329- 332.

(52) المرجع السابق، ص 218، 219، 223- 225، 289، 290.

(53) المرجع السابق، ص332. وأشار إلى أن العمل لم يُنشر إلا فى عام 1879.

(54) وهكذا كتب أن التدابير " الحداثية " من وقائية ضد الأمراض وتوسيع للشوارع وهدم لأبواب الحارات وإضاءة الشوارع.. انقلبت إلى " قائمة بالإزعاجات التى استثارها الاحتلال فى الحياة اليومية للقاهريين.. وهو ما يعنى أن ثمن التقدم كان باهظاً ". وأضاف فى موضع آخر " والحال أن حقائق الاحتلال القاسية سرعان ما ستقود الفرنسيين إلى تخفيف حماستهم وإلى إضفاء الاعتدال على طموحاتهم. ولابد من مراعاة الإحباط العظيم الذى استشعره الفرنسيون عندما اتصلوا بمصر أفقرتها عشرون سنة من الكوارث والطغيان، وكانت لا تتماشى مع توقعاتهم ". المرجع السابق، ص 259، 288، 289.

(55) ومما عقب به على ذلك " ومن المحتمل أن المصريين لم يتأثروا إلى الحد الذى توقعه الفرنسيون ببراعة تعتبر إلى حد ما (استعمارية). ولا مراء فى أنه كان فى ردود الفعل المتحفظة هذه شىء من الجهل والسذاجة. إلا أنه بالنسبة للمشايخ والمصريين، فإن البقاء فى إطار نظامهم الدينى والفكرى والثقافى كان أيضاً وسيلة للدفاع عن النفس، ولحمايتهم هويتهم ولرفض السماح للأجانب المسيحيين بالسيطرة عليهم..وأخيراً ففى كثير من الحالات اشتبه المصريون فى أن هذه المبتكرات وسيلة لاستعبادهم أو للاعتداء على دينهم أو تقاليدهم.. ومن ثم فإن المحتلين كانوا سذجاً إلى حد ما عندما غضبوا من لا مبالاة المصريين ". المرجع السابق، ص 263، 267.

(56) المرجع السابق، ص 332، 333.

- من الأمور اللافتة تناوله لثورة القاهرة الأولى كـ"تمرد" مُتبعاً فى ذلك الكوربيه دوليجيبت!. وبينما أبرز البعد الدينى له.. اهتم بما كتبه الجبرتى فى "المدة " عن أن "الفتنة " كانت من جراء عمل "أصحاب العقول القاصرة "و" الغوغاء". أما ضرب حى الأزهر بالمدفعية فعنده " كان من المنطقى أن يفضل العسكريون قصف بؤر التمرد عن بُعد.. بدلاً من المغامرة بمعارك تلاحمية غير مؤكدة النتيجة فى ساحة صعبة " خاصة وأن المشايخ لم ينفذوا طلب بونابرت بوقف "التمرد". وإذ اعترف بما اقترفه الفرنسيون فى الأزهر، إلا أنه كتب " وقد أفلت الجامع الكبير بالكاد من الدمار الكامل ". وفى تعليقه على المجازر فى حق " المتمردين" كتب "وفى نظر عدد من الفرنسيين المشاركين فى الحملة فإن هذا القمع الشديد الذى أعقب أحداثاً دامية كان بالغ الاعتدال ". وبالمثل اعتبر ثورة القاهرة الثانية " تمرد القاهرة الثانى " وأنه أحد نتائج اقتراب العثمانيين الذى أدت تداعياته إلى أن بعض السكان" أرادوا أن يثبتوا للصدر أنهم يتطلعون إلى لحظة الخلاص من الفرنسيين بتوجيه الإهانات إليهم " بل واعتبره "وإلى حد معين يندرج فى سلسلة التظاهرات الشعبية التى مست المدينة بين 1775 و1805"!. وبينما أبرز حجم الدمار الذى حل بكثير من

أحياء القاهرة نتيجة " التمرد" وما أعقبه من " نهب مريع " قام به الجنود والذل والضيم الذى لحق بالشيخ السادات " المعاملة الهمجية والمهينة ".. إلا أنه مع ذلك كتب" ولاشك أن محصلة عامة كارثية بهذا الشكل قد بررت للجبرتى توقعاته المتشائمة التى لم يكف عن طرحها بشأن حركة تذكى أوارها الجماهير الشعبية التى كان يستهجن تجاوزاتها، ويدعمها العثمانيون الذين انتقد عجزهم وتعدياتهم، كما يدعمها المماليك الذين كانت إدارتهم الكارثية.. قد جرت المصائب على البلد" وهذا يعنى ضرورة توجيه النقد لأسباب قيام " التمرد" وليس لوسائل قمعه، وأن تلك القوى هى المسئولة عما حل بالقاهرة والمصريين !!. أما اغتيال سليمان الحلبى لكليبر.. من حيث أسلوب ومكان التحضير.." إنما تضع هذا الحدث خارج السياق المصرى. وطابع المحاولة نفسه، من حيث كونها محاولة فردية، لا يبدو أيضاً أنه يندرج فى تراث المقاومة المصرية ضد المحتل " !!. المرجع السابق، ص113- 117، 120، 125، 127، 167، 186- 189، 192، 195. مع العلم بأنه وصف الثورتين فى"طوائف حرف" باعتبارهما من" الثورات الكبيرة "!!.

(57) المرجع السابق، ص 257، 258، 333، 334.

(58) المرجع السابق، ص 268، 310، 311.

- تحت عنوان: " التعاون والمقاومة " طرح بذكاء مشكلة تعاون " النخبة " من العلماء وكبار التجار".. فى إطار سؤال طرحه على ألسنتهم (كيف لانتعاون؟). ومن هذا المنطلق ناقش قضايا منها شروط التعاون ودور الدواوين فى الوساطة المفيدة بين السكان والسلطة الفرنسية وإسهامها بذلك فى تخفيف قسوة الاحتلال. وعلى كل فإنه لا يخفى إغراء الفرنسيين للمشايخ بالالتزامات وغيرها لكسب ثقتهم، لكنه لا يأبه بمقولة إن المصريين " كانوا مكرهين على خدمة الفرنسيين". لقد أظهر كل مشايخ " المرتبة الأولى" باعتبارهم متعاونين فى الأساس وإن اختلفت درجات تعاونهم وظهرت لدى بعضهم أحياناً بعض ملامح المقاومة. أما " العلماء من المرتبة الثانية فقط فنجد من بينهم مقاومين "وهؤلاء "لم تكن لهم علاقات بالفرنسيين ". وعنده أنه لايمكن اختزال العلاقات بين المحتلين وسكان القاهرة إلى لحظات الأزمة التى جرى التعبير فيها عن العداوة والعنف ". وفى المقابل" لامراء فى أنه لا يوجد سوى وهم فى الانطباع الذى تقدمه روايات العسكريين الفرنسيين التى تذهب إلى قيام علاقات منفرجة بها يكفى خلال الأسابيع الأولى بين المحتلين والقاهريين ". ومن ثم سيكون من المبالغة تصوير العلاقات بين عامة الشعب والفرنسيين على أنها كانت صدامية بشكل موحد ". المرجع السابق، ص290- 306.

(59) المرجع السابق، ص 261، 262.

(60) وضرب أمثلة على ذلك بالتدابير المتعلقة بالصحة العامة " بل إنهم مضوا إلى حد اقتراح تحسينات على مشروع خاص بالحالة المدنية "، ويقصد بذلك تسجيل المواليد والوفيات، حيث كتب الديوان " هذا الترتيب سوف يوافق عليه جميع العقلاء، ولا يمكن لديننا الحنيف أن يخالف فى شىء ترتيباً حكيماً كهذا ". هذا مع أن ريمون لاحظ مبالغة الكوريه فى تصوير الأمر، وأن مينو " أوحى به بقوة" وأن الجبرتى أشار إلى أن الديوان اعتبر الإجراء "معقولاً ومتماشياً تماماً مع وصايا الإسلام". المرجع السابق، ص262، 263.

(61) المرجع السابق، ص 254، 255.
(62) المرجع السابق، ص260، 278، 282، 283.
(63) المرجع السابق، ص170- 320،175- 329.
(64) ظهر هذا الجيل فى فرنسا منذ خمسينيات القرن العشرين، وأعادوا تقييم الثورة الفرنسية بشكل متوازن وغير مغرق فى التفرد، ومن ثم أعادوا تقييم الحملة مستفيدين من المدرسة" الأنجلو – سكسونية ". د.ليلى عنان : الحملة الفرنسية : تنوير أم تزوير ؟، ص10، 46، 180 - 184.
(65) وهكذا كتب أن " الكتابة التاريخية عن الحملة.. تشكو من كونها نابوليونية بشكل بالغ الحدة. إذ يجرى النظر إليها غالباً بوصفها مرحلة فى مسيرة فاتح ولا يجرى النظر إلى الجوانب الشرقية للمسألة.. لكن المشروع لا يمكن اختزاله فى مناورة سياسية تهدف إلى التخلص من جنرال جد مرموق ورائع.. إنه يتماشى مع مخطط عميق، ولعل الصدفة هى اصطلاح بونابرت به ". ومن ثم فقبل نهاية القرن 18 تم إعداد " الأيديولوجيات الجديدة الضرورية لاستعمار جديد بتكييفه وبإضفائه لطابع عالمى على نظريات التنوير فى شكلها الأخير: الأيديولوجية ". وهكذا فالحملة لم تكن صدفة تاريخية ترجع فقط إلى أسباب سياسية واستراتيجية، وتهدف إلى مجرد استغلال اقتصادى، بل إلى تعميم التغريب فى العالم. هنرى لورنس : الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر.. الاستشراق المتأسلم فى فرنسا (1698- 1798)، ت: بشير السباعى، دار شرقيات، القاهرة، ط1، 1999، ص12، 13، 186. وقد نشر الكتاب للمرة الأولى بالفرنسية عام 1987.
(66) لقد تناول تطور نظرة الغرب تجاه الرسول (ﷺ) والخلفاء، حيث جرى تلخيص التطور السياسى فى جمل قليلة وصولاً إلى الدولة العثمانية التى اعتُبر حكمها غير شرعى لقيامه على" القوة والقهر". وأمام ضعفها ظهر الإسلام باعتباره " العقبة التى تقف فى وجه التوسع الأوروبى ". وعلى كل فقد طرح المستشرقون شرعية القوة لمواجهة الموقف. وفى هذا الإطار نمت بين أبناء عصر التنوير الفرنسيين نظرة التشكيك فى الحضارة العربية، كما طرحت فكرة " الاستبداد الشرقى" خاصة فى الدولة العثمانية التى اعتبروها " نظام اضطهاد بالكامل" وأن العثمانيين نوع من " الوحوش الذى لا يلغى الحرية المدنية وحدها وإنما يلغى أيضاً الحرية الاقتصادية التى لا تنفصل عنها.. ومع تورجو يرتبط مجال الاقتصاد بمجال السياسة " حيث طالب بضرورة إلغاء هذا الاستبداد الشرقى من الخارج، طالما أنه لا يمكن تغييره من الداخل " أى استخدام القوة الذى نسميه غزواً أو تدخلاً". وفى هذا الاتجاه أيد فولنى غزو مصر حتى يتم القضاء على الاستبداد فيها. على أن الإسلام بقى هو العقبة فى وجه الطموح الاستعمارى، وطرحت كتابات المستشرقين قضية كيفية التعامل معه من خلال العلماء. وكتب ماجالون " إذا كان يجب السعى فى البداية إلى اجتذاب العلماء بسبب هيمنتهم على الشعب، ففيما بعد (عندما يجرى تنوير أذهان الشعب) سوف ينكشف العلماء، وعندئذ لن تكون لهم مكانة غير المكانة التى يستحقونها ". وفى هذا الإطار جاء الغزو لمصر لإصلاح أحوالها والوصول بها إلى " الازدهار القديم لفائدة كل من الطرفين " من خلال "إحداث تغيير فى النظام السياسى" تقوم به " الإدارة الأوربية الجيدة "و" بعيداً عن الحضارة الإسلامية " التى تجد نفسها فى حالة" عقم تام ". ولقد كانت إشارات سافارى وغيره من الرحالة

والقناصل تشكل دعوة مباشرة إلى هذا التدخل، حيث اقتنع بونابرت " بإمكانية وفرصة هذا المشروع. والحال أن الصورة المحزنة التى تبديها مصر أو التى يجرى تقديمها عن مصر لا يمكن فهمها إلا ضمن منظور كهذا، منظور إنقاذ شعب من الاستبداد ". وفى ظل تلك الكتابات "يجرى الانتقال من وصف سلطة استبدادية موجودة فى الواقع إلى الأسس الأيديولوجية للتوسع الأوروبى". ولما كان العنصر الأخير والمهم هو معرفة ردود فعل السكان، فقد وجدت أطروحتان تفترضان خضوعهم وترحيبهم بالفرنسيين؛ إما بسبب الخمول أو العداء للنظام المملوكى، خاصة وقد ساد الاعتقاد بإمكانية " تصوير الفعل الأوربى فى صورة تحرير فى عالم لا توجد فيه تضامنات عمودية تضفى شرعية على سلطة الجماعات السائدة ". وعلى كل توافق ما سبق كله مع فقدان فرنسا لمعظم مستعمراتها، وقيام الإنجليز بإعادة بناء إمبراطوريتهم الاستعمارية.. والأضرار الناجمة عن استقلال " الولايات المتحدة الأمريكية " عندئذ لا يوجد غير حل تعويضى واحد "احتلال مصر". المرجع السابق، ص29، 33- 40، 43، 49- 55، 57، 63 -84، 94، 101، 105، 128، 176.

(67) هنرى لورنس : كليبر فى مصر.. المواجهة الدرامية مع بونابرت، ت : بشير السباعى، دار شرقيات، القاهرة، ط1، 1999، ص6. وقد صدرت الطبعة الفرنسية الأولى عام 1988.

(68) جاء بيوميات كليبر فى مصر " إن الصفحة البيضاء التى مجدتها الثورة أصبحت بمرور الوقت صفحة فاشلة لا بداية جديدة.. لقد تفككت كل العُرى، وكل السلطات غير لائقة.. وفى وضع كهذا، إلام تؤول الدولة؟ هناك فرضان ممكنان. الأول هو الانحلال الناشئ عن ضعف السلطة والذى يؤدى إلى الغزو الأجنبى من جانب الجيران.. وعندئذ تنتقل الشعوب إلى حالة أسوأ من الحالة التى كانت عليها عند الخروج من البربرية. فقوانين الفاتح تناضل ضد قوانين الشعب المفتوح. وعادات الأول ضد عادات الآخر، وأخلاقه ضد أخلاقه وديانته ضد ديانته وتختلط لغته بلهجة أجنبية. وتلك فوضى يصعب التنبؤ بما سوف تنتهى إليه.. ولاتنجلى إلا بعد مرور عدة قرون، وتبقى منها آثار لا تتمكن أسعد الأحداث من محوها أبداً بالكامل ". وفى تعقيبه على ذلك كتب لورنس " ولايبدو أن هذه الفقرة تخص فرنسا الثورية بشكل مباشر. فهى تخص بالأحرى أوربا فى بداية العصر الوسيط، وربما تخص أيرلندا، إلا أنها ربما تخص أيضاً مصر الخاضعة لسيطرة الفرنسيين ". هنرى لورنس : كليبر فى مصر، ص 67، 126، 127، 143- 145.

(69) هنرى لورنس: الحملة الفرنسية فى مصر، ت: بشير السباعى، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1995، ص8.

(70) المرجع السابق، ص 8، 9، 120، 135، 154.

(71) انظر فى ذلك كتابنا : الخطاب السياسى الصوفى فى مصر فى القرن السادس عشر، القاهرة، دار الكتب والوثائق، سلسلة مصر النهضة، عدد 55، ط1، 2004، ص 145- 147.

(72) " بما أن بونابرت لا يمكنه بعد اللعب بورقة الإسلام السياسى.. فإنه يتجه عندئذ إلى جانب آخر من جوانب البرنامج.. تحرير شعوب الشرق. وسوف يسعى إلى وضع النزعة العربية فى مواجهة الإسلام " وهو ما سيتضح من طرحه بعض الأسئلة على المشايخ (لماذا تخضع الأمة العربية

للأتراك؟. كيف تهيمن على مصر الخصيبة وشبه الجزيرة العربية المقدسة شعوب جاءت من القوقاز؟. وإذا ما هبط محمد [ﷺ] اليوم من السماء على الأرض فإلى أين سيذهب؟ "). وعند لورنس أن الأمر أصبح "حوار طرشان" لأن أى فريق لم يصدق بما قاله الآخر. هنرى لورنس : الحملة الفرنسية فى مصر، ص 76، 78، 116، 334 – 336.

(73) المرجع السابق، ص 334 – 336، 627، 628.

(74) المرجع السابق، ص 100.

(75) المرجع السابق، ص 8، 9 198، 296 – 299، 503، 550، 551. ولقد تكرر عنده الحديث عن أن " قصور الإمكانات المالية هو الذى حد بشكل ملحوظ من مشاريع الفرنسيين التمدينية " لكنه تحدث أيضاً عن " الحاجز اللغوى والثقافى والتخصص الضيق للموظفين المحليين الذين يفتقرون إلى النظرة الكلية ".

(76) " فى أوائل يوليو 1800 يدفع نقص أقمشة الثياب مسئولى الجيش إلى اقتراح إنشاء مصنع فى مصر. ويرى مينو فى ذلك على الفور فرصة لتحويله إلى مركز تعليم لتدريب المصريين على الطرق الحديثة. لكن المديرين الذين يخشون من منافسة فى المستقبل للصناعة الفرنسية، يرفضون ذلك. ويؤكد كونتيه على الملأ أنه لن يعلم المصريين شيئاً وأنه لا يقبل الاشتراك فى المشروع إلا بشرط السماح للفرنسيين وحدهم بدخول الورش وأن يتم، فى حالة الجلاء عن مصر، إخراج المعدات أو تدميرها. ويضطر مينو إلى التراجع أمام احتجاج الحمائيين ". المرجع السابق، ص 533، 534.

(77) المرجع السابق، ص 297 .

(78) لقد كتب " كما يشهد العلم استخدامات سياسية له. ويريد بونابارت التأثير على المصريين بإطلاق منطاد فى ساحة الأزبكية " على أنه أشار أيضاً إلى حقيقة أن " هذه المعجزة " لم تدهش لا الجبرتى ولا القاهريين. المرجع السابق، ص 298، 299.

(79) المرجع السابق، ص 210، 437، 438، 625. ويقصد بالإيجيبتو مونيا : الولع بمصر.

(80) المرجع السابق، ص 220، 300، 528، 548، 549، 625 - 627.

(81) المرجع السابق، ص 295، 328، 329، 627، 628.

(82) د.ليلى عنان: الحملة الفرنسية فى محكمة التاريخ، ص217، 220.

(83) Muhammad Sabrī Al-Dālī ; Ottoman Historical Research in Egypt Since 1936 , Asian Research Trends ,The Centre for East Asian Cultural Studies for Unesco , Tokyo, No.11 ,2001, pp.15 -19.

(84) لا يمكن تجاهل بعض الكتابات فى هذا المجال ومنها: أحمد يوسف: بونابرت فى الشرق الإسلامى(القاهر والمقهور)، ت: أمل الصبان، تقديم : أحمد زكريا الشلق، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، عدد 734، 2005. وأورد مبالغات كثيرة فى وصف دور فرنسا، وهو ما يخرج عن مهمة بحثنا.

(85) محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى فى الأزمنة الحديثة 1798- 1849، المطبعة الرحمانية، ط3، 1927، ص 10–40، 85 –88. وصدرت الطبعة الأولى عام 1920. وكمثال لمدى التأثر بفرنسا كتب رفعت "لم يؤثر فى مركز فرنسا الأدبى بمصر بعد أن غادرتها الحملة إذ أصبح

للفرنسيين المركز الأول فى نظر المصريين وأصبحوا ممثلى المدنية الغربية والرقى، واعتبر المصريون أنفسهم مدينين لفرنسا وتلاميذ لأبنائها فلما حان الوقت واحتاجت مصر إلى رجال يصلحون شؤونها استعانت بضباط فرنسيين.. وبمهندسين.. وبأطباء.. وأساتذة ومشرعين.. وأصبحت الصلة التى تربط فرنسا بمصر أشبه بالصلة التى تربط الأستاذ بتلميذه "(!!).

(86) محمد رفعت : تاريخ مصر السياسى، ج1، ص 88 - 91.

(87) تتبعت د.عنان تطور أسطورة الدور الحضارى للحملة عبر الأدب والتاريخ الفرنسيين،واعتبرت أنها أصبحت كذلك " لأنها جزء من أسطورة أخرى هى أسطورة نابليون". وإذ كتب شاتوبريان فى القرن 19 "إن بونابرت كبير.. لأنه علم اسمه للشعوب المتوحشة كما علمه للشعوب المتحضرة" فإن ديكوت كتب عام 1967 " إن مرور نابليون على مصر كان (أول شعاع نور اخترق ظلمات الإسلام والبربرية)". د. ليلى عنان: الحملة فى محكمة التاريخ، ص7-9، 226 وغيرها. الحملة : تنوير أم تزوير؟، ص43، 115، 159، 173، 174.

(88) عبد الرحمن الرافعى: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، ج1، دار المعارف، ط5، 1981، ص24، 25، 38، 43-50، 54، 71، 91. مع العلم أن الطبعة الأولى من الكتاب صدرت 1929.

(89) المرجع السابق، ج1، ص 94، 95، 99، 101، 103، 109، 151- 153. ج2، ص 286.

(90) الرافعى: تاريخ الحركة القومية، ج2، القاهرة، دار المعارف، ط4، 1981، ص119، 120، 124.

(91) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية، ج1، ص 140- 145.

(92) ".. ولاشك أن فكرة تأسيس هذا المجمع هى فكرة جليلة تدل على عبقرية نابليون ونبوغه فى التنظيم والإنشاء، كنبوغه فى الحروب وتدل أيضاً على قوة عزيمته وعلو همته.. وإذا نظرنا إلى هذا المجلس من الوجهة العلمية البحتة نجد أنه قد أفاد البلاد بآثاره وأعماله، وتعد مذكرات أعضائه نواة للأبحاث العلمية الخاصة بمصر فلا غرو أن يكون المجمع العلمى هو الأثر الوحيد الباقى من آثار الحملة.. ويكفى أن نمعن النظر فى أعمال أعضاء المجمع وأبحاثهم المنشورة فى كتاب تخطيط مصر لنقدر مبلغ ما قاموا به من الأعمال وما يستحقونه من الإعجاب والثناء ". الرافعى : تاريخ الحركة القومية، ج1، ص 145، 146.

(93) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية، ج1، ص 140، 430. ج2، ص 75. وقد ذكرت عنان أن المجمع العلمى كان استمراراً لـ"المعهد القومى" وأن مهمة علمائه كانت" تحضير وتنفيذ استعمار مصر" وأن الفرنسيين حاولوا استخدامه سياسياً بمحاولة إبهار شعب جاهل، والسماح بزيارة المشايخ له وتمثيل دور العلماء الخارقين فى إمكاناتهم. د. ليلى عنان: الحملة الفرنسية : تنوير أم تزوير؟، ص91، 92، 238.

(94) د. محمد صبرى (السوربونى) : تاريخ مصر من محمد على إلى العصر الحديث، القاهرة، مكتبة مدبولى، ط2، 1996، ص 21، 26 - 29، 31، 38.

(95) وقد ظهر ذلك فى محاضراته عن " المجتمع المصرى من الإقطاع للاشتراكية " وتطور فى" الجذور التاريخية لثورة 1952 " ثم " تطور المجتمع المصرى". د.عاصم الدسوقى: تأثير اليسار المصرى

على كتابة تاريخ مصر، وتفسيره، فى: اليسار فى الثقافة المصرية، القاهرة،دار العالم الثالث، ط1، 2005، ص171، 172.

(96) د. محمد أنيس : الجبرتى ومكانته فى مدرسة التاريخ المصرى فى العصر العثمانى، فى ندوة : عبد الرحمن الجبرتى.. دراسات وبحوث، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976، ص 97، 98.

(97) د.محمد أنيس: تطور المجتمع المصرى من الإقطاع إلى ثورة 23 يوليو، الأنجلو المصرية، 1985، ص 63.

(98) وعنده أنه كان هناك تدهوراً عاماً فى الحياة العلمية، ولاسيما فيما يسمى بالعلوم العقلية، من ناحية الكيف لا الكم، لأسباب منها أن الحكم العثمانى كان إقطاعياً وضعيفاً ولم يحدث تغييراً جذرياً فى المجتمع. ومنها العزلة خاصة مع تحول طريق التجارة. على أن التأثير العثمانى فى التدهور الفكرى كان ضعيفاً لطبيعته اللامركزية. ومن ثم فالاحتلال العثمانى ليس وحده المسئول عن ضعف الحياة الفكرية ولكن شيوع روح النقل والمحافظة وانكماش روح الابتكار. د. محمد أنيس : الجبرتى ومكانته، ص 102 - 105.

(99) د. محمد أنيس : تطور المجتمع المصرى، ص63، 68 - 70.

(100) وعنده أن الحديث إجمالاً عن هيمنة البؤس والفقر والجهل والأمراض والأوبئة والطغيان والاستكانة على أوضاع مصر فى العصر العثمانى، لا يتطابق تماماً مع الواقع وقد يحمل معنى التجنى، وربما يعثر الباحث عن ثورة نشبت لدفع ظلم، وحركة قامت لقلب نظام حكم، وعزيمة وجدت للوصول إلى السلطة "وكلما زاد البحث وعثر على جديد، تغيرت النظرة الإجمالية والمبسطة، وثبت أن مصر لم تمت حتى فى عصر الموت". د. جلال يحيى : مصر الحديثة 1517- 1805، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1969، ص 5 وما بعدها.

(101) د. جلال يحيى : مصر الحديثة، ج2، ص 520 - 547.

(102) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى : تطور الفكر السياسى فى مصر الحديثة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1973، ص 9-14.

(103) د.رؤوف عباس: محاضرات فى تاريخ مصر الحديث، دار النهضة العربية،1980، ص 5-20، 29-32.

(104) د.رؤوف عباس: تطور المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر، دار الثقافة العربية، 1990، ص 32 -34.

(105) ظهر ذلك فى إشرافه على العديد من الرسائل عن مصر العثمانية وترجمته لبعض أعمال جران وحنا، ومراجعته للعديد من الأعمال. ناهيك عن احتضانه لسمنار التاريخ العثمانى. ولعل أبلغ دليل على التطور الذى طال موقفه من العصر العثمانى، ما كتبه بنفسه عام 2003. راجع تقديمه لترجمة كتاب:د. نللى حنا: ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية(ق 16- ق 18)الدار المصرية اللبنانية، ط1، 2003، ص14- 20.

(106) من تقديم د. رؤوف عباس لكتاب ناصر أحمد إبراهيم : الفرنسيون فى صعيد مصر.. المواجهة المالية (1798 – 1801)، سلسلة تاريخ المصريين، العدد 60، ط1، 2005، ص 12.

(107) د.عاصم الدسوقى: فى معالم تاريخ مصر الحديث، مؤسسة ابن خلدون، ط2، 2003، ص41–48.

(108) مماكتبه "لم يظهر الفرنسيين الذين اشتركوا فى الحملة فى صورة طيبة كاملة، ولكننا نضيف أن هؤلاء.. ما هم إلا بشر وما هم إلا استعماريون..فقد رأى الاستعمار منذ الفجر الأول له فى التاريخ، أنه لكى يتم التحضر البشرى لابد من إبادة المتخلفين وصنع الحضارة على دمائهم، وهكذا كانت فلسفة الاستعمار من أجل تحليل الاستغلال "!. ثم يعود للقول "ولم تكن كل الإجراءات التى قام بها الفرنسيون فى مصر صفحة غير مشرقة، بل كانت لهم لمسات رائعة فى كشف النقاب العلمى عن التاريخ المصرى". أما الحياة الفكرية عند قدوم الحملة فكانت "متواضعة للغاية". ثم يعود للقول "لم تكن الحياة العقلية فى القاهرة فى ذلك الوقت ضحلة بالحد الذى يحلو للبعض أن يصورها بها بعصر التخلف العلمى،ولكنها لم تكن كذلك عميقة، ولكنها كانت مرحلة من تاريخ مصر الفكرى "!!. وعلى كل فإنه كرر ما جاء بكتابات سابقة، وإن بشكل متناقض. د.وجيه أبو حمزه : تاريخ مصر الحديث المعاصر، ج1، القاهرة فى عصر الحملة الفرنسية، 1997، ص ب، 1، 9، 11، 30، 50، 77، 99، 373-377. والكتاب فى الأصل رسالة ماجستير أجيزت من آداب المنيا 1981.

(109) نبيل السيد الطوخى: صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية 1798–1801، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 1997، ص216، 342– 345 وغيرها. والكتاب فى الأصل رسالته ماجستير نوقشت بآداب المنيا. هذا وإن لم يرصد كل حركات المقاومة ولا أشكالها، بل توقف عند منتصف 1799 تاركاً ما يقرب من عام من تاريخ المقاومة، لينتقل لتناول الإدارة الفرنسية للصعيد.. تماماً مثلما فعل الرافعى!.

(110) وأشار إلى أن الدعاية الفرنسية وقت الحملة جعلت مصر وكأنها " كانت على موعد مع لحظة تاريخية مماثلة لما جرى فى الواقع الفرنسى أواخر القرن 18.. بداية حقيقية لزوال عهد العبودية وانبثاق فجر الحرية ". للمزيد عن ذلك وعن وعيه منذ البداية بالاتجاهات المختلفة حول تفسير نتائج الحملة، انظر : د.ناصر أحمد إبراهيم: الفرنسيون، ص15–18، 29. نظام الالتزام فى فكر الحملة الفرنسية، بحث منشور فى:التاريخ المقارن للشرق الأوسط، تحرير : بيتر جران، رءوف عباس، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2005، ص45، 60 - 62.

(111) د. ناصر أحمد إبراهيم : الفرنسيون فى صعيد مصر، ص 45، 46، 235.

(112) المرجع السابق، ص 81، 82، 120، 121 وغيرها من الصفحات.

(113) المرجع السابق، ص 172، 231، 235، 236 وغيرها.

(114) د. عفاف لطفى السيد: مصر فى عهد محمد على، ت: عبد السميع عمر زين الدين، م: السيد أمين شلبى، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، عدد 554، القاهرة، ط1، 2004، ص 20، 31، 32، 43، 44. وقد طبع الكتاب باللغة الإنجليزية فى عام 1984. وقد ظهر ذلك مبكراً فى أعمال عديدة، انظر :

Afaf Lutfi Al- Sayyid ;the beginning of modernization among the rectors of al-Azhar, 1798-1879.in:Beginnings of modernization in the Middle East..the nineteenth

century,edited by:William R.polk& Richard L.Chambers. Chicago,1968. the political and economic functions of the Ulama in the 18th century ,Journal of the economic and social history of the Orient , vol.xvi, parts II-III,1973.

(115) عفاف لطفى السيد : مصر فى عهد محمد على، ص44- 47.

(116) منذ أكثر من ربع قرن أثار د. عاصم الدسوقى قضية أن النقد التاريخى فى مصر يقتصر على دراسة منهج البحث بطريقة تقليدية، وأنه لا توجد علاقة بين المعرفة والنقد، مما جعل دراسات أغلب المؤرخين المصريين تتميز بالضخامة مع الافتقار إلى نظرية تحكم التفاصيل، أو الافتقاد إلى الاتساق الموضوعى والوقوع فى التناقضات نتيجة التأثر بأكثر من نظرية وكأثر مباشر لتعدد مصادر المادة التاريخية.د.عاصم الدسوقى : مصر المعاصرة فى دراسات المؤرخين المصريين.. دراسة فى الكم، القاهرة، دار الحرية، 1976، ص 4، 5.

* * *



فى المنظور المصرى المعاصر

محصلة متعارضة

(وجهة نظر المؤرخين المصريين)[*]

ترجمة أ.د. صادق نعيمى

"تم الاعتراف بالتاريخ كعلم مستقل وقائم بذاته فى مصر مع افتتاح مدرسة الألسن، وفتح قسم بها لتعليم التاريخ يقوم بالتدريس فيه مدرسو تاريخ، وكان هذا بمثابة أول قسم تاريخ فى بلد إسلامى"[1] هذا ما بلورته كلمات جمال الدين الشيال فى مؤلفه عن التاريخ والمؤرخين فى مصر فى القرن التاسع عشر، ويضيف أنور عبد الملك – فى نفس هذا السياق – أنه "بفضل الطهطاوى وتلاميذه، وبفضل التدقيق المنهجى فى تناول الأحداث التاريخية، بدأ التخلى عن منهج التتابع الزمنى للأحداث، لصالح التاريخ بمعناه الشامل. ويتناسب هذ المفهوم الجديد للتاريخ مع ما أراده الشيخ رفاعه الطهطاوى من انفتاح مصر على العالم وعلى البشر بعد أن كانت منعزلة إبان العصر العثمانى، وهو فى ذلك يهدف لتقديم رؤية عامة يمكن للصفوة، أى للطبقة الحاكمة، اتباعها من أجل نهضة بلاده. وعندما كان الطهطاوى يقول إن مصر هى أمة، فإنه كان يفتح بذلك الطريق أمام تاريخ خاص بمصر"[2].

ولقد أثر تطور الوعى القومى، فى أعقاب ثورة عرابى والاحتلال البريطانى

(*) قام بإعداد هذا المقال الباحثان عبد الرازق عيسى ورمضان الخولى بالسيديج. وتم نشره فى المجلد الذى أشرفت على تحريره "جيلان آلوم" وحمل عنوان :

L'expédition de Bonaparte, vue d'Égypte, Egypte Monde Arabe, n° 1, CEDEJ, 1999.

تركيز المؤرخين على القضايا الداخلية مثل تاريخ الحركة القومية نفسها، والبدايات التحديثية فى مصر أو تاريخ العائلة الخديوية[3]. وتجزر هذا الاتجاه بعد إنشاء حزب الأمة فى سنة 1908 وساعدت الثقافة العلمانية التى كانت سائدة آنذاك فى الأوساط السياسية، مما أدى إلى دعم فكرة أن الأصول العلمانية الحديثة فى مصر ترجع إلى سنوات الاحتلال الفرنسى، وزادت فى عهد محمد على، وجاءت الحركة العلمانية على حساب التفكير الدينى.

فى ظل هذه البدايات، يمكن لنا أن نفهم سياسة الملك فؤاد التى اتبعها بعد إلغاء الخلافة العثمانية وسقوط الدولة العثمانية، وخاصة فيما يخص بدعم الملكية المصرية سنة 1922. وتلك السياسة التى حاولت جاهدة أن تربط تحديث مصر بأسرة محمد على، وسعت إلى طمس كل ما يمكن أن ينسب للدولة العثمانية فى هذا الصدد، وإلى أن "الأمة المصرية الحديثة" مدينة إلى أوربا أكثر من مديونيتها فى ذلك للدولة العثمانية. وقام الملك فؤاد بتشكيل لجنة من المؤرخين لها كل الصلاحيات والإمكانيات لجمع الوثائق التى تخص الأسرة العلوية، فى محفوظات القنصليات الأوربية. وكان من نتائج أعمال هذه اللجنة، أنها نشرت ثلاثين مجلداً على حساب صاحب الجلالة، وذلك من خلال الجمعية الجغرافية المصرية[4].

وتحتوى هذه المجلدات على مادة ثرية عن مصر الخديوية، بينما القليل منها عن مصر العثمانية التى لم تنل حتى الآن التعريف الكافى بها، مما يشى بقطيعة فى كتابة التاريخ بين المرحلتين التاريخيتين، ولذا فإننا نجد أن عصر محمد على يبقى بالنسبة لكثير من المؤرخين، عصر منفصل العرى عن العصور المظلمة السابقة. ومن ثمّ فإن العودة إلى الماضى تفرض نفسها.

لقد كانت البعثة التعليمية الأولى إلى أوربا سنة 1915، للتخصص فى الدراسات التاريخية مكونة من خريجى مدرسة المعلمين العليا (السلطانية)؛ ثم تبعها بعثات من خريجى الجامعة المصرية سنة 1925، ولدى عودتهم، احتل هؤلاء المبعوثون كراسى التاريخ فى الجامعة المصرية، وقاموا بتكوين جيل جديد من المؤرخين الذين درسوا

على أيديهم، وقد أسهم هؤلاء وأولئك فى تطور الدراسات التاريخية فى مصر[5].
وظهر فى منتصف الثلاثينيات ، ثلاثة رواد من المؤرخين، اهتموا – على استحياء – بمحاولة دراسة مصر العثمانية.

وبالرغم من تفاوت توجهاتهم العقلانية، حتى فيما يتعلق بالعصر العثمانى، وبالرغم من تأثرهم بالدراسات الأوربية، فإن هؤلاء الرواد الثلاثة يمثلون تياراً تأريخيا مصرياً خالصاً بدأ يسير فى خطٍ متوازٍ مع التيار الأوربى.

أول هؤلاء ، محمد محمد توفيق الذى يقدم بحثاً عن كتابة خط القرمة (غير منشور)، وقدم بعده بحثين عن "الحلقة المفقودة فى وثائق تاريخ مصر الحديث"[6]، حول مصادر التاريخ العثمانى. ولقد دفع بمحمد توفيق نحو هذه الفترة، توجهه الدينى؛ إذ كان التيار الإسلامى فى عصره يميل للدولة العثمانية، على اعتبار أن هذه الدولة كانت تمثل نظاماً سياسياً يمكن استلهامه.

وكان ثانيهم، حسن عثمان الذى كتب "المجمل فى تاريخ مصر فى العصر العثمانى"[7] الذى يمثل عملاً مهماً فى وقته بالرغم من محتواه غير العميق. وكان حسن عثمان يحث على دراسة مصر العثمانية قائلاً : "يوجد بدار المحفوظات المصرية آلاف الوثائق غير المنشورة التى تتناول جوانب أساسية من تاريخ مصر منذ بداية العصر العثمانى إلى حكم محمد على، وآلاف أخرى من هذه الوثائق فى دور المحفوظات الأوربية. ولم تزل هذه الوثائق بحاجة لمن يدرسها من الباحثين العرب"[8].

ويأتى محمد شفيق غربال كثالث الثلاثة، ولقد كان غربال واعياً بالأهمية التى يقدمها تاريخ مصر العثمانية، تلك المرحلة التى بقيت فى الظل، رغم أننا لا نستطيع أن ندرس القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر دون أن ندرس الفترة السابقة عليهما، ومن هنا عمل على نشر المصادر الأولى لهذه الفترة، وكان من بينها مخطوطة حسين أفندى الروزنامجى التى أعطاها غربال اسماً معبراً : "مصر عند مفترق الطرق"[9]، حيث يعتبر أن الحملة الفرنسية تمثل منعطفا حاسما فى التاريخ المصرى

الحديث. وعمل على نشر كتاب الجبرتى : "مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس"، إلا أنه لم يكمل نشره[10]، وكذلك كتاب عن المعلم يعقوب الذى نشره تحت عنوان : "المعلم يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع سنة 1801"[11]، وكل هذا يشهد بأن هذا المؤرخ يسعى إلى دراسة الشخصية التاريخية لمصر ومراحل تكون الهوية القومية.

وفتح إنشاء الجامعة العربية سنة 1945، صفحة جديدة للجدل الدائر حول ماهية "الأمة المصرية" هل كانت الأمة المصرية أمة قائمة بذاتها؟ أم كانت مجرد إقليم مصرى داخل الوطن العربى؟[12] وكانت هناك محاولات الإثبات لهذا الرأى أو ذلك يتم عبر البحث فى التاريخ عما يثبت هذه الفكرة أو تلك، وأدى وصول الضباط الأحرار إلى الحكم سنة 1952، إلى تقديم قراءة جديدة ليس فقط لتاريخ مصر الخديوية فى العصر العثمانى، بل وصل الأمر إلى محاولة التلاعب بالحدث التاريخى، فعلى سبيل المثال، فإن جملة عرابى التى يبدأ بها مذكراته قائلاً إن : "سعيد باشا زرع بذور النهضة الوطنية فى القلب النبيل للأمة المصرية"، قد حذفت من هذه المذكرات فى طبعة سنة 1953، التى كتب محمد نجيب مقدمتها[13].

وبقى الأمر على هذا النحو حتى سنوات السبعينيات ، أى حتى أعطى أحمد عزت عبد الكريم، تلميذ شفيق غربال، دفعة جديدة للدراسات التى تتناول العهد العثمانى ، مما جعلها موضوع اهتمام من جديد. وقد ساعد نهاية "عصر ناصر" على إزاحة عقبة فى طريق الدراسات العثمانية، وأضف إلى ذلك تأثير الأعمال الاستشراقية الأوربية[14] التى ساهمت فى ميلاد مدرسة تاريخية جديدة، يقال عنها إنها المدرسة "الأرشيفية" أو التوثيقية لأنها أعطت أهمية لدراسة الوثائق. وبالرغم من أن عزت عبد الكريم لم ينشر كتباً، إلا أنه يعد مؤسس حركة تاريخية أبرزها عبد الرحيم عبد الرحمن وليلى عبد اللطيف اللذين أشرفا على العديد من الطلاب الذين وجهوهم إلى الاهتمام بدراسة هذا العصر.

بيد أن الرهان الأيديولوجى لم يختف تماما عند دراسة التاريخ العثمانى، وظلت

الآراء السياسية تلعب فى هذه الدراسات دوراً لا يمكن تجاهله. ومن هنا فإننا نجد تيارين متعارضين: أحدهما يسارى والآخر إسلامى، لدرجة وصل معها الأمر إلى جدال عقلانى كبير شهدت الصحافة طرفا منه ، وكان أبرز الطرفين لويس عوض عن اليسار ومحمود شاكر عن الإسلاميين، ورغم أن موضع الخلاف فى البداية كان أدبياً خاصاً بتاريخ الأدب العربى، إلا أنه امتد إلى الحملة الفرنسية. ويعتبر لويس عوض الحملة بمثابة بداية التحديث فى مصر[15]، ويرد عليه محمد شاكر فى مقالين بمجلتى "الرسالة" و"الهلال"، مفنداً حججه، مشيراً فى ذات الوقت إلى أن التحديث فى مصر يرقى إلى مرحلة سابقة على الحملة، ولذا فنحن هنا أمام تيارين متعارضين، لم يلبسا إلا أن امتد تأثيرهما إلى الجامعة.

ويتمثل التيار الإسلامى فى شخص محمد محمد توفيق الذى تمكن من الترويج له فى الجامعة، وكان أبرز ممثليه هو عبد العزيز الشناوى. إن هذا الأستاذ الذى شغل نفسه طوال الحقبة الناصرية بآراء قومية فرضها على المناهج المدرسية فى دراسة التاريخ للمرحلة التعليمية قبل الجامعية، قد تحول فى سنوات الثمانينات إلى مدافع شرس عن التاريخ العثمانى . وتبلور دفاعه هذا فى كتابه : "الدولة العثمانية المفترى عليها"، وصار هذا المنهج المتحمس للدولة العثمانية، بمثابة محرك لتلاميذ وأتباع له فى جامعة الأزهر واصلوا طريقه. وبالإضافة إلى أن هذا التيار ذو ثقافة دينية أزهرية، إلا أنه يحمل بعداء للتيار الآخر الذى أطلق عليه التيار العلمانى وقد صار للتيار الإسلامى فى قراءة التاريخ أتباع كُثر ويشهد الآن نجاحا كبيراً.

ونجد على النقيض من هذا التيار، تيار يمثله محمد أنيس، ومعظم مؤيديه من اليساريين الذين يعتبرون أن الدولة العثمانية ليست سوى امتداد للنظام الإقطاعى القروسطى. وبالرغم من أن هذين التيارين يبدوان متعارضين إلا أن ثمة قواسم مشتركة بينهما، منها مثلا أن التيارين يبرزان دور شخصيات مصرية فى تاريخ مصر، منها: عمر مكرم بالنسبة للشناوى، وهمام بالنسبة للويس عوض.

وفى مقابل هذين التيارين المتعارضين جذريا تجاه العصر العثمانى ، فإن السؤال

الذى يستحق طرحه هنا كالتالى : هل كان ثمة مشروع نهضوى عرفته مصر فى ظل الحكم العثمانى، وطمسته الحملة عند مجيئها إلى مصر؟ أم علينا أن نفكر بشكل مختلف قائلين : إن الحملة هى التى أعطت إشارة البدء لهذه النهضة؟ إن جمال الدين الشيال يرد على ذلك بأن أسس النهضة الحديثة قد برزت فى المجتمع المصرى قبل الحملة[16]. ولم تنل هذه الفكرة حظها من النجاح حتى نشر بيتر جران ، المؤرخ الأمريكى، عملاً أعاد طرح هذه الفكرة. ومنذ نشر: "الجذور الإسلامية للرأسمالية، مصر 1760- 1840" [17] وعلى مدار عشرين عاما، اتسعت دائرة الجدل لدرجة يمكن معها القول إن هذا الكتاب أعطى دفعة جديدة لميلاد تفسير جديد لتاريخ مصر فى العهد العثمانى، وللدور الذى لعبته الحملة فى تحديث مصر.

توضح النبذة السابقة عن تطور الدراسات التاريخية، والمكانة التى تشغلها هذه الدراسات فيما يتعلق بأسرة محمد على وبمصر العثمانية وبالحملة الفرنسية لما تمثله من نقطة اتصال بين العصرين، أن هذه الدراسات ما زالت موضع تأثر بالتغيرات السياسية وبالمطلب الاجتماعى. ولذا بدا لنا أهمية محاورة المؤرخين المصريين واستشراف آفاق جديدة حول الحملة الفرنسية، ولقد أخذنا أساتذة تاريخ محترفين – حتى نتفادى الجدل الذى دار فى سنة 1998 حول الحملة الفرنسية ، أساتذة يعلمون التاريخ الحديث والمعاصر فى الجامعات المصرية، دون الأخذ فى الاعتبار توجههم فى علم التاريخ (انظر قائمة بأسماء هؤلاء فى الملحق). ونظراً لأننا لم نتمكن من تنظيم مائدة مستديرة، فقد أجرينا مقابلات فردية أو جماعية عندما سمحت الظروف بجمع البعض منهم معاً. إن أغلبية هذه اللقاءات قد تم تسجيلها، وإعادة نسخها حرفيا، ثم قمنا بعمل بلورة لهذه المقابلات نوردها فيما يلى .

ولكن يلزمنا أن نوضح أيضاً فى البداية المحاور الرئيسة التى دار حولها النقاش. وإذا كانت المئوية الثانية للحملة تفرض نفسها الآن، فإن المتحدثين قد تطرقوا لنقاط أخرى كذلك حتى يتسنى لهم عرض الموضوع بشكل جيد للأسباب التى ذكرناها سابقاً، ومن هذه النقاط التى تم التطرق لها عند إيضاح رؤيتهم للحملة الفرنسية،

دراسة الحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للبلد قبل الحملة، وهى النقاط التى غالباً ما يرجع إليها المدافعون عن وجهات نظر معينة فى الحملة على اختلاف وجهات النظر تلك.

ولقد راعينا عدم الاستغراق فى التفاصيل التاريخية للحملة فى مصر، حتى لا نغرق فيها، ولذا ركزنا على أن يعطينا المتحاور المتخصص نظرة شاملة تبلور تصوره عن هذا الحدث. وكان الدافع من وراء اختيار هذه الطريقة، أن أحدنا كان أثناء تدريسه فى المدارس الثانوية قد سمع أحد تلاميذه فى الصف الثالث الإعدادى يقول: لماذا كل هذه المناقشات التى يثيرها المصريون حول الحملة، ولماذا يعارضونها رغم أنه كان لها جوانب إيجابية مثل إدخال المطبعة وفك رموز حجر رشيد؟. إن هذا التلميذ يكرر بهذا أفكاراً تنشرها المقررات المدرسية ما قبل الجامعة، مقررات توافق توجه الدولة. ومن هنا يأتى المحور الثانى وأهميته، ذلك المحور الذى يتناول طبيعة تدريس المناهج التاريخية فى المدارس والجامعات.

ويفرض المحور الثالث نفسه بسبب الغموض واللبس المحيطين بالآراء والأحكام التى يحاكم بها هذا الحدث التاريخى، ويرجع هذا اللبس إلى الأدوات المعرفية المستخدمة فى تفسير أسباب ونتائج هذه الحملة. وبين مَنْ يرون فى الحملة "مشروع استعمارى"، وبين مَنْ يرون فيها "مشروع ثقافى"، فإن إعادة قراءة هذا الحدث تعد ضرورية.

وكان لزاماً علينا أن نضع هذه الحملة فى منظور يجمع بروابط معينة بين مشروع محمد على التحديثى والحملة الفرنسية، وهذا الربط يمثل مسألة مهمة فى هذه المقابلات. وليس فقط من خلال الأهمية التى يوليها المؤرخون لهذا الحدث، ولكن بسبب ما تحتله الحملة من مكانة فى "المتخيل الجمعى"، ونذكر هنا مثالاً يوضح هذا: بث التليفزيون "باليه" عنوانه: "أبو الهول ولياليه الثلاث"، الذى يعرض بونابرت ومحمد على وهما يرقصان معاً، ولكن دون أن نتمكن من معرفة ما إذا كان ما بينهما هو توافق أم تعارض؟!

وآخر هذه الموضوعات التى نعرض لها، يتمثل فى كيفية إعادة تفسير الحدث التاريخى ونقد المعطيات الراهنة. وكانت محاولة البعض للاحتفال بالحملة والبعض الآخر لإحياء الذكرى بها، قد أعاد للأذهان أهمية الجدل الدائر حول الموضوع. وكانت هناك محاولات لإقامة تظاهرات ثقافية مصرية – فرنسية تمت بين السلطات المصرية متمثلة فى وزارة الخارجية ووزارة الثقافة دون أخذ رأى المؤرخين، ولذا فإن التوظيف السياسى للتاريخ يعد بمثابة خاتمة لنا.

مصر العثمانية بين انحطاط ونهضة :

وإذا كان بعض المؤرخين يعتبرون أن الحملة الفرنسية قد جاءت لإعاقة عملية التحديث التى عرفتها مصر العثمانية، فإن الأغلبية ينكرون أصلا وجود مثل هذه العملية التحديثية، بل ينكرون وجود أية محاولة من أجل التحديث. ويشرح عبد الوهاب بكر الأمر قائلاً : "إن الوضع السياسى لم يكن يسمح أصلاً لوجود عملية تحديث لأن مصر كانت تعانى من صراع بين إبراهيم ومراد اللذين استوليا على السلطة من الدولة العثمانية التى أرسلت فى سنة 1788 حملة لمعاقبة هذين المملوكين، وكانت هذه الحملة بقيادة القبطان حسن باشا، ولكن تم استدعاؤه بعد عام بسبب استئناف النزاع مع الروس، مما مكن إبراهيم ومراد باشا من استرداد سلطتهم وأن يؤسسوا سلطة قائمة على الإكراه. ولذا فإن القول بأن هذه الفترة قد عرفت تحديثاً يعد من الأمور التى يصعب تصديقها. وإن كان لنا أن نصدق مشروعاً كهذا، فإن فترة على بك الكبير وكذلك محمد أبو الدهب هى الأولى بذلك، أولئك الذين حاولا انتزاع مصر من السيادة العثمانية. ولكن مشروع التحديث الذى كان له أن يبزغ فى عهد هذين الرجلين قد فشل، وأن الحملة عندما جاءت كانت مصر ترزح تحت القيادة الثنائية لإبراهيم ومراد اللذين كان همهما الأكبر هو الاستيلاء على أكبر قدر من الثروة. وفى وسط هذا المناخ، لم تكن السلطة العثمانية تمارس سوى سيادة شكلية، ولم يكن لديها أى مشروع لتحديث مصر وتمدينها. ولا يوجد ما يشير إلى أن العثمانيين أو المماليك كان لديهم مثل ذلك المشروع التحديثى".

ويساند عاصم الدسوقى معنى وجهة النظر تلك، ولكنه يبرهن عليها برؤية اقتصادية : "إننى موافق تماماً بأنه لا يجب أن نبحث دائماً عن أسباب خارجية لدراسة تحولات المجتمع المصرى، ولكن لننظر إلى وضع البلد قبل الحملة الفرنسية، فبعد ثلاثة قرون تقريباً من السيادة العثمانية، أصبحت مصر منعزلة، ولم يكن لدى العثمانيين – الذين هم فى الأصل شعب بدوى رحال فى آسيا الوسطى – ما يمكن أن يقدموه إلى مصر. وفضلاً عن ذلك ، فإن وقت استيلائهم على مصر كان مرحلة تحول التجارة عن طريق التجارة القديم حول رأس الرجاء الصالح، وكان العثمانيون فى الوقت نفسه يحرمون على المراكب الأوربية من الإبحار فى البحر الأحمر، مخافة أن يتغلغل هؤلاء الأوربيون فى الدولة العثمانية. وإذا كان قرار العثمانيين هذا يمكن تفهمه، إلا أنه كان خاطئاً، لأن التجارة فى ذلك العصر لم تكن قاصرة على عملية النقل وحسب، بل إن التجار الذين كانوا يمكثون لمدد قد تصل إلى عدة شهور فى هذا الميناء أو ذاك، كانوا حاملين لثقافات وحضارات مختلفة، ففى مصر، نجد أن سكان المناطق الساحلية المعتادين على مخالطة ثقافات مختلفة، يختلفون عن أولئك الذين يعيشون فى عمق البلاد فيما يتعلق بالمستوى الثقافى. وبما أن العثمانيين هم بدو رحل بلا حضارة، فإنهم تركوا المصريين ومجتمعهم على الحالة التى وجدوهم عليها، وأذكر على سبيل المثال نظام الطوائف الخاص بالحرف المختلفة، لأن هذا النظام يسهل لهم التواصل مع رؤساء هذه الطوائف".

على حين يرى رءوف عباس أنه : "يجب أن نحدد أولاً ماذا نعنى بمشروع تحديثى. إن هذا المشروع – حسب تصورى – هو حركة أمة ما بسبب تأثير نخبة أو بسبب تيار عام فى المجتمع، حركة تسعى إلى تحسين الوضع القائم. إن التاريخ يعلمنا أن هذه الحركة لا توجد إلا إذا حدث تغيير موضوعى فى بنية المجتمع، بمعنى آخر يجب ظهور قوى جديدة يمكن لها أن تعتبر أن التغيير سوف يكون من صالحها. فعلى سبيل المثال فتحت أيديولوجيا التنوير طريق التطور الاجتماعى

والفكرى فى القرن الثامن عشر فى أوربا، تطور كان يصب فى صالح عملية التصنيع. فهل عرفت مصر مثل هذا التغيير؟ إن هذا السؤال يدفعنا إلى التساؤل فوراً حول أهداف الحملة. هل كان لديها عند رحيلها من فرنسا مشروعاً حضارياً أو ثقافياً؟ وهل ترك هذا المشروع أثراً له فى مصر؟ فى اعتقادى أن الإجابة تأتى بالسلب لأن هذه الحملة لم يكن لها إلا هدفاً سياسياً ولم تكن تهدف سوى خدمة المصلحة الفرنسية. ولكن بالرغم من أنها لم تكن تهدف إطلاقاً إلى دفع المجتمع المصرى نحو الحضارة إلا أن نتائجها كان لها جانب حضارى. إن الوصف الذى نراه عند الجبرتى للمجتمع المصرى يمكن أن يعطينا إجابة دقيقة. إن نقل العلم الحديث يفترض توفر رغبة فى تقبله عند المتلقى. إن هذا الموقف الإيجابى نجده على سبيل المثال لدى حسن العطار الذى كان شاباً وقت الحملة، ذلك الشاب الذى قرر دراسة الفرنسية والذى شجع بدوره تلميذه رفاعة الطهطاوى. وبهذا ولو لدى بعض المصريين الرغبة فى فهم ما يجرى لدى الآخر، وتعد هذه الرغبة بمثابة الخطوة الأولى على طريق المعرفة والتقدم. وعندما نكون مستعدين للاعتراف بأن شيئاً ما يمكن أن يوجد دون أن نعرفه، ونريد معرفته، فإن هذا يعد أمراً إيجابياً. إن هذا هو الأساس الذى شيد محمد على مشروعه على أساسه. وفى المقابل فإن حراس التراث ممثلين فى علماء الأزهر، قد تبنوا خطاً مناهضاً ومعادياً. ولكن أولئك الذين اتهموا ولى النعم باستدعاء النصارى لدفع عجلة التقدم المعرفى كانوا يتلقون الرد التالى من الطهطاوى : "جاء فى الحديث : اطلبوا العلم ولو فى الصين" . وتوازى مع هذا التغير فى الموقف، تصور جديد عما يجب أن تكون عليه السلطة السياسية التى ينتظر الجميع منها أن تحقق العدالة. ولقد كانت السلطة السياسية أثناء الحملة عاجزة عن تحقيق العدل بين الرعايا الذين قادوا عملية المقاومة ضد المحتل. وقد جد جديد بعد الحملة، إذ جاء محمد على بالانتخاب من قبل القادة الشعبيين، ولولا القطيعة التى أحدثتها الحملة فيما يتعلق بالتصورات السابقة عليها، لكان من الصعب أن نتصور مثل هذا الانتخاب الذى غيَّر من شكل السلطة السياسية. إن التجربة التى عاشها

المصريون أثناء الحملة جعلتهم يقتنعون أن المماليك والعثمانيين ليسوا بموضع ثقة، بمعنى آخر أن إيجاد عقد اجتماعى آخر أصبح واجباً".

بينما يعتبر عماد أبو غازى أن "القطيعة هى أمر قديم وسابق على الحملة على مصر". وبالنسبة لمصر، كما هو الحال فى سوريا، فإن الاحتلال العثمانى هو المسئول عن التخلف الحضارى فى هذين البلدين. لقد احتفظ هذا الاحتلال بمفاهيم إقطاعية حافظت على بنى المجتمع القروسطى دون حراك لمدة تقارب القرون الثلاثة أى من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر، ودون السماح بأية تغييرات يمكن أن تأتى من داخل المجتمع.

وعندما جاءت لحظة الصدام مع الآخر متمثلة فى الحملة الفرنسية وحملة فريزر بعدها، صار الأمر متأخراً جداً من أجل إدخال إصلاحات من الداخل – فى حين أن مصر وسوريا كانتا أكثر تقدماً من أوربا حتى عصر الدولة "المملوكية"، كما نرى ذلك فى مجال الطب حيث نجد مستشفى السلطان قلاوون الذى شهد تقدماً طبياً وجذب إليه أطباء المشرق. أما فى مطلع القرن التاسع عشر، فإن الأمة قد صارت مستهلكة وتابعة فى المجال الطبى للغرب الذى صار المرجع بلا منافسة فى مجال التقدم، وكان هذا التراجع الفاضح فى التنمية يرجع للاحتلال العثمانى. "لنأخذ مثالاً آخر، وهو كتابة التاريخ . لقد كان فى القرن الخامس عشر (التاسع الهجرى) توجد مدرسة تاريخية مصرية تماماً، يمثلها أفضل تمثيل المؤرخ المقريزى، الذى بلغ تألقاً فى هذا العلم بفضل منهج التحليل ومعالجة الأحداث المعقدة مثل قوانين الاقتصاد. لقد أُهمِل هذا المنهج فى ظل الاحتلال العثمانى، بل لا يوجد أى وجه للمقارنة بين المؤرخين العثمانيين فى سوريا ومصر، وبين مؤرخ مثل المقريزى أو ابن خلدون. وكان يجب الانتظار وقتاً طويلاً حتى ميلاد الإنسانيات التى جاءت لاحقة على نهضة علوم الطبيعة، تلك الإنسانيات التى جاءت إلينا من الغرب، كما هو الحال بالنسبة لنظام الجامعة الحديثة.

وماذا نقول عن مجال الفنون. يجب أن نقوم بزيارة للمتحف الإسلامى حتى نقتنع أن الفنون تطورت من العصر الجاهلى حتى الدولة المملوكية. وتغير كل شىء مع الاحتلال العثمانى، فإن الفنون تأثرت بموتيفات أوربية وبتقنية وأساليب مأخوذة من أوربا الشرقية، لأن هذا يتناسب مع ذوق الطبقة الحاكمة الذى سعى إلى تحويل الذوق الاجتماعى على مزاج ذوق النخبة السياسية. إن القطيعة فى هذا المجال، حدثت مع الاحتلال العثمانى وليست مع الحملة الفرنسية. إن الرسومات المأوربة التى نجدها فى "وصف مصر" التى يعتبرها البعض بمثابة إقصاء لفنانين عاجزين عن التحرر من منظور أوروبى للجمال، إن هذه الرسومات ما هى إلا انعكاس لتبنى العثمانيين للذوق المتأورب".

أخيراً يرى يونان لبيب رزق أنه "يكفى أن نشاهد الخريطة فى ذلك العصر لكى نلقى وراء ظهورنا فكرة أن هناك نهضة عثمانية، اللهم إلا إذا كان يعنى هذا المشروع الشرقى الذى كان مؤسساً على نهضة دينية والعودة إلى العصر الذهبى. ولكن إذا كان الأمر يعنى تحديثاً على الطريقة الغربية الذى يفترض وجود دولة مركزية وعلم تجريبى واقتصاد رأسمالى.. إلخ. فإن مثل ذلك المشروع لم يكن موجوداً، إذ لم توجد ثقافة علمانية ولا منهج علمى تجريبى ولا اقتصاد رأسمالى باستثناء وجود تجار أجانب يمكن اعتبارهم نمط من الاقتصاد الرأسمالى".

أما فيما يتعلق بأنصار الرأى المعاكس، مثل عبد الله عزباوى : "كان هناك بداية نهضة فكرية فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر. وأدل مظاهر هذه النهضة كانت تتمثل فى النقد الموجه لكتابة الحواشى والشروح على الكتب القديمة، كما يعد ذلك من إعادة صياغة للأفكار القديمة! إن مؤلفات "الصبَّان" فى النحو العربى وكل مؤلفات "الزبيدى" وخصوصاً "تاج العروس" الذى يعد موسوعة ضخمة أو التعليق على كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالى يمثلون حلقة مهمة فى هذه النهضة. وبعد ذلك بقليل نجد أن الجبرتى يجدد فى كتابة التاريخ من خلال رفضه التام لمنهج "سلسلة الإسناد" الذى كان متبعاً فى الطريقة التقليدية فى كتابة التاريخ.

وأخيراً نجد حسن العطار – أستاذ الطهطاوى – الذى أدخل توجهات فكرية جديدة. وصحيح أن هذه النهضة الفكرية كانت متعلقة بالعلوم الإسلامية التى بدأت تتعرض للنقد، ولم تكن متعلقة بالعلوم التطبيقية، إلا أن هذه العلوم لم تكن مهملة تماماً فى العصر العثمانى. فنجد مثلا حسن الجبرتى أبو عبد الرحمن، كان شغوفاً بعلم الفلك، كما هو الحال لدى الأمير عبد الرحمن كتخدا، وكان هناك آخرون يهتمون بالرياضيات. وكان هذان العلمان يدرسان فى البيوت، وليس فى الجامع الأزهر حيث لم تكن هذه المناهج ضمن برامج الدراسة، وكان هذا التعليم الخاص شديد التكلفة. يقول الشيخ المحلى الذى كان يعلم الرياضيات : "إننى لا أعطى العلم رخيصاً" ، وفى هذا دليل على أن الطلاب الذين كانوا يأخذون دروساً خصوصية فى الحساب والرياضة كانوا يدفعون أجراً مرتفعاً. أن يتناسى البعض أحياناً أن هذا التعليم الموازى للتعليم الرسمى فى المدارس القرآنية أو فى الجامع الأزهر إنما يرجع إلى سقوط الدولة الفاطمية، وتاريخ إعلان دار الحكمة، حيث كانت تعلم الفلسفة. ومنذ ذلك الوقت، اختفت المؤسسة الرسمية المنوط بها تدريس العلوم. ولملء هذا الفراغ الذى أحدثه إغلاق دار الحكمة ، استمر العلماء فى التدريس ولكن فى بيوت الطلاب الراغبين فى ذلك. وفى وضع كهذا فإن الدولة لم تعد تمول المؤسسات العلمية، وكان الجامع الأزهر يمول من أموال الوقف المخصصة له، وكانت هذه الأموال تمنح لكبار علمائه الذين كانوا يحصلون على مشروعيتهم من خلال تدريس العلوم الشرعية، وقد عرف الفقه تطوراً فى نهاية القرن الثامن عشر. وكان الشيخ محمد الأمير، المفتى المالكى، من أوائل الذين سعوا إلى تطوير الفقه بحيث يستند إلى القرآن والسنة عند إصدار الفتوى، وذلك بهدف العودة بالفقه إلى نقائه فى عصر أئمة الفقه الأوائل. وقد تميز هذا الشيخ المالكى عن معاصريه الذين استندوا إلى آرائهم وآراء سابقيهم على النحو الذى كان سائداً منذ القرن العاشر (الرابع الهجرى).

إن هذه الصحوة التى عرفتها مصر فى نهاية العصر العثمانى ، ليس فيها ما يدعو

إلى الدهشة على نحو ما تذهب لطيفة سالم عندما تقول : "إن هذه الصحوة تمثل رد فعل لمرحلة من الضعف والتراجع، حيث يبزغ وسط مرحلة التراجع صحوة ما. وليس ثمة ما يدعو إلى الشك أن نهاية القرن الثامن عشر قد شهدت نوعاً ما من الأمل والصحوة. ويرجع ذلك إلى حالة مراجعة ظهرت بين علماء الأزهر الذين كانوا يلعبون دوراً مهماً فى المجتمع المصرى فى نهاية العصر العثمانى وفى أثناء الحملة الفرنسية وثمة شواهد عدة على ذلك، وأن كل شيء لم يكن مظلماً، ولكن لا نستطيع أن نفكر أن الحملة عملت صدمة وليس صراع حضارات كما تحاول النظرية الحالية إبرازه. إنها إذاً "صدمة ثقافية" تمثلت فى المجتمع المصرى الذى رأى أناسًا جددا (الفرنسيون) يصلون ومعهم أفكارهم وقيمهم التى تتعارض جذرياً مع ما كان عليه المجتمع المصرى الذى كانت قيمه على خلاف مع القيم الأوربية، وترى أن الجبرتى كان مندهشاً من الزى العسكرى، وكان يتساءل: كيف يمكن لهؤلاء الجنود أن يتحركوا فى أرض المعركة بزى كهذا؟! وكان الجبرتى يتندر بالحديث على طريقة أكلهم وشربهم ولبسهم، ونجد نفس رد الفعل عند زيارة رفاعه الطهطاوى لباريس: فنراه يقول إن الفرنسيين جاءوا بثقافة مختلفة تسببت فى رد فعل متفاوت. إذ يراها البعض لا تستحق الأخذ بها، فى الوقت الذى يراها الآخرون مدعاة للتقليد لأنها أكثر تقدماً، وإذا أردنا السير على طريق التقدم فعلينا أن نحذوا حذوها. ولقد كان محمد على بالذكاء الذى جعله يفهم ذلك، وهو ما اتبعه فى مشروعه.

إن الصحوة قد تعود إلى سنة 1795، على ما تذهب إليه "مهجة جودة"، أى إلى الوقت الذى تم عمل ميثاق يبلور أمل وطنى ودستورى، وعندما جاءت الحملة، تحول هذا الوعى بالذات إلى نضال ضد الإمبريالية الغربية. ويضيف "أحمد عبد الرحيم"، أنه من الصحيح أن العديد من الدراسات الحديثة قد أظهرت أن هناك ما يمكن تسميته ببدايات صحوة فكرية فى نهاية القرن الثامن عشر، وقد شملت هذه البدايات الفكرية فى المجالات النقلية والعقلية، ولكن يتطلب الأمر أيضاً إعادة قراءة فى ضوء المصادر التى خرجت من طى النسيان.

الحملة الفرنسية

فى المناهج الدراسية والتعليم الجامعى

يحسن بنا أن نقول فى البداية إن القليل من الأعمال العلمية قد تناولت الحملة الفرنسية، كما يرى "حمادة إسماعيل"، وأن الدراسات القليلة التى تناولتها، كانت دراسات فردية وبوسائل شخصية بالرغم من أهميتها فى التاريخ المصرى، وغريب أن نجد أن المؤسسات العلمية لم تعطها أى اهتمام. ويظهر اللا اهتمام هذا فى أن هذه المؤسسات تفتقر إلى النضج الكافى ، على نحو ما يذهب عزباوى، إذ كان على هذه المؤسسات توجيه المشروعات البحثية فيما يتعلق بالموضوعات الهامة. ولكن يرى ناصر إبراهيم أن دراسة الحدث (الاحتلال الفرنسى) دراسة موضوعية بعيداً عن التوجهات السياسية والايديولوجية – يتعين أن يستند فى الأساس إلى وثائق تلك الفترة، ولما كان ما يزيد عن ثلثى وثائق الحملة موجود فى باريس، فإن الوثائق المتاحة فى القاهرة لا تتيح للمؤرخ أن يرسم لوحة كاملة للحدث ، وما يقوم به البعض من دراسات اعتماداً على ما هو متاح إنما ينتج صوره مبتورة للحدث ككل. وكثير من هذه الوثائق المحفوظة فى دار الوثائق القومية بالقاهرة يصعب قراءتها لأنها ليست أصل الوثائق ولكن نسخة مكتوبة فى معظمها بخط اليد من خلال المجموعة التى كلفها الملك فؤاد الأول بنقلها من الأرشيف الحربى بباريس. ولذا فعلى الباحثين الذهاب إلى باريس، ولكنهم لا يستطيعون الحصول على المساعدة من أجل ذلك من المؤسسات التى يعملون بها. وفى ظل ظروف كهذه، فإن الجامعات المصرية فى وضع لا يسمح لها بالمساهمة فى تجديد المعرفة بالحملة، وبالتالى بتشكيل الرأى العام حول الموضوع ولذا ستظل الحملة – فى رأى ناصر إبراهيم – فى حاجة إلى من يميط اللثام عن كثير من الحقائق المجهولة الخاصة بها والتى يمكن بسهولة استكشافها من فحص أصول الوثائق.

ويلخص عاصم الدسوقى قائلاً : " إن النظرة السائدة عن الحملة لا ترى فيها إلا عملاً عسكرياً إمبريالياً، وأن الصورة التى نحتفظ بها عنها تتمثل فى بونابرت وهو راكب حصانه داخلاً الجامع الأزهر بعد ثورة القاهرة الأولى. بالرغم من أن سليم الأول – إذا صدقنا ابن إياس – كان أكثر وحشية لأنه تتبع معارضيه حتى داخل مآذن المسجد لكى يقتلهم وهم يحتمون فيها. ولكن تعد الظروف القائمة ذات تأثير على معايير الحكم، أكثر من تأثير الرؤية العلمية" . ويضيف رؤوف عباس أن "هذه الأحكام المسبقة تؤثر حتى على المؤرخ فيما يتعلق بالفترة التى يدرسها، ولذا فلكى نتحدث عن مقاومة الاضطهاد يتعين علينا – على سبيل المثال – أن نعرف معرفة تامة طبيعة الشخصية المصرية وكيفية تعاملها مع الأحداث. إن زيادة الضرائب مثلاً لا يقود حتماً إلى تمرد لأن زيادة الضرائب كان مستمراً فى العهد العثمانى، فى المقابل نجد أن المصرى يثور ويتمرد عندما يصبح هو وعائلته أو بيته عرضة للتهديد أو الانتهاك وعندما تهان معتقداته الدينية".

إن التربية المنهجية وتكوين المفاهيم يحدث غالباً فى المرحلة ما قبل الجامعية، التى يتشكل خلالها وعى الفتيان والفتيات تجاه ماضى بلادهم، أى كان مجال تخصصهم لاحقاً. ولذا فإن المناهج التعليمية التى توافق عليها الدولة ذات أهمية، بل إن التوجه الذى تنحاه هذه المناهج، قد يصبح مزعجاً فى حال تغير النظام السياسى. ويذهب "كمال مغيث" أن التاريخ أكثر هذه المناهج عرضة للتلاعب لأن "الدولة تنظر إليه على أنه وعاء ملىء بأشياء كثيرة، تأخذ منه ما تراه صالحاً. ومنذ وقت طويل، فإن التاريخ يستخدم فى سبيل تبرير وجود النظام القائم. ولذا فليس بمستغرب أن تجد أنه فى ظل الاحتلال البريطانى والملكية، كانت الحملة تمثل بداية مرحلة التحديث فى مصر. أما عندما وصل الضباط الأحرار إلى الحكم، فإن هذه الحملة،

صارت تعالج على أنها أول مشروع إمبريالى غربى، والآن فإنها تعالج على أن لها نتائج إيجابية، وذلك فى العلاقات المصرية – الفرنسية الجيدة.

ويرى عاصم الدسوقى الذى شارك فى وضع منهج الصف الثالث الثانوى : "إن الصعوبة تكمن فى التحرر من المصطلح القديم الذى ورث عن المرحلة الاشتراكية ، ذلك المصطلح الذى يشكل عقبة فى سبيل الوصول لمعالجة علمية لهذا الحدث. ورغم أن مناهج التعليم ما قبل الجامعى تحوى دائماً الخطوط العريضة المعتادة، إلا أننا نولى اهتماماً أكثر بالجهود التى بذلت من أجل بناء النهضة أكثر من الأهمية التى نعطيها للنزاعات والحروب. ولقد أوضحنا أن الحملة بذرت بذور الصراع بين الفكر الدينى والفكر العلمانى، صراع انتهى فى عهد محمد على بتأسيس المدارس المدنية، وبذلك تأسس ما يمكن تسميته "بالثنائية الثقافية". إن التدخل فى توجيه المناهج لا يقتصر على بعض الجمل الإنشائية التى تعبر عن فكرة ما، بل يصل الأمر إلى حذف موضوعات معينة كما حدث مع حذف الفصول الخاصة بالحروب الصليبية وذلك بناء على توجيهات الوزير، كما يذكر عبد العزيز سليمان نوار أحد المشاركين فى وضع هذه المناهج، وبعد ذلك ترى أن الوزير يقدم له الشكر من قبل المؤلفين فى الصفحة الأولى من المنهج.

إن كل المؤرخين يتفقون على ضحالة المنتج العلمى المصرى عن الحملة ويؤكد عبد اللطيف الصباغ وخالد الناغية، على خطورة الغموض الذى يمكن أن ينشأ فى عقول الشباب حتى من بينهم أولئك الذين يتخصصون فى الدراسات التاريخية : "ويلزم بذل بعض الجهد لكى تحررهم من الأفكار التى تلقوها من قبل وبقوا معتقدين فيها منذ المرحلة المدرسية".

الحملة الفرنسية بين
المشروع الاستعمارى والتأثير الثقافى

يعتبر الكثيرون من المؤرخين أن "المشروع الاستعمارى" الذى أفرز الحملة يأخذ بعداً أكثر مما يأخذه "البعد الثقافى" فى هذا المشروع : "إن القول بأن الحملة قد جاءت بمشروع حضارى لصالح المصريين، يفتقد – حسب تقدير عبد الحميد سليمان – إلى الموضوعية، لأن فرنسا فى ظل الظرف السياسى الذى عاشته وقت الحملة، وكذلك وضعها الاجتماعى والاقتصادى عند إرسال الحملة، لم يكن ليسمح لها بأن ترسل جيشاً فى مشروع له مخاطره، من أجل انتزاع مصر من يد المماليك والعثمانيين الذين كانوا يتعاملون بسوء مع المصريين. بينما الحقيقة تتمثل فى أن بونابرت، بعد ما حققه من انتصارات ما وراء جبال الألب أى فى إيطاليا والنمسا، كان يراوده حلم إنشاء إمبراطورية ما وراء البحار، بينما كانت حكومة الإدارة تسعى إلى التخلص من هذا الجنرال شديد الطموح، أكثر مما كانت تحلم بغزو ومغامرات استعمارية.

ويرى عبد الوهاب بكر إنها حملة "عسكرية ذات طابع استعمارى بحت، ولم يكن لها أية أهداف ثقافية، إن مثل تلك الأهداف لا تتحقق بالطرق العسكرية. إن البعثة العلمية أو الثقافية يمكن أن تحقق أهدافا بالإقناع وبالكلمة وبالفعل وليس بالسيف أو المدفع. وتعرف أن بونابرت جاء مدججا بالسلاح، وكان هو عسكرى جاء ليحقق أهداف قادته السياسيين فى حكومة الإدارة".

وتضيف سيدة حسنى أنه من الصحيح أن "الحملة الفرنسية قد جلبت معها المطبعة، وهذا أمر طبيعى لأنها جاءت إلى بلد يتحدث اللغة العربية، وهى فى حاجة إلى مخاطبة سكانه بالمنشورات المحققة لأهداف الحملة، والمعروف أنهم أخذوها معهم وقت رحيلهم عن مصر. وإذا كان بونابرت قد اصطحب معه علماء عدة،

فهذا راجع إلى أن وجودهم ضمن الحملة، يعد أمراً ضرورياً لتحقيق أهداف الحملة العسكرية. وفى أفضل الأحوال، يمكن اعتبار ما قدمته الحملة بمثابة دس للسم فى العسل".

وعلى العكس يعتبر عاصم الدسوقى أن الكلمتين اللتين تمثلان محور النقاش حول الموضوع هما: الإمبريالية التى تعرف على أنها "سياسة دولة ما تسعى إلى إخضاع دولة أخرى، وهذا ما حدث بالنسبة لمصر أثناء الحملة، ولكن هناك جانب آخر من المسألة وهو أن الحملة لم تكن عسكرية فحسب، فعلى عكس كل الغزو الذى تعرضت له مصر حتى الحملة، فإن هذه الأخيرة قد جلبت معها علماء، وأن بونابرت نفسه كان متأثراً بالشرق الذى اكتشفه من خلال رحلة فولنيه.

ولقد كان بونابرت يهدف إلى إنشاء مستعمرة دائمة وليس إلى قطع الطريق بين إنجلترا والهند، ولذلك فقد سعى إلى معرفة المجتمع، وطلب من علمائه أبحاث مفصلة عن الأسعار والأوزان ووحدات القياس ونظام الأراضى بالإضافة للعادات والتقاليد، ولقد كانت هذه الدراسات تهدف إلى دعم قدرة القائد، وكان كل هذا النشاط فى المجال الثقافى ومجال المعلومات حول مصر، فى خدمة المشروع السياسى. ولا يمكن تقييم الحرب على أسس أخلاقية ، لأن كل حرب هى غير أخلاقية. ولذا فإن تقييم الحملة على أساس بعدها الثقافى، سيكون استنتاجًا خاطئًا لأنه لا يمكن الحصول على نتائج أخلاقية من حدث غير أخلاقى".

ويختتم كمال مغيث قائلاً : "إن الحملة هى لا محالة عمل استعمارى ولكن التاريخ ليس مسألة قيم وأفكار، ولكن التاريخ يتحدد بدراسة الأحداث، ولذا فيجب أن نقبل على أساس هذه الأحداث أن الحملة الفرنسية قد أحدثت بالفعل تغييرات جذرية وإن حملة بونابرت على مصر لا يمكن أن تقارن بغزو هولاكو لبغداد، وادعاء العكس قد يقود إلى استخلاصات سطحية".

بونابرت ومحمد على بجوار أبى الهول

توجد فكرة متداولة الآن تقول إن محمد على تلميذ بارع لبونابرت لأنه فهم جيداً مشروعاته التحديثية لمصر. ولتحليل وقراءة هذه الفكرة بشىء من التعمق، يقول رؤوف عباس : "إن الرابطة التى تجمع بين الاثنين قائمة أحياناً، وغير موجودة بالمرة فى بعض الأحيان". إن محمد على هو الوحيد الذى فهم المشروع السياسى للدولة العثمانية، وقد أحس ما آلت إليه الدولة العثمانية من ضعف، ومن تفوق الجيش الفرنسى، ولذا نراه يدرك الخطر الذى يمكن أن يترتب على ذلك. وبما أنه كان عثمانياً حتى النخاع، فإنه سعى لمحاولة معالجة ضعف هذه الدولة. وأدرك أن القوة الحقيقية تكمن فى الشعب الذى ظهر وعيه ودوره قبل الحملة وأثنائها. وفى الوقت الذى ظن فيه العثمانيون أن قوة القادة المحليين قوة عابرة وأن كل شىء سوف يرجع إلى ما كان عليه الحال قبل الحملة، وفى نفس الوقت كانوا يطالبون بدفع الضرائب عن السنوات الثلاث التى شهدت وجود الفرنسيين فى مصر- كان محمد على فى الوقت ذاته قد استطاع أن يستوعب الدرس من التجربة الفرنسية، وحول هذه النقاط يمكننا أن نجد علاقة بين الحملة الفرنسية ومحمد على، إلا أنه بقى على نحو دائم يبدى الاحترام للشرعية العثمانية حتى أثناء حروبه فى بلاد الشام، وهذا ما يمكن استنتاجه من المباحثات التى جرت مع القناصل، وإذا كان محمد على أراد أن يتنحى السلطان محمود، فقد أراد أن يتولى ابن هذا السلطان مكان أبيه، ورغم أن الولد كان صغيراً، ولكن قد يسمح له هذا بأن يكون وصياً على عرش السلطنة العثمانية.

أما باقى السياسات التى اتبعها محمد على فلا علاقة بينها وبين الحملة الفرنسية. ولقد كان الشغل الشاغل له ، وهو أن يستجلب تكنولوجيا غربية تسمح له أن يكون قوة عسكرية، وكل ما خلا ذلك كان فى سبيل خدمة هذا الهدف، ويدخل فى سبيل هذا الهدف أيضاً ما قام به من أجل مركزية مصادر الدولة وتحول بنية الإنتاج.

إنه كان يريد أن يحقق مشروعه بإنشاء قوة عسكرية دون أن يكون تابعا لأية قوة أخرى. وإن ما يجهله الكثيرون ، هو أن محمد على استعان فى البداية بالإيطاليين من أجل خلق تعليم حديث ومن أجل الترجمة. ولم يستعن بالفرنسيين إلا فى سنة 1825 أى بعد سقوط إمبراطوية نابليون بونابرت وبالتالى لم يكن ثمة ما يخشاه من فرنسا، وأضف إلى ذلك أنه لم يكن يتعامل مع إيطاليا أو فرنسا على أنهما دولتين بل كان يتعامل مع أفراد أو وسطاء أو مندوبين فى مرسيليا، وكان التعامل يتم بشكل فردى وحسب شروطه هو. ولذا فإن مشروع محمد على لايدين إلا بالقليل جداً للحملة".

ويعتبر محمد الحناوى أن "التقريب بين الاثنين لا يتم إلا على أنهما عسكريان فى الأساس. ورغم أن المقارنة بين الاثنين أمر شيق، إلا أنه يجب أن تتم على أساس وجوه الاختلاف بين الاثنين، وليس على وجوه التشابه بينهما، وبالرغم من تقارب عمريهما، إلا أن الرجلين يختلفان فيما يتعلق بتدخلهم فى مصر، فمحمد على كان ضابطاً فى الجيش العثمانى، وكان ألبانياً مسلماً، وكان فرداً من أفراد الجيش الذى قاده مصطفى باشا إلى مصر لمقاتلة الفرنسيين. أما بونابرت فقد كان قائداً للجيش الفرنسى الغازى لمصر، جيش ذى مشروع استعمارى. وقد استند الأول على زعماء شعبيين وكان يطلب منهم النصح وقد نال احترامهم، أما الثانى فكان يتحدى الشعب، ولم يتواصل مع المصريين إلا من خلال وسطاء وهم المشايخ الذين لم يخلصوا له. وعندما توطدت سلطة محمد على استطاع أن يقضى على كل المعارضين له سواء من الشعب أو من المماليك وأخضع كل البلاد تحت سلطانه، وكان بونابرت مختلفاً فى كل شىء عن المصريين؛ أصله ودينه ومعتقداته وعقليته، ولذا فإنه لم يستطع أن يدفع بالبلد نحو التهدئة، بل كانت فى تمرد مستمر . إن المشروع المصرى لبونابرت لم يهدف إلا إلى تحقيق الأهداف والمصالح والحلم التوسعى لدولة أوربية، فى حين كان مشروع محمد على يتسم بطابع شخصى، إذ كان يسعى لأن يجعل من

مصر بلداً تكون فيه سلالته ملوكاً لها. وإذا كان هذا وذاك قد عملا على وضع ثروات مصر فى خدمة مشروعيهما، فلم يكن لهم نفس النتائج إذ نجح محمد على فيما فشل فيه بونابرت. وأخيراً فإن المقاومة الشعبية كان لها دور حاسم فى زعزعة وجود بونابرت مصر، وتأكيد سلطة محمد على".

التوظيف السياسى للتاريخ :

إن الجدل الحاد الذى تشهده الصفحات الأولى للصحافة المصرية بمناسبة المئوية الثانية للحملة يفرض علينا أن نتحدث عن المحور الأخير حول العلاقة التى يمكن أن تكون بين إحياء ذكرى الحدث التاريخى والسياسة التى يتبناها سواء المؤيدين لإحياء الذكرى أو المعارضين لها تجاه الرأى العام. ومن المفارقات أن نجد أن وجهتى النظر الرسميتين المصرية والفرنسية قد غابتا وسط هذا الجدل الإعلامى. وعندما أراد المسئولون المصريون التعليق على الاتهامات الموجهة ضدهم لأنهم أرادوا إحياء الذكرى كانوا يكتفون بما يشبه الدفاع عن الذات أكثر مما يبدون من وجهات نظر منطقية للدوافع التى جعلتهم يفكرون فى إحياء الذكرى.

وكانت أول وجهة نظر معارضة لهذه الاحتفالية ترى أن ثمة علاقة بين الحملة الفرنسية وفلسفة التنوير. وكانت هناك وجهات نظر جيدة ترى أن تبرير التوسع الأوربى فى آسيا وإفريقيا الذى نراه فى الخطاب الإنسانى حول "المهمة الحضارية" لأوربا، كان لها ما يمكن أن يبررها فى وقتها، ولكنها لم تعد صالحة اليوم فى كتابة التاريخ إلا فى أضيق الحدود. أما وجهة نظر المؤيدين لإحياء الذكرى هو أنهم كانوا ينكرون أن "السنة الفرنسية – المصرية" كانت تهدف إلى إحياء ذكرى الحملة. وقد تضمنت هذه السنة برنامجاً لترجمة بعض النصوص الأدبية ضمن مشروع أطلق عليه اسم : "آفاق مشتركة". وكانت تشرح هدى وصفى مدير مسرح الهناجر أن "الهدف من مشروع الترجمة هذا أن نعرف القارئ العربى بآراء فرنسيين غير معروفين أو

بوثائق لا يعرفها هذا القارئ عن مشروع تحديث مصر فى عهد محمد على وذلك فى جانب منه، وفى جانب آخر يسعى المشروع إلى ترجمة نصوص من العربية إلى الفرنسية أو العكس. وقد اقترحنا أن تقدم مصر فى هذا المشروع فى كل صورها الحضارية وكل مراحلها التاريخية فرعونية كانت أما هيلينية، وكل الفترات غير المعروفة بشكل كاف لدى الأوربيين"[18].

وقد انتقل الصراع من مستوى الجدل الفكرى إلى مستوى سياسى. فيقول مثلاً المعارضين لهذه السنة المصرية – الفرنسية : "إن هذه السنة أظهرت وجود لوبى مشكل من مجموعة صغيرة من الفرانكفونيين أو المتفرنسين ممن ليس لديهم ولاء مصرى رغم أنهم يسيطرون على السياسة الثقافية لمصر" على نحو ما نقرأ لصلاح عنانى فى "أخبار الأدب". وقد أجاب المعارضون لهم : "ولما لا؟ فإننا قادرون أن ندافع عن مصالحنا، وأن المعارضين لهذه السنة هم مجموعة محدودة معارضة للتبادل الثقافى مع الغرب، أو إنهم مجموعة مؤيدة للثقافة الأمريكية، ولذا فهى منزعجة من تقوية العلاقات الفرنسية المصرية. وقد اعتبر كل فريق أن مصلحة مصر فى خطر. وهل فى ظل هذه الأجواء يمكن أن نسعى إلى التعرف على حقيقة المسألة ؟ ولكن مع مَنْ؟ وكيف وخاصة أن الطرفين على تناقض تام..؟. وفى هذا المناخ يقول فهمى هويدى : "إلى من يمكن أن نشتكى فى ظل هذه الفضيحة التى يسعى البعض لتوريطنا فيها" فى إشارة إلى تواطؤ السلطة السياسية فى هذه الاحتفالية.

ولقد كان بإمكان المؤرخين أن يقوموا بدور الوساطة وأن يساعدوا الرأى العام للخروج بوجهة نظر بدلاً من الرأى القائل : "مَنْ ليس معى هو بالضرورة ضدى" ولكن مع بعض الاستثناءات. لقد كان غياب المؤرخين عن ساحة المناقشة والجدال ملحوظاً تماماً. وقد سألنا بعض من أولئك الذين سعوا لمناقشة الأمر بعيداً عن وجهتى النظر المتعارضتين، فرد قائلا: "إن المسألة فى أساسها

مسألة سياسية": وإن التظاهرات الثقافية المصاحبة للمئوية الثانية للحملة كانت من قبل فرنسا أداة لخدمة السياسة الفرنسية فى العالم العربى، على نحو ما تذهب "مهجة جودة"، وتضيف: "إن فرنسا تحاول أن تبرر الحملة تحت دعوى قدم العلاقة بين مصر وفرنسا". ويضيف "عماد هلال" أن الخريطة الثقافية توظف من أجل خدمة مصالح أخرى، وعلاوة على ذلك، فإن هذا الحدث أظهر أن ثمة تصفية حسابات بين المؤسسات الرسمية وأفراد لا ينتمون لهذه المؤسسات". ويعتبر "محمد عفيفى" أن "الدولة أصرت على تقوية علاقاتها مع فرنسا – ولنقل بصراحة – أرادت أن تعمل هذا نكاية فى الولايات المتحدة الأمريكية. ويتناسب هذا مع تطلعات بعض الفرنسيين وبعض المصريين، أما الأمور الأخرى فما هى إلا تصفية حسابات". وحسبما يراه عبد الوهاب بكر، فإن الصدام الذى حدث بين السياسى والفكرى تتحمل مسئوليته الحكومة المصرية التى أعماها حسن العلاقات المصرية الفرنسية فجعلها تقبل الاقتراح الفرنسى دون أن تأخذ فى الاعتبار طبيعة الحدث المراد إحياء ذكراه، وقد أدى هذا إلى ما نراه من شقاق شديد بين الرأى المستنير ورجال السياسة.

ويرجع رءوف عباس كل هذا الأمر إلى "فقر الحياة السياسية والثقافية فى مصر مما جعل الناس بلا موضوع يتداولوه فى مناقشاتهم". هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أراد آخرون أن "يهاجموا وزير الثقافة فاروق حسنى، ولم يجدوا أفضل من هذه القضية للهجوم عليه. وكل هذا مجرد دوافع شخصية بسيطة، ولكنها دمغت بالبعض لأن يأخذ موقفا ومع أى المعسكرين ينحاز.. إلى من ينادون بإحياء الذكرى أم المعارضين لها". وكان من الصعب على المؤرخين أن يجدوا مكانهم فى ظل هذا الجدال. وإذا كانت "لطيفة سالم" تعتبر أن انسحاب المؤرخين راجع إلى سلبيتهم، فإن الأغلبية ترى أن شدة المعركة الإعلامية قد جعلتهم لا يتشجعون للمشاركة، كما يرى محمود صالح منسى وحماده إسماعيل،

ويذكرنا محمد عفيفى أنه "ليس من المعتاد أن المؤرخ يصبح صحفياً ويحتل مكاناً مهماً فى وسائل الإعلام".

ونرى أن هناك فى المقابل ملاحظتين قد نالتا إجماعاً منهما وهما أن توقيت اختيار احتفالية : "آفاق مشتركة" كان على وجه الخصوص توقيت غير موفق؛ إذ كان من الأولى اختيار تاريخ اكتشاف حجر رشيد أو ظهور الطبعة الأولى من كتاب "وصف مصر" ، أو تاريخ أول بعثة علمية إلى فرنسا، بدلاً من اختيار تاريخ نزول بونابرت على شواطئ الإسكندرية. وكان بالإمكان التأكيد على العمق التاريخى للتبادل الثقافى بين مصر وفرنسا دون أن نجرح مشاعر أى من الفريقين. وتتفق – أخيراً – كل الآراء على الطريقة التى يمكن أن نخرج منها من سوء الفهم هذا من خلال تكوين فريق من الباحثين يُكلف بعمل دراسات جادة عن الحملة على مصر، فريق يعمل برعاية من الجامعات المصرية والفرنسية وتقديم كافة التسهيلات للباحثين من الجانبين.

هوامش

1- جمال الدين الشيال : "التاريخ والمؤرخون فى القرن التاسع عشر" القاهرة، النهضة المصرية، ص 58.

2- أنور عبد الملك : "نهضة مصر"، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1983، ص 227.

3- الشيال ، مرجع سبق ذكره، ص 200-201.

4- يشكل مجمل هذا الأرشيف الروسى، الذى نشره رينيه كاتوى فى ثلاثة أجزاء، ويتكون الجزء الثانى من مجلدين، بينما نشر المحفوظات الفرنسية جورج دوان وادوار دريو وفرانسوا شارل – رو، ونشر الأرشيف اليونانى أ.جـ. بوليتيس، ونشر الأرشيف الإيطالى أسد رستم، أما عن مجمل الفرمانات السلطانية (1597-1904) فقد نشرها وترجمها من التركية للفرنسية هايم نعوم أفندى.

5- الشيال، ص 202.

6- مجلة "الهلال" عددى مايو ويونيه 1941. والنسخة الوحيدة من رسالة محمد محمد توفيق، موجودة فى مكتبة جامعة القاهرة ويبدو أنها اختفت. ومن بين الذين رجعوا إلى هذه الرسالة ستانفورد شو فى كتابه : "الإدارة وتطور التنظيم المالي لمصر العثمانية : 1517-1798"، المنشور فى جامعة برنستون سنة 1962.

7- حسن عثمان برنستون : "المجمل فى التاريخ المصرى فى العصر العثمانى" ضمن كتاب: "المجمل فى تاريخ مصر"، القاهرة، مطبعة عيسى الحلبى، 1942.

8- حسن عثمان : "منهج البحث التاريخى"، القاهرة، دار المعارف، 1965، ص 62.

9- محمد شفيق غربال فى تحقيقه لمخطوطة حسين أفندى الرزنامجى : "ترتيب الديار المصرية: مصر عند مفترق الطرق"، حوليات كلية الآداب ، جامعة القاهرة، الجزء الثانى ، 1936.

10- "المجلة المصرية التاريخية" القاهرة، أكتوبر، 1942.

11- محمد شفيق غربال : "الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع مصر فى سنة 1801"، القاهرة، دار المعارف، 1932.

12- أنور عبد الملك، مرجع سبق ذكره، ص 229.

13- نفسه، ص 239.

14- أبرز الدراسات التى تعبر عن هذا الاتجاه الدراسة التى قام بها ستانفورد شو، مرجع سبق ذكره.

15- لويس عوض : "المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث"، القاهرة، معهد الدراسات العربية، 1962، مجلدان، وانظر كذلك "تاريخ الفكر المصرى الحديث"، القاهرة، دار الهلال، 1969.

16- الشيال، مرجع سبق ذكره، الصفحات من 195-197.

17- بترجران : "جذور الرأسمالية الإسلامية فى مصر"، ترجمة محروس سليمان، مراجعة رءوف عباس ، القاهرة، دار الفكر، 1993.

18- أخبار الأدب، عدد 146.

* * *

الحملة الفرنسية: الوعى بالتاريخ من خلال الآخر

أ. محمد إسماعيل زاهر

تربط الكثير من الأعمال الفكرية والتاريخية ما بين الحملة الفرنسية على مصر فى عام 1798 وبداية تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وتتكرر فى هذا السياق نظرية مؤداها أن الحملة الفرنسية أخرجت مصر من قرون الركود العثمانى والمملوكى إلى آفاق التحديث حتى أصبحت هذه النظرية من المسلمات التاريخية والفكرية لدى العديد من المثقفين [1].

وشهدت العقود الأخيرة من القرن العشرين تبنى البعض لنظرية مضادة تعتبر الحملة الفرنسية إجهاضا لمحاولات تحديث ذاتية شهدتها مصر فى نهايات القرن الثامن عشر، وانتشرت هذه النظرية بعد أطروحة المفكر الأمريكى الماركسى بيتر جران حول هذا الموضوع والتى ظهرت فى كتاب باللغة الإنجليزية للمرة الأولى فى عام 1979 تحت عنوان: "الجذور الإسلامية للرأسمالية، مصر 1760-1840" [2].

وفى أثناء عزم وزارة الثقافة الاحتفال بمرور مائتى عام على العلاقات المصرية الفرنسية فى عام 1998 رأى البعض أن هذا الاحتفال لا يعدو أن يكون احتفالا بحملة عسكرية غازية، بينما ربط آخرون بين الاحتفال بالحملة والعدوان الأمريكى المتكرر على الأمة العربية ممثلة فى العراق، ورحب فريق ثالث بالاحتفال الثقافى مع التأكيد على رفض الغزو العسكرى بكافة أشكاله وصوره، بينما ذهب فريق رابع إلى

قبول الحملة بشقيها العسكرى والحضارى، ورأى فريق خامس أن الحملة الفرنسية هى آخر أساطير التاريخ الفرنسى وراح يعمل جاهدا على إقصاء الحملة الفرنسية بوصفها حدثًا من داخل التاريخ الفرنسى ذاته.

ولا يعبر هذا الخلاف حول الحملة الفرنسية عن مجرد احتفال أرادت أن تقيمه وزارة الثقافة، ولا يقتصر فقط على مجرد تباين فى الرؤى التاريخية بين الأكاديميين والمثقفين كما يرى البعض (3).

وفى محاولات العديد من المثقفين والباحثين للإجابة على سؤال الاختلاف حول الحملة الفرنسية وعلاقتها بتاريخ مصر الحديث والمعاصر تعددت الاجتهادات والرؤى، فذهب طارق البشرى إلى أن الاختلاف حول بدايات تاريخ مصر الحديث يخضع لتوجهات المثقف الفكرية والأيديولوجية سواء أكانت إسلامية أم علمانية أم ليبرالية (4).

ويرى السيد يسن أن هذا الخلاف نتج عن صراع محتدم بين القوى التقليدية والقوى التحديثية على مستوى العالم العربى (5)، وهو يقصد بالطبع الصراع بين التيارين الإسلامى والعلمانى حول حدود الغربى بوصفه نموذجاً معرفياً وحضارياً.

والمتابع للكتابات المختلفة حول الحملة الفرنسية يلاحظ أن الصراع الفكرى حولها لم يقتصر على الانشطار الإسلامى/ العلمانى، بل خضعت الحملة -كما سيأتى لاحقا- لرؤى ماركسية واستشراقية، بالإضافة إلى الرؤى الإسلامية والعلمانية العامة.

وامتدت هذه الرؤى الخلافية المتعددة زمنيا لتشمل الفترة السابقة على الحملة واللاحقة لها، فنجد الصراع على الفترة السابقة على الحملة من خلال تحليل ظروف المجتمع المصرى ومدى استطاعته من خلال عوامل ذاتية أن يتقدم، أو البحث وراء الجذور التاريخية التى دفعت فرنسا للتفكير فى غزو مصر.. إلخ.

وتم تجاوز الحملة إلى محمد على وهل كان يهدف إلى النهوض بمصر أم يسعى لتكوين إمبراطورية عربية؟ أو يرغب فى الحلول محل السلطان العثمانى؟ وتتم المقارنة كثيرا بين النهضة فى عهده والنهضة اليابانية فى نفس المرحلة [6]. ويعتبره البعض بغض النظر عن دوافعه مؤسسا لمصر الحديثة [7]، بينما يرى فيه آخرون "تلميذا للفرنسيس منفذا لسياسة الفرنجة" [8] ومع أخذ كل هذه الرؤى وطبيعة الخلاف بينها ووضع مقاصدها فى الاعتبار فإن الباحث لا يهتم هنا بالتأريخ للحملة الفرنسية بقدر ما يهدف إلى قراءة بعض الأعمال التى رصدت الحملة من زوايا متعددة، وذلك انطلاقا من فرضية مبدئية يضعها الباحث نصب عينيه وهو يقرأ هذه الأعمال. وتتلخص هذه الفرضية فى أن الحملة الفرنسية بوصفها حدثاً تاريخياً وحضارياً لا يعبر عن موقفنا الحضارى من الغرب وكيفية التعامل مع الآخر. ولا يمكن تبسيط هذا الحدث ووضعه فى سياق تاريخى يقتصر على النزاع حول بداية تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وإنما يفترض الباحث أن الأعمال المتابعة للحملة الفرنسية والتى سيرد ذكرها خلال المتن لاحقا قد أشارت إلى العديد من الإشكاليات الفكرية المعقدة التى أدت إلى تحول هذه الفترة المبحوثة إلى "أرابيسك" تاريخى وفكرى، مما أفرز فى النهاية حالة من التأزم العقلى العنيف تجاه الآخر "الغرب"، وحالة مماثلة من التأزم العقلى بين المثقفين بعضهم البعض "منتجو هذه النصوص".

ويبدو للمتابع للواقع الثقافى العربى بعد هزيمة 1967 أن الساحة الثقافية العربية قد شهدت تغيرات بنيوية جوهرية تركزت فى العديد من الظواهر الفكرية التى قام العديد من الباحثين برصدها، ويمكن تلخيصها فى الظواهر التالية:

1-الاهتمام بتاريخ مصر الحديث والمعاصر، فيرصد لويس عوض بداية الاتجاه إلى التاريخ القومى الحديث بكثافة بعد عام 1967 على النحو التالى "فقد لاحظت أن عديدين من علمائنا وباحثينا قد اتجهوا منذ 1967 إلى نبش تاريخ مصر السابق على ثورة 23 يوليو بعد أن كان هناك ما يشبه الانصراف عن دراسة أى شىء حدث قبل

1952، بل بعد أن كان ما يشبه الإدانة الضمنية والعلنية أحيانا لأى شىء حدث قبل 1952" [9]. وقد بدأ نفس الباحث فى كتابة تاريخ الفكر المصرى الحديث بعد هزيمة 5 يونيو 1967 ليعرف (ماذا جرى؟ ولماذا جرى؟ وكيف النجاة؟) [10].

2-العودة إلى الماضى: وهى ظاهرة لم تقتصر على التيار الإسلامى- وهى نظرية تعتبر من المسلمات لدى العديد من الباحثين- فالتيار الإسلامى لم ينتج مشاريع فكرية شبه متكاملة أو مترابطة عن التراث كما فعل حسين مروة فى "النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية" أو أدونيس فى "الثابت والمتحول". ثم فى فترات لاحقة وإرهاصًا لهزيمة يونيو 1967 ظهرت أعمال الجابرى وحسن حنفى.. إلخ، والقائمة تطول على مستوى العالم العربى، وهى أعمال تفوق من حيث الكم أو الكيف أعمال الإسلاميين المستقلين أو المثقفين أمثال البشرى والعوا ومحمد عمارة وأحمد كمال أبو المجد وفهمى هويدى.... إلخ، مما يدل على أن ظاهرة النكوص من الحاضر إلى الماضى- بغض النظر عن الأسباب- قد أغرقت النخبة المثقفة فى عالمنا العربى.

3-الميل إلى التدين: سواء من جانب الأنظمة الحاكمة حيث عمت هذه الظاهرة الأنظمة العربية بعد الهزيمة (بل إننا يمكن ألا نستثنى نظاما عربيا واحداً لم يعتمد على المقولات الدينية) [11] أو طرح تفسيرات دينية محتواها أن الهزيمة فى الأصل كانت لابتعاد المجتمع والنظام السياسى عن الدين، وأن حل المشاكل الاجتماعية والسياسية يكمن فى العودة إلى الدين [12]، واستخدام بعض الحوادث التى تبدو خارقة وترويجها إعلاميا مثل حادثة ظهور العذراء بكنيسة الزيتون عام 1968 لامتصاص الغضب الشعبى [13] وهى الظروف التى مهدت الطريق بعد ذلك إلى مصر السبعينات وتحالف النظام مع جماعات الإسلام السياسى، بالإضافة إلى أسباب أخرى لا مجال هنا لذكرها.

4-ظاهرة جلد الذات: امتلأت الحقبة التالية لهزيمة 1967 بأعمال تقوم فى الأساس على النقد الذاتى، ويرى محمد عابد الجابرى أن الإنتاج الثقافى العربى فى الفترة التالية لهزيمة 1967 قد يبدو بأكمله جلدا عنيفا للذات العربية الجريحة[14].

ومع تحالف النظام السياسى فى مصر مع جماعات الإسلام السياسى فى السبعينات وانتشار أحداث العنف ومحاولة أسلمة المجتمع بالقوة فى الثمانينات والتسعينات بدا للمتابع أن مصر تعيش حالة من الانشطار الإسلامى- العلمانى وأن التراثيين الجدد لا يبحثون فى التراث عن حلول لمشاكلنا الحضارية والفكرية بقدر ما يقومون بوضع مصدات دفاع تراثية أمام الإسلاميين، فعندما كتب على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) فى عام 1925 كان ذلك نتيجة لإلغاء الخلافة فى تركيا فى عام 1924، وردا على محاولات الكثير تنصيب الملك فؤاد خليفة للمسلمين[15]*، بينما تبدو أعمال سعيد العشماوى (كالإسلام السياسى والخلافة الإسلامية.. إلخ) ردا على جماعات الإسلام السياسى. ويمكننا من نفس المنطلق أن نخضع (تحرير المرأة) لقاسم أمين وكل الأعمال الفكرية التى شهدتها مصر فى الفترة الأخيرة حول الحجاب لهذا المنطق، وهو منطق يتسم بالتأزم العقلى- السياسى- الثقافى؛ لأن هناك فارقاً كبيراً بين وقوف المثقف أمام السلطة (حالة على عبد الرازق)، ووقوفه لوجود قضية جوهرية وحيوية موجودة- قاسم أمين- ودخول تيارات ثقافية وسياسية فى تقاتل حضارى وكل منها ينفى الآخر على ساحة التراث. ولم يقتصر الأمر على الخلافة أو الحجاب بل تطور الصراع إلى مسألة الهوية* وأثيرت مرات عديدة مسألة عروبة مصر*، وبدا للمتابع أن مصر تعيش حالة من الانشطار الثقافى ما بين تيارات ثقافية وفكرية متعددة لم تكن الحقبة الناصرية إلا فترة انقطاع مؤقت لها [16]، ولم يكن هذا الانقطاع نتيجة لإيمان هذه التيارات بأفكار المرحلة الناصرية أو نتيجة لتطورات ذاتية وفكرية شهدتها هذه التيارات بقدر ما كان نتيجة لممارسات سلطوية قامت بها السلطة الناصرية تجاه هذه التيارات- مثل اعتقال الإخوان المسلمين والشيوعيين، ثم احتواء السلطة للاتجاهات اليسارية المصرية بدءا من عام 1964 [17] ومع عدم قدرة السلطة الناصرية على الحسم الفكرى التام تجاه أى من هذه التيارات لم تستطع أيضا أن تقوم بحسم اجتماعى أو اقتصادى تام تجاه أفكارها الاشتراكية.*

ولذا عندما انهار المشروع القومى مع هزيمة 1967. عادت كل هذه التيارات

للصراع الفكرى والسياسى، وإن كان من ظروف مغايرة لما قبل 1952، ومما زاد الصراع ضراوة وجود إسرائيل بوصفها كياناً معقداً وغريباً بالنسبة للمثقف المصرى، وهو ما يرصده أحمد بهاء الدين، فإسرائيل بكيانها الاستعمارى الغريب (والذى يحمل ظلالاً شتى تبدأ من الأسطورة الدينية إلى استخدام أعقد وسائل العلم الحديث أدت إلى ردود فعل متضاربة فى العقل العربى العام، فالذين رأوا فى إسرائيل جانبها القائم على الأسطورة الدينية وجدوا أن الدفاع ضدها يكون فى الرجوع إلى الماضى، واعتبروا أن تسلل الأفكار الجديدة إلى المجتمع كان سبب الهزائم، والذين رأوا فى إسرائيل نظامها القائم على الحريات الليبرالية وتعدد الأحزاب قالوا إن الحل فى الأخذ بالليبرالية الأوروبية، والذين رأوا الأساس فى الظاهرة الإسرائيلية هو ارتباطها العضوى بالاستعمار العالمى قرروا أن الحل هو الثورة الاجتماعية الشاملة بل والثورة العالمية) [18] وهو ما فتح الساحة للصراع الفكرى بين التيارات المختلفة. وامتد هذا الصراع إلى موضوع تاريخ مصر الحديث والمعاصر، وهل كان مجيء الحملة إلى مصر سببا للنهوض أم انتكاسة لجذور نهضة كانت قائمة بالفعل؟

وانطلاقا من ظاهرة الاهتمام بتاريخ مصر الحديث والمعاصر والعودة إلى المراحل التأسيسية فيه لمعرفة لماذا انتكسنا أمام إسرائيل قام لويس عوض بنشر الجزء الأول من تاريخ الفكر المصرى الحديث فى عام 1969، ثم رد عليه من وجهة نظر مغايرة محمد جلال كشك فى كتابه و(دخلت الخيل الأزهر) فى عام 1971، ثم توالت الأعمال الخاصة بالحملة الفرنسية بعد ذلك تحمل وجهات النظر الثلاثة المعروفة، إما مؤيدة أو معارضة أو توفيقية.

ويقوم الجزء التالى من هذا البحث بعرض وجهات النظر المختلفة تجاه الحملة الفرنسية من خلال المحاور التالية:

المحور الأول: الحملة الفرنسية من خلال التاريخ للنهضة العربية الحديثة

تبدأ الأعمال الفكرية العديدة التى تؤرخ للنظام الثقافى العربى الحديث عادة

بالحملة الفرنسية. وهذه الأعمال لا تؤرخ لبداية العصر الحديث فى مصر والعالم العربى بقدر ما تبحث فى التاريخ النهضوى وبداية تعرف العرب على الأفكار الغربية الحديثة.

حيث يبدأ حليم بركات المرحلة التأسيسية للنهضة العربية الحديثة على النحو التالى (يعيد الباحثون بدء النهضة عادة إلى سنة 1798 عندما غزا نابليون مصر؛ باعتبار أن هذا التاريخ يمثل المجابهة المباشرة بين الغرب والشرق، أو بالأحرى بين الخلافة العثمانية وأوروبا الصناعية فى المشرق العربى، وبين مصر وإنكلترا، وبين المغرب العربى وفرنسا، وفى إطار هذه المواجهات عرف عصر النهضة الاحتكاك بالغرب وانتشار التعليم ونشوء الجمعيات الثقافية والحركات السياسية وبدأت تتوالى الأسئلة من مواقع مختلفة: ما هى أسباب ضعف الشرق حتى يتمكن الغرب من اجتياحه والتغلب عليه؟ وما الداء وما الدواء؟ وكيف يكون التعامل مع الغرب وما طبيعته؟ هل نقبل على الثقافة الغربية أم نرفضها كليا أو جزئيا؟ كيف ننهض من كبوتنا ونصلح من حياتنا؟) (19).

ويطلق محمد كامل ضاهر على ما أحدثته الحملة الفرنسية فى الوعى العربى تعبير "صدمة الحداثة" (20) وهذه الصدمة أفاقت الإنسان العربى من سباته الطويل (منذ قرنين من الزمان تقريبا بدأ الإنسان العربى يستيقظ من سبات عميق إثر اصطدامه بحضارة عالم جديدة لا تمت إلى مفاهيمه عن الكون والحياة بشىء) (21).

وبعد أن يقارن أدونيس بين النهايات المختلفة للفترة السابقة على ما سمى بالنهضة العربية الحديثة والتى أطلق عليها (الفترة المظلمة) (22) والتى يحصرها فى الفترة من سقوط بغداد على يد هولاكو سنة 1258 حتى سنة 1798 أو فى أواخر القرن التاسع عشر أو فى إعادة الدستور العثمانى فى عام 1908 أو بانتهاء الحرب العالمية الأولى 1918(23) ثم يختار أدونيس عام 1798 لنهاية الفترة المظلمة وبداية عصر النهضة حيث (لم يؤثر الحضور الفرنسى فى طراز التفكير وحسب وإنما أثر كذلك فى طراز الحياة) (24).

ويبرز ماهر الشريف دور الحملة الفرنسية فى إدراك العرب لمدى تخلفهم فقد (ظهرت إشكالية النهضة العربية فى مطلع القرن التاسع عشر بعد أن بدأ العرب والمسلمون يتملكون الوعى بتخلفهم، ويدركون حاجتهم إلى النهوض بعد عصور طويلة من الانحطاط. ولقد لعب الاحتكاك المباشر بالغرب دورا رئيسيا فى ظهور هذه الإشكالية) [25]. ويعرف نفس الباحث خطاب عصر النهضة (بأنه النص الذى أنتجه المثقف العربى الحديث الذى راح يظهر منذ الربع الثانى من القرن التاسع عشر إثر صدمة الاحتكاك بالغرب وإدراك طبيعة الفرق بين التأخر والتقدم) [26]. وعلى الرغم من عودة ألبرت حورانى إلى بدايات القرن الثامن عشر كأول محاولة تجرى فى الدولة العثمانية للإصلاح على أساس عسكرى غربى [27]. ثم يعدد الباحث محاولات الإصلاح العثمانية طوال القرن الثامن عشر إلا أن تأريخه للفكر العربى يبدأ من عام 1798 [28].

ويؤكد محمد عابد الجابرى على الأبعاد المختلفة للحملة الفرنسية على مصر من خلال رؤية كلية لأوضاع مصر والحداثة الأوروبية آنذاك (لقد نقلت حملة نابليون معها إلى مصر الدعائم الثلاثة التى قامت عليها الحداثة الأوروبية: القوة والمنافسة والمعرفة. وإذا شئنا التعبير عن هذه العناصر بما يعكس علاقتها مع المشروع النهضوى العربى قلنا إنها: التوسع الاستعمارى، والتنافس الأوروبى الإنجليزى-الفرنسى، والفكر التحديثى) [29] .

تقوم هذه الأعمال إذن على التأريخ للنهضة العربية الحديثة وتبدأ هذه الأعمال بالحملة الفرنسية كبداية لهذه النهضة ولا تتطرق إلى أحداث الحملة الفرنسية أو ظروف المجتمع المصرى قبل وأثناء الحملة، بل هى تضع عام دخول نابليون إلى مصر "1798" كعلامة فارقة على بدء النهضة الحديثة وكتاريخ حاسم وفاصل بين عالمين، الأول يمثل فترات الظلام والآخر يعبر عن التحديث والنهوض، وذلك من خلال عملية جدلية تشمل التحديثات التى أدخلها الفرنسيون إلى مصر، ووعى المصريين بمدى تخلفهم إزاء الحضارة الوافدة. وعلى الرغم من تطرق بعض هذه

الأعمال إلى محاولات الإصلاح التى تمت داخل القرن الثامن عشر ورصدها للعلاقة مع الغرب قبل الحملة من خلال المدارس أو الإرساليات أو المطابع.. إلخ [30]، فإنها تصر على الصدمة العسكرية والحضارية التى أحدثتها حملة نابليون كبداية للنهضة الحديثة.

والملاحظة الأساسية على هذه الأعمال وغيرها أنها لم تكتف بحملة نابليون كعام لميلاد النهضة العربية الحديثة، ولكنها حددت نهايات هذه النهضة بأعوام تبدو فى أغلبها مرتبطة بأحداث غربية ذات تأثيرات مهمة فى العالم العربى، فعصر النهضة ينتهى عند حليم بركات فى عام 1914 [31] وعند ألبرت حورانى فى عام 1939[32] أما محمد جابر الأنصارى فيختار عـام 1930 لنهاية عصر النهضة العربى [33] ويحـدد عـلى المحافظة عام 1914 لنفس النهاية [34].

ويرتبط عام 1914 ببداية الحرب العالمية الأولى، وعام 1939 ببداية الحرب العالمية الثانية، وعام 1930 بالضائقة الاقتصادية التى شهدها الغرب فى الثلاثينات. وعلى الرغم من انعكاس هذه الأحداث على العالم العربى بتأثيرات مختلفة ومهمة فى المجالات الثقافية والسياسية المتعددة فإنها تبقى أحداثا ذات دلالتين:

الأولى: أنها أحداث صنعها الآخر الحضارى فى الأساس، ووضعها بوصفها علامات فارقة فى التاريخ الفكرى العربى الحديث يمثل تبعية ثقافية شبه مطلقة للغرب.

الثانية: أن هذه التواريخ تمثل هزائم حضارية وسياسية وعسكرية أمام الآخر، والتأكيد عليها وتكرارها ووضعها كمحطات أساسية وفارقة فى النظام الثقافى العربى- إن جاز هذا التعبير- يضخم من ظاهرة جلد الذات.

ومن داخل هذه الأعمال- ما أورده الباحث عينة ممثلة ولكنه يعتقد أنها تنطبق على الغالبية العظمى من الأعمال المؤرخة للنظام الثقافى العربى- يتم القفز سريعا على أحداث قد تبدو مرتبطة أكثر بنضال المجتمع المصرى والعربى فيتم التأكيد على عام 1914 وتجاهل، أو شبـه تجاهـل، عام 1919 فـى التاريـخ النهضـوى وليـس

السياسى، وفى الإطار المتقدم زمنيا يتم الإغراق فى هزيمة 1967 وتجاهل حرب أكتوبر 1973، وحتى وإن كانت الانتصارات التى حققتها الذات محدودة ولم يتم تحقيق الاستفادة الكاملة منها فإن الإجماع على الهزائم الحضارية والسياسية بصورة متكررة يخلق دائرة شبه مغلقة لا فكاك للذات العربية منها.

المحور الثانى: الحملة الفرنسية من منظور الوعى التاريخى

يقوم هذا المحور على عرض وجهتى النظر الخاصتين بالموقف من الحملة الفرنسية من خلال استعراض الخلاف على أحداث وشخصيات مهمة من داخل هذا الحدث التاريخى، وتعتبر وجهة النظر الأولى الحملة الفرنسية بداية تاريخ مصر الحديث، بينما ترى الأخرى أن الحملة أجهضت محاولات تحديث ذاتية شهدتها مصر فى أواخر القرن الثامن عشر. وهناك وجهة نظر ثالثة حاولت أن تتوسط الرؤيتين السابقتين فتقبل الشق الحضارى من الحملة وترفض وجهها العسكرى.

أولا: الحملة الفرنسية كبداية لتاريخ مصر الحديث:

يعتبر الجزء الأول من كتاب تاريخ الفكر المصرى الحديث [35] من أوائل الأعمال الفكرية بعد الهزيمة فى يونيو 1967، والتى رجعت لتنقب وتبحث فى التاريخ الحديث، إذ صدر هذا الجزء كتابًا فى عام 1969.

وتتشكل رؤية الكاتب للحملة الفرنسية من خلال رؤيته لأوضاع مصر قبل الحملة الفرنسية، ولما استحدثه الفرنسيون فى مصر، وموقفه من عدة شخصيات مثل بونابرت وسليمان الحلبى.

فى البداية يركز لويس عوض على ثورة همام أمير الصعيد والتى بدأت فى عام 1736 [36]، وتنبع أهمية هذه الثورة من أهدافها الوطنية والاجتماعية، إذ كانت تهدف إلى استقلال مصر واستخلاصها من أيدى المماليك. وأما الهدف الاجتماعى فيتلخص فى تمليك الأرض للمصريين وتوزيعها على الفلاحين [37] وعلى مدى العديد من الصفحات يسعى الكاتب جاهدا إلى إثبات أن ثورة همام كانت تجربة فريدة للنظام الجمهورى الحديث [38].

ويعتبر نفس الكاتب فى مكان آخر أن حجة عام 1795 والتى كتبها الوالى والمماليك لبيان الحقوق والواجبات بين الحاكم والرعية خطوة نحو تبلور فكرة الدستور [39].

إذن يتم الانطلاق هنا من بعد وطنى يسعى إلى التأكيد على الثورات والهبات الشعبية السابقة على الحملة الفرنسية مع التركيز على البعد الاقتصادى الاجتماعى.

ويرى لويس عوض أن الحملة الفرنسية (كانت الحد الفاصل بين عالمين مختلفين كل الاختلاف: عالم وسيط يمتد بطول العصر التركى المملوكى منتهيا فى عام 1798 فيه عدد من الثورات الاقتصادية البحتة التى لم تخرج عن أو يخرج عنها أى فكر سياسى أو اجتماعى أو ثقافى معروف. وعالم لم تحدث فيه أية حركة إلا وكانت مقترنة بمذهب سياسى واضح أو بأيديولوجيا اجتماعية واضحة أو بتيار ثقافى واضح أياً كان اتجاهه) [40].

ومن هذا المنطلق تصبح حملة بونابرت على مصر هى المفجر الأساسى لبناء هيكل الدولة على الطراز الحديث، والسبب المباشر فى التطورات الاقتصادية والمادية التى استجدت على مصر نتيجة لتصفية الإقطاع التركى المملوكى أثناء الحملة، والتطورات الاجتماعية التى استجدت فى مصر من خلال الأدب والصحافة ونشأة التيارات الفكرية والأدبية فيما بعد [41].

أما البيان الذى أرسله نابليون ليوزع فى الإسكندرية قبل وأثناء دخوله إليها فقد أدى إلى (تغذية الروح القومية المصرية وإقناع المصرى بالثورة على المماليك ثم الانفصال عن الباب العالى) [42].

وبعد دخول نابليون إلى القاهرة يقوم بتشكيل أول وزارة مصرية [43] تم إنشاء أول برلمان مصرى عرف يومئذ بالديوان العام [44]، وقد أدى هذا التجديد فى نظام الحكم كما يرى لويس عوض إلى ثلاث نتائج رئيسية:

1- أن الشعب المصرى من خلال الاعتراف الشكلى أو القانونى أو الدستورى

بحقوقه المغتصبة خلال فترات الحكم التركى- المملوكى قد أدرك أنه صاحب الحق الأول فى حكم بلاده [45] .

2-أن الحكومة المصرية التى أقامها الفرنسيون كانت بمثابة تدريب أولى للمصريين على تقلد السلطة ومسئولياتها.

3-أن الحكم المصرى استطاع أن يستخلص للمصريين الكثير من مصالحهم الضائعة، وأن يحل لهم الكثير من مشكلاتهم المعلقة فى الدوائر التى كانت لا تتعارض أو لا تتداخل مع مصالح الفرنسيين [46] .

وبالنسبة لنابليون يرى لويس عوض أنه الرجل الذى (جاء ومن ورائه رصيد ضخم من مبادئ الثورة الفرنسية فكان فى استطاعته أن ينادى بلا تحفظ بتصفية الإقطاع أو الالتزام الملوكى وإلغاء الامتيازات الطبقية بل وإلغاء الفوارق بين الطبقات) [47] ويتم وصفه بـ (رجل الأقدار الذى يقع على يديه ذلك التغيير العظيم)[48] .

ويتوقف لويس عوض طويلا أمام القوانين التى طبقها الفرنسيون فى مصر والمحاكمة التى أجروها لسليمان الحلبى باعتباره حدثا لم تشهده مصر طوال العصر التركى- المملوكى- المحاكمات القانونية- ويتم وصف سليمان الحلبى (بقاتل كليبر) [49] .

أما بالنسبة للجبرتى بوصفه مؤرخاً عاصر الحملة الفرنسية ومصدرًا اعتمد عليه لويس عوض فهو يراه متفتحا فى المواقف التى أعجب فيها بالحضارة الفرنسية [50]. وينقده فى أحيان أخرى مثل موقفه من سلوك بعض النساء مع جنود الحملة الفرنسية، ويرثى له فى المواقف التى يعبر فيها الجبرتى عن دهشته بقيام الفرنسيين بغزو مصر وانكسار المماليك أمامهم [51] .

أما بالنسبة لعدة أحداث خلافية مثل ثورة القاهرة الأولى وأسبابها فهو يرى أن أسباب الثورة جاءت نتيجة لتعطيل أعمال واجتماعات أول برلمان عرفته البلاد فى 20

أكتوبر 1798 وليس لمجرد الاحتجاج على فرض الضرائب العقارية ورسوم الشهر العقارى والقروض الإجبارية [52] ونتيجة لهذه الثورة أصدر نابليون مرسوم 21 ديسمبر 1798 والخاص بتأسيس الديوان العمومى والديوان الخصوصى أو (البرلمان ومجلس الوزراء) [53] .

وتتم المقارنة ما بين هذا المرسوم ودستور 1923 والذى جاء كنتيجة لثورة 1919 [54] .

ويصبح عام 1800 كما يرى الكاتب هو عام تحرير المرأة المصرية والذى جاء كنتيجة لمخالطة (المصريات للفرنسيين) [55] .

وفى عام 1999 صدر كتاب مصر والحملة الفرنسية لمحمد سعيد العشماوى[56] . وعلى العكس من الرؤية السابقة والتى سعت إلى إبراز الهبات والثورات الشعبية السابقة على الحملة الفرنسية فإن هذه الدراسة تذهب بعد عرض ملخص لمساوئ الحكم التركى- المملوكى إلى نتيجة مؤداها (أن مصر لم تكن لها حكومة ولا شريعة ولا نظام ولا عدل ولا أمن فى ذلك العهد الفاسد من حكم العثمانيين سنة1517 حتى تاريخ بداية الحملة الفرنسية) [57]. وبعد استعراض آخر لأوضاع المجتمع وحياة الشعب يصل نفس المؤلف إلى نتيجة مقاربة للنتيجة الأولى (تلك صور، تكاد تنطق بما فيها من بساطة التعبير وسلامة القول وبراءة القصد- يقصد استعراض الجبرتى لأحوال مصر قبل الحملة- ومنها يظهر بوضوح وجلاء أنه لم يكن يوجد شعب بالمعنى الحقيقى أو مجتمع بالوصف الصحيح أو حكومة بالمعايير المعتبرة، إنما توجد أخلاط متباينة وأمشاج متنافرة وقادة طغاة مستبدون، والكل على جهالة وبطالة وعماء وغشومة، وأنانية وعدوانية) [58].

وعن العلاقة بين المصريين والفرنسيين أثناء الحملة يرى الكاتب أن الألفة والمحبة جمعت بينهما حيث {قامت بين المصريين والفرنسيين (الغزاة) محبة ومودة فصاروا كأنهم شعب واحد أو جماعة واحدة}[59]. وكان الفرنسيون (يدفعون ثمن ما يأكلون أو يشربون ثم يذهبون إلى حالهم دون ضجيج أو عدوان) [60].

ويذهب المؤلف إلى إعجابه بما أقامه الفرنسيون فى مصر من مدافن ومتنزهات، بالإضافة إلى المجمع العلمى والديوان.. إلخ [61].

أما عن أسباب ثورة القاهرة الأولى فعلى العكس من رؤية لويس عوض لأسبابها يرى العشماوى أنها قامت بسبب فرض الضرائب والعوائد على العقارات والتجارة [62] ويقارن ما بين أسلوب الجمع الفرنسى للضرائب وهو الأسلوب القانونى المنظم [63] وأسلوب جمع الأتراك لها وهو أسلوب (همجى) [64] ويستند إلى وصف الجبرتى لمن قام بهذه الثورة على النحو التالى {جماعة من العامة ووافقهم بعض المتعممين الذين لم يصفهم الجبرتى بأنهم شيوخ وانضم إليهم الغوغاء والحشرات (أى سفلة الأسافل) والزعر (وهم سيئو الخلق قليلو الخبرة) بلا رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم} [65].

ويستند المؤلف كثيرا لأوصاف الجبرتى حول الطبقات الشعبية حيث يصفهم (بالعامة والأوباش والحشرات) [66].

وبعد أن يستعرض المؤلف محاكمة سليمان الحلبى يصفه بقاتل كليبر وبأنه (ليس بطلا وطنيا أو مجاهداً مسلما) [67].

وتتم المقارنة كثيرا بين الحكم التركى الفرنسى وبيان تفوق الثانى وإنسانيته على الأول بمراحل ويتكرر كثيرا- فى أنحاء متفرقة من الكتاب- السؤال عن أسباب ثورة المصريين على الحكم الفرنسى، ويتم الخروج بنتيجة مؤداها أن من قام بالثورة من المصريين قلة من العوام والغوغاء، أما بقية المصريين فكانوا يعيشون فى مودة وسلام مع الفرنسيين، وقد أقام الفرنسيون العديد من الإصلاحات فى مصر بعكس الأتراك الذين أهملوا مصر (كل هذا الإهمال واستبعدوا أهلها ولم يضبطوا فيها الأعمال الإدارية ولا أقاموا أى إنشاءات مادية) [68]. وبالنسبة لأحوال مصر بعد خروج الحملة فقد عادت إلى أسوأ مما كانت عليه قبل مقدم الحملة [69].

تتفق الرؤيتان السابقتان فى التأكيد على أن النهضة العربية الحديثة قد بدأت مع مقدم الحملة الفرنسية إلى مصر فى عام 1798، وإن كان لويس عوض بحث فى ثورة

همام أمير الصعيد لينقب عن نقطة البداية فى الصراعات الوطنية والطبقية من خلال رصد هبات الجماهير ضد الولاة العثمانيين وبكوات المماليك [70]، أما سعيد العشماوى فيعتبر الفترة السابقة على الحملة الفرنسية فترة مظلمة أشبه ما تكون بالعصور الأوروبية المظلمة. وانطلاقا من أن الكتابة فى التاريخ لا تتسم بالحياد أو البراءة تحول هذان العملان من التاريخ إلى الإيديولوجية أو إلى أدلجة مفرطة للتاريخ، فبعد أن يتحدث لويس عوض عن ثورة القاهرة الأولى يقارن بينها وبين ثورة 1919 (بهذا المعنى نستطيع أن نقول فى اطمئنان أن ثورة القاهرة الأولى قد أسفرت عن انتصارات ديمقراطية محققة، وإذا أمكن أن نسمى مرسوم 21 ديسمبر 1798 بتأسيس الديوان العمومى والديوان الخصوصى أو البرلمان ومجلس الوزراء دستور 21 ديسمبر 1798 استطعنا أن نقول إن ثورة 1798 على بونابرت أسفرت عن دستور سنة 1798 بمثل ما أسفرت ثورة 1919 عن دستور 1923 مع الاختلاف طبعا فى الظروف وفى أبعاد الفكرة الديمقراطية وبمثل ما أسفرت ثورة 1882 عن دستور 1882 المجهض) [71].

ومع اعتبار ثورة القاهرة الأولى ثورة شعبية وثورة 1919 ثورة شعبية بالمثل ينحى المؤلف من التاريخ إمكانية نجاح الثورات العسكرية، 1882 وربما أيضا 1952، فعام تأليف الكتاب لم يكن يسمح للمؤلف أن يقولها صراحة خاصة وهو محمل بإحساس الهزيمة (منذ أن دخلنا امتحان 5 يونيو بدأ عديد من الكتاب فى استقصاء الأسباب والنتائج) [72] والولاء للثورات الشعبية يؤيده المسكوت عنه فى حديث لويس عوض الطويل عن "الوفد المصرى" الذى تشكل برئاسة المعلم يعقوب، والذى كان يسعى لاستقلال مصر أثناء الحملة الفرنسية [73].

وما سكت عنه لويس عوض عام 1969 أفصح عنه سعيد العشماوى بكل صراحة فى عام 1999، فهو يقارن بين انكسار المماليك أمام الفرنسيين وانكسار الجيوش العربية أمام إسرائيل فى عام 1948، ثم الانكسار العسكرى فى عام 1956، ثم الانكسار فيما يشبه جلدا للذات فى عام 1967 [74].

وهناك إشكالية أخرى تثيرها قراءة لويس عوض لأوضاع مصر قبل الحملة الفرنسية وهى إشكالية البحث عن الغرب فى التاريخ، حيث يتم اعتبار ثورة همام تجربة فريدة للنظام الجمهورى الحديث وهى إشكالية كامنة فى أغلبية إن لم يكن كل أعمال التراثيين الجدد، فترتبط المعتزلة بالعقلانية والقرامطة بالتقدمية والاشتراكية والخوارج بالثورية.. إلخ. وهذه الإشكالية فضلا عن أنها تفصل ثوبا من التراث على المقاييس الغربية فهى تربط الذات بالآخر ربطاً لا فكاك منه.

ثم هناك أيضا إشكالية تحميل النصوص بمفاهيم ودلالات أكثر مما تحتمل هذه النصوص، مثل: الحديث عن الروح القومية المصرية*، ونشأة الفكرة الديمقراطية[75] ونشأة الوزارة الأولى والبرلمان الأول والدستور الأول.. إلخ.

وهناك ظاهرة أخرى أثارها كتاب سعيد العشماوى وهى ظاهرة التعالى إن لم يكن احتقار الناس، حيث التأكيد من خلال فقرات مطولة داخل الكتاب واستنادا إلى الجبرتى على عبارات العوام والحشرات والزعر وسفلة الأسافل.. إلخ، مع رفض أى مقاومة يبديها هؤلاء فى مقاومة الغزو العسكرى.

ثانيا: الحملة الفرنسية وإجهاض محاولات التحديث الذاتية:

تنطلق هذه الرؤية من مقولات ووجهات نظر تتناقض كليا مع أطروحات الرؤية السابقة بل تتهم هذه الرؤية أصحاب الرؤية السابقة بالدعوة إلى التغريبية حيث يرى جلال كشك فى كتابه ودخلت الخيل الأزهر [76] أن الرؤية الخاصة التى تعتبر الحملة الفرنسية بداية تحديث ونهوض مصر رؤية تغريبية تربط الغرب بالتحديث، أما التحديث الحقيقى فيكون فى التمسك بالذات ورفض التغريب واتباع النموذج اليابانى فى التحديث [77]. ويصف جلال كشك من يتبنى هذه الرؤية بأنه من أتباع (المدرسة الاستعمارية فى تفسيرها للتاريخ) [78].

ويسعى جلال كشك فى البداية إلى إثبات أن مصر لم تكن مستعمرة عثمانية غارقة فى ظلمات العصور الوسطى، ويعتمد فى ذلك على عدة مظاهر مثل استيلاء بكوات المماليك على السلطة فى مصر منذ منتصف القرن السابع عشر [79] وتناقص الجزية

التى كانت تدفعها مصر إلى تركيا فى هذه الفترة [80]، بالإضافة إلى تحول الباشا التركى إلى ألعوبة فى أيدى بكوات المماليك حتى وصل الأمر بالمماليك إلى قتل وطرد وتجريس الولاة [81] ولم يتبق من سيادة تركية على مصر إلا الولاء الأسمى والمتمثل فى الدعاء للسلطان العثمانى فى خطبة الجمعة [82] .

أما إثبات أن مصر لم تكن غارقة فى ظلمات العصور الوسطى فيسعى كشك إلى إثباتها على مدى فصل كامل، فمصر لم تشهد قبل الحملة نهضة فى العلوم الشرعية الدينية فقط وإنما يتم التأكيد على وجود علوم مادية تنفى (الصورة الهزلية التى يقدمها مؤرخو الحملة وتلاميذهم عن انبهار الشيوخ بتكنولوجيا الفرنسيس)[83].

حيث شهدت مصر فى تلك الفترة شيوخا يهتمون بدراسة الفلك والكيمياء والرياضيات [84] ويعتمد على واقعة (مثيرة) [85] أوردها الجبرتى (وهى حضور بعض طلبة الإفرنج أى من الأوروبيين وربما من الفرنسيين بالذات إلى القاهرة حيث درسوا على الشيخ الجبرتى الكبير وتبادلوا معه المعلومات والآلات العلمية، بل ويعتقد الجبرتى أن هذه المعلومات التى تلقوها من والده كانت الأساس فى التطبيقات أو الإنجازات التكنولوجية التى تحققت فى أوروبا)[86]. وبعد ذلك تتعارض رؤية كشك طوال العمل مع رؤية لويس عوض، فالمؤسسات التى أقامها نابليون فى مصر يتم وصفها بالمؤسسات الاستعمارية [87] والديوان (ليس أكثر من جهاز لجمع الضرائب والغرامات) [88] والحكم الفرنسى بصفة عامة حكم استعمارى يعتمد على (القانون الاستعمارى) [89]. أما ثورة القاهرة فقد نشبت نتيجة للإحساس الوطنى وليس تمردا على (إصلاحات الفرنسيين)[90]. ولم تبدأ الثورة كذلك بسبب الضرائب (فكما يعترف هيرولد نفسه إن الذين قاموا بها هم العامة الذين لا يدفعون الضرائب)[91]، ولم تكن الأوضاع الاقتصادية السبب فى قيام الثورة فقد شهدت هذه الفترة انخفاضا ملحوظا فى الأسعار [92] .

فالثورة كما يراها جلال كشك قامت لسبب رئيسى وهو (التناقض بين الشعوب والاستعمار)[93]، ثم يستمر كشك فى رفض رؤية لويس عوض فعام 1800 كما يراه

كشك هو عام تحرير المرأة (من تحت الزنار) [94] وبالنسبة لنابليون فهو عند كشك دجال وهناك فصل كامل بعنوان (الدجال يدخل القاهرة)[95].

ويعقد نفس المؤلف فصلا كاملا لمحاكمة سليمان الحلبى ويتم وصفه بـ (شهيد الإسلام وشهيد العروبة وشهيد مصر) [96] تمشيا مع إهداء الكتاب (إلى سليمان الحلبى بطل الوحدة العربية يوم كان طريقها عبر الأزهر) [97] .

أما مصطفى عبد الغنى فبالإضافة إلى إهداء كتابه إلى سليمان الحلبى يزيد فى الإهداء أطفال بحر البقر وملجأ العامرية وقانا وانتفاضة الأقصى وشهداء الحملة الأمريكية [98].

وتنطلق رؤية المؤلف من المقارنة بين الحملة الفرنسية بوصفها استعمارية بحتة لا علاقة لها بالتحديث حيث (إنها لم تأت إلى مصر الغائبة) [99] والحملة الأمريكية والهجوم الأمريكى المتكرر على العراق، ويتم تشبيه بوش بنابليون (مع تغير الظروف)[100]. ويرى الكاتب أن الحملة الفرنسية ليست أكثر من حملة (صليبية ثامنة) [101].

وبالنسبة لمصر قبل الحملة فإن المؤلف يرى أن النصف الأخير من القرن الثامن عشر قد اشتمل على ممهدات للتطور العربى (فإننا نستطيع أن نعيد النظر فيه إلى التاريخ الفكرى لنا، لنرى أن أخصب فترات تاريخنا كانت هذه الفترة وقبل أن تأتى الحملة الغربية إلينا لقطع سياق التطور العربى) [102] .

ثم يعدد المؤلف فى عدة صفحات أسماء العلوم التى شهدت نهضة فى تلك الفترة مثل الفلك والطب والرياضيات... إلخ فهذه الفترة قد شهدت (تيار التجديد الفكرى فى مجالات أخرى كثيرة، جاوزت التصوف إلى كثير من العلوم العقلية من علم الفلك إلى الصيدلة إلى الرياضيات إلى المنطق إلى الفلسفة) [103] .

ويرى مصطفى عبد الغنى أن الغرب عنصرى وأن الحملة جاءت فى إطارين هما العولمة التى تقوم بها أمريكا الآن، والقيام بعبء الرجل الأبيض فى تمدين العالم

واستمرارا للدور الفرنسى ثم الإنجليزى فيما بعد[104]، وفى رأيه أن كتاب "وصف مصر" حمل رؤى استشراقية عنصرية ولا يعدو أن يكون وصفا لفرنسا وليس وصفا لمصر [105].

ويعتبر المؤلف الحملة بداية نكبات مصر فى العصر الحديث ويربط ما بين نابليون والغرب من ناحية وإسرائيل من ناحية أخرى، إذ سمح الصراع الدولى والذى بدأه نابليون على هذه المنطقة بزرع إسرائيل فيما بعد [106] وبالنسبة للمقاومة التى شهدتها الحملة والمتمثلة فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية فقد كانت بسبب شراسة جنود الحملة ضد المصريين [107] ويذهب المؤلف فى نهاية كتابه إلى عدم وجود آفاق مشتركة بين مصر والعرب عامة وفرنسا وحضارة الغرب [108].

وهناك شخصيات اتسمت بأوصاف سلبية فى هذا العمل، كل من يرى أن الحملة قد أثرت بالإيجاب فى التطور العربى يتبع المدرسة الاستشراقية فى التاريخ[109]، والغريب أن يعتبر المؤلف أن لويس عوض من الذين عارضوا الحملة[110]، ويصف نابليون بأنه (أبو العولمة) [111].

ويعتمد المؤلف فى مصادره على الجبرتى وليلى عنان فى كتابها الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير؟، ونللى حنا فى تجار القاهرة فى العصر العثمانى وبيتر جران فى الجذور الإسلامية للرأسمالية [112].

ويتبقى من هذا العرض إشارة المؤلف إلى السبب المباشر الذى جعله يتخذ هذا الموقف المعارض للحملة الفرنسية، ويتلخص هذا السبب فى الهجوم المتوالى على الأمة العربية والإسلامية، وهو الأمر الذى جعل المؤلف ينصرف عن الجدل الثقافى الدائر حول الحملة المؤيد/ المعارض وينتمى إلى الرأى العام (ومن هنا وجدتنى أقف فى معسكر واحد مع هذا العقل الجمعى)[113]. فالكاتب (لابد أن يكون معبرا عن الرأى العام، معارضاً للسائد والمتخلف) [114].

وتقوم رؤية ليلى عنان للحملة الفرنسية على إقصاء هذه الحملة من التاريخ الفرنسى والثقافة الفرنسية ذاتها باعتبارها آخر أساطير هذه الثقافة [115] حيث تهدف

المؤلفة إلى (دراسة أسطورة الحملة على مصر عند الفرنسيين أنفسهم، نشأتها، وتطورها، وما يمكن أن يفسر انتشار تلك الأسطورة بينهم) [116] وتعتمد المؤلفة على المصادر الفرنسية فى الأغلب (ولذا كان على الدراسة التى ستبحث من خلال الكتب الفرنسية ما دار حول الحملة أثناء قيامها وبعدها والتى لن تلجأ بطبيعة الحال إلى الكتب العربية إلا للضرورة القصوى) [117] ولا تهتم هذه الدراسة بالدرجة الأولى بإبراز أحداث الحملة بقدر ما تسعى إلى التأصيل لفكرتها فى التاريخ الفرنسى وفى الأدب وعند المؤرخين، ولذا يقسم الجزء الأول من الدراسة إلى فصول بهذه العناوين: الحملة فى تاريخ الثورة، نابليون بونابرت الجنرال والإمبراطور، أسس أسطورة الحملة ونابليون، الأسطورة عند الأدباء، الأسطورة عند المؤرخين. وفى الجزء الثانى من الدراسة تتابع المؤلفة أحداث الحملة على مصر من خلال الاعتماد على المصادر الفرنسية التى أرخت للحملة وذلك استخداما لأسلوب وشهد شاهد من أهلها والتى تجعله المؤلفة عنوانا لأحد فصولها (شاهد من أهلها المعاصرين). [118] وتستمر المؤلفة فى نقد وتحليل الحملة من خلال وجهة النظر الغربية حتى تصل إلى النتيجة التالية فى نهاية كتابها (انهارت صورة الأمريكى الطيب كما انتهت أسطورة الحروب الصليبية. إن الغرب يعترف الآن أنها كانت حروبا استعمارية أكثر مما كانت حروبا دينية، كما أصبح يعترف بالفظائع التى اقترفها الصليبيون فى الأرض المقدسة واستمر جيل "تحطيم الأساطير" فأتى على أسطورة "الثورة الكبرى" ورسالتها السلمية العالمية). [119].

ويلاحظ أن المؤلفة لم تعتمد على الجبرتى، بعكس الدراسات السابقة إلا للضرورة القصوى، وترجع ذلك إلى سببين:

يتمثل الأول فى أمانة الجبرتى كمؤرخ (وهى سلاح ذو حدين لأنه لم يرو إلا ما كان متأكدا منه، أو واثقا كل الثقة بمصدره ومن ثم يظن القارئ أن الثورات والمقاومة الشعبية لم تحدث إلا فى القاهرة والإسكندرية، وهما اللتان لم يتحدث الجبرتى إلا عنهما، ولا نعرف منه إلا النزر اليسير عما حدث فى الأقاليم والوجه القبلى) [120].

أما السبب الآخر فهو أن الجبرتى (مثله فى ذلك مثل غالبية المؤرخين كان ذاتيا فى كتابته: جاءت نظرته الطبقية لتؤثر بشدة على أحكامه التى توصف أحيانا بأنها غير وطنية فتحولت عند قرائه إلى رؤية المصريين كلهم) [121] .

تحمل هذه الرؤية هى الأخرى العديد من إشكاليات وظواهر وعيوب الخطاب العربى الحديث والمعاصر.

أول هذه الظواهر هى ظاهرة التخوين والتكفير التى تشيع فى الخطاب العربى المعاصر مؤخرا، وهى تنطلق من الرؤية الإسلامية/ العلمانية الانشطارية. فجلال كشك يصف لويس عوض بأنه عميل المدرسة الاستعمارية فى تفسير التاريخ، وبعد أكثر من ربع قرن يصف مصطفى عبد الغنى وجهه النظر المؤيدة للحملة الفرنسية بأنها تتبع وجهة النظر الاستشراقية، وهى عبارات واصطلاحات تدخل فى قاموس الصور الذهنية المتبادلة بين الإسلاميين والعلمانيين وتمتلئ بها كتبهم وتعبر عن النفى الفكرى للآخر من خلال استخدام أعز ما يملكه القارئ وهو الدين/ الوطن.

الظاهرة الثانية هى الإسقاط التاريخى والرغبة فى الحياة داخل ماض لن يستعاد أبدا حتى لو أدى ذلك إلى تضخيم الماضى بصورة لا تاريخية، فمصطفى عبد الغنى يعتبر الفترة السابقة على الحملة الفرنسية أخصب فترات تاريخنا، وهو رأى يجافى التاريخ، ويعترض عليه أبسط قارئ لأى تأريخ تراثى تناول هذه الفترة من أمثال ابن إياس الحنفى أو عبد الرحمن الجبرتى.

أما الإشكالية الأساسية التى تثيرها هذه الأعمال فهى إشكالية الموقف من الغرب ولا أقصد الموقف العسكرى وإنما الموقف الحضارى وموقفها من رفض الغرب واضح من خلال كتابات هذه الرؤى، وإنما تشتمل هذه الرؤى على آليات فكرية تضخم هذه الإشكالية وتضيف إليها أبعادًا مركبة بحيث تؤدى فى النهاية إلى حالة من حالات الفصام الفكرى أو التخبط الثقافى.

ولعل أول آلية لاحظها الباحث داخل هذه الرؤى هى الولع الخفى والمسكوت عنه بالغرب فجلال كشك يعتمد كثيرا على كريستوفر هيرولد مؤلف كتاب نابليون

فى مصر، ويدعم وجهة نظره بآرائه، أما مصطفى عبد الغنى فيعتمد على بيترجران- الجذور الإسلامية للرأسمالية، أما ليلى عنان فمعظم إن لم يكن كل مصادرها غربية وهى تنهى كتابها معلقة على الحروب الصليبية على النحو التالى (إن الغرب يعترف الآن أنها كانت حروبا استعمارية أكثر مما كانت حروبا دينية، كما أصبح يعترف بالفظائع التى اقترفها الصليبيون فى الأرض المقدسة واستمر جيل تحطيم الأساطير حتى أتى على أسطورة الثورة الكبرى) وهى آلية تخضع التاريخ القومى للمزاج والهوى الغربى- إن جاز هذا التعبير. فلابد أن نغير مسلمة تاريخية تعلمناها وهى أن الحملة الفرنسية قد أيقظت الشرق من سباته لأن الغرب خرج علينا يوما ليقول لنا إنه أخطأ فى المسلمة التاريخية الأولى التى علمنا إياها، وهو أسلوب فى التفكير يشيع فى مجالات ثقافية متعددة لعل أبرزها التفسير العلمى للقرآن الكريم فيتم ربط النص الثابت بالنظريات العلمية الغربية المتغيرة. وهنا يتم ربط التاريخ القومى وما حدث على أرض الواقع بهوى الباحثين الغربيين حيث تدعم الاتجاه لنقد الحملة الفرنسية بعد أطروحة بيترجران الجذور الإسلامية للرأسمالية.

أما الآلية الثانية فتطلق من مقولة مركزية داخل الخطاب الفكرى للتيار الإسلامى وهى أن المسلمين علموا أوروبا فى فترة من الفترات،وأن عودة هذه العلوم إلينا تكون بمثابة البضاعة التى ردت إلينا.يتضح ذلك من تعداد هذه الأعمال لأسماء العلوم التى كانت موجودة فى مصر قبل الحملة.

أما الآلية الثالثة فهى وضع نموذج غير غربى استطاع اللحاق بالغرب ومقارنته بالنموذج العربى الإسلامى فكشك يرى ضرورة الاقتداء باليابان وتكثر الأعمال المتابعة لهذا الموضوع(122)، مع إهدار لكل سياقات الاختلاف بين الحضارتين. فاليابان مثلا لم تخض حروبا تاريخية طويلة ضد أوروبا كما فعل العرب والمسلمون، واليابان لا تمتلك منظومة ثقافية شمولية لكل أوجه الحياة كالثقافة العربية الإسلامية، والغرب قد سمح مؤخرا لليابان بالصعود مع تقليم أظافرها العسكرية... إلخ (123).

وهناك ظاهرة أخرى امتلأت بها هذه الأعمال وهى الإحساس الطاغى بالهزيمة والانكسار الحضارى والعسكرى أمام الغرب منذ قرنين وعلى اختلاف المراحل الفكرية والتاريخية المختلفة. ويلخصها مصطفى عبد الغنى فى إهدائه للكتاب إلى سليمان الحلبى (فرنسا) وأطفال بحر البقر وملجأ العامرية وقانا وانتفاضة الأقصى (إسرائيل) والحملة الأمريكية (أمريكا) وفى مكان آخر يضيف الإنجليز، وهى رؤية تخضع لما يفعله ويقوم به الآخر مع سلبية تامة قد تبدو واقعية على المستوى السياسى من قبل الذات ولكنها مأساوية على المستوى الثقافى والفكرى.

وهناك ظاهرة أخرى أفرزتها رؤية مصطفى عبد الغنى للحملة الفرنسية وهى ظاهرة تردد المثقف وتغيير مواقفه وآرائه خلال فترات قصيرة فهناك رؤية أخرى لمصطفى عبد الغنى عن الحملة الفرنسية وردت فى كتابه تيارات الفكر العربى المعاصر والذى صدر فى عام 2001 [124] فى نفس عام صدور الكتاب الأول (حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية) ومقدمته تمت كتابتها فى عام 1999 [125] أى بعد عام من صدور الكتاب الأول على شكل مقالات فى الأهرام.

والكتاب الجديد يتناقض مع الكتاب الأول فى عدة مواضع، فالحملة الفرنسية أصبحت (صدمة التغيير الحضارى التى عرفها المصريون على دوى مدافع بونابرت والتى كانت كافية لا لبحث فكرة المواجهة وإنما لنشأة اضطراب لازم بنية المجتمع العربى طيلة تطوره حتى اليوم، ومهما يكن من آثار الحملة على الشرق فقد خلقت بالنسبة إلى الدور الحضارى أثرا ما مَثّل عمقا لا يمكن تجاهله لمن يحاول رصد حركة الفكر المصرى فى هذه الحقبة) [126]، وهو ما يناقض الرؤية السابقة والتى ترى أن الحملة لا علاقة لها بالتحديث ولم تقم بأى دور حضارى فى وقتها.

وكما اعتمد هو وكشك على الجبرتى فى إيراد أسماء العلوم التى عرفتها مصر قبل الحملة يعتمد أيضا على الجبرتى• لإثبات أن مصر كانت خالية من أى علم مادى قبل الحملة (والعودة أكثر إلى الوراء نرى أن ذلك كان أكثر وضوحا فى العصرين الأيوبى والمملوكى (1196–1517)– يقصد التراجع العلمى والفكرى– ويمضى

فيه العصر العثمانى ويصل أقصاه عند وصول بونابرت إلى أرض وادى النيل عام 1798، فإذا بنا أمام فقهاء أو علماء لا يعرفون أى شىء- كما سنرى- من "العلوم الرياضية، فلا يرونها إلا على أنها من فروض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين" [127].

إذن فمصر كانت هنا غائبة بعكس الرؤية الأولى، ويمتلئ الكتاب وفى أجزاء متفرقة منه بدور الحملة فى إثارة الوعى المصرى والعربى بأهمية التقدم والتحضر وليست بداية لنكبات مصر كلها كما كان يرى من قبل.

كيف يمكن تفسير هذا التناقض...؟ هل يمكن تفسيره من خلال ظاهرة تردد المثقف بين التيارات الثقافية المختلفة فنرى الإسلامى يتحول إلى المعسكر العلمانى أو العكس ولكن هذه العملية تتم خلال فترة زمنية طويلة (طارق البشرى- محمد عمارة- مصطفى محمود.. إلخ). أما أن يتم هذا التبدل فى خلال عام أو عامين فهى ظاهرة لا يمكن ردها إلى تغيير المواقع الفكرية وإنما يمكن ردها فى ظن الباحث إلى السبب الذى دفع مصطفى عبد الغنى إلى تأليف مقالاته التى جمعها فى كتاب (حقيقة الغرب) وهو (ومن هنا وجدتنى أقف فى معسكر واحد مع هذا العقل الجمعى) فالكاتب (لابد أن يكون معبرا عن الرأى العام معارضا للسائد والمتخلف)، السبب يكمن فى طبيعة الجمهور المتلقى فجمهور الأهرام ومكتبة الأسرة- حيث صدر كتاب حقيقة الغرب- فى معظمه لا يمثل النخبة المثقفة مثل جمهور كتاب تيارات الفكر العربى المعاصر الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة، وما كان يمكن فى ظن الباحث أن يكتب سعيد العشماوى كتاباته عن الأوباش والعوام وسفلة الأسافل فى الأهرام وهى ظاهرة تعبر عن الخوف النخبوى من الناس*.

ثالثا: الرؤية الوسط بين النقيضين (الرؤية التوفيقية للحملة الفرنسية)

بخلاف وجهتى النظر المؤيدة/ المعارضة للحملة توجد وجهه نظر ثالثة ترى فى الحملة غزوا عسكريا ولكنها لا ترفض الوجه الحضارى للحملة ولا ترفض الثقافة الفرنسية بصفة خاصة أو الغربية بصفة عامة. ويعبر عن وجهه النظر هذه كتاب نعم

لفولتير لا لبونابرت لأحمد عبد المعطى حجازى، والذى كان هو الآخر عبارة عن مجموعة مقالات تم جمعها ونشرها فى كتاب صدر فى عام 1998[128].

تنطلق وجهة نظر عبد المعطى حجازى من اعتبار فرنسا (حقيقة ثقافية) [129] وتنبع هذه الحقيقة من اعتماد حركة الاستنارة المصرية على تراث التنوير الفرنسى ابتداء من الطهطاوى والذى كان (أول مثقف عربى يقرأ فولتير ويتحدث عنه) [130] مرورا بطه حسين ومنهجه فى كتابة التاريخ والذى تأثر فيه بفولتير وانتهاء بأثر فولتير فى العديد من الأسماء الثقافية فى تاريخنا المعاصر[131]. ويرى المؤلف أن العرب يستطيعون كسب الفرنسيين إلى صفوفهم وخاصة فى ظل الصراع الثقافى الفرنسى الأمريكى الدائر حاليا [132] .

ويصف المؤلف الاتجاه الإسلامى الرافض للحملة بالاتجاه (الساذج) [133] والذى لا يعرف التاريخ ويخلط بين الفترات الزمنية (ومع سذاجة هذا الاتجاه وغفلته وخلطه المعيب بين الإمبراطوريات المقدسة والدول القومية وبين الحروب الدينية والحروب الاستعمارية وبين الجهاد فى سبيل النفط والجهاد فى سبيل المسيح، أقول مع سذاجة هذا الاتجاه وخلطه بين الأزمنة والدول والنظم السياسية والأهداف المختلفة، فهو اتجاه رائج يستغل عند عامة الناس نفورهم الطبيعى من الغرب الاستعمارى ويحول هذا النفور إلى عداء مستحكم لكل ما هو أجنبى) [134] .

وبالنسبة للاتجاه الوطنى الذى يرفض الحملة لأسباب وطنية فيرى المؤلف أن أصحابه يتمسكون بالعناد الطفولى (وهناك آخرون يقاومون الاحتفال هم أيضا لأسباب عثمانلية كما يفعل الأولون ولكن لأنهم وطنيون مصريون فبوسعنا أن نفهم لغتهم وإن لم نتفق معهم كل الاتفاق. هؤلاء السادة لا يرون فى حملة بونابرت إلا وجهها العسكرى وهذا جحود لا تفرضه الوطنية وعناد طفولى لا ينفى الحقيقة ولا يغيرها) [135].

وعلى هذا الأساس يقسم المؤلف وجهات النظر حول الحملة الفرنسية إلى ثلاثة اتجاهات:

1-اتجاه وطنى متشدد لا يرى فى حملة بونابرت إلا غزوة استعمارية.

2-واتجاه معتدل لا ينكر أن الحملة الفرنسية كانت غزوة استعمارية، لكنه يرى مع هذا أنها ساعدت مصر على اكتشاف نفسها واكتشاف أوروبا .

3-واتجاه آخر لا نملك إلا أن نصفه بالسذاجة، مع علمنا بأنه ضالع فى الجريمة والغ فى الدماء [136] .

أما بونابرت فيرى المؤلف أنه اعتمد فى منشوره على الحجج الدينية ليقنع المصريين بحملته على أساس (أن المصريين مازالوا يقيمون علاقاتهم مع كل شىء على أساس العقيدة الدينية كما كان الأمر فى العالم كله طوال العصور الوسطى، أما المصالح القومية التى أصبحت أساسا لكل شىء فى العصور الحديثة فالمصريون لا يولونها أى اعتبار) [137].

ووجهة نظر المؤلف تتلخص فى أن (الحملة الفرنسية لم تكن غزوة استعمارية فحسب بل كانت بها جوانبها الثقافية والحضارية التى بدأت منها نهضتنا الحديثة فى أوائل القرن الماضى وهذه حقيقة أخرى لا تحتاج إلى جدل كثير أو قليل. كان يكفى إذن أن نعلن على الناس أننا نحتفل بالنهضة المصرية الحديثة وبعلاقاتنا الثقافية مع فرنسا، وبالأخوة التى تجمع بيننا وبين جميع شعوب الأرض ولا نحتفل طبعا بالغزوة فلا يبقى سبب واحد يبرر الهجوم على الاحتفال) [138] .

تحاول هذه الرؤية إذن أن تجمع ما بين الحسنيين رفض الغزو الاستعمارى مع قبول الحضارة الوافدة، ولكنها فى سبيل تأكيد هذه الفكرة تنفى كل وجهة نظر مخالفة لها، فالتيار الإسلامى يتصف بالسذاجة والتيار الوطنى يتمسك بآرائه فيما يشبه العناد الطفولى وتضع خلافا جذريا بينها وبين الرؤية الإسلامية مما يستحيل معه الحوار معها. على عكس الرؤية الوطنية التى يمكن التفاهم معها وهى رؤية تشطر الوطن إلى شطرين توفيقى- وطنى/ إسلامى وتشطر الغرب إلى شطرين فرنسا/ أمريكا مما يجعلها تقع فى ثنائيات الخطاب التوفيقى التقليدى، والذى تحدث

عنه الكثيرون، وتعتبر امتدادا تاريخيا لرؤية ثقافية قادمة من عصر ما قبل ثورة 1952 عندما تجادل طه حسين والعقاد حول الثقافتين الفرنسية والإنجليزية.

المحور الثالث: الحملة الفرنسية كما يراها الآخر

ترجع أهمية دراسة بيتر جران الجذور الإسلامية للرأسمالية (139) فى اعتماد التيار المعارض للحملة الفرنسية عليها، بالإضافة إلى صدورها عن مفكر أمريكى يسارى. وقد أثارت الجدل فور صدورها فى عام 1979 سواء فى العالم العربى أو فى الدوائر الغربية المهتمة بهذا الموضوع (140).

يرفض بيتر جران منذ البداية اتخاذ عام 1798 بداية للتحديث والنهوض فى مصر (141) * والدراسة تعتمد على أطروحتين أساسيتين:

الأولى: أطروحة اقتصادية ترى أن الهجوم الفرنسى على مصر قد أضر بالطبقات الوسطى المصرية (142).

الثانية: أطروحة ثقافية تركز على الإحياء الصوفى فى منتصف القرن الثامن عشر، كما أنها تتبع سيرة الشيخ حسن العطار كرمز للنهضة الثقافية التى شهدتها مصر قبل مجىء الحملة إليها.

بالنسبة للأطروحة الأولى، يبدأ بيترجران تاريخه للنهضة المصرية فى القرن الثامن عشر بتولى على بك الكبير مشيخة البلد فى عام 1760 (143) وهى الفترة التى أصبح فيها المماليك من القوة بحيث طمحوا إلى الاستقلال بمصر عن السلطة العثمانية من ناحية، وشكلوا نخبة حاكمة قوية من ناحية أخرى، فالطبقة العليا المصرية تشكلت آنذاك من المماليك والموظفين الرسميين وبعض أغنياء المصريين(144).

ثم يرصد المؤلف ملامح الطبقة الوسطى والتى تشكلت من التجار المصريين والعلماء ونخبة الحرفيين (145).

أما الطبقة الدنيا فقد تشكلت أساساً من صغار الحرفيين المتجولين أو أصحاب المهن نصف المشروعة (146).

والمؤلف يرى أن حملة نابليون قد أضرت بتجارة العلماء والتجار من الطبقة الوسطى وخاصة أن نابليون قد حاول أن يتحالف مع هذه الطبقة من خلال قانون التسجيل، وهو القانون الذى اكتسب به نابليون نحو ثلثى أراضى الدولة للطبقتين العليا والوسطى بعد أن كانت الأرض حكراً على المماليك وقلة من المصريين[147].

ولكن سياسات نابليون من خلال الضرائب التى فرضها على الممتلكات بمدينة القاهرة بعد هزيمته فى سوريا قد أضرت كثيراً بمصالح الطبقة الوسطى وأصابتها فى مقتل [148].

وهنا يبرز المؤلف دور شرائح الطبقة الوسطى وتحالفها مع نابليون حتى أنها لم تقم بثورتىّ القاهرة الأولى والثانية إلا نتيجة للضرائب المتدرجة ولسلوك الكثير من جنود الحملة الفرنسية المنافى للتقاليد الإسلامية فى رمضان [149]، وعلى الرغم من إبراز المؤلف لدور الطبقة الوسطى ودورها فى التجارة وفى الثورتين فإنه يؤكد فى مكان آخر أن بنية التجارة فى مصر كانت محدودة [150] وأن الشرائح المصرية من الطبقتين العليا والوسطى لم تشكل طبقة تكون قادرة على إسقاط النظام المملوكى فى مصر قبل الحملة الفرنسية (ورغم ذلك بقى النظام حتى العقد الأول من القرن التاسع عشر، فلم تكن هناك طبقة صاعدة من داخل مصر تعمل على إسقاط هذا النظام) [151]، ويرى أن تقدم مصر فى عهد محمد على يرجع إلى (أنه نفسه كف عن أن يكون مملوكاً) [152].

يرسم بيتر جران صورة للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى مصر قبل وأثناء الحملة الفرنسية قد تبدو متناقضة فى مواقع كثيرة من هذا العمل، فالصورة تقوم فى الأساس على افتراض وجود طبقة وسطى تتكون من شرائح وتمارس التجارة ولها مصالح اقتصادية واجتماعية وقد أضيرت هذه الطبقة نتيجة للحملة الفرنسية على مصر، ولكنه يناقض هذه المقولات فى مواقع أخرى فالتغلغل الأوروبى التجارى كان موجوداً فى مصر وبصورة ضخمة قبل قدوم الحملة [153]. وابتداءً من عام 1790 تزايدت الصراعات بين المماليك كما تراكمت السلع الكمالية الأوروبية فى السوق

المصرية. وقبل هذا التاريخ شكل التجار الأجانب فى مصر طبقة استطاعت أن تؤثر فى السوق المصرية الداخلية وتعجل بتدهور الطبقة الوسطى المصرية [154] – قبل مقدم الحملة، ولعل تحيز المماليك للتجار الإنجليز على حساب التجار الفرنسيين كان من الأسباب المباشرة للحملة [155]. وعلى الرغم من تأكيد المؤلف بعد كل ذلك على وجود طبقة وسطى مصرية فإنها كانت من الضعف حتى فى حال تحالفها مع الطبقة العليا على إسقاط النظام المملوكى، أما نابليون فهو أحياناً يضر بسياساته الطبقة الوسطى وأحياناً يحاول إنعاشها (لقد حاول نابليون عام 1798 القيام ببعض الإصلاحات ونجح فى تسجيل الملكية الخاصة ولكن ما أن رحل نابليون حتى عادت الفوضى) [156].

وبالإضافة إلى هذه الصورة التى قد تبدو متناقضة فإن المؤلف يرصد الظروف الاقتصادية المصرية وملامح الطبقات المختلفة فى جزء يقع فى حوالى ثلاثين صفحة من كتابه والذى يبلغ حجمه أكثر من عشرة أضعاف هذا الرقم فى الترجمة العربية [157].

أما الأطروحة الثانية فى هذه الدراسة فهى أطروحة ثقافية تقوم على رصد المؤلف للصحوة الثقافية والدينية التى شهدتها مصر فى القرن الثامن عشر. يرى المؤلف أن (الإسلام فى مصر يعنى الصوفية) [158] وبالتالى فأى إحياء صوفى يتم فى هذه المرحلة هو صحوة ثقافية. وعلى مدى فصل كامل يرصد المؤلف علاقة الطبقات المصرية المختلفة بالطرق الصوفية وإحياء هذه الطرق وخاصة على أيدى أفراد من الطبقة الوسطى كدليل على النهضة الدينية والثقافية التى قادتها الطبقة الوسطى آنذاك [159].

أما مظاهر هذه النهضة فتتمثل فى الطرق الصوفية بشطحاتها وكثرة الدراويش فيها واعتمادها على الرموز والتأويلات الدينية المغرقة فى (الإشراق والجلاء) [160] و(العرفان) [161] كما يعتبر أن زيارة الأضرحة فى مصر هى البؤرة الثقافية فى النشاط الثقافى آنذاك (وكانت زيارة الأضرحة فى مصر تمثل البؤرة الرئيسية فى النشاط

الفكرى والروحى خلال القرن الثامن عشر، وتدور الكتابات عن الزيارات حول الفضائل الخاصة أو المعجزات التى تغرى إلى زيارة أضرحة معينة) [162] .

وعلى مدى فصل كامل يرصد المؤلف الصحوة الثقافية خلال تلك الفترة فى الأدب واللغة والتاريخ [163] .

وانطلاقاً من رصده للمجالس التى كان يعقدها بعض الأثرياء يربط المؤلف بين وجود هذه المجالس ورغبة الطبقتين العليا والوسطى التجديد فى مجالات الأدب والحديث النبوى واللغة والتاريخ، ويطلق المؤلف على هذه المجالس وصف (المؤسسات الثقافية الحديثة فى مصر) [164] .

كما يرصد المؤلف الأعمال الفكرية التى شهدتها هذه الفترة والتى تعبر عن النهوض الثقافى والتى تتمثل فى (الحواشى والشروح والتقارير... إلخ. فقد جاءت كتابات العلماء على هذه الصورة خلال الفترة من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر) [165] .

ويؤرخ المؤلف لنهاية الصحوة الثقافية الدينية آنذاك بعام 1790 [166]، أى قبل مجىء الحملة الفرنسية أيضاً.

أما بقية الدراسة فتدور حول الشيخ حسن العطار وإسهامه فى النهضة المصرية منذ قيامه بتأليف أول كتاب له فى عام 1786 فى النحو وحتى وفاته فى عام 1835 [167] .

هذه الرؤية بخلاف ما يبدو بداخلها من تناقض أحياناً إلا أنها فى الأساس تنطلق من رؤية الشرق كسحر أخاذ وكعوالم مغايرة للغرب، تقترب من الرؤى الاستشراقية التقليدية حينما ترى الإسلام هو التصوف ولا تتوقف أمام التصوف الفلسفى بقدر ما تتوقف أمام الدراويش والأضرحة والأولياء، وهو الأمر الذى رفضته الحركة الإصلاحية فى العالم الإسلامى أثناء وبعد حملة نابليون. وسارت بعد ذلك الحركة الإصلاحية على يد جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده... إلخ، وعلى

هذا الدرب استمر رفض التصوف الشعبى على يد الحركة الإسلامية والتيارات العلمانية والليبرالية بعد ذلك وحتى المشاريع الفكرية العربية المعاصرة أو من يطلق عليهم أحياناً "التراثيين الجدد" أمثال الجابرى وحسن حنفى وأركون.... إلخ تمتلئ أعمالهم بنقد هذا النوع من التصوف والذى أدى إلى إشاعة الخرافة والجهل فى المجتمعات العربية والإسلامية وأخذ أطروحة بيتر جران فى هذا الموضوع يعتبر إهداراً لجزء كبير من الخطاب النهضوى العربى المعاصر.

أما الإشكالية الأخرى التى يثيرها هذا العمل فهى تبنى البعض له كدليل على أن حملة نابليون أجهضت نهضة برجوازية شهدتها مصر فى نهاية القرن الثامن عشر وفقاً لأسلوب وشهد شاهد من أهلها وربطاً للخطاب الثقافى العربى بتقلبات الخطاب الغربى.

المحور الرابع: الأنـا تقـدم نفسها للآخر: هل يمكن الخروج من التبعية الثقافية للغرب؟!

تعتبر نيللى حنا من الباحثات المهتمات بتاريخ مصر خلال الحقبة العثمانية عبر العديد من الكتب والدراسات والتى ترجم منها حتى الآن "بيوت القاهرة فى العصر العثمانى" و"تجار القاهرة فى العصر العثمانى- سيرة أبو طاقية شاهبندر التجار" و"ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية (ق 16م- ق 18م)" [168] *

ويرى رءوف عباس أن مشروع نيللى حنا يقوم على دحض الأفكار التى روجتها مدرسة الاستشراق التقليدى عن تاريخنا القومى ومجتمعاتنا، والتى ترى أن بلادنا كانت راكدة متخلفة حتى جاء الغرب فى مطلع القرن التاسع عشر لينقذنا مما نحن فيه [169].

ويقوم الكتاب على دراسة ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية خلال الفترة الممتدة من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر. وتؤكد الباحثة فى مواضع مختلفة من دراستها انطلاقها من عدة رؤى:

1-أن دراسة الطبقة الوسطى المصرية خلال تلك الحقبة يؤكد هزل الحديث عن التدهور الثقافى الذى كان يعيشه المجتمع المصرى آنذاك (170).

2-أن إثبات وجود طبقة وسطى منتعشة قبل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر ينقض الرؤية التقليدية، والتى تربط الحداثة والتحديث بالحملة الفرنسية وعصر محمد على (171).

3-تعتمد الدراسة على فكرة المركز والأطراف وتتبنى مقولة بيترجران فى كتابه ما بعد المركزية الأوروبية، والتى يذهب فيها إلى دراسة تاريخ العالم باعتباره تاريخاً اجتماعياً للعالم وليس تاريخاً للمركزية الأوروبية، وبالتالى تطبق هذه الرؤية فى دراستها باعتبار أن الصعود الغربى الذى شهدته حقبة الدراسة لا يؤدى بالضرورة إلى تدهور المراكز الثقافية القديمة (فإنه عندما تصبح بعض المراكز الجديدة بالغة التأثير فلا يعنى ذلك بالضرورة أن المراكز القديمة قضت نحبها أو أنها أصبحت عاجزة عن العطاء) (172) *.

والمركز فى هذه الدراسة يبدأ من رفض المقولات التقليدية عن الصعود الغربى خلال فترة الدراسة وما مثله ذلك من اعتبار الغرب مركزاً ثقافياً يقابله طرف شرقى متخلف، ثم هناك المركز العثمانى وما يقابله من تصور العالم العربى كأطراف تابعة له، وتحاول الباحثة الخروج على الفكرة الاستشراقية التقليدية ولكن عبر تأييدها، فالفكرة الاستشراقية التقليدية تقوم على دراسة العالم العثمانى ككل وكطرف هامشى ومتخلف. وفى مواضع عدة من الدراسة تؤكد الباحثة على وجود ثقافة طرفية عربية متطورة عن الثقافة العثمانية، مما دفع أحد المعلقين على الكتاب إلى التساؤل: (إلى أى درجة كانت مصر عثمانية أثناء الفترة العثمانية؟، أو بعبارة أخرى ماذا كان عثمانياً فى مصر العثمانية. إن هذا الكتاب يقول فى أكثر من موضع وبأكثر من طريقة إن إسطانبول لم يكن لها دور فى تشكيل ثقافة الولايات التابعة لها) وهو ما يستدعي التصور المقابل للطرح السابق (مدى تأثير هذه الثقافة- يقصد ثقافة الطبقة الوسطى- فى محيطها المباشر ثم الأوسع، ومن الممكن أن نتخيل تأثير الطبقة الوسطى فى إسطانبول بمثيلاتها فى القاهرة وحلب ودمشق)(173).

وقد حاولت الباحثة الخروج من الدائرة العثمانية لأن (الدراسات التى تعنى بتاريخ مصر الاجتماعى استناداً إلى مصادر إسطانبول التى تمثل وثائق الدولة فى معظمها وهى دراسات كتبت لغرض معين واضح تماماً، تقدم صورة ناقصة أو مشوهة للمجتمع المصرى فى ذلك العصر) [174].

ويلاحظ الباحث على هذه الدراسة:

1-على الرغم من الجهد المبذول فى دراسة حالة مصر الاقتصادية خلال حقبة الدراسة فإنها تؤكد فى مواضع عدة أن الطبقة الوسطى المصرية التى نشأت نتيجة لانتعاش التجارة آنذاك لم تستطع أن تغير من شكل السلطة المصرية أو أن تدخل فيها، كل ما استطاعت عمله هو إقامة مصالح تجارية مشتركة مع الطبقة الحاكمة [175].

2-تتوقف الدراسة عند العقود الأولى من القرن الثامن عشر باعتبارها فترة شهدت تدهوراً فى الاقتصاد المصرى بسبب قلة الطلب على المنتجات المحلية [176]، و(حول منتصف القرن الثامن عشر كان للمؤثرات السلبية على الاقتصاد انعكاسها على ثقافة الطبقة الوسطى- عندما جرت الرياح بما لا تشتهى السفن- فأثرت سلبياً على القدرات الحركية لتلك الثقافة) [177] أى أن حملة نابليون لا علاقة لها بالجذر الاقتصادى للطبقة الوسطى أو بثقافتها، ويلاحظ أن هيمنة المركز الاقتصادية هى التى جاءت بآثار عكسية على الاقتصاد الطرفى وثقافة طبقته الوسطى، فالسكر المحلى نافسه السكر المنتج فى الأمريكتين وكذلك المنسوجات وهما من الصادرات الرئيسية [178] * .

3-تبرر الباحثة اتجاهها إلى دراسة الطبقة الوسطى وثقافتها وعلاقتها بالثقافة الشعبية عبر العديد من المبررات ولكن ما استوقف الباحث إغراقها فى محاولة رسم طبقة وسطى على النمط الأوروبى (وعلى سبيل المثال تتحرك دراسات الثقافة الأوروبية من ثقافة عظماء الرجال مثل فلاسفة القرن الثامن عشر فى عصر التنوير الفرنسى، وتجاوزت حدود المعرفة والعلم فى المؤسسات

الأكاديمية. وتتجه هذه الدراسات إلى استكشاف القوى الاجتماعية الأخرى وعلاقتها بالقراءة والكتابة والمعرفة والكتب) [179] .

وفى مجال القراءة ترى الباحثة أن انتشار القراءة والتعليم فى مصر آنذاك يؤدى إلى تشكيل طبقة وسطى على النمط الأوروبى (وعلى سبيل المثال يذهب المؤرخ الإيطالى كارلو شيبورا إلى وجود علاقة وثيقة بين معرفة القراءة والكتابة والرأسمالية التجارية والحياة الحضرية فى جنوبى أوروبا فى العصور الوسطى)[180] .

والغرب هو النموذج الأوحد للحوار سواء عبر قياس تقدمنا الغابر على تخلفه، أو تقدمه على تخلفنا، ففى الفترة التى كان التعليم ينتشر فيها فى العالم الإسلامى كانت البابوية الأوروبية تقف ضد التعليم [181] .

وعلى مدى فصل كامل – الفصل الثالث من الكتاب- ترصد الباحثة تأثير الكتب وانتشارها على تشكيل ثقافة الطبقة الوسطى عبر رصدها لكتالوجات المخطوطات العربية عن الكتب [182] أو قوائم التركات [183] والتى تضمنت قوائم بكتب تركها أصحابها للورثة أو انتشار الورق[184] أو المكتبات العامة [185]. ويلاحظ إعطاء الباحثة أهمية للكتب الصوفية فى أماكن عدة من الدراسة، بالإضافة إلى انتشار الثقافة السمعية التى تنتج عن قراءة فرد لكتاب بصوت جهورى فى محيط من الأفراد [186] .

والسؤال: إلى أى مدى تستطيع الثقافة السمعية تشكيل ثقافة ناهضة؟ وهو ما أدى إلى نشأة مجالس ثقافية. وتتساءل الباحثة فى إطار الحوار مع الغرب (هل ينظر المؤرخون إلى هذه المجالس فى سياق التاريخ الثقافى على نحو ما يُنظر إليها فى التاريخ الثقافى لفرنسا وألمانيا، باعتباره مكاناً لتبادل الآراء، ومنبراً للجدل، أم نعتبرها نوعاً من وسائل التسلية؟) [187] .

4-بعد أن تقيم المؤلفة بناءً للطبقة الوسطى المصرية يتشكل من الانتعاش التجارى وتعلم القراءة والكتابة وانتشار الثقافة عبر الكتب والثقافة السمعية، تقيم بناءً قيمياً لهذه الطبقة يتماهى مع قيم الطبقة الوسطى الأوروبية وتصورها لمفردات

الحياة، بدءًا من اقتراب إمكانية قيام قيادة من هذه الطبقة (قيادة قريبة من مفهوم "القيادة العضوية" الذى صاغه أنطونيو جرامشى) (188) وانتهاءً بصياغة ثقافة شبه علمانية تهتم بالمال والعادى واليومى (189) وموقف هذه الطبقة من المرأة والثقافة الشعبية واللغة الدارجة (190).

والغريب أن هذه السمات والتى تؤكد المؤلفة أنها كانت بحثاً من قبل أفراد الطبقة الوسطى عن الحداثة الأوروبية لا تتماهى مع الطبقة الوسطى الأوروبية آنذاك والتى أنتجت التنوير والعقلانية على نحو ما حدث فى القرون المماثلة لحقبة الدراسة فى أوروبا، وإنما هى سمات تقترب كثيراً من سمات الطبقة الوسطى المصرية المنهارة حالياً بفعل هيمنة المركز الأمريكى هذه المرة، ولا تقترب حتى من صعود هذه الطبقة الوسطى فى فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية عندما كان الجاحظ يؤلف فى حرية الإرادة الإنسانية وعلم الكلام بمشكلاته العويصة ويكتب عن الجوارى والقيان والغلمان، فما مدى إمكانية شريحة من الناس تهتم بالمال والأشياء العادية وتتلقى ثقافة دينية محافظة وصوفية وتهتم باللغة الدارجة ومكائد النساء- بتعبير المؤلفة-... إلخ، ما مدى قدرة هؤلاء الناس على النهوض؟ وما مدى اتفاقهم أو اختلافهم عن الطبقة الوسطى الأوروبية، وهو سؤال سكت عنه النص تماماً؟

5- وهناك العديد من الأفكار التى تؤيدها المؤلفة أو تعارضها، فهى تؤكد على وجود ثقافة علمية، وتعتمد على الجبرتى فى ذلك (191)، لأنه يؤكد على وجود ثقافة علمية بما يخدم أهداف الباحثة، ثم تنتقده لموقفه من ثورات العوام والزعر والحرافيش (192)، كذلك هناك نقد للفكرة الاستشراقية التقليدية عن سيطرة الاستبداد الشرقى (193) على مجتمعاتنا أو سلبية الشرق (194)، وعلى الرغم من رصد المؤلفة لأساليب احتجاجية عديدة قامت بها الرعية للاعتراض على السلطة الحاكمة فإنها أساليب لم تفض إلى نتائج جذرية* وتؤكد الباحثة فى موضع بالدراسة على أن الممارسات الاقتصادية للسلطة الحاكمة أدت كثيراً إلى تدهور الطبقة الوسطى (وعندما يتحول تركيز اقتصاد الطبقة الحاكمة إلى

مصالحها الريفية على حساب مصالحها الحضرية، يقل الاهتمـــام بالحفاظ على مصالح تلك الطبقة –تقصد الوسطى– وحمايتها، ومن ثم ينتكس حالها)[195].

وتؤكد المؤلفة على دور الكتاتيب والمساجد فى تطوير ثقافة متعلمة فى (مواجهة ثقافة العلماء، ثقافة تُنسب إليهم ولا تفرض عليهم؟) [196] وهى تعطى أهمية قصوى للكُتّاب فى صياغة ثقافة الطبقة الوسطى [197] بما يشعر القارئ بخطأ الآراء الناقدة للكتاتيب ونظامها*.

6–تنطلق هذه الدراسة كذلك من نقد المركزية الأوروبية، ولكنها فى سعيها إلى ذلك تفتت الأطراف، فالهامش هنا لم يعد الشرق أو حتى الجنوب أو الثقافة العربية الإسلامية، بل يتم تفجير الهامش من داخله إلى مركز وأطراف، وأحياناً إلى ثقافة عاصمة وأقاليم أو حضر وريف، على نحو ما تذكر المؤلفة فى مواضع عديدة من دراستها، وبالتالى هى تسعى إلى تفتيت المفتت أصلاً وإضعاف العاجز بطبعه، وهى رؤية قد تصلح فى حالة القوى والمتكامل والمهيمن فتصلح لتفتيت المركز الأوروبى من داخله، ولكنها لا تصلح فى حالتنا حيث التشظى والطائفية وغياب النسق الثقافى والرؤى الحضارية المتكاملة وربما تأتى بتأثير ما بعد الحداثة الغربية، والتى تعلى من قيم اللامعقول والهوامش والأطراف. ولكن فى ظل اتجاهات راسخة وقوية من عقلانية ونسقية وأفكار كبرى يتم التمرد عليها من داخلها. أما نحن فكيف نعلى من قيم الدروشة الصوفية واللغة الدارجة والاهتمام باليومى؟ ونحن نعانى من هيمنة هذه القيم أصلاً، وهل لأننا فشلنا فى العقلنة والعلمنة والحداثة نعود إلى قيم ما قبل حداثية بدعوى تشابهها مع ما بعد الحداثة الأوروبية لإثبات أننا لم نكن يوماً متخلفين! أم أنها مجرد التبعية المطلقة للغرب الذى قال لنا يوماً إننا كنا متخلفين وأخذنا مقولته بتسليم واعتبرنا الحملة الفرنسية بداية التاريخ وما قبلها من فترة عثمانية لا تعدو أن تكون جاهلية قروسطية، ثم يأتى الغرب ليخبرنا أننا لم نكن يوماً على هذه الدرجة من الجهالة فنصدقه ونلعن الحملة الفرنسية *، ثم ما الضرر فى الاعتراف

بتخلفنا آنذاك أو بتخلفنا المعاصر؟ أم أن المسألة تتعلق بالذات العربية الجريحة التى فشلت فى تحقيق نهضتها وتعانى من التفوق الغربى المستمر فى أشكاله المتعددة.

7-تحاول هذه الدراسة بناءً على ذلك دفع تهمة التخلف والجهل بشتى السبل، ولذلك فهى تقيم حاجزاً فاصلاً ما بين العثمانى والعربى أو المصرى انطلاقا من تركيز الاستشراق التقليدى على التاريخ العثمانى كتاريخ عام للمسلمين، وعلى اعتبار أن لفظ تركى يساوى لفظ مسلم فى المخيلة الغربية بما يرافق لفظ التركى من العديد من الأوصاف والسمات السلبية- لعل آخرها أطروحة برنارد لويس فى كتابه "أين الخطأ؟"- ومع ذلك فالهجوم الأمريكى الأخير على الأمة الإسلامية جاء على تلك الولايات العربية واستثنى تركيا والتى لها علاقات شبه ممتازة مع الولايات المتحدة، وهو ما يؤكد أن تحسين صورة العرب والمسلمين لا علاقة لها بالممارسات الأمريكية الاقتصادية ذات الأقنعة الثقافية. ولن تفلح هذه المحاولات فى تحسين صورة تعرفها دوائر الاستشراق الغربى بمراكزه البحثية ومؤسساته أكثر مما يعرفها المسلمون أنفسهم (198).

الهوامش

(1) السيد يس: الفكر العربى والزمن، أين نحن من نهضة مطلع القرن؟، مجلة عالم الفكر، المجلد السادس والعشرون، يناير- يونيو، الكويت 1998، ص425.

(2) بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية، مصر 1760-1840، ترجمة محروس سليمان، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة ط1 1993.

(3) صلاح عيسى: الثورة العرابية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1 1972، ص41.

(4) طارق البشرى: المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية، دار الشروق القاهرة 1988، ص11.

(5) السيد يس: مرجع سابق، ص426.

(6) مسعود ضاهر: النهضة العربية والنهضة اليابانية، تشابه المقدمات واختلاف النتائج، عالم المعرفة الكويت 1999.

(7) طارق البشرى: مرجع سابق ص11.

(8) محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر ص121 القاهرة 1971، الهيئة العامة للكتاب.

(9) لويس عوض: تاريخ الفكر المصرى الحديث جـ2، دار الهلال، القاهرة 2001 ص10.

(10) نفسه، ص 9.

*يعدد لويس عوض دوائر اهتمام الباحثين بتاريخ مصر الحديث فى أعقاب 1967 مثل أبحاث: محمد أنيس عن حريق القاهرة، وكتاب صلاح عيسى عن الثورة العرابية، وكتاب فتحى رضوان عن أعلام فترة ما بين الحربين العالميتين.. إلخ (المرجع السابق ص10).

(11) عبد الله شلبى: الدين والصراع الاجتماعى فى مصر (1970-1985) كتاب الأهالى رقم 67 القاهرة 2000، ص33.

(12) نبيل عبد الفتاح: المصحف والسيف مدبولى، القاهرة 1984، ص40.

(13) صادق جلال العظم: نقد الفكر الدينى، دار الطليعة، بيروت ط8 1997، ص97.

(14) محمد عابد الجابرى: إشكاليات الفكر العربى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1994، ص 133.

(15) السيد يوسف: الإخوان المسلمون وجذور التطرف والإرهاب فى مصر، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة 1999، ص51.

* تعتبر أعمال خليل عبد الكريم مثل: "محمد والصحابة" و"الصحابة والصحابة" و"الصحابة

والمجتمع" نصوصا تدور فى هذا الإطار بامتياز، فالكاتب طوال هذه الأعمال يعتبر دخول العرب إلى مصر غزوا وليس فتحا، بالإضافة إلى نقده الشديد للعنصر العربى حضاريا وثقافيا.

*مثال على ذلك: الجدل الذى ثار بين قاسم عبده قاسم ومحمد حسين يونس حول هذه المسألة فى مجلة وجهات نظر- العددان 14، 15، السنة الثانية، دار الشروق، القاهرة 2000.

(16) جلال أمين: نحو تفسير جديد لأزمة الاقتصاد والمجتمع فى مصر، مدبولى، القاهرة 1989، ص 145.

(17) وليد عبد الناصر: الصدام بين عبد الناصر والشيوعيين رؤية جديدة، مجلة أحوال مصرية، العدد 12، القاهرة 2001، ص133.

*يؤكد هذه النظرية العديد من الممارسات فى هذا المجال مثل:

-عبد الباسط عبد المعطى "المحرر" الطبقات الاجتماعية ومستقبل مصر، دار ميريت القاهرة ط1 2002.

-سامية سعيد إمام: من يملك مصر؟ دار مصر المحروسة، القاهرة ط3، 2003.

(18) أحمد بهاء الدين: دور الاستعمار فى التخلف الحضارى، مجلد أزمة التطور الحضارى فى الوطن العربى الكويت، ص158.

(19) حليم بركات: المجتمع العربى المعاصر، بحث استطلاعى اجتماعى، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط6، 1998، ص398.

(20) محمد كامل ضاهر: الصراع بين التيارين الدينى والعلمانى فى الفكر العربى الحديث والمعاصر، دار البيرونى، بيروت، ط1، 1994، ص39.

(21) المرجع السابق ص11.

(22) أودنيس: الثابت والمتحول، بحث فى الإبداع والاتباع عند العرب جـ4، دار الساقى، بيروت ط7 1994 ص46.

(23) المرجع السابق ص47.

(24) نفسه ص29.

(25) ماهر الشريف: رهانات النهضة فى الفكر العربى، دار المدى، دمشق، 2000، ص19.

(26)المرجع السابق ص35.

(27) ألبرت حورانى: الفكر العربى فى عصر النهضة 1798-1939، ترجمة كريم عزقول، جار نوفل، بيروت 1997 ص53.

(28) المرجع السابق ص60.

(29) محمد عابد الجابرى: المشروع النهضوى العربى، مراجعة نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط1 1996 ص20.

(30) ماهر الشريف: مرجع سابق ص38 وأيضا ألبرت حورانى مرجع سابق ص52.

(31) حليم بركات: مرجع سابق ص410.

(32) ألبرت حورانى: مرجع سابق.

(33) محمد جابر الأنصارى: الفكر العربى وصراع الأضداد، المؤسسة العربية الحديثة للدراسات والنشر ط1 بيروت 1996 ص72.

(34) على المحافظة: الاتجاهات الفكرية عند العرب فى عصر النهضة، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ط5 1987 ص11.

(35) لويس عوض: تاريخ الفكر المصرى الحديث، الخلفية التاريخية، دار الهلال، القاهرة 1994.

(36) نفسه ص19.

(37) نفسه ص20.

(38) نفسه ص20 إلى ص38.

(39) نفسه ص44.

(40) نفسه ص5.

(41) نفسه ص4.

(42) نفسه ص55.

(43) نفسه ص73.

(44) نفسه ص75.

(45) نفسه ص108.

(46) نفسه ص109.

(47) نفسه ص55.

(48) نفسه ص47.

(49) نفسه ص195.

(50) نفسه ص176.

(51) نفسه ص190.

(52) نفسه ص81.

(53) نفسه ص126.

(54) نفسه ص127.

(55) نفسه ص176.

(56) محمد سعيد العشماوى: مصر والحملة الفرنسية، الهيئة العامة للكتاب القاهرة 1999.

(57) المرجع السابق ص34.

(58) نفسه ص41.

(59) نفسه ص55.

(60) نفسه ص55.

*الأقواس الداخلية موجودة فى الأصل.

(61) نفسه ص56 إلى ص63.

(62) نفسه ص72.

(63) نفسه ص73.

(64) نفسه ص72.

(65) نفسه ص72.

*الأقواس الداخلية موجودة فى الأصل.

(66) نفسه ص83.

(67) نفسه ص63.

(68) نفسه ص 63.

(69)نفسه ص123-142.

(70)طارق البشرى: المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية مرجع سابق ص11.

(71)لويس عوض: مرجع سابق ص 126.

(72) المرجع ص156.

(73)نفسه ص132 إلى ص138.

(74)سعيد العشماوى: مصر والحملة الفرنسية، مرجع سابق ص192 إلى 195.

*يعتقد الباحث وانطلاقا من سيناريو تشاؤمى أن الدين مازال يشكل الرابطة القومية لأغلبية المصريين وأن هناك أغلبية تحلم بالوحدة الإسلامية القائمة على الدين حتى من البسطاء وعدم التفاف المثقف الباحث عن النهضة وحدودها وشروطها إلى أغلبية الناس يعبر عن حالة من المثاقفة لن تنتهى.

(75)لويس عوض: مرجع سابق ص68.

(76) محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة 1971.

(77) المرجع السابق ص12.

(78)المرجع السابق ص23.

(79) محمد جلال كشك: مرجع سابق ص45.

(80) نفسه ص46.

(81)نفسه ص33 إلى 53.

(82) نفسه ص35.

(83)نفسه ص88.

(84)نفسه ص88.

(85)نفسه ص92.

(86) نفسه ص92.

(87)نفسه ص249.

(88) نفسه ص252.

(89) نفسه 287.

(90)نفسه ص220.

(91) نفسه ص220.

(92) نفسه ص221.

(93) نفسه ص221.

(94) نفسه ص395.

(95) نفسه ص165.

(96) نفسه ص393.

(97)نفسه ص3.

(98) مصطفى عبد الغنى: حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية: الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة 2001 ص 7.

(99) المرجع السابق ص22.

(100)نفسه ص27.

(101) نفسه ص33.

*يرى جلال كشك أيضا أن الحملة الفرنسية تدخل ضمن الحملات الصليبية وإن كانت تتسم (بقدرة هائلة على النفاق والدجل والادعاء) كشك: مرجع سابق ص145.

(102)مصطفى عبد الغنى: مرجع سابق ص50.

(103)نفسه ص59.

(104) نفسه ص68.

(105)نفسه ص121.

(106) نفسه ص122 إلى 129.

(107) نفسه ص146.

(108) نفسه ص152.

(109) نفسه ص41.

(110) نفسه ص42.

(111) نفسه ص93.

(112)نفسه ص42.

(113) نفسه ص16.

(114) نفسه ص16.

(115) ليلى عنان: الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير؟، دار الهلال القاهرة 1998، ج1، ص18.

(116) المرجع السابق ص18.

(117) نفسه السابق ص18.

(118) ليلى عنان: الحملة الفرنسية فى محكمة التاريخ ج2، دار الهلال القاهرة 1998 ص11.

(119) المرجع السابق ص258.

*الأقواس الداخلية موجودة فى الأصل.

(120) المرجع السابق ج1 ص16.

(121) نفسه ص17.

(122) مسعود ضاهر النهضة العربية والنهضة اليابانية، تشابه المقدمات واختلاف النتائج، مرجع سابق.

(123) رءوف عباس: المجتمع اليابانى فى عصر مايجى، دار النشر، ط1، القاهرة 2000.

(124) مصطفى عبد الغنى: تيارات الفكر العربى المعاصر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2001.

(125) المصدر السابق ص11.
(126) المصدر السابق ص71.
*كل الأعمال السابق الإشارة إليها على مدى هذه الدراسة حولت الجبرتى إلى نص مفتوح قابل لكل التأويلات والاقتباس والحذف.. إلخ، مما جعل ليلى عنان فى كتابها الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير لا تعتمد عليه.
(127)المرجع السابق ص18.
*الأقواس الداخلية تشير إلى اقتباس المؤلف من الجبرتى.
*مع تجاوز نظريات مثل تحلق الجماهير ومداعبتها ودغدغة ما تؤمن به.
(128) أحمد عبد المعطى حجازى: نعم لفولتير لا لبونابرت، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة 1998.
(129)المرجع السابق ص45.
(130)نفسه ص11.
(131) نفسه ص34.
(132) نفسه ص53.
(133) نفسه ص132.
(134)نفسه ص132.
(135)نفسه ص147.
(136) نفسه ص131.
(137) نفسه ص133.
(138) المرجع السابق ص153.
(139) بيتر جران: الجذور الإسلامية للرأسمالية، مصر 1760-1840، ترجمة محروس سليمان، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة 1993 ط1.
(140)المرجع السابق ص15، 16.
(141) المرجع السابق ص 5.
*يرى أحد الباحثين أن دراسة بيتر جران من الدراسات النقدية الرائدة والتى كان (لها أثر واضح فى إعادة وفهم تاريخ مصر فى العصر العثمانى والعصور اللاحقة، إذ أصبح من الصعب الآن اعتبار الحقبة العثمانية حقبة من الظلام والخمول والتدهور على كافة الأصعدة).. خالد فهمى: كل رجال الباشا محمد على وجيشه وبناء مصر الحديثة، ترجمة شريف يونس، دار الشروق، القاهرة ط 1، 2001، ص 34.
(142) بيتر جران: مرجع سابق ص 5.
(143) نفسه ص 38.
(144) نفسه ص 42.
(145) نفسه ص 50.
(146) نفسه ص 54.

(147)نفسه ص 62.
(148)نفسه ص 62.
(149)نفسه ص 62.
(150)نفسه ص 49.
(151)نفسه ص 44.
(152) نفسه ص 59.
(153)نفسه ص 47،46.
(154) نفسه ص 147.
(155) نفسه ص 36.
(156) نفسه ص 22.
(157) نفسه ص 38 إلى ص 66.
(158) نفسه ص 9.
(159) نفسه ص 79 إلى ص 104.
(160) نفسه ص 83.
(161)نفسه ص 85.
(162) نفسه ص 86.
(163)نفسه ص 117 إلى ص 138.
(164) نفسه ص 119.
(165) نفسه ص 12.
(166)نفسه ص 149.
(167) نفسه ص 149.
(168) رءوف عباس من تقديمه لكتاب نيللى حنا: ثقافة الطبقة الوسطى فى مصر العثمانية ق16م – ق 18 م، ترجمة رءوف عباس، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ط1 2003، ص 14.
*الكتاب الأخير صادر باللغة الإنجليزية عن جامعة سيراكيوس بولاية نيويورك- أمريكا.
(169) نفسه ص 13.
(170) نفسه ص 36.
(171) نفسه ص 44.
(172) نفسه ص 37.
*وهى رؤية انشطارية حادة تعتقد بموت ثقافة الأطراف فى ظل هيمنة المركز، وبالتالى يأتى تأزمها من وضعها للثقافة بين خيارين إما.. وإما.. ولكى تثور على هذا الخيار التقليدى تبتدع لنفسها رؤية تقوم على فاعلية ثقافة الأطراف فى ظل هيمنة المركز، وتحتاج الرؤية التقليدية والرؤية المضادة لها إلى إعادة النظر، فمع إيمان الباحث بهيمنة المركز على الأطراف، فإن ثقافة هذه الأطراف لم تكن فاعلة وحتى الآن وخلال الحقبة التى تدرسها نيللى حنا. ومع ذلك فإن ثقافتها لم تمت ولا يمكن الحديث عن موتها أو تصور ذلك. وهل يمكن الحديث عن موت الثقافة العربية فى ظل هيمنة أمريكية لم تشهدها من قبل؟ وفى المقابل هل يمكن الحديث عن أى فاعلية للثقافة العربية فى الوقت الحالى؟

(173) خالد فهمى: حين كانت مصر تبحث عن الحداثة، مقال منشور بمجلة وجهات نظر العدد الرابع والستون، القاهرة مايو 2004.

(174) نيللى حنا: مرجع سابق ص 48.

(175)نفسه ص 71.

(176) نفسه ص 79.

(177) نفسه ص 61.

(178)نفسه ص 80.

*يعطى الباحث مجرد أمثلة من عشرات غيرها يمتلئ بها الكتاب حول الرغبة فى الخروج على النموذج الغربى مما يؤدى أحياناً إلى التناقض والوقوع فى أسر هذا النموذج وتبعيته مرة أخرى.

(179)نفسه ص 45.

(180) نفسه ص 100.

(181)نفسه ص 94.

(182) نفسه ص 133.

(183) نفسه ص 136.

(184)نفسه ص140.

(185) نفسه ص 142.

(186)نفسه ص 152.

(187) نفسه ص 118.

(188) نفسه ص 113.

(189)نفسه ص 188.

(190) نفسه ص من 188 إلى ص 206.

(191) نفسه ص 34.

(192) نفسه ص 83.

(193) نفسه ص 32.

(194) نفسه ص 221.

*المفارقة هنا أن النتيجة الوحيدة التى أحدثت تحولاً شبه جذرى من قبل ثقافة الطبقة الوسطى إزاء السلطة الحاكمة جاءت من قبل علماء الأزهر التى تنتقد المؤلفة ثقافتهم، حيث استطاعوا بقيادة عمر مكرم تثبيت محمد على فى حكم مصر. ويرى البعض أن هذه الخطوة جاءت نتيجة التأثر بالحملة الفرنسية وأفكارها فى مصر.

(195) نفسه ص 72.

(196) نفسه ص 94.

(197)نفسه ص 73.

*والسؤال ماذا كان يحدث لو استمر نظام الكتاتيب معمولاً به إلى يومنا هذا فى القاهرة والمدن الكبرى؟ وتأتى تلك النظرة من أستاذة تاريخ قاهرية تُدرس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة وتكتب مؤلفاتها

باللغة الإنجليزية، وفى عام 1980 دخل الباحث إلى كُتاب فى مدينة المحلة الكبرى بزخمها العمالى والثقافى. وعلى الرغم من تطور الكُتاب كثيراً عن الصورة الهزلية التى قدمها طه حسين فى (الأيام) فإن المواد التعليمية فى الكتّاب اقتصرت فى عام 1980 على حفظ قصار السور القرآنية ومبادئ اللغة العربية والعقاب كان يتم عبر الفلقة أو الضرب على الأيدى بخشبة مملوءة بالمسامير.

*يلاحظ انطلاق نيللى حنا من مقولات غربية واعتماد الدراسة فى معظمها وفى أفكارها الأساسية على المصادر الغربية.

(198)يمكن الرجوع بخصوص هذه النقطة إلى:

جلال أمين: عصر التشهير بالعرب والمسلمين.. نحن والعالم بعد 11 سبتمبر 2001، دار الشروق، القاهرة ط1 2004.

- عام 1798 ميلادية وهو عام قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر.

* * *



حقيقة الصدمة

صدمة الحملة الفرنسية وأثرها فى بناء مصر الحديثة

ا.د. رءوف عباس

لما كانت الحملة الفرنسية على مصر (1798–1801) حدثاً تاريخياً بارزاً لا فى تاريخ مصر وحدها، بل وفى تاريخ الوطن العربى، فقد كانت –دائما- مثارا للجدل على صعيد التحليل والتفسير التاريخى، فقد نظر إليها بعض المؤرخين باعتبارها حافزاً مؤثراً للتغير الثقافى، ورأوا فيها البذور الأولى للثقافة الأوربية التى قادت الوطن العربى على طريق "التحديث" على النمط الأوربى الذى جاء مناسباً للمجتمع العربى[1]. واستخدم مؤرخون آخرون معياراً آخر لتقييم آثار الحملة على مصر وجاراتها العربيات، فذهبوا إلى أن مصر كانت تشق طريقها نحو الرأسمالية قبل قرن من قدوم الحملة، بما صحب ذلك من تغيرات ثقافية، ورأوا فى الحملة خطة مبيتة لإجهاض ذلك التحول، وجر مصر إلى الوراء، فكانت – على هذا النحو- انتكاسة بكل المعايير[2].

ولكننا – فى هذه الورقة – ننظر إلى الحملة الفرنسية باعتبارها "صدمة" مادية وثقافية معاً. فقد كان النصر العسكرى الذى حققه الفرنسيون على المؤسسة العسكرية التقليدية (المماليك) صدمة مأساوية، جعلت المصريين يعيدون النظر فى فكرتهم عن "الفرنجة"، وفى مفهوم السلطة، وحدود الطاعة لولى الأمر، وفيما يتم اتخاذه من إجراءات للصمود فى وجه العدوان، وتحقيق قدر من التوازن مع القوى

الغربية. وفى هذا السياق، تتناول الورقة إصلاحات محمد على باشا (1805-1848) باعتبارها استجابة للصدمة المادية والثقافية الناجمة عن الحملة الفرنسية، أو استجابة للتحدى الأوربى الجديد.

* * *

شكل مجيء الحملة الفرنسية إلى مصر عدوانا أوربيا واسع النطاق على المشرق العربى منذ الحروب الصليبية، فلم تكن هجمات البرتغاليين على أطراف الوطن العربى ذات أثر ملموس فى مصر وجاراتها العربيات. ولعل ذلك يفسر استهانة المماليك والعثمانين بأخبار وصول "الفرنجة" إلى الإسكندرية، وظنوا أن باستطاعتهم أن يدوسونهم تحت سنابك الخيل، ويكسرونهم كما تكسر حبات الفستق، على نحو ما فعل أسلافهم مع الصليبيين من قبل[3]. مما يكشف عن جهل المؤسسة العسكرية التقليدية بالتغير النوعى الذى حققته أوربا خلال القرون الأربعة السابقة على هذا الحدث الجلل. كما يكشف عن عقدة الاستعلاء نحو الغرب التى لا مبرر لها، والتى لن تلبث أن تتحول إلى عقدة نقص عجزنا عن التخلص منها رغم مرور قرنين من الزمان على تاريخ الإصابة بها. وتحقق رجال المؤسسة العسكرية التقليدية ومعهم الناس أن "الفرنجة" قد تغيرت أحوالهم تغيراً كبيراً لم يدركوا كنهه، وأن الفرنسيين يختلفون تماماً عن أولئك "الفرنجة" الذين عرفهم أسلافهم زمن الحروب الصليبية، فقد برعوا فى مجالات كثيرة : القوة العسكرية، والأفكار، والانضباط، والنظام. هذا الإدراك لتغيير أحوال "الفرنجة" لم يكن عفو الخاطر، ولكنه جاء نتيجة المراقبة المتأنية للأحداث والأعمال من جانب النخبة الاجتماعية المصرية : الأعيان، والعلماء، وشيوخ الطوائف، وغيرهم[4].

نجحت الحملة الفرنسية فى احتلال مصر، وتصفية معظم المؤسسة العسكرية التقليدية، فترك الناس وحدهم يقاومون الاحتلال بوسائلهم المتواضعة. وما لبثوا أن تساءلوا عن مبرر وجود الحكام الذين عجزوا عن حماية البلاد والعباد والممتلكات والأعراض، وانسحبوا إلى الصعيد، وصحب انسحابهم إلحاق الأذى

بالقرى وأهلها، فلا عجب أن ترى النخبة الاجتماعية من "الرعية" أن استمرار الحال من المحال، وأن تغييراً للعلاقة بين الحكام والرعية أصبح ضرورة ملحة. ولذلك لم يلزم المصريون جانب الاستكانة إزاء المظالم التى صاحبت عودة العثمانيين والمماليك إلى مواقع السلطة بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر، ونظم الأهالى حركة مقاومة مدنية فعالة ضد عناصر النظام القديم، وفى هذا الإطار يمكننا النظر إلى الحدث الفريد الذى تمثل فى إقدام نخبة المصريين على اختيار محمد على (قائد الجند الألبان المرتزقة) والياً على مصر، وفرضه على السلطان بإرادة الرعية، فقد كان ذلك الحدث بمثابة "هزة ارتدادية" نتجت عن صدمة الحملة الفرنسية. وكانت الشروط التى ضمنتها النخبة المصرية فى "الحجة" التى كتبوها بهذه المناسبة ومهرها محمد على بخاتمه، والتى ألزمت الوالى الذى اختاره الأهالى باستشارة جماعة النخبة فى كل أمر من الأمور، فلا ينفرد بالقرار وحده[5].

بقى النظر فى الأسباب الغامضة للتحسب للقوة العسكرية للغرب كما عبرت عنها الحملة الفرنسية، والتفكير فى التماس سبيل النجاة من مواجهة واسعة النطاق بين الشرق والغرب. فبعد صدمة الهزيمة مباشرة، ظن الناس أن ما حاق بهم عقاب من الله لارتكابهم الخطايا، فسلط الله عليهم شر خلقه (الكفار) ليلحقوا الهزيمة بهم جزاءً وفاقا لما جنت أيديهم، فأصابتهم الهزيمة، وحل بينهم الذل والمسكنة. ولكن النخبة المصرية كانت أكثر حكمة فأدركوا ما كان لتفوق الفرنسيين فى السلاح والعتاد والانضباط والنظام من أثر فى وقوع تلك الكارثة. ولكن كيف استطاع "الفرنجة" بلوغ هذه الدرجة من التفوق على المسلمين، سؤال ظل يتردد فى أذهانهم بحثاً عن إجابة. وما لبث أن أتاحت زيارة "المجمع العلمى المصرى" الذى أقامه بونابرت بالقاهرة، تلك الزيارة التى قام بها العلماء بدعوة من بونابرت، ما لبثت أن جعلتهم يهتدون إلى الإجابة عن السؤال المحير، والوقوف على السر وراء تفوق "الفرنجة" ، إنه التفوق فى مجال العلم، وأدرك العلماء أن إتقان علوم "الفرنجة" ضرورى لبلوغ المسلمين درجة من التطور المادى، تكفل لهم درء الخطر عن بلادهم، وتحقيق قدر من التوازن أمام القوى الغربية[6].

كان الشيخ حسن العطار أحد العلماء الأزهريين الشبان الذين زاروا "المجمع العلمى المصرى"، فعقد العزم على معرفة المزيد عن الفرنسيين، وحاول أن يتعلم لغتهم من منطلق أن معرفة الشعوب تكفل له الوقوف على أسباب القوة والمنعة عندهم. وإذا كان قد أخطأه التوفيق فى تعلم اللغة، فقد خص تلميذه الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى على ذلك. وعندما طلب محمد على من الشيخ العطار أن يرشح له أزهريا مستنيرا ليصبح إماماً للبعثة التعليمية الأولى التى أوفدها الباشا على فرنسا عام 1826، رشح العطار على الفور تلميذه الطهطاوى لهذه المهمة، وقبل سفر البعثة، نصح الأستاذ تلميذه بإتقان اللغة الفرنسية والوقوف على أحوال المجتمع الفرنسى : ونجح الطهطاوى فى تعلم الفرنسية وإتقانها فى فترة وجيزة، وألف كتابه الشهير "تخليص الإبريز فى تلخيص باريز" الذى ذهب فيه إلى أن النظام الاجتماعى والسياسى يمثل حجر الزاوية فى القوة المادية لأوربا، وأن المسلمين يستطيعون اكتساب علوم الغرب دون أن يؤثر ذلك على ثقافتهم، فالعلوم الحديثة ضرورية لبناء الأمم وتزويدها بأسباب القوة، ورأى أن باستطاعة المسلمين اقتباس العوامل المادية للقوة الأوربية مثل : النظام العسكرى الحديث، والنظام الإدارى، والتعليم الحديث، والصناعة الحديثة لبناء قوة ديار الإسلام مع الاحتفاظ بالأصول الإسلامية(7).

وبعبارة أخرى، أدى البحث عن أسباب القوة العسكرية لأوربا – كما عبرت عنه الحملة الفرنسية– إلى إعادة اكتشاف أوربا، وقدم الأفكار الأساسية للإصلاحات التى قام بها محمد على باشا، استجابة للتحدى الأوربى ممثلا فى الحملة الفرنسية.

فقد كان محمد على من أوائل الذين فطنوا إلى الدلالات السياسية والعسكرية للحملة الفرنسية، رغم أنه لم ينل حظاً من التعليم يتيح له إدراك ذلك، ولكنه – دون شك– كان رجل دولة بالفطرة، يتسم ببعد النظر، وحسن تقدير الأمور. فرأى محمد على فى الحملة الفرنسية فصلاً جديداً من فصول الصراع بين الدولة العثمانية وأوربا التى تسعى إلى تصفية الدولة العلية، وأن قدر الدولة العثمانية يدفعها إلى مواجهة هذا التحدى بالتزود بأسباب القوة التى تجعل الدول الأوربية تحسب لها

حساباً. ولما كان الرجل عسكرياً، فقد كان الجيش الحديث – عنده–حول القوة الرادعة الفعالة. ولما كان ضابطاً لفرقة من الجند المرتزقة، فإن وضعه لا يؤهله للعب دور فى بناء الدرع العسكرى الواقى الذى يحمى الدولة العثمانية من أطماع الغرب، فقد ركز جهوده للوصول إلى منصب والى مصر بمساعدة أعيانها، ليستغل موارد البلاد فى بناء القوة العسكرية التى يتطلع إليها، ثم يسعى للضغط على السلطان العثمانى حتى يفوضه أمر إصلاح شأن الدولة كلها على نحو ما فعل فى مصر، ولا يعنى ذلك أن محمد على كان يسعى إلى استئناف المواجهة العسكرية بين أوربا والدولة العثمانية، ولكنه كان يريد أن يصل بالقوة العسكرية للدولة إلى الدرجة التى تحقق درجة كافية من الردع، تجعل القوى الأوربية تتحسب لقوة الدولة قبل الإقدام على مغامرة عسكرية ضدها(8).

وقد بدأ محمد على تنفيذ خطته عقب اختيار النخبة المصرية له والياً على مصر، وفرضه على السلطان بإرادة الشعب، ولما كان بناء الجيش الحديث يحتاج إلى موارد مالية كبيرة، اتجه محمد على إلى إصلاح النظام الاقتصادى حتى يوفر الموارد المالية اللازمة لمشروع بناء القوة العسكرية الحديثة. فسيطرت إدارته على الإنتاج الاقتصادى، وعملت على توسيع نطاقه رأسيا وأفقيا، وأقامت قطاعا صناعياً حديثاً للإنتاج الحربى والمدنى لسد حاجة الجيش الحديث إلى العتاد والعدة. وتولت الإدارة الإشراف التام على التجارة الداخلية والخارجية على السواء(9).

وتضمنت التنمية الاقتصادية مشروعات كبيرة للرى وإقامة المصانع وترسانة بناء السفن، وغير ذلك من المشروعات التى احتاجت إلى الخبرة الفنية الحديثة، فقام محمد على باستخدام الخبراء الفرنسيين الذين فضلهم على غيرهم من الأوربيين بسبب ميله إلى فرنسا من ناحية، كما أن فرنسا أصبحت – عند بداية مشروعاته التنموية فى مطلع العقد الثانى من القرن التاسع عشر – دولة مسالمة، تعلق جراحها الناتجة عن سقوط الإمبراطورية الفرنسية، كما كان هناك جيش جرار من أهل الخبرة الفرنسيين : أطباء، ومهندسين، وضباط يعانون البطالة. وقد جاء استقدام هؤلاء

للالتحاق بخدمة مصر من خلال وكلاء من التجار الفرنسيين، كلفهم محمد على بتدبير حاجته من الخبراء، ولم يلجأ إلى الحكومة الفرنسية مباشرة لطلب العون تجنباً للتدخل الأجنبى فى شئون مصر الذى كان يحرص دائما على عدم إتاحة الفرصة له. وقد اختار بعض أولئك الفرنسيين الذين دخلوا فى خدمة محمد على مصر وطناً ثانياً لهم، وخاصة أتباع سان سيمون، وساهموا بمساهمة فعالة فى بناء الجيش الحديث ومشروعات الرى والتنمية الزراعية والصناعية والتعليم طوال عهد محمد على، وخلال عهود خلفائه من خلال تلاميذهم من المصريين (10).

أدى سقوط الإمبراطورية الفرنسية – بعد هزيمة نابليون – إلى تسريح ضباط الجيش الفرنسى الذين تعاقد معهم محمد على للخدمة فى جيشه الحديث، وكان فى طليعتهم الكولونيل سيف Sève الذى تولى تدريب الضباط المصريين الأوائل فى جيش محمد على بالمدرسة الحربية بأسوان التى نقلت فيها بعد إلى أبى زعبل. وقد اعتنق سيف الإسلام، وتزوج من امرأة مسلمة، وأصبح يحمل اسم "سليمان باشا الفرنساوى"، واتخذ من مصر موطنا له، ومات ودفن بها. وكان رئيسا للأركان فى الجيش المصرى تحت قيادة إبراهيم باشا بن محمد على، وشارك فى جميع معاركه الحربية، ولعب الدور الأساسى فى تنظيمه على النمط العسكرى الفرنسى(11).

ويرجع إلى سليمان الفرنساوى الفضل فى إقناع محمد على بإدخال نظام التجنيد العسكرى الذى طبق على المصريين بين الفلاحين، معجلا بذلك تطوراً هاماً فى بناء الدولة الحديثة فى مصر والمشرق العربى، فقد أصبح الجيش المصرى الذى يعتمد على الجنود الفلاحين والضباط الذين دربوا على النسق الفرنسى، قوة إقليمية ذات شأن كبير، كما اعتمد الأسطول المصرى الحديث على الخبرة الفرنسية مع بعض التعديلات التى تتفق مع متطلبات القوات العسكرية المصرية(12).

واستجابة للصدمة الناجمة عن الحملة الفرنسية لجأ محمد على إلى الخبراء الفرنسيين فى صياغة نظام التعليم الحديث لتخريج الكوادر المصرية اللازمة للجيش والبحرية ومشروعات التنمية الاقتصادية والإدارة. فاستعان بالمعلمين الفرنسيين

من مختلف التخصصات للتدريس بالمدارس العليا مثل : الطب والمهندسخانة وغيرها فى المراحل الأولى من النظام التعليمى الحديث، وما لبث أن حل محلهم المصريون الذين عادوا من البعثات الخارجية التى اتجه معظمها إلى فرنسا، وكان كلوت بك الفرنسى أول ناظر لمدرسة الطب، وعمل معه بعض الأطباء الفرنسيين الذين قضوا حياتهم العملية فى مصر.

ويتجلى التأثير الفرنسى فى صياغة النظام التعليمى الحديث فى مصر فى لائحة عام 1836 التى حددت هيكل النظام التعليمى. فقد ساهم خبراء التعليم الفرنسيين فى معاونة "ديوان المدارس" فى وضع تلك اللائحة التى حاكت النظام الفرنسى، فنصت على ثلاث مراحل تعليمية: المبتديان (الابتدائى)، والتحضيرى (الثانوى)، والخصوصى (العالى)، وسارت المقررات الدراسية ونظم الامتحانات على الدرب الفرنسى. وظل التأثير الفرنسى فى نظام التعليم المصرى قائما – بصورة أو بأخرى– طوال القرن التاسع عشر، رغم الجهود المضنية التى بذلها الاحتلال البريطانى للقضاء على النفوذ الثقافى الفرنسى فى مصر[13].

كان اتخاذ فرنسا نموذجاً للثقافة الأوربية، ومصدراً للمعرفة الحديثة، تعبيراً عن "الصدمة" الثقافية الناجمة عن الحملة الفرنسية، فلم يقتصر اعتماد محمد على على الخبراء الفرنسيين لتنظيم المدارس الحديثة فحسب، بل اختار فرنسا مقصداً للبعثات التعليمية التى أوفدها إلى الخارج للدراسات العليا وللتدريب الفنى رفيع المستوى. فرغم إرسال محمد على للبعثات الثلاث الأولى إلى إيطاليا (1813، 1816) وبريطانيا (1817)، اتجهت بعثاته العلمية الكبرى إلى فرنسا (1826، 1828، 1844) وأقام مدرسة مصرية خاصة فى باريس؛ لإعداد طلاب البعثات للالتحاق بالمدارس العليا الفرنسية"، عن طريق تعليمهم اللغة الفرنسية والرياضيات وغيرها من العلوم الأساسية باللغة الفرنسية على أيدى معلمين تم اختيارهم بعناية كبيرة، وتولى إدارة المدرسة عالم فرنسى بارز ممن جاءوا إلى مصر مع الحملة الفرنسية، وساهموا فى كتابة موسوعة "وصف مصر"، كما كان رئيساً للبعثة، له مطلق اليد فى توجيه طلابها إلى

مجالات الدراسة التى يصلح لها، وكان عليه أن يوافى محمد على بتقارير دورية عن أداء كل طالب على حدة، ومدى تقدمه فى دراسته.

وبلغ عدد الطلاب الذين أوفدوا إلى فرنسا فى البعثات الثلاث ما يربو على 130 طالبا، تم اختيارهم بعناية كبيرة، وإعدادهم للعودة إلى مصر بآخر ما وصلت إليه فروع العلوم التى تخصصوا فيها مثل : القانون، والإدارة، والهندسة، والطب، وهندسة الرى، والفلك، والرياضيات، والتخصصات البحرية والعسكرية.

وشغل المبعوثون المناصب التى تلائم تخصصاتهم بعد عودتهم إلى مصر، فحلوا بذلك محل الأجانب بما فيهم الفرنسيين، وإن كان تأثرهم بالثقافة الفرنسية ظل واضحاً. ولعل ذلك يفسر استمرار التأثير الفرنسى فى النظام التعليمى المصرى طوال القرن التاسع عشر(14).

ومن الطبيعى أن نجد بين أعضاء البعثات المصرية التى أوفدها محمد على إلى فرنسا أسماء بعض كبار رجال التعليم، والعلماء، ورواد الفكر العربى الحديث مثل رفاعة رافع الطهطاوى وعلى مبارك اللذان وضعا أسس النظام التعليمى المصرى فى القرن التاسع عشر، ولعبا دوراً بارزاً فى الإصلاح الاجتماعى والثقافى فى إطار توفيقى يوائم بين الموروث الثقافى العربى الإسلامى، والمعرفة الغربية الحديثة، وحملا لواء الدعوة إلى بناء المجتمع الحديث فى مصر على أسس المنجزات المادية الغربية مع الاحتفاظ بالقيم الثقافية.

ولعب رفاعة الطهطاوى دوراً بارزاً فى نقل المعرفة الحديثة إلى العالم العربى من خلال مشروع الترجمة الكبير الذى ساهم فيه وتلاميذه، فقد تولى مسئولية "قلم الترجمة" فكانت الترجمات التى أنجزها ذلك المشروع فى مختلف فروع المعرفة، وبلغت نحو 2500 كتاب، كانت بمثابة الجسر الذى يربط بين الثقافة الأوربية (مرتكزاً على فرنسا) والعالم العربى، بل امتد هذا الجسر ليشمل بلادا إسلامية أخرى نتيجة إعادة ترجمة الكثير من الكتب التى تم نقلها عن الفرنسية إلى العربية، فترجمت عن العربية إلى الفارسية والتركية.

وثمة مظهر آخر من مظاهر الاستجابة للصدمة الثقافية الناجمة عن الحملة الفرنسية، تمثلت فى إدراك محمد على باشا لأهمية إقامة هياكل النظام الإدارى فى مصر على أسس حديثة، فاستعان بخبير فرنسى لوضع أسس النظام الإدارى الحديث الذى صدر بموجب قانون "سياستنامة" عام 1836 الذى نظم الدواوين ليضع بذلك حجر الزاوية للنظام الوزارى الحديث، ولكن محمد على رفض اقتراح الخبير الفرنسى لإقامة مجلس نيابى لأنه رأى أن ذلك لا يناسب البلاد.

* * *

وهكذا، كانت الحملة الفرنسية "صدمة" أصابت المصريين بالاضطراب، ودفعتهم إلى استيعاب الدروس المستفادة منها، وقد دفعت تلك الصدمة بالمجتمع المصرى إلى مرحلة جديدة من تاريخه بعدما أثبت النظام التقليدى القديم عجزه عن مواجهة المتغيرات التى أوجدتها الحملة الفرنسية على أرض الواقع، ومن ثم سعى المصريون إلى البحث عن مخرج من هذا المأزق يفرض حاكما من اختيارهم.

وكانت إصلاحات محمد على باشا – الحاكم الذى اختاروه – بمثابة الاستجابة للصدمة التى نتجت عن الحملة الفرنسية فسعى محمد على إلى التزود بالأسس اللازمة لبناء دولة حديثة قوية، ما لبثت أن أصبحت قوة إقليمية ذات بال، وكان النموذج الفرنسى يُشكل الإطار المرجعى لإصلاحات محمد على فى مختلف المجالات التى استمر ما اتصل بالثقافة منها يلعب دوراً مؤثراً حتى نهاية القرن التاسع عشر.

لقد كانت الحملة الفرنسية على مصر حافزاً للتطور الذى تحقق من خلال استجابات محمد على لصدمة الحملة، فكانت تلك الصدمة عاملاً مساعداً لمشروع الدولة الحديثة فى مصر، ولم تكن – فى حقيقة الأمر – صانعة له.

الهوامش

(1) لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث، القاهرة 1980، ج1، ص35.

(2) Gran, Peter, Islamic Roots of Capitalism, Egypt 1760-1840, Austin, University of Texas, 1979, Chapter 1.

(3) انظـر التفـاصيـل فـى عـبد الـرحمـن الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، طبعة بولاق، المجلد 3.

(4) عبد الرحمن الرافعى، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، القاهرة 1958، ج2، ص ص 253-290.

(5) الجبرتى، نفس المصدر، ونفس المجلد.

(6) راجع رواية الجبرتى لانطباعاته عن الزيارة فى المصدر السابق، نفس المجلد.

(7) Abu- Lughud, Ibrahim, Arab Rediscovery of Europe, Prenceton 1963, pp. 11-27; See also : Hourani, Albert, Arabic Thought in Liberal Age 1798-1939, Cambridge 1983, Chapter 2.

(8) للمزيد من التفاصيل حول سياسة محمد على راجع : عفاف لطفى السيد، محمد على، وهيلين رفلن، الاقتصاد والإدارة فى مصر فى عصر محمد على.

(9) أحمد الحتة : تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر، القاهرة 1955،ص ص 77-102.

(10) محمد طلعت عيسى :أتباع سان سيمون، فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها فى مصر، القاهرة 1957، ص ص 121-146.

(11) عبد الرحمن زكى : الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا، القاهرة 1939، ص ص 23-31.

(12) على شلبى، المصريون والجندية فى القرن التاسع عشر، القاهرة 1988، ص 21-22.

(13) انظر : أحمد عزت عبد الكريم، تاريخ التعليم فى مصر محمد على، القاهرة 1938.

(14) Hamont, P. N., : L 'Égypte sous Mehmet Ali, Vol.2, Paris 1843, p.202 : Mahfouz, N., History of Medical Education in Egypt, Cairo 1935, pp. 23-40.

* * *

الفرنسيون فى مصر..
واستثارة العقل !!

أ.د. عاصم الدسوقى

لم تكن الحملة الفرنسية على مصر (1798-1801) مجرد غزوة عسكرية صاحبتها أعمال من العنف والتدمير والحصار والملاحقة والمطاردة وارتكاب الأعمال المنافية للآداب، فإن هذه الأعمال اللاأخلاقية تصحب عادة الحروب التى هى فعل لا أخلاقى بطبيعة الحال. وعلى هذا فإنه لا يصح ونحن نتحدث عن الحروب أن نبحث عن الأخلاق، ولا يجوز أن نحتكم إلى معيار أخلاقى لتقويم عمل لا أخلاقى. ورغم أن هذه الأعمال التى تصحب الحروب والغزوات تترك آثارا عميقة فى النفوس يصعب نسيانها، وتولد أحقادا عند الذين أصيبوا منها إصابات مباشرة يصعب التخلص منها، إلا أن التاريخ لا يتوقف عندها كثيرا ولا تحتل فى سجلاته صفحات كثيرة، ذلك أن البحث العلمى فى التاريخ يقوم على اكتشاف علة الحوادث وأسبابها، ويتوقف عند النتائج المتداعية وتأثيراتها فى مجمل الأوضاع والتطورات اللاحقة.

ولست أرمى بهذه الكلمات إلى إغفال التداعيات التى تنتج عن أعمال الغزو، ولكنى أدعو إلى تجاوزها والكشف عن الثمرات والتقاطها. ولو كانت الشعوب المغزوة تتوقف عند مسلك غزاتها وذكرى آلامها، لما أدرك أحد معنى التأخر والتخلف، ولما اكتشف أسرار التغير والتقدم.

على أن البحث فى تقويم الوجود الفرنسى فى مصر يبدأ من نقطة الصدام بين قيم ثقافية مختلفة.. فالمجتمع الفرنسى الذى حمل بونابرت إلى مصر كان قد عرف الثورة الصناعية وتقدم بالإنتاج، ووصل إلى مرحلة من فلسفة التنوير حين ثارت البورجوازية على الحكم الملكى الوراثى المطلق وأقامت الجمهورية التى أعلنت مبادئ الحرية والإخاء والمساواة على طريق العلمانية. أما المجتمع المصرى الشرقى العثمانى الذى لاقى الفرنسيين فكان لا يزال مجتمعا يخضع لتحكم الفرق العسكرية المتناحرة (المماليك)، ولحكم أوتوقراطى يفرض نفسه إعمالا لفكرة أن طاعة ولى الأمر من طاعة الله ورسوله.. وكل هذا فى إطار اقتصاد حرفى تجارى بسيط تسببت فى بلورته العزلة التى رانت على البلاد بسبب تحول الطريق العالمى للتجارة منذ مطلع القرن السادس عشر للوصول إلى الشرق الأقصى عبر جنوب إفريقيا بدلا من طريق البحر الأحمر عبر الإسكندرية، ومن ثم انطفاء شرارة الاحتكاك بين الثقافات. وكان التجار قديما فى رحلتهم من الشرق الأقصى إلى أوربا عبر البحر الأحمر يمكثون فى مصر مددا طويلة يتم أثناءها التأثير الثقافى المتبادل فى اللغة والمأكل والملبس والسلوك، والأهم عدم الإحساس بالعزلة إذ العالم يطل على مصر، والمصريون يطلون على العالم من خلال هذه التجارة العابرة.

على كل حال.. فإن استثارة العقل المصرى تبدأ بالمنشور الذى أعده بونابرت يوم 27 يونية 1798 وهو فى عرض البحر وقبل ثلاثة أيام من نزول قواته إلى الشواطئ المصرية فى أول يولية، عندما قال: إن الشيء الذى يميز الناس بعضهم عن بعض هو العقل والفضائل والعلوم فقط.. وإن الأرض المصرية إذا كانت التزاما للحكام المماليك فإن عليهم أن يظهروا الحجة التى كتبها الله لهم.

وعندما يقرأ المثقفون المصريون مثل هذا الكلام وفى مقدمتهم جماعة العلماء فلا بد من أن تهتز لديهم بعض المسلمات.. فهاهم وجدوا من يقول لهم إن الحاكم الذى يستند إلى تفويض إلهى فى الحكم وإلى فكرة أنه مستخلف فى الأرض كرها أو طوعا، أمر غير حقيقى وينقصه البرهان إذ ينبغى على الحاكم أن يبرز الحجة أو الوصية الإلهية فى قيامه بالمنصب. كما وجدوا من يقول لهم إن العقل وحده، وليس الإيمان

أو التقوى، هو معيار التفاضل بين الناس والتمييز بين البشر، وإن من يعرف من العلوم أكثر فهو أفضل من غيره وأجدر بالحكم ممن لا يعرف. ويكفى فى هذا المقام أن نذكر أن عبد الرحمن الجبرتى أبدى امتعاضا ونفورا كبيرا من هذا المعيار إذ قال : هذ كذب وجهل وحماقة.. كيف يتساوى الناس وقد فضل الله بعضهم على بعض..!!

وعندما يفكر بونابرت فى تكوين مجالس استشارية (دواوين) فى القاهرة وفى عواصم الأقاليم (المديريات) من صفوة المجتمع من العلماء والمشايخ والوجهاء ورؤساء الطوائف لم يكن الهدف هو إقامة حكومة نيابية (ديموقراطية) لأن فرنسا نفسها كانت آنذاك ما تزال فى مرحلة الثورة بكل إجراءاتها الاستثنائية ولم تكن قد توصلت بعد إلى صيغة برلمانية مستقرة للحكم. ولكن الجديد هنا أن صفوة المجتمع عرفت أنها يمكن أن تشارك فى الحكم بدرجة أو بأخرى، وأنها ليست عناصر هامشية ينفرد بأمرها أولئك المماليك قادة الفرق العسكرية.

ويبدو واضحا أن بونابرت استهدف من هذه التشكيلات الديوانية التعرف على رأى نخب المجتمع حتى يتعرف سلفا على درجة الاستجابة لما قد يتخذه من قرارات. وليس من المستبعد أن جماعة العلماء رأت فى هذا الإجراء تطبيقا لفكرة الشورى.. أى أخذ الرأى دون إلزام أو التزام، وهو المبدأ الإسلامى الذى تجاوزه الحكام المسلمون فى مباشرتهم لأمور البلاد. ولنتأمل فى هذا الخصوص ما قاله على مبارك فيما بعد فى كتابه "نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر" (1881) : إن من يتأمل أربعة عشر قرنا من حكم ولاة المسلمين لا يجد فيها إلا كل اضطراب وكل اضطراب يؤدى إلى تأخر وانهيار حيث سار هؤلاء الولاة فى الحكم سيرة الرومان.

ومن ناحية أخرى فإن نوعية أعضاء هذه المجالس طبقا لاختيارات بونابرت جعلت النخب المصرية تدرك أن المصريين عبارة عن عدة قوى اجتماعية متوازية لا يفضل أحدها الآخر.. وإلا لماذا كان بونابرت يحرص على أن يكون فى المجالس ممثلون عن التجار والصناع، وممثلون عن مشايخ القرى ورؤساء البدو والأعيان

والفرق العسكرية، وممثلون عن الأقباط وعن الأجانب.. أما كيف توصل بونابرت إلى هذا التقدير النسبى لشرائح المجتمع المصرى فهنا يأتى دور علماء الحملة الذين جاسوا خلال الديار فى النجوع والقرى وحارات المدن يسألون هذا وذاك لإحصاء نسبة تقريبية. ومن المعروف أن جهود هؤلاء العلماء فى دراسة مختلف أوضاع المجتمع المصرى كانت تقارير وضعوها أمام بونابرت ليستنير بها فى قراراته، ثم طبعت فيما بعد فى الكتاب المعروف "وصف مصر".

وعندما اجتمع أعضاء الديوان العام الذى يضم ممثلين عن دواوين الأقاليم بما فيها ديوان القاهرة وطلب منهم أن يختاروا رئيسا للمجلس، أشار الجميع إلى الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر، إلا أن المندوب الفرنسى الذى كان حاضرا الاجتماع اعترض وأفهم المجتمعين أن الاختيار يجب أن يكون سريا عن طريق أن يكتب كل عضو الاسم الذى يراه صالحا ثم تحسب الأصوات (الاقتراع). صحيح أن الأعضاء أجمعوا على اختيار الشيخ الشرقاوى بالاقتراع السرى، إلا أن الأسلوب الذى اتبع فى الاختيار لا بد وأنه جعل الصفوة تدرك الفرق بين أن تختار الجماعة قائدها، وأن يفرض على الجماعة قائد على غير رغبتها.. وعلى هذا.. هل رأت هذه الصفوة هذا الأسلوب من قبل، أو هل سمعت ممن سبقها، أو قرأت فى أدبيات التاريخ عن مثل هذا الأمر.. ألا يترك هذا انطباعا مغايرا كان له دور فى اختيار محمد على باشا واليا على مصر فى 1805 خلافا لرغبة السلطان العثمانى !!.

وإذا استعرضنا جملة السياسات التى باشرتها الحملة الفرنسية بعيدا عن أعمال المطاردة وإجراءات القمع.. إلخ، فسوف ندرك حجم التغيير الذى تركه الفرنسيون فى مصر، وقيمة ما طرحوه من أفكار الحرية والإخاء والمساواة فى التربة المصرية.

ففى مجال القضاء تم تحديد رسوم للتقاضى أمام المحكمة الشرعية بواقع 2٪ من قيمة المتنازع عليه، وكانت من قبل متروكة للأهواء وللمساومة والابتزاز. كما تقرر أن يقتص القضاء من القاتل عن طريق المحاكمة والمرافعة، وكان الأمر متروكا من قبل لمبدأ "الدية"، أى الحصول على ثمن دم القتيل ومطاردة أسرة القتيل للقاتل

والاقتصاص منه بمعرفتها، وهى عادة ذميمة موروثة. وأكثر من هذا فإن الفرنسيين أنشأوا محكمة لكل طائفة من طوائف المجتمع : للأقباط، وللشوام، وللأروام، ولليهود، مع حرية التقاضى أمام المحكمة الشرعية لمن يرغب من أطراف الخصومة والنزاع. وقد أدت هذه الإجراءات إلى حرمان الملتزمين من ممارسة شؤون القضاء والإدارة. وكان بونابرت يرى أن الملتزمين أمراء إقطاع شأن أمراء فرنسا الإقطاعيين الذين قضت عليهم الثورة الفرنسية (1789)، ومن ثم فكر فى القضاء عليهم، وهو الإجراء الذى أقدم عليه محمد على فيما بعد (عام 1814). أليس فى تلك الإجراءات أساسا لفكرة المجتمع المدنى العلمانى الذى يوفر لكل فرد فيه الحق فى صيانة ذاته دون أن تفرض عليه شريعة محددة إلا باختياره!!.. فما بالك إذا كانت مصر آنذاك مجتمع طوائف متعددة، وجزء من عالم عثمانى واسع يخضع لسلطة مركزية فى استانبول، والطائفة فيه هى وطن أبنائها؟!

وفى إطار فكرة المساواة تحددت ضريبة التركات والأموال المنقولة بمقدار 5٪ ولم تكن محددة من قبل، وتم تعميم الضريبة على جميع من يقيم على أرض مصر أيا كانت جنسيته أو عقيدته دون استثناء ودون تمييز عنصر على آخر. كما تم إلزام الجميع بدفع الضريبة العامة للخزينة بما فى ذلك الفرنسيين المقيمين فى البلاد. ولما كان رجال الحملة الفرنسية متأثرين بآراء جماعة الفزيوقراط الاقتصادية فى فرنسا، فقد عملوا على تركيز الضرائب فى ضريبة واحدة تؤخذ من الأرض الزراعية باعتبار أن الزراعة فى عرف الفزيوقراط هى المصدر الرئيسى للثروة.

ومن ناحية أخرى فإن من أتيح له من المصريين زيارة المجمع العلمى الذى أسسه بونابرت من جملة علماء الحملة (146 عالما) من تخصصات مختلفة تأسيا بالمجمع العلمى الفرنسى فى باريس، لا بد وأنه قد عقد مقارنة ذهنية بين مفهوم العلم السائد فى الشرق ومفهوم العلم الوافد مع الفرنسيين. ولعله أدرك أن هناك علوما أخرى غير العلوم الشرعية التى نشأ عليها ؛ ذلك أن المجمع كان يتكون من أربعة أقسام علمية : علوم رياضية، وطبيعة، واقتصاد سياسى، وآداب وفنون.

وعلى هذا فإن المجمع فى أبسط مظاهره كان وسيلة التعرف على حجم العلوم والأفكار على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط. ولا ينبغى أن ننسى فى هذا الخصوص أن مصر عرفت لأول مرة الصحيفة التى يتابعون من خلالها الأخبار الرسمية مثل: الجوائب المصرية **Courier de Egypt**، والعشرية المصرية **Le decade Egypt**، وتعليق المنشورات على الجدران، وذلك بدلا من المنادى الذين كان يعلن للناس أوامر الوالى. ومن الواضح أن محمد على باشا الذى أصبح واليا على مصر فى 1805 واصل خط السياسات الفرنسية فى المجالات الاقتصادية والسياسية بشكل عام.

ولا يعنى هذا أن كل المصريين الذين خالطوا علماء الحملة كانوا سواء فى النظر إليها بل كان هناك من اعتقد بأن أعضاء المجمع العلمى ما هم إلا جماعة من السحرة أحضرهم بونابرت معه ليساعدوه فى إنجاح عملياته العسكرية. ومن الطريف أن نذكر أن ريجو وهو أحد الرسامين الفرنسيين أراد أن يرسم صورة نصفية لرجل نوبى، وما أن شرع فى تلوين الرأس والصدر حتى هب النوبى مذعورا يطلب من ريجو أن "يعيد إليه رأسه وصدره"، والحكاية أن النوبيين يعتقدون أن أجزاء الجسم المصورة لا تلبث أن تتيبس فى جسم صاحبها ولا مفر من موته فى النهاية. وفى هذا دلالة على نوع من الثقافة السائدة.

ولعل تأثير الحملة الفرنسية العقلانى يبدو فى المقارنة التى عقدها عبد الرحمن الجبرتى بين فرنسا وإنجلترا عندما نزلت الحملة الإنجليزية بقيادة فريزر شواطئ الإسكندرية فى 1807، أى بعد خروج الفرنسيين من مصر بست سنوات، إذ يقول فى حوادث ذلك العام إنه سمع حوارا دار بين العلماء حول المفاضلة بين الإنجليز والفرنسيين حيث حاول الإنجليز استقطاب مماليك الألفى، فما كان من الجبرتى إلا أن قال: " لا تصدقوا أقوالهم فى ذلك (أى الإنجليز)، فإذا تملكوا البلاد لا يبقون على أحد من المسلمين، وحالهم ليس كحال الفرنساوية، فإن الفرنساوية لا يتدينون بدين ويقولون بالحرية والتسوية، أما هؤلاء الإنكليز فإنهم نصارى على دينهم، ولا تخفى عداوة الأديان، ولا يصح الالتجاء إليهم". وهذا التقدير من الجبرتى ليس

هينا فى ضوء ثقافة العصر السائدة. ومع هذا فإن الجبرتى كانت له ملاحظات فى الجانب الأخلاقى ضد الفرنسيين فى مصر فى مقدمتها محاكاة النسوة الفرنسيات السافرات التى وصفها "بالتبرج والخروج على أصول الحشمة والحياء".

وعلى هذا جاز لنا أن نقول إن الحملة الفرنسية بصرف النظر عن وجهها العسكرى القبيح كانت صدمة حضارية وثقافية حتى ولو كان لدى بعض علماء مصر من أمثال الشيخ حسن العطار قدر من علوم الفرنجة. كما كانت الحملة بما حملته من أفكار الحكم والسياسة والاقتصاد بداية ظهور تنازع الولاء بين الفكرة الدينية الإسلامية العثمانية التى تقوم على طاعة الخليفة والسلطان وأولى الأمر، وبين الفكرة العلمانية الأوربية التى تقوم على عزل السياسة وأمور الحكم، التى هى أمور متحولة ومتغيرة، عن الدين الذى هو أمر ثابت.

ومن عجب أن العثمانيين بقيادة سليم الأول وهم فى حربهم مع المماليك لدخول مصر ارتكبوا الكثير من الأهوال والفظائع، فقد حزوا رءوس من وقع فى أيديهم، وقتلوا من كان يحتمى بمآذن المساجد، ونهبوا القماش والسلاح والخيول والبغال والجوارى والعبيد، ونهبوا القناديل والحصر من الزوايا، وأحرقوا جامع الأمير شيخون فى حى الصليبية، واقتحموا الجوامع بحثا عن المماليك الجراكسة، واقتحموا الجامع الأزهر وجامع الحاكم بأمر الله وجامع ابن طولون وغير ذلك من المزارات.. بل لقد اقتحموا مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ودخلوا إلى ضريحها وداسوا على قبرها، وأخذوا قناديل المشهد من الفضة والشمع الموجود والبسط المفروشة، وقتلوا فى مقامها جماعة من المماليك الذين كانوا يحتمون بها.. إلخ على نحو ما ذكر ابن إياس فى كتابه "بدائع الزهور فى وقائع الدهور"، وهو الذى عاصر أواخر حكم المماليك وبدايات الحكم العثمانى.

ومع ذلك فإن معظم الباحثين يصفون دخول العثمانيين مصر "بالفتح" وهو معنى دينى، ولا يقولون "الغزو والاحتلال". ولا يتوقفون فى تاريخ الحملة الفرنسية إلا عند اقتحام العسكر الفرنساوية للجامع الأزهر بخيولهم، ولا يذكرون

اقتحام العسكر العثمانيين للأزهر وغيره من الجوامع ولمشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها!!

ألم يفعل العثمانيون ما فعله الفرنسيون وزيادة ؟. فلماذا هذا الخلل فى المعايير.. هل رابطة العقيدة تمنع من ذكر الحقيقة ؟. إن الأمر بحاجة إلى استثارة التفكير العقلى بحثا عن العلل والأسباب واكتشاف النتائج بدلا من الجرى وراء العاطفة والامتثال لها، ودون محاكمة أخلاقية لوقائع التاريخ وأحداثه التى تجرى بمعزل عن الأخلاق أصلا.

* * *

صدمة الحملة الفرنسية وطبيعة العلاقة المعقدة مع المصريين
(مقاربة تاريخية ونفسية)

أ.د. مجدى عبد الحافظ

شكلت الحملة الفرنسية للمصريين صدمة حقيقية وبكل المقاييس. ولم يكن هذا بسبب المقارنة المستحيلة فحسب، التى قام بها البعض بين جيش بونابرت الحديث وجيش المماليك التقليدى الذى لم يعلم منذ الغزو العثمانى أن الفروسية لم تعد صالحة للحرب الحديثة، بل كان أيضا بسبب هذا النموذج المبهر والناجح الذى أتى مع الغزو والعدوان. وخلق ذلك نوعاً من التوتر لدى الطبقة الوسطى خاصة (المشايخ والتجار والأعيان..) الذين اتسم تعاملهم مع هذا الغازى "بالازدواجية النفسية": فكيف نقاوم الغازى، ونستعين فى الوقت نفسه بتنظيماته وتقنياته التى ثبت بالدليل العملى نجاعتها؟ أكثر من ذلك تعمقت الصدمة حينما وجدت الطبقة الوسطى نفسها أن إنجازها التراكمى الذى حققته قبل الحملة قد تبخر عن آخره، بمجرد ظهور هذا النموذج الجديد الذى حملته الجيوش الغازية. من هنا يمكن القول إن الحملة الفرنسية تسببت فى منع إمكانيات النمو الذاتى للمصريين على القاعدة التى أسسوها تدريجياً طوال القرن الثامن عشر. فعلى عكس الشائع كان ثمة إمكانية حقيقية لإنجاز "حداثة محلية" تستجيب لظروف الواقع؛ وذلك لتوافر العناصر اللازمة. لقد تم إجهاض هذه الإمكانية فى مهدها عندما قارن المصريون

بين مجتمعهم والمجتمع الذى عكسه رجال الحملة ممن اختلطوا بهم بطريقة مباشرة خلال سنوات الحملة القليلة. لقد قدمت لهم الحملة نموذجا جاهزاً، وقابلاً للتطبيق، فَلِمَ الجهد الذى يبذلونه لإيجاد النموذج المحلى؟ لقد أعطتهم الحملة النموذج – بطريقة غير مباشرة – فقبلوه، بدلا من تخيله واختراعه![1]

وهذه النقطة تحديداً هى المعنى بها فى هذا المقال. وسوف نعالجها على مستويين، الأول: المقاربة التاريخية والثانى المقاربة النفسية، ثم نحاول من خلال المقاربتين تقييم التجربة الصدامية فى ضوء بعديها التاريخى والنفسى.

المقاربة التاريخية :

كان المشايخ يشكلون القلب من الطبقة الوسطى باعتبارهم إحدى القوى الحية التى تشكل منها المجتمع المصرى فى هذه الآونة؛ إذ كانوا نخبة العلماء والمثقفين والكتاب والمؤرخين وتكونت لديهم ثروات ضخمة (الأوقاف، والرزق الأحباسية) دون دفع ضرائبها. ورغم هذه الحقيقة الواضحة إلا أن البعض يتصور أن نفوذهم لم يبرز سوى بعد الحملة الفرنسية، وعلى وجه الخصوص بعد اشتراكهم فى الديوان الذى أنشأه بونابرت. تاريخيا نعرف أن الأزهر ومشايخه ظل عبر اشتداد الظلم، وقام المشايخ بأدوار مختلفة بين العامة والمماليك، وعمل أغلبهم بالتجارة، وكانوا فى مأمن من مصادرة أموالهم؛ وتراوح دورهم بين السلبية والإيجابية قبل مجيء الحملة[2]. وأثناء الحملة تعرف المشايخ والتجار بحنكة كبيرة حفظت لهم مصالحهم وأموالهم، إذ تخلو الكتابات التاريخية من أى دور لعبه المشايخ الكبار ضد زحف الفرنسيين من الإسكندرية وحتى القاهرة، وكذا لم يشاركوا فى المعارك الأساسية (شبراخيت، إمبابة، والأهرام) وكان العامة والحرافيش إلى جانب فرسان المماليك فى مقدمة المتصدين. كما لعب مشايخ وعلماء القاهرة الكبار الدور الأكبر فى تسليم القاهرة للفرنسيين بعد فرار المماليك، وهم الذين أخذوا الأمان من بونابرت. ولم تكن تلك الرزانة السياسية تعبر عن ضعف وخمول، بل كانت تشى ببعض ملامح هذا المشروع المحلى الجنينى للحداثة. إن التراكم المالى الذى توفر لديهم

دفعهم إلى أن يحسبوا خطواتهم التى لم تتسم أبدا بالتهور فيخسرون أموالهم من جهة، ومن جهة أخرى كان لديهم حاجة ملحة فى التساؤل عن الكيفية التى يمكن بها استثمار أموالهم فى ظل الأوضاع المملوكية المتردية. مع المماليك افتقدوا الأمن والأمان، على مستوى طرق التجارة، وعلى مستوى القوانين التى يمكن أن تنظم المعاملات والضرائب فى البلاد. من هنا كان موقفهم المتوجس والحذر من الحملة، وفى الوقت نفسه كان لديهم نوع من الأمل لعلهم يجدون شيئا جديدا لدى الغزاة. هذا الخليط من الرهبة والأمل دفعهم إلى الانتظار والترقب. لقد سمعوا من التجار والأجانب المقيمين بعضًا من البروباجندا التى طيرها بونابرت قبل زحفه على مصر، ولعلهم يجدون ما يخالف ما عهدوه لدى الأتراك فى مقاومته حينما أرسل إليهم رسالته الأولى قائلاً : "إنى مسرور من سلوككم وقد أحسنتم صنعا بعدم مقاومتى، إنى جئت لإبادة المماليك وحماية التجارة وأهالى البلاد الأصليين وفليطمئن الخائفون وليرجع الفارون إلى بيوتهم، وليستمر الأهالى على إقامة الشعائر الدينية كالمعتاد، واطمئنوا على عائلاتكم وبيوتكم وأملاككم، واطمئنوا على دينكم الذى أحترمه".(3)

موقف المشايخ هذا تم التمسك به خلال سنوات الحملة الثلاث، فعندما شكل بونابرت ديوانه وجدنا على رأسه المشايخ الذين لعبوا قبل الحملة أدواراً سياسية، خاصة فى عام الحجة سنة 1795 مثل : الشيخ السادات والأمير والبكرى إضافة إلى السيد عمر مكرم. ولم يشارك المشايخ الكبار على الإطلاق فى ثورة القاهرة الأولى، رغم أن الضرائب والإجراءات التى فرضها الفرنسيون كانت قد طالتهم، أكثر من ذلك أصدر ديوانهم خلال الثورة بيانين لتهدئة النفوس متهمين المماليك بإثارة الفتنة. ولم تسلم الثورة من نقد المشايخ، فالجبرتى المؤرخ وهو أحد المشايخ ينتقد الثورة والثوار بأقذع الألفاظ : فوصف العامة من الزعر والحرافيش الذين كانوا يسكنون القاهرة بأنهم خرجوا عن الحد "وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور الناصرى والشوام والأروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام، وأخذوا

الودائع والأمانات وسبوا النساء، والبنات"[4] ولم يكن هجوم الثوار على مصالح المسيحيين من الأروام والشوام سوى لتعاونهم مع المحتل. ولم يشترك فى الثورة سوى صغار المشايخ وهؤلاء لم يكن لديهم ما يخافون عليه، لذا ليس بغريب أن يكونوا هم العقل المدبر للثورة[5].

ولم يشترك المشايخ فى ثورة القاهرة الثانية أيضا، بينما اشترك التجار الذين طالتهم آثار الحصار البريطانى على موانئ البلاد، ومَنْ اشترك من المشايخ كان تحت إجبار العامة الذين وصفهم الجبرتى "بالأوباش والحشرات"، كما وصف أحد المغاربة ممن تزعموا الثورة بأنه "ليس ممن له فى مصر ما يخاف عليه من مسكن أو أهل أو مال أو غير ذلك بل قيل لا ناقتى فيها ولا جملى"[6]. وعدم اشتراك كبار المشايخ الذين اتسموا طيلة الوقت بموقف المنتظر، قادهم إلى الإساءة لهم من قبل العامة من الثوار فأهانوهم وضربوهم كما حدث للشيخ الشرقاوى والشيخ السرسى؛ إذ أخذت "تضربهما الانكشارية ويسبوهما العامة بأقذع الألفاظ ويرموا عمامتيهما، وهذا الشيخ خليل البكرى يسوقه العامة عارى الرأس ذليلاً فى الشوارع، وكذا فعلوا بالشيخ المهدى والفيومى وغيرهما"[7].

و أصيبت التجارة الخارجية فى ظل الحملة الفرنسية بأكبر نكسة؛ بسبب الحصار الذى أحكمه الإنجليز على موانئ البلاد ومنعه التجارة الواردة والصادرة. وكانت ضربة كبرى للآمال التى عُلقت على النظام الجديد. فقد حلموا بالمكاسب الكبرى التى ضاعت وسط الحصار، كما حلموا باستتباب الأمن الذى ضاع وسط ثورات الأهالى ضد الفرنسيين، فلم يطلهم منها سوى الفوضى والقهر والقسوة. لقد وصل المشايخ إلى قناعة -بعد الفشل الذريع لكل مخططات الحملة الفرنسية- أنه من الخطورة الاعتماد على قوة خارجية لضمان حرية مشروعاتهم الاستثمارية. فعلى الرغم من أن الحصار كان فرصة تاريخية لكى يستثمروا فى مجال الصناعات التى توقف ورودها بعد الحصار، وكانت الخبرة الغنية متوفرة لدى الفرنسيين ولدى من اتصل بهم من المصريين وكانت الفرصة متاحة لتعلم مهنهم خاصة وأن الحملة اعتمدت على موارد مصر الداخلية فى تلك الآونة، على الرغم من ذلك فإنهم لم

يستطيعوا استثمار الفرصة، وهذه نقطة جديرة بالدراسة والبحث لمعرفة أسباب ذلك. ورغم القناعة التى استخلصوها من خطورة الاعتماد على القوى الخارجية إلا أنهم وبسبب تفتحهم، واستعداداتهم السابقة، وحملهم لمشروع جنينى محلى سرعان ما تركوه جانباً، والتفتوا إلى تلك النظم والتقاليد والإجراءات السياسية التى حملتها الحملة الفرنسية والتى لم تكن كل جوانبها شديدة السواد.

فعند نزول الثمانية والثلاثين ألف جندى فرنسى فى الإسكندرية، صحيح لم تكن مصر خرابا تاما، وصحيح كان لديها مشروعها المحلى، لكن الصحيح أيضا أنه عقب معركة الأهرام حينما انهزمت فلول المماليك هزيمة ساحقة على يد الفرنسيين، انتظر القاهريون أن يساقوا بحد السيف من قبل المنتصرين. إلا أن هؤلاء الغزاة الجدد كانوا مختلفين عمن جاءوا قبلهم. حيث اتسمت أفعالهم على نحو ظاهر – فيما عدا إخمادهم العنيف لثورتى القاهرة الأولى والثانية – بأنها أقل تعسفا عما عهدوه من قبل. واندهشوا عندما رأوا هؤلاء الفرنسيين الغزاة وهم يشترون غذاءهم من التجار بدلا من أن ينهبوه، وهم يُحاكِمون بعض جنودهم الذين اتهموا بالسرقة أو الاغتصاب بأحكام وصل بعضها للإعدام. وإذا بدا هذا المنطق المنتصر فى البداية غير معتاد بل محير وغير مفهوم فى نظر المصريين إلا أنهم قد افتتنوا به فيما بعد.

المقاربة النفسية(*) :

كان لهذا الجانب التاريخى وجه آخر ثقافى لا يمكن فهمه إلا عبر المقاربة النفسية، إن تسربل الثقافة الغربية عموما، والفرنسية على وجه الخصوص لتقاليد وأعراف وعادات المصريين عقب الحملة عمل على أن تتشكل فى أذهانهم ما يمكن تسميته بـ "الأنا الحائرة"، مما أدى إلى حالة عدم اتزان "للأنا الجماعى"، الذى يهدف إلى حماية وعى الأفراد من فظاظة قيم الغزاة التى جلبت أفكارا وممارسات، اتسمت بأنها ساحرة وصادمة فى الوقت نفسه، وبأنها غير قابلة للتمثل؛ إذ عندما يخضع الجهاز النفسى للفرد للإفراط فى الإثارات التى تأتى من الخارج تحدث "صدمة" تتحدد درجتها تبعا لكيفيات التمثل الذى تحققه الحياة النفسية.

يستمر هذا الاستلهام فى توسع الأنا من خلال "تمثُّل" فعلى سواء لتلك الاستثارات الغريزية للفرد أو لتلك الاستثارات التى تنبثق من المحيط الاجتماعى والطبيعى والتى تكون بمثابة مهدد للغرائز الفردية، التى تؤثر بدورها على الاستثارات الاجتماعية من خلال الفكر والإيماءة والأداء، وتأخذ تلك العمليات فى التحليل النفسى مفهوم "عملية الإدماج النفسى". إن طابع التباين المفرط للثقافة الفرنسية التى بُثت فى المصريين فى نهاية القرن الثامن عشر، جمّد تحديدا لديهم عمل الإدماج على المستوى الجماعى. وإذا كان الاختلاف مصدر ثراء، إلا أنه كان عنصراً مفسدا فى حالتنا تلك، حيث كان الاختلاف بين إسهامين : الأول "مستعار"، والثانى "أصيل".

النتيجة المباشرة لتلك الصدمة الحضارية هى الجنوح نحو تطبيق نوع من المبادلات الديناميكية الذاتية الخاصة بالروح المصرية، وهى مبادلات كانت تهدف حتى هذه اللحظة إلى التصالح والتسامى، وذلك عن طريق التفاعل بين طموحاتها الآنية وجذورها الفرعونية/ الإسلامية. ونظرا لعدم القدرة على تمثل القيم الفرنسية، لاسيما لدى المصريين الذين كانوا على اتصال مباشر بجنود وعلماء بونابرت، نجد أن هؤلاء المصريين قد احتفظوا بتلك القيم فى شكل جسم غريب، دون أن يقوموا بعملية "تمثُّل" نفسى لها. من هنا نرى أن تلك الذكرى غير المتمثلة للتجارب المعيشة، وللقيم الغربية الآنية عن طريق الفرنسيين قد ظلت فى حالة تطفل على الروح المصرية بطريقة حققت فيها نوعا من "أنا حائرة". وبالإضافة إلى طابع التباين الجذرى للثقافة الغربية بالنسبة للمصريين، فإن طبيعة روابط المودة – الخاصة– والتى كانت قد نُسجت بين بعض الفئات فى المجتمع المصرى والفرنسيين أثناء الاحتلال تظل أساسية لكى نفهم لماذا لم يسمح مع ذلك مرور الزمن "بتمثل" جماعى للإسهام الفرنسى؟

ثمة طابعان يمكن ذكرهما : الأول : إلى جانب رد فعل الأغلبية بالرفض المعادى من قبل المصريين، كان هناك عديد من روابط التعاطف الفضولى والمفتون والذى ظل طى الكتمان – خاصة من الجانب المصرى – بين الطرفين.

والثانى : قُطعت هذه الروابط بعنف بعد هزيمة الحملة عسكريا، إذ هلك ثلثى الجيش الفرنسى خاصة عند كرسى القديس يوحنا المعمدان، ووجد الناجون منهم أنفسهم مجبرين على الاستسلام سريعا للإنجليز. إجمالا كان هناك بين أعوام 1798 و1801 علاقات شخصية قوية بين المصريين والفرنسيين، وهذه العلاقات استثمرها الطرفان، ولم تعرف أبدا نهاية عنيفة، إلا أنها قد توقفت فى الوقت الذى لم تستطع فيه المشاعر والتمثلات من جانب الطرفين أن تندمج بطريقة مناسبة. عاد الفرنسيون من الحملة ليعيدوا ارتباطهم "بنزعة الولع بمصر" Egyptomania، وهى نزعة مستقرة فى الغرب منذ قرنين على الأقل؛ وذلك لكى يعبروا عن انفصالهم المؤلم عن أرض الأهرامات وسكانها. كان ممكنا أن يُقام الحداد لديهم تدريجياً، بفضل الآثار والكتابات والرسوم التى جلبوها معهم. على حين أن المصريين لم تكن لديهم نفس الإمكانية، خاصة بسبب علاقات المودة المخجلة فى نظر الأقارب (خاصة أفراد العائلة)، والذين ظلوا فى حالة ترقب، حيث إن قيم ونوايا الغزاة لم تتح لها الفرصة لكى تُفهم أو تدمج. وبداية من تلك اللحظة وقعت الثقافة المصرية فريسة لموقف حداد معقد بمبادلاتها الإنسانية والثقافية مع غازيها الفرنسى الغربى. ولعل آثار هذا الموقف مازالت تميز العلاقات بين مصر والغرب حتى اليوم. بصفة عامة قاد موقف -عدم الاندماج النفسى- هذا "الذات الفردية" أو "الجماعية الحائرة" إلى أن تطبق ما نسميه فى علم النفس "التوحد بالمعتدى" Identification à L'agresseur

يمثل هذا المصطلح وسيلة دفاعية نفسية عندما تتعرض الذات لخطر خارجى فتستخدمه لكى تحافظ على تماسكها العقلى : "فيتوحد الشخص المعتدَى عليه بالشخص المعتدِى، إما بأن يعيد أخذ الاعتداء كما هو لحسابه، وإما بالتقليد النفسى أو المعنوى لشخصية المعتدى، وإما بتبنى بعض رموز القدرة التى تميزه"(8).

كانت مصر فى نهاية القرن الثامن عشر تتطور فيها الأفكار بشكل خجول وناشىء، وداخل هذا النموذج لم تستطع "النزعة الحديثة" والتى هى فى واقعها متطورة، إلا أنها غير متكيفة مع الثقافة المحلية، لم تستطع أن تكسب أرضا جديدة.

إن ما زعمه الفرنسيون من مهمة حضارية فى مصر قد سد الطريق على المكتسبات والتحولات الآنية المحلية للمجتمع المصرى الذى قد باشر "التحديث" لتوه. كانت هناك فكرة رائجة فى الغرب ضمن "نزعة الولع بمصر" تقول إن مصر مشلولة تماماً فى تطورها بسبب المماليك، وعلى الرغم أن الحملة كان من أهدافها الرئيسية قطع الطريق على إنجلترا ومستعمراتها الهندية، إلا أن الفرنسيين كانوا قد رفعوا شعارات أخرى تخفى الأهداف الرئيسية وذلك بادعائهم أن الحملة موجهة لكى تتيح للأمة المصرية أن تولد من جديد لكى تجد بعض من الروعة التى تشهد بعظمتها الماضية، وذلك لن يتأتى إلا بعد أن يقهر الفرنسيون الاستبداد والظلامية فيها. وإذا كان المصريون قد اعتبروا أن الحملة الفرنسية قد أسفرت عن ثقافة وحداثة زائفتين، فهذا يعود بقدر كبير إلى أن الفرنسيين والغرب – بصفة عامة – قد أنكروا تلك الحداثة الجنينية المحلية الكامنة، والتى كانت قد بدأت فى القرن الثامن عشر بمصر. وكما رأينا فقد قطع الطريق عليها من خلال إحالة قسرية إلى الماضى الفرعونى وبعد عقود قليلة حدث تبادل ثقافى بين مصر وفرنسا تحت حكم محمد على، إلا أن الإسهام الغربى لم يستطع الاندماج على الصعيد المحلى بالحداثة المصرية الوليدة، وذلك بسب الصدمة الحضارية الأولى. هذه المحاولات فى الإخصاب المشترك للأفكار وللخبرة العملية لم تبلغ إذن هدفها.

والملاحظ فى العديد من الكتابات عن مصر صعود فكرة التفوق الغربى لدى المصريين مع إحساس حى بالخجل خاصة فى القرن التاسع عشر والعشرين مما أدى إلى ظهور ما نسميه غالبا "بعقدة الخواجة". وهى تبدو فى نظرنا مترجمة لهيئة نفسية نموذجية لمحاولة إعداد لما بعد الصدمة للتوحد فى المعتدى. إذ بعد توحدها فى شخصية المعتدى عليها، تحت طائلة تفكك الشخصية بتأثير العنف الواقع عليها، تستعوض الضحية تدريجيا هويتها، والتى كان عليها أن تتخلى عنها عندما ترنحت معالمها. إعادة التملك الأليمة تلك للتراث تتم فى سياق عاطفى من الخجل والذنب المعنيين، بالإضافة إلى أن الحنق على الذات يتقوى بفعل أن العدوان قد ترك المعتدى سالما (وفى بعض الأحيان مقوّى) فالضحية تتطلع حينئذٍ لسلطته. كما يبدو أيضا أن

على المستوى الجمعى حادثة نفسية من ذلك النوع جرت محاولة المصريين للاتصال بالفرنسيين بين أعوام 1798 و 1801 بفعل التوحد الفاشل بقيم الغازى. وفى إطار عملية التوحد تلك مرت "منجزات الحداثة" من أوسع الأبواب، وساهمت فى أن يطرأ على المجتمع تغيرات كبيرة، بل وأحدثت طرقا جديدة فى الحياة واستعمالات وأدوات جديدة، وآليات غير مسبوقة .. إلخ. إلا أن هذه المنجزات ظلت أيضا "هامشية" على سطح الحياة ، لأنها لم تستطع تعمق وجودها فى أذهان المصريين، وظلت العقلية المهيمنة أقرب إلى التقاليد والتراث، وربما حتى الآن.

مر أكثر من قرنين على حدث الحملة الفرنسية (وهو حدث لم يستغرق حدوثه سوى ثلاث سنوات وبضعة أشهر) إلا أنه ما زال ماثلاً فى أذهان المصريين. وبعيدا عن المقاربة التاريخية والنفسية.. ألم تأت الحملة بالمطبعة لأول مرة بمصر؟، ألم يكن كتاب وصف مصر، وفك شفرة الهيروغليفية من أهم نتائج الحملة؟ لكن ألم يأت كل هذا فى سياق الغزو والاحتلال؟ ألا يعكس هذا الأمر موقفنا الازدواجى والملتبس حتى اليوم؟!

الهوامش

(1) انظر كتابنا؛ جمال الدين الأفغانى وإشكاليات العصر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997، ص 31.

(2) لمعرفة مزيد من التفاصيل عن ثروات المشايخ ودورهم قبل الحملة، راجع مقالنا : الوعى السياسى فى مصر ما بين عام الحجة وتولية محمد على، بمجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة، عدد 57، فبراير 1992.

(3) المرجع السابق، ص 185.

(4) الجبرتى، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، دار الجبل، بيروت 1978، جـ2، ص 212.

(5) د. محمد أحمد أنيس، السيد رجب حراز، التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث، دار النهضة العربية، القاهرة، ص 69.

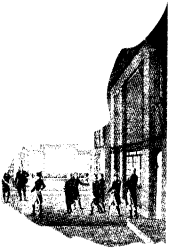
(6) الجبرتى ، مرجع سابق، جـ1، ص 430.

(7) المرجع السابق، ص 433.

(*) ورقة قدمها الباحث بالاشتراك مع د. باسكال هاشيه، بالندوة الدولية الموازية لبينالى القاهرة الدولى الخامس 1994.

(8) (J) La planche , (B) Pontalis, Vocabulaire de la Psychanalyse, P.U.F., 1967, p.190.

* * *



قراءة نقدية

نابليون والفرنسيون فى مصر والأرض المقدسة (1798 - 1801)
(قراءة نقدية)

أ.د. ليلى عنان

دراسات مقدمة فى ثانى لقاء دولى لمؤتمر الدراسات النابليونية ، وتم عقد الندوة فى إسرائيل فى شهر يوليو من العام 1999 وتم نشرها فى العام 2002 تحت إشراف "الجمعية الإسرائيلية للبحث النابليونى" فى تل أبيب، و"الجمعية الدولية النابليونية" فى باريس بفرنسا.

قدمت فى الندوة الكثير من الأوراق التى لم ينشر منها إلا 26 بحثاً ، 20 ورقة مقدمة باللغة الإنجليزية، و6 فقط باللغة الفرنسية، وساهم من الجمعية الإسرائيلية فى هذه الندوة أحد عشر إسرائيلياً.

كانت المقدمة للأستاذ الإسرائيلى "موردخاى جيشون"، من المشرفين على تنظيم الندوة، وجاء عنوانها: "خصوصيات الحملة الشرقية لنابليون": مقدمة تؤكد هذه المقدمة بعض الحقائق الغريبة، خاصة أن تاريخ الندوة 1999 بعد أن نشر فى فرنسا، ومنذ الستينيات، كثير من الكتب التى تدحض المسلمات التى قررها المعجبون بنابليون لمدة قرنين من الزمان، ويعيدها "جيشون" بنفس مطمئنة، ولا عجب، فأحدث مراجعة نشرت عام 1992، وأهمها كتاب "كريستوفر هيرولد" عن الحملة المنشور عام 1964. وفى الهوامش، تأكيده أن كل الأساتذة المدعوين "unbiaised"

أى موضوعيين ... لِمَ هذا التوضيح الغريب؟ أو ليس من المفترض أن يكون الأساتذة علميين موضوعيين؟

نفهم من هذه المقدمة، لِمَ كان الاهتمام "بنابليون فى الأرض المقدسة" وليس فى "سوريا" كما هو معروف: إن أستاذنا هذا يؤكد فى صفحة كاملة حقيقة مشروع نابليون المتمثل فى خلق وطن قومي لليهود فى المنطقة، تكون القدس عاصمة له؛ ويقول بسرعة فائقة: إن الوثيقة التى نتحدث عنها "قد تكون مزورة"، ولكن دلائل كثيرة تؤكد أنها حقيقية... هذا هو إذاً هدف المؤتمر. ولا أعرف كيف كان حال الأستاذ "جيشون" عندما أكد أستاذ إسرائيلى آخر، هو "ديفيد ماندلسون" فى نفس الندوة – كما سنرى فيما بعد – أن الوثيقة مزورة دون أدنى شك، كأن، فى المقدمة يؤكد كاتبها الأستاذ منظم الندوة، أن فكرة إنشاء وطن لليهود فى الأرض المقدسة كانت مطروحة فى أوروبا منذ القرن الثامن عشر، وتكاد تكون هذه المعلومات أهم ما يوجد، بل كل ما يوجد فى مقالة "المقدمة".

إنه يتحدث عن نابليون وكأنه آت من فراغ، يبتدع أشياء هى فى الواقع ميراث القرن الثامن عشر، من حب الاستكشاف والاهتمام بالعلوم مثلاً. هى إعادة لمسلمات رددها المفتونون "بالرجل العظيم" لقرنين من الزمان، إلى أن جاءت فى الستينات من القرن الماضى كتابات "جان تولار" و "جاك دوفرس" لكشف حقائق تمحو كل ما قيل فى الماضى. ناهيك عن كتاب "هنرى لورانس" فى 1989 عن الحملة الفرنسية فى مصر. ولكن الأستاذ الإسرائيلى يتوقف عند كتاب "كريستوفر هيرولد" الذى نشر عام 1964! وهكذا، سنقرأ أن "محمد على" ما هو إلا تلميذ لنابليون، وأن الأخير حاول المستحيل ليحول مشاعر المصريين المعادية لكل "كافر" إلى محبة، ولكنه فشل لقصر مدة إقامته فى مصر ! فالمصريون إذاً لم يرفضوا الغزاة إلا لأنهم غير مسلمين.. ولكننا نشكر الأستاذ الإسرائيلى، إذ أكد لنا أن الوسائل التى استعملها "نابليون" لانتقال الجند ومؤنهم ومستلزماتهم كانت رائدة لجيوش الحرب العالمية الثانية عندما اضطرت إلى السير على الدرب نفسه للانتقال من مصر

إلى فلسطين، متناسياً كلية ما تحمّله جند بونابرت من مشاق فى هذه المرحلة، حتى إنها شبهت بمأساة جنده وهم فى طريق العودة من روسيا، فى حملة نابليون الفاشلة عليها. ولكن ما دامت مصادره قديمة، فلا عجب أن يدلو بدلوه وهو خاطئ. ثم قال إن فكرة تكوين فرقة من الجند الفرنسيين راكبى الجمال، كان لها نجاحٌ كبيرٌ فى الحروب الاستعمارية الفرنسية بعد ذلك.

وخاتمة مقالته تتسم بالغموض كعادة مروجى هذه الأفكار، إذ يؤكد أن "جيش نابليون" ترك بصمات الثقافة والتكنولوجيا فى مصر وفلسطين؛ فكان لها أكبر أثر فى إعادة الحياة للشرق الأوسط". وهو يؤكد دون أي دليل، أن "من الصعب تخيل ازدهار سوريا وفلسطين ومصر فى القرن التاسع عشر دون المطبعة التى أحضرها الجيش الفرنسى، أو التعليم الفرنسى الذى وفره لعدد كبير من اليهود الشباب من خلال: "Älliance Israélite Universelle سابقا المبادرات الألمانية والإنجليزية المماثلة بعدة سنوات". ولم يخبرنا عن تاريخ كل هذا النشاط الثقافى لليهود. وهنا ينتهى مقال الأستاذ الإسرائيلى، وهو يجهل حتى إن الجيش الفرنسى فى انسحابه من مصر، أخذ معه مطبعته!

أما المقال الثانى فهو "للتركى سيشيل كرال أكجون" مكتوب بالإنجليزية والعنوان مشوق: "تأثير الحملة الفرنسية على الإصلاحات العثمانية فى بداية القرن التاسع عشر".

ومنذ الفقرة الأولى، يتضح اتجاه الأستاذ التركى، ما دام تأثير الحملة على "محمد على" هو أهم شىء فى نظره. وهو يجهل ، أو لا يتحدث عن العداء لإنجلترا، الذى كان الحافز الأول لاستعمار مصر وقطع طريق الهند، فما هدف بونابرت إلا إنشاء إمبراطورية استعمارية فرنسية، وقد كان هذا الهدف –فعلاً– من بين أهداف الحملة، ولكن قطع طريق الهند لمحاربة إنجلترا كان السبب والهدف الأول. ويلفت نظرنا، منذ الصفحة الأولى، أن المرجع الأساسى له متمثل فى كتاب "كريستوفر هيرولد" أيضا المنشور فى عام 1964.

ولكن من المفيد أن نعرف – مثلاً – من خلال هذا المقال ، أن جهل البعثة الدبلوماسية التركية فى فرنسا، باللغة الفرنسية، جعلها لا تدرك شيئاً عن الاستعدادات للحملة التى كانت باريس كلها تتحدث عنها. ففطنت الدولة العثمانية إلى الضرورة الملحة لتغيير نظام الإرساليات الدبلوماسية كنظام عام واختيار أفرادها بصفة خاصة وبدقة. كما أن هزائم الجيش التركى أمام الفرنسيين فى مصر أكد ضرورة تغيير النظام العسكرى. استعان "محمد على" بالجنود الفرنسيين الذين اختاروا البقاء فى مصر ومعهم فنيون، وكون جيشاً وأسطولاً على النمط الحديث. ولكن الأستاذ لم يدلنا على أسماء هؤلاء الفرنسيين أو عددهم أو أهميتهم... ربما لأن لا وجود لهم . ففى الواقع كان الذين ساعدوا "محمد على" قد جاءوا من فرنسا بعد ذلك بسنوات ولم يكن لهم أى علاقة بالحملة وما تركته من جنود فرنسيين هاربين من الخدمة فى مصر. ولكن "محمود الثانى" (والكلمة للأستاذ التركى) استعان بخبرة "محمد على"، و"محمد على" طبق دروس الفرنسيين، نستطيع أن نقول: وإذا كان "محمود الثانى كسب الخبرة من "بونابرت"، من خلال تلميذه "محمد على"! وإعجاب الأستاذ بإصلاحات "محمد على" لا حد لها... وكلها من وحى ما قام به "بونابرت" من روائع فى مصر. وهكذا نقرأ أن كل ما حدث فى مصر فى القرن التاسع عشر كان بفضل ما أرساه علماء الحملة من مشاريع.. دون الإفصاح بماهية هذه المشاريع طبعا. ومرة أخرى، يؤكد ما نعرف أنه أسطورة، وهو وجود المطبعة مع جيش الحملة. وهكذا نراه –مثلاً– لا يضع فاصلاً بين ما فعله أطباء جيش الحملة، وما قام به بعد ذلك الطبيب الفرنسى "كلوت بيك" الذى وظفه "محمد على" عندما جاء طالباً وظيفة فى مصر.

إن مصدر إنجازات بونابرت فى مصر التى يتحدث عنها الأستاذ التركى ، هى ما كتبه "نابليون" عن نفسه وهو فى المنفى، أمور لم نقرأ عنها إلا فى كتابات "نابليون" عن تاريخه. وأستاذنا يعيد بثقة عمياء – كل ما قاله "نابليون" ليصل فى خاتمة المقال "لولا الحملة على مصر، ولولا عبقرية بونابرت التوفيقية، ولولا ما تعلمه منه محمد على وبالتالى محمود الثاني... ما أرسى "مصطفى كمال أتاتورك" دعائم الدولة

الحديثة للجمهورية التركية". وعند هذا الحد، توقف الأستاذ – وأنهى مقاله، ولم يذكر ولو بكلمة، إصلاحات سليم الثالث العسكرية وعلاقاته بفرنسا الثورة قبل الحملة على مصر بسنين وقبل "محمود الثانى" و"محمد على".

ونأتى على مقال الفرنسية "ميشال باتستى" عن "معركة أبو قير ونتائجها الاستراتيجية"، مكتوبا بالفرنسية بدون أى مراجع. وهى تصف المعركة البحرية لحظة بلحظة فى مقال قصير لا يأتى بأى جديد، لتصل إلى النتيجة التى عرفها الجميع، بما فيهم "بونابرت" نفسه، منذ دحض أسطوله فى "أبو قير" بعد أن وصل إلى مصر بشهر واحد، وهو أن احتلال مصر قد انتهى، بعد ثلاث سنوات وشهرين، ولكن فشله كان قد تأكد منذ المعركة البحرية الكارثة فى "أبو قير" يوم 1 أغسطس عام 1798، ولكن المقال يفيد من يريد أن يعرف عدد السفن الفرنسية والإنجليزية التى خاضت هذه المعركة، وعدد الموتى والجرحى... إلخ..

فرنسى آخر يتحدث بالفرنسية أيضاً عن معركة "سدمنت" sediman يوم 7 أكتوبر 1798، وهو الأستاذ فرناند بوكور. نعرف أى فِرق من الجيش تحركت وعدد جندها وتحركاتها، ولكن دون أى مرجع يستند إليه. ونعرف بطولة "راب" الذى كان آنذاك "بدرجة كابتن"، وكيف استطاع أن يهزم اثنين من المماليك، وكأننا نقرأ قصص البطولة الرائعة للجند الفرنسيين أثناء الرحلة الاستعمارية لفرنسا، قبل أن يعترف المؤرخون الفرنسيون فى ستينيات القرن الماضى بالحقائق المؤلمة وراء كل هذه البطولات. وينتهى المقال بأن كل هذه "الانتصارات أكدت هدوء مصر"، أمر لم نسمع عنه فى الدراسات الحديثة للحملة، ولا حتى فى الدراسات القديمة. أمر يختلف مع كل شىء، وأولاً وأخيراً، مع الأحداث التاريخية نفسها فى هذه المرحلة.

ومقال "حصن ديتروى" المتقدم: حصن للمراقبة على حافة منطقة عكا، لأستاذ إسرائيلى يكتب بالإنجليزية، اسمه "آرييل برمان"، استطاع أن يحدد موقع مكان، تحدث عنه الضابط "ميو" فى مذكراته الشهيرة عن الحملة، دون أن يذكر اسمه ، قائلاً: "مكاننا فى الجبل" و "جبل الفرسان". ومما يؤكد أن الأستاذ حدد هذا

المكان بالضبط، وكان اسمه Redoute Detroge؛ أى "حصن ديتروى"، أن الأستاذ وجد بقايا كثيرة تؤكد وجود الجيش هناك، كذلك أزرارا تنتمى إلى زى جند الحملة الفرنسية. ولكنه وجد أيضاً اثنين منها تنتمى إلى جند من مالطة؛ فكانت المشكلة التى يود إيجاد حل لها. لأن هذا يثبت أن بعض الجند المالطيين كانوا مع القوة المتجهة إلى فلسطين، أو أن أحد الجند الفرنسيين استعملها لسترته.

آلان برنيد فرنسى يكتب بالفرنسية عن "الاستعمال التكتيكى للألغام أثناء حصار عكا: مثل معركة en mode dégradé ، أثناء الحملة على سوريا عام 1799". أول ما يلفت النظر أنه الوحيد الذى يستعمل اسم "سوريا" ولا يقول "الأرض المقدسة" ثم إنه الوحيد تقريباً الذى قرأ كتاب هنرى لورانس، ولكن فى طبعته الثانية عام 1997 وليس عند نشره لأول مرة سنة 1989. ثم إن كاتب المقال "كولونيل" أى ضابط برتبة عالية، وهو "عضو فى الوفد الحربى لمقاطعة الموز" بفرنسا. إنه جندى وليس أستاذا مثل باقى المشاركين فى الندوة. لذا، جاء مقاله "دراسة حربية متأنية لحصار عكا"، وكل ما يخصه من الناحية الحربية، ومهارة استعمال "اللغم" بالرجوع إلى كل ما فعله "بونابرت" وجيشه لحظة بلحظة؛ مما يصعب تلخيصه، ولكنه شيق ومفيد لمن يهتم بتفاصيل المعارك الحربية.

نقرأ بعد ذلك بالإنجليزية مقال الأستاذ الإسرائيلى "جيديون بيجر" عنوانه: "حملة نابليون وعودة أوربا إلى الشرق الأوسط". إنه – طبعا- يستعمل اسم "أرض مقدسة"، ويسمى بونابرت مثل زملائه "نابليون"، ويقول إن الفرنسيين أدخلوا زراعة القطن إلى مصر وهو خطأ كبير.ولكن كل تأكيداته هى المسلمات التى يرددها كل من يرى أن الحملة هى سبب كل خير جاء فى القرن التاسع عشر، ليس فى مصر فقط بل فى كل الشرق الأوسط، دون تقديم مثل واحد يؤكد وجهة نظر مبهمة كالعادة فى عمومياتها المضللة.

كانت الحملة –مثلا- السبب فى دخول وسائل التفكير الغربية فى الحياة اليومية؛ لأن الشعب رأى سمو الغربيين؛ فأراد أن يكون هو – أيضاً- أوربيا؛ وتعرف على

المسيحية بفضل وصول المبشرين.. إلخ. ومرة أخرى نقرأ أن ما حدث فى عصر إسماعيل باشا (وهذا تعليق منا) يعود فضله إلى الحملة، وهذا كلام غير علمى ، ولو أنه معاد. ولكن الأستاذ الإسرائيلى يقول أيضا: إن الحملة سبب معرفة أوربا بمصر، وقدّم لكلامه ـ بالطبع ـ أكثر من دليل، ولا نرى أن الأستاذ قدم به جديدا، خاصة أنه قاله فى الخاتمة دون أن يعطى أدلة غير ما يعرفه جميع دارسى هذه الحقبة من تاريخ الغرب وعلاقته بالشرق.

مقال الإسرائيلى "آمون كوهين" عن "نابليون وجزار: رؤية محلية" بالإنجليزية: يقدم دراسة وافية وتفاصيل دقيقة عن حصار عكا. ويلفت نظر القارئ أنه لا يتحدث – بتاتا- عن مجزرة الأسرى فى يافا، و"بونابرت" فى طريقه إلى عكا، وهى حادثة مشهورة جداً. قرأ الجبرتى على عكس كل المحاضرين الآخرين، وأنهى دراسته بأن حصار عكا كان فى الواقع معركة بين رجلين، جزار باشا وبونابرت. يقول: إن هزيمة بونابرت لم تكن مطلقة، ما دامت أوقفت القوات العثمانية المرسلة من دمشق، أمر غريب، ما دامت هذه القوات وصلت إلى مصر عن طريق البحر. كذلك لا نراه يعترف بأن هزيمة بونابرت أمام عكا كانت أولى هزائم بونابرت، القائد الذى لم يهزم من قبل.

مقال "مارى كاثرين كونى" بالإنجليزية وهى أمريكية عنوانه: "مصر تستأهل عمة: بونابرت يغازل الإسلام"..

كان "هنرى الرابع" رئيس جيش البروتستنت والوريث الشرعى لعرش فرنسا، ولكنه اضطر إلى التحول للمذهب الكاثوليكى حتى يقبله الشعب الفرنسى ملكا عليه، فى نهاية القرن السادس عشر، وقال آنذاك جملة أصبحت شهيرة: "باريس (أى عرش فرنسا) تستأهل قداسا (كاثوليكيا)". وكاتبة المقال تلعب بالتعبير الشهير، لأن بونابرت كان يظن أن احترامه للدين الإسلامى وطقوسه، سيجعل الشعب المصرى يقبله حاكما عليه. الأستاذة الأمريكية ترجع إلى الجبرتى من بين مراجعها، ولا تضيف جديدا للموضوع ما دامت مراجعها كلها، وما كتبه الفرنسيون فى

جريدتيها فى مصر، للإيحاء بأن المسلمين سعداء باهتمام بونابرت بالإسلام، واحترامه لتقاليد البلد. وهى غير مقتنعة بما قاله الجبرتى، ولكنها مقتنعة بما قاله بونابرت ونقولا ترك.

وفى الخاتمة تؤكد مرة أخرى النظرة الغربية إلى الموضوع، أن ثورة القاهرة، بعد كل ما فعله بونابرت من تودد للإسلام، يدل على أن الفرنسيين لن يكونوا فى نظر المسلمين (أى المصريين) إلا "كفرة" ترفض سيادتهم. وحتى هذا كلام معاد.

"إيران دوليف" طبيب إسرائيلى يكتب بالإنجليزي عن "كيف عالج الطبيب "لاربيه "الجنرال" كافاريللى: دراسة حالة فى تاريخ الطب الميدانى" دراسة محددة ودقيقة وشيقة حتى لمن لا يهتم بالطب الميدانى لأنها تعرض -أيضا- عدد الجرحى أثناء حصار عكا، حيث قتل "كافاريللى". والطبيب كاتب المقال يرجع أساساً إلى مذكرات "لاربيه" طبيب الجيش، والتى كان يدونها يوما بعد يوم.ولن نعرف إلا ما يخص "كارفايللى"، الجنرال ذو الساق الخشبية، ولا نقرأ كلمة عن الطاعون الذى فتك بالجيش أثناء الحصار وبعده. ثم نعرف أن الإسرائيليين اكتشفوا موقع دفن جثة "كافاريللى" وأقاموا له قبرا ونصبًا تذكاريا.

ويكتب طبيب إسرائيلى آخر هو "موشيه فاينسود" بالإنجليزية أيضا، عن طبيب الجيش "لاربيه" وإنجازاته، واحترام "نابليون بونابرت" له، وحب رجال الجيش له وتقديرهم العميق لمهارته وإنسانيته وتفانيه فى خدمة الجيش، حتى إنهم طالبوا بإعادته عندما عادت الملكية إلى حاكم فرنسا، وسرحت كل رجال نابليون وجيشه ولكن ما يقصه علينا لا علاقة له لا بالحملة ولا بالفرنسيين فى مصر والشام.

"والتر جراب" أستاذ إسرائيلى متوفٍ، وأحدث مرجع نشر له سنة 1985 ولا نعرف متى توفى. يكتب بالإنجليزية عن "نابليون المحافظ على الثورة الفرنسية والمحطم لأفكارها".

ويفهم القارئ بسرعة أنه شيوعى قح، يحاكم نابليون بونابرت حسب الفكرة السائدة عند اليساريين عن الثورة المجيدة المنزهة من أى خطأ. ولذا، فنابليون

مشكور لأنه خلص البلاد التى استعمرها فى أوربا من العصر الإقطاعى. ولكنه يعيب عليه"القوانين البورجوازية" التى سنها فى فرنسا، وهى التى جعلت الطبقة البروجوازية تسانده. والأستاذ يقدم تاريخا سريعاً لتشريعات "نابليون" ونتائج الاستفتاءات التى ساندته فى حكمه، جاهلاً -كلية- ما أثبت منذ ستينات القرن الماضى أن كل هذه الاستفتاءات كانت مزورة. وينتهى المقال بتأكيد أن "نابليون" كان وريث الثورة، فى تناقض كامل مع ما سبقه من تقديم وتحليل.

الأستاذة البولندية "مونيكا هامان"، تكتب بالفرنسية عن أشهر بولندى فى جيش الحملة، وهو "جوزف سولكفسكى، ياور بونابرت فى مصر "وهو معروف بكونه من أوائل ضحايا ثورة القاهرة الأولى، وأهمهم شأنا. إنها تعرفنا ببعض الضباط البولنديين الذين حاربوا مع الجنرال بونابرت ثم الإمبراطور نابليون، وكما قالت: "طبعا كان بينهم بولندى يهودى": كان مستشرقاً، وتولى فى مصر أمر المطبعة العربية، "وكتابة مجلة بهذه اللغة": لن نعرف ما حدث لهذه المجلة التى لم نسمع عنها. ولكننا سنعرف كل تفاصيل حياة "سولكفسكى"، المناضل البولندى الجمهورى، والضابط الفذ، كما يتحدث عنه المرجع الأساسى الذى يكتب عن "البولنديون فى مصر"، والذى تأخذ منه الأستاذة كل معلوماتها تقريبا، والذى ينقل لنا ما قيل عن غيرة بونابرت منه، حتى إنه أرسله إلى الموت.

وبعد وفاته، بنى بونابرت حصنا على أنقاض جامع هدمه، وأطلق عليه اسم "سولكوفسكى". وتقول الأستاذة: "يقال: إن آثار هذا الحصن لا تزال موجودة حتى يومنا هذا (...) وفى عام 1834، بنى له الجنرال البولندى "هنريك دمبنسكى" نصبا تذكارياً فى الجزائر، ولكن الأهالى فى باب النصر حطموه بعد بضعة أشهر – ولكن "سولكوفسكى"، بسبب شبابه، ومثالياته، وحياته الصاخبة، تحول فى بولندة إلى بطل لمسرحيتين، ودراسة تاريخية ممتازة، ومقالات أخرى".

وهناك مقالة تحمل عنوان: "رائد حملة بونابرت على مصر: ليبنتز، مؤلف Consilium AEgytpiacum للملك لويس الرابع عشر"، كتبها الأستاذ الإسرائيلى

"ألكسندر يالى هاران" باللغة الإنجليزية. ولما كان هذا الأستاذ قد درس المناخ السياسى الألمانى الذى جعل ليبنتز يكتب لملك فرنسا يحثه على غزو مصر، فقد أضاف إلى ما يعرف – عادة – عن مبادرة ليبنتز فى نهاية القرن السابع عشر، والتى لم تلق من فرنسا أى اهتمام آنذاك. والمعروف عن ملك فرنسا هذا كثرة حروبه، وأطماعه التوسعية. لذا، فكر الفيلسوف الشاب ليبنتز، الذى كان مجهولاً آنذاك، أن يجعله يصرف النظر عن مهاجمة الولايات الألمانية المتاخمة لفرنسا، وقد أوجست هذه الأمارات خيفة من تسليح الملك لجيشه. فلو ذهب الملك الفرنسى إلى الشرق بجيشه، لتفادت هذه الدويلات شر أطماعه. وفى نفس الوقت، سوف يفرح الملك "لويس الكاثوليكى" بهزيمة "كفرة" مسلمين فى مصر. ومن شأن ذلك أن يحدث خللا فى توازن القوى بأوربا.

نعرف أيضا من هذا المقال أن غزو مصر كان من التنبوءات المفضلة لعظماء فرنسا فى القرن السابع عشر، حتى إن "عودة النيل ومصر إلى أيدى المسيحيين" كانا من النبوءات التى استقبل لها العرافون مولد "لويس الرابع عشر" فى أول القرن. ولكن أطماع "لويس الرابع عشر" كانت منحصرة فى أوربا... ولذا، لم يهتم بأمر غزو مصر.

وثمة مقال للأستاذ الألمانى "ماركوس بونكلمان" عن "حملة بونابرت على مصر فى الفن الفرنسى المعاصر"، بالإنجليزية، يضيف الكثير إلى دراسة استخدام "نابليون بونابرت" للفن كدعاية له. وهو يدرس لوحات لم نراها مع الأسف، ولكنه يشرح لنا هدف كل لوحة والأسباب السياسية المعاصرة، التى جعلت رسمها محتما لخدمة أمجاد "نابليون" أو كرد على الاتهامات الموجهة إليه، مثل لوحة "مرضى الطاعون فى يافا" – 1803–. هذه اللوحة رسمت لتبرئه من تهمة قتل جنوده، كما أشيع عند عودته من عكا مهزوما فى 1799.

كان "نابليون بونابرت" مهووسا بذكرى الإسكندر الأكبر، فجاءت اللوحات التى تصوره منتصرا على طول الخط، توحى بأنه "الإسكندر الجديد". والمعروف

طبعا، وهو ما يشرحه الأستاذ باستفاضة، أن كل ما رسم عن "بونابرت" فى مصر، رُسِم بريشة فنانين لم يذهبوا إلى مصر، وبعد الحملة بسنوات.

أما الأستاذ الأمريكى "كيفن مكرين" يكتب بالإنجليزية، ويتحدث عن "عمليات ونتائج وفعالية البحرية العثمانية أثناء غـزو "نابليـون" لمصـر 1798-1801". مرة أخرى، نجد أن أهم مرجع لديه، مثل أغلب المشاركين فى الندوة، هو كتاب "كريستوفر هيرولد"- والمقال- يخص -أساسا- تاريخ الدولة العثمانية، وقصة بحريتها وبكل التفاصيل المباحة. ومرة أخرى، نرى أن "بونابرت" أستاذ "محمد على"، وما دام "محمود الثانى" تلميذ "محمد على"، فالعلاقة قائمة مع الحملة ونتائجها على المنطقة. ألم يسمع أستاذنا بعلاقة الدولة العثمانية الممتازة بفرنسا قبل وبعد الثورة الفرنسية، خاصة فى مجال تحديث الجيش العثمانى؟

مقال الأستاذ الكندى ج.م.ب. "ماكرين" بالإنجليزية وعنوانه: "نابليون وإعادة فتح جزيرة كورسيكا: تمهيد ضرورى للحملة على مصر" . موضوع شيق وجديد، ولم يسبق لأحد التعرض له حسب قراءتنا للكتب التى تتحدث عن الحملة.

ويتضح من المقال أن إنجلترا كانت قد استولت على جزيرة كورسيكا، ولم تفهم الحكومة الإنجليزية آنذاك أهمية الموقع الاستراتيجى للجزيرة، فتركت "بونابرت" يغزوها ويعيدها لفرنسا. كان "باوولى"، السياسى الكورسيكى عدو "بونابرت" والحكومة الفرنسية، قد سلم الجزيرة للإنجليز، وأصبحت من ممتلكات العرش البريطانى، إلى أن أعاد "بونابرت" فتحها وضمها لفرنسا فى 1796. ولو دافع الإنجليز لما أتيح لبونابرت بعد ذلك المرور بسفنه، متجها إلى مصر فى 1798.

وتأتى مقالة الأستاذ الإسرائيلى ديفيد مندلسن بالفرنسية عن "شاتوبريان وحملة "نابليون" بونابرت فى الأرض المقدسة"، وهذا المقال يدل على جهل مطبق بما يخص شاتوبريان، الكاتب الفرنسى والسياسى والرحالة الكبير. وخاتمة دراسة الأستاذ تقدم اكتشافا غريبا، ذلك أنه ما دام "شاتوبريان" بنفسه قال – مرارا – إنه من

سلالة نبيل صليبى، وأنه يدين بنفس أفكار أجداده. فكيف توصل الأستاذ إلى هذه النتيجة المكتوبة فى مقدمة الكتاب الذى يتحدث عنه؟! ولكن المقال يهمنا بالدرجة الأولى، لأنه يتحدث عن الوثيقة المفروض أن "بونابرت" وعد فيها اليهود بوطن خاص بهم فى الأرض المقدسة. فهو يؤكد بالدليل القاطع أن الخبر انتشر ولكن الوثيقة مزورة بدون أدنى شك، ولا علاقة لها ببونابرت ، حتى لو أن "هرتزل" حيّا ذكرى "نابليون" بسبب هذه الوثيقة التى لا وجود لها!!

الأستاذ الإيطالى "لاورو" روسى إيطالى يكتب بالإنجليزية عن: "تقرير نابليون عن حملته على مصر والأرض المقدسة". وينفرد هذا الأستاذ بقراءة آخر ما نشر عن "نابليون" من كتب "جان تولار" و"فرانسوا فوريه"، ولو أنه يجهل كتاب هنرى لورنس الجامع عن الحملة على مصر. ما يقدمه هو سلسلة من كتابات "بونابرت" وخطاباته دون أى تعليق أو تقويم. وهكذا، نقرأ ما سبق أن نشر فى كل الكتب المتخصصة؛ مثلا، أن "بونابرت" أراد أن تكون مصر "مستعمرة"، وأن الأميرال البحرى "برويس" سبب هزيمة "أبو قير البحرية"، أى أن "بونابرت" يلقى بالخطأ على الضابط المتوفى. ولكن الجديد الذى لن يظفر به أى متخصص، أن "بونابرت" طلب من "كليبر" فى التوصيات التى تركها له عند سفره من مصر فى 29 أغسطس 1799 أن "يجمع خمسمائة أو ستمائة من المماليك (وفى حالة الاستحالة) رهائن من العرب (البدو) أو مشايخ البلد" وإرسالهم إلى فرنسا: "سيمكثون لمدة سنة أو سنتين، سيشاهدون عظمة الأمة (الفرنسية)، فيألفون تقاليدنا ولغتنا، وعند عودتهم إلى مصر، يصبحون من أنصارنا". مشروع خيالى – طبعا – وغير عملى البتة فى كل الظروف وخاصة فى ظروف "كليبر" الراهنة آنذاك. لذا، لم يعرها "كليبر" أى انتباه ونسى الأمر. ولكن المعجبين بالحملة حولوه إلى مشروع تعليمى وتحضيرى، دون أن يكون له أساس فى الواقع عند "بونابرت".

ويكتب الأستاذ الإسرائيلى "شيمون شامير" بالإنجليزية عن "الرأى العام المصرى وحملة بونابرت: نقاش حول مرور مائتى عام على الحملة". يبدو أن هذا

الأستاذ كان فى مصر أثناء الزوبعة الإعلامية التى قامت، عندما قيل إن مصر ستحتفل بذكرى الحملة، لأنه يكتب عن كثير مما نشر آنذاك، فى مجالات وصحف قليلة الانتشار، كما يكتب عن أشهر ما نشر من كتب، ومقالات، مثل مقال الدكتور "فؤاد زكريا" ورد الشاعر "عبد المعطى حجازى" وكثرة المناقشات فى الراديو والتلفاز. وهو يحكى ظروف الزوبعة بموضوعية تامة، دون أن يناصر أيًّا من الاتجاهين اللذين رآهما يتبادلان الحجج: فهو يرى أن طرفا رفض الحملة رفضا باتا، وبالتالى رفض فكرة الاحتفال؛ والطرف الآخر، الذى رأى أن هناك بعض العناصر الإيجابية على الأقل، جاءت نتيجة الحملة، فلا يرى هذا الطرف سببا لعدم الاحتفال. والمقال يقدم عرضا شبه كامل لمختلف الآراء والحجج التى استعملها الرافضون، لفكرة حملة ماهى إلا محاولة استعمارية سافرة دون أى فكرة مثالية عن الأفكار التى قال بونابرت إنه جاء إلى مصر ليحققها، كما يقولون.

أما الأستاذ الإسرائيلى "آرييه شمولفيتز" فيكتب بالإنجليزية "فى ظهور المسألة الشرقية: هل كان غزو نابليون لمصر، السبب فى تدخل الدول الأوربية فى الشرق الأوسط؟". يؤكد المقال أن حقيقة الصراع الأوربى العثمانى لم يكن وليد حملة بونابرت، ما دامت العلاقات والحروب بين أوربا والباب العالى بدأت منذ احتلال القوات العثمانية للبلقان، بل ووصول جيوشها إلى أبواب فينا. كانت المعاهدت فى هذه الأثناء تربط بين تركيا وفرنسا، وهولندا، وحتى السويد فيما بعد. وإصلاحات تركيا بدأت فى الواقع منذ بدايات القرن الثامن عشر. ويسرد الأستاذ تاريخ الحروب حتى غزو بونابرت لمصر، مما يدل على أن الأطماع الأوربية لم تكن فى حاجة إلى هذه الهجمة لتظهر فجأة . وجهة نظر تؤكدها الأحداث التى يسردها الأستاذ ولم تأخذ فى الاعتبار آراء من تخيل أن دور بونابرت كبير، حتى فى شئون تركيا الداخلية.

وتحمل مقالة الأستاذ الكندى جيمس شوزنبرج: "معركة الأهرامات (إمبابة)، انتصار تافه"، وهى بالإنجليزية. ونظراً للدراسات التى أثبتت أنها "لم تكن معركة،

بل مجزرة"، فقد جاء المقال مخيبا للقارئ، لأنه لا يضيف أى جديد على سرد أحداث الحملة التى يلخصها ويعيدها كما يعرفها كل من المغرمين ببونابرت، المشيد بأمجاده وصفاته، على الرغم مما كشف عنه فى كتب نشرت قبل هذا المقال بعقود.

وتكتب من كندا أيضا، "هيلين س" سميث عن "فيبيو ونابليون" بالإنجليزية. نتعرف معها على تاريخ حياة "زميل بونابرت" فى الدراسة، وسر صداقته للبحّار الإنجليزى "السير وليم سدنى سميث"، بكم هائل من التفاصيل، ثم نصل إلى صلب الموضوع، وهو مساعدة "فليبو لجزار باشا" أثناء حصار عكا. وأنه لولا هذه المساعدة، لما صمدت عكا... هذا ما قاله نابليون فى نهاية حياته، فى المرجع الذى ترشدنا إليه الكاتبة نفسها، دون أى روح نقدية أو تحليلية. وقد أعاد هذا الكلام نفسه نقلا عن نفس المرجع، كل من لا يقبل أن يهزم بونابرت إلا فرنسى من بنى جلدته.

والأستاذ "جون ستانلى كندى" آخر، يكتب أيضاً بالإنجليزية، عن "البولنديون فى الحملة المصرية لنابليون" أنهم سبعة، بينهم يهودى واحد، وانضمامهم لجيش الحملة كان على مستوى فردى؛ لأن مشروع تحويل ثمانية آلاف (8000) أسير بولندى بعد الحرب فى إيطاليا، إلى فرقة تسافر مع "بونابرت" إلى مصر فشل؛ لاحتياج الفرنسيين إليهم فى سيطرتهم على "جمهورية روما".

نتعرف من خلال هذا المقال، على تاريخ هؤلاء السبعة الذين رافقوا بونابرت إلى مصر، وكانوا متحمسين جدا لمشاريعه، وأشهرهم -طبعا – ياوره "سولكفسكى"، الذى مات فى مصر. ولكن علاقة "نابليون" بالبولنديين استمرت حميمة طيلة حياته. وقد ساعدهم على إحياء دولة بولندية مستقلة، لا حبا فيهم، ولكن لإضعاف المملكة البروسية.

وتأتى مقالة الكلونيل "جاك قرنيه" الضابط الفرنسى بالفرنسية عن "سياسة فرق الجنود". والمقال مهم لما يقدمه القارئ من معلومات جديدة، والدراسة ناضجة لا تخشى الحقائق المؤلمة للشوفينية الفرنسية، لذا، سنعرف فى آخر المقال ،

بعد أن قدم كاتبه كل الفِرق وما صاحبها من إعداد، أن "جيش الشرق"، الذى كان يتكون من خمسة وثلاثين ألف جندى لم يعد منهم عام 1801 إلا 21.180: رقم دقيق يشرحه الضابط الكاتب، مؤكدا أن 47٪ ماتوا فى المعارك، و57٪ بسبب الطاعون والأمراض، وهو يرى أنه ثمن باهظ ما كان له أن يدفع. والمقال مفيد من حيث تصنيف الفرق ومسئولياتها.

وفى النهاية ، يلخص الأستاذ الإسرائيلى ج.ديفيد مرخام بالإنجليزية، ما قدم فى الندوة، فى ورقة عنوانها: "نابليون فى الأرض المقدسة: الأسباب والنتائج. مسح للدراسات المقدمة فى الجمعية النابليونية العالمية فى إسرائيل 1989". ونفهم أن ما نشر ليس كل ما قدم فى هذه الندوة.

يأتى تلخيص سريع، أحسن من الأوراق نفسها، إذ يستخلص منها ما يبدو أنه جديد بالنسبة لهم. وهو يرى أن الدراسات الحربية طغت على أوراق الندوة، ولكنها قدمت معلومات جديدة ومهمة. مثلا تفوق البحرية على جيش الأرض فى معارك الحملة، والنظام الذى اتسمت به جيوش بونابرت، فكان تفوقها على جيوش العثمانيين، مع أن عدد جندهم كان أكثر بكثير من عدد الجند الفرنسيين. كما أشار إلى أن بونابرت لم يختلق جديدا فى تنظيم معاركه، فقد استفاد مما ابتدعه من قبله ملك بروسيا النابغة فردريك الثانى، فى منتصف القرن الثامن عشر. وهذا كلام معاد، قيل قبل ذلك مرارا، ولا يرى فيه المتخصصون جديداً منذ ستينات القرن الماضى.

* * *

أيا كان، فقراءة صفحات هذه الندوة ستكون بلاشك مفيدة لمن يجهل ما كان يقال عن الحملة وبونابرت قبل انعقادها بثلاثة عقود. فأصحاب الأوراق فى هذه الندوة، لم يقرأوا تقريباً إلاَّ الكتب القديمة، ولم يعرفوا كتاب هنرى لورنس عن الحملة الفرنسية على مصر، المنشور سنة 1989، ما عدا أستاذًا واحدًا أشرنا إليه فى

حينه. هذا الكتاب غيّر كلية النظرة إلى الحملة، إذ اعترف فيه بما كان الفرنسيون يتجاهلونه فى كتبهم المتخصصة، كما درس فيه الحملة من كل جوانبها وناقش ما قيل عنها قبله. إننا نلحظ أن أغلب المشتركين فى الندوة توقفت قراءاتهم عند كتاب كريستوفر هيرولد عن الحملة (1964). وواحد فقط تعرف على كتب "جان تولار" التى كشفت عن حقيقة "نابليون بونابرت" بعيدا عن أسطورته الخادعة، فغيرت النظرة فيما قاله "نابليون" نفسه عن تاريخه. العجب أن هؤلاء الأساتذة يسترشدون به بلا أى روح نقدية تصل إلى درجة السذاجة، وكأن "نابليون" سيسجل للتاريخ ما كان يشينه. لذا، لم يتعرض أحد من المشاركين فى الندوة، إلى ثورتى القاهرة، أو مجزرة الأسرى فى يافا و"بونابرت" فى طريقه إلى عكا وحصارها الفاشل.

كانت هذه هى مفاجأة أوراق هذه الندوة. فعلى الرغم من أنها عقدت سنة 1999، والمشاركون أغلبهم متخصصون، إلا أن قلة ضئيلة – أشرنا إليها فى قراءتنا لأوراقها – أضافت القليل إلى ماهو معروف عن الحملة منذ ستينات القرن الماضى، أى نحو ثلاثة عقود قبل انعقاد الندوة. فالمعلومات متوقفة عند النظرة التقليدية التى تنبهر بكل ما يفعله "نابليون بونابرت". إنهم –مثلا– يتحدثون عن الجنرال "بونابرت" على أنه "نابليون"، أى الإمبراطور، فاستعمالهم لهذا الاسم يؤكد مقولة: لولا تحول قائد الحملة بعد ذلك إلى نابليون الإمبراطور الذى استعمر أوربا كلها، لما تحدث أحد عن حملته الفاشلة على مصر.

أيضاً نلحظ أنه ما من أحد قال عن حملته فى فلسطين، التى كانت تسمى "سوريا" آنذاك، إنها كانت فى "الأرض المقدسة"؛ علاوة على أن وجوده فى هذه المنطقة، لم يتعد الأشهر الثلاثة! ولكن منظمى المؤتمر أخذوا المشتركين فى رحلة سياحية علمية إلى أماكن المعارك فى المنطقة، والمعروف أيضا أن هذه المعارك لا قيمة لها، ما دامت لم تأت بأى نتيجة فعلية، لولا المهارة الإعلامية "لبونابرت"، والتى وظفتها "الجمعية الإسرائيلية" لصالحها فى هذا المؤتمر. ويظهر –جليا– أن الورقة التى قدمها "مردخاى جيشون" – أحد أعضاء اللجنة المنظمة للندوة– والتى

قدمت على أنها "المقدمة"، والتى تتحدث عن وعد "بونابرت" بإنشاء "وطن خاص لليهود فى الأرض المقدسة"، مع أن الوثيقة التى تتحدث عن هذا مزورة، سيتضح منها أن الهدف الأول والأخير لهذا المؤتمر هو الدعاية لهذه الفكرة، وتأكيد حق اليهود فى امتلاك "الأرض المقدسة" و"عاصمتها القدس".

* * *

الحملة على مصر: "مشروع تنويرى"
(قراءة نقدية).. (بقلم فيليب بوردان)(*)

ترجمة: أ.د. صادق نعيمى

عُقِدت ندوة علمية كبيرة حول: "الحملة الفرنسية على مصر – مشروع تنويرى une enterprise des L umières 1798-1801:L'Expédition d'Egypte" يتميز هذا المؤلَّف باحتوائه على قائمة مراجع عامة وفهرست متميزين يعرضان – بدقة – لحالة البحث التى توصل إليها الدارسون "لحملة مصر" سواء فى فرنسا أم فى الخارج. وثمة ميزة أخرى فى هذا العمل؛ وهى أنه عمل يجمع بين التخصصات البينية حيث تتحاور تخصصات عدة من مؤرخين فرنسيين ومصريين وعلماء مصريات وعلماء موسيقا عرقية وأطباء حول هذه الموضوع – ولذا فإننا نجد فى هذا العمل معالجات لمصادر وموضوعات جديدة أو غير معروفة بشكل كافٍ، من أمثلة ذلك: دفتر ملاحظات الرسام "هنرى" – جوزيف ريدوتيه H.-J. Redouté، والسياق الاجتماعى والثقافى والعثمانى، وأخيراً مقابر الباريسيين الذين شاركوا فى الحملة.

ويعرض "هنرى لورانس" H. Laurenes فى ورقته مدى إعجاب كتّاب القرن الثامن عشر بمصر، رغم أن معرفتهم بها كانت عن طريق مصادر توراتية أو يونانية

(*) الأستاذ بجامعة بليز باسكال B.Pascal (كليرمون – فيران Clermont-Ferrand II 2).

– رومانية تجعلهم يتساءلون عن غموض "اللغة الهيروغليفية"، ذلك الغموض الذى دفع بجامعى التحف لأن يثيروا نوعاً من الهوس بمصر، هوس باطني وظفته "الفرانكوماسونية" LaFranc-Maçonnerie؛ ولكنها استقطبت أيضاً بعض العلماء ليتعرفوا من خلال تاريخها على أصل العقائد والعلوم، وبداية التاريخ الإنسانى وامتد الهوس إلى الفنانين؛ حيث نجدهم يحاكون الفن المصرى فى مسلاته وأهرامه. ونتعرف من خلال هذه الندوة أيضاً على النظام السياسى أيام "على بك" من خلال أعمال "فولنيه" Volney و"سافارى" Savary: فتبين الملابسات السياسية فى هذه الفترة أن الاحتلال الأجنبى بات لا مناص منه، وأن هذا الاحتلال الأوربى هو الذى كان من شأنه أن يعيد التقدم الذى كان يتمتع به هذا البلد فى أوج حضارته القديمة. ونطلع أيضاً على مشاريع سابقة للحملة؛ أى منذ السبعينات من القرن الثامن عشر تدعو للسيطرة على مصر ومن أمثلة هذه المشاريع نرى أن "البارون توت" Tott قد كُلف فى سنة 1776 بعمل جولة استكشافية فى مصر.

ومنذ وزارة "فيرجين" Vergennes – كما يذكرنا "فردريك هتزل" F. Hitzel، اتجهت الدبلوماسية الفرنسية وجهة تركيا وذلك حرصاً على المحافظة على المكتسبات التجارية الفرنسية، وكانت هذه الدبلوماسية تستند فى تحركها تجاه الدولة العثمانية على القناصل والتراجمة. ولقد اقترحت فرنسا تعاوناً ثقافياً وعلمياً من شأنه أن يسرع بخطى التحديث فى الإمبراطورية العثمانية. ونتيجة لجهود هذه الدبلوماسية تم التعاون فى مجال التحصينات وبناء السفن فى الفترة من 1784 حتى 1788، وهى الفترة نفسها التى شهدت دخول عربة اليد إلى تركيا بفضل الخبرة الفرنسية، وهى مفيدة لعدد كبير من الناس فى ذلك الوقت، إلا أن الحرب العثمانية الروسية قد قطعت هذا التعاون؛ بسبب رغبة فرنسا أن تبقى على الحياد. ولقد استؤنف هذا التعاون مرة أخرى فى سنة 1792 ثم من سنة 1794 إلى سنة 1797؛ وذلك بتشجيع من السلطان الجديد "سليم الثالث" (1789–1807) الذى رفض الدور التضليلى الذى كانت روسيا والنمسا تحاولان من خلاله دفع الباب العالى إلى عدم الاعتراف بالجمهورية الفرنسية.

وبعد معاهدة "كامبو – فورميو" Campo-Formio، أبدى "بونابرت" اهتماماً خاصاً بالبلقان؛ ولذا فقد قام عدد من الفرنسيين بإصلاح كثير من المدفعية والأسطول العثمانى بل وتأسيس المدرسة البحرية، كما كان حال الفرنسيين عندما ساهموا فى تطوير المطبعة لتعمل باللغة الوطنية التركية؛ ولذلك فليس بمستغرب أن يوجه الأتراك الشكر للفرنسيين على ذلك. وفى السنة السابقة على الحملة، قام "جيون بامبلون" G. Pampelonne بقيادة وفد من عدة عشرات من الفنانين (سوف يشارك العديد منهم لاحقاً فى الحملة على مصر، ومنهم على سبيل المثال: المهندسان المعماريان "لوبير" Lepère و"بروتان" Protain) بالذهاب إلى إستانبول. والمعروف أن عدد علماء الحملة بلغ مائة وستين "عالماً" ومهندساً قاموا بمرافقة جيش قوامه خمسة وثلاثون ألف رجل من جيش الشرق.

ويتتبع "بورجيه" M.N. Bourguet المراحل الكبرى فى التاريخ العلمى والبحرى للحملة : إن هؤلاء العلماء الذين اتبعوا الجيش فى حملة بحرية ، كانوا يوظفون بذلك "تقليداً" وضع قواعده "فرانسيس بيكون" عن العلم الميدانى (الإمبريقى) الحديث فى الأتلانتيت الجديد، وهذا التقليد كان قد اتبع أيضاً من قبل العلماء الذين رافقوا الجيش الفرنسى إلى هولندا وإيطاليا؛ حيث قام علماء أمثال "توان" Thouin و"فوجاس دى سان – فون" Foujas de Saint- Fond و"مونج وبيرتوليه" Berthollet "باستعارة" واسعة للميراث الطبيعى والثقافى من هذين البلدين. ولذلك كان من الطبيعى، وقد صاحب الحملة على مصر هذا الكم من المتبحرين، أن يؤسس فى القاهرة فى (22 أغسطس 1798) "معهد العلوم والفنون"، وكان هذا التأسيس بعد قليل من وصول الجيش الفرنسى للقاهرة فى ظل طموح يسعى لتأسيس جمهورية الآداب، على أن هذا الحلم سوف يتأثر بالمخاطر التى يتعرض لها الجانب العسكرى للحملة وللمقاومة التى يبديها الأهالى، ومن الظروف المادية (المتعثرة) للاكتشافات وتحليلها؛ مما أدى إلى يأس عدد من العلماء وفقدان حماسهم، وخاصة أن بعضهم كانوا يقومون بمهمات فى الصحراء والدلتا وفى الصعيد، ومع ذلك استطاعوا أن يحققوا تقدماً ما فى مجال الهندسة، وخاصة فيما

يتعلق بالمساحة؛ ومن هنا كان هذا التقدم الملحوظ فى مجال علم الخرائط والجغرافيا وهندسة الرى والعلوم الطبيعية وعلم الآثار.

ومن المشكلات التى كان يقابلها هؤلاء العلماء فى المعهد، مشكلة تخصهم هم أنفسهم والتى تتمثل فى الغيرة ثم الشجار الذى كان ينشأ بينهم، وخاصة بعد رحيل مونج فى أغسطس 1799، ومن بعده "برتوليه"؛ وبسبب النفوذ المتزايد "لفورييه" Fourrier، ورغم ذلك فإن جلسات المعهد قد وصلت إلى اثنتين وستين جلسة. ولعل سبب الخلافات – على نحو ما يشير "إيف ليسوس" Y.Laissus فى بحثه – هو التعيينات التى حدثت فى المعهد والتى كانت فى مجملها لعلماء مقربين للقادة العسكريين للحملة، وبخاصة "بونابرت"، ونجد أن ثمة خمسة وثلاثين مهندساً كانوا يحظون بتأييد "فورييه" من مجموع اثنين وستين. وبسبب استقلالهم النسبى عن الجيش الغازى، فقد استطاعت هذه المجموعة أن تكون أساس وصف مصر؛ بفضل ما احتوته دفاتر ملاحظاتهم عن رسومات مبدئية عن الآثار القديمة وخاصة فى مجال فن العمارة التى تميزت بها المعابد. تلك الرسومات التى اشتملت على رسم الأبراج السماوية بشكلها الدائرى، وكذلك التفكير فى إنشاء خط ملاحى بين البحرين الأحمر والأبيض المتوسط على نحو ما تظهر دراسة "شارل جلسبى"، أما عمل "كارمليا أوبسومر" C.Opsomer فيظهر الدور الذى لعبه الرسام وعالم الطبيعة "ريدوتيه" Redouté وخاصة من خلال دفتر ملاحظاته المعنون: "لوحة زمنية للجنة العلوم والفنون"، وهى الملاحظات التى لم تنشر حتى الآن.

ونأتى الآن إلى محاولات بعض الباحثين للإجابة عن السؤال الآتى: كيف ينظر معاصرو الحملة إليها؟ أبدى الفلاسفة الأيديولوج (المذهبيون) Idéologues تأييداً لها، وهذا التأييد يرجع إلى تأثير كتابات "فولنيه" التى تصور مصر بلداً ذا حضارة عريقة ، كثير السكان، ولو أنهم يعيشون فى حالة مزرية؛ ولذا فإن استعماراً تحضيرياً يعد عملاً إيجابياً، وهو على العكس من استعمار أمريكا. ونقرأ رؤية المذهبين الأيديولوجين تلك فى مجلة "العقد الفلسفى" وخاصة فى كتابات "لوبريتون" Le Breton الذى قدم وصفاً عرقياً (اثنياً) وسياسياً لمصر، أو فى الوصف الجغرافى الذى

يقدمه "ج.ب. سيه" J.B.Say ظناً منه أن هذا يمكن أن يساعد العائلات التى لها أبناء مشاركون فى الحملة . ومن مفهوم الاستعمار التحضيرى، اعتبر المذهبيون أن الفرنسيين مطالبون بأن يساعدوا شعوب الشرق وأن يندمجوا فيهم لتوحيد أوربا وآسيا؛ ولذا فإن عمل "بونابرت" فى تحطيم سلطة المماليك الذين يستعبدون بها شعب هذا البلد، قد لاقت هوى لدى هؤلاء المذهبيين؛ ولذا فقد امتلأت كتابات مجلات ذلك الوقت بالإطراء على عمليات "بونابرت" وعلى جهد لجنة العلوم وخاصة "العقد الفلسفى" على نحو ما نفهم من عمل "فردريك ريجن" F. Régent . إن رؤية المذهبيين تلك من "إعادة بعث" مصر هى ضمن "فلسفة الأنوار" التى لخصها "كوندورسيه" Condorcet حول إمكانية مساندة استعمار تنويرى وتحضيرى فى كتابه: **"مجمل للوحة تاريخية عن تقدم العقل الإنسانى" Esquisse d'un tableau des progréss de l'Esprit humain**. وفى هذا الإطار يمكننا أن نضع سياسة "بونابرت" فى هذا البلد وإنشاءه للدواوين وكلمات الإطراء على ما قدمته الحضارة العربية فى عهد الخلفاء لخدمة العلم والتى كانت تقال فى حضرة أعيان أهل مصر، وكذلك المشاركة الفرنسية الطنانة فى احتفالات المصريين بأعيادهم الدينية أو الوطنية؛ ومنها أيضاً الاحتفالات الصاخبة بأعياد الثورة الفرنسية والتى كانت تقدم للمصريين على أنها رمز للتحالف بين الشعبين. بيد أنه تجب الإشارة إلى أن هذه العروض الضخمة علمية كانت أم تقنية التى كان الفرنسيون يقدمونها للأعيان من أبناء هذا البلد كانت فى الأصل مخططات استراتيجية تهدف إلى إقناعهم بقبول الوجود الفرنسى"، وهو ما نخلص به من بحث السيدة "ماريا لويزا أورتيجا" L.Ortega.

غير أن أفكار "فلسفة الأنوار" لم تحظ دائماً بنجاح كبير: إن الحيرة أمام تجارب الكيميائيين وفشل طيران المنطاد، لم تساعد على توطيد أقدام الفرنسيين، كما كانت سلطة "الديوان" -المكون من تسعة من كبار الشيوخ – محدودة، فلم تكن للديوان أية سلطة سوى تقديم النصيحة أو المشورة وضمان مشروعية قرارات المحتل وليس أكثر من ذلك، وكان ثمة غياب لإصلاح إدارى حقيقى، وكانت إدارة البلاد تسير

حسبما اقتضت الآلة العسكرية. ولم تكن هذه العوامل فقط هى التى أدت إلى فشل نشر الأنوار فى هذا البلد المحتل، ولكن كان هناك أيضاً عدم تفاهم وحذر بين الشعب والفرنسيين، زاد منه وحشية المحتل ودقته الزائدة؛ ومن ثم فإن الصفوة فى المجتمع المصرى، رغم اهتمامها بالمكتبة والمطبعة فى المعهد، فإن أحداً منهم لم يُدع للاستفادة منهما، وهذا راجع للثقافة المحلية السائدة التى تقصر التعليم على القرآن الذى ترى فيه هذه الصفوة سمواً يفوق تقدم الفرنسيين . ونذكر أيضاً أن المجتمع المصرى كان يرى فى الفرنسيين خلفاء للصليبيين؛ ولذا فهم أقذار ومدنسون، ولذلك كان "الجبرتى" يندب ويرثى ما آلت إليه الأمور من عدم احتشام ومن تدهور الأخلاق فى القاهرة. ويخلص "أندريه ريمون" A. Raymond بأن قليلاً هم الذين تشربوا روح الأنوار، ويذكر منهم المعلم يعقوب والشيخ "حسن العطار".

ولايجعلنا هذا التأثير المحدود للدور التنويرى للحملة، ننسى أن ثمة نتائج علمية للحملة استفادت منها أوربا فى المقام الأول. ومن أمثلة ذلك أن علم المصريات – كما يذكر "جان ليلكلان" J.Leclant – لم يعد مقتصراً على هواية جمع التحف الأثرية، ولكنه صار موضع اهتمام الكثيرين من غيرهم.. ومن بين علماء الحملة، يخصص "باتريس بريه" P. Bret- دراسته للضابط والفيزيائى "كوتيل" Coutelle صديق العلماء ("فوركروا" Fourcroy و"جيتون دى مورفو" Guyton de Morveau و"كونتيه" Conté). ولقد اشترك "كوتيل" مع "كونتيه" فى تأسيس مركز المنطاد فى ميدون، وأدار الاثنان أيضاً ورش القاهرة (تلك التى كانت مكلفة بعمل طواحين الهواء والتلجراف البصرى والملايات والأسلحة البيضاء ... إلخ)، ثم كلف "كوتيل" بعد ذلك – وقد صار عقيداً – بمراقبة اتفاقية العريش. وبعد أن أصابه الإحباط بسبب عدم انتخابه عضواً فى المعهد، كرس وقتاً لكتابة بحثين أحدهما عن سلة الأقصر التى توقع لها أن تنقل إلى باريس، أما البحث الآخر فكان عن فن بناء أهرامات الجيزة، وقد كلفه "مينو" بذلك مما مكن "كوتيل" من توظيف فريق عمل ضخم من أجل ذلك، ويعد هذا بمثابة عمل مبكر فى مجال التنقيب عن الآثار؛ وبفضل هذا الفريق لم يعد يكتفى الرسامون أمثال: "ديترتر" Dutertre

و"ريدوتيه" Redouté و"كونتيه" Conté و"دينون" Denon، وكذلك المهندسون - بما جاء من رسومات فى كتب رحالة أمثال: "بوكوك" Pocoke (1734-1741) و"نوردن" Norden و"نيبور" Nébuhr (1772) وأخيراً رحلة "كاساس" Cassas فى السنة الرابعة لقيام الجمهورية الفرنسية. وكان فريق العمل هذا يعمل فى الصباح المبكر وقبيل الغروب ليفادى أشعة الشمس الحارقة. ولقد كان أحدهم وهو "كونتيه" يستلهم رسومات من أجزاء اللوحات فى "موسوعة" "ديدرو" Diderot و"دالمبير"D'Alembert وكان ديترتر يسير على النهج الكلاسيكى فى رسوماته للطبيعة؛ من خلال تصوير نباتات محلية مستخدماً ألواناً مختلفة من الحبر الصينى المخفف واللون المركز وقلم الترقيم، وبالإضافة لهذه الرسومات المحاكية للطبيعة، كان يصور أيضاً أبناء البلد المحتل، وهو التصوير الذى سوف يكون نموذجاً للرساميين المستشرقيين فى القرن التاسع عشر. ولقد بقى لنا رسومات عن الأهرامات وأبى الهول رغم الصعوبات التى تواجه رسم العمارة الضخمة، وتنتهى "مادلين بيفو - سورنيسن" M.Pinant-Sorensen إلى أن محاولات الرسامين استكمال ما اندثر أو تكسر من الآثار التى بقيت كالاطلال - بوحى من التخيل - لم تكن مثمرة بشكل كاف، أما دراسة "عايدة حسنى" فإنها تركز على دور المتخيل فى مسرحية النشاط الإنسانى (اللوحة المرسومة للأثر)، وكيف كان هذا المتخيل يفضل الشخوص الثانوية.

ويعرض لنا "كلود ترونيكر" C. Trauncker العلاقة بين "الرؤية الطوباوية" وبين "الحقيقة الأثرية" لمصر القديمة كما جاء فى "وصف مصر" . إن نصوص هذا الكتاب لجديرة حقاً بآداب "طوباوى" وخاصة تلك النصوص التى كتبها "فوربيه" لأنها تعكس صورة مثالية وانسجامية للدولة المصرية القديمة التى كان يسوسها أمراء وعسكريون مستنيرون، وتعكس هذه النصوص أيضاً صورة للدين المصرى الذى يشهد عليه معابده؛ حيث كانت للآلهة سلطة واسعة تعلم الناس مبادئ الأخلاق، وكانت هذه السلطة كافية لاستتباب النظام العام، كما كان هناك إعلام للفضائل العائلية فى عهد الفراعنة.

وتقوم "مارتين ريد" M. Reid بدراسة كتاب رحلة إلى الدلتا والصعيد Voyage dans la Basse et la Haute Égypte المنشور سنة 1820، حيث تظهر كلمة السيدة "ريد" أن هذا الكتاب قد اقتبس من أعمال رحالة سبقوه أمثال: "فولنيه ونوردن"، وكانت الآثار والفنون موضع الاهتمام الأول "للدينون"، الذى تعمد – فى الوقت نفسه – أن يقلل شأن الواقع الاجتماعى وعمران المدن وقت الحملة؛ ولذا فإننا نجد نظرة سوداوية عميقة تملأ نفسه، نلاحظها من خلال وصفه الذى يفتقد التناسق وذلك بسبب الظروف العسكرية، وإننا لنجد كذلك سطوراً تفيض بها هذه الرحلة عن افتراضات مسبقة عن الطبيعة والسعادة والألوهية Déisme(*). أما "لوسى رو" L. Rault فتخصص بحثها لتاريخ الموسيقا عندما تتناول طرفاً من إبداع المغنى "فيوتو" Villoteau، مركزة على رؤية هذا المغنى للموسيقا العرقية، تلك الرؤية التى تمكنه من اكتشاف وإدراك هوية ثقافية يحاول أن يلفت أنظار الموسيقيين المصريين إليها.

ويجدر بنا أن نشير إلى أنه من الصعب بمكان أن نلم هنا بالثراء الذى يتميز به هذا المؤلَّف (بفتح اللام) عن حملة مثيرة للفضولية مثل الحملة الفرنسية، ولكن هذا لا يمنعنا أن نذكر أن ثمة تكرار وعدم انسجامية بين بعض الأبحاث المقدمة، ولكن هذا التكرار وغياب التناسق أمران من الصعب تفاديهما فى أعمال الندوات. وسوف يكون ضرورياً لكل من تتصدى لهذا الموضوع وأقصد به تحديداً: قافلة العلماء التى رافقت الحملة أن يتصدى لموضوعات منها النتائج الطبية للحملة، ودراسة أعمال علماء أمثال: "جيوفروا سانتى – إيلير" G. Saint-Hilaire و"دليل" Délile، وأخيراً "روزيير" Rozière ، وكذلك دراسة الخرائط التى رسمت أثناء وجود الحملة فى مصر، والمجموعات الأثرية المصرية القديمة الأولى، وتحليل حجر رشيد. ولقد

(*) انتشر هذا المصطلح فى القرن الثامن عشر، وهو يعنى الإيمان بوجود إله لهذا الكون ونكران الوحى أى عدم الاعتراف بالأنبياء، وكان فولتير أشهر المعتقدين فى هذه الفكرة، ولقد اعتبر أن ذلك مدعاة لفكر التسامح الدينى، لأن الوحى السماوى يتضمن لاهوتاً يحيط به الغموض أو لا عقلانية أجزاء منه تؤدى إلى إثارة الخلافات الدينية بين البشر التى هى أساس التعصب الذى أودى بحياة كثير من البشر (المترجم).

استمر تأثير كل ذلك تأثيراً أدبيا على العقل الفرنسى حتى ظهور رواية "العالمة" l'Alméh التى كتبها "فينى" Vigny.

وتشير المساهمات المختلفة فى أعمال هذه الندوة أن الحملة تندرج – بصفة عامة – ضمن مشروع "فلسفة الأنوار"، دون أن نرى طرحاً لتساؤل: حول ما إذا كانت بعثة العلماء المصاحبة للحملة بمثابة تمويه للمشروع العسكرى وإعطاء مصداقية للمستعمرة المفقودة أم لا؟

* * *

الحملة على مصر: مشروع تنويرى
(قراءة نقدية)

أ.د. ليلى عنان

عُقدت فى شهر يونيو من العام 1998 ندوة علمية كبيرة بالمعهد الفرنسى والمتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى، وكان عنوانها : "الحملة على مصر – مشروع تنويرى" L'Expédition d'Egypte : une enterprise des Lumières 1798-1801 وأشرف على تنظيمها ونشر أعمالها أكاديمية العلوم وأكاديمية النقوش والآداب". وقد تضمنت ستة وعشرين مقالاً.

ونقدم فيما يلى قراءة نقدية لأهم الأفكار والنتائج التى تضمنتها الأبحاث والمقالات وكان أهم ما جاء فى مقدمة الندوة التى كتبها "باتريس بريه" Patrice Bret – وهو من المتخصصين فى تاريخ الحملة – أنه لا يمكن فصل مشروع التنوير عن مشروع غزو واحتلال مصر من 1798–1801 والرسم المنشور فى أول هذا المجلد لعمال مصريين فى ورشة تشير إلى جانب من جوانب الحملة، هذا الجانب الذى عادة ما ينسى، بسبب الاهتمام المبالغ بالجانب الحربى أو حتى بالجانب السياسى. رسم يذكرنا بالجانب الاقتصادى فى تاريخ هذه الحملة. ويشير "باتريس بريه" إلى أن الصورة تؤكد لنا العلاقة الحميمة بين الصانع المصرى والفنان الفرنسى الذى رسمها، كما يأسف "باتريس بريه" على أن اللياقة السياسية حولت الاحتفال بمرور مائتى عام على الحملة، إلى "مصر –فرنسا : آفاق مشتركة". وكان قد تم دعوة أساتذة متخصصين من كل العالم، وهو يأسف أيضاً للمقاطعة "الجزئية" للدارسين المصريين؛ بسبب الحساسية المفرطة التى ولدتها مشاكلهم الحالية.

ثم يقدم للقارئ العلوم المختلفة التى ستدرس فى هذه الندوة، كل فى اختصاصها، فى ناحية من نواحى الحملة.

* * *

وفى مقدمة الندوة التى تحمل عنوان: "التنوير ومصر" يسرد علينا هنرى لورنس Henry Laurens تاريخ الإعجاب فى أوربا بمصر الفرعونية، إلى أن قررت الحملة أن تذهب إلى مصر لتجد "الحكمة"، وهى صفة كهنة عصور الفراعنة. إنها "مصر كما كانوا يتخيلونها"؛ ثم يحكى "لورانس" كيف أنهم -أيضا- كانوا يكتبون تاريخ مصر على هواهم إلى أن نصل إلى القرن الثامن عشر، حيث قرر "العقل" الفرنسى أن حال مصر لن ينصلح إلا بالغزو : ستكون النتيجة إما حكما مستبداً ، اعتاده الشعب المصرى فلن يثور عليه، وإما رجل عظيم يحكم البلد فيكون، فى ذات الوقت، غازيا وقانونيا. ومن هنا، جاءت الفكرة الأساسية لجزء "مصر المعاصرة" فى كتاب وصف مصر. فمصر موضع دراسة لإعادتها إلى حالها السابق المبهر؛ لأنها كانت أرض الحكمة والمعرفة، والوصول إليها هو العودة إلى الجذور. إنها تطبيق لحديث التنوير عن مصر، وتأكيد فكرة حتمية استعمارها. كما كان الإعجاب بعلى بك الكبير، لأنه ينفذ المشاريع الأوربية من المنظور الغربى. أما عن تصدير التنوير، أو آثاره، فالصمت أبلغ من أى كلام فى هذا البحث القيم..!

وتحت عنوان: "ناقلو التنوير السياسى والمعرفى والأيديولوجى.. فرنسا وتحديث الإمبراطورية العثمانية فى نهاية القرن الثامن عشر" قدم فريدريك هيتزل Frédéric Hitzel دراسة بيَّن فيها أنه كان يموج فى فرنسا، فى القرن الثامن عشر، تياران يهتمان، مثل كل دول أوربا، بحال الإمبراطورية العثمانية التى كانت على وشك الانهيار : تيار يرى أن العلاقات التجارية المتميزة بين فرنسا والعثمانيين، ستنتهى مع انتهاء الإمبراطورية. ومن ثم لابد من خلق إمبراطورية استعمارية فرنسية فى المشرق، قبل أن تستولى روسيا والنمسا على غالبية الممتلكات العثمانية. ويفشل هذا المشروع بسبب المشاكل الاقتصادية فى فرنسا نفسها. أما التيار الثانى، فهو يبنى مشروعه على

أساس سلام أوربى مستديم، يتعين بمقتضاه أن تتحد الدولة العثمانية، وذلك بمساعدة فرنسا التى ستنقل "التنوير" إلى هذه الدولة، وبالتالى تحتفظ بمكانتها المتميزة فى المنطقة.

ولم يكن مشروع "فرجين Vergennes" وزير خارجية فرنسا، خياليا – وهذا بالضبط ما سيحدث مع "محمد على" فى مصر، ومبدأ "التنظيمات" فى تركيا، فى القرن التاسع عشر، أيا كان، فقد ساعدت فرنسا تركيا على تعليم بعض الجند الأتراك. وفى عام 1784، تأكد إنشاء مصنع للمدافع وتعليم الضباط الأتراك. كذلك، ذهب إلى تركيا من يعلم العثمانيين بناء السفن الحربية. وسيكتب الضباط الفرنسيون إرشاداتهم فى كتيبات تترجم إلى التركية، وسيطبعها فى بولاق "محمد على" فيما بعد.

مشاريع كان لها نتائج رائعة من العام 1784 إلى العام 1788. ولكن الحرب بين روسيا والدولة العثمانية أجبرت الضباط الفرنسيين المدرسين على الرحيل. عاد التعاون مع السلام فى العام 1792. وعلى الرغم من قيام الثورة فى فرنسا آنذاك، إلا أن التعاون استمر حتى علمت الدولة العثمانية باتصالات الجنرال بونابرت بحكام المقاطعات البلقانية واليونانيين. فعاد إلى فرنسا غالبية أعضاء البعثة، من فنيين وفنانين وضباط. ولكن الدولة وجيشها وبحريتها بالذات استفادت جدا من هذا التعاون.

ولكن تيار التدخل العسكرى قويت شوكته بكتاب "البارون دى توت"، عندما نشر : "مذكرات عن الأتراك والتتار" فى عام 1784. فكانت حججه توصل القارئ إلى ضرورة إنهاء الإمبراطورية العثمانية؛ من أجل الهيمنة الأوربية. وكان لهذا الكتاب نجاح، منقطع النظير، قبل أن يجد فولنيه "Volney" فى كتاباته، "الحجج النظرية للغزو". ولكن الدولة لن تستمع إلى آرائهم، إلى أن جاء مشروع "تاليران وبونابرت" لغزو مصر. خاصة أن بعض الضباط الذين عملوا بأمر الحكومة على تجديد الجيش العثمانى، كانوا قد نشروا ما يؤكد ضرورة استعمار أراضى الدولة العثمانية.

وتأتى دراسة "مارى – نوييل بورجيه"Marie-Noëlle Bourguet تحت عنوان: "علماء فى غزو مصر.. العلم والرحلات والسياسة فى عصر الحملة على مصر". فتبين أنه فى العام 1627، كتب الفيلسوف الإنجليزى "فرانسيس بيكون" فى كتابه "الأتلانديد الجديدة" برنامجا للسفر فى المستقبل : إن السفر لابد أن يكون أداة بحث علمى. وقد طبق هذا بالفعل فى القرون اللاحقة، وإن كانت قد زادت أهميته بصورة رسمية فى نهاية القرن الثامن عشر : أسماء الرحالة العلماء يكاد يملأ صفحة بكاملها، وأغلبهم مرسلين من قبل دولتهم.

فما نقله بونابرت باصطحابه علماء، تحت حماية الجيش، يعتبر صورة مطورة لنفس الفكرة، ولو أن حروب الثورة قبل غزوة مصر، كانت قد طبقت نفس المبدأ فى البلاد المهزومة. ولكن، نظراً لأن مصر وراء البحار، وحجمها أكبر من الدويلات الأوربية المستعمرة، فقد أصبح عدد العلماء أكثر بكثير.

وتذكر مارى بورجيه أن بونابرت أنشأ عند وصوله، فرعاً للمعهد الفرنسى، فى القاهرة، وكان هذا هو الجديد فى الأمر : فى كل الرحلات السابقة، كان العلماء يرجعون إلى باريس لدراسة ما توصلوا إليه، ولكن نظراً لبعد مصر فالمعهد الفرنسى فى القاهرة كان سيدرس محلياً ما توصل إليه من اكتشافات.

وترى مارى بورجيه أن ظروف الحياة فى بلد يعادى المستعمر ثم رحيل بونابرت، هو ما تسبب فى منع المشروع من تنفيذ أهدافه الدراسية. وأيضاً بسبب ما حدث للعلماء فى عهد "مينو" وإرسالهم أفرادا إلى مناطق متباعدة. فكانت خطابات العلماء التى تنم عن إحباطهم وتشاؤمهم. مما يدل على أن مزاولة العلم لابد لها من ظروف تهيئ الجو المناسب لتقدم العلوم.

ولكن الحقيقة أن العلماء كانوا فى خدمة المشاريع الاستعمارية "لبونابرت"، فكانت تحركاتهم المستمرة خارج القاهرة، لدراسة القطر المصرى فى كل نواحيه. وكان العلماء تحت إمرة ضباط الجيش وتحركاتهم. فكان البحث سهلا لمن تحرك فى مناطق آمنة، بينما البحث فى مصر العليا كانت له مخاطر عدة، وكأن العلماء جزء من

دوريات الاستكشافات العسكرية. خاصة أن أهم هدف حدده لهم بونابرت، كان رسم خريطة دقيقة لمصر. واختيار بونابرت للعلماء المصاحبين لحملته، يدل على أن اهتمامه الأول كان للعلوم التطبيقية أكثر من العلوم النظرية، على الرغم من ادعائه تحديث مصر. من هنا جاء الاهتمام الأكبر بالجغرافيين وبترجمة كتب الجغرافيا للرحالة العرب، مما يدل بالفعل على منهج التنوير، الذى يهتم بدراسة الأرض والمساحة. وما كان ذلك إلا تكرارا لما كان يحدث فى فرنسا قبل ذلك بعقدين.

أما دراسة الآثار، فقد حدثت بطريق الصدفة عندما انبهر بعض هؤلاء العلماء – والمهندسين منهم بالذات – بما شاهدوه فى مصر العليا، فأخذوا يرسمونه حتى دون إذن أو حماية من الجيش الفرنسى. ولكن دراساتهم كانت تحتم عليهم أن يدرسوا هذه الآثار من كل جانب هندسى حتى يتوصلوا إلى قواعد بنائها. ولكن هذه الدراسات كان لها أيضاً جانب نفعى؛ لأن دراسة الأثر والأرض التى بنيت عليه، يساعد على تحديد ما سيحفر من قنوات فى الريف، أو طريق يؤدى إلى مدينة السويس.

وكتب ايف ليسوس Yves Laissus مقالته عن "لجنة العلوم والفنون ومعهد مصر" وضح فيها أن إرسال بعثة من العلماء مع الحملة على مصر لم يكن أول تجربة بهذه الصورة، إذ أُرسل قبلها بعثة علمية أخرى إلى إيطاليا، كان من ضمن أعضائها "مونج" و"برتوليه". وكانت فكرة بعثة العلماء إلى مصر فكرة "بونابرت" نفسه. وكانت السرية المطلقة عن هدف الرحلة من أسباب إحجام الكثير من المدنيين عن الاشتراك فى رحلة "تسليح البحر الأبيض المتوسط". ولكن شهرة أسماء "بونابرت، ومونج، وبرتوليه، ودولوميو"، شجع كثيراً من الشباب إلى الاشتراك فى هذه المغامرة الغامضة.

تكونت المجموعة من تخصصات مختلفة : كيميائيين وفلكيين ومهندسين وعلماء رياضيات وعلماء طبيعة وموسيقيين ومستشرقين ورسامين ورجال طباعة وأطباء وصيادلة... كل هؤلاء وعددهم حوالى 160 عالماً، كانوا تحت إمرة "كافاريللى Caffarelli"، وهم فى حماية الجيش.

ويشير ليسوس إلى أن المعهد أُنشئ بقرار من بونابرت يوم 22 أغسطس 1798. وبلغ عدد أعضاء المعهد 48 عضواً. ويخلص إلى أن العلماء لم ينجحوا على الرغم من محاولات عديدة، فى إقناع العلماء الشرقيين بالفائدة المفترض أنهم جاءوا ليقدمونها لهم؛ إذ كانت –فى رأيه– الفجوة كبيرة بين الثقافتين.

وجاءت دراسة شارل جيلليزبى Charles C. Gillispie تحت عنوان: "المهندسون أمام مصر" بيَّن فيها أن أغلب المهندسين المشتركين فى البعثة كانوا من تلاميذ مدرسة الهندسة؛ أى أنهم صغار السن، وكان عدد المهندسين 60 خلافا للمهندسين العسكريين. وكان أهم إنجاز لهم هو "كتاب وصف مصر"، ويشير كاتب البحث إلى أن مشروع الكتاب كان فى مخيلة بونابرت منذ بداية الرحلة. كذلك كان بونابرت يشرف على دراسات المهندسين للآثار وكأنه قائد حربى يوجه جنده.

الحقيقة أن هدف أبحاث المهندسين فشل من أساسه، إذ كان المطلوب إنشاء طريق بحرى بين البحرين الأحمر والأبيض. ولكن المشروع فشل لعدة أسباب، والسبب العلمى أن "لى بار" Le Père توصل إلى أن مستوى البحر الأحمر يعلو بعشرة أمتار عن مستوى البحر الأبيض.

ولكن باقى دراساتهم على أرض مصر كانت ستفيد، لو أن المشروع الاستعمارى "لمينو" كان قد تحقق. أما رسومهم للآثار بدقة متناهية، فى مصر العليا، فكانت من وحى اهتمامهم الخاص، وقاموا بها فى ظروف خطرة، وأحيانا دون علم رؤسائهم من الضباط. وكانت الرسومات على أساس هندسى (كما تعلموا فى دراساتهم وليست مجرد ما نظروا إليه باحتقار)؛ مثل رسوم الفنان "فيفان دينون". وإعجابهم بالمعابد كان أقوى من تحفظهم؛ لأن المعابد كان أساسها المعابد اليونانية والفن الإغريقى. وكان عليهم أن يغيروا نظرتهم وينسوا ما فرض عليهم فى دراساتهم الكلاسيكية، أى الإغريقية والرومانية. كل ذلك طبعا حسب ظروف الحرب التى كانت تمزق آنذاك مصر العليا.

كانت حصيلة كل هذه الرسومات الدقيقة المدروسة أهم ما نشر فى "كتاب وصف مصر" ولن ينتهى تحضير ونشر الكتاب إلا فى عام 1829. وكان نصيب ما أنجزه المهندسون من دراسات ورسوم أهم ما نشر فى هذا الكتاب.

ويبين شارل جلسبى أنه لو تابعناهم فى حياتهم اليومية، سنرى أنهم كانوا يختلفون كلية عن باقى جند الحملة، سواء فى معاملاتهم مع أهالى البلد أو مع الفكرة الاستعمارية من أساسها.

وتناولت "كارميليا أو بسومرCarmélia Opsomer" دراستها حول "مخطوطات ريدوتيه، رسام وكاتب يوميات الحملة". وتشير كارميليا إلى أن "ريدوتيه" عُرف بصفته رساما يساعد دراسات الآخرين. ولكنه كان أيضا ممن كتبوا مذكرات يومية، كتبها فى مصر، ووجدت مؤخراً. يبدو مما قيل عنه أثناء حياته، أنه اشترك فى عمل قاموس عن سير أعضاء المعهد فى مصر. أيا كان، فما كان يكتبه يوجد حاليا فى مكتبة الأرسنال بباريس.

ما يهمنا، هو حوليات تقصى كل ما حدث، منذ مغادرته طولون فى الطريق إلى مصر، حتى عودته إلى فرنسا، فى 26 نوفمبر عام 1801. إنه يهتم بكل شىء فى هذه الحوليات ويصفها بدقة، خاصة إذا تعرض لما حدث فى المعهد ونقل ما قيل فيه. ولكن كثرة التفاصيل والرجوع إلى التاريخ، مثلما نقل فى وصفه لمالطة مثلا، كان من أسباب عدم نشر هذه الكتابات القيمة؛ كذلك ما دفع له من أتعاب على رسوم نشرت فى "كتاب وصف مصر"، وإبعاده عن اللجنة المنظمة للكتاب كان ظلما خاصة أنه اشترك فى الحملة . بينما لم يترك غيره أرض فرنسا، ومع ذلك، أشركوهم فى اللجنة المنظمة لنشر كتاب وصف مصر.

وكتب فردريك ريجان Frédéric Régent مقالة تحت عنوان : "مصر كما يراها الفلاسفة الأيديولوج(*) : نظرة جديدة فى لايكاد فيلوسوفيك على حملة بونابرت".

(*) الأيديولوج : هم حركة ثقافية فرنسية، ظهرت فقط فى نهاية القرن الثامن عشر، ولم يكن لها أى صدى، حتى إننا لن نجدها فى القواميس الفرنسية ! وهم امتداد لنظرية الحواس لكونديّاك Condillac، فالحواس هى الفاعل الأول لكل ما يحدث من مشاعر نفسية أو روحية، وبالتالى تتحكم بعد ذلك فى المشاعر الاجتماعية والأخلاقية والسياسية.

والمعروف أن مجلة "لاديكاد فيلوسوفيك" من أشهر المجلات المعروفة فى نهاية القرن الثامن عشر، وكانت تظهر كل عشر سنوات، وتشتمل على مقالات فى العلوم والآداب والفن والاقتصاد. إنها لسان حال مثقفين من المعجبين جداً ببونابرت ، وكان اهتمامهم الخاص بالحملة مرده إلى أن بعض محررى المجلة من بين من اشتركوا فى غزو مصر.

انكشف السر، أخيراً، وعرف أن الحملة التى يعدها "بونابرت" ستتجه إلى مصر. فكان فى 19 أبريل 1798، أول مقال عن مصر، متأثرا جدا بكتاب "فولنيه" عن مصر والمنظمة. وهى تصدر بؤس المصريين ولو أن البلد غنى مما يسمح لحكامه بالثراء الفاحش، على الرغم من إهمالهم الشديد للزراعة والتجارة. وكاتب المقال يؤكد أن غزو سوريا كان ضروريا للحفاظ على مصر. وستكون قلعة يافا أحسن حصن للفرنسيين عند غزوها.

ثم كان مقال آخر فى 21 أكتوبر 1798 يحاول شرح الموقف ليستطيع الفرنسى فى بلده أن يتتبع ما يحدث فى مصر. ومرة أخرى، يأخذ كاتب المقال وصفه لمصر من كتاب "فولنيه".

وتيار "الأيديولوج" يواجه معضلة فى حل مسألة التعامل مع مصر ورخائها و"شعبها البائس، الجاهل، المتبلد، إلى أقصى حد"، حسب ما يكتبه "بونابرت" للحكومة فى باريس. فهم يتساءلون : هل تستغل الجمهورية الفرنسية ثروات مصر، أم ترتفع بالشعب المصرى إلى مستوى البلاد الحرة؟

أحدهم أكد أن اندماج المستعمرين الفرنسيين لن يثير أى مشكلة لأن أغلبية سكان مصر من المسيحيين، لأن كاتب المقال لا يرى فى مصر إلا "مستعمرة" بمعنى إرسال فرنسيين يعيشون فيها. أما بالنسبة لسوريا، فعلى اليهود المشتتين منذ ثمانية عشر قرنا، أن يذهبوا ليعيشوا فيها. ونظريته تتسم "بالإنسانية"، فهو لا يبحث إلا عن مصلحة البلد المستعمر!! ولم تكن هذه هى المقالة الوحيدة فى هذا الاتجاه.

إنهم لا يرون فى الفرنسيين إلاَّ محررى مصر من الاستعباد، ويصورون العلاقة

بين كلا الشعبين بصورة ملائكية. ولا يفهمون كيف تقوم ثورة القاهرة، فما هدف "بونابرت" إلا "إعادة الفنون والعلوم على ضفاف النيل المتوحشة، وهى أساس الحضارة وعظمة الشعوب". والهدف الأهم، هو تعويض الممتلكات الفرنسية فى أمريكا وإنشاء مستعمرة "إنسانية" بدون عبيد كما كان الحال فى المستعمرات الأمريكية. وعلى الفرنسيين، والفرنسيات بالذات، الذهاب إلى مصر لتعميرها. والهدف ليس "استعباد" السكان ولكن "تحضيرهم".

أما العلماء الذين اصطحبهم بونابرت معه، فهم ذاهبون من أجل هذا الهدف الأسمى. ولذا، كانت سعادة المجلة بإنشاء فرع للمعهد فى القاهرة، والإعجاب "ببونابرت" وصل للذروة لأنه فى المستقبل سوف يعمل العلماء المصريون والفرنسيون معا من أجل تنفيذ أهم المشاريع. وحتى عندما عاد "بونابرت" "المنتصر" العسكرى إلى فرنسا، لم يتحدثوا عنه إلا بصفته "العلمية" لما فعله فى مصر. فالمجلة هى الوحيدة التى تتحدث عن هذه "الإنجازات"، بينما كل الجرائد الأخرى – وهى كثيرة جدا – لا تهتم إلا بالجانب العسكرى للحملة، وآثارها على السياسة الداخلية والخارجية. وهكذا أكدت المجلة أن بونابرت أوصل "التنوير" إلى مصر، لأن الحملة كانت وليدة "الثورة والتنوير". ولكن هذه الرؤية باتت محدودة فقراء المجلة لم يتعدوا بضع مئات.

وجاءت دراسة ماريا لويزا أورتيجا María Luisa Ortega عن "إعادة إحياء" مصر : الكلام يواجه الواقع بينت فيها أن فكرة استعمار مصر من أجل "خلق شعب جديد" هى وريثة الثورة الفرنسية وهدفها الشامل لمنح الرخاء لكل بلاد العالم؛ لأن على فرنسا واجب تحضير وتجديد العالم. ولكن بالنسبة لمصر، فالموقف مختلف، لأنها كانت الأصل فى تاريخ الحضارة، فالقضية هنا هى "إعادة إحياء" شعب نسى ماضيه المبهر. ولكن سرعان ما تبخر هذا المشروع "الثورى".

والحديث عن "تجديد" مصر، فضح التناقضات التى اتسم بها نفس المشروع فى فرنسا نفسها، مع مشاريع التعليم : كان هدفها خلق هذا "التجديد" فى فرنسا

نفسها، ومحاولاتها "لخلق إنسان جديد". وكانت ثمة كلمات معينة من المفترض أن لها وقع سحرى على نشء فى انتظار تحويله إلى ثوار. وفشلت فى فرنسا، كما فشلت فى مصر، محاولات الحملة تلقينها للمصريين من خلال الاحتفالات بأعياد الثورة مثلا، أو إطلاق المنطاد الذى سقط بسرعة أمام الجمهور.

كذلك كانت محاولات العلماء الفرنسيين إبهار المصريين... الذين لم ينبهروا؛ لأن الفرنسيين كانوا يقدمون تجاربهم على أنها معجزات، فلم يكن لها أى صدى عند المشاهدين، لقد فهم الشيوخ أن الهدف من كل هذا العرض هو تأكيد سمو الفرنسيين عليهم، بينما كان بونابرت مقتنعاً بأن الدين هو الذى يمنعهم من استيعاب الدرس. وكاتبة المقال تؤكد أن تحطيم أدوات المعمل بالذات أثناء ثورة القاهرة دليل على أن المصريين فهموا أن علم الفرنسيين جزء لا يتجزأ من قهر المستعمرين لهم. وهكذا، فشل مشروع "بونابرت" لإعادة إحياء مصر. ولكن الحلم تحقق بعد ذلك مع "محمد على" ومن خدمه من الفرنسيين و"السان سيمونيين".

وجاءت دراسة "أندريه ريمون" André Raymond تحت عنوان: "المصريون والتنوير أثناء الحملة الفرنسية" بيَّن فيها أن الفرنسيين جاءوا إلى مصر حاملين معهم فكرا بعينه، وهو "فكر التنوير"، و"المثل الثورية"، معتقدين أن تصديرها إلى البلاد المهزومة أمر هين، مثلما حدث فى غزو إيطاليا، قبل حملة مصر مباشرة، ولكن مصر كانت فى نظرهم تستحق نظرة مختلفة؛ لأنها مهد الحضارة؛ علاوة على أن الإسلام لم يكن دينا فى نظرهم وإنما تعاليم حكيمة كما أن نبيه فيلسوف! ولما كان لا يوجد فى الإسلام رجال دين، لم يكن ثمة عائق يمنع تطور العقول. لذا، قرر الفرنسيون إنهاء الحكم المستبد الذى طغى على مصر، كما قرروا إشراك المصريين فى النظام السياسى الحديث الذى سوف ينشئونه.

لذا، تولى بونابرت إقامة "الديوان" فور دخوله القاهرة، وأعضاؤه التسعة المصريون كانوا من العلماء الذين اشتركوا فى الحياة السياسية قبل ذلك. ولكن دور "الديوان" كان محصورا فى الاستشارة فقط (كما كان واضحا من أول يوم)، وعليه

أن يساعد على تطبيق سياسة "بونابرت" على شعب لن يستمع إلا لعلمائه. لذا، لن يتحاور علماء الديوان بحق مع المستعمر إلا أثناء حكم "مينو".

والنتيجة الفعلية هى أن السلطة الحقيقية كانت فى أيدى العسكريين، ولم يُستشر المصريون فى القوانين وإعادة التنظيم لشئون بلدهم. كان على المصريين الطاعة ودفع الضرائب. والتنوير الوحيد فى كل ذلك، كان التنظيم والفاعلية، وقد أعجب الجبرتى بهما جدا.

من الصعب معرفة رد فعل المصريين تجاه سياسة التنوير، فالمراجع لا تسمح لنا إلا بمعرفة كيف استقبلتها النخب المصرية من العلماء. وعموما، فالمجهود الفرنسى كان ينصب أساساً على هذه الفئة.

ومما لاشك فيه أن أهم حاجز يمنع وصول التنوير إلى المصريين، هو الحاجز الدينى، ولم تكن الحملة بالنسبة للعامة إلا حربا صليبية جديدة. فكان الدين هو القوة الوحيدة التى تحمى شخصيتهم وتقاليدهم. خاصة أن أهل البلد يفهمون عند كل تغيير، أن الهدف من ورائه تسهيل الاستعمار العسكرى، وكانوا على حق فى ذلك. وكان عدم الاهتمام بالعلوم المقدمة لهم، أحسن دفاع لمحاولات تجريدهم من أخلاقياتهم وعاداتهم، ولكن الزيارات لمكتبة المعهد كان لها التأثير الأكبر مع الإعجاب بالكتب والصور الموجودة.

ولم يكن وجود المشايخ فى الديوان إلا استمراراً لدورهم قبل الحملة، علاوة على مساعدتهم للجمهور وهم فى هذا المركز. ولكن السلطة العليا لم تكن مقبولة: الحاكم غريب، مسيحى، وضد السلطان. ولكن ديوان 1800، الذى أسسه "مينو" كان له تأثير؛ لأنه كان مكونا من مصريين فقط، وكانوا يناقشون شئون الدولة، ما دامت لا تمس الدين، وكانوا يوافقون على تجديدات كثيرة تعتبر "حديثة". ولم يشعر الشعب طبعا إلا بالطلبات الملحة والمستمرة للضرائب، ورؤية الاحتلال العسكرى.

لذا، لن يجد "التنوير" أى نوع من التأثير أو الانتشار، ولم يترك مؤسسة أو قوانين

تدل على امتداده فى تاريخ الأمة؛ وقد يكون أحسن دليل على ذلك أن المشايخ الذين عملوا مع الفرنسيين لم يثبتوا ، فيما بعد، أن ذلك أثر على طريقة حياتهم أو تفكيرهم، حتى الشيخ الجبرتى الذى طالما ذكر على أنه تأثر بالفرنسيين. والنتيجة تعتبر فشلا كليا لإدخال التنوير كما كان هدف المحتل: سيكون لها بالفعل نتائج ، ولكن متأخرة وغير مباشرة وذلك يعتبر أثر غير مباشر للحملة. "محمد على" قام بالتغييرات التى كان "مينو" قد وضع لها خططا ولم تنفذ، ولكن لا ننسى أن اسطنبول كانت تفعل نفس الشيء قبل سنوات سابقة على العام 1798.

وجاء المحور الثانى فى الندوة حول الحضارة الفرعونية واكتشاف ماضيها التليد فكتب جان ليكلان Jean Leclant دراسة عن "اختراع مصر الفرعونية : الآثارعلم المصريات قبل الحملة على مصر " ، فأشار إلى أن تاريخ الاهتمام الغربى بالآثار والكتابات الفرعونية اهتمام قديم، ومنذ أيام الرومان؛ ولكن عرف ذروته مع عصر النهضة. خاصة أن عبادة الآلهة المصرية "إيزيس" كانت منتشرة قبل ذلك فى كل أنحاء أوربا، إلى أن تحولت إلى المسيحية مع الإمبراطور "كونستانتين" وجدت آثار كثيرة لهذه العبادة "لإزيس"، واهتم بعض العلماء بالكتابة الهيروغليفية، وباللغة القبطية. فكان لتقليد المبانى الفرعونية كالمسلات والأهرامات، تيار فنى عرف النجاح فى القرن الثامن عشر، وذلك قبل الحملة بكثيرا – كما أصبح كهنة الأهرامات أبطال كثير من القصص. كذلك، أخذت الماسونية كثيرا من الرموز الفرعونية كعنوان لها. وأثناء الثورة، كانت المسلات والأهرامات الخشبية تزين باريس فى كل احتفال وطنى. ثم كانت الحملة والعثور على حجر رشيد

وتحدث "باتريس بريه Patrice Bret" عن "**العالم والهرم والمسلة : مشاكل علم الآثار الكبيرة وفقا لكوتيل**" وكان "كوتيل" ضابطاً مهندساً، عضو لجنة تنفيذ كتاب "وصف مصر"، وكان قد ساهم –أيضا– فى الأعمال الميدانية، أثناء وجوده مع الحملة فى مصر، كتب بحثين ضاع أحدهما – واهتم بمشكلة نقل مسلة من مصر إلى أوربا، وقدم آراءه للمعهد الفرنسى فى مصر. خاصة أن الجنرال "ديزيه"، عندما شاهد مسلتى الأقصر، فكر فى نقل إحداهما إلى باريس، لعظمتها ودقة نقوشها. أما

البحث المفقود، فهو يتحدث عما سينشره "كوتيل" فيما بعد عن دراسته لكسوة الأهرامات.

وكتب "مادلين بينو سورس" Madeleine Pinault Sourensen مقالة حملت عنوان: **"من رسم الفنان أو المهندس إلى الرسم الأثرى"** بيّن فيها أن رسوم الفنانين التى نشرت فى كتاب وصف مصر هى امتداد لرسوم القرن الثامن عشر وكتب الرحالة التى كان لنشرها تأثير كبير على مهندسى الحملة، خاصة أن المهندسين كانوا قد تعلموا الرسم أثناء دراستهم. وأهم ما نشر من رسومات قبل الثورة كان فى كتب الرحالة الإنجليزى "بوكوك"، والدانمركيين "نوردن ونيبور"؛ والفرنسى "لوى – فرنسوا" كأساس كان الأكثر أهمية نظراً لكثرة ترحاله فى مصر.

وتناولت دراسة عايدة حسنى Aïda Hosny **قراءة سميوطيقية لبعض لوحات فى جزء "الآثار"**، اختارت الباحثة بعض اللوحات المنشورة فى جزء "الآثار" من "كتاب وصف مصر"، ليس لتحليلها ولكن "لقراءتها"، حسب المنهج السميوطيقى، لترى ما أضيف من خيال الرسامين لما كان مفروضاً، أن يكون مجرد نقل لما يشاهدونه : مثل إضافة كهنة فى داخل المعابد المرسومة. ونظراً لأن راسمى هذه اللوحات مختلفون، فهذا يدل على أن هذه الإضافات ميراث لثقافة مشتركة بين الرسامين. وتجيء اللوحات وكأنها لعرض مسرحى به كل العناصر، من الديكور إلى الأبطال، وهم طبعاً الجيش الفرنسى أو الرسام نفسه، ثم الجوقة وهى من الفلاحين أو الأعراب فى الأدوار الثانوية.

أما دراسة "كلود تراونكير Claude Traunecrer" فجاءت تحت عنوان: **"رؤى يوتوبية وحقيقة أثرية فى مصر القديمة فى كتاب وصف مصر"** بيّن فيها أن كُتَّاب مقالات وتعليقات كتاب وصف مصر، وخاصة المقدمة، سجلوا ما كان يحلم به الفرنسيون وهم ينظرون إلى عظمة الآثار المكتشفة، فالنتيجة أنهم على يقين أن الفراعنة كانوا أكثر الحكام حكمة لأن العلماء والكهنة كانوا يوجهونهم – كان عالمهم عالم رقة وتناسق، فحتى ما نراه من فظائع حربية على جدران المعابد، يراه الفرنسيون على أنه دليل على أن الفضائل الحربية أيضا كانت من نصيب الفراعنة.

وكاتب المقال يقارن **"يوتوبيا مصر الفرعونية"** هذه، بالكتابات الخيالية المثالية الأخرى – ويعجب كيف كانت هذه الرؤية عاملا مشتركا لكل الفنانين والكتّاب. لذا، نفهم، بعد الانهيار المصرى وفقدان الفراعنة لكل أثر، أن يعيد الفرنسيون إلى أرض مصر، هذا العالم المثالى، المبنى على العلوم والحكمة. وكاتب البحث يعقد مقارنة بين فكر سان – سيمون، وهذه اليوتوبيا الاجتماعية التى يتخيلها فرنسيو الحملة.

وجاء المحور الثالث فى الندوة متضمنا ست مقالات، جاءت الأولى تحت عنوان: **"اختراع الأرض : الدولة الحديثة والتاريخ الطبيعى صورة شعب : مصر كما رآها دينون"** لـ "مارتين ريد Martine Reid" بيّنت فيها أن الواقع بالنسبة "لفيفان دينون" كان فى المرتبة الثانية مثله فى ذلك مثل كل رحالة هذا العصر، لأنه تشبع بقراءات ما كتبه من جاء من قبله إلى مصر منذ الإغريق وهيرودوت. وكان اهتمامه الأول وهدف حضوره مع حملة "بونابرت" رؤية الآثار من أجل رسمها، لأنه فنان لا ينظر إلا ليرسم. كان عليه أن يشير إلى ما هو "غريب" عند المصريين ينظر إليهم من بعد كفنان، ونظراً لاختلافهم عنه وعن ثقافته، وعلى الرغم من ذلك، فإنسانيته تجعله يتعاطف أحياناً معهم. على أن نظرته لهم سطحية، وسريعة، وعند وصوله إلى الإسكندرية، وجد فيها ما أسماه الموت والصمت، وهذا الإحساس لم يتغير أثناء رحلته كلها.

وجاءت المقالة الثانية تحت عنوان: **"فيوتو" والموسيقا المصرية، أو الانتباه إلى موسيقا الآخر** لـ "لوسى رولت Lucie Rault". يستعرض المقال كيف وجد "فيوتو" ضالته فى الحياة عندما عاش فى مصر مع الحملة وتعلم الموسيقا المصرية. تعرف على قساوسة جيشين وكهنة يونانيين ووجد فى أديرتهم دراسة ترجع إلى عام 825 – وكتب عنها، وفى رشيد، مع "مينو" تعرف على المنشدين العرب وأدواتهم. واهتم بموسيقا البلاد الإفريقية والديانات المختلفة التى سمعها فى مصر. وعند عودته إلى فرنسا، كتب عن كل ذلك. ثم نتعرف على بعض الموسيقيين الفرنسيين الذين استلهموا مصر (وليس موسيقاها) فى أعمالهم.

وجاءت دراسة "سرج جاجايو Serge Jagailloax" تحت عنوان: **"ضباط الصحة أمام الأمراض الاستوائية والطب التقليدى"** أشار إلى أن الثورة كانت قد ألغت الكليات الملكية الطبية. لذا، كل من استطاع السفر إلى مصر، كان فريقا مختلفاً فى تعليمه وتجهيزه ليكون طبيبا أو جراحا ميدانيا. نقرأ عن تحضير المستشفيات للجيش فى مصر، عدد الجراحين والأطباء، والأسرة. واكتشاف الأمراض المحلية الجديدة على الفرنسيين . وقد بدأ ظهور الطاعون فى الإسكندرية فى 10 ديسمبر 1798. وعند العودة من حصار عكا، كان عدد المرضى بالطاعون، ألف مصاب. وبيَّن كيف حاول كبار أطباء الحملة تجهيز مدرسة لجراحين من الجيش الفرنسى، وكيف استعانوا ببعض الأدوية المحلية فى علاجهم لجنود وقادة الجيش.

أما مقالة **" مخطوطات مصرية عند "جوفروا سانت- هيليز"** لجان – لوى فيشر Jean-Louis Fischer فقد ركزت على التاريخ العلمى لتكوين العالم الشهير واهتماماته فى مصر باكتشاف الأنواع الجديدة المختلفة للسمك والعصافير. وفى ليلة، قال "بونابرت" جملة كانت سبباً للتوجه العلمى لجوفروا سانت هيلير طيلة حياته بعد ذلك؛ أى حتى سنة 1840 ونقرأ أيضا شرحا لنظرياته العلمية، ولا نعرف شيئا عن المخطوطات التى يتحدث عنها عنوان المقال.

ودارت مقالة جان – مارك دراون Jean- Marc Drouin حول **عالمين مهمين هما: روزيير وديليل،** فأما الأول (روزيير) فيقص علينا كاتب البحث تاريخ حياة هذا العالم وكيف تعلم. وسافر كثيرا فى مصر حيث ذهب مع البعثة العلمية للحملة، وكان يدرس الأرض وكتب بعدها فى كتاب وصف مصر ما يخص المعادن mineralogy . وكان أهم ما اكتشفه كثرة النطرون فى الأرض. أما عن عالم النبات "ديليل"، فقد اكتشف النباتات الجديدة التى يجهلها الأوربيون، وكان يهتم أيضاً باستعمالاتها المحلية وتسمياتها (مما يدل على اهتمامه بالمصريين وهو اتجاه لم نستشفه عند باقى العلماء).

وجاءت دراسة "جيلين آلوم Chislaine Alleaume" عن **"الأرض وبناء**

الذاكرة: **خرائط مصر أثناء الحملة"** حيث بينت أن خرائط مصر التى رسمها علماء الحملة تكاد تكون أهم ما أنجزوه، ولو أنها لم تحظ بأى اهتمام. كانت ثورة فى نظام المعرفة بالنسبة لعصرها. الخرائط كانت فى غاية الأهمية بالنسبة لمشروع السيطرة على أرض مصر، من أجل تحركات الجند. وكانت بنفس الأهمية لمعرفة أسماء القرى وحال أهل هذه القرى، وذلك من أجل تحديد الضرائب وجبايتها. وكان هذا هو عمل مهندسى الحملة. والأطلس عبارة عن 47 صفحة فى كتاب وصف مصر، وكانت أكبر مشكلة بعد ذلك تحويل أسماء القرى والمدن إلى اللغة الفرنسية؛ لأن الحروف اللاتينية لم تكن ملائمة للأسماء العربية.

أصبح كل هذا فى خدمة ما حدث من تطورات أثناء القرن التاسع عشر، خاصة فيما حاوله وكتبه "على باشا مبارك" قبل وبعد وصول الإنجليز.

وكانت خريطة القاهرة والإسكندرية فى منتهى الدقة واستخدمت بعد الغزو مباشرة؛ وساعد أطلس القاهرة "على مبارك كثيرا فى كتاباته" للخطط.

وتضمن **المحور الرابع والأخير فى الندوة** : ست أوراق دارت حول البعد الحضارى والثقافى للحملة، فجاءت دراسة بول – مارى جرينفالد Paul-Marie Grinevald تحت عنوان: **العودة من مصر : تقديم المعلومات.. كتاب وصف مصر : حدث فى عالم النشر.** وفيها يدرس بول بالتفصيل كل مراحل تمويل وطبع ونشر كتاب وصف مصر، الذى بدأ عام 1802 وانتهى فى عام 1830. ونوعية الورق المستعمل وإعادة النشر إلى آخره.

أما دراسة آنا بيوسى Anna Piussi، التى جاءت تحت عنوان: **"سلاسل الإشراف الذهبية "النابليون" : الصورة الأولى لافتتاحية كتاب وصف مصر "تحية لدوتيرتر وبلزاك وسيسيل"**، فتشير إلى أن أول صورة تبادر قارئ كتاب "وصف مصر" قد تحولت بفضل الرسام "سيسيل" إلى صفحة تمجد "نابليون" بل تؤلهه، ما دامت هذه هى رؤيته للعالم. كما أن "المقدمة" التى تتحدث عن "نابليون" هى فى الواقع ، فى تناقض تام مع محتويات الكتاب التى لا تذكره بتاتا. وكان هدف

"نابليون" من هذه التوجيهات، التغطية الإعلامية على فشل حملته فى مصر، فتركها "بونابرت" هاربا بسرعة . وجاء تاريخ النشر لهذا الكتاب الفاخر كاذبا ليمجد "نابليون" بعد مرور عشر سنوات على توليه السلطة فى فرنسا. لقد تحول الكتاب إلى نصب يمجد الإمبراطور – والمقال يقص بالتفصيل كيف حدث هذا، ومعركة بعض فنانى الكتاب مع الإرشادات الكاذبة للكتاب.

وكتب "جان دومبر Jean Dhombres" عن **روح الهندسة فى مصر**– "مونج وفورييه وجومار" "من العلم الغازى إلى الإيجابيه" بيّن فيها أن لغة الطبيعة كانت هى العلم بعينه عند علماء الحقبة الزمنية التى وقعت فيها أحداث الحملة الفرنسية. ولكنها كانت أيضا لغة المهندسين – وكانت دراسة الآثار تساعدهم على تطبيق نظرياتهم، ورفض ما كان أسلافهم من الرحالة قد كتبوه عنها، والمقال يدرس بتأنٍّ خطوات العلم الوضعى من خلال دراسات المهندسين الفرنسيين للآثار المصرية.

وحملت الدراسة التالية عنوان: **"من الفصول إلى الجمعيات العلمية : أول مجاميع للآثار المصرية"** لـ "ميشيل ديفاختيرMichel Dewachter" بيّن فيها اهتمامات فرنسا بالآثار، لبحث أخذ من كاتبها ثلاثين عاما، منقبا فى مكتبات الماضى للرحالة وكاتالوجات بيع الآثار وحتى الصور القديمة. ويظهر الاهتمام بالآثار المصرية منذ أن كانت "عجائب" عند العلماء، ثم فى بدايات المتاحف فى الجمعيات العلمية وندواتها – هذا ما يقوله كاتبها، ولكن البحث فى الواقع يتحدث عن الآثار الضئيلة التى أحضرها معهم ضباط الحملة.

وقدمت "ديديى ديفوشلDidier Devauchelle" دراسة عن حقيقة إسهام شامبوليون وجاء مقالها تحت عنوان: **"من حجر رشيد إلى شامبوليون"** وضح فيها أن فك رموز اللغة المصرية القديمة، كان قد مر بمرحلتين : الأولى ، أثناء النهضة مع عالم اسمه "أثاناز كيرشر"؛ أما المرحلة الثانية، فهى نهاية القرن الثامن عشر أثناء الاهتمام الخاص بمصر والمصريات، قبل الحملة الفرنسية. ولم يكن "شامبوليون" الوحيد فى محاولته فك الرموز الهيروغليفية وحجر رشيد، بل صارت له شهرة بصفته رمزاً، أكثر منه مفتاحاً لفك هذه الرموز.

وحملت آخر مقالة عنوان: "**سطو أدبى على كتاب وصف مصر: قصة "العالمه" للشاعر "فينيي" لـ"سرجا موسى Serga Moussa"، بينت فيها أننا لا نعرف إذا ما كان المقصود بكلمة L'Aleméh أهو "العالم" أم "العالمة"؟ لأن "فينييى" لم ينه قصته، وما لدينا من هذه القصة المبتورة، يثبت إلى أى مدى استعان مؤلفها بكتاب وصف مصر. والغريب، كما نقرأ فى البحث، أن الأحداث تدور أثناء الحملة الفرنسية على مصر، ومع ذلك، فالمؤلف لا يشير البتة إلى البعد الحضارى والثقافى للحملة العسكرية.

كتب "أنور لوفا" خاتمة الكتاب، تحت عنوان: " **إعادة التفكير فى الحملة على مصر**" وحاول من خلالها أن يلخص كل الأبحاث (التى بهرته)، ويذكر ما تدينه مصر "لجومار"، الذى تولى تعليم "رفاعة الطهطاوى" عندما كان فى باريس.

* * *

وبعد فإن نتائج هذه الأبحاث فى غاية الأهمية، ليس فقط لمن يهتم بتاريخ الحملة الفرنسية على مصر، ولكن لكل من يهتم بتاريخ التنوير فى مصر. فقد أصبح هذا التنوير بالنسبة لبعض المؤرخين، هبة الفرنسيين إلى المصريين، وعنوان الندوة يقرأ، إما "الحملة مشروع تنويرى" ، وإما "الحملة : مشروع التنوير". وأهمية هذه الندوة أنها من تنظيم من رأى من الفرنسيين أن على مصر أن تحتفل بمجىء "بونابرت"؛ لأنه جاء ليس غازيا، وإنما حاملا رسالة تحضير كانت مصر فى أشد الحاجة إليها ؛ ناهيك عن "الحرية" التى كانت مصر تفتقدها آنذاك؛ إذ كانت ترزح تحت وطأة استعباد المماليك. هذا بالضبط ما قاله "بونابرت" نفسه فى المنشور الذى كتبه على سفينة "لوريان"، ليتم توزيعه على المصريين لحظة وصول جيشه إلى الإسكندرية. وقد برر من صدق هذه النية الحسنة، وجود 160 عالما، نشرت أبحاثهم بعد ذلك فى كتاب وصف مصر الرائع. وتحولت فى نظرهم "الغزوة الاستعمارية" إلى "رحلة علمية تنويرية"، أصبحت فى القرن التاسع عشر، نموذجاً يحتذى به للمدِّ الاستعمارى العالمى، الذى سمى بـ"عبء الرجل الأبيض".

ولعل مما يؤكد هذه النية لمنظمى الندوة، الأماكن العلمية التى استضافت الندوة، والتى يشكرها "باتريس بريه" فى مقدمته، وهى بالفعل أعلى هيئات علمية رسمية فى الدولة. فالكل يتكاتف كى تنجح هذه الندوة التى جاء للمشاركة فيها علماء متخصصون أجلاء، قدموا أوراقا نفيسة، فى أغلبها عن علماء الحملة، وما قدموه من علم جديد للإنسانية... وليس لمصر، فهل جاءت نتائج هذه الأبحاث لتثبت أن مصر تدين للحملة "بصحوتها" على أيدى جند "بونابرت" وعلمائه، كما خطط لها منظموها؟

والمعروف أن الندوة جاءت فى ميعاد حرج، وبعنوان مغرض : هذا ما يعترف به صراحة الأستاذ "باتريس بريه" فى مقدمته ، آسفا أن الأساتذة المصريين اعتذروا عن الحضور "جزئياً"، والسبب هو مشاكل مصر الداخلية! لم يفهم لحظة أن الاحتفال بمرور مائتى عام على غزو مصر ، كان أمراً مهينا لهم، وأن عنوان الندوة لا يبغى إلا هدفا واحدا هو تأكيد الزعم القائل بأن جيش بونابرت كان حاملاً للواء التنوير، وأنه صَدَّر التنوير بقيمه الرائعة إلى مصر. والغريب أن غالبية الأوراق المقدمة لا تتحدث إلا عن الإنجاز العلمى لعلماء الحملة، ولا علاقة لهم بمصر أو المصريين، حتى إن كان موضوع دراستهم نابعا من اهتمام الجيش الفرنسى ببلد يدرسونه ليحسن استغلاله؛ وهذا الكلام قيل صراحة.

وعلى الرغم من ذلك، يحاول بحث عن الموسيقى مثلا، تأكيد أن دراسة الموسيقى التى أجراها "فيوتو"، كان لمصلحة الطرفين، هذا فى مقدمة البحث، ثم لا نقرأ بعد ذلك، كلمة واحدة تثبت من قريب أو بعيد هذا الكلام، فكل ما نقرأه عن "فيوتو" ينصب على دراسته للموسيقى العربية، ونشر نتائجها فى فرنسا... ولكن، أين التأثير الفرنسى على الموسيقى فى مصر ؟!

أما الأبحاث التى تكلمت صراحة عن هذا التنوير الذى أتى به الجيش إلى مصر، وهى أبحاث "أندريه ريمون" و"ماريا لويزا أوريجا"، فهى واضحة وبلا أى مواربة: لم ير الشعب المصرى من الفرنسيين إلا جيش المستعمر، وحتى إن كان

العلماء المصريون قد عرفوا التنوير، فهو لم يؤثر عليهم فى شيء، لا فى تفكيرهم ولا فى حياتهم. كان الفرنسيون، مثل تيار "الأيديولوج" الفلسفى، يحلمون من بعد، ويُنَظِّرون لبلد لا يعرفون عنه شيئاً؛ ولكن انبهارهم بالجنرال "بونابرت" جعلهم يحلمون.

كان الواقع شيئا آخر لا علاقة له بتهويماتهم عن بلد سيعود إلى مجده السابق بفضل الجهود الفرنسية التى اقتصرت على فرض ضرائب باهظة. وحتى تأثير "تنوير الحملة" على الدولة العثمانية، عن طريق ما حدث فى مصر، فقد فُنِد بجدارة!

ولاشك أن من قرأ عنوان الندوة، والمقدمة الواثقة لباتريس بريه سيصاب بخيبة الأمل، إن كان يبغى التأكد من أن مصر استفادت علمياً من الحملة، خاصة أن ثلثى الأبحاث تتحدث عن العلماء. ولنا أن نتخيل ما فكر فيه "باتريس بريه" نفسه عندما سمع أو قرأ ما يؤكد أن الهدف من الندوة فى مناسبة احتفال فرنسا بمرور قرنين من الزمن على الحملة الفرنسية، لم يأت بما كان يشتهيه مؤيدو فكرة استعمار مصر.... من أجل مصلحتها. بل قد يكونون قد صدموا عندما عرفوا أن "السان سيمونيين" هم أول من اهتم بالبعثة العلمية مع جنود الحملة؛ فبدأ الحديث عن الحملة وإبراز دور ، لم يشعر به هؤلاء العلماء، أثناء وجودهم فى مصر. خاصة أن هدفهم لم يكن يوما تصدير التنوير إلى مصر!

إنها ندوة ناجحة إن قيست بمستوى الأبحاث، فهى كلها على مستوى عال، من أساتذة متخصصين بالفعل وأمناء فى تحليلاتهم ونتائج أبحاثهم. وإن كان لابد من استخلاص النتيجة الفعلية لكل هذا المجهود، والتى يمكن إيجازها فى أنه ما من أحد يستطيع بعد ذلك التحدث عن "التنوير فى مصر مع الحملة الفرنسية".

وليست النتائج المستخلصة من هذه الندوة جديدة علينا، والكثير من الادعاءات التى تحولت إلى مسلمات، وجدت من أثبت كذبها. ولكن أهمية هذه الندوة، أن الهدف منها كان عكس ذلك؛ إذا أراد منظموها، كما تقرأ فى مقدمة "باتريس بريه"،

إثبات العلاقة الوطيدة بين الحملة العسكرية والتنوير، بمعنى أن التنوير كان أهم ما حصلت عليه مصر، على الرغم من الهزيمة العسكرية النكراء لجيش بونابرت. ولم يعد أحد يشكك الآن فى الأمر الأخير، ولكن.. وهكذا يدافع عنها الاستعماريون، ألم يكن التنوير الحصيلة الجميلة لها فى أرض كانت غارقة فى الجهل؟!

أيا كان الأمر، فقد تأكد أن التنوير فشل فى فرنسا نفسها... فما العجب إن كان قد فشل فى مصر؟ والمصريون لم ينبهروا بالعلم الفرنسى، وكيف ينبهرون وقد قدم لهم على أنه من أعمال السحرة؟! علاوة على أن العلماء أنفسهم لم يكن يوما من أهدافهم، نشر التنوير فى مصر؛ لأن ما كان يهمهم هو أبحاثهم العلمية البحتة؛ علاوة على كونهم أداة استعمار تحت إمرة الجيش. أما سفرهم مع الجيش إلى مصر، لم يكن بدعة جديدة كما ادعى المعجبون "ببونابرت، وكتاب وصف مصر، لم يكن إلا امتداداً طبيعياً لنوعية الدراسات السابقة. أما حجر رشيد، فهو رمز فقط لما حدث بعد ذلك من فك الرموز، فقد قدم الكثير من العلماء، قبل "شامبوليون"، ما يسمح له بفك الرموز الهيروغليفية، وكانت هذه المعلومات أكثر نفعا له من حجر رشيد. حتى "الموضة الفرعونية" بعد الحملة، كانت على أشدها ، عقودا قبل اكتشاف مصر فى عام 1798.

كذلك، كل ما قيل عن أن تركيا استفادت بما حدث فى مصر من تغيير بسبب الحملة، بينما التغيير نفسه كان قد بدا واضحاً فيها، منذ القرن الثامن عشر، قبل أن يفكر بونابرت فى غزو مصر بكثير جدا.

ولكن الجديد هو معرفة، بالضبط ، من أين جاءت أسطورة أن "بونابرت" وعد اليهود بوطن فى فلسطين: إن هذه الأسطورة لم تكن إلا إحدى تهويمات "الأيديولوج" وهم فى فرنسا، لإعادة تخطيط المنطقة حسب خيالهم الجاهل الجامح. كما أننا نعرف من إحدى الدراسات، أن أطلس كتاب وصف مصر كان من الدقة بحيث إن القرن التاسع عشر كله استفاد منه، وحتى نهايته مع "خطط" على مبارك.

أما عن التنوير الذى جاء مع الفرنسيين، "فأندريه ريمون" قد لخصه ببراعة فى جملتين: الفرنسيون لم يطلبوا من المصريين إلا الطاعة ودفع الضرائب؛ والتنوير لم يترك مؤسسة أو قوانين تدل على امتداده فى تاريخ الأمة المصرية. وهكذا ، شهد شاهد من أهلها!

* * *

حملة بونابرت
من منظور مصرى

قراءة نقدية بقلم: أ. د. صادق نعيمى

خصص المركز الفرنسى للدراسة والتوثيق الاقتصادى والقضائى والاجتماعى المعروف اختصاراً بـ (السديج Cedej)، عدد دوريته: "مصر – العالم العربى" عن كيفية المعالجة المصرية لحملة بونابرت على مصر، وقد صدر هذا العدد بمناسبة المئوية الثانية لهذه الحملة، ضمن مشروع احتفالى فرنسى – مصرى بهذه المناسبة، سرعان ما تحول من احتفالية إلى عمل بعنوان: "آفاق مشتركة" بين مصر وفرنسا. ويرجع هذا التغيير فى اسم المشروع وتغيير البرنامج إلى الضجة التى أثارها الإعلام المصرى بسبب سعى البعض للاحتفال بعملية عسكرية سعت إلى احتلال مصر.

ورغم أن هذه الضجة قد أثيرت حول حدث تاريخى، فإن المؤرخين كانوا شبه غائبين أو إن شئت مغيبين عن الإدلاء بآرائهم العملية حول هذا الحدث، وهذا ما نقرأه فى الفصل الثانى من "المنبر" الذى يمثل المحور الأول لهذا العدد. وقد أوردنا هذا الفصل مترجما كاملا فى هذا الكتاب تحت عنوان: "محصلة متعارضة"، ورغم اختلاف وجهات نظر المؤرخين المشاركين فى المائدة المستديرة التى شكلت مضمون هذا الفصل، فقد أجمعوا على أن الحملة قد مثلت – بحق - صدمة للمجتمع المصرى، وأحدثت حراكا ما فى هذا المجتمع. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن

الحملة جاءت للقضاء على نهضة مصرية بدأت فى الظهور فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر، نهضة لا يوافق على وجودها الكثير من المؤرخين.

ويشمل هذا العدد عدة مقالات عميقة، ومقابلة مع بيتر جران، وأولى هذه المقالات، عمل ليلى عنان المتخصصة فى تاريخ الحضارة الفرنسية، وتتميز مراجعها بأنها متعلقة مباشرة بالموضوع، وهى أستاذة على صلة مباشرة بالمصادر الفرنسية. وقد اختارت عنواناً ساخراً ومتسائلاً: "إن كنت لا تدرى فتلك مصيبة، أو كنت تدرى فالمصيبة أعظم"!

ويمثل المقال نوعاً من تمرد المثقفة الناضجة والأكاديمية المتخصصة على ما تلقته فى مراحل تعليمها الإعدادى والثانوى عن الحملة فى مدارس اللغات الفرنسية، وعملها ليس تاريخيا بقدر ما هو قراءة فى أدب الفرنسيين الذين جاءوا إلى مصر بداية من عمل "فيفان دينون" المعنون: رحلة إلى مصر السفلى والصعيد"، مروراً بمذكرات كلوت بك والرحلة الشهيرة للأديب جيرار دى نيرفال المعنونة "رحلة إلى الشرق". وتعطى هذه القراءة إجابة محددة عن الحملة الفرنسية بقدر ما يخرج المتصفح لهذه السطور بأن ظلالاً من القلق مازالت تخيم على نفس كاتبتها، بمعنى آخر أن تأثير اللحظة الأولى لم ينته بعد، فالمعلومات التى تلقتها فى مدارس اللغات الفرنسية سنة 1948 عن الحملة التى أريد لها أن تكون بداية "مرحلة تنويرية" فى تاريخ مصر، ما انفكت تحدث أثراً فى عقلية هذه الأستاذة، رغم إرادة تحررها من تدريس "التاريخ الموجه"، إلى مرحلة رؤية الحدث التاريخى بعقلية ذاتية (متشككة) بعيدة عن الظلال القومية التى يحاول تيار تعليمى ما أن يزرعه فى نفوس التلاميذ والطلاب.

وليلى عنان بمثابة صوت مصر يرد على آراء متعددة فى الجانب الفرنسى تحاول أن تجعل من الحملة أسطورة نابليونية، وجنة مفقودة، ولكن مقالها يبقى فى مرحلة التساؤلات، وهو ما يتسق مع العنوان الذى اختارته، ولعل أوضح ما فى هذه التساؤلات أن بداية الخروج من مرحلة الشك إلى يقين بأن هذه الحملة هى عمل عسكرى يجب عدم الاحتفال به وإن كانت تستحق دراستها.

ويأتى مقال عفاف لطفى السيد محاولاً الإجابة عن النقطة المحورية المتمثلة فيما إذا كانت الحملة بداية مرحلة التحديث فى مصر، ويتعرض مقالها: "الحملة الفرنسية والجدل حول الحداثة"، لمناقشة نظريتين ترى الأولى أن الحداثة يجب أن تأتى من الخارج، بينما الثانية تؤكد بأن لا حداثة ولا تحديث ما لم تكن هناك ظروف داخلية مواتية.

وقد ناقشت أستاذة التاريخ الحديث بجامعة كاليفورنيا، مقولات عن تأخر مصر التكنولوجى فى أواخر القرن الثامن عشر مقارنة بما كانت عليه حال أوربا، وهى وإن كانت قد وافقت على صحة هذا الأمر؛ لدرجة أن كثيراً من العلماء قد أعجبوا بالمكتبة التى جاء بها الفرنسيون، وبما كان عليه جيشهم من تقدم تقنى مقارنة مع حال جيش المماليك، إلا أن ثمة عوامل قد حالت دون حدوث التفاعل. وترصد عفاف لطفى السيد جانباً نفسياً لدى الجانبين حال دون قيام المودة بينهما، وهو مستوى النظافة " فقذارة الجنود وميلهم الواضح للسكر والكحوليات من الأمور التى استهجنها المصريون". وكان الجيش الفرنسى ينظر إلى المصريين نفس "النظرة النفسية الدونية"، هذا بالإضافة إلى ما قام به هذا الجيش من اقتحام للجامع الأزهر ونهب بعض القرى.

ولعل مارصدته هذه المؤرخة من قيام "حاجز نفسى" بين الاثنين، أفضل ما فى مقالها، بالإضافة إلى ما رصدته من بداية انتعاش حركة التجارة فى مصر بعد طول فترة ركود لدرجة أن كبار التجار والعلماء بدأوا يستثمرون فى الالتزام. وإذا كانت تعترف – وهو أمر أوافقها تماما عليه- بأن تفاوتا تقنيا كان واضحا لصالح الفرنسيين، وأنها لم تشر إلى نهضة فكرية وعلمية بازغة فى نهاية القرن الثامن عشر كما يرى البعض، إلا أنها أشارت إلى أهمية إعادة قراءة المنتج الفكرى للعلماء فى هذه الفترة حتى يمكن الحكم على المقولة السائدة بأن التعليم فى هذه المرحلة كان محدوداً فى بعض المعارف والعلوم الشرعية، ولكنها فى ذلك تبدو متأثرة برأى بيتر جران الذى سوف نناقشه لاحقا فى هذه القراءة.

ونراها تعود إلى "الحاجز النفسى" مرة أخرى، ولكنه هذه المرة من جانب الفرنسيين الذين كانوا يستشعرون استعلاء على المصريين، مما أفقدهم القدرة على الحوار مع أبناء البلد. وبالإضافة إلى هذا الحاجز النفسى كان كذلك حاجز اللغة. غير أن كاتبة المقال لم تشر إلى أية لغة مما يترك انطباعاً لدى القارئ أنها اللغة الفرنسية، وهذا يشكل فجوة فى دراستها؛ إذ إن الجيش الفرنسى المشكل لمجمل العمل العسكرى الفرنسى كان يسمى "بجيش الشرق"، وهو جيش مكون من بولنديين وإيطاليين وجنسيات أوربية أخرى، فاللغة ليست اللغة الفرنسية، بل مجموع اللغات التى كان يتشكل من الناطقين بها هذا الجيش. وتخلص إلى أن الحملة كانت فى مصر لمدة قصيرة، بأنها بداية تحديث مصر، يعد قولاً مردوداً عليه بأن التحديث عملية تحتاج إلى وقت طويل تسمح بتقدم المجتمع.

وتأتى المقابلة مع بيتر جران التى أجراها كل من رمضان الخولى وعبد الرازق عيسى، لتعطينا وجهة نظر أمريكية فى هذا الحدث، والعنوان الذى اختير لهذه المقابلة: "إجهاض نهضة" وعنوان جانبى: "مصر فى نهاية القرن الثامن عشر". إذ يؤكد الباحثان اللذين أجريا هذه المقابلة مع "بيتر جران" على موقف المؤرخين المصريين عن الحالة الفكرية لمصر مرتبط بمؤلف: "الجذور الإسلامية للرأسمالية" الذى وجه إليه هؤلاء المؤرخون نقداً لاذعاً، يتمثل فى أن "جران" حاول أن يعطى رؤية أمريكية للحملة، بسبب أخذه نتفا من هنا وهناك، وقام بتعميمها، ولم يخالف المؤرخين سوى نللى حنا التى أشادت بمنهج جران ومعرفته العميقة بهذه الفترة، وبالنتائج التى توصل إليها.

وأكدت ردود جران على الأسئلة المطروحة وجود هذه النهضة، بشكل نابع من الداخل مؤكداً أن العلماء كانوا يفرقون بين "العقل والنقل"، ثم قام بتشبيه هذه النهضة المصرية التى سبقت وصول الحملة، بالنهضة اللاتينية فى إيطاليا، وكان هذا هو التأثير النظرى لفكرته عن وجود نهضة مصرية فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر، أما فيما يتعلق بالوقائع فأشار إلى وجود "مجالس" كان يتم الحوار فيها عن

العلم والفن، وذكر من العلماء "مرتضى الزبيدى" صاحب "تاج العروس"، ويشير أنه فى سنة 1780 قامت حركة احتجاجية شعبية بسبب تأثير الثورة الصناعية، وقد أحدثت هذه الحركة خلخلة فى العلاقة بين الحكام والمحكومين وبدأت تتعدى الشكاوى ضد المماليك، ويشير إلى أن مصر تتشابه فى هذا مع إيطاليا أو إسبانيا.

وقد دافع هذا المؤرخ الأمريكى عن وجهة نظره القائلة بوجود نهضة فى هذه المقابلة بإعادة التذكير "بتاج العروس" الذى يتحدث عن القبائل العربية ولهجاتها ولغاتها مما يعتبر اهتماماً من "الزبيدى" بعلم الجغرافيا، وكذلك "حسن العطار" الذى حاول البحث فى التوازن بين العلم والشريعة، وجران هنا يقف شبه متفرد فى هذا الأمر الذى لا يميل أغلبية المؤرخين إلى التأكيد على جدية نتائجه، اللهم إلا قلة ذات توجه إسلامى. وربط كذلك بين مفهوم الرأسمالية ومؤسسة الأهرام، وكيف كان العلماء يهتمون برأس المال.

ولعل أهم ما فى هذه المقابلة، هو ما يوضحه هذا المؤرخ من أن التفاوت فى التنمية بين الصعيد والوجه البحرى؛ قد حدث منذ بداية عصر محمد على، تفاوت فى صالح الوجه البحرى، حيث أنشئت مصانع النسيج ومشروعات الرى. وقد أصبح هذا التفاوت واضحاً فى عهد إسماعيل.

وعندما وُجِّه بسؤال عما إذا كان قد أعطى "رؤية أمريكية" للحملة، كان رده منطقيا، أن الأمريكيين ليس لهم رؤية فى هذا الموضوع، فهم يستلهمون معلوماتهم عن الشرق الأوسط من المحفوظات الإنجليزية والفرنسية. ورغم هذا الرد الذى تختتم به المقابلة، وإمكانية تصديقه فى ذلك، إلا أن ما يتحدث عنه من وجود نهضة فكرية وعلمية فى مصر فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر ما زال يشكل قضية خلافية حتى اليوم.

وعن تاريخ إمارة جرجا من خلال مراسلات مراد بك مع كليبر، نجد دراسة تاريخية يقدمها محرر هذا الكتاب (د. ناصر أحمد إبراهيم) حول العلاقة بين الأمير

المملوكى والقائد الفرنسى كليبر، ويلتقط هذا المؤرخ لحظة تاريخية تتمثل فى توقيع اتفاقية بين هذين الرجلين فى 5 أبريل 1800. ويركز المقال على تحليل محتوى المراسلات بين الجانبين المملوكى والفرنسى، ويمثل هذا العمل بنية كتاب يتم تأليفه ولعله سوف يرى النور قريباً. وقد اعتمد الباحث على أرشيف المراسلات الموجود فى المكتبة المركزية بجامعة القاهرة، وقد بلغ عدد الخطابات المتبادلة بين مراد والفرنسيين 74 خطاباً، وبالإضافة للحديث عن شكل هذه الخطابات، فإن المقال يوضح أن هذه الرسائل كانت على شكل عرائض، تنظم ما كان بينهما من مصالح مشتركة خلال الفترة التى استقرت فيها علاقاتهما.

وتكشف هذه المراسلات – حسبما يرى ناصر أحمد إبراهيم – عن جانبين فى كيفية إدارة مراد بك لإمارة جرجا الأول يخص الكشوفات والمقاطعات، والثانى يتعلق بالإجراءات التى اتخذت لإحكام السيطرة على هذه الإمارة. وثمة بعض من هذه المراسلات المصورة قد أُدرِجَت فى المقال. وينتهى المقال إلى أنه من الضرورى إعادة النظر فى تقييم دور شخصية مهمة مثل الأمير مراد بك، من خلال البحث عن الوثائق المتعلقة بهذا الزعيم المملوكى وإخضاعها للدراسة بعيدا عما شاع فى الأدبيات المعاصرة، وخاصة الجبرتى الذى لأسباب خاصة أعطى صورة قاتمة فى ترجمة لمراد بك.

أما رمضان الخولى فنراه يخصص بحثه عن "بعض الجوانب الاجتماعية من خلال قانون الأسرة فى زمن الحملة الفرنسية"، وصدّره بالخط العريض "على الحلوة والمرة". ويعرض المقال لتاريخية الأحوال الشخصية فى هذه الفترة، مستنداً إلى وثائق فى محفوظات المحكمة الشرعية وكذلك اعتماداً على أرشيف الديوان الذى أنشأه مينو – القائد الثالث للحملة – وخاصة المداولات الشفهية التى دارت فى الديوان، ويرجع كاتب المقال أيضاً إلى سجلات الكنائس مما يوضح شيئاً مهماً وهو زواج بعض الفرنسيين بمصريات مسيحيات كما هو الحال فى "سجلات الفرنسيسكان" فى القاهرة، وأظهرت هذه السجلات الموجودة فى مكتبة دير الآباء الفرنسيسكان أن

نسبة الزواج المختلط زادت 20 مرة على ما كان قبل الحملة وما بعد رحيلها، أما الزواج بين فرنسيين ومصريات مسلمات، فلم يعثر إلا على حالة واحدة مشهورة وهى زواج عبدالله جاك مينو من زبيدة بنت السيد محمد البواب.

ويقدم البحث صورة من عقد الزواج بين الفتاة الرشيدية والقائد الثالث للحملة، كما يرصد أن للوجود الفرنسى فى مصر أثرا سلبيا على الأحوال الشخصية؛ إذ نجد انخفاضاً واضحاً فى الزواج، وقد يكون هذا راجعاً إلى عدم تسجيل حالات الزواج أمام المحاكم الشرعية، كما زاد عدد طلبات الخلع من قبل النساء؛ بسبب غياب الأزواج.

وتنتقل بنا الموضوعات إلى ثلاثة وجوه نسمع عنها عند حديثنا عن الحملة الفرنسية، وقد خصصت دراسة لكل منها: الشخصية الأولى هى "الشيخ المهدى" والثانية هى "شريف مكة" والثالثة "للمعلم يعقوب". ويحدثنا مصطفى الأحنف عن الشيخ المهدى (1737-1815) كأحد العلماء والوسطاء ورجال الأعمال، فى مقال يقدم سيرة لهذا الشيخ التاجر - إذا صح تعبيرى- وقد اعتمد كاتب المقال على مصدرين الأول للمستشرق جان جيروم مارسيل الذى كان مرافقا للحملة، والجبرتى يمثل المصدر الثانى.

وكما هى الحال فى كتابة السيرة يبدأ مصطفى الأحنف بمولد الشيخ محمد المهدى، موضحاً بأنه ولد مسيحياً وكان اسمه "هبة الله" فى سنة 1737، ثم اعتنق الإسلام لكى يدرس فى الأزهر، وأخذ اسم "محمد وكُنِّى بالمهدى" إذ وُلدَ هذا الرجل فى أسرة مسيحية فى قرية ناهيا بالجيزة. ورغم أن الأمر يتعلق بسيرة حياة أحد مشايخ الأزهر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر إلا أننا نجد استدعاء لتاريخ على بك الكبير وخيانة محمد بك أبو الدهب له، وصحيح أن حياة الشيخ المهدى مرتبطة بظروف عصرى، إلا أننا نجد أنفسنا فى إطناب كان يمكن لكاتب هذا المقال أن يتفاداه، بيد أن هذا لا يمنع أن القارئ يجد نفسه أمام ثراء المعلومات التاريخية حول هذا الأزهرى الذى أثرى كثيراً بسبب

الطاعون الذى أصاب البلاد فى سنة 1791؛ حيث مكنه هذا من وضع يده على كثير من الأطيان، ومن إدارة الوقف الذى كان أحد أسباب الثراء. ولعل هذا الثراء، هو الذى دفعه لمداهنة الفرنسيين، وبعد رحيلهم استطاع أن يكسب إلى جانبه السلطة الجديدة.

إن هذه الانسجامية بين الشيخ المهدى وكل السلطات، تستحق عملاً منفرداً آخر، لما يحمل ذلك من رمزية، أعنى تحديداً رمزية علاقة المؤسسة الدينية بكل سلطة قائمة، وخاصة إذا كان القائمون على أمرها فى رغد من عيش كما هو الحال بالنسبة لمحمد المهدى، عملاً يوضح جانباً من علاقة الدين بالحكومات القائمة، وإن كان هذا ليس بعمل المؤرخ، بل هو عمل مؤرخ الفكر، لأن حالة هذا الأزهرى ليس بالفردية فى تاريخ العلاقة بين المؤسسة الروحية والسلطة الزمنية عبر تاريخ الإنسانية.

ويرسم لنا حسام محمد عبد المعطى صورة الشخصية الثانية وهى "للشريف غالب"، شريف الحجاز، موضحاً التداعيات التى سببها احتلال مصر من قبل الفرنسيين على دخل الحجازيين بسبب تأثر قوافل الحجيج القادمة عبر مصر ومنها، وكذلك حاجة "الشريف غالب" لتدعيم القلاع على البحر الأحمر هى التى أجبرته على توقيع اتفاقية مع آل سعود فى 2 أكتوبر 1798، وتظهر الدراسة أن ثمة اتصالات حدثت بين بونابرت وشريف مكة، نظراً لاعتقاد القائد الفرنسى الراسخ بأن الدين يمثل العقبة الرئيسة فى طريق سيطرته على مصر، وهذا ليس بالأمر الجديد فقد تطرق إليه الكثير من الباحثين وخاصة كتاب: "بونابرت والإسلام" الذى لا نجده فى قائمة مراجع المقال.

ونعلم أن "الشريف غالب"، كان هو الزعيم الإسلامى الوحيد الذى أجاب، بل تجاوب مع مراسلات بونابرت، بل حرص الأمير الحجازى أن يكسب مودة قائد الحملة. ولعل السبب فى ذلك هو اعتماد الحجاز اقتصادياً على مصر، وينقلنا المقال إلى دور الحجاز فى المقاومة ضد الفرنسيين فى مصر، فنجد أن أمير الحرمين لم

يؤد أى دور فى هذا، بل كان المغربى أو المراكشى فى الحجاز، أما شريف مكة فلم يفعل شيئا سوى محاولة التقرب من المحتل لمصر.

ويعيدنا هذا التساؤل الذى أوردناه للتو عند مناقشة المقال المخصص للشيخ المهدى حول علاقة المؤسسة الدينية بالسلطة القائمة، وهذا يحتاج إلى دراسة مستقلة قد يتولاها أحد مؤرخى الفكر لاحقاً لاستكمال الرؤية التاريخية لهذه الحملة من زاوية فكرية، من أجل السؤال: هل المؤسسة الروحية هى دائما فى صف الأقوى أو بالأحرى فى خط السلطة؟

ونأتى إلى الشخصية الثالثة التى أثارت جدلاً لم ينته بعد إذ بينما يراها البعض خائنة لوطنها، يراها آخرون أنها تمثل نموذجاً للوطنية التى أرادت تحرير مصر من السيطرة الأجنبية العثمانية عليها: إنها شخصية "المعلم يعقوب" وتقدم الدراسة مؤرخ مخضرم يمثل المدرسة التاريخية المصرية فى النصف الأول من القرن العشرين، وهو "شفيق غربال" فى ترجمة فرنسية ممتازة لإيمان فرج.

ومن خلال عمل هذا المؤرخ المحترف، نرى وصفاً تاريخيا لشخصية المعلم يعقوب (1745–1801)، أشبه بالوصف المحايد، ومعالجته تخلو من أية أفكار أيديولوجية، وهو ما يكسب هذه الدراسة أهميتها؛ لأنها تعالج بعمق الجو التاريخى السائد بين الفرنسيين والمصريين، خاصة الأقباط منهم من خلال دراسة للفرقة القبطية التى أسسها المعلم يعقوب ووظفها كليبر لصالحه بعدما رفض بونابرت إقحام الأقباط فى الصراع حتى لا يفهم على أنه صراع دينى بين مسلمين ونصارى.

كما نرى هذه الاحترافية التاريخية فى القراءة التاريخية التى يقدمها "شفيق غربال" لما أسماه مشروع استقلال مصر، وعلاقة الجنرال يعقوب بالفارس لاسكاريس الذى ينتهى به المطاف لأن يصبح هذا المالطى مدرساً للغة الفرنسية لإسماعيل حفيد محمد على. ولذا فالدراسة – وإن كان عنوانها المعلم يعقوب – إلا أنها سارت فى خطين متوازيين يعالجان سيرة حياة رجلين من رجال البحر المتوسط، يجمع بينهما الطموح، ويرون فى الحملة طريق الصعود إلا أن فشل الحملة أجهض طموحهما.

ونختتم قراءتنا النقدية بالمقال الثانى المكتوب بالفرنسية، بعد مقال ليلى عنان، إذ إن هذا الملف مكتوب بالعربية ثم ترجم، وهذا مما يحسب لهذه الدورية وحسب للسيدج أنه ترك المصريين يعبرون عن انطباعاتهم ورؤيتهم عن الحملة. وثمة مقال كتبه أحد المؤرخين التوانسة وهو "جمال بن طاهر" الذى يعرض لنا علاقة ولاية تونس وموقف واليها من الحملة الفرنسية، ونرى جانباً شبه غائب فى المعالجة التاريخية المصرية للحملة، ألا وهو موقف هذه الولاية التابعة للدولة العثمانية من استيلاء الفرنسيين على جزيرة مالطا، وهم فى طريقهم إلى مصر. ويوضح لنا المقال كيف استطاع الفرنسيون كسب ودّ الولاة العثمانيين فى الإمارات الثلاث التابعة لهم فى المغرب العربى، مما أدى إلى عدم الاستجابة لدعوة السلطان العثمانى لهم بالتحرك ضد استيلاء الفرنسيين على مصر. والمقال يسد فجوة مهمة فى موقف المغرب العربى تجاه الحملة الفرنسية على مصر.

وأخيراً يذكر لكتاب السديج هذا الذى أخرجه على شكل دورية أنه ترك المصريين يتكلمون عن الحملة سواء باللغة الفرنسية أو باللغة العربية مع ترجمة دقيقة وممتازة، والتى تم نشرها تحت عنوان:

L’Expédition de Bonaparte vue d’Égypte, en: Egypte et Monde Arabe, No 1, CEDEJ Edition complexe, Le Caire- Paris 1998.

* * *

Je voudrais aussi mentionner ici le soutien de l'Association égyptienne des études historiques et de son président, le Professeur Raouf Abbas dont l'appui illimité a été le vecteur principal du projet. Les précieux conseils qu'il m'a prodigués ainsi que ses encouragements constants ont été d'un apport inestimable. Je voudrais également adresser en son nom mes profonds remerciements à l'Association égyptienne d'études historiques pour le soutien financier qu'elle a apporté, sans lequel cet ouvrage n'aurait vu le jour.

J'adresse aussi mes plus vifs remerciements au Professeur Laïla Enan pour sa grande implication dans ce projet pour lequel elle a contribué avec plus d'une communication. Qu'elle soit aussi remerciée pour son enthousiasme qu'elle a réussi à communiquer à ses étudiantes, spécialistes comme elle dans l'étude de l'expédition française en Egypte, en les incitant à participer à cet ouvrage.

Que le Professeur Essam El Dessouki trouve également ici le témoignage de ma gratitude pour toutes ses suggestions et remarques constructives concernant l'organisation des différentes parties de l'ouvrage et son édition. Qu'il en soit vivement remercié.

Finalement j'aimerais adresser mes plus vifs remerciements à Madame Hanaa Farid pour ses précieuses remarques lors des discussions que nous avons pu avoir au cours de l'avancement du projet. Je la remercie également pour avoir accompli la traduction en langue française du texte de l'introduction.

D. Nasser Ahmed Ibrahim
Le Caire, le 5 mai 2006

* * *

Il ne faudrait pas, cependant ici, faire l'impasse sur l'importance de l'événement dans l'histoire égyptienne, importance que les contributions ont tenu à souligner pour montrer l'impact, même indirect, que l'expédition a eu sur la prise de conscience égyptienne du retard civilisationnel de leur pays et de la nécessité de réduire les écarts qui existent entre l'Orient et l'Occident. Ce point de vue est soutenu par certains articles dans l'ouvrage qui, s'ils ne s'accordent pas avec toutes les conclusions précédemment exposées, insistent sur les effets positifs du « choc culturel et civilisationnel » provoqué par l'expédition française en Egypte, effets qui se sont fait sentir au cours du projet de modernisation au début du 19^{e} siècle.

La multiplication des points de vue et leur croisement dans les différentes contributions de cet ouvrage font ressortir la spécificité de la vision égyptienne qui, après 200 ans, n'est pas nécessairement uniforme dans le traitement, l'interprétation et l'évaluation de l'événement. Ceci permet d'affirmer qu'aucune prise de position idéologique n'est à la base de l'ouvrage que nous présentons aujourd'hui. Nous voudrions, au contraire, insister que cet ouvrage tente avant tout de répondre, à travers une nouvelle vision, aux nombreux questionnements que les auteurs ont tenu à soulever ; certains pans de l'événement restent certainement encore dans l'ombre faute d'informations suffisantes, ce qui nous amène à penser que les perspectives de recherche et d'étude restent toujours ouvertes devant les chercheurs.

Finalement, je voudrais dire que cet ouvrage n'aurait pu se réaliser sans l'enthousiasme de toutes celles et de tous ceux à qui j'ai proposé d'y participer. Je saisis ici l'occasion pour leur présenter mes plus vifs remerciements et ma profonde reconnaissance d'avoir si rapidement répondu à mon appel de participation. Je leur demanderai également de ne pas me tenir rigueur pour les avoir parfois pressés pour la remise de leur communication sachant combien leurs occupations et leurs engagements sont nombreux.

Arrivé au terme de l'ouvrage, le lecteur aura devant les yeux un tableau complet qui n'aura épargné aucun détail de l'événement et dont les éléments qui le composent auront été soumis aux méthodes d'analyse et à l'esprit critique que toutes les contributions de cet ouvrage ont tenu à adopter. Le but étant de présenter sur le plan méthodologique une œuvre cohérente, et sur le plan thématique une œuvre intégrale dans la mesure où certains sujets sont traités pour la première fois.

Les analyses menées et les conclusions auxquelles les auteurs des différentes contributions de cet ouvrage avancent, font ressortir unanimement leur refus d'interpréter l'événement de l'expédition française en Egypte sur la base de la thèse du « colonialisme positif » et expriment leur déni de l'événement en tant que « projet civilisationnel ». Certaines communications vont même jusqu'à reprendre et ébranler, preuves à l'appui, les thèses qui affirment une vacuité culturelle et scientifique en Egypte avant l'arrivée de l'expédition française, thèses qui prétendent que la présence française a créé un terrain d'entente et de compréhension entre les deux parties égyptienne et française. Tout contribue à penser le contraire à commencer par la brièveté de l'espace temporel occupé par l'événement, la résistance et les soulèvements populaires auxquels l'occupant a dû face, en passant par l'attitude de mépris et les comportements de dénigrement des membres de l'armée française face aux moeurs et coutumes de la société égyptienne. Ceci pour ne pas mentionner d'autres obstacles tels que la langue et les différences culturelles qui n'ont pu engendrer un terrain d'entente qui permette le dialogue et la communication entre les deux partie et qui mettent alors en doute le degré de la réceptivité égyptienne à l'entreprise civilisationnelle de l'expédition française qui prévaut dans le discours français. Les contributions de cet ouvrage refusent de prendre pour acquis ce discours qui met l'accent sur l'impact qu'a eu l'expédition sur l'expérience de réforme et de modernisation menée en Egypte au début du 19^{e} siècle.

La problématique des sources documentaires et de leur analyse critique occupe une place importante dans l'ouvrage que nous présentons. La *Description de l'Egypte* n'échappe pas à cette analyse qui tente de mettre à jour les conditions de production et de publication d'une telle œuvre pour montrer le rôle qu'elle a eu dans la constitution de l'image de l'Autre (la société égyptienne). C'est ainsi qu'aujourd'hui, la *Description de l'Egypte* est parfois perçue comme une œuvre qui a contribué à l'endoctrinement idéologique dont l'objectif était plus politique que scientifique. Parmi les sources documentaires qui ont fait l'objet d'analyse critique, relevons les mémoires de Vivant Denon, qui accompagnait le Général Desaix dans ses campagnes en Haute-Egypte en 1798 et 1799. Ces mémoires présentent un intérêt particulier en ce qu'elles comportent des points de vue opposés, entre la volonté de Vivant Denon de rendre compte de l'importance de l'expédition en Egypte et entre la fidélité avec laquelle il a rapporté les scènes de violence perpétrées par l'armée française dans les villages égyptiens qui n'ont pas été épargnés du pillage, des massacres et de la destruction. Les mémoires de Vivant Denon constituent ainsi une sorte d'auto critique et reflètent l'image que les Français avaient d'eux-mêmes, image qu'ils n'approuvaient pas toujours.

L'analyse critique des sources documentaires a porté également sur les illustrations de la *Description de l'Egypte* et particulièrement celles de Vivant Denon. Les peintures, dessins et croquis de cette œuvre monumentale ont fait l'objet d'une analyse sémiotique pour essayer d'expliquer et d'interpréter l'importance de l'image et de la reproduction de la réalité dans le projet scientifique de l'expédition. Enfin les dernières thématiques que l'ouvrage présente sont consacrées à l'impact de l'occupation française sur la société égyptienne, aux incidences historiques et psychologiques qu'elle a provoquées, et à la relation de cause à effet qui existerait entre l'expédition et le projet de modernisation de Mohamed Aly.

second propose la vision interprétative de l'événement d'où deux niveaux dans la présentation de l'événement et de sa critique, l'un est une démonstration de la manière dont les événements se sont déroulés et l'autre se penche plus sur les différentes méthodologies utilisées au cours du siècle dernier dans le traitement de l'événement et de son évolution.

Mais nous ne voulons pas anticiper la lecture de l'ouvrage, par contre nous aimerions attirer l'attention sur le soin tout particulier que nous avons pris pour présenter un ouvrage dont les axes et les différents sujets présentés sont complémentaires. L'organisation des axes sur la base de la complémentarité a permis, en effet, de présenter des thématiques différenciées de l'événement : la résistance sous toutes ses formes et les moyens qu'elle s'est donnée en tant que résistance généralisée et oeuvrant en plein jour, et en tant que résistance clandestine réussissant à priver l'envahisseur de ses besoins vitaux, resserrant ainsi l'étau autour de lui de manière à l'obliger à se retirer.

Une autre thématique présente l'endoctrinement idéologique qui a prévalu pendant et après l'expédition française en Egypte et qui s'est exprimé à travers l'art de créer le mythe et l'art d'utiliser l'intoxication politique pour dénaturer les événements politiques et la réalité. C'est ainsi que l'on arrive aux problématiques de la langue utilisée et de sa traduction qui ont fait obstacle à la communication entre l'armée d'occupation et la société dominée mais qui ont constitué les armes du projet civilisationnel mené par les tous les membres de l'expédition française.

En tant qu'événement historique, l'expédition française en Egypte occupe une place dans les manuels scolaires d'histoire en France et en Egypte. L'analyse du discours didactique dans ces manuels constitue une des thématiques traitée également dans cet ouvrage, analyse qui met en lumière les différences et les écarts tant sur le plan scientifique que sur le plan pédagogique entre le discours français et le discours égyptien dans les manuels d'histoire.

même récemment. L'objectif est de proposer au lecteur une nouvelle lecture reposant sur de nouvelles théories et méthodes d'analyse pour expliquer l'événement de l'expédition française en Egypte et montrer sa place dans une époque qui a été traversée par les grands bouleversements que nous connaissons.

Nous sommes convaincus que « la vision égyptienne » présentée ici se démarque de tout ce qui a été publié jusque là par la richesse et la variété des analyses proposées qui s'appuient essentiellement sur les sources et les documents d'archives. Ceci, cependant, ne constitue pas l'unique raison de l'originalité de l'ouvrage. En effet les différentes disciplines auxquelles appartiennent les auteurs de l'ouvrage lui confèrent la richesse des points de vues sur l'événement qui est alors traité selon le point de vue d'un historien, un linguiste, un sociologue ou un littéraire, d'où aussi la variété des analyses et des outils méthodologiques et épistémologiques utilisés. C'est ainsi que le lecteur pourra trouver dans cet ouvrage plusieurs axes d'études qui proposent des problématiques, parfois même jamais soulevées jusque là, qui s'appuient sur de nouvelles méthodologies dans le traitement des sources documentaires et qui présentent de nouveaux sujets.

Cet ouvrage a été aussi l'occasion de la réunion de différentes générations de chercheurs. Cette réunion a permis, d'une part, de rendre compte de la longue expérience d'une génération d'historiens qui appartiennent à l'école classique de l'histoire, et d'autre part elle a donné l'opportunité aux jeunes chercheurs de faire montre de leur maîtrise des nouvelles méthodes d'analyse dans le traitement des événements historiques. Il faudrait reconnaître ici que c'est grâce à l'Association égyptienne des études historiques que les jeunes générations d'historiens ont réussi à se former à la recherche scientifique à travers la série des séminaires organisés chaque mois et ce depuis de nombreuses années.

Deux axes principaux forment cet ouvrage, le premier traite de l'expédition française en Egypte en tant qu'événement historique, le

de référence qui rassemblerait et présenterait dans un seul volume une nouvelle vision égyptienne sur un événement qui n'a eu cesse de susciter les questionnements même après son avènement de deux siècles.

Nous voudrions préciser ici que le titre de cet ouvrage «L'expédition française en Egypte. Une vision égyptienne » ne signifie pas, comme pourraient l'interpréter certains, une vision qui prendrait la contrepartie de la "vision française". Les articles de cet ouvrage, au contraire, tentent de présenter un point de vue scientifique, éloigné de toute controverse idéologique ou de toute prise de position subjective ou nationaliste. En effet les problématiques soulevées, les méthodes d'analyse utilisées par les auteurs sont diversifiées, elles donnent lieu à des conclusions et des opinions qui parfois même se contredisent. Cet ouvrage constitue donc une tentative de relecture de l'événement de la part des spécialistes égyptiens et une volonté pour comprendre les circonstances qui l'ont provoqué et qui l'ont entouré. Dans un même temps, cet ouvrage comporte aussi ce souci de revisiter les différentes opinions qui se sont exprimées autour de cet événement et qui se sont imposées au fil du temps comme les seules crédibles au point de faire partie intégrante de l'événement lorsque celui-ci est mentionné. Cet ouvrage se veut également critique vis-à-vis des méthodologies employées jusque là à travers l'analyse critique de l'écriture de cet événement, des méthodes et des outils épistémologiques utilisés dans le traitement des différentes problématiques posées et des résultats obtenus qui parfois s'accordent et d'autres fois sont en contradiction.

Comme nous l'avons dit, de multiples recherches ont été consacrées à l'étude de l'expédition française en Egypte, cependant certains aspects ont été occultés ou ignorés. L'ouvrage que nous présentons essaye de mettre en lumière ces aspects et porte en même temps, de la part des académiciens égyptiens, un regard critique sur tout ce qui a été publié jusque là, y compris sur les recherches et les interventions présentées au cours de séminaires ou colloques consacrés à l'événement et organisés

la civilisation dans la société égyptienne, la sauvant ainsi de l'isolement. Cette dualité empreinte d'une vision contradictoire qui caractérise le discours égyptien de l'histoire, dénature d'une certaine manière le traitement de l'événement et dérobe à l'étude des pans importants de ces trois années qui constituent la durée de l'expédition française en Egypte.

Il était par conséquent important de tenter une nouvelle lecture de l'événement affranchie de toute tendance nationaliste dans l'écriture de l'histoire dont la priorité est de mettre en avant les idées, de négliger les faits et d'occulter les conséquences et les changements résultant de ces faits. L'ouvrage que nous présentons aujourd'hui se veut une relecture plus objective de l'événement qui prendrait en compte les différents contextes dans lesquels il a évolué et tels qu'ils sont présentés dans les documents d'archives égyptiens et français. C'est une relecture qui se voudrait donc libérée de toute contrainte de quelle que nature que ce soit, politique ou idéologique.

Notons également le regain académique de ces dernières années de la part des universitaires égyptiens qui ont orienté leurs recherches et celles de leurs étudiants sur maints aspects de cet événement étudiés d'un point de vue linguistique, littéraire, psychologique et civilisationnel. Ces études indiquent de la part de leurs auteurs une préoccupation concernée face à cet événement historique, à son interprétation et à sa place dans le contexte de l'époque et qui peut s'expliquer par la polémique soulevée par les médias en 1998 autour de la célébration ou la non célébration du bicentenaire de l'expédition française en Egypte. Nous pensons que cette polémique a eu l'avantage de relancer la question autour de l'historicité de cet événement à travers un nombre important de thèses doctorales présentées par les départements d'histoire et de civilisation, de langue et de littérature françaises qui abordaient de nouvelles problématiques et s'appuyaient sur l'analyse des documents d'archives. La richesse de ces études et les nouvelles perspectives qu'elles ouvrent dans l'étude de l'événement, nous ont poussés à entreprendre la publication d'un ouvrage

soient-ils militaires ou civils. L'examen de ces sources historiques et l'utilisation de nouveaux outils méthodologiques et épistémologiques selon une approche heuristique permettront sans aucun doute de poser de nouvelles problématiques et contribueront certainement à mettre en lumière bien d'autres aspects de l'expédition française en Egypte, même si elles viendraient à bouleverser ou contredire les résultats et les conclusions des études antérieures.

Les écrits sur l'expédition française en Egypte sont nombreux et ont donné lieu à une production importante en histoire, particulièrement de la part de « l'occupant » qui a forgé un discours idéologique, avançant de son point de vue les justifications nécessaires pour défendre ses intérêts même si elles sont parfois en contradiction avec la réalité historique. Comparé avec la production égyptienne, le discours français reste dominant même si ses interprétations montrent des tendances divergentes quant au traitement de l'événement.

La prédominance du discours français sur l'expédition française en Egypte s'explique par le fait que, malgré la prise de conscience égyptienne de l'importance de l'événement et des problématiques qui découlent de son interprétation, le discours égyptien ne repose pas sur une étude raisonnée des archives françaises et égyptiennes et des nombreuses parutions depuis le 19^{e} siècle. Il nous faut reconnaître ici que les études égyptiennes se sont construites d'un côté en se basant sur les sources limitées qu'offraient les structures de recherche sur place, de l'autre côté en acceptant d'emblée les interprétations et les conclusions de l'école française qui concordaient avec les tendances politiques égyptiennes de certaines périodes. Cette prise de position de l'école d'histoire égyptienne a contribué à créer une situation ambiguë autour de cet événement qui, d'une part, est présenté comme « une expédition d'occupation militaire » qui allait à l'encontre des intérêts égyptiens et du projet de développement en cours en Egypte, et d'autre part, comme « une expédition scientifique » qui a permis d'introduire la modernité et

Introduction

Entre 1798 et 1801, l'Egypte tombe sous l'occupation française. Cet événement historique, malgré sa brièveté, constitue un événement majeur dans l'histoire de l'Egypte moderne. En effet, l'importance d'un événement historique ne se mesure pas par l'espace temporel qu'il a occupé, mais réside plutôt dans les transformations structurelles et les changements sociaux et politiques qu'il peut engendrer et qui sont susceptibles de confronter la société à de nouveaux enjeux et à des conséquences parfois même inattendues mais dont l'impact sur l'évolution de la société est tangible. L'expédition française en Egypte appartient à cette catégorie d'événements, d'autant plus qu'elle intervient à un moment charnière, précédant immédiatement l'expérience de modernisation entreprise à l'époque de Mohamed Aly. Ainsi, d'emblée certains historiens estiment, parfois hâtivement, qu'une relation directe de cause à effet existe entre les deux moments.

Au cours des deux siècles qui se sont écoulés depuis l'expédition française en Egypte, nombre de problématiques ont été soulevées sans que les recherches et les études entreprises n'aient réussi à épuiser le sujet qui continue, encore aujourd'hui, à être soumis à l'étude d'autant plus que le fonds des archives de l'expédition française est excessivement riche et recèle d'informations précieuses dont d'autres fonds portant sur d'autres événements, ne bénéficient pas. S'ajoutent à ce fonds d'archives plus de 363 témoignages des participants à l'expédition,

Société Égyptienne D'Études Historique

Deux cent après Expédition d'Égypte, Vision Égyptienne

Édité par

Dr. Nasser Ahmed Ibrahim

Sous la direction

Dr. Raouf Abbas

Maktabet AL-Dar AL-Arabia Lel-Ketab

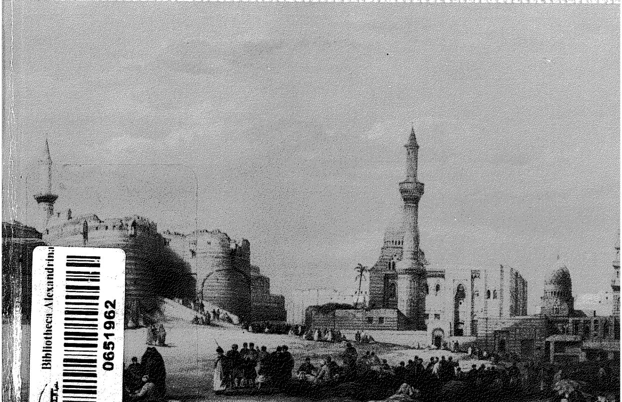
Deux cent après
Expédition d'Égypte,
Vision Égyptienne

Sociéte Égyptienne D'Études Historique

Deux cent après
Expédition d'Égypte,
Vision Égyptienne

Edité par
Dr.nasser Ahmed Ibrahim

Sous la direction
Dr.Raouf Abbas



Design M.T

Maktabet AL-Dar AL-Arabia Lel-Ketab

6 222006 312190